منهاج الكرامة

في

شرح كتاب الاستقامة

من تقريرات سماحة الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله

(١٣٣٠ - ١٤٢٠هـ)

على كتاب الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

(٦٦١ - ٧٢٨هـ)

[illegible]

أبو سفيان [illegible] بن محمد [illegible] بن حسين [illegible]

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل العقيل

التاريخ ١٠/٣٠ / ١٤٣٠هـ

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإن كتاب الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب عظيم القدر غزير الفوائد، قرر فيه قواعد عظيمة من قواعد الإسلام، ورد فيه على أهل الباطل من المخالفين من صوفية وغيرهم، وقد علق عليه سماحة شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله بتعليقات ممتازة، سهلت عبارات شيخ الإسلام وأوضحت ما قد يقع فيها من إشكال، وقررت معتقد أهل السنة في باب التوحيد والاتباع، ومخالفات الصوفية وما أدخلوه من بدع لم تكن في المتقدمين، وكذلك مسائل فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسماع والسكر، وأحكام الإكراه، وفقه الجهاد في سبيل الله، بما يزيد على ثلاثمائة تعليق، وبين موقف شيخ الإسلام من خصومه الصوفية وغيرهم حيث أنصفهم، فرر ما معهم من الحق وزيف ما معهم من الباطل، فجزاه الله أفضل الجزاء ونفع بعلومه. وكتبه الفقير إلى الله: **عبد الله بن عبد العزيز ابن عقيل** رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقا، حامدا لله، مصلياً مسلما على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الرياض . ص . ب ٩٤٦٩١ . الرمز البريدي ١١٦١٤ . المملكة العربية السعودية . هاتف ٤٨٢٣١٠٣ . فاكس ٤٨٢٧٠١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أنزل الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين، وأمر عباده بالاستقامة فأرسل المرسلين، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء)، فجاءوا مبشرين ومنذرين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على عبد الله ورسوله محمد إمام المرسلين وخاتم النبيين، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى زوجاته أمهات المؤمنين وعلى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وعلى التابعين أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة.

وشروعاً في المقصود وتجنبا للإطالة فخير الكلام ما قل ودل ولم يطل فيمل، فهذا كتاب الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو كتاب عظيم بيّن فيه أمورا عظيمة في دين الله ورد فيه على أهل الباطل باطلهم، وأنصفهم فيما معهم من الحق، امتثالا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٨) وظهر فيه الشيخ رحمه الله قويا كعادته في حججه، يزيف الباطل ويحق الحق ويحرص على تقويم المعوج إلى صراط الله ومنهجه، يشفق على المخالف ويرجو له الخير بحسن عبارة ولطف تنبيه، ولا يداهن في دين الله ولا يجامل في الوقت نفسه.

ولما كان للكتاب أهميته فقد اعتنى بالتعليق عليه وتوضيح غامضه سماحة الشيخ الإمام العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله، فزاد الكتاب

جمالا بحسن عبارته وسهولتها، وتوضيح المشكل من عبارات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغامضها حيث كان يخاطب المخالفين أحيانا بمصطلحاتهم التي قد تخفى على البعض، وقرر الشيخ ابن باز قواعد أهل السنة والجماعة في باب توحيد الله واتباع رسوله ﷺ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدع المخالفين من الصوفية وغيرهم، وغير ذلك من مسائل السماع وما يتعلق به والسكر وأحكامه والإكراه ومسائله والجهاد في سبيل الله وتفصيلاته، فأوضح تلك المسائل الشريفة، بالدلائل اللطيفة والأخبار المنيفة، بما يزيد على ثلاثمائة تعليق، فجاء الكتاب نافعا عظيما بتوفيق من الله تعالى، وقد بدء بقراءة الكتاب على سماحة الشيخ رحمه الله في ١٤/ رجب/ ١٤٠٥هـ، وانتهى من قراءته في ١٦/ شعبان/ ١٤٠٩هـ.

وقد قمت بنقل المادة الصوتية إلى مادة مقروءة، وعزوت الأحاديث والآثار إلى مصادرها يصحبها أحيانا ذكر حكم الحديث من كلام أهل الحديث المعتبرين، وقد بلغت مع المكرر بما يصل إلى خمس وتسعين وخمسمائة (٥٩٥) ما بين حديث وأثر، ووضعت ترجمة لشيخي الإسلام ابن تيمية وابن باز رحمهما الله وفهرسا للموضوعات، ونسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا الجهد اليسير، وأن يغفر لنا الزلل والتقصير، إنه جواد كريم، اللهم اجعل عملي كله صالحا ولوجهك خالصا ولا تجعل لأحد غيرك فيه شيئا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أملاه الفقير إلى عفو ربه
أبو سفيان
غزاي بن حمدان بن حسين الوهبي الأسلمي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
عنيزة ٢٩/ صفر/ ١٤٣٠هـ

ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية

هو شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي رحمه الله .

مولده ومنشئه:

ولد بحران في عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ إحدى وستين وستمائة ، وبقي بها إلى أن بلغ سبع سنين ثم انتقل به والده ـ رحمه الله ـ إلى دمشق المحروسة ـ بإذن الله ـ فنشأ بها أتم النشء وأزكاه ، وأنبته الله أحسن النبات وأوفاه ، وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة ودلائل العناية فيه واضحة .

لم يزل منذ إبان صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد ، وختم القرآن صغيرا ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع في ذلك مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار .

ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية ، أما دواوين الإسلام الكبار كمسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داود السجستاني والنسائي وابن ماجه والدار قطني فإنه سمع كل واحد منها مرات عدة ، وأول كتاب حفظه في الحديث : الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي ، وقلّ كتاب في فنون العلم إلا وقف عليه ، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان ، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء ـ غالبا ـ إلا ويبقى على خاطره إما بلفظه أو معناه ، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره ، فإنه لم يكن مستعارا ، بل كان له شعارا ودثارا ، لم يزل آباؤه أهل الدراية التامة والنقد والقدم الراسخة في الفضل ، لكن جمع الله له ما خرق بمثله

العادة، ووفقه في جميع عمره لأعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته من أكبر شهادة، حتى اتفق كل ذي عقل سليم أنه ممن عني نبينا ﷺ في قوله: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»(١) فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين، وجعله حجة على أهل عصره أجمعين، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

علمه:

أما غزارة علومه فمنها معرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره واستشهاده بدلائله وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه وفنون حكمه وغرائب نوادره وباهر فصاحته وظاهر ملاحته، فإنه فيه من الغاية التي ينتهي إليها والنهاية التي يعول عليها، ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات القرآن العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجملته والدرس برمته وهو في تفسير بعض آية منها، وكان غالبا لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لورد أشياء أخر في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظرا في مصالح الحاضرين، فلقد أملأ في تفسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مجلدا كبيرا، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ نحو خمسة وثلاثين كراسة، وشرع في تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلدا.

وأما معرفته وبصره بسنة رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله وقضاياه ووقائعه وغزواته وسراياه وبعوثه وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته ومعرفته

(١) رواه الحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٨٧٣٨).

بصحيح المنقول عنه وسقيمه ، والمنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم وأحوال مجاهدتهم في دين الله وما خُصّوا به من بين الأمة ؛ فإنه كان - رحمه الله - من أضبط الناس لذلك وأعرفهم فيه وأسرعهم استحضارا لما يريد منه ، فإنه قلّ أن ذكر حديثا في مصنف أو فتوى أو استشهد به أو استدل به إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو ، ومن أي قسم من الصحيح أو الحسن أو غيرهما ، وذكر اسم راويه من الصحابة ، وقلّ أن سئل عن أثر إلا وبيّن في الحال حاله وحال أثره وذكره .

ومنها ما منحه الله - تعالى - به من معرفة اختلاف العلماء ونصوصهم وكثرة أقوالهم واجتهادهم في المسائل وما روي عن كل منهم من راجح ومرجوح ومقبول ومردود في كل زمان ومكان ، ونَصره الصحيح الصائب للحق مما قالوه ونقلوه ، وعزوه ذلك إلى الأماكن التي بها أُودعوه ، حتى كان إذا سئل عن شيء من ذلك كان جميع المنقول عن الرسول ﷺ وأصحابه والعلماء فيه من الأولين والآخرين متصور مسطور بإزائه يقول منه ما شاء ويذر ما يشاء ، هذا قد اتفق عليه كل من رآه أو وقف على شيء من علمه ممن لا يغلظ عقله الجهل والهوى ، وكان عليه في درسه من المهابة ما يرعد القلوب ويحير الأبصار والعقول ، وكان لا يذكر رسول الله ﷺ قط إلا ويصلي ويسلم ، وكان من أشد الناس تعظيما لرسول الله ﷺ وأحرصهم على اتباعه ونصر ما جاء به منه ، حتى كان إذا أورد شيئا من حديثه في مسألة ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديثه يعمل به ويقضي ويفتي بمقتضاه ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائنا من كان .

وقال - رحمه الله - : «كل قائل إنما يحتج لقوله لا به إلا الله ورسوله» .

أما معرفته بصحيح المنقول وسقيمه فإنه في ذلك من الجبال التي لا يرتقى ذروتها ولا ينال سنامها فلا أن ذكر له قول إلا وقد أحاط علمه بمبتكره وذاكره وناقله وأثره ، أو رواية إلا وقد عرف حاله من جرح وتعديل ، بإجمال وتفصيل .

وقلّ أن كان يذكر له حديث أو حكم فيشاء أن يتكلم عليه يومه أجمع إلا فعل أو يقرأ بحضرته آية من كتاب الله ـ تعالى ـ ويشرع في تفسيرها إلا وقطع المجلس كله فيها .

وأما ما خصه الله ـ تعالى ـ به من معارضته أهل البدع في بدعتهم وأهل الأهواء في أهوائهم وما ألفه في ذلك من حصره أقوالهم وتزييف أمثالهم وأشكالهم وإظهار عوارهم وانتحالهم وتبديد شملهم وقطع أوصالهم وأجوبته عن شبههم الشيطانية ومعارضتهم النفسانية للشريعة المحمدية بما منحه الله ـ تعالى ـ به من البصائر الرحمانية والدلائل النقلية والتوضيحات العقلية حتى انكشف قناع الحق وبان بما جمعه في ذلك وألفه الكذب من الصدق ، حتى لو أن أصحابها أحياء ووفقوا لغيره الشقاء لأذعنوا له بالتصديق ودخلوا في الدين العتيق ، ولقد وجب على كل من وقف عليها وفهم ما لديها أن يحمد الله ـ تعالى ـ على حسن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام .

حتى إنه كان أبصر بمذاهب القوم من أنفسهم ، وكان يقول ـ لعظم ما آتاه الله من الفطنة والفهم ـ : « أنا ألتزم في كل دليل صحيح يأتي به صاحب باطل يستدل به على باطله أن أجعل دليله دليلا عليه » ـ أو نحوا من ذلك ـ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

عبادته

كان ـ رحمه الله ـ قد قطع جُلَّ وقته وزمانه فيها ، حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله ـ تعالى ـ وما يراد له لا من أهل ولا من مال ، فكان في ليله منفردا عن الناس كلهم خاليا بربه عز وجل ضارعا مواظبا على تلاوة القرآن العظيم مكررا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية .

وكان إذا رآه أرباب المعايش يتخبطون من حوانيتهم للسلام عليه وهو مع هذا يعطي كلا منهم نصيبيا وافرا من السلام وغيره ، وإن رأى منكرا في طريقه أزاله ، أو سمع بجنازة سارع إلى الصلاة عليها أو تأسف على فواتها ، وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث فصلى عليه ثم يرد إلى مسجده فلا يزال تارة في إفتاء الناس وتارة في قضاء حوائجهم .

وكان مجلسه عاما للصغير والكبير والجليل والحقير والحر والعبد والذكر والأنثى ، وقد وسَّع على كل من يَرِدُ عليه من الناس ، يرى كل منهم في نفسه أنه لم يكرم أحدا بقدره ، وهو في خلال ذلك كله في النهار والليل لا يزال يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره ، وكان كثيرا ما يرفع طرفه إلى السماء لا يكاد يفتر من ذلك كأنه يرى شيئا يثبته بنظره .

وكان من ورعه ـ رحمه الله ـ أنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا زراعة ولا عمارة ولا كان ناظرا مباشرا المال وقف ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ولا كان مدخرا دينارا ولا درهما ولا متاعا ولا طعاما وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد مماته ـ رحمه الله ـ العلم اقتداء بسيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ .

وكان لمبالغته في الزهد في الدنيا مع تصحيح النية لم يُسمع أنه رغب في زوجة حسناء ولا سرّية حوراء ولا دار قورا ولا مماليك ولا جوار، ولا بساتين ولا عقار، ولا شد على دينار ولا درهم، ولا رغب في دواب ونعم، ولا ثياب فاخرة ولا حشم، ولا زاحم في طلب الرئاسات، ولا رؤي ساعيا في تحصيل المباحات، مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره خاضعين لقوله وفعله وادّين أن يتقربوا إلى قلبه مهما أمكنهم مظهرين لإجلاله أو أن يؤهل كلا منهم في بذل ماله.

كان مع شدة تركه للدنيا ورفضه لها وفقره فيها وتقلله منها مؤثرا بما عساه يجده منها قليلا كان أو كثيرا، جليلا أو حقيرا، لا يحتقر القليل فيمنعه ذلك عن التصدق به، ولا الكثير فيصرفه النظر إليه عن الإسعاف به، قد كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئا نزع بعض ثيابه المحتاج إليها فيصل به الفقير، وكان يستفضل من قوته القليل الرغيف فيؤثر بذلك على نفسه، وربما خبأها في كمه ويمضي فيراه بعض من معه وقد دفعه إلى الفقير مستخفيا يحرص أن لا يراه أحد، وكان إذا ورد عليه فقير وآثر المقام عند الأكل يأكل بأكثر من قوته الذي جعل برسمه.

وحكى غير واحد ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار وتفقد المحتاجين والغرباء ورقيقي الحال من الفقهاء والقرّاء واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ومساعدته لهم ولكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ووجهه وجاهه.

وكان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغني الصالح والفقير، وكان يدني الفقير ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله

من الأغنياء حتى أنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبرا للقلبه وتقربا بذلك إلى ربه ، وكان لا يسأم من يستفتيه أو يسأله ، بل يقبل عليه ببشاشة وجه ولين معركه ، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيرا كان أو صغيرا ، رجلا أو امرأة حرا أو عبدا عالما أو عاميا حاضرا أو باديا ، ولا يُجبهه ولا يحرجه ولا ينفره بكلام يوحشه بل يجيبه ويفهمه ويعرّفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط .

وكان هذا حاله في التواضع والتنازل والإكرام لكل من يرد عليه أو يصحبه أو يلقاه ، حتى أن كل من لقيه يحكي عنه من المبالغة في التواضع نحوا مما حكيناه أو أكثر من ذلك ، فسبحان من وفقه وأعطاه ، وأجراه على خلال الخير وحباه .

شجاعته:

كان ـ رحمه الله ـ من أشجع الناس وأقواهم قلبا وأثبتهم جأشا وأعظمهم عناء في جهاد العدو ، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ولا يخاف في الله لومة لائم .

أخبر غير واحد أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان إذا حضر عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم جشهم على الثبات إن رأى من بعضهم هلعا أو رقة أو جبانة شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة وبيّن له فضل الجهاد والمجاهدين ، وكان إذا ركب الخيل يتحنك ويجول في العدو كأعظم الشجعان ويقوم كأثبت الفرسان ويكبر تكبيرا أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم ، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت .

وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أمورا من الشجاعة يعجز الواصف عن

وصفها، قالوا لقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره.

ولما ظهر السلطان (غازان) على دمشق المحروسة جاءه ملك (الكرج) وبذل له أموالاً جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى الشيخ فقام من فوره، وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة ووعدهم على قيامهم النصر والظفر والأمن وزوال الخوف، فانتدب منهم رجال من وجوههم وكبرائهم وذوي أحلامهم منهم فخرجوا معه إلى حضرة السلطان (غازان) فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ فقيل هم رؤساء دمشق فأذن لهم فحضروا بين يديه فتقدم الشيخ ـ رحمه الله ـ أولا فلما رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة حتى أدناه وأجلسه وأخذ الشيخ في الكلام معه أولا في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين، وضمن له أموالا وأخبره بحرمة دماء المسلمين وذكره ووعظه وأجابه إلى ذلك طائعا وحقنت بسببه دماء المسلمين وحميت ذراريهم وصين حريمهم.

وقال الشيخ كمال الدين بن المنجا رحمه الله: كنت حاضراً مع الشيخ حينئذ فجعل ـ يعني الشيخ ـ يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل ويرفع صوته على السلطان حتى جثا على ركبتيه وجعل يقرب منه في أثناء حديثه حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته من هذا الشيخ؟ وقال ما معناه: إني لم أر مثله ولا أثبت قلبا منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقيادا مني لأحد منه، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم

والعمل ، وسأله إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حرّان وتنتقل إليه ويكون برسمك؟ فقال : لا والله لا أرغب عن مهاجر إبراهيم وأستبدل به غيره ، فخرج من بين يديه مكرماً معززاً قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلّغه ما أراده وكان ذلك أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجاش .

وأن الشيخ لما وشى به إلى السلطان المعظم الملك الناصر لدين الله وأحضره بين يديه قال من جملة كلامه : أنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس وأن في نفسك أخذ الملك ، فلم يكترث به بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير ممن حضر : أنا أفعل ذلك؟ ! «والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين ، فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : «إنك لصادق وأن الذي وشى بك إلي كاذب» .

ولم يزل المبتدعون أهل الأهواء وآكلوا الدنيا متعاضدين متناصرين في عداوته باذلين وسعهم بالسعي في الفتك به متخرصين عليه الكذب الصراح مختلقين عليه وناسبين إليه ما لم يقله ولم ينقله ولم يوجد له به خط ولا وجد له في تصنيف ولا فتوى ولا سمع منه في مجلس ، ولكن غلب عليهم ما هم فيه من إيثار الدنيا على الآخرة والعمل للعاجلة دون الآجلة فلهذا حسدوه وأبغضوه لكونه مباينهم ومخالفهم لبغضه ورفضه ما أحبوا وطلبته ومحبة ما باينوا ورفضوا ، ولما علم الله نيته ونياتهم أبى أن يظفرهم به مما راموا ، حتى أنه لم يحضر معه منهم أحد في عقد مجلس إلا وصنع الله له ونصره عليهم بما يظهره على لسانه من دحض حججهم الواهية وكشف مكيدتهم الداهية للخاصة والعامة .

فسحة متسعة الأطراف وصلى عليه الناس وقد طبقوا تلك الأرض كلها واتفق جماعة ممن حضر حينئذ وشاهد الناس والمصلين عليه على أنهم يزيدون على نحو من خمسمائة ألف وقال العارفون بالنقل والتاريخ : لم يسمع في جنازة بمثل هذا الجمع إلا الجنازة الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله ، ثم حمل بعد ذلك إلى قبره فوضع وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ولم يكن حاضرا قبل ذلك فصلى عليه أيضا ومن معه من الأمراء والكبراء ومن شاء الله من الناس ، ولم ير لجنازة أحد ما روي لجنازته من الوقار والهيبة والعظمة والجلالة وتعظيم الناس لها وتوقيرهم إياها وتفخيمهم أمر صاحبها وثنائهم عليه بما كان عليه من العلم والعمل والزهادة والعبادة والإعراض عن الدنيا والاشتغال بالآخرة والفقر والإيثار والكرم والشجاعة والفراسة والإقدام والصدع بالحق والإغلاظ على أعداء الله وأعداء رسوله والمنحرفين عن دينه والنصر لله ولرسوله ولدينه ولأهله والتواضع لأولياء الله والتذلل لهم والإكرام والإعزاز والاحترام لجنابهم وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها ونعيمها ولذاتها وشدة الرغبة في الآخرة والمواظبة على طلبها حتى سمع ذلك ونحوه من الرجال والنساء والصبيان وكل منهم يثني عليه بما يعلمه من ذلك ، فجزاه الله أحسن الجزاء عن الإسلام والمسلمين ، وسبحان من أعطاه ما أولاه ، وأمده بحسن التوفيق إلى ما هداه ، وأعانه بالصبر الجميل إلى أن توفاه ، فرضي الله عنه وأرضاه ، ورزقنا وكافة المسلمين الحياة والموت على الكتاب والسنة حتى نلقاه ، والاعتصام بهما جميعا في جميع ما نتلقاه .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .(١)

---

(١) غالبه نقل من «كتاب الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» للإمام الحافظ : سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن موسى البزار رحمه الله بتصرف يسير .

ترجمة لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله

شيخ الإسلام في عصره وإمام أهل السنة في دهره، مفتي الديار، والعالم الذي لا يشق له غبار:

عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز.

ولد بمدينة الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ، وكان بصيراً في أول الدراسة، ثم أصابه المرض في عينيه عام ١٣٤٦هـ، فضعف بصره بسبب ذلك، ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم من عام ١٣٥٠هـ، فلم يمنعه فقد بصره أن كان فقيه عصره.

بدأ الدراسة منذ الصغر، وحفظ القرآن الكريم قبل البلوغ، ثم بدأ في تلقي العلوم الشرعية والعربية على أيدي كثير من علماء الرياض، من أعلامهم:

١- الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله

٢- الشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، قاضي الرياض، رحمهم الله.

٣- الشيخ سعد بن حمد بن عتيق (قاضي الرياض).

٤- الشيخ حمد بن فارس (وكيل بيت المال بالرياض).

٥- الشيخ سعد وقاص البخاري (من علماء مكة المكرمة) أخذ عنه علم التجويد في عام ١٣٥٥هـ.

٦- سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، وقد لازم حلقاته صباحاً ومساءً، وحضر كل ما يقرأ عليه، ثم قرأ عليه جميع المواد التي

مؤلفاته:

منها :

١ـ الفوائد الجلية في المباحث الفرضية .

٢ـ التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة «توضيح المناسك» وهو أهمها وأنفعها ، كان قد جمعه في عام ١٣٦٣هـ وهو في قضاء الخرج ، ثم زاده وبسطه بعد ذلك ، وطبع مرات كثيرة ، وهو الآن في أيدي الناس ، وقد نفع الله به كثيرا ، وقد ترجم إلى عدة لغات .

٣ـ التحذير من البدع ، ويشتمل على أربع مقالات :

* حكم الاحتفال بالمولد النبوي .
* وليلة الإسراء والمعراج .
* وليلة النصف من شعبان .
* وتكذيب الرؤيا المزعومة من خادم الحجرة النبوية المسمى : الشيخ أحمد .

٤ـ رسالتان موجزتان في الزكاة والصيام .

٥ـ العقيدة الصحيحة وما يضادها .

٦ـ وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها .

٧ـ الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة .

٨ـ وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه .

٩ـ حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار .

١٠ـ نقد القومية العربية .

١١ـ الجواب المفيد في حكم التصوير .

١٢ـ الشيخ محمد بن عبد الوهاب «دعوته وسيرته» .

١٣ـ ثلاث رسائل في الصلاة :

أـ كيفية صلاة النبي ﷺ .

ب ـ وجوب أداء الصلاة في جماعة .

ج ـ أين يضع المصلي يديه حين يرفع من الركوع؟ .

١٤ـ حكم الإسلام فيمن طعن في القرآن أو في الرسول ﷺ .

١٥ـ حاشية مفيدة على فتح الباري ، وصل فيها إلى كتاب الحج .

١٦ـ رسالة الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب .

١٧ـ إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين .

١٨ـ الجهاد في سبيل الله .

١٩ـ الدروس المهمة لعامة الأمة .

٢٠ـ فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة .

٢١ـ وجوب لزوم السنة والحذر من البدعة .اهـ(١)

أضف إلى ذلك السفر النفيس : مجموع فتاوى ومقالات متنوعة .

---

(١) وهذا من إملاء سماحة الشيخ ابن باز بتصرف ، انظر كتاب : فتاوى وتنبيهات ونصائح لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

أعمال إسلامية أخرى لسماحته رحمه الله

وكان لسماحة الشيخ رحمه الله أعمال جليلة أخرى، واهتمامات بأمور المسلمين في كل مكان، منها:

وقوفه إلى جانب المؤسسات والمراكز التي تقوم بأمر التعليم والدعوة إلى الله في شتى بقاع العالم، وتعضيده للمسلمين المجاهدين في فلسطين وأفغانستان والفلبين وغيرها، مع دعوته المسلمين القادرين إلى مساعدتهم.

ومن أعماله المهمة: عنايته بالتوحيد والعقيدة التي التبس على كثير من المسلمين فهمها، يدرك ذلك كل من حضر إلى دروسه أو استمع إلى محاضراته وأحاديثه وقرأ مؤلفاته.

يولي سماحته تعليم القرآن العظيم اهتماما خاصا، ويحث إخوانه وتلاميذه رؤساء وأعضاء الجماعات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم على مضاعفة الجهود، ويشاركهم في كل ما من شأنه تقوية هذه الجماعة واستمرارها.

أخلاقه وسجاياه

من أبرز صفات الشيخ رحمه الله السكينة والوقار والسماحة والرفق والكرم والزهد فيما أيدي الناس، إلى جانب الشجاعة في قول الحق، وهذا ما يفسر حب الجميع له وازدحام الناس حوله أينما حل للاستفادة من علمه وفضله.(١)

لم ينقطع عن طلب العلم - إلى حين وفاته - حيث لازم البحث والتدريس ليل نهار، ولم تشغله المناصب عن ذلك، مما جعله يزداد بصيرة ورسوخا في

(١) كتاب الدعوة، الجزء الأول.

كثير من العلوم ، وقد عني عناية خاصة بالحديث وعلومه ، حتى أصبح حكمه على الحديث من حيث الصحة والضعف محل اعتبار ، وهي درجة قل أن يبلغها أحد ، خاصة في هذا العصر ، وقد ظهر أثر ذلك على كتاباته وفتواه ، حيث كان يتخير من الأقوال ما يسنده الدليل.

كانت حلقاته مستمرة ، ولديه طلاب متفرغون لطلب العلم ، من أبرزهم :

١ـ الشيخ عبد الله الكنهل

٢ـ الشيخ راشد بن صالح الحنين .

٣ـ الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك .

٤ـ الشيخ عبد اللطيف بن شديد .

٥ـ الشيخ عبد الله بن حسن بن قعود .

٦ـ الشيخ عبد الرحمن بن جلال .

٧ـ الشيخ صالح بن هليل .(١)

ومن ضمن الذين استفادوا من الشيخ ولازموه وقرءوا عليه سماحة الشيخ الإمام محمد الصالح العثيمين حيث قرأ عليه في صحيح البخاري ورسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية رحم الله الأموات ، وأمد في عمر الأحياء على طاعته .

وفاته:

وبعد أن ألم بالشيخ رحمه الله في آخر حياته مرض عضال ، وهو كعادته غير مكترث ولا متوقف عن مسيرة الخير والعطاء ، ثابت الجنان قوي القلب

(١) فتاوى اللجنة الدائمة .

حريص أشد الحرص على اغتنام كل فرصة وعمل يقربه إلى الرب الكبير المتعال، فلم يتوقف عن التدريس والإفتاء والشفاعات للناس والنصح والتوجيه، وفي بكرة يوم الخميس السابع والعشرين من شهر الله المحرم عام عشرين وأربعمائة وألف ٢٧/ محرم/ ١٤٢٠هـ يودع المسلمون عالماً ربانياً بذل الكثير والكثير من جهده ووقته وصحته في سبيل خدمة دينه وأمته، فقد فاضت روحه إلى بارئها بكرة ذلك اليوم، ولم يفجأ الناس والا والبيان يقرأ في وسائل الإعلام عن وفاة سماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن باز، فعظم المصاب والحزن بفقده، وأتعب رحمه الله العلماء من بعده، رحل عن الدنيا الفانية صبورا محتسبا سخيا كريما جوادا زاهدا في الدنيا وحطامها الفاني، وصلي عليه يوم الجمعة في مكرمة المكرمة زادها الله تشريفا وتكريما ومهابة، ودفن هناك، وقد رثي رحمه الله بمرثيات كثيرة، وألفت الكتب التي تتناول سيرة حياته، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه المنازل العالية، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا شيخ ابن باز لمحزونون.

والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، والصلاة والسلام الأكملان الأتمان على النبي الكريم والسراج المنير محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

قاعدة في وجوب الاستقامة والاعتدال ومتابعة الكتاب والسنة في باب أسماء الله وصفاته وتوحيده بالقول والاعتقاد ، وبيان اشتمال الكتاب والسنة على جميع الهدى ، وأن التفرق والضلال إنما حصل بترك بعضه ، والتنبيه على جميع البدع المقابلة في ذلك بالزيادة في النفي والإثبات ، ومبدأ حدوثها وما وقع في ذلك من الأسماء المجملة والاختلاف والافتراق الذي أوجب تكفير بعض هؤلاء المختلفين بعضهم لبعض ، وذلك بسبب ترك بعض الحق وأخذ بعض الباطل وكتمان الحق ولبس الحق بالباطل .

فصل

الرأي المحدث في الأصول وهو الكلام المحدث وفي الفروع ، وهو الرأي المحدث في الفقه والتعبد المحدث كالتصوف المحدث والسياسة المحدثة .

يظن طوائف من الناس أن الذين محتاج إلى ذلك لا سيما كل طائفة في طريقها وليس الأمر كذلك فإن الله تعالى يقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) إلى غير ذلك من النصوص التي دلت على أن الرسول عرّف الأمة جميع ما يحتاجون إليه من دينهم .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ (التوبة) .

وقال ﷺ: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي إلا هالك»(١) وقال ﷺ: «إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»(٢).

فلولا أن سنته وسنة الخلفاء الراشدين تسع المؤمن وتكفيه عند الاختلاف الكثير لم يجز الأمر بذلك.

وكان يقول في خطبته: «شر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»(٣) وكان ابن مسعود يخطب بنحو ذلك كل خميس ويقول: «إنكم ستحدثون ويحدث لكم»(٤).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ويبين هذا البحث للمؤلف رحمه الله أن مقصوده من هذه الرسالة بيان أن الاستقامة في الفروع والأصول هو طريق الكتاب والسنة، وأن الواجب على الناس أن يستقيموا على منهج كتاب الله وسنة الرسول ﷺ في العقائد، وفي أسماء الله وصفاته، وفي توحيده والإخلاص له، وفي امتثال الأوامر وترك النواهي، وأن لا يخرجوا عن هذا إلى

(١) رواه أحمد في المسند ٤/ ١٢٦ وابن ماجه في المقدمة (٤٣) باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧) كتاب السنة/ باب في لزوم السنة والترمذي (٢٦٧٦) كتاب العلم/ باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة وقال الترمذي: حديث حسن صحيح من حديث العرباض بن سارية، وانظر الإرواء (٢٤٥٥) والسنة لابن أبي عاصم (٢٧-٣٤).

(٣) رواه مسلم (٨٦٧) كتاب الجمعة/ باب خطبته ﷺ في الجمعة، ورواه ابن ماجه (٤٥) باب اجتناب البدع والجدل، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٢٥٣ وله شاهد بلفظ «عليكم بالسمت الأول فإنا اليوم على الفطرة» أخرجه وكيع، وله طرق يتقوى بها، وأخرجه اللالكائي.

شيء آخر ، فإن خروجهم هو الذي سبب اختلافهم وسبب نزاعهم وسبب تكفير بعضهم لبعض .

فالواجب أن يتقيدوا بالكتاب والسنة ، وأن لا يخرجوا عن ذلك ، فقد أرشدهم ﷺ إلى هذا بقوله : «عليكم بسنتي» وقال : «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»[1] فدل على أن هذه السنة تكفيهم ، وأنه لا يجوز لهم الخروج عنها ، وأنها واسعة كافية شافية ، ليس هناك حاجة إلى الخروج عنها ، بل متى دخل فيها الناس وتمسك بها الناس كفتهم وحصل بها الاتفاق والاجتماع والتعاون والتواصي بالخير ، والسلامة من النزاع من التكفير والتفرق ، والله المستعان .أهـ

وقد قررنا في القواعد في قاعدة السنة والبدعة أن البدعة هي الدين الذي لم يأمر الله به ورسوله فمن دان دينا لم يأمر الله ورسوله به فهو مبتدع بذلك ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (سورة الشورى ٢١) .

ولا ريب أن هذا يشكل على كثير من الناس لعدم علمهم بالنصوص ودلالتها على المقاصد ، ولعدم علمهم بما أحدث من الرأي والعمل ، وكيف يرد ذلك إلى السنة ، كما قال عمر بن الخطاب ردوا الجهالات إلى السنة[2] .

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) كتاب السنة/ باب في لزوم السنة ، والترمذي (٢٦٧٦) كتاب العلم/ باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه (٤٢) المقدمة/ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين .

(٢) رواه سعيد بن منصور في سننه (١٣٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٣٢٢) .

وقد تكلم الناس على أصناف ذلك، كما بيّن طوائف استغناء الدين عن الكلام المحدث، وأن الله قد بيّن في كتابه بالأمثال المضروبة من الدلائل ما هو أعظم منفعة مما يحدثه هؤلاء، وأن ما يذكرونه من الأدلة فهي مندرجة فيما ذكره الله تعالى.

حتى إن الأشعري نفسه وأمثاله قد بيّنوا طريقة السلف في أصول الدين واستغنائها عن الطريقة الكلامية، كطريقة الأعراض ونحوها، وأن القرآن نبّه على الأدلة، ليس دلالته كما يظنه بعض أهل الكلام من جهة الخبر فقط.

وأين هذا من أهل الكلام الذين يقولون إن الكتاب والسنة لا يدلان على أصول الدين بحال، وأن أصول الدين تستفاد بقياس العقل المعلوم من غيرهما، وكذلك الأمور العملية التي يتكلم فيها الفقهاء، فإن من الناس من يقول إن القياس يحتاج إليه في معظم الشريعة لقلة النصوص الدالة على الأحكام الشرعية، كما يقول ذلك أبو المعالي وأمثاله من الفقهاء، مع انتسابهم إلى مذهب الشافعي ونحوه من فقهاء الحديث، فكيف بمن كان من أهل رأي الكوفة ونحوهم؟

فإنه عندهم لا يثبت من الفقه بالنصوص إلا أقل من ذلك، وإنما العمدة على الرأي والقياس، حتى أن الخراسانيين من أصحاب الشافعي بسبب مخالطتهم لهم غلب عليهم استعمال الرأي وقلة المعرفة بالنصوص.

وبإزاء هؤلاء أهل الظاهر كابن حزم ونحوه ممن يدّعي أن النصوص تستوعب جميع الحوادث بالأسماء اللغوية التي لا تحتاج إلى استنباط واستخراج أكثر من جمع النصوص، حتى تنفي دلالة فحوى الخطاب وتثبته في معنى الأصل، ونحو ذلك من المواضع التي يدل فيها اللفظ الخاص على المعنى العام،

والتوسط في ذلك طريقة فقهاء الحديث، وهي إثبات النصوص والآثار الصحابية على جمهور الحوادث، وما خرج عن ذلك كان في معنى الأصل، فيستعملون قياس العلة والقياس في معنى الأصل وفحوى الخطاب، إذ ذلك من جملة دلالات اللفظ، وأيضا فالرأي كثيرا ما يكون في تحقيق المناط الذي لا خلاف بين الناس في استعمال الرأي والقياس فيه، فإن الله أمر بالعدل في الحكم، والعدل قد يعرف بالرأي وقد يعرف بالنص، ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[1] إذ الحاكم مقصوده الحكم بالعدل بحسب الإمكان، فحيث تعذر العدل الحقيقي للتعذر أو التعسر في علمه أو عمله كان الواجب ما كان به أشبه وأمثل وهو العدل المقدور.

وهذا باب واسع في الحكم في الدماء والأموال وغير ذلك من أنواع القضاء، وفيها يجتهد القضاة، ونعلم أن عليا رضي الله عنه كان أقضى من غيره بما أفهم من ذلك، مع أن سماع النصوص مشترك بينه وبين غيره.

وإنما ظن كثير من الناس الحاجة إلى الرأي المحدث لأنهم يجدون مسائل كثيرة وفروعا عظيمة لا يمكنهم إدخالها تحت النصوص، كما يوجد في فروع من ولد الفروع من فقهاء الكوفة ومن أخذ عنهم، وجواب هذا من وجوه:

أحدها: أن كثيرا من تلك الفروع المولد المقدرة لا يقع أصلا، وما كان كذلك لم يجب أن تدل عليه النصوص، ومن تدبر ما فرعه المولدون من الفروع في باب الوصايا والطلاق والأيمان وغير ذلك؛ علم صحة هذا.

---

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ومسلم (١٧١٦) كتاب الأقضية/ باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ. من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الوجه الثاني : أن تكون تلك الفروع والمسائل مبنية على أصول فاسدة ، فمن عرف السنة بيّن حكم ذلك الأصل ، فسقطت تلك الفروع المولدة كلها .

وهذا كما فرعه صاحب الجامع الكبير ، فإن غالب فروعه كما بلغنا عن الإمام أبي محمد المقدسي أنه كان يقول : مثله مثل من بنى دارا حسنة على أساس مغصوب ، فلما جاء صاحب الأساس ونازعه في الأساس وقلعه انهدمت تلك الدار .

وذلك كالفروع العظيمة المذكورة في كتاب الأيمان ، وبناها على ما كان المفرع يعتقده من مذهب أهل النحو الكوفيين ، فإن أصل باب الأيمان الرجوع إلى نية الحالف وقصده ، ثم إلى القرائن الحالية الدالة على قصده ، كسبب اليمين وما هيّجها ثم إلى العرف الذي من عادته التكلم به ، سواء كان موافقا للغة العربية أو مخالفا لها ، فإن الأيمان وغيرها من كلام الناس بعضهم لبعض في المعاملات والمراسلات والمصنفات وغيرها ؛ تجمعها كلها دلالة اللفظ على قصد المتكلم ومراده ، وذلك متنوع بتنوع اللغات والعادات .

وتختلف الدلالة بالقرائن الحالية والمقالية ، ثم إنما يستدل على مقصود الرجل إذا لم يعرف ، فإذا أمكن العلم بمقصوده يقينا لم يكن بنا حاجة إلى الشك ، لكن من الأمور ما لا تقبل من قائله إرادة تخالف الظاهر ، كما إذا تعلق به حقوق العباد كما في الأقارير ونحوها ، وهذا مقرر في موضعه وليس الغرض هنا إلا التمثيل .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : **وهما يبيّن هذا ويدل على صحة ما قاله الشيخ مع ما تقدم ؛ الآية الكريمة في سورة النحل :** ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ **فهو تبيان لكل شيء**

بما يشتمل عليه من المعاني والدلائل والبراهين الدالة على المقاصد والأحكام وجميع ما يتكلم فيه الناس ويعمل به الناس مما يحتاجون إليه في أحكام الشرع .

ففي الكتاب العظيم والسنة المطهرة الثابتة ما يرشد إلى الحكم ويبين أن ذلك حرام أو حلال أو واجب أو مندوب أو مكروه ، لمن تأمل النصوص وجمعها ويسر الله له الوقوف عليها .

وإنما يؤتى الناس إما من جهة عدم الإحاطة وعدم الجمع للنصوص وقلة العلم ، أو من جهة التسرع وعدم التثبت في الأمور ، فلا يعطي المقام حقه من النظر في النصوص والأدلة حتى يهضمها ، فيظن أن النصوص ما جاءت بهذا ، وأنه بحاجة إلى رأي فلان ورأي فلان .

إما من عجلته ، وإما من عدم عنايته بجمع النصوص والنظر فيها واستكمال ما ينبغي له من العناية والجمع ، وعدم الاكتفاء بما حصل له بادئ ذي بدء ، بل يتهم نفسه وينظر ويتأمل ، ويقول لعله فاتني كذا ، لعل المراد في هذا شيء ، فيعتني بالنصوص ويقبل عليها ، ويرجع إلى المظان التي فيها النصوص واستنباط الأحكام ، ومن لم يستعجل وخاف الله وراقبه وتأمل ؛ فالغالب أنه يهدى إلى الصواب ، ويجد ما يدل على طلبه ومقصده ، ولا يحتاج مع ذلك إلى قياسات فاسدة ، ولا إلى الحكم على الكتاب والسنة بأنه لم يرد في هذا بشيء . أهـ .

وإذا كان هذا أصل الأيمان فيقال لذلك المُفْرِّع : إذا كان هذا أصل قصده الذي هو في أكثر المواضع يخالف مقتضى ما ذكرته من الجواب ، وينظر إلى القرائن الحالية ، ومعها لا تستقيم عامة الأجوبة ، وإذا عدم ذلك وله عرف وعادة يتكلم بها ، وغالب عادات الناس لا ينبني على المقاييس التي وضعتها أنت ، فإذاً جواب الحالفين بمثل ما أجبتهم به ليس هو من الشريعة في غالب

المواضع ، ولا يحتاج باب الأيمان إلى تفريع ، إذ هذه الأصول الثلاثة تضبطه ضبطا حسنا .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ما هي الأصول الثلاثة؟

إما النظر إلى نيته ، فإن لم يكن له نية ؛ نظرت إلى أسباب اليمين ، وما هيجها وما دعا إليها ، ثم إذا خفي ذلك نظرت إلى عرفه وما اعتاده في بلاده وقبيلته ، فإن كلماته تفسر بعرفه ، إن لم تكن له نية تخالف ذلك ، ولا أسباب تخالف ذلك رجعت إلى الأصل الثالث ، وهو عرفه وما اعتاده في قبيلته وجماعته ، فقد تكون الكلمة لها معنى في الحجاز غير معناها في نجد ، ولها معنى في الشام غير معناها في مصر ، ولها معنى في أوروبا وأمريكا غير معناها عند الناس الآخرين ، فلابد أن يكون المفتي والقاضي يعتني بهذه الألفاظ ، ويسأل عن عرف أهلها ومقاصدهم عند خفاء النية وعند خفاء الأسباب .اهـ

لكن لابد أن يكون المفتي ممن يحسن أن يضع الحوادث على القواعد وينزلها عليها ، وكذلك ما فرعوه في باب الحكم والسياسة وغيرها عامة ذلك مبني على أصول فاسدة مخالفة للشريعة ، وهذا والله أعلم من معنى قول ابن مسعود : «إنكم ستحدثون ويحدث لكم». (١)

قال سماحة الشيخ : ويروى معناه عن عمر بن عبد العزيز ، فالناس لا شك يحدثون وتحدث لهم مشاكل وتشديدات والتباسات بسبب أحداثهم ، عقوبة .اهـ

ولهذا تكثر هذه الفروع وتنتشر حتى لا تضبطها قاعدة ، لأنها ليست موافقة

---

(١) فتح الباري ١٣/٢٥٣ وله شاهد بلفظ «عليكم بالسمت الأول فإنا اليوم على الفطرة» أخرجه وكيع ، وله طرق يتقوى بها ، وأخرجه اللالكائي .

للشريعة ، فأما الشريعة فإنها كما قال النبي ﷺ : «بعثت بجوامع الكلم»[(١)] والكلمة الجامعة هي القضية الكلية والقاعدة العامة التي بعث بها نبينا ﷺ ، فمن فهم كلمه الجوامع علم اشتمالها لعامة الفروع وانضباطها بها ، والله أعلم .

الوجه الثالث : أن النصوص دالة على عامة الفروع الواقعة كما يعرفه من يتحرى ذلك ويقصد الإفتاء بموجب الكتاب والسنة ودلالتهما ، وهذا يعرفه من يتأمل كمن يفتي في اليوم بمائة فتيا أو مائتين أو ثلاثمائة وأكثر أو أقل ، وأنا قد جربت ذلك ، ومن تدبر ذلك رأى أهل النصوص دائما أقدر على الإفتاء وأنفع للمسلمين في ذلك من أهل الرأي المحدث .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومعنى ذلك أن أهل الرأي غالباً يكون عندهم التردد ، ويكون عندهم الشك ، ويكون عندهم عدم الطمأنينة ، فلهذا يضعفون في الفتوى ، وتقل إصابتهم ، ويترددون ويحارون ويتناقضون ، أما أهل النصوص من الكتاب والسنة ، ومن لهم عناية بالنصوص والتفقه فيها والحرص على الاستنباط منها ، فإنهم في الغالب موفقون ، لأنهم أتوا الأمر من طريقه ، وأتوا الأمر من بابه ، وحرصوا على اتباع الرسول ﷺ والأخذ من معين كلامه وكلام ربه ، فهم في الغالب والأكثر موفقون في فتاواهم ولو كثرت ، ولو أفتى واحد في اليوم مائة فتوى أو مائتين أو أكثر ، فإنهم في الغالب يوفقون ، ويجدون في النصوص ما يشفي ويكفي بدلاً من الرأي المجرد . أهـ

فإن الذي رأيناه دائما أن أهل رأي الكوفة من أقل الناس علما بالفتيا وأقلهم

---

(١) رواه البخاري (٧٢٧٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب قول النبي ﷺ «بعثت بجوامع الكلم» وحديث رقم (٢٩٧٧) و (٧٠١٣) ، ورواه مسلم (٥٢٣) كتب المساجد ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

منفعة للمسلمين ، مع كثرة عددهم وما لهم من سلطان وكثرة بما يتناولونه من الأموال الوقفية والسلطانية وغير ذلك ، ثم إنهم في الفتوى من أقل الناس منفعة ، قل أن يجيبوا فيها ، وإن أجابوا فقل أن يجيبوا بجواب شاف ، وأما كونهم يجيبون بحجة فهم من أبعد الناس عن ذلك .

وسبب هذا أن الأعمال الواقعة يحتاج المسلمون فيها إلى معرفة بالنصوص ، ثم إن لهم أصولا كثيرة تخالف النصوص ، والذي عندهم من الفروع التي لا توجد عند غيرهم ، فهي مع ما فيها من المخالفة للنصوص التي لم يخالفها أحد من الفقهاء أكثر منهم عامتها إما فروع مقدرة غير واقعة ، وإما فروع متقررة على أصول فاسدة ، فإذا أرادوا أن يجيبوا بمقتضاها رأوا ما في ذلك من الفساد وإنكار قلوب المؤمنين عليهم فأمسكوا ، لكن أعظم المهم في هذا الباب وغيره تمييز السنة من البدعة ، إذ السنة ما أمر به الشارع ، والبدعة ما لم يشرعه من الدين ، فإن هذا الباب كثر فيه اضطراب الناس في الأصول والفروع ، حيث يزعم كل فريق أن طريقه هو السنة ، وطريق مخالفه هو البدعة ، ثم إنه يحكم على مخالفه بحكم المبتدع ، فيقوم من ذلك من الشر ما لا يحصيه إلا الله .

وأول من ضل في ذلك هم الخوارج المارقون ، حيث حكموا لنفوسهم بأنهم المتمسكون بكتاب الله وسنته ، وأن عليا ومعاوية والعسكرين هم أهل المعصية والبدعة ، فاستحلوا ما استحلوه من المسلمين .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه من ثمار البدع والتأويل ، هذه من ثمراته ، لأنهم ضللوا عليا ومعاوية ومن معهما من الصحابة ، بل قاتلوهم ، فقتلوا عليا ، وأرادوا قتل معاوية ، وأرادوا قتل عمرو بن العاص ، فلم يفلحوا في الاثنين ، وتم أمر الله في علي ، وقتلوا جماً غفيراً من الناس ، ولم يزالوا يقسُون على أهل

الإيمان، كله بتأويل فاسد وبدعة ضالة، وهي أن من عصى فقد كفر وحل دمه، وهذه معصية عظمى، ولهذا قال فيهم النبي ﷺ: «إنهم شر قتلى تحت أديم السماء»[(١)] وأنهم «يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه»[(٢)] و«أن أحدكم يحقر صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم»[(٣)] فهم تكلفوا وتنطعوا في الظاهر، وحرموا الأصول وحرموا التوفيق لما يوافق الأصول، نسأل الله العافية.

وهكذا بدع الرافضة، وبدع الشيعة، استحلوا بها دماء المسلمين، وكفَّروا المسلمين وضللوهم وعادوهم وابتدعوا ديناً ما شرعه الله.

وهكذا بدعة المعتزلة وبدعة الجهمية وغيرهم، فمن تأمل البدع رآها أساس الشر - نعوذ بالله - في كل مكان، نسأل الله العافية. أهـ

وليس المقصود هنا ذكر البدع الظاهرة التي تظهر للعامة أنها بدعة كبدعة الخوارج والروافض ونحو ذلك، لكن المقصود التنبيه على ما وقع من ذلك في

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠٠) كتاب التفسير/ باب ومن سورة آل عمران وقال: حديث حسن. ورواه ابن ماجه (١٧٥) المقدمة/ باب في ذكر الخوارج. ورواه الإمام أحمد في المسند (٢٢٨٤٠) من حديث أبي امامة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٩٣٠-٦٩٣١-٦٩٣٢) كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/ باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، ومسلم (١٠٦٣-١٠٦٤-١٠٦٥-١٠٦٦-١٠٦٧-١٠٦٨) كتاب الزكاة/ باب التحريض على قتل الخوارج، من حديث علي وجابر وأبي سعيد الخدري وابن عمر وأبي ذر وسهيل بن حنيف رضي الله عنهم.

(٣) رواه البخاري (٦٩٣١) كتاب استتابة المرتدين والمعاندين/ باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، و(٦٩٣٣) كتاب استتابة المرتدين/ باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه، ومسلم (١٠٦٥) كتاب الزكاة/ باب التحريض على قتل الخوارج، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أخص الطوائف بالسنة وأعظمهم انتحالاً لها، كالمنتسبين إلى الحديث مثل مالك والشافعي وأحمد، فإنه لا ريب أن هؤلاء أعظم اتباعا للسنة وذما للبدعة من غيرهم، والأئمة كمالك وأحمد وابن المبارك وحماد بن زيد والأوزاعي وغيرهم يذكرون من ذم المبتدعة وهجرانهم وعقوبتهم ما شاء الله تعالى.

وهذه الأقوال سمعها طوائف ممن اتبعهم وقلدهم، ثم إنهم يخلطون في مواضع كثيرة السنة والبدعة، حتى قد يبدلون الأمر، فيجعلون البدعة التي ذمها أولئك هي السنة، والسنة التي حمدها أولئك هي البدعة، ويحكمون بموجب ذلك حتى يقعوا في البدع والمعاداة لطريق أئمتهم السنية، وفي الحب والموالاة لطريق المبتدعة التي أمر أئمتهم بعقوبتهم، ويلزمهم تكفير أئمتهم ولعنهم والبراءة منهم، وقد يلعنون المبتدعة وتكون اللعنة واقعة عليهم أنفسهم، ضد ما يقع على المؤمن كما قال النبي ﷺ: «ألا ترون كيف يصرف الله عني سب قريش يسبون مذمما وأنا محمد»[1].

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهكذا قوله ﷺ: «من قال لأخيه يا كافر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه»[2] فإذا قالوا بأهل السنة إنهم مبتدعة، وأنهم وأنهم، وذموهم ولعنوهم، فإن لعنهم وسبهم يرجع إليهم، لأنهم هم أهل البدعة، والله المستعان. اهـ

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٣) كتاب المناقب/ باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ. والنسائي (٣٤٦٨) كتاب الطلاق/ باب الإبانة والإفصاح بالكلمة الملفوظ بها إذا قصد بها لما لا يحتمله معناها لم توجب شيئا ولم تثبت حكما. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦١٠٣) و(٦١٠٤) كتاب الأدب/ باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم. ومسلم (٦٠) كتاب الإيمان/ باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وهؤلاء بالعكس يسبّون المبتدعة يعنون غيرهم ويكونون هم المبتدعة، كالذي يلعن الظالمين ويكون هو الظالم أو أحد الظالمين، وهذا كله من باب قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ (فاطر: ٨).

واعتبر ذلك بأمور:

أحدها: أن كلام مالك في ذم المبتدعة وهجرهم وعقوبتهم كثير، ومن أعظمهم عنده الجهمية الذين يقولون إن الله ليس فوق العرش، وإن الله لم يتكلم بالقرآن كله، وإنه لا يرى، كما وردت به السنة، وينفون نحو ذلك من الصفات.

ثم إنه كثير في المتأخرين من أصحابه من ينكر هذه الأمور كما ينكرها فروع الجهمية، ويجعل ذلك هو السنة، ويجعل القول الذي يخالفها - وهو قول مالك وسائر أئمة السنة - هو البدعة، ثم إنه مع ذلك يعتقد في أهل البدعة ما قاله مالك، فبدّل هؤلاء الدين، فصاروا يطعنون في أهل السنة.

الثاني: أن الشافعي من أعظم الناس ذمًا لأهل الكلام ولأهل التغيير ونهيا عن ذلك وجعله له من البدعة الخارجة عن السنة، ثم إن كثيرا من أصحابه عكسوا الأمر حتى جعلوا الكلام الذي ذمه الشافعي هو السنة وأصول الدين الذي يجب اعتقاده وموالاة أهله، وجعلوا موجب الكتاب والسنة الذي مدحه الشافعي هو البدعة التي يعاقب أهلها.

الثالث: أن الإمام أحمد في أمره باتباع السنة ومعرفته بها ولزومه لها ونهيه عن البدع وذمه لها ولأهلها وعقوبته لأهلها بالحال التي لا تخفى، ثم إن كثيرا مما نص هو عليه أنه من البدع التي يذم أهلها، صار بعض أتباعه يعتقد أن ذلك من السنة، وأن الذي يذم من خالف ذلك، مثل كلامه في مسألة القرآن في

مواضع ، منها تبديعه لمن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وتجهيمه لمن قال مخلوق ، ثم إن من أصحابه من جعل ما بدّعه الإمام أحمد هو السنة ، فتراهم يحكمون على ما هو من صفات العبد كألفاظهم وأصواتهم وغير ذلك بأنه غير مخلوق ، بل يقولون هو قديم ، ثم إنهم يبدّعون من لا يقول بذلك ، ويحكمون في هؤلاء بما قاله أحمد في المبتدعة وهو فيهم .

وكذلك ما أثبته أحمد من الصفات التي جاءت بها الآثار واتفق عليها السلف ، كالصفات الفعلية من الاستواء والنزول والمجيء ، والتكلم إذا شاء وغير ذلك ، فينكرون ذلك بزعم أن الحوادث لا تحل به ، ويجعلون ذلك بدعة ، ويحكمون على أصحابه بما حكم به أحمد في أهل البدع ، وهم من أهل البدعة الذين ذمهم أحمد لا أولئك ، ونظائر هذا كثيرة .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا أن المتأخرين من أتباع هذه المذاهب الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وقعوا فيما وقع فيه أهل البدع ، فصاروا يذمون السنة ويحسنون البدعة ، فانعكس عليهم الأمر ، فصارت أقوالهم ضد ما قاله أئمتهم ، إما عن جهل ، وإما عن تأويل لكلام أئمتهم حتى يوافق ما أرادوا ، وهذا كثير في الكتب المتأخرة .

والعصمة والصلاح والسداد والسلامة هي التمسك بألفاظ الرسول ﷺ وما جاء في القرآن الكريم وما درج عليه سلف الأمة ، هذا هو طريق النجاة والسلامة ، هو أن تعرض أقوال المتأخرين وغيرهم على تلك النصوص ، فما وافقها فهو السليم وهو الحق وهو الموافق للسنة ، وما خالفها رد على قائله ، وإن انتسب إلى أهل السنة ، وإن زعم أنه منهم ، فإن الزعم والدعوى لا تغني شيئاً حتى يكون العمل موافقاً للحق ، والله المستعان .أهـ

سؤال/ ما الجمع بين أن الاستواء من الصفات الذاتية والعلو؟

أجاب سماحته رحمه الله : لا ، الاستواء ليس من الصفات الذاتية ، الاستواء من صفات الفعل ، من صفات الذات العلو والوجه والسمع والبصر ذاتي ، أما الاستواء والمجيء والنزول ؛ فهذه يقال لها صفات فعلية ، لأنه يفعلها إذا شاء سبحانه .أهـ

بل قد يحكي عن واحد من أئمتهم إجماع المسلمين على أن الحوادث لا تحل بذاته ، لينفي بذلك ما نص أحمد وسائر الأئمة عليه من أنه يتكلم إذا شاء ومن هذه الأفعال المتعلقة بمشيئته .

ومعلوم أن نقل الإجماع على خلاف نصوصه ونصوص الأئمة من أبلغ ما يكون ، وهذا كنقل غير واحد من المصنفين في العلم إجماع المسلمين على خلاف نصوص الرسول ، وهذه المواضع من ذلك أيضا ، فإن نصوص أحمد والأئمة مطابقة لنصوص الرسول ﷺ .

فصل

قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾ سورة غافر ٣٥ بعد قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ (غافر) إلى قوله : ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾

(غافر : ٣٤) ، يخوفهم بمثل عقوبات الله في الدنيا للأمم الكافرة قبلهم ، وخوفهم بما يكون يوم القيامة .

وهذا فيه بيان إخباره بيوم القيامة ، وهو ممن آمن بموسى ، كما قد قرناه في غير هذا الموضع أن جميع الرسل أخبرت بيوم القيامة ، خلاف ما تزعم طوائف من الفلاسفة وأهل الكلام أن المعاد الجسماني لم يخبر به إلا محمد وعيسى ونحو ذلك .

ثم قال المؤمن ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ (غافر : ٣٤) لأن الريب عدم العلم ، وهذه حال أهل الضلال .

وقال هناك : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر : ٣٥) لأنه أخبر بجدالهم في آيات الله بغير سلطان أتاهم وهذه حال المتكلمين بغير علم لطلب العلو والفساد .

كما قال في الآية الأخرى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (غافر) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا يبين لنا أن الغالب على أهل الجدل للحق لدفعه ورده وصده ؛ إنما يحملهم الكبر والتعالي والتعاظم أن يخضعوا للحق ، فلذلك صارت عقوبتهم شديدة ، نسأل الله العافية ، لأنه يحملهم على الجدال

والدفع في وجه الحق ما في قلوبهم من الكبر والشر والتعاظم في أنفسهم ، كيف يخضعون لقبول الحق ومتابعة أهله؟ نسأل الله العافية ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ . اهـ

ولهذا قال في هؤلاء المجادلين ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (غافر : ٣٥) ، أي كبر مقتهم ، أو كبر هذا المقت ، أو كبر هذا الجدال ، أو هذا الفعل مقتا ، أي ممقوتا ، كما قال تعالى ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ سورة الكهف ٥ وكما قال تعالى ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ (الكهف) .

فإن المخصوص بالمدح والذم في هذا الباب كثيرا ما يكون مضمرا إذا تقدم ما يعود الضمير إليه ، والمدح يراد به الرجل كما تقول نعم رجلا زيد ونعم رجلا وزيد نعم رجلا .

والمقت يراد به نفس المقت ، ويراد به الممقوت ، كما في الخلق ونظائره ، ومثله قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف) أي كبر ممقوتا أي كبر مقته مقتا ، والمقت البغض الشديد ، وهو من جنس الغضب المناسب لحال هؤلاء ، كما قال في اليهود ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ (النساء ١٥٥) .

وقد وصفهم بنحو مما وصف عدوهم فرعون ، فقوله ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ (الإسراء) فوصفهم بالفساد في الأرض والعلو، كما أن فرعون ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (سورة القصص) وختم السورة بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص)

وهذا مما يبين أن قوله ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (غافر ٣٥) مبتدأ ليس بدلا من قوله ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (غافر ٣٤) فإنه سبحانه وصف هؤلاء بغير ما وصف هؤلاء، ويؤيد هذا أنه ابتداء قد قال في الأخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ وقال قبل هذه الآية ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (غافر ٤).

وقد يقال يمكن اجتماع الوصفين: الريب والجدل بغير علم كما هو الواقع في طوائف كثيرة، كما يجتمع الغضب والضلال.

وقد يقال: الآية تحتمل الوقف وتحتمل الابتداء، وقد يكون هذا قراءتين فتسوغ كل منهما، ويكون له صف صحيح كما في نظائره.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن الحارث عن علي عن النبي ﷺ ورواه أبو نعيم الأصفهاني وغيره من طرق عديدة عن علي عن النبي ﷺ في القرآن الحديث المعروف، قال: قلت يا رسول الله: ستكون فتن فما المخرج منها؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل

ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تختلف به الآراء ولا تلتبس به الألسن ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»(١) .

فقوله : «من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله» يناسب قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (غافر : ٣٤) ، وكذلك قوله : ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝﴾ (غافر : ٣٥) .

---

(١) الحديث رقم (٢٩٠٦) كتاب فضائل القرآن/ باب ما جاء في فضل القرآن ، وقال الترمذي : حديث غريب . قال الشيخ الألباني : هذا حديث جميل المعنى ، ولكن في إسناده ضعف ، فيه الحارث الأعور وهو لين ، بل اتهمه بعض الأئمة بالكذب ، ولعل أصله موقوف على علي رضي الله عنه فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي ﷺ وقد ضعفه مخرّجه الترمذي نفسه فقال : «لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال» .أهـ من تعليقاته على الطحاوية .

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله : هذا الحديث رواه الترمذي بإسناد ضعيف ، وقال فيه الحافظ الذهبي رحمه الله : إن الأشبه أنه موقوف على علي . وهذا الكلام كلام عظيم تشهد له النصوص بالحق ، جاءت النصوص تشهد لهذا المعنى في وصف كتاب الله جل وعلا بوصوف أخرى تشهد لمعناه بالحق ، وأنه من كلام الرسول ﷺ ، ومما دلت عليه النصوص الأخرى ، فهو كلام عظيم ، وشواهده في الكتاب والسنة كثيرة ، وإن كان هذا الطريق فيه ضعف ، لأنه من رواية الحارث الأعور ، وهو ضعيف عن علي ، ولكن مثل ما قال الحافظ الذهبي رحمه الله : أشبه أنه من كلام علي ، قاله من الأدلة الأخرى والنصوص الأخرى التي تشهد له بالصحة .أهـ انظر «التعليقات البازية على شرح الطحاوية» الجزء الأول ص/ ٥٤

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وظاهر المؤلف أنه يؤيد رفع الحديث عن علي عن النبي ﷺ ، لأنه ذكر رواية الترمذي وذكر رواية أبي نعيم من طرق وسكت ، والمتن فيه ما يظهر من ذلك ، فإن ظاهر المتن يليق بالمرفوع إلى النبي ﷺ ، لأنه كلام عظيم وجمل عظيمة ، من جوامع الكلم ، والحافظ ابن كثير رحمه الله في التفسير قال : الأشبه أنه موقوف من كلام علي وفي رفعه نظر .

ولكن ما ذكره المؤلف هنا يؤيد الرفع ، ويقوّي ذلك أن الجمل التي استند عليها الحديث جمل عظيمة ، مثلها لا يصلح إلا من النبي ﷺ ، فإنه لو فرض أنه من جهة علي موقوفاً ؛ فهذه الكلمات العظيمة لا تكون من الموقوف ، بل لها حكم الرفع .

رواية الترمذي من طريق الحارث الأعور أما الروايات التي ذكرها من طرق عند أبي نعيم فلا أدري عنها ، تحتاج إلى مراجعة عند أبي نعيم ، ولعله ذكرها في ترجمة علي .

وصفه بالمخرج والمَخرَج ، بالمخرَج موضع الخروج ، والمُخرِج هو السبيل لما فيه من البيان والإيضاح . أهـ

فذكر ضلال الأول ، وذكر تجبر الثاني ، وذلك لأن الأول مرتاب ، ففاته العلم حيث ابتغى الهدى في غيره ، والثاني جبار عمل بخلاف ما فيه فقصمه الله ، وهذان الوصفان يجمعان العلم والعمل .

وفي ذلك بيان أن كل علم دين لا يطلب من القرآن فهو ضلال ، كفاسد كلام الفلاسفة والمتكلمة والمتصوفة والمتفقهة ، وكل عاقل يترك كتاب الله مريداً للعلو في الأرض والفساد ؛ فإن الله يقصمه ، فالضّال لم يحصل له المطلوب ،

بل يعذب بالعمل الذي لا فائدة فيه، والجبار حصَّل لذة فقصمه الله عليها، فهذا عذب بإزاء لذاته التي طلبها بالباطل، وذلك يعذب بسعيه الباطل الذي لم يفده.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: «من تركه من جبار قصمه الله» إذا ترك الحق تكبراً وتجبراً قُصم وسلط الله عليه، كما جرى لفرعون وأشباهه، وأما من ابتغى الهدى من غيره فإن الله يضله، لأنه أراد الحق من غير سبيله، ومن غير طريقه ومن غير معدنه، فيكون ضالاً، نسأل الله العافية.

ولهذا لما ابتغى أئمة الكلام ودعاة الكلام الهدى من غير القرآن، وتأولوه على غير تأويله، وزعموا أنه ظواهر ظنية لا تفيد اليقين، وأرادوا الهدى من نحاتة أفكارهم وزبالة أذهانهم، ضلوا، نسأل الله العافية، وصار أهل السنة أولى الناس بالحق وأعلمهم بالحق وأهداهم سبيلاً، وصار أولئك المتكلمون أضل الناس وأبعدهم عن الهدى، لاعتمادهم على عقولهم الباطلة والفاسدة، وإعراضهم عن العلم المتيقن الذي جاءت به الرسل، نسأل الله العافية. أهـ

سؤال / إذا لم يتعمد ترك القرآن؟

الجواب: هذا شيء آخر، المقصود في حق المتعمدين، أما المجتهد في طلب الحق فقد يغلط، فله شأن آخر. أهـ

سؤال / كيف يكون قصمه؟

أجاب سماحته رحمه الله: يسلط الله عليه من يقطع دابره، بقتل أو بعذاب يعذبه الله به، مثل ما فعل الله بفرعون أغرقه الله وجنده في البحر، ومثل ما جرى لقارون خسف الله به وبداره الأرض، ومثل ما جرى لعاد سلط الله عليهم

الريح العقيم ، ومثل ما جرى لقوم نوح لما تجبروا ، أهلكهم الله بالغرق وهكذا ، نسأل الله السلامة .أهـ

سؤال/ تسميتهم أهل الكلام؟

أجاب سماحته رحمه الله : لأنهم اعتمدوا على الخوض ، قيل وقال ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ .أهـ

والمقصود هنا أنه سبحانه في هاتين الآيتين بيَّن من يجادل في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، وقد بيَّن في غير موضع أن السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم) ، وقال : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (النجم) ، في غير موضع .

وقال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ إلى قوله ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الصافات) ، وقال : ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ (الطور) ، وقال : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (القلم) .

وإذا كان كذلك ففي هذا بيان أنه لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير

كتاب ، فمن عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة ، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق ، من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الأول للمتكلمين ، ويسمونها البراهين العقلية ، وأما هذا الثاني الأخير فهو للصوفية ، يعاينون القرآن بأذواقهم وكشوفاتهم التي يزعمون ، ويقولون حدثني قلبي عن ربي ، هذه ضلالات وباطل ضلوا بها عن سواء السبيل نعوذ بالله .

فلا طريق للناس إلى الحق والعلم الذي يرضي الله ويسبب السعادة ، ليس لهم طريق في هذا إلا الكتاب أو السنة ، إلا الوحي فقط ، إما الوحي المنزل وهو الكتاب ، وإما الوحي المنزل على محمد وهو الحديث الشريف الذي قاله ﷺ أو فعله أو أقره .

فالحاصل أنه لا طريق للناس إلى كرامة الله وإلى رضاه وجنته وإلى الخلاص من أسباب الضلالة والهلاك ، إلا اتباعهم الوحي المنزل من كتاب وسنة ، وما سوى ذلك فهو هلاك . اهـ

هذه حال الكفار الذين قال فيهم ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (غافر : ٤) فهذه حال من جادل في آيات الله مطلقاً .

ومن المعلوم أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسلطان ، فإن السلطان من آيات الله ، وإنما الذي يجادل في آيات الله بسلطان يكون قد جادل في بعض آيات الله ببعض آيات الله ، وهذه الحال يحمد منها أن يكون إحدى الآيتين ناسخة لها أو مفسرة لها بما يخالف ظاهرها ، وإن كان السلف يسمّون

الجميع نسخا، ولهذا لم يكن السلف من الصحابة والتابعين يتركون دلالة آية من كتاب الله إلا بما يسمونه نسخا، ولم يكن في عهدهم كتب في ذلك إلا كتب الناسخ والمنسوخ، لأن ذلك غايته أن نجادل في آيات الله بسلطان، كجدالنا مع أهل التوراة والإنجيل، وهما من آيات الله بالقرآن الذي أنزله الله مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.

فأما معارضة القرآن بمعقول أو قياس فهذا لم يكن يستحله أحد من السلف، وإنما ابتدع ذلك لما ظهرت الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ممن بنوا أصول دينهم على ما سموه معقولا، وردّوا القرآن إليه، وقالوا إذا تعارض العقل والشرع إما أن يفوّض أو يتأول، فهؤلاء من أعظم المجادلين في آيات الله بغير سلطان أتاهم.

وأما تسمية المتأخرين تخصيصا وتقييدا ونحو ذلك، مما فيه صرف الظواهر، فهو داخل في مسمى النسخ عند المتقدمين، وعلى هذا الاصطلاح فيدخل النسخ في الأخبار كما يدخل في الأوامر.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: يعني التخصيص والتقييد. أهـ.

وإنما النسخ الخاص الذي هو رفع الحكم،

قال سماحة الشيخ رحمه الله: الكلام غير تام، لعله يقصد: النسخ الخاص هو رفع الحكم. أهـ.

فلا بد في الخبر عن أمر مستقر.

وأما ما يدخل في الخبر عن إنشاء أمر فيكون لدخوله في الإنشاء إنشاء الأمر والنهي وإنشاء الوعيد عند من يجوز النسخ فيه كآخر البقرة على ما روي عن جمهور السلف.

وهو مبني على أن الوعيد هل هو خبر محض، أو هو مع ذلك إنشاء؟

كالعقود التي تقبل الفسخ لكونه إخبارا عن إرادة المتوعد وعزمه، وكالخبر عن الأمر والنهي المتضمن خبره عن طلبه المتضمن إرادته الشرعية، وهذا مما بيّن ما قرناه في غير هذا الموضع، أن الله سبحانه بين بكتابه سبيل الهدى، وأنه لا يصلح أن يخاطب بما ظاهر معناه باطل أو فاسد، بل ولا يضلل المخاطبين بأن يحيلهم على الأدلة التي يستسيغونها برأيهم، بل يجب أن يكون الكتاب بيانا وهدى وشفاء لما في الصدور، وأن مدلوله ومفهومه حق، وهذا أصل عظيم جدا.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا البحث الذي ذكره المؤلف يوجب لطالب العلم أن تكون همته عالية، وأن لا يتشاغل عن الكتاب والسنة بأشياء تضره ولا تنفعه، وأن تكون عنايته بالكتاب والسنة أكبر عناية وأهم عناية، في حفظ الكتاب والسنة، وتدبرهما وتعقلهما والاستفادة منهما، والاستغناء بهما عما سواهما، إلا ما أعان على فهمهما من كتب المصطلح، وكتب الأصول، وكتب اللغة العربية، وما يدخل في هذا. أهـ

فصل
فيما اختلف فيه المؤمنون
من الأقوال والأفعال في الأصول والفروع

فإن هذا من أعظم أصول الإسلام، الذي هو معرفة الجماعة وحكم الفرقة والتقاتل والتكفير والتلاعن والتباغض وغير ذلك.

فنقول: هذا الباب أصله المحرم فيه من البغي، فإن الإنسان ظلوم جهول، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا

ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ (البقرة : ٢١٣) في غير موضع .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «لتسلكن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال : «فمن»؟(١)

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٥٩) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا أصل عظيم ، هذا الذي ذكره الشيخ أصل عظيم من أصول أهل السنة والجماعة ، ومن الأصول التي بيّنها الله في كتابه أكمل بيان ، وفي مواضع كثيرة ، وبينها رسوله عليه الصلاة والسلام أيضاً أكمل بيان ، وهي الاجتماع على الحق ، والتعاون في تثبيته والأخذ به وتنفيذه ، والتعاون ضد الباطل ، والواجب على المسلمين جميعاً أينما كانوا أن يعتصموا بحبل الله جميعاً وأن لا يتفرقوا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران) حبله دينه الذي بعث به نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، فعلى المسلمين جميعاً أن يعتصموا بحبل الله ، وأن يتحابوا في الحق ، ويتعاونوا على إنفاذ الحق ، وعلى محاربة ما خالفه بالقول والفعل ، بالطرق

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦) كتاب أحاديث الأنبياء باب ما جاء عن بني إسرائيل ، ومسلم (٢٦٦٩) كتاب العلم / باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الحميدة والوسائل الشرعية، التي تعين على الاجتماع وعلى تقارب القلوب، وتعين على ترك الاختلاف والافتراق وتباعد القلوب.

والتباغض والتدابر بين المسلمين سبب لشر عظيم، وسبب لظهور الباطل وخذلان الحق، ولهذا كرر الله جل وعلا الأمر بالاجتماع والتحذير من الافتراق في مواضع كثيرة، ويحمل على هذا الإعراض والبغي من بعضهم على بعض، وأما من قصد الحق وأراده فإنه يوفق ويهدى ويعان، ولكنما يشتد الخلاف ويعظم إذا حصل البغي والعدوان من بعضهم على بعض، ولم يكن هدف المختلفين الحق وطلبُه، فلهذا يحصل بينهم التنازع والبغضاء والتحاسد والتقاطع، حتى يسود الباطل، وحتى يخفى الحق.

فالواجب على كل طالب علم وعلى كل مسلم أن يكون حريصاً على إظهار الحق، محباً لمن أظهره ودعا إلى إظهاره، منضماً إليه متعاوناً معه في إظهار الحق وإخماد الباطل والقضاء عليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ والنبي ﷺ يقول: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»(١) ويقول: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»(٢) إلى غيرها من الأحاديث التي جاءت عنه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٥) كتاب الأقضية/ باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، ورواه أحمد في المسند (٨٥٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٤) كتاب الأدب/ باب (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم) ومسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يحقرن أحد نفسه فيقول أنا لا أدخل في هذا ، أو أنا خلافي أو نزاعي ، بل يقدِّر أنه مسئول ، وليعلم أنه مسئول ، وأن الواجب عليه الحرص على إظهار الحق ، وعلى نصر أهله ، والكون معهم والتعاون معهم ، في أي قرية وفي أي مكان وفي أي قبيلة .أهـ

ومن هذا الباب ما هو من باب التأويل والاجتهاد الذي يكون الإنسان مستفرغا فيه وسعه علما وعملا .

ثم الإنسان قد يبلغ ذلك ولا يعرف الحق في المسائل الخبرية الاعتقادية ، وفي المسائل العملية الاقتصادية والله سبحانه قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : «أن الله استجاب لهم هذا الدعاء وقال قد فعلت وأنهم لم يقرؤوا بحرف منها إلا أعطوه»(١) وهذا مع قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة : ٨٢) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وفي هذا المعنى يقول تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الواجب على طالب العلم وعلى المسلم أن يطلب الحق ويعتني به ويأخذ بأسبابه ووسائله ، فإذا أخطأ أو نسي فلا حرج ، فالمهم أن يعلم الله من قلبه قصد الحق وطلبه واستفراغ الوسع في تحصيله والأخذ بوسائله ، هذا هو المعذور ، أن يجتهد ويتحرى ويطلب الحق ويأخذ بأسبابه وطرقه ، ولكن لا يوفق له ولا يصيبه ، فهذا إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر ، بخلاف من يتساهل ولا يبالي ، فهذا شبه المتعمد .أهـ

(١) مسلم (١٢٥) كتاب الإيمان/ باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

وقوله دليل على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وغير ذلك ، دليل على أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

والوسع هو ما تسعه النفس فلا تضيق عنه ولا تعجز عنه ، فالوسع فعل بمعنى مفعول كالجهد .

وهذا أيضاً كقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج : ٧٨) ، وقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة : ١٨٥) ، وقوله : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ (المائدة : ٦) ، والحرج الضيق ، فهو نفى أن يكون عليهم ضيق ، أي ما يضيق عنهم ، كما أخبر أنه لا يكلف النفس إلا ما تسعه ، فلا بد أن يكون الإيجاب والتحريم مما تسعه النفس ، حتى يقدر الإنسان على فعله ، ولا بد أن يكون المباح مما يسع الإنسان ولا يضيق عنه ، حتى يكون للإنسان ما يسع الإنسان ويحمل الإنسان ، ولا يضيق عنه من المباح .

وليتدبر الفرق بين ما يسعه الإنسان وهو الوسع الذي قيل فيه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، وبين ما يسع الإنسان فلا يكون حرجاً عليه ، وهو مما لا بد للإنسان منه من المباحات ، وهذا يكون في صفة فعل المأمور به كما في الوضوء والصلاة ، فلا بد أن يكون المجزئ له من ذلك ما يسع الإنسان ، والواجب عليه ما يسعه الإنسان ، ويكون في باب الحلال والحرام ، فلا يحرم عليه ما لا يسع هو تركه ، بحيث يبقى المباح له ضيقاً منه لا يسعه .

وإذا كان كذلك فينبغي أن يعلم أن للقلوب قدرة في باب العلم والاعتقاد العلمي ، وفي باب الإرادة والقصد ، وفي الحركة البدنية أيضاً .

فالخطأ والنسيان هو من باب العلم يكون إما مع تعذر العلم عليه ، أو

تعسيره عليه ، والله قد قال : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج : ٧٨) وقال : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

وقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه لمعاذ وأبي موسى لما أرسلها إلى اليمن : «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا»(١)

وإذا كان كذلك فما عجز الإنسان عن عمله واعتقاده حتى يعتقد ويقول ضده خطأ أو نسيانا فذلك مغفور له ، كما قال النبي ﷺ : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»(٢) .

وهذا يكون فيما هو من باب القياس والنظر بعقله ورأيه ، ويكون فيما هو من باب النقل والخبر الذي يناله بسمعه وفهمه وعقله ، ويكون فيما هو من باب الإحساس والبصر الذي يجده ويناله بنفسه .

فهذه المدارك الثلاثة قد يحصل للشخص بها علم يقطع به ويكون ضروريا في حقه مثل ما يجده في نفسه من العلوم الضرورية ، ومثل ما سمعه من النبي

(١) رواه البخاري (٦١٢٤) كتاب الأدب / باب قول النبي ﷺ «يسروا ولا تعسروا» من حديث أنس ﷺ ، و (٣٠٣٨) كتاب الجهاد والسير / باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه ، و (٤٣٤١-٤٣٤٢-٤٣٤٤) كتاب المغازي / باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، و (٧١٧٢) كتاب الأحكام / باب أمر الوالي إذا وجه أميرين إلى موضع أن يتطاوعا ولا يتعاصيا ، ومسلم (١٧٣٣) كتاب الجهاد والسير / باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٧٣٥٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ومسلم (١٧١٦) كتاب الأقضية/ باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ . من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما .

ﷺ أو من المخبرين له الصادقين خبرا يفيده العلم ، كالخبر المتواتر الذي يفيده العلم ، تارة بكثرة عدد المخبرين ، وتارة بصفاتهم ، وتارة بهما ، وغير ذلك مما يفيد العلم .

وقد يكون مما علمه بآثاره الدالة عليه ، أو بحكم نظره المساوي له من كل وجه ، أو الذي يدل على الآخر بطريق الأولى والتنبيه ونحو ذلك ، ومع هذا فتكون هذه العلوم عند غيره متيقنة مع اجتهاده لدقة العلوم أو خفائها ، أو لوجود ما يعتقد المعتقد أنه يعارض ولا يكون معارضا في الحقيقة ، فيشتبه بالمعارض لاشتباه المعارض لاشتباه المعاني أو لاشتراك الألفاظ .

فهذا من أعظم أسباب اختلاف بني آدم من المؤمنين وغيرهم ، ولهذا تجد في المختلفين كل طائفة تدّعي العلم الضروري ، فما يقوله إما من جهة القياس والنظر ، وإما من جهة السماع والخبر ، وإما من جهة الإحساس والبصر ، ولا تكون واحدة من الطائفتين كاذبة بل صادقة .

لكن يكون قد أدخل مع الحق ما ليس منه في النفي والإثبات لاشتباه المعاني واشتراك الألفاظ ، فيكون حينئذ ما ينفيه هذا يثبته الآخر ، ولو زال الاشتباه والاشتراك زال الخلاف التضادي ، وكان اختلاف الناس في مسائل الجبر والقدر ، ومسائل نفي الجسم وإثباته ، ونفي موجب الأخبار وإثبات ذلك ؛ هو من هذا الباب .

وهذا كله موجود في كتب أهل الكلام وأهل الحديث والفقه وغير ذلك .

وقول القائل : إن الضروريات يجب اشتراك العقلاء فيها ، خطأ ، بل الضروريات كالنظريات تارة يشتركون فيها ، وتارة يختص بها من جعل له قوة على إدراكها .

سؤال/ إذا اعتقد خطئاً في أصول العقائد؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : يختلف هذا ، إن كان في الأدلة الظاهرة فإنه لا يعذر ، وهذا قصور في عمله ، ما اعتنى ، أما الذي قد يخفى ، مثل دقائق الأمور ، أو في محل بعيد عن الإسلام والمسلمين ، كما في قصة الذي أمر بإحراق نفسه وما أشبه ذلك ، فهذا قد يعذر لقوله جل وعلا : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أما إنسان بين العلماء وبين المسلمين وعنده الأدلة ، وليس هناك مانع ، ويقول أخطأ فيها كذا ، وغلط فيها كذا ؛ فهذا في الغالب يكون من جهة قصوره في العمل ، وعدم بذله الوسع في طلب الحق ، فلا يكون خطؤه مغفوراً ، لأنه قصّر في طلب الحق ، فهو مأمور بطلب الحق والاجتهاد في تحصيله ، فهذا مقام خطير . أهـ

سؤال/ ما استثنى؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : المراد هو هذا ، مراده إذا بذل الوسع ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ مثل ما تكلم على الوسع . أهـ

سؤال/ الخطأ في تأويل الصفات؟

أجاب سماحته رحمه الله : هذا منكر ، لأنه ميسر ، والله جل وعلا منعهم من الكلام في هذا وقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى) . أهـ

وكذلك قول القائلين إن الطائفة التي تبلغ عدد التواتر لا يتفقون على جحد الضروريات ، ليس بصواب ، بل يتفقون على ذلك إذا تواطئوا عليها ، وخبر التواتر متى كان عن تواطؤ لم يفد العلم ، وإنما يفيد العلم لانتفاء التواطؤ فيه ، وإذا كان كذلك فقد يكون المختلفون قد اجتهد أحدهم فأصاب ، ويكون الآخر

اجتهد فأخطأ ، فيكون للأول أجران ، وللثاني أجر ، مع أن خطأه مغفور له ، وقد يكون كلاهما اجتهد فأخطأ فيغفر لهما جميعا مع وجود الأجر .

ويكون الصواب في قولنا ثالثا ، أما تفصيل ما أطلقوه مثل أن ينفي هذا نفيا عاما ، ويثبت الآخر ما نفاه الأول ، فيفصل المفصل ويثبت البعض دون البعض ، وكذلك في المعنى المشتبه واللفظ المشترك ، يفصل بين المعنى وما يشبهه إذا كان مخالفا له ، وبين معنى لفظ ومعنى لفظ .

ثم إنه من مسائل الخلاف ما يتضمن أن اعتقاد أحدهما يوجب عليه بغض الآخر ولعنه أو تفسيقه أو تكفيره أو قتاله ، فإذا فعل ذلك مجتهدا مخطئا ؛ كان خطؤه مغفورا له ، وكان ذلك في حق الآخر محنة في حقه وفتنة وبلاء ابتلاه به .

وهذه حال البغاة المتأولين مع أهل العدل ، سواء كان بين أهل اليد والقتال من الأمراء ونحوهم ، أو بين أهل اللسان والعمل من العلماء والعباد ونحوهم ، وبين من يجمع الأمرين .

ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي لا لمجرد الاجتهاد ، كما قال تعالى ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ (عمران : ١٩) ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ (الأنعام :١٥٩) وقال : ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ سورة آل عمران ١٠٥

فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ ، بل مع نوع بغي ، ولهذا

نهى النبي ﷺ عن القتال في الفتنة، وكان ذلك من أصول السنة، وهذا مذهب أهل السنة والحديث وأئمة أهل المدينة من فقهائهم وغيرهم.

ومن الفقهاء من ذهب إلى أن ذلك يكون مع وجود العلم التام من أحدهما والبغي من الآخر، فيجب القتال مع العادل حينئذ، وعلى هذا الفتنة الكبرى بين أهل الشام والعراق، هل كان الأصوب حال القاعدين أو حال المقاتلين من أهل العراق؟

والنصوص دلت على الأول.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ينظر في هذا، فقد يسلم بالنسبة إلى بعض الأشخاص الذين التبس عليهم الأمر، فيكون - مثل ما قال المؤلف - الصواب مع القاعد، إلا الذي التبس عليه الأمر، مثل ما قعد محمد بن مسلمة، وسعد بن أبي وقاص، وجماعة.

ولكن من عرف الحق وظهر له المصيب وخطأ المخطئ فلا يكون معذوراً.

فلهذا الذين ظهر لهم الصواب، وصاروا مع علي، وقاتلوا، لهم أجران، لأنهم أصابوا، ولأنهم صاروا مع الطائفة التي هي أولى بالحق، وهي المبغي عليها، والطائفة الأخرى من أهل الشام صاروا هم البغاة، وصار لهم أجر واحد، لخطئهم، هذا هو الصواب.

لكن من اشتبه عليه الأمر ما يتضح له وجه الصواب، وقعد من هذه الحيثية؟ فيكون مصيباً من هذه الحيثية، لاشتباه الأمور عليه، وإذا اشتبهت الأمور وجب على المؤمن أن لا يدخل في شيء مشتبه، ولا سيما فيه سفك دماء، وفيه تعرض لأشياء كثيرة من ضرب ومن غير هذا.

فالمقصود أنه إذا اشتبه الأمر ، فهذا هو وجه الصواب في حق من قعد ، كالفتن الأخرى التي لا يعرف فيها صواب القاتل من المقتول ، فإن خيرهما من كف عنها .اهـ

وقالوا : كان ترك قتال أهل العراق أصوب ، وإن كانوا أقرب إلى الحق وأولى به من أهل الشام إذ ذاك ، كما بسطنا الكلام في هذا في غير هذا الموضع وتكلمنا على الآيات والأحاديث في ذلك .

ومن أصول هذا الموضع ، أن مجرد وجود البغي من إمام أو طائفة لا يوجب قتالهم ، بل لا يبيحه ، بل من الأصول التي دلت عليها النصوص ، أن الإمام الجائر الظالم يؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ، ولا يقاتلونه ، كما أمر النبي ﷺ بذلك في غير حديث ، فلم يأذن في دفع البغي مطلقا بالقتال ، بل إذا كانت فيه فتنة نهى عن دفع البغي به وأمر بالصبر .

وأما قوله سبحانه ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ (الحجرات : ٩) ، فهو سبحانه قد بين مراده ، ولكن من الناس من يضع الآية على غير موضعها ، فإنه سبحانه قال ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝﴾ (الحجرات : ٩) ، فهو لم يأذن بابتداء في قتال بين المؤمنين بل إذا اقتتلوا فأصلحوا بينهما والاقتتال هو فتنة وقد تكون إحداهما أقرب إلى الحق فأمر سبحانه في ذلك بالإصلاح .

وكذلك فعل النبي ﷺ لما اقتتل بنو عمرو بن عوف فخرج ليصلح بينهم وقال لبلال : إن حضرت الصلاة فقدّم أبا بكر .(١)

ثم قال سبحانه : ﴿ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحجرات : ٩) ، فهو بعد اقتتالهم إذا أصلح بينهم بالقسط فلم تقبل إحداهما القسط بل بغت فإنها تقاتل لأن قتالها هنا يدفع به القتال الذي هو أعظم منه فإنها إذا لم تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله بل تركت حتى تقتتل هي والأخرى كان الفساد في ذلك أعظم .

والشريعة مبناها على دفع الفسادين بالتزام أدناهما وفي مثل هذا يقاتلون حتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله لأنه إذا أمروا بالصلاح والكف عن الفتنة فبغت إحداهما قوتلت حتى لا تكون فتنة والمأمور بالقتال هو غير المبغي عليه أمر بأن يقاتل الباغية حتى ترجع إلى الدين فقتالها من باب الجهاد وإعانة المظلوم المبغي عليه .

أما إذا وقع بغي ابتداء بغير قتال مثل أخذ مال أو مثل رئاسة بظلم فلم يأذن الله في اقتتال طائفتين من المؤمنين على مجرد ذلك لأن الفساد في الاقتتال في مجرد رئاسة أو أخذ مال فيه نوع ظلم ، فلهذا نهى النبي ﷺ عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم .

وعلى هذا فما ورد في صحيح البخاري من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ قال ذلك ليس هو مخالفاً لما تواتر عنه من أنه أمر بالإمساك عن القتال في الفتنة وأنه جعل القاعد فيها خيراً من القائم والقائم خيراً من الماشي والماشي خيراً من الساعي .

(١) رواه البخاري (٢٦٩٠) كتاب الصلح / باب ما جاء في الإصلاح بين الناس من حديث سهل ابن سعد ؓ .

وقال : «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»[١] وأمر فيها بأن يلحق الإنسان بإبله وبقره وغنمه[٢] لأن وصفه تلك الطائفة بالبغي هو كما وصف به من وصف من الولاة بالأثرة والظلم ، كقوله ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض .

وقوله ﷺ : «**ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم**»[٣] وأمثال ذلك من الأحاديث الصحاح ، فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم وطلب المظلوم حقه من الله ولم يأذن للمظلوم المبغي عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها فتنة كما أذن في دفع الصائل بالقتال حيث قال : «**من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد**»[٤] فإن قتال اللصوص ليس قتال فتنة إذ الناس كلهم أعوان على ذلك فليس فيه ضرر عام على غير الظالم بخلاف قتال ولاة الأمور فإن فيه فتنة وشرا عاما أعظم من ظلمهم فالمشروع فيه الصبر .

وإذا وصف النبي ﷺ طائفة بأنها باغية سواء كان ذلك بتأويل أو بغير تأويل لم يكن مجرد ذلك موجبا لقتالها ولا مبيحا لذلك إذ كان قتال فتنة .

---

(١) رواه البخاري (١٩) كتاب الإيمان/ باب من الدين الفرار من الفتن ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب نزول الفتن كمواقع القطر ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٣) رواه البخاري (٧٠٥٢) كتاب الفتن / قول النبي ﷺ : «ستروون بعدي أموراً تنكرونها» .

(٤) رواه أبو داود (٤٧٧٢) كتاب السنة / باب في قتال اللصوص . والترمذي (١٤٢١) كتاب الديات / باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد والنسائي (٤٠٩٩) كتاب المحاربة (تحريم الدم) / باب من قاتل دون دينه ، من حديث سعيد بن زيد ﷺ .

فتدبر هذا فإنه موضع عظيم يظهر فيه الجمع بين النصوص ولأنه الموضع الذي اختلف فيه اجتهاد علماء المؤمنين قديما وحديثا ، حيث رأى قوم قتال هؤلاء مع من هو أولى بالحق منهم ورأى آخرون ترك القتال إذا كان القتال فيه من الشر أعظم من ترك القتال كما كان الواقع ، فإن أولئك كانوا لا يبدءون البغاة بقتال حتى يجعلوهم صائلين عليهم ، وإنما يكون ذنبهم ترك واجب مثل الامتناع من طاعة معين والدخول في الجماعة ، فهذه الفرقة إذا كانت باغية وفي قتالهم من الشر كما وقع أعظم من مجرد الاقتصار على ذلك ، كان القتال فتنة وكان تركه هو المشروع وإن كان المقاتل أولى بالحق وهو مجتهد .

وعامة ما تنازعت فيه فرقة المؤمنين من مسائل الأصول وغيرها في باب الصفات والقدر والإمامة وغير ذلك هو من هذا الباب فيه المجتهد المصيب وفيه المجتهد المخطئ ويكون المخطئ باغيا وفيه الباغي من غير اجتهاد وفيه المقصر فيما أمر به من الصبر .

وكل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين سواء كان قولا أو فعلا ولكن المصيب العادل عليه أن يصبر عن الفتنة ويصبر على جهل الجهول وظلمه إن كان غير متأول ، وأما إن كان ذاك أيضا متأولا فخطؤه مغفور له وهو فيما يصيب به من أذى بقوله أو فعله له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له وذلك محنة وابتلاء في حق ذلك المظلوم .

فإذا صبر على ذلك واتقى الله كانت العاقبة له كما قال تعالى : ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (آل عمران : ١٢٠) ، وقال تعالى : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران) .

فأمر سبحانه بالصبر على أذى الأولى ، وأهل الكتاب مع التقوى ، وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض ، متأولين كانوا أو غير متأولين .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني من باب أولى ، الصبر على أولئك لدفع الفتن ، فالصبر على الأذى وما قد يقع من الخطأ من المؤمنين من باب أولى ، حتى لا تقع فتنة كبرى .اهـ

وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة : ٨) ، فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالماً له ، فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا ، فإن الشيطان موكل ببني آدم وهو يعرض للجميع ولا يسلم أحد من مثل هذه الأمور ، دع ما سواها من نوع تقصير في مأمور أو فعل محظور باجتهاد أو غير اجتهاد وإن كان هو الحق .

وقال سبحانه لنبيه : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر) .

فأمره بالصبر وأخبره أن وعد الله حق وأمره أن يستغفر لذنبه ولا تقع فتنة إلا

من ترك ما أمر الله به ، فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر ، فالفتنة إما من ترك الحق وإما من ترك الصبر ، فالمظلوم المحق الذي لا يقصر في علمه يؤمر بالصبر فإذا لم يصبر فقد ترك المأمور .

وإن كان مجتهدا في معرفة الحق ولم يصبر فليس هذا بوجه الحق مطلقا لكن هذا وجه نوع حق فيما أصابه فينبغي أن يصبر عليه ، وإن كان مقصرا في معرفة الحق ، فصارت ثلاثة ذنوب : أنه لم يجتهد في معرفة الحق ، وأنه لم يصبه ، وأنه لم يصبر .

وقد يكون مصيبا فيما عرفه من الحق فيما يتعلق بنفسه ولم يكن مصيبا في معرفة حكم الله في غيره وذلك بأن يكون قد علم الحق في أصل يختلف فيه بسماع وخبر أو بقياس ونظر أو بمعرفة وبصر ويظن مع ذلك أن ذلك الغير التارك للإقرار بذلك الحق عاص أو فاسق أو كافر ولا يكون الأمر كذلك لأن ذلك الغير يكون مجتهدا قد استفرغ وسعه ولا يقدر على معرفة الأول لعدم المقتضي ووجود المانع .

وأمور القلوب لها أسباب كثيرة ولا يعرف كل أحد حال غيره من إيذاء له بقول أو فعل قد يحسب المؤذى إذا كان مظلوما لا ريب فيه أن ذلك المؤذي محض باغ عليه ويحسب أنه يدفع ظلمه بكل ممكن ويكون مخطئا في هذين الأصلين إذ قد يكون المؤذي متأولا مخطئا وإن كان ظالما لا تأويل له فلا يحل دفع ظلمه بما فيه فتنة بين الأمة وبما فيه شر أعظم من ظلمه بل يؤمر المظلوم ها هنا بالصبر فإن ذلك في حقه محنة وفتنة .

وإنما يقع المظلوم في هذا لجزعه وضعف صبره أو لقلة علمه وضعف رأيه

فإنه قد يحجب أن القتال ونحوه من الفتن يدفع الظلم عنه ولا يعلم أنه يضاعف الشر كما هو الواقع وقد يكون جزعه يمنعه من الصبر .

والله سبحانه وصف الأئمة بالصبر واليقين فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة) ، وقال : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر) .

وذلك أن المظلوم وإن كان مأذوناً له في دفع الظلم عنه بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (الشورى) فذلك مشروط بشرطين :

أحدهما : القدرة على ذلك . والثاني : ألا .

فإذا كان عاجزاً أو كان الانتصار يفضي إلى عدوان زائد لم يجز وهذا هو أصل النهي عن الفتنة ، فكان إذا كان المنتصر عاجزاً وانتصاره فيه عدوان فهذا هذا ، ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة والنهي عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان كما دل على وجوب ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

وكثير من الناس قد يرى تعارض الشريعة في ذلك فيرى أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة فإما أن يؤمر بهما جميعاً أو ينهى عنهما جميعاً وليس كذلك بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ (لقمان : ١٧) .

وقال عبادة : «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله وأن نقوم أو نقول بالحق حيث

ما كنا لا نخاف في الله لومة»[1] لأنه فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله وأمرهم بالقيام بالحق .

ولأجل ما يظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس ، والحائر الذي لا يدري لعدم ظهور الحق وتميز المفعول من المتروك ما يفعل إما لخفاء الحق عليه أو لخفاء ما يناسب هواه عليه .

والبدعة مقرونة بالفرقة كما أن السنة مقرونة بالجماعة فيقال أهل السنة والجماعة كما يقال أهل البدعة والفرقة وقد بسطنا هذا كله في غير هذا الموضع ، وإنما المقصود هنا التنبيه على وجه تلازمهما موالاة المفترقين وإن كان كلاهما فيه بدعة وفرقة ، أو كانوا مؤمنين فيوالون بإيمانهم ويترك ما ليس من الإيمان من بدعة وفرقة فإن البدعة ما لم يشرعه الله من الدين ، فكل من دان بشيء لم يشرعه الله فذاك بدعة وإن كان متأولاً فيه .

وهذا موجود من جميع أهل التأويل المفترقين من الأولين والآخرين فإنهم إذا رأوا ما فعلوا مأموراً به ولم يكن كذلك فليس ما فعلوه سنة بل هو بدعة متأولة مجتهد فيها من المنافقين سواء كانت في الدنيا أو في الدين .

كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (التوبة) ، وقال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٧) .

(١) رواه البخاري (٧٠٥٦) كتاب الفتن / باب قول النبي ﷺ «سترون بعدي أموراً تنكرونها» .

وتجد أئمة أهل العلم من أهل البدعة والفرقة من أهل الإيمان والنفاق يصنفون لأهل السيف والمال من الملوك والوزراء في ذلك ويتقربون إليهم بالتصنيف فيما يوافقهم كما صنف كتاب تحليل النبيذ لبعض الأمراء وهو الكرخي ، وقد صنف الجاحظ قبله كتابا لكن أظنه مطلقا ، وكما صنف ابن فورك كتابا في مذهب ابن كلاب الرئيسي ، وكما صنف أبو المعالي النظامية والغياثي لنظام الملك وكما صنف الرازي كتاب الملخص في الفلسفة لوزير وقته زهير وكتابا في أحكام النجوم لملك وقته علاء الدين وكتابا في السحر وعبادة الأوثان لأم الملك .

وكما صنف السهروردي الحلبي المقتول الألواح العمادية في المبدأ والمعاد لعماد الدين قره أرسلان بن داود وقال فيه : لما تواترت لدي مكاتبات الملك فلان وقد أمرني بتحرير عجالة شديدة الإيجاز بيّنة الإعجاز تتضمن ما لابد من معرفته في المبدأ والمعاد على ما يراه من متأهلة وأساطين الفضلاء فبادرت إلى امتثال مرسومه وتحصيل مطلوبه وكنت قد صادفت مختصرات صنفها بعض المتأخرين لأمراء زمانهم وملوك أزمانهم وسمعت أنها ما انتفعوا بها لأنهم عدلوا عن مصلحة التعليم وطريق التفهيم وما غيّروا شيئا من الاصطلاحات الغامضة المآخذ ففوّتوا الرعاية لفائدة جزئية لا لمصلحة كلية .

وكما صنف صاحب دعوة البلاغ الأكبر والناموس الأعظم .

فصل
مهم عظيم القدر في هذا الباب

وذلك أن طوائف كبيرة من أهل الكلام من المعتزلة ، وهو أصل هذا الباب ، كأبي علي وأبي هاشم وعبد الجبار وأبي الحسين وغيرهم ومن اتبعهم من الأشعرية كالقاضي أبي بكر وأبي المعالي وأبي حامد والرازي ومن اتبعهم من الفقهاء يعظِّمون أمر الكلام الذي يسمونه أصول الدين حتى يجعلون مسائله قطعية ويوهنون من أمر الفقه الذي هو معرفة أحكام الأفعال حتى يجعلوه من باب الظنون لا العلوم ، وقد رتبوا على ذلك أصولاً انتشرت في الناس حتى دخل فيها طوائف من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث لا يعلمون أصلها ولا ما تؤول إليه من الفساد ، مع أن هذه الأصول التي ادعوها في ذلك باطلة واهية كما سنبينه في غير هذا الموضع ، ذلك أنهم لم يجعلوا لله في الأحكام حكماً معيّناً حتى ينقسم المجتهد إلى مصيب ومخطئ بل الحكم في حق كل شخص ما أدى إليه اجتهاده

وقد بيّنا في غير هذا الموضع ما في هذا من السفسطة والزندقة ، فلم يجعلوا لله حكماً في موارد الاجتهاد أصلاً ولا جعلوا له على ذلك دليلاً أصلاً ، بل ابن الباقلاني وغيره يقول : وما ثم أمارة في الباطن بحيث يكون ظن أصح من ظن وإنما هو أمور اتفاقية فليست الظنون عنده مستندة إلى أدلة وأمارات تقتضيها كالمعلوم في استنادها إلى الأدلة

ثم إنه وطائفة معه قد أبطلوا أصول الفقه ومنعوا دلالتها حتى سموا واقفة والكلام نوعان : أمر وخبر ، فمنعوا دلالة صيغ الأمر عليه ومنعوا دلالة صيغ الخبر العام عليه .

ومن فروع ذلك أنهم يزعمون أن ما تكلموا فيه من مسائل الكلام هي مسائل قطعية يقينية ، وليس في طوائف العلماء من المسلمين أكثر تفرقا واختلافا منهم ، ودعوى كل فريق في دعوى خصمه الذي يقول إنه قطعي ، بل الشخص الواحد منهم يناقض نفسه حتى أن الشخصين والطائفتين بل الشخص الواحد والطائفة الواحدة يدّعون العلم الضروري بالشيء ، ونقيضه ، ثم مع هذا الاضطراب الغالب عليهم يكفر بعضهم بعضا كما هو أصول الخوارج والروافض والمعتزلة وكثير من الأشعرية ويقولون في آخر أصول الفقه : المصيب في أصول الدين واحد ، وأما الفروع ففيها كل مجتهد مصيب ، ثم إنهم صنفوا في أصول الفقه وهو علم مشترك بين الفقهاء والمتكلمين فبنوه على أصولهم الفاسدة ، حتى إن أول مسألة منه وهي الكلام في حد الفقه لما حدوه بأنه العلم بأحكام أفعال المكلفين الشرعية أورد هؤلاء كالقاضي أبي بكر والرازي والآمدي ومن وافقهم من فقهاء الطوائف كأبي الخطاب وغيره السؤال المشهور هنا وهو أن الفقه من باب الظنون لأنه مبني على الحكم بخبر الواحد والقياس والعموم والظواهر وهي إنما تفيد الظن ، فكيف جعلتموه من العلم حيث قلتم العلم .

وأجابوا عن ذلك بأن الفقيه قد علم أنه إذا حصل له هذا الظن وجب عليه العمل به كما قال الرازي .

فإن قلت : الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علماً؟

قلت : المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط الحكم قطع بوجوب العلم بما أدى إليه ظنه ، فالعلم حاصل قطعا والظن واقع في طريقه .

وقد ظن طائفة من الفقهاء الناظرين في أصول الفقه أن هذا الجواب ضعيف لقوله : العلم حاصل قطعا والظن واقع في طريقه .

قالوا : والحكم بالنتيجة يتبع أضعف المقدمات وأحسن المقدمات ، فالموقوف على الظن أولى أن يكون ظناً .

وليس الأمر كما توهموا بل لم يفهموا كلام هؤلاء ، فإن هذا الظن ليس هو عندهم دليل العلم بوجوب العلم به ولا مقدمة من مقدمات دليله ولكنهم يقولون : قامت الأدلة القطعية من النصوص والإجماع مثلا على وجوب العلم بالظن الحاصل عن خبر الواحد والقياس ، وذلك العلم حصل بأدلته المفيدة له لم يحصل بهذا الظن ولا مقدماته .

لكن التقدير إذا حصل لك أيها المجتهد ظن فعليك أن تعمل به وحصول الظن في النفس وجدي يجده المرء في نفسه ويحسه كما يجد عمله ويحسه ، فمعرفته بحصول الظن يقيني ومعرفته بوجوب العمل به يقيني ، فهاتان مقدمتان علميتان إحداهما سمعية والأخرى وجدية .

وصار هذا كما لو قيل له : إذا حصل لك مرض في الصوم أنه يجوز لك الفطر وإذا حصل مرض يمنعك القيام في الصلاة فاعلم أن عليك أن تصلي قاعداً ، فإذا وجد المرض في نفسه علم حينئذ حكم الله بإباحة الفطر وبالصلاة قاعداً ، فهكذا وجود الظن عندهم في نفس المجتهد .

وإذا علم أن هذا حقيقة قولهم تبين حينئذ فساد ما ذكروه من غير تلك الجهة وهو أن هذا يقتضي ألا يكون الفقه إلا العلم بوجوب العمل بهذه الظنون والاعتقادات الحاصلة عن أمارات الفقه على اصطلاحهم .

ومعلوم أن هذا العلم هو من أصول الفقه وهو لا يخص مسألة دون مسألة ولا فيه كلام في شيء من أحكام الأفعال كالصلاة والجهاد والحدود وغير ذلك ، وهو أمر عام كلي ليس هو الفقه باتفاق الناس كلهم ، إذ الفقه يتضمن الأمر بهذه الأفعال والنهي عنها إما علما وإما ظنا .

فعلى قولهم: الفقه هو ظن وجوب هذه الأعمال وظن التحريم وظن الإباحة وتلك الظنون هي التي دلت عليها هذه الأدلة التي يسمونها الأمارات كخبر الواحد والقياس فإذا حصلت هذه الظنون حصل الفقه عندهم.

وأما وجوب العلم بهذا الظن فذاك شيء آخر، وهذا الذي ذكروه إنما يصلح أن يذكر في جواب من يقول: كيف يسوغ لكم العمل بالظن فهذا يورد في أصول الفقه في تقرير هذه الطرق إذا قيل إنها إنما تفيد الظن قيل: وكيف يسوغ اتباع الظن مع دلالة الأدلة الشرعية على خلاف ذلك؟

فيقولون في الجواب: المتبع إنما هو الأدلة القطعية الموجبة للعمل بهذا الظن، والعامل بتلك الأدلة متبع للعلم لا للظن، أما أن يجعل نفس الفقه الذي هو علم ظنا فهذا تبديل ظاهر، وأتباعهم الأذكياء تفطنوا لفساد هذا الجواب.

وقد تجيب طائفة أخرى كأبي الخطاب وغيره عن هذا السؤال بأن العلم يتناول، اليقين والاعتقاد الراجح كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ (الممتحنة ١٠) وأن تخصيص لفظ العلم بالقطعيات اصطلاح المتكلمين والتعبير هو باللغة لا بالاصطلاح الخاص.

والمقصود هنا ذكر أصلين هما بيان فساد قولهم: الفقه من باب الظنون، وبيان أنه أحق باسم العلم من الكلام الذي يدعون أنه علم، وأن طرق الفقه أحق بأن تسمى أدلة من طرق الكلام.

والأصل الثاني بيان أن غالب ما يتكلمون فيه ،من الأصول ليس بعلم ولا ظن صحيح، بل ظن فاسد وجهل مركب.

ويترتب على هذين الأصلين منع التكفير باختلافهم في مسائلهم، وأن التفكير في الأمور العملية الفقهية قد يكون أولى منه في مسائلهم.

فنقول: الفقه هو معرفة أحكام أفعال العباد، سواء كانت تلك المعرفة علما أو ظنا أو نحو ذلك.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وفي نهجهم هذا الذي ذكره المؤلف رحمه الله ضلوا عن الصواب، ووقعوا في الأخطاء العظيمة، وأبطلوا في نفي الصفات، وفي تأويلها، وفي العقيدة جعلوا النصوص من الكتاب والسنة ظواهر ظنية، وعدلوا عنها إلى آرائهم ونحاتة أفكارهم، فوقع منهم الضلال البعيد والشر الكثير، ووقعوا في أنواع كثيرة من الضلال بسبب هذه القواعد التي أصلوها، فجعلوا نحاتة أفكارهم وما وضعوه هم أدلة قطعية أخذوا بها، وجعلوا أدلة الكتاب والسنة ظنية، وما ينتج عنها ظني، فتساهلوا في أخذ الأدلة من الكتاب والسنة، وضعفوا عن ذلك، وقدموا ما بدا لهم وما أصلوه لأنفسهم، حتى وصلوا بذلك إلى مخالفة النصوص وتعطيل الكتاب والسنة، وإلى تأويل الصفات، أو تأويل بعضها، وإلى الشك في كثير من الأحكام، بسبب هذه الأصول التي وضعوها لأنفسهم.

وهي في الحقيقة أصول فاسدة - مثل ما قال المؤلف رحمه الله - وانبنى عليها جهل مركب، حيث ظنوا أنهم يعلمون وهم لا يعلمون، والأصول فاسدة، قواعد باطلة تركب عليها جهل مركب، وهو أنهم ظنوا أنهم على علم وليسوا بعلماء، ولهذا علماء الكلام - مثل ما قال الشافعي رحمه الله - ينبغي أن يطاف بهم في الأسواق، ويضربوا بالجريد والنعال ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وخاض في علم الكلام. أو كما قال رحمه الله[1].

(١) رواه أبو إسماعيل الهروي في ذم الكلام وأهله (١١٤٢) ٤/ ٢٩٤، والذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩ وقال: لعل هذا متواتر عن الإمام.

والفقه هو العلم ، لكن علم الأصول ـ أصول الدين ـ هو الفقه الأكبر ، وهو الأعظم ، وفقه الأحكام فقه وعلم يجب على المسلمين الأخذ به ، وأدلته من الكتاب والسنة ، ولو خبر واحد بدليل عظيم معتمد ثبت عن الرسول ﷺ فهو حجة ، سواء سمي أفاد العلم أو أفاد الظن ، فالظن الذي عليه الأدلة وله الشواهد علم يعمل به ويؤخذ به ، ولهذا قبل بشهادة الواحد ، حتى في الأموال ، تارة مع اليمين وتارة مع اليمين وبشهادة العدلين ، وفي قتل النفوس وإزهاق الأرواح ، وفي القصاص ، وقطع يد السارق ، بشاهدين عدلين فقط ، فهو علم وإن سماه البعض ظناً ، فهو علم شرعي رتب عليه الشارع أحكاماً ، وهكذا الروايات عن النبي ﷺ بالأسانيد الصحيحة ، وإن كانت غريب علم تترتب عليه أحكام وتجب به فرائض وتحرم به أشياء .

فهؤلاء الذين أصلوا علم الكلام ، ورتبوا عليه مرتبات وأحكاماً وقضايا ؛ أخطئوا فيها خطأً عظيماً ، وضلوا بها عن سواء السبيل ، ومرج أمرهم بسبب ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . اهـ

ومن المعلوم لمن تدبر الشريعة أن أحكام عامة أفعال العباد معلومة لا مظنونة ، وأن الظن فيها إنما هو قليل جدا في بعض الحوادث لبعض المجتهدين ، فأما غالب الأفعال مفادها وأحداثها فغالب أحكامها معلومة ولله الحمد ، وأعني بكونها أن العلم بها ممكن وهو حاصل لمن اجتهد واستدل بالأدلة الشرعية عليها ، لا أعني أن العلم بها حاصل لكل أحد ، بل ولا لغالب المتفقهة المقلدين لائمتهم ، بل هؤلاء غالب ما عندهم ظن أو تقليد .

إذ الرجل قد يكون يرى مذهبه بعض الأئمة ، وصار ينقل أقواله في تلك المسائل ، وربما قربها بدليل ضعيف من قياس أو ظاهر ، هذا إن كان فاضلا ، وإلا

كفاه مجرد نقل المذهب عن قائله إن كان حسن التصور فهما صادقا ، وإلا لم يكن عنده إلا حفظ حروفه إن كان حافظا ، وإلا كان كاذبا أو مدعيا أو مخطئا .

ولا ريب أن الحاصل عند هؤلاء ليس بعلم ، كما أن العامة المقلدين للعلماء فيما يفتونهم ، فإن الحاصل عندهم ليس علما بذلك عن دليل يفيدهم القطع ، وإن كان العالم عنده دليل يفيد القطع .

وهذا الأصل الذي ذكرته أصل عظيم ، فلا يصد المؤمن العليم عنه صاد ، فإنه لكثرة التقليد والجهل والظنون في المنتسبين إلى الفقه والفتوى والقضاء ، استطال عليهم أولئك المتكلمون ، حتى أخرجوا الفقه الذي تجد فيه كل العلوم من أصل العلم ، لما رأوه من تقليد أصحابه وظنهم .

سؤال / مذهب الشيخ أليس حنبلياً؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : ينتسب إلى الحنابلة لكنه مجتهد ، وإلا فهو ينتسب إلى الحنابلة في القواعد الأساسية الشرعية في علم الحديث ومصطلح الحديث ، ولهذا ينتسب إليهم ، مثل بقية المجتهدين من العلماء من الشافعية ومن المالكية وغيرهم ، فالانتساب لا يضر إذا كان العالم يقدم الأدلة ويرجع الحق بالدليل .أهـ

سؤال / علم الكلام هل يجوز تعلمه؟

أجاب سماحة الشيخ : لا ، علم الكلام يجب الحذر منه ، يُرد عليهم بالأدلة من الكتاب والسنة ، لأنه قد يدخل فيه ويهلك ولا يخرج ، اللهم إلا إذا رزق فيه علماً واسعاً ، وأراد أن يبطل قواعدهم بقواعدهم ؛ فهذا إذا حصل له هذا فلا بأس ، ولكن كونه يتفرغ لذلك ويدع الكتاب والسنة فلا .أهـ

ومما يوضح هذا الأصل أنه من المعلوم أن الظنون غالبا إنما تكون في مسائل الاجتهاد والنزاع ، فأما مسائل الإيمان والإجماع فالعلم فيها أكثر قطعا .

وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن من أشهر ما تباين فيه الصحابة ومن بعدهم مسائل الفرائض ، كما تنازعوا في الجد وفروعه ، وفي الكلالة ، وفي حجب الأم بأخوين ، وفي العمريتين : زوج وأبوان وزوجة وأبوان ، وفي الجد هل يقوم مقام الأب في ذلك ، وفي الأخوات مع البنات هل هي عصبة أم لا؟ وفيما إذا استكمل البنات الثلثين وهناك ولد ابن ، ونحو ذلك من المسائل التي يحفظ النزاع فيها عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد وابن عباس وغيرهم من الصحابة .

لكن أئمة هذا الباب خمسة : عمر وعلي وابن مسعود وزيد وابن عباس .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني هذا الباب فيما يتعلق بمسائل الفرائض واختلافهم فيها . أهـ

وإذا كانوا تنازعوا في الفرائض أكثر من غيرها ، فمن المعلوم أن عامة أحكام الفرائض معلومة ، بل منصوصة بالقرآن ، فإن الذي يفتي الناس في الفرائض قد يقسم ألف فريضة منصوصة في القرآن مجمعا عليها ، حتى تنزل به واحدة مختلف فيها ، بل قد تمضي عليه أحوال لا تجب في مسألة نزاع .

وأما المسائل المنصوصة المجمع عليها فالجواب فيها دائم بدوام الموتى ، فكل من مات لابد لميراثه من حكم ، ولهذا لم يكن شيء من مسائل النزاع على عهد النبي ﷺ مع وجود الموت والفرائض دائما ، ومع أن كل من كان يموت على عهد النبي ﷺ فإنه ما وضع قط مال ميت في بيت مال ، ولا قسم بين المسلمين كما كان يقسم بينهم الفيء ومال المصالح .

ولكن لما فتحت البلاد وكثر أهل الإسلام في إمارة عمر ، صار حينئذ

يحدث اجتماع الجد والإخوة، فتكلموا في ذلك، وكذلك حدثت العمريتان فتكلموا فيها.

هذا مع أن علم الفرائض من علم الخاصة، حتى أن كثيرا من الفقهاء لا يعرفه، فهو عند العلماء به من علم الفقه اليقيني المقطوع به، وليس عند أكثر المنتسبين إلى العلم، فضلا عن العامة به علم ولا ظن، وذلك كالقضايا التجريبية في الطب، هي عند المجربين لها والعالمين بها من المجربين معلومة، وأكثر الخائضين في علوم أخر فضلا عن العامة ليس عندهم علم ولا ظن.

بل باب الحيض الذي هو من أشكل الفقه في كتاب الطهارة، وفيه من الفروع والنزاع ما هو معلوم، ومع هذا أكثر الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال النساء في الحيض معلومة، ومن انتصب ليفتي الناس يفتيهم بأحكام معلومة متفق عليها مائة مرة، حتى يفتيهم بالظن مرة واحدة، وإن أكثر الناس لا يعلمون أحكام الحيض وما تنازع الفقهاء فيه، من أقله وأكثره وأكثر سنين الحيض وأقله، ومسائل المتحيرة، فهذا من أندر الموجود، ومتى توجد امرأة لا تحيض إلا يوما، وإنما في ذلك حكايات قليلة جدا، مع العلم بأن عامة بنات آدم يحضن كما قال النبي ﷺ: «إن هذا شيء كتبه الله على بنات آدم».(١)

وكذلك متى توجد في العالم امرأة تحيض خمسة عشر يوما أو تسعة عشر، أو امرأة مستحاضة دائما لا يعرف لها عادة، ولا يتميز الدم في ألوانه، بل الاستحاضة إذا وقعت فغالب النسوة يكون تميزها وعادتها واحدة، والحكم في ذلك ثابت بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ وباتفاق الفقهاء.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤) كتاب الحيض/ باب الأمر بالنفساء إذا نفسن، ومسلم (١٢١١) كتاب الحج/ باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران وجواز إدخال الحج على العمرة ومتى يحل القارن من نسكه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

ونحن نذكر في الموت الذي هو أمر لازم لكل أحد ، وقل من يموت إلا وله شيء ، وفي الحيض الذي هو أمر معتاد للنساء ، وكذلك سائر الأجناس المعتادة ، مثل النكاح وتوابعه ، والبيوع وتوابعها ، والعبادات والجنايات .

فإن قال قائل : مسائل الاجتهاد والخلاف في الفقه كثيرة جدا في هذه الأبواب !

قيل له : مسائل القطع والنص والإجماع بقدر تلك أضعافا مضاعفة ، وإنما كثرت لكثرة أعمال العباد وكثرة أنواعها ، فإنها أكثر ما يعلمه الناس مفصلا ، ومتى كثر الشيء ؛ إلى هذا الحد ؛ كان كل جزء منه كثيرا من ينظرها مكتوبة ، فلا يرتسم في نفسه إلا ذلك ، كما يطالع تواريخ الناس والفتن ، وهي متصلة في الخبر ، فيرتسم في نفسه أن العالم ما زال ذلك فيه متواصلا ، والمكتوب شيء ، والواقع أشياء كثيرة ، فكذلك أعمال العباد وأحكامها ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك .

أما غير الخائض في الفقه في فنون أخرى فظاهر ، وأما الخائض فيه فغالبهم إنما يعرف أحدهم مذهب إمامه ، وقد يعلمه جملة لا يميز بين المسائل القطعية المنصوصة والمجمع عليها ، وبين مفاريده أو ما شاع فيه الاجتهاد ، فتجده يفتي بمسائل النصوص والإجماع من جنس فتياه بمسائل الاجتهاد والنزاع ، بمنزلة حمار حمل سفرا ينقل نقلا مجردا ، حتى إنه يحكى لأحدهم أن مذهب فلان بخلاف ذلك ، فيسوغ ذلك ويكون الخلاف في ذلك من الممتنعات بين الملل فضلا عن أن يختلف فيه المسلمون .

وقد بلغني من ذلك عن أقوام مشهورين بالفتيا والقضاء ، حتى حكوا الملك بلدهم أن من مذهب الشافعي أن المطلقة ثلاثا تباح بالعقد الخالي عن الوطء ،

وصبيان الشافعية يعلمون أن هذا مما لم يختلف فيه مذهبه ، وحتى يحكوا عن مالك أن المتعة عنده جائزة ، وليس في المتبوعين أشد تحريماً لها منه ومن أصحابه حتى إنه إذا وقّت الطلاق عنده ينجز ، لئلا يصير النكاح مؤقتاً كنكاح المتعة .

وأبلغ من ذلك يحكون في بلادهم عن مالك حل اللواط ، ويذكر ذلك لمن هو من أعيان مذهبه ، فيقول القرآن دل على تحريمه ، ولا يمكنهم أن يكذبوا الناقل ويقولون هذا حرام بالإجماع ، مع أن العالم يعلم أن هذا حرام بإجماع المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين وأكثر المشركين ، لم يستحله إلا قوم لوط وبعض الزنادقة من بقية الطوائف ، فلجهل هؤلاء وأمثالهم بالتمييز بين مسائل العلم والقطع ومسائل الاجتهاد التبس الأمر عليهم ، فلم يمكنهم أن يحكموا في أكثر ما يفتى به أنه قطعي ، وهو قطعي معلوم من الدين للعلماء بالدين .

لكن هؤلاء ليسوا في الحقيقة فقهاء في الدين ، بل هم نقلة لكلام بعض العلماء ومذهبه ، والفقه لا يكون إلا بفهم الأدلة الشرعية بأدلتها السمعية الثبوتية من الكتاب والسنة والإجماع نصاً واستنباطاً .

ولكن أولئك المتكلمون كان علم الفقه عندهم هو مسائل الحل والحرام ، وشفعة الجوار ، والجهر بالبسملة ، وتثنية الإقامة وإفرادها ، والجمع بين الصلاتين ، وإزالة النجاسة ، والقود بالمثل ، وخيار المجلس ، والعوض بالعقد الفاسد ، والإجارة ، ونحو ذلك من المسائل التي شاع فيها النزاع ، لاسيما وقد جرّد بعد المائة الثالثة مسائل الخلاف جردها أبو بكر الصيرفي فيما يغلب على ظني ، واتبعه على ذلك الناس حتى صنفوا كتباً كثيرة في مسائل الخلاف فقط .

واقتصر أكثر هؤلاء على ما اختلف فيه أبو حنيفة والشافعي .

وأمهات المسائل التي جردوا القول فيها نحو أربعمائة مسألة ، التي توجد في

أمهات التعاليق وكتب الخلاف التي صنفها الخراسانيون والعراقيون من الطوائف ، وإن كانت مسائل الخلاف لمن استوعبها منهم كالقاضي أبي يعلى تنتهي إلى ألوف مؤلفة ، إما أربعة آلاف أو أقل أو أكثر ، ولمن اقتصر على كبارها تكون نحو مائة مسألة ، كما فعل أبو محمد إسماعيل في تعليقه .

وأما ذلك المقدار فهو الذي يصفه أبو المعالي وأبو إسحاق في خلافهما ، والشريف أبو جعفر وأسعد الميهني والسمعاني ونحوهم ، ويصفه أبو الخطاب في انتصاره ، وابن عقيل في نظرياته ، وكذلك ابن يساره والعالمي ، ونحوهم من أصحاب أبي حنيفة ، وإن كان في عمد الأدلة تبع شيخه القاضي في استيعاب ما في تعليق القاضي من هذه المسائل والنزاع فيها ، وشهد أنها مسائل اجتهاد ظنية ، واشتهار أصحابها بعلم الفقه هو من الشبهة التي أوجبت للمتكلمين ولهؤلاء الفقهاء المختلفين ولكثير من المفتين وغيرهم أن يجعلوا الفقه من باب الظنون والاجتهاد .

ولهذا كان ظهور هذا القول مع ظهور مسائل الخلاف هذه ، وذلك مع ظهور بدع كثيرة ، وتغير أمور الإسلام ، وضعف الخلافة حتى استولى عليها الديالم ، وظهر حينئذ من مذهب القرامطة والباطنية والرافضة والمعتزلة ما عم أكثر الأرض وأخذ من المسلمين كثير من ثغورهم الشامية وغيرها ، وانتشرت حينئذ بدع متكلمة الصفاتية وغيرهم ، وصار هذا الفقه من باب اتباع الظن وما تهوى الأنفس .

وكذلك مال كثير من طلاب العلم إلى ما يظنونه علما غير الفقه ، إما الكلام وإما الفلسفة ، فإن النفس تطلب ما هو علم ، وتنفر مما هو شك وظن ، وهذا محمود منها .

وكان من سبب هذا أنهم تفقهوا لغير الدين وذلك مما ذموا عليه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه نقطة عظيمة ، التفقه لغير الدين يجعل القلوب خالية من تقوى الله ، يجعلها خالية من تعظيم حرمات الله ، فلهذا يقع النزاع والخلاف .

وهكذا - كما تقدم - من كون الفقيه ليس همه إلا النقل ، وليس همه العناية بالأدلة وفهمها وجمع النصوص ، ولهذا يكثر بينهم الخلاف والنزاع فيما ينقلون .

أما من تفقه للآخرة ولمعرفة الحق وعُنيَ بالأدلة من الكتاب والسنة ؛ فهذا قلَّ أن تشتبه عليه الأمور ، وإنما تقع المسائل الخلافية في أشياء قليلة قد تمر عليه السنوات الكثيرة ما مر عليه واحدة منها ، وإنما تمر عليه المسائل الواضحة المعروفة بالأدلة الشرعية التي قد أجمع عليها المسلمون .

وإنما يؤتى الإنسان من جهة عدم عنايته بالأدلة ، وعدم تفقهه في الكتاب والسنة ، وإنما يكتفي بالنقل عن فلان وفلان فتشتبه عليه الأمور . أهـ

كما جاء ذلك في حديث رواه أبو هريرة وعلي رضي الله عنهما يقول فيه النبي ﷺ : « إذا اتخذ المال دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما وتفقه لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعق أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه ورفعت الأصوات في المساجد وأكرم الرجل مخافة شره وساد القبيلة فاسقهم وكان زعيم القوم أرذلهم فلينتظروا عند ذلك ريحا حمراء وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع » .(١)

وكان هذا ما هو من أشراط الساعة الوسطى من ظهور الجهل ورفع العلم وكثرة الزنا ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قد يريد بالساعة انخرام

(١) رواه الترمذي (٢٢١٠-٢٢١١) كتاب الفتن/ باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف ، من حديث علي وأبي هريرة رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب .

القرن[١] ووقوع شرور وبلاء يعذب به الناس ، وإن كانت الساعة العامة هي قيام الناس من قبورهم ، لكن الأول جاء في مثل قوله : «إن يستنفد هذا الغلام عمره لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»[٢] يريد به انخرام ذلك القرن ، كما إنه قد أراد بلفظ القيامة موت الإنسان ، كما في قول المغيرة بن شعبة : أيها الناس إنكم تقولون القيامة القيامة ، وإنه من مات فقد قامت قيامته[٣] .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه يقال لها القيامة الصغرى ، فإن القيامة قيامتان : كبرى وصغرى ، فالصغرى كل من مات فقد قامت قيامته وختم على عمله وانقطع عمله ، إلا فيما ورد عن النبي ﷺ ، أما القيامة الكبرى فهي موت الناس جميعاً بالنفخ في الصور .اهـ

وترجم البغوي على ذلك في كتاب المصابيح ، باب من مات فقد قامت قيامته .

---

(١) يشير إلى مارواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صلى بنا النبي ﷺ العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال : «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد» قال ابن عمر : فوهل الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة وإنما قال رسول الله ﷺ : «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن . رواه البخاري (١١٦) كتاب العلم/ باب السمر في العلم ، ومسلم (٢٥٣٧) كتاب فضائل الصحابة/ باب معنى قوله صلى الله عليه وسلم : على رأس مائة سنة لا يبقى نفس منفوسة ممن هو موجود الآن .

(٢) رواه البخاري (٦١٦٧) كتاب الأدب/ باب ما جاء في قول الرجل : ويلك . ومسلم (٢٩٥٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب قرب الساعة ، وهو من حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما .

(٣) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (١١٨٣) رواه الطبراني . ورواه الديلمي عن أنس ١/ ٢٨٥ وكذا ابن أبي الدنيا .

لكن من الزنادقة الصابئة المتفلسفة كالسهروردي الحلبي المقتول وغيره من يظن ذلك هو القيامة التي وصفها الله في القرآن، ويجعل هذا اللفظ من كلام رسول الله ﷺ وليس الأمر كذلك.

وإذا كان بسبب تقليد كثير من الفقهاء لأئمتهم واتباعهم الظن اشتبه ما يمكن علمه وما هو معلوم لفقهاء الدين وعلماء الشريعة بغيره، فكذلك نفس الأئمة المجتهدين لا ريب أنه قد يكون عند أحدهم ما هو مظنون بل مجهول، وهو معلوم للآخر إما موافقا له وإما مخالفا فيها أكثر المسائل الفقهية التي لا يعرف حكمها كثير من الأئمة، أو يتكلم فيها بنوع من الظن مصيبا أو مخطئا، وتكون معلومة لغيره بأدلة قطعية عنده وعند من علم كعلمه، تارة بنص اختص بسماعه من الرسول أو من غيره، وحصل له بذلك العلم لأسباب كثيرة في النقل وهذا كثير ما يكون لعلماء الحديث، فإنهم يعلمون من النصوص ويقطعون منها بأشياء كثيرة جدا، وغيرهم قد يكذب بها أو يجزم بكذبها، دع من يجهلها أو يشك فيها.

وتارة بفهم النصوص ومعرفة دلالتها فما أكثر من يجهل معنى النص أو يشك فيه، أو يفهم منه نقيضه أو يذهل عنه أو يعجز ذهنه عن دركه، ويكون الآخر قد فهم من ذلك النص وعلم منه ما يقطع به.

وتارة بإجماع علمه من إجماعات الصحابة وغيرها.

ثم بعد ذلك تارة بقياس قطعي، فإن القياس نوعان: قطعي وظني، كما في القياس الذي هو في معنى الأصل قطعا، بحيث لا يكون بينهما فرق تأتي به الشريعة، أو يكون أولى بالحكم منه قطعا.

وتارة بتحقيق المناط، وهذا يعود إلى عود فهم معنى النص، بأن يعرف

ثبوت المناط الذي لا شك فيه في المعيّن ، وغيره يشك في ذلك ، كما يقطع الرجل في القصاص وإبدال المتلفات بأن هذا أقرب إلى المثل والعدل من كذا ، وغيره فيه أو يعتقد خلافه وأمثال ذلك .

فصل

وكذلك لفظ الحركة أثبته طوائف من أهل السنة والحديث ، وهو الذي ذكره حرب بن إسماعيل الكرماني في السنّة التي حكاها عن الشيوخ الذين أدركهم كالحميدي وأحمد بن حنبل وسعيد بن منصور وإسحاق بن إبراهيم ، وكذلك هو الذي ذكره عثمان بن سعيد الدارمي في نقضه على بشر المريسي ، وذكر أن ذلك مذهب أهل السنة ، وهو قول كثير من أهل الكلام والفلسفة من الشيعة والكرامية والفلاسفة الأوائل والمتأخرين ، كأبي البركات صاحب المعتبر وغيرهم .

ونفاه طوائف منهم أبو الحسن التميمي وأبو سليمان الخطابي ، وكل من أثبت حدوث العالم بحدوث الأعراض كأبي الحسن الأشعري والقاضي أبي بكر ابن الباقلاني وأبي الوفاء بن عقيل وغيرهم ممن سلك في إثبات حدوث العالم هذه الطريقة التي أنشأها قبلهم المعتزلة ، وهو أيضا قول كثير من الفلاسفة الأوائل والمتأخرين كابن سينا وغيره .

والمنصوص عن الإمام أحمد إنكار ذلك ، ولم يثبت عنه إثبات لفظ الحركة ، وإن أثبت أنواعا قد يدرجها المثبت في جنس الحركة ، فإنه لما سمع شخصا يروي حديث النزول ويقول : ينزل بغير حركة ولا انتقال ولا بغير حال ، أنكر أحمد ذلك وقال : قل كما قال رسول الله ﷺ ، فهو كان أغير على ربه منك .

وقد نقل في رسالة عنه إثبات لفظ الحركة ، مثل ما في العقيدة التي كتبها

حرب بن إسماعيل، وليست هذه العقيدة ثابتة عن الإمام أحمد بألفاظها، فإني تأملت لها ثلاثة أسانيد مظلمة برجال مجاهيل، والألفاظ هي ألفاظ حرب بن إسماعيل لا ألفاظ الإمام أحمد، ولم يذكرها المعنيّون بجمع كلام الإمام أحمد كأبي بكر الخلال في كتاب السنة، وغيره من العراقيين العالمين بكتاب أحمد، ولا رواها المعروفون بنقل كلام الإمام، لا سيما مثل هذه الرسالة الكبيرة، وإن كانت راجت على كثير من المتأخرين.

وقد نقل حنبل عن أحمد في كتاب المحنة أنه تأول قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ (البقرة: ٢١٠) فإن الجهمية الذين ناظروه احتجوا على خلق القرآن بقول النبي ﷺ: «بأن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما»،(١) وما يجيء إلا مخلوق، فقال الإمام أحمد فقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾، فهل يجيء الله؟ إنما يجيء أمره، كذلك هنا إنما يجيء ثواب القرآن.

فاختلف أصحابنا في هذه الرواية على خمس طرق:

قال قوم: غلط حنبل في نقل هذه الرواية، وحنبل له مفاريد ينفرد بها من الروايات في الفقه، والجماهير يروون خلافه.

وقد اختلف الأصحاب في مفاريد حنبل التي خالفه فيها الجمهور هل تثبت روايته؟ على طريقين فالخلال وصاحبه قد ينكرانها ويثبتها غيرهما كابن حامد.

(١) رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وسورة البقرة، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

وقال قوم منهم إنما قال ذلك إلزاما للمنازعين له ، فإنهم يتأولون مجيء الرب بمجيء أمره ، قال فكذلك قولوا يجيء كلامه مجيء ثوابه ، وهذا قريب .

وقال قوم منهم : بل هذه الرواية ثابتة في تأويل ما جاء من جنس الحركة والإتيان والنزول ، فيتأول على هذه الرواية بالقصد والعمد لذلك ، وهذه طريقة ابن الزاغوني وغيره .

وقال قوم بل يتأول بمجيء ثوابه ، وهؤلاء جعلوا الرواية في جنس الحركة دون بقية الصفات .

وقال قوم منهم ابن عقيل وابن الجوزي بل يتعدى الحكم من هذه الصفة إلى سائر الصفات التي تخالف ظاهرها للدليل الموجب لمخالفة الظاهر .

وبكل حال فالمشهور عند أصحاب الإمام أحمد أنهم لا يتأولون الصفات التي من جنس الحركة كالمجيء والإتيان والنزول والهبوط والدنو والتدلي ، كما لا يتأولون غيرها متابعة للسلف الصالح ، وكلام السلف في هذا الباب يدل على إثبات المعنى المتنازع فيه .

قال الأوزاعي لما سئل عن حديث النزول : يفعل الله مايشاء ، وقال حماد بن زيد : يدنو من خلقه كيف شاء ، وهو الذي حكاه الأشعري عن أهل السنة والحديث .

وقال الفضيل بن عياض : إذا قال لك الجهمي أنا أكفر برب يزول عن مكانه فقل : أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء[1]

---

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (٣٦) باب ما ذكر أهل العلم للمعطلة الذين يريدون أن يبدلوا كلام الله عز وجل . وابن بطة في الإبانة٣/ ٢٠٥ باب الإيمان والتصديق بأن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير زوال ولا كيف .

وقال أبو عبد الله أحمد بن سعيد الرباطي حضرت مجلس الأمير عبد الله ابن طاهر وحضر إسحاق بن راهويه فسئل عن حديث النزول صحيح هو؟ قال : نعم ، فقال له بعض قُوَّاد عبد الله : يا أبا يعقوب : أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ قال : نعم ، قال : كيف ينزل؟ قال له إسحاق : أثبته حتى أصف لك النزول ، فقال له الرجل : أثبته ، قال له إسحاق : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ (الفجر : ٢٢) فقال الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب : هذا يوم القيامة ، فقال إسحاق : أعز الله الأمير ، ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟(١)

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أنه يُثبت كما جاء ، فيقال «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر»(٢) ولا يزاد على ذلك ، كما يشاء سبحانه وتعالى ، بلا كيف ، ينزل كما يشاء بلا كيف ، لا يعلم كيفية ذلك إلا هو سبحانه وتعالى ، فعلينا أن نقول كما قال النبي ﷺ ولا نزيد على ذلك ، وهكذا استوى على عرشه بلا كيف ، لا نكيف صفاته ، وهكذا يرحم من شاء بلا كيف ، ويسمع بلا كيف ، ويبصر بلا كيف ، فالكيف ليس إلينا ، الله الذي يعلمه سبحانه وتعالى ، إنما علينا إثبات ما أثبته الله ورسوله من الصفات ، فكما أنا نثبت أنه سميع بصير عليم حكيم قادر ، يتكلم إذا شاء ، ويرحم من شاء من عباده ، ويضحك إذا شاء ويرضى ، إلى غير ذلك ، هكذا استواؤه على

(١) الحجة في بيان المحجة ٢/ ١٢٩ والعلو للذهبي (١٧٩)

(٢) رواه البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد / باب : الدعاء والصلاة من آخر الليل ، و (٦٣٢١) كتاب الدعوات / باب الدعاء نصف الليل ، و (٧٤٩٤) كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى : ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين / باب الترغيب في صلاة التراويح ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عرشه، وهكذا نزوله، وهكذا مجيئه يوم القيامة، كما يشاء سبحانه وتعالى، بلا كيف، بل على الصفة التي يفعلها سبحانه وتعالى وتليق به عز وجل .أهـ

سؤال / جاء في الصفات التدلي؟!

أجاب سماحة الشيخ : الصواب في هذا أنه وصف في جبرائيل، وجاء في بعض الروايات ما يدل على أنه وصف لله، لكن على الوجه اللائق به إذا صح، وإنما المحفوظ أنه من صفة جبرائيل: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ يعني جبرائيل عليه الصلاة والسلام، إذا نزل بالوحي، وقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ هذا جبرائيل ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ يعني جبرائيل إلى عبد الله .أهـ

سؤال / الصواب التوقف في الحركة؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : عدم الزيادة، نروي النصوص كما جاءت من دون زيادة، ولهذا أنكر الإمام على من قال بغير حركة، لا تنفى ولا تثبت، مثل الجسم، فيما لم ترد نفياً ولا إثباتاً يتوقف عنها، لا ينفى ولا يثبت .أهـ

سؤال / التدلي وارد أم غير وارد؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا وصف لجبرائيل .أهـ

وقال حرب بن إسماعيل سمعت إسحاق بن إبراهيم يقول ليس في النزول وصف.

قال وقال إسحاق لا يجوز الخوض في أمر الله كما يجوز الخوض في أمر

المخلوقين لقول الله تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝﴾ (الأنبياء)، ولا يجوز أن يتوهم على الله بصفاته وفعاله بفهم ما يجوز التفكر والنظر فيه من أمر المخلوقين، وذلك أنه يمكن أن يكون الله موصوفاً بالنزول كل ليلة إذا مضى ثلثها إلى السماء الدنيا كما شاء، ولا يسأل كيف نزوله، لأن الخالق يصنع ما شاء كما شاء.

فصل

وقد اعترف أكثر أئمة أهل الكلام والفلسفة من الأولين والآخرين بأن أكثر الطرائق التي سلكوها في أمور الربوبية بالأقيسة التي ضربوها لا تفضي بهم إلى العلم واليقين، وفي الأمور الإلهية مثل تكلمهم بالجسم والعرض في دلائلهم ومسائلهم.

فأما الأول فقد ذكرنا في غير هذا الموضع مقالة أساطين الفلسفة من الأوائل أنهم قالوا: العلم الإلهي لا سبيل فيه إلى اليقين، وإنما يتكلم فيه بالأولى والأحرى والأخلق، ولهذا اتفق كل من خبر مقالة هؤلاء المتفلسفة في العلم الإلهي أن غالبه ظنون كاذبة وأقيسة فاسدة، وأن الذي فيه من العلم الحق قليل

قال سماحة الشيخ: لأنهم لا يعلمون ما جاءت به الرسل، فهؤلاء الفلاسفة ما عندهم إلا الظنون والخرص، أما أتباع الرسل فهم يعلمون ذلك يقيناً بالنصوص والأدلة، فأتباع الرسل تلقوا عن الرسل وأخذوا عن الرسل ما يعود عن علم ويقين، وهكذا أتباع محمد ﷺ أخذوا ما جاء به ﷺ عن علم ويقين، من كتاب الله ومن السنة الصحيحة بالأسانيد الصحيحة، فكان ذلك يقيناً. اهـ

وأما اعتراف المتكلمة من الإسلاميين فكثير، قد جمع العلماء فيه شيئاً وذكروا رجوع أكابرهم عما كانوا يقولونه، وتوبتهم إما عند الموت وإما قبل

الموت ، وهذا من أسباب الرحمة إن شاء الله تعالى في هذه الأمة ، فإن الله يقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السيئات ، وهذا أصح القولين في قبول توبة الداعي ، لكن بقاء كلامهم وكتبهم وآثارهم محنة عظيمة في الأمة ، وفتنة عظيمة لمن نظر فيها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد قال أبو حامد الغزالي في الكتاب الذي سماه إحياء علوم الدين ، وهو من أجل كتبه ، قال : فإن قلت تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح كتعلم الطب أو مندوب إليه؟

فاعلم أن للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف :

فمن قائل إنه بدعة وحرام ، وإن العبد أن يلقى الله بكل ذنب ما خلا الشرك ؛ خير له من أن يلقاه بالكلام .

ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية وإما على الأعيان ، وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله .

قال وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وجميع أئمة السلف ، وساق ألفاظا عن هؤلاء .

قال واتفق أهل الحديث من السلف على هذا ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني في ذم الكلام والتحذير منه وما عليه الفلاسفة ، فهم أجمعوا على هذا ، مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة وأئمة السلف ، كلهم عابوا الكلام وذموه ، وأمروا باتباع الكتاب والسنة والوقوف عندهما .أهـ

وقالوا ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر .

فصل

فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيري في رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية، فإنه ذكر من متفرقات كلامهم ما يستدل به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبي القاسم الذي تلقاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني.

وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة، لكنه مقصر عن ذلك ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه وزيادة تخالف ما كانوا عليه.

والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر.

فإن في الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ومعروف الكرخي إلى الجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثال هؤلاء ما يبيّن حقيقة مقالات المشايخ.

وقد جمع كلام المشايخ إما بلفظه أو بما فهمه هو غير واحد، فصنف أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي كتاب التعرف لمذاهب التصوف، وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها، وكذلك معمر بن زياد الأصفهاني شيخ الصوفية وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسن السلمي جامع كلام الصوفية، هما في ذلك أعلى درجة وأبعد عن البدعة والهوى من أبي القاسم.

وأبو عبد الرحمن وإن كان أدنى الرجلين، فقد كان ينكر مذهب الكلابية ويبدعهم، وهو المذهب الذي ينصره أبو القاسم، وله في ذم الكلام مصنف

يخالف ما ينصره أبو القاسم، وأبو عبد الرحمن أجل من أخذ عنه أبو القاسم كلام المشايخ، وعليه يعتمد في أكثر ما يحكيه، فإن له مصنفات متعددة، وكذلك عامة المشايخ الذين سماهم أبو القاسم في رسالته لا يعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكلابية والأشعرية التي نصرها أبو القاسم، بل المحفوظ عنهم خلافها، ومن صرح منهم فإنما يصرح بخلافها، حتى شيوخ عصره الذين سماهم حيث قال:

فأما المشايخ الذين عاصرناهم والذين أدركناهم وإن لم يتفق لنا لقياهم، مثل الأستاذ الشهيد لسان وقته وواحد عصره أبي علي الدقاق، والشيخ شيخ وقته أبي عبد الرحمن السلمي وأبي الحسن علي بن جهضم مجاور الحرم والشيخ أبي العباس القصاب بطبرستان وأحمد الأسود الدينوري وأبي القاسم الصيرفي بنيسابور وأبي سهل الخشاب الكبير بها ومنصور بن خلف المغربي وأبي سعيد الماليني وأبي طاهر الجحدري قدس الله أرواحهم وغيرهم.

فإن هؤلاء المشايخ مثل أبي العباس القصاب له من التصانيف المشهورة في السنة ومخالفة طريقة الكلابية الأشعرية ما ليس هذا موضعه.

وكذلك سائر شيوخ المسلمين من المتقدمين والمتأخرين الذين لهم لسان صدق في الأمة، كما ذكر الشيخ يحيى بن يوسف الصرصري، ونظمه في قصائده عن الشيخ علي بن إدريس شيخه أنه سأل قطب العارفين أبا محمد عبدالقادر بن عبد الله الجيلي فقال يا سيدي هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟

فقال: ما كان ولا يكون.

وكذلك نقل الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي،

وحدثنيه عنه الشيخ عز الدين عبد الله بن أحمد بن عمر الفاروثي أنه سمع هذه الحكاية منه ، ووجدتها معلقة بخط الشيخ موفق الدين أبي محمد بن قدامة المقدسي ، قال السهروردي كنت عزمت على أن أقرأ شيئا من علم الكلام وأنا متردد ، هل أقرأ الإرشاد لإمام الحرمين ، أو نهاية الإقدام للشهرستاني ، أو كتاب شيخه ، فذهبت مع خالي أبي النجيب ، وكان يصلي بجنب الشيخ عبدالقادر ، قال فالتفت الشيخ عبد القادر وقال لي يا عمر : ما هو من زاد القبر ما هو من زاد القبر .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني علم الكلام ما هو من زاد القبر ، يعني لا تعلّمه ودعه ، فإنه ليس من زاد القبر ، وإنما زاد القبر تعلم الكتاب والسنة والعمل بهما ، هذا هو الزاد الذي تحصل به النجاة يوم وضع الإنسان في قبره ، والله المستعان .

فزاد القبر يعني الزاد الذي ينفع الإنسان في قبره ، طاعة الله ورسوله ، بخلاف علم الكلام فإنه يوقع في الشك والحيرة ، نسأل الله العافية .أهـ

فرجعت عن ذلك .

فأخبر أن الشيخ كاشفه بما كان في قلبه ، ونهاه عن الكلام الذي كان ينتسب إليه القشيري ونحوه .

وكذلك حدثني الشيخ أبو الحسن بن غانم أنه سمع خاله الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأرومي أنه كان له معلم يقرئه وأنه أقرأه اعتقاد الأشعرية المتأخرين ، قال فكنت أكرر عليه ، فسمع والدي والشيخ عبد الله الأرميني قال فقال ما هذا يا إبراهيم؟

فقلت هذا علمنيه الأستاذ ، فقال يا إبراهيم اترك هذا فقد طفت الأرض

واجتمعت بكذا وكذا ولي لله ، فلم أجد أحداً منهم على هذا الاعتقاد ، وإنما وجدته على اعتقاد هؤلاء ، وأشار إلى جيرانه أهل الحديث والسنة من المقادسة الصالحين إذ ذاك .

وحدثني أيضاً الشيخ محمد بن أبي بكر بن قوام أنه سمع جده الشيخ أبا بكر ابن قوام يقول إذا بلغك عن أهل المكان الفلاني ـ سماه لي الشيخ محمد ـ إذا بلغك أن فيهم رجلا مؤمنا أو رجلا صالحا فصدِّق ، وإذا بلغك أن فيهم وليا لله فلا تصدق ، فقلت : ولم يا سيدي؟

قال : لأنهم أشعرية ، وهذا باب واسع .

ومن نظر في عقائد المشايخ المشهورين مثل الشيخ عبد القادر والشيخ عدي ابن مسافر والشيخ أبي البيان الدمشقي وغيرهم ، وجد من ذلك كثيرا ، ووجد أنه من ذهب إلى مذهب شيء من أهل الكلام ـ وإن كان متأولا ـ ففيه بعض نقص وانحطاط عن درجة أولياء الله الكاملين ، ووجد أنه من كان ناقصا في معرفة اعتقاد أهل السنة واتباعه ومحبته ، وبغض ما يخالف ذلك وذمه ، بحيث يكون خاليا عن اعتقاد كمال السنة واعتقاد البدعة ، تجده ناقصا عن درجة أولياء الله الراسخين في معرفة اعتقاد أهل السنة واتباع ذلك ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا .

وما ذكره أبو القاسم في رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة ، ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين ، وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم ، ولم يذكر في كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة ، ومع ما في كتابه من الفوائد في المقولات والمنقولات ففيه أحاديث وأحاديث ضعيفة بل باطلة ، وفيه كلمات مجملة

تحتمل الحق والباطل رواية ورأياً ، وفيه كلمات باطلة في الرأي والرواية ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (النساء) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا كله مقصوده رحمه الله أن أهل الكلام ـ وإن وجد في كلامهم شيء من الحق وشيء من الخير ـ لكن يبقى فيه من الأضرار والشرور ما يسبب ضلال من تأمله ومن اعتنقه ، والوقوع في الحيرة ، فيقع في كلماتهم كلمات مجملة تحتمل حقاً وباطلاً ، ويقع في كلماتهم أشياء منكرة ، لا يجوز وصف الله بها ، ويقع في كلامهم أحاديث موضوعة وضعيفة لا يعرفونها ، فلهذا وجب على طالب الحق الحذر من كلام أهل الكلام والدخول في كتبهم وقراءتها ، لما فيها من الشر الكثير ، اللهم إلا من أعطاه الله علماً واسعاً ، فأراد الرد عليهم وبيان أباطيلهم فلا بأس ، وإلا فالدخول في كلامهم وقراءة كتبهم كله لا يأتي إلا بالشر .

وإنما السلامة والنجاة في قراءة كتب أهل السنة أهل الحديث ، أهل الحديث الشريف ، الذين عنوا بالقرآن والسنة ، وأعرضوا عن كلام أهل الكلام ، الجوهر والعرض ، وما يتعلق بالحركة ولب الحركة مما يتكلمون فيه ، ويعرضون عن الكتاب والسنة ، فهم يصفون الله جل وعلا بصفات من عند أنفسهم أحدثوها واخترعوها ، هذا هو الذي أوقعهم في الباطل .أهـ

فكتبت من تمييز ذلك ما يسره الله واجتهدت في اتباع سبيل الأمة الوسط

الذين هم شهداء على الناس ، دون سبيل من قد يرفعه فوق قدره في اعتقاده وتصوفه على الطريقة التي هي أكمل وأصح مما ذكره علما وحالا وقولا وعملا واعتقادا واقتصادا ، أو يحطه دون قدره فيهما ممن يسرف في ذم أهل الكلام ، أو يذم طريقة التصوف مطلقا ، والله أعلم .

والذي ذكره أبو القاسم فيه الحسن الجميل الذي يجب اعتقاده واعتماده ، وفيه المجمل الذي يأخذ المحق والمبطل ، وهذان قريبان وفيه منقولات ضعيفة ، ونقول عمن لا يقتدي بهم في ذلك ، فهذان مردودان ، وفيه كلام حمله على معنى وصاحبه لم يقصد نفس ما أراده هو ، ثم إنه لم يذكر عنهم إلا كلمات قليلة لا تشفي في هذا الباب ، وعنهم في هذا الباب من الصحيح الصريح الكبير ما هو شفاء للمقتدي بهم الطالب لمعرفة أصولهم وقد كتبت هنا نكتا يعرف بها الحال .

قال القشيري رحمه الله : اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ، وداتوا بما وجدوا عليه من السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل .

قلت : هذا كلام صحيح ، فإن كلام أئمة المشايخ الذين لهم في الأمة لسان صدق كانوا على ما كان عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، وهذه الجملة يتفق على إطلاقها عامة الطوائف المنتسبين إلى السنة ، وإن تنازعوا في مواضع هل هي تمثيل أو تعطيل .

قال أبو القاسم عرفوا ما هو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم ، وكذلك قال سيد هذه الطائفة الجنيد رضي الله عنه : التوحيد إفراد القدم من الحدث .

قلت : هذا الكلام فيه إجمال ، والمحق يحمله محملا حسنا ، وغير المحق يدخل فيه أشياء .

والقشيري مقصوده ما يذكره أهل الكلام من تنزيه القديم عن خصائص المحدثات ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، لكن التنازع بينهم في كثير من الصفات ؛ هل هي من خصائص المحدثات التي يجب تنزيه القديم عنها؟ أو هي من لوازم الوجود التي يكون نفيها تعطيلا؟

وأما الجنيد فمقصوده التوحيد الذي يشير إليه المشايخ ، وهو التوحيد في القصد والإرادة ، وما يدخل في ذلك من الإخلاص والتوكل والمحبة ، وهو أن يفرد الحق سبحانه وهو القديم بهذا كله ، فلا يشركه في ذلك محدث ، وتمييز الرب من المربوب في اعتقادك وعبادتك ، وهذا حق صحيح ، وهو داخل في التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه .

مما يدخل في كلام الجنيد تمييز القديم عن المحدث وإثبات مباينته له ، بحيث يعلمه ويشهد أن الخالق مباين للخلق ، خلافا لما دخل فيه الاتحادية من المتصوفة وغيرهم من الذين يقولون بالاتحاد معيناً أو مطلقاً .

ولهذا أنكر هؤلاء على الجنيد قوله هذا كما أنكره عليه ابن العربي الطائي كبير الاتحادية .

وقال سماحة الشيخ رحمه الله : والحاصل أن فيما جاءت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في بيان صفات الله وأسمائه الكفاية والغنية عن مؤلفات أهل الكلام ، وما قرره أهل الكلام من حق وباطل ، وفي كلام أهل السنة ما يشفي ويكفي من أئمة السلف ، ولهذا كره أهل الحق ـ كالمؤلف وغيره ـ مراجعة كتب أهل الكلام وقراءتها ، لأن فيها من الشر والفساد والباطل ما يضر قارءه .

أما الإقبال على كتاب الله الجليل وسنة رسوله الأمين ؛ فهذه هي الحكمة والسلامة والعافية مما وقع فيه أهل الباطل ، والله المستعان .اهـ

قال أبو القاسم : وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد ، كما قال أبو محمد الجُريري : من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدمه الغرور إلى مهواة التلف .

قال أبو القاسم : يريد بذلك أن من ركن إلى التقليد ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن متن النجاة ووقع في أسر الهلاك .

قلت : المشايخ لا يشيرون إلى الطريق التي سلكها المتكلمون من الاستدلال بالأجسام والأعراض وما يدخل في ذلك ، بل هم منكرون لذلك ، كما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي وشيخ الإسلام الأنصاري وغيرهما عنهم .

وأبو القاسم يرى صحة هذه الطريق وهذا من المواضع التي خالف فيها مشايخ القوم .

وقد ذكر أبو القاسم في ترجمة الشيخ أبي علي بن الكاتب وقد صحب أبا علي الروذباري وغيره ، وتأخر بعد الأربعين وثلاثمائة ، قال : المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطئوا ، والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا .

قلت : العلم في لسان الصوفية ووصاياهم كثيرا ما يريدون به الشريعة ، كقول أبي يعقوب النهرجوري : أفضل الأحوال ما قارن العلم ، وكقول أبي يزيد : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت أشد علي من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد .

وهذا كقول سهل بن عبد الله التستري : كل فعل تفعله بغير اقتداء طاعة أو معصية فهو عيش النفس ، وكل فعل تفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس .

وقال أبو سليمان الداراني : ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة[1] .

وقال صاحبه أحمد بن أبي الحواري : من عمل بلا اتباع سنة فباطل عمله .

وقال أبو حفص النيسابوري : من لم يزن أفعاله وأقواله كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال .

وقال الجنيد بن محمد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ .

وقال أيضا : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال أبو عثمان : من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[2] (النور :٥٤) .

وقال أبو حمزة البغدادي : من علم الطريق إلى الله سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه ، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة ، وهو ما درج عليه أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان ، أما العموم والأهواء والآراء والأذواق كلها مقيدة بالكتاب والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة قُبِلَ من رأي وذوق وقول وغير ذلك ، وما خالف ذلك رُدَّ على صاحبه .

(١) الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٣ «أبو سليمان الداراني» .
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ١٠/ ٢٤٤ ، والذهبي في تاريخ الإسلام ١/ ٢٢٦٠ .

وهؤلاء الذين قالوا هذه الكلمات من أئمة الصوفية أصابوا فيها ، ولكن المتأخرين منهم غيروا وبدلوا ، فحكَّموا آراءهم وأذواقهم ، وجعلوا لهم طرقاً جديدة سلكوها وسلكها أتباعهم معهم ، حكَّموها على الكتاب والسنة فضلوا وأضلوا .

أما من استقام على هذا الطريق السوي وهو أن يقيد علمه بالكتاب والسنة ، ولا يقبل من ذلك إلا ما قام على الكتاب أو جاءت به السنة فقد أصاب وأفلح ، وسار على منهج قويم ، وأما من انحرف عن هذا الطريق وحكّم هواه ورأيه ورأي شيخه وقدّمه على الكتاب والسنة ؛ فهذا هو الهالك ، وليس على طريق القوم ، بل هو مخالف لهم .اهـ

ومن لفظ العلم في كلامهم قول أبي عثمان النيسابوري : الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم ، والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة ، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق ، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً ، والصحبة مع الجُهَّال بالدعاء لهم والرحمة عليهم .

ومنه قول أبي الحسين النوري : من رأيته يدَّعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقترين منه .

وقال : أعز الأشياء في زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقته .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : شيئان : أحدهما : عالم يعمل بعلمه ، يعني قليل ، والغالب أنه عالم ولكن لا يعمل بعلمه ، علمه شيء وعمله شيء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والآخر : لا ينطق بالحقيقة التي يلزمه القول بها ، وينطق بغير ذلك من دعاوى الأذواق والآراء الفاسدة التي لا دليل عليها ، أما من نطق بالحقيقة ، يعني الدعوة إلى الكتاب والسنة والتقيد بها ؛ فهذا هو الذي ينبغي اتباعه ويؤخذ بقوله إذا وافق هذا الأصل .اهـ.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : سمعت جدي أبا عمرو بن نجيد يقول : كل حال لايكون عن نتيجة علم فإن ضرره أكثر على صاحبه من نفعه .

وسئل عن التصوف فقال : الصبر تحت الأمر والنهي .

وسبب تعبيرهم عن الشريعة بالعلم أن القوم أصحاب إرادة وقصد وعمل وحال ، هذا خاصتهم ، لكن قد يعمل أحدهم تارة بغير العلم الشرعي ، بل بما يدركه ويجد إرادته في قلبه ، وإن لم يكن ذلك مشروعا مأمورا به ، وهذا كثيرا ما يبتلى به كثير منهم من تقديم علمهم بالذوق والوجد على موجب العلم المشروع ، ومن العمل بذوق ليس معه فيه علم مشروع .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا هو الغالب على المتأخرين ، في القرون المتأخرة ، حتى قال بعضهم : حدثني قلبي عن ربي ، والمتبع يقول : عن رسول الله ، وأنا أقول : حدثني قلبي عن ربي ، ولا يحتاج إلى الرسول ، وهذا هو الهلاك ، هذا هو الإلحاد والفساد ، وهل قلبه معصوم وأذواقه وآراؤه وخواطره؟ يخطر في قلبه الشر والخير ، ويخطر في قلبه فساد وغير فساد ، فقلبه غير معصوم ، وإنما المعصوم ما ثبت عن الرسول ﷺ أو جاء به الكتاب ، ومن جعل الطريق هذا ـ حدثني قلبي عن ربي ، أو حدثني شيخي كذا وكذا ، أو قال شيخي كذا ـ هذا قد سلك طريق الشيطان ولم يسلك طريق الرحمن .اهـ.

سؤال / هل يصلى خلفهم؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : من كان بهذه المثابة لا يصلى خلفه، لأنه غير مسلم، من استغنى عن الرسول ليس بمسلم، فمن قال إنه يستغني عن الرسول بأذواقه وآرائه وما يقع في قلبه، فهو خارج عن الشريعة وليس بمسلم .أهـ

سؤال / كلام لبعض المتقدمين كأبي يزيد البسطامي!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا مثل ما قال المؤلف : أبو يزيد وغيره لهم أغلاط أيضاً ، وقع لهم أغلاط ، ولهم مقالات قبيحة ، كما يحكى عن بعضهم : ما في الجبة إلا الله ، وهذا كلام خبيث نعوذ بالله ، ردة عن الإسلام ، نسأل الله العافية ، لكن إن صح عنهم هذا الشيء .أهـ

ولا ريب أن هذا من اتباع الهوى بغير هدى من الله ، وهو مما ذم الله به النصارى الذين يضارعهم في كثير من أمورهم المتحرفون من الصوفية والعباد ، ولهذا جعله سهل من حظ النفس .

ولهذا استضعف أبو يزيد متابعة العلم ، فإن مجاهدة هوى النفس يفعلها غالب النفوس ، مثل عبادات المشركين وأهل الكتاب من الرهبان وعباد الأنداد ونحوهم ، وكل ذلك من هذا الباب ، ولهم من الزهد والمجاهدة في العبادة ما لا يفعله المسلمون ، لكنه باطل ليس بمشروع ، ولهذا لا ينتج له من النتائج إلا ما يليق به .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : عذاب مُعَجَّل ، العبادات عند الصوفية وأصحاب الصوامع من النصارى إنما هي عبادات ، على غير هدى ، فتكون عذاباً معجلاً نعوذ بالله .أهـ

والمسلم الصادق إذا عبد الله بما شرع فتح الله عليه أنوار الهداية في مدة قريبة .

قال سماحة الشيخ : كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ فمن اهتدى زاده الله هدى وعلماً ، إذا لزم الطريق ولو كانت أعماله قليلة ، ولو كان ما يصوم النهار ولا يقوم الليل ، وإنما يصوم ما تيسر ويؤدي الفرائض ويتقي المحارم ، ولكن عبادات يصوم بها النهار ويقوم الليل ويتزهد ويترك الدنيا ، وهو مع هذا على غير علم ، على رأيه وعلى هواه ، لا ينفعه هذا ، مثل أصحاب الصوامع الذين جلسوا فيها للعبادة وضيعوا كل شيء ، على غير هدى ، نسأل الله العافية ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

سؤال / وجدت في بعض المساجد رجلاً يقول الله الله ، فقلت له هذا لم يرد عن الرسول ، لكنه قال : الله سبحانه وتعالى لما كلم موسى قال يا موسى أنا الله !

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : يأتي بالجملة تامة ، أما أن يقول : الله الله ، هو هو هو ، هذا باطل ، هذا بدعة ، ولا أصل له ، التعبد بـ : الله الله الله ، أو يا هو هو هو ، هذا لا أصل له ، هذا من خرافات الصوفية ، وإنما يتعبد بـ : لا إله إلا الله ، سبحان الله ، يعني بكلام تام ، وكلام واضح ، سبحان الله ، الحمد لله ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، أما هو هو ، الله الله الله ، فإن هذا ما ورد وغير مشروع ، ما فعله الرسول ﷺ ولا أصحابه ، فلا بد من كلام واضح تام .أهـ

سؤال / يقولون إنه ورد في القرآن ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقولون إنه ورد قرآناً !

أجاب سماحة الشيخ : نعم لم يقل هو هو ، قال : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كلام تام ، هذه مغالطة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كلام تام .اهـ.

فالمهتدون من مشايخ العُبَّاد والزهّاد يوصون باتباع العلم المشروع ، كما أن أهل الاستقامة من العلم يوصون بعلمهم الذي يسلكه أهل الاستقامة من العباد والزهاد ، وأما المنحرفون من الطائفتين فيعرضون عن المشروع إما من العلم وإما من العمل ، وهما طريق المغضوب عليهم والضالين .

قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والشبه أن الذي لا يعمل بعلمه يشابه اليهود ، فالذي يعلم أن الله جل وعلا أوجب عليه الصلاة في الجماعة ، وأوجب عليه بر الوالدين ، وأوجب عليه صلة الرحم ، وأوجب عليه أن يشهد بالحق ويترك الزور ثم يترك ذلك ، فينحرف عن الصلاة ويعق والديه ويشهد بالزور وهو يعلم ؛ هذا مشابه لليهود ، لأنه خالف العلم ، فاليهود علموا وخالفوا ، عرفوا أن الرسول محمداً حق ومع هذا لم يجيبوا ، بل كذبوه وجحدوا نبوته كذباً وحسداً وبغياً ، فمن فسد من العلماء بهذا الطريق شابه اليهود .

وتارة تكثر المشابهة على حسب كثرة مخالفته للسنة ، وتارة تقل المشابهة ، وكلما كثرت مخالفته للسنة وعمله بغير علم ؛ صارت مشابهته لليهود أكثر ، وكلما قلت هذه المخالفة صارت المشابهة أقل .

وأما من فسد من العُبَّاد فإنه يشابه النصارى ، فإن النصارى عندهم تعبد كثير ولزوم للصوامع ، لكن على غير علم ، ما عندهم علم ، يتعبد وهو يقول عيسى ابن الله ، ويحلف بعيسى ويحلف بمريم ، فماذا تنفع هذه العبادة مع الكفر؟!

فالذي يتعبد ويترك الكتاب والسنة ولا يتعلم ولا يتبصر ولا يتفقه في الدين ، ويتعمد ويدع العلم يقع في مشاكل وفي أباطيل وفي بدع وأهواء ، كما وقعت الصوفية لما تعبدوا على غير علم صاروا مبتدعين ، وصاروا ضالين بما أحدثوا من الطرق الباطلة التي ليس لها أصل في الشريعة .

بل الواجب على أهل الإسلام أن يتعبدوا بمقتضى الكتاب والسنة ، وأن يتقيدوا بهما ، وأن لا يحيدوا عن ذلك ، ثم يعملون ، يعني يتقيدون بالكتاب والسنة ثم يعملون ، فإن لم يتقيدوا شابهوا النصارى ، وإن تقيدوا وعلموا لكن لم يعملوا شابهوا اليهود ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .أهـ

ولهذا قصد أبو القاسم في الرسالة الرد على هؤلاء ولما ذكر المشايخ الذين ذكرهم قال هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة ، كان الغرض من ذكرهم في هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة ، متصفين بسلوك طريق الرياضة ، متفقين على متابعة السنة ، غير مخلين بشيء من آداب الديانة ، متفقين على أن من خلا عن المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله سبحانه فيما يدعيه مفتونا ، هلك في نفسه وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله .

وإذا عرف معنى لفظ العلم في اصطلاحهم فقول أبي علي بن الكاتب : الصوفية نزهوه من حيث العلم أي من جهة الشرع ، وهو الكتاب والسنة ، فنزهوه عما نزه عنه نفسه فأصابوا ، وأما المعتزلة فنزهوه بقياس عقلهم وأهوائهم أرادوا أن ينفوا عنه كل صفة موجودة لظنهم أن ذلك تشبيه ، ولم يهتدوا إلى أن الخالق يوصف بما يليق به والمخلوق يوصف بما يليق به ، وأن الاسم إن كان متفقا فالإضافة إلى الله تخصصه وتقيده بما ينفي عنه مماثلة الخلق .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا حق ، فإن أهل السنة والجماعة وصفوا الله بالعلم بما قال عن نفسه ، وبما قاله رسوله عليه الصلاة والسلام عنه ، فوصفوه بصفاته من العلم والحكمة والخبرة والسمع والبصر والاستواء وغير هذا ، لكن نزهوه عن مشابهة الخلق ، فقالوا هذه صفات حق وأسماء حق وهو موصوف بها ، سميع عليم قدير رءوف رحيم إلى غير هذا من صفاته ، فأصاب أهل السنة في هذا حيث وصفوه بالعلم ، ووصفوه بما جاء به كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، فأصابوا ، وتوقفوا عما سوى ذلك ، فلم يصفوه بآرائهم وأهوائهم ، بل اقتصروا على ما جاء به النص .

أما الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم فحكّموا آراءهم ، ووصفوه بمقتضى عقولهم ، ونفوا عنه صفاته التي جاءت في كتابه وسنة رسوله ، فقالوا ليس بسميع ولا بصير ولا ولا ولا ، فخالفوا الكتاب والسنة والعياذ بالله ، وغر المساكين المخذولين ، غرهم أنه إذا وصف فهذا مشابهة ، إذا قلنا سميع والعبد سميع هذه مشابهة ، وإذا قلنا عليم والعبد عليم هذه مشابهة ، وإذا قلنا رحيم والعبد رحيم هذه مشابهة ، ولم يعلم أولئك المخذولون أن التخصيص بيّن الفرق ، فعلم الله غير علم المخلوقين ، وسمع الله غير سمع المخلوقين ، ووجهه غير وجوه المخلوقين ، ويده غير أيديهم ، وأصابعه غير أصابعهم ، واستواؤه غير استوائهم ، فالإضافات تخصص ، فاستواؤه يليق به لا يشابه خلقه ، وسمعه يليق به لا يشابه خلقه ، وبصره يليق به لا يشابه خلقه ، وهكذا بقية الصفات ، كما قال عن نفسه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ (الشورى) فاتضح الأمر .

فإذا قلت : البعير له عين وله يد وله رجل وله رأس ، والبعوضة لها رأس ولها عين ، وهل يقبل المشابهة؟

لا ، هذا له شيء وهذا له شيء ، البعوضة شيء والبعير شيء ، وإن كانت مخلوقة ، كلها مخلوقة ، فهذا مخلوق وهذا مخلوق ، لكن البعير غير البعوض ، هذا يحمل عليه ويركب وينفع الناس ويؤكل لحمه ، وهذه بعوضة لا تساوي شيئاً ، ومع ذلك لها سمع ولها بصر ولها ولها ، فلا يلزم منه المماثلة في المخلوقات ، لا تلزم المماثلة ، فإذا قلت إن البعير يسمع والبعوضة تسمع ، والبعير يحس والبعوضة تحس ما يلزم التشابه بين المخلوقين ، فكيف برب العالمين الذي لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى؟

إذا كانت المخلوقات أنفسها لا تتشابه ، وإن كانت لها سمع ولها بصر ولها ولها ، لكنها مختلفة ، فالبعير شيء والبعوضة شيء والذباب شيء والكلب شيء ، وهكذا المخلوقات مختلفة .

فهكذا إذا قيل إن الله يسمع ويبصر والمخلوق يسمع ويبصر لا يلزم التشابه ، هذا شيء وهذا شيء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ (الإخلاص)

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ عزو الآية نسأل الله السلامة والعافية .أهـ

سؤال / الصوفية الذين ذكرهم في الرسالة منهم رجال حديث فهل هم متمسكون بالسنة؟

أجاب سماحته رحمه الله : المقصود أن هذا أصلهم ، وليس المقصود أنهم مستقيمون ، المقصود أن هذا أصلهم ، وكل واحد له انحرافات وكل واحد له أغلاط ، مثل علماء السنة ، هل كل واحد من علماء السنة معصوم؟

لا ، كل واحد له أخطاء وله أغلاط .أهـ

سؤال / لماذا تسموا بالصوفية؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : قيل أن فيه أسباباً : قيل لصفاء القلوب ، وقيل من أجل التقشف بالصوف ، لأنهم يلبسون الصوف من باب الزهد ومن باب التواضع ، فالاسم له أسباب عندهم ، وهم أخطئوا في هذا ، لو سلكوا مسلك الصحابة وساروا على منهج المسلمين الأوائل ولم يكن لهم شعاراً خاصاً لانتهت المشكلة ، فلم يحصل لهم هذه المشاكل .أهـ

سؤال / التسمي باسم صوفي أليس هذا التسمي بدعة ، لأن الله سمانا مؤمنين؟

أجاب سماحته رحمه الله : ينبغي لهم ينبغي لهم أن يتسموا بأسماء الله .أهـ(١)

وهذا الذي ذكره الشيخ أبو علي من أن الصوفية يخالفون المعتزلة فأمر متفق عليه ، فإن أصول الصوفية لا تلائم نفي الصفات ، بل هم أبعد الناس عن الاعتزال في الصفات والقدر .

ومن المعلوم أن طريقة الكلام في الجواهر والأعراض في أدلة أصول الدين ومسائله هي الطريقة التي سلكها المعتزلة ، وأخذها عنهم متكلمة الصفاتية من الأشعرية ونحوهم ، وهي الطريقة التي أشار إليها أبو القاسم .

فعلم أن القوم مخالفون لهذه الطريقة الكلامية التي أشار أبو القاسم إلى بعضها ، وكذلك قد ذكر أبو القاسم في ترجمة الشيخ أبي الحسن بن الصايغ ، وزمنه زمن ابن الكاتب سنة ثلاثين وثلاثمائة ، قال وكان من كبار المشايخ وقال قال أبو عثمان المغربي : ما رأيت من المشايخ أنور من أبي يعقوب النهرجوري ولا أكثر هيبة من أبي الحسن بن الصايغ .

(١) يشير رحمه الله إلى قوله تعالى : ﴿هو سماكم المسلمين من قبل . . .﴾ الآية .

قال القشيري سئل ابن الصايغ عن الاستدلال بالشاهد على الغائب فقال : كيف يستدل بصفات من له مثل ونظير على صفات من لا مثل له ولا نظير؟ !

والاستدلال بالشاهد على الغائب في إثبات الصفات هي طريقة شيوخ أبي القاسم من المتكلمين الذين يجمعون بين الشاهد والغائب في الحد والدليل والشرط والعلم لإثبات الحياة والعلم وسائر الصفات ، فقد رد الشيخ أبو الحسن هذه الطريقة .

ومما يبين هذا أن أعظم المشايخ الذين أخذ عنهم أبو القاسم جمعا لكلام مشايخ الصوفية وتأليفا له ورواية له هو الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، فإن القشيري لم يدرك شيخا أجمع لكلام القوم وأحرص على ذلك وأرغب فيه منه ، ولهذا صنف في ذلك ما لم يصنفه نظراؤه .

كما أن الذين أدركوا عصر أبي القاسم من مشايخ القوم لم يكن فيهم أقوم بهذا الباب من شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي ، لا سيما في المعرفة بأخبار القوم وكلامهم وطريقهم ، فإنه في ذلك ونحوه من أعلم الناس ، وكان إماما في الحديث والتفسير وغير ذلك .

ومع هذا فالشيخ أبو عبد الرحمن وشيخ الإسلام كلاهما له مصنف مشهور في ذم طريقة الكلام التي يدخل فيها كثير مما ذكره أبو القاسم من الدلائل والمسائل .

حتى ذكر شيخ الإسلام في كتابه قال سمعت أحمد بن أبي نصر يقول رأينا محمد بن الحسين السلمي يلعن الكلابية ، ومحمد بن الحسين السلمي هو الشيخ أبو عبد الرحمن أعرف مشايخ أبي القاسم القشيري بطريقة الصوفية وكلامهم ، ومعلوم أن القوم من أبعد الناس عن اللعن ونحوه لحظوظ أنفسهم ،

ولولا أن أبا عبد الرحمن كان الذي عنده أن الكلابية مباينون لمذهب الصوفية المباينة العظيمة التي توجب مثل هذا لما لعنهم أبو عبد الرحمن هذا .

والكلابية هم مشايخ الأشعرية ، فإن أبا الحسن الأشعري إنما اقتدى بطريقة أبي محمد بن كلاّب ، وابن كلاب كان أقرب إلى السلف زمنا وطريقة ، وقد جمع أبو بكر بن فورك شيخ القشيري كلام ابن كلاب والأشعري ، وبيّن اتفاقهما في الأصول ، ولكن لم يكن كلام أبي عبد الرحمن السلمي قد انتشر بعد ، فإنه انتشر في أثناء المائة الرابعة لما ظهرت كتب القاضي أبي بكر بن الباقلاني ونحوه .

وقد ذكر ذلك الحافظ أبو القاسم بن عساكر المنتصر لأبي الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه «تبيين كذب المفتري فيما ينسب إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري» موافقا للشيخ أبي علي الأهوازي المصنف في مثالب الأشعري ، مع كون ابن عساكر رد على الأهوازي ذمه وثلبه له ، لكن وافقه في ذلك ، فذكر أبو علي الأهوازي أنه مذ قوي مذهبه أقل من ثلاثين سنة ، والأهوازي توفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة .

قال ابن عساكر : وقوله إن مذ قوي من ثلاثين سنة ، فلعمري إنه إنما اشتهرت هذه النسبة من الأزمنة في عصر القاضي أبي بكر بن الباقلاني ذي التصانيف المستحسنة المنتشرة في بغداد وغيرها من البلدان والأمكنة .

والمقصود هنا أن المشايخ المعروفين الذين جمع الشيخ أبو عبد الرحمن أسماءهم في كتاب طبقات الصوفية ، وجمع أخبارهم وأقوالهم - دع من قبلهم من أئمة الزهاد من الصحابة والتابعين الذين جمع أبو عبد الرحمن وغيره

كلامهم في كتب معروفة، وهم الذين يتضمن أخبارهم كتاب الزهد للإمام أحمد وغيره - لم يكونوا على مذهب الكلابية الأشعرية، إذ لو كانت كذلك لما كان أبو عبد الرحمن يلعن الكلابية.

وقال شيخ الإسلام الأنصاري: سمعت أحمد بن حمزة وأبا علي الحداد يقولان: وجدنا أبا العباس أحمد بن محمد النهاوندي على الإنكار على أهل الكلام، وتكفير الأشعرية، وذكرا عظم شأنه في الإنكار على أبي الفوارس القرمسيني وهجر ابنه إياه لحرف واحد، قال شيخ الإسلام: سمعت أحمد بن حمزة يقول: لما اشتد الهجران بين النهاوندي وأبي الفوارس سألوا أبا عبد الله الدينوري فقال لقيت ألف شيخ على ما عليه النهاوندي.

وقد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه في ذم الكلام ما ذكر أيضا شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري، فقال: أخبرني ابن أحمد حدثنا محمد بن الحسين فقال رأيت بخط أبي عمرو بن مطر يقول سئل ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات، فقال بدعة ابتدعوها ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين مثل مالك وسفيان والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق ويحيى بن يحيى وابن المبارك ومحمد بن يحيى وأبي حنيفة ومحمد بن الحسن وأبي يوسف يتكلمون في ذلك، وينهون عن الخوض فيه، ويدلون أصحابهم على الكتاب والسنة، فإياك والخوض فيه والنظر في كتبهم بحال.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمقصود من كل هذا ما يتعلق بأهل الكلام الذين خاضوا في الصفات بعقولهم، وذكروا الجوهر والعرض، وتركوا الأدلة من الآيات والأحاديث، وقاسوا الخالق على المخلوق، فجعلوا المخلوق هو

الأصل والأساس وهو الشاهد ، وقاسوا عليه الغائب - بزعمهم - فوقعوا في شر كثير وفساد عظيم ، حتى نفوا الصفات وعطّلوا الله سبحانه من صفاته ، وزعموا أن كل صفة يسمى بها المخلوق ينزه الله عنها ، وهذا كله من الجهل والضلال العظيم ، وإنما الواجب تنزيهه عن المشابهة والمماثلة لا عن جنس الصفة ، ولهذا كان السلف يحذرون من هؤلاء المتكلمين النفاة ، الذين حكّموا عقولهم حتى عطلوا الكتاب والسنة ، ونفوا عن الله صفاته ، وجعلوه سبحانه كالعدم ، وهذا كله من الجهل والضلال والتقليد الأعمى .

هذا الذي أنكره مالك وأحمد والأوزاعي وابن راهويه والأئمة الكبار من أهل العلم ، لأن في الخوض في ذلك تعطيل الكتاب والسنة ، والتباسها على الناس واضطرابها للعقول ، فلهذا حذروا من أهل الكلام ، وحذروا من كلامهم وحذروا من اعتماد ما يقولون ، ودلوا الناس على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ففي ذلك الكفاية والمقنع والهداية ، قال الله وقال رسوله ، فيثبت ما أثبته الله ورسوله من الصفات والأسماء والأفعال ، وينفي ما نفى الله ورسوله من الصفات والأسماء والأعمال ، حتى يكون بهذا قد تقيد بالكتاب والسنة ، ودرج على طريق سلف الأمة .

ويكفيه في النفي قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ هذا كله كاف في أن صفاته لا تشابه صفات المخلوقين سبحانه . اهـ

وقال محمد بن الحسين وهو أبو عبد الرحمن السلمي : سمعت أحمد بن

سعيد المعداني بمرو سمعت أبا بكر ابن بسطام سألت أبا بكر بن سيار عن الخوض في الكلام فنهاني عنه أشد النهي ، وقال عليك بالكتاب والسنة وما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، فإني رأيت المسلمين في أقطار الأرض ينهون عن ذلك وينكرونه ويأمرون بالكتاب والسنة .

قال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري : أخبرنا أحمد بن محمد بن العباس بن إسماعيل المقري أخبرنا محمد بن عبد الله بن البيع وهو الحافظ الحاكم سمعت أبا سعيد عبد الرحمن بن محمد المقرىء سمعت أبا بكر محمد ابن إسحاق بن خزيمة يقول : من نظر في كتبي المصنفة في العلم ظهر له وبان بأن الكلابية لعنهم الله كذبة فيما يحكون عني مما هو خلاف أصلي وديانتي ، قد عرف أهل الشرق والغرب أنه لم يصنف أحد في التوحيد وفي أصول العلم مثل تصنيفي ، فالحاكي عني خلاف ما في كتبي المصنفة التي حملت إلى الآفاق شرقا وغربا كذبة فسقة .

وقال شيخ الإسلام : وأخبرني أحمد بن حمزة حدثنا محمد بن الحسين وهو أبو عبد الرحمن السلمي يقول : بلغني أن بعض أصحاب أبي علي الجوزاني سأله كيف الطريق إلى الله؟ قال أصح الطرق وأعمرها وأبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولا وفعلا وعقدا ونية ، لأن الله يقول ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ (النور ٥٤) فسأله كيف طريق اتباع السنة؟ قال : بمجانبة البدع واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله ، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع بذلك أمر النبي ﷺ بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (النحل) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وفي هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨﴾ (الجاثية) فهي شريعة واضحة موصلة إلى النجاة والسعادة ، وهي ما في الكتاب العظيم والسنة المطهرة ، لا في الأحكام ولا في الأسماء والصفات .أهـ

قال شيخ الإسلام : أخبرني طب بن أحمد حدثنا محمد بن الحسين وهو أبو عبد الرحمن سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان الرازي سمعت أبا جعفر الفرغاني سمعت الجنيد بن محمد يقول : أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب ، والقلب إذا عري من الهيبة من الله عري من الإيمان .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : صدق رحمه الله .أهـ

قال أبو القاسم ونحن نذكر في هذا الفصل جملا من متفرقات كلامهم فيما يتعلق بمسائل الأصول ، ثم نحرر على الترتيب بعدها ما يشتمل على ما يحتاج إليه في الاعتقاد على وجه الإيجاز .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول سمعت عبد الله بن موسى السلامي يقول سمعت الشبلي يقول : جل الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف .

قال : وهذا صريح من الشبلي أن القديم لا حد لذاته ولا حروف لكلامه .

قلت : هذا الكلام فيه استدراك من وجوه :

أحدها : أن الذي قال إنه تعالى معروف قبل الحدود وقبل الحروف ، لم يرد أن الخلق عرفوه قبل ذلك ، فإنه قبل الخلق لم يكن خلق يعرفونه ، وإنما أراد أنه

عرف أنه كان قبل الحدود وقبل الحروف ، فالظرف وهو «قبل» متعلق بالضمير في معروف لا بنفس المعرفة ، اللهم إلا أن يريد أنه يعرف نفسه قبل الحدود وقبل الحروف ، فيكون هو العارف وهو المعروف ، وهذا معنى صحيح يحتمله الكلام ، والمقصود أنه كان قبل ذلك .

ومعلوم أن اللام للتعريف فإذا كان قبل الحدود وقبل الحروف فإنما أراد الحدود المعروفة لنا والحروف المعروفة لنا ، وهي ما كان هو قبلها ، وتلك ما للمخلوق من الحدود والحروف ، ولا ريب أن الله كان قبل حدود المخلوقات ، وقبل أصوات العباد ومدادهم ، فأما أن يكون هذا يقتضي أن الله لم يتكلم بحرف أو ليس له حقيقة في ذاته يتميز بها عن مخلوقاته ؛ فليس هذا الكلام صريحا فيه ، إذ لو أراد ذلك لقال المنزه عن الحدود والحروف ، ولم يقل قبل الحدود والحروف ، فإن ما كان الرب قبله فهو صفة المخلوق ، وأما ما ينزه الرب عنه فهو ممتنع ليس هو صفة له ، ولا هو أيضا بعينه صفة للمخلوق ، وإن كان المخلوق قد يوصف بنظيره .

الوجه الثاني : أن الكلام المجمل من كلامهم يحمل على ما يناسب سائر كلامهم ، وهؤلاء أكثر ما يبتلون بالاتحادية والحلولية ، الذين يجعلون الرب حالا في المخلوقات محدودا بحدودها متكلما بحروفها ، حتى يجعلوه هو المتكلم على ألسنتهم ، كما ذكر ذلك أبو القاسم في أول الرسالة ، لما ذكر ما أحدثه فاسدوا الصوفية حيث قال : زال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، وعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا إلى ميدان

الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السُوقَة والنسوان وأصحاب السلطان ، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، فادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه ، وهم محو ليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكامه البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا .

وهؤلاء كثيرون في المنتسبين إلى الصوفية ، وعلى مثل ذلك قتل الحلاج .

فالشبلي وأمثاله يريدون أن يميزوا بين المخلوق والخالق لنفي مذهب الاتحاد والحلول ، كما نقل عن الجنيد إفراد القدم عن الحدث ، وكما قال أبو طالب المكي صاحب قوت القلوب : ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، فذكر أنه معروف قبل الحدود والحروف وهي ما عرف من حدود المخلوقين وحروفهم ، وإذا كان معروفا قبل ذلك لم يكن محدودا بحدودهم ولا متكلما بكلامهم .

الوجه الثالث : أن أصول اعتقاد أئمة الطريق إلى الله لا يؤخذ مما يحكى عن مثل الشبلي ، ولو كانت الحكاية صادقة لما عرف من حال الشبلي ، وأنه كان يغلب عليه الوجد حتى يزول عقله وتحلق لحيته ، ويذهبوا به إلى المارستان ، ويسقط عنه التمييز بين الحق والباطل .

ومن كان بهذه الحالة لم يجز أن يجعل كلامه وحده أصلا يفرق به بين أئمة

الهدى والضلال والسنة والبدعة والحق والباطل، لكن يقبل من كلامه ما وافق فيه أئمة المشايخ، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة.

وأقبح من ذلك أن يعتمد في اعتقاد أولياء الله في أصول الدين على كلام لم ينقل مثله إلا عن الحلاج، وقد قتل على الزندقة، وأحسن ما يقوله الناصر له: إنه كان رجلاً صالحاً صحيح السلوك، لكن غلب عليه الوجد والحال حتى عثر في المقال ولم يدر ما قال.

وكلام السكران يُطوى ولا يروى، فالمقتول شهيد والقاتل مجاهد في سبيل الله، دع ما يقوله من ينسبه إلى المخاريق وخلط الحق بالباطل.

وليس أحد من مشايخ الطريق لا أولهم ولا آخرهم يصوِّب الحلاج في جميع مقاله، بل اتفقت الأمة على أنه إما مخطئ وإما عاص وإما فاسق وإما كافر، ومن قال إنه مصيب في جميع هذه الأقوال المأثورة عنه فهو ضال بل كافر بإجماع المسلمين، وإذا كان كذلك كيف يجوز أن يجعل عمدة لأهل طريق الله كلام لم يؤثر إلا عنه، ولا يذكر في اعتقاد مشايخ طريق الله كلام أبسط منه وأكثر.

وهو ما قال فيه: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت محمد بن محمد بن غالب قال سمعت أبا نصر أحمد بن سعيد الأسفنجاني يقول قال الحسين بن منصور: ألزمن الكل الحدث لأن القدم له، فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه، والذي بالأداة اجتماعه فقواه تمسكه، والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمسه، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه، ومن آواه محل أدركه أين، ومن كان له جنس طالبه بكيف.

إنه سبحانه لا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله أحد ولا يزاحمه عند ولا

يأخذه خلف ولا يحده أمام ولم يظهره قبل ولم يفنه بعد ولم يجمعه كل ولم يوجده كان ولم يفقده ليس وصفه لا صفة له وفعله لا علة له وكونه لا أمد له، تنزه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج ولا في فعله علاج باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم.

إن قلت متى فقد سبق الوقت ذاته، وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه، وإن قلت أين فقد تقدم المكان وجوده، فالحروف آياته ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصور في الأوهام فهو بخلافه، كيف يحل به ما منه بدأ أو يعود إليه ما هو أنشأ، لا تماثله العيون ولا تقابله الظنون، قربه كرامته وبعده إهانته، علوه من غير توقل ومجيئه من غير تنقل.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: هذا كلام الصوفية. اهـ

هو الأول والآخر والظاهر والباطن والقريب البعيد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى).

قلت: هذا الكلام - والله أعلم - هل هو صحيح عن الحلاج أم لا؟ فإن في الإسناد من لا أعرف حاله، وقد رأيت أشياء كثيرة منسوبة إلى الحلاج من مصنفات وكلمات ورسائل، وهي كذب عليه لا شك في ذلك، وإن كان في كثير من كلامه الثابت عنه فساد واضطراب، لكن حملوه أكثر مما حمله، وصار كل من يريد أن يأتي بنوع من الشطح والطامات يعزوه إلى الحلاج، لكون محله أقبل لذلك من غيره، ولكون قوم من يعظم المجهولات الهائلة يعظم مثل ذلك، فإن كان هذا الكلام صحيحا فمعناه الصحيح هو نفي مذهب الاتحاد والحلول الذي وقع فيه طائفة من المتصوفة، ونسب ذلك إلى الحلاج، فيكون هذا الكلام

من الحلاج ردا على أهل الاتحاد والحلول ، وهذا حسن مقبول ، وأما تفسيره بما يوافق رأي أبي القاسم في الصفات فلا يناسب هذا الكلام .

وقد يقال إن هذا الكلام فيه من الشطح ما فيه ، وما زال أهل المعرفة يعيبون الشطح الذي دخل فيه طائفة من الصوفية ، حتى ذكر ذلك أبو حامد في إحيائه وغيره ، وهو قسمان :

شطح هو ظلم وعدوان ، وإن كان من ظلم الكفار .

وشطح هو جهل وهذيان ، والإنسان ظلوم جهول .

قال أبو حامد : وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض المتصوفة :

قال سماحة الشيخ رحمه الله : صنفان ، نائب فاعل ، يعني اسم مفعول ، لكن على قول من قال : إن المجرور يقدم على المفعول الأول فيكون مفعولا ثان له وجه ضعيف ، فلا بأس . أهـ .

أحدهما : الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب ، فيقولون قيل لنا كذا وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس .

قال والصنف الثاني من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائعة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وهي إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط في عقله ، وتشوش في خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام

قرع سمعه، وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له، ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره.

قال: ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام، إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان.

قلت: وهذا الكلام المحكي عن الحلاج فيه ما هو باطل، وفيه ما هو مجمل محتمل، وفيه ما لا يتحصل له معنى صحيح، بل هو مضطرب وفيه ما ليس في معناه فائدة، وفيه ما هو حق، لكن اتباع ذلك الحق من غير طريق الحلاج أحسن وأشد وأنفع.

فقوله: ألزمن الكل الحدث، لأن القدم له يتضمن حقا وهو أنه سبحانه القديم وما سواه محدث، ولكن ليس تعليله مستقيما ولا العبارة سديدة، فإن قوله ألزمن الكل الحدث، ظاهره أنه جعل الحدوث لازما لهم كما تجعل الصفات لازمة لموصوفها، مثل الأكوان والألوان وغير ذلك.

وليس كذلك، بل الحدوث لهم هو من لوازم حقيقتهم، فلا يمكن المخلوق أن يكون غير محدث حتى يلزم بذلك، بل هذا مثل قول القائل ألزم المخلوق أن يكون مخلوقا، وألزم المصنوع أن يكون مصنوعا.

وأما تعليل ذلك بقوله لأن القدم له، فليس كون القدم له هو الموجب لحدوثهم، إذ كونه موصوفا بصفة لا يمنع أن يوصف المخلوق بما يليق به من تلك الصفة، كما أن العلم له والحياة والكلام والسمع والبصر، وللمخلوق أيضا علم وحياة وكلام وسمع وبصر، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨).

فتعليل إلزام الحدوث لهم بأن القدم له ، كلام ساقط ، بل المخلوق محدث لنفس ذاته وعين حقيقته ، مثل كونه مربوبا ومصنوعا وفقيرا ومحتاجا ، فإن هذه الصفات الناقصة المتضمنة احتياجاته إلى الله وربوبية الله ثبتت له لنفس حقيقته .

وإلزامه إياه الحدث يقتضي نفي القدم عنه ، ونفي أنه على كل شيء قدير ، وأنه بكل شيء عليم ، وأنه مستغن بنفسه عما سواه ، فانتفاء هذه الصفات عنه هو ليس لأمر وجودي ، ولا لأجل أن الله متصف بها ، بل هذه الصفات يمتنع ثبوتها له ، ولكن قد تفسر بتأويل حسن كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وقوله : فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه ، هذا الكلام يتضمن ثبوت الجسم وشيء ظهر بالجسم وعرض يلزمه ، وعند الذين نصر أبو القاسم طريقتهم وسائر أهل الكلام ليس في المخلوق إلا جسم أو عرض ، إذ الجوهر الفرد جزء من الجسم ، فهذا الكلام لا يوافقه ، ثم إنه في نفسه قد يقال هو من جنس الشطح لا حقيقة له .

فما الذي بالجسم ظهوره أهو الجسم أم غيره؟ إن كان هو الجسم لم يصح أن يقال الذي ظهوره هو الجسم؟ وإن كان غيره وسُلّم ذلك له فما الموجب لتخصيص ذلك بالكلام فيه دون الجسم ، والعرض يلزم الجسم أين من لزومه ما ليس بجسم .

ثم إذا قيل : إن العرض يلزمه هو طريقة بعض أهل الكلام المحدث في الاستدلال على حدوث الأجسام بلزوم الأعراض لها ، وفي هذه الطريقة من الاضطراب ما قد ذكرناه في موضعه ، وليست هذه طريقة المشايخ والعارفين .

ومن أحسن ما يحمل عليه هذا الكلام أن قائله إن أراد به إبطال مذهب الحلول والاتحاد وظهور اللاهوت في الناسوت ، وأن الرب سبحانه ليس حالا في شيء من المخلوقات ، ولا يظهر في شيء من الأجسام المصنوعات ، كما يقوله من يقول إنه ظهر في المسيح وفي علي وفي الحلاج ونحو ذلك ، كما يقوله أهل التعيين منهم ، وكما يقوله من يقول بذلك في جميع المصنوعات ، على مذهب ابن عربي وابن سبعين ونحوهم ، فقوله ألزم الكل الحدث ، أي جعله لازما لهم لا يفارقهم ، فلا يصير المحدث قديما .

وقوله : الذي بالجسم ظهوره ، يعني أي شيء ظهر بهذه الأجسام مما يظن أنه الحق ، وأنه ظاهر في الأجسام ، فالعرض يلزم ذلك الظاهر في الجسم كما يلزم ذلك الجسم ، وحينئذ فيكون الظاهر في الجسم بمنزلة نفس الجسم ، ليس بأن يجعل أحدهما ربا خالقا والآخر مخلوقا بأولى من العكس .

وكذلك قوله : الذي بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه ، هذا رد على من يقول بقدم الروح أو بحلول الخالق في المخلوق ، فإن أدوات الإنسان وهي جوارحه وأعضاؤه بها يكون اجتماع ذلك ، وقوى الأدوات تمسك ذلك فيكون مفتقرا إليها محتاجا إليها ، والمحتاج إلى غيره لا يكون حقا غنيا بنفسه فلا يكون هو الله ، وليس في هذا تعرض لصفات الحق في نفسه نفيا وإثباتا بقبول مذهب ورد مذهب ، إذ لم يقل أحد من الخلق إن الحق يجتمع بالأدوات ، حتى أن من وصفه بالجوارح والأعضاء من ضلال المجسمة لا يقولون إن اجتماعه بها .

وإن أريد باجتماعه بها أنه لابد له منها فقوله : فقواها تمسكه ، هو مثل قوله : إنه لابد له منها ، لا يكون أحدهما إبطالا للآخر ، بل لزوم ذلك عندهم كلزوم صفاته له ، وليس في ذلك فقر منه إلى غيره ، كما أنه قائم بنفسه غني

بنفسه ، ولا يقال إنه مفتقر إلى غيره ، إذ ما هو من لوازم ذاته هو داخل في اسمه فلا يكون مفتقرا إلى غيره .

وكذلك قوله : الذي يؤلفه وقت يفرقه وقت ، هذا منطبق على إفساد مذهب الاتحادية ، فإن الآدمي تأليفه وتركيبه في بعض الأوقات ، كما يكون تفريقه في بعض الأوقات ، فلا يكون التأليف ولا التفريق لازما له ، بل هو محتاج فيهما إلى غيره ، وكذلك ما يقال إنه يتحد فيه أو يتحد به من اللاهوت هو مفارق له في وقت آخر .

قال سماحة الشيخ : كلام لو ما قاله المؤلف كان خيراً للناس ، لكن أراد بهذا بيان أباطيلهم وبيان ما فيه من الباطل ، وهكذا شأن الصوفية ، لأنهم في الغالب يأتون بكلمات مشتبهات ملتبسات يحصل بها الضلال لقوم ويفسرها آخرون على مرادهم وآخرون يفسرونها بتفاسير باطلة ، والمنصف الموفق العالم هو الذي يفسرها بالحق ويبين من الحق ، أما طريق السلامة وطريق النجاة فهو أن يعرف الله بما ذكر في كتابه العظيم وسنة رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام ، فهو الذي يعرف بالله ، فما عرَّف به سبحانه منه نفسه في كلامه العظيم وفي كلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، فهو جل وعلا يعرف بأسمائه وصفاته التي جاءت في كتابه العظيم وفي كلام رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام ، أما الصوفية وأشباههم من الذين حرّفوا الكلام عن مواضعه وخاضوا في كلام الفلاسفة وضموا إليه أشياء من آرائهم وكيسهم ؛ فهذا يضر ولا ينفع ، وينبت الأمر ولا يوضحه ، فنسأل الله العافية والسلامة .أهـ

وأما قوله الذي يقيمه غيره فالضرورة تمسه فهذا كلام حسن وهو حق وكل ما سوى الله فإنما يقيمه غيره ، والله هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم

الذي يقوم بنفسه ويقيم كل شيء، وكل ما يقيمه غيره فهو مضطر إلى ذلك الغير فلا يكون ربا وهذا فيه دلالة على أنه ليس في شيء من الإلهية والربوبية إذ الضرورة لازمة لهم كلهم.

وأما قوله الذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه فقد يقال فيه شيئان:

أحدهما: أن ما يتوهمه العبد لا يكون إلا ضرورة مصورة، لكن هذا لا يدل على فساد ما يتوهم ولا على فساد الصورة.

والثاني: يكون المراد بالتصوير تصوير الإنسان في نفسه له فيكون تصويره مثل ظفر الوهم به فيعود الأمر إلى أن يقال: ما يتوهمه العبد فقد تصوره وهذا لا فائدة فيه، وذلك أن التصوير إما أن يراد به أنه في ذاته مصور أو يراد أن العبد تصوره في نفسه، إذ ليست الصورة إلا عينية خارجة موجودة في الخارج أو ذهنية في نفس الإنسان مثلا ونحوه مما يتصور فيه، والكلام إذا كان تكريرا بلا فائدة كان من الشطح، وإن كان بلا حجة كان دعوى.

وقوله: من آواه محل أدركه أين، استدلال منه على انتفاء إيواء المحل بانتفاء الأين وهذه ساقطة، فإن العلم به أظهر من العلم بانتفاء الأين عنه، فإن عامة أهل السنة وسلف الأمة وأئمتها لا ينفون عنه الأين مطلقا لثبوت النصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ بذلك سؤالا وجوابا.

فقد ثبت في الصحيح عنه أنه قال للجارية: «أين الله»؟ قالت: في السماء[1]، وكذلك قال ذلك لغيرها.

---

(1) رواه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٧).

وقال له أبو رزين العقيلي : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال : «في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء» .(١)

ومن نفى الأين عنه يحتاج إلى أن يستدل على انتفاء ذلك بدليل .

أما أن يجعل انتفاء الأين عنه دليلا فهذا لا يقوله عاقل ، ومن نفى الأين قال لأن الأين سؤال عن المكان يقول : والله ليس في المكان لأن المكان لا يكون إلا للجسم والله ليس بجسم لأن الجسم لا يكون إلا محدثاً ممكناً ، فلا بد له من هذه المقدمات أو ما يناسبها .

ثم المثبت لما جاءت به السنة يُردّ عليه بمنع بعض هذه المقدمات والتفصيل فيها أو بعضها وبيان الحق في ذلك من الباطل مثل أن يقال : المكان يراد به ما يحيط بالشيء ، والله لا يحيط به مخلوق ، أو يراد به ما يفتقر إليه الممكن والله لا يفتقر إلى شيء ، وقد يراد بالمكان ما يكون الشيء فوقه والله فوق عرشه فوق سماواته فلا يسلم نفي المكان عنه بهذا التفسير .

ونقول : قد وردت الآثار الثابتة بإثبات لفظ المكان فلا يصح نفيه مطلقاً ، وكذلك نقول في سائر المقدمات ، فظهر أن هذا الكلام لا تصح دلالته إلا أن يراد به نفي الاتحاد والحلول ، فيكون المعنى لو آواه بطن مريم أو جسد واحد من البشر كما قد يقول بعض ذلك بعض الحلولية لكان الأين يلزمه كما يلزم محله ، ففرق بين أحدهما والآخر في جعل هذا خالقا وهذا مخلوقاً .

(١) رواه أحمد في المسند ٤/ ١١ ورواه الترمذي (٣١٠٩) كتاب التفسير/ باب : من سورة هود ، وقال : هذا حديث حسن ، وابن ماجه (١٨٢) المقدمة/ باب فيما أنكرت الجهمية ، وابن حبان (٦١٤١) كما في الإحسان ذكر الأخبار عما كان الله فيه قبل خلقه السماوات والأرض ، وعبدالله بن أحمد في كتاب السنة ١/ ٢٤٥ رقم (٤٥٠) من حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه .

وأما نفس المعنى المقصود بنفي إيواء المحل عنه فإنه صحيح إذا قصد به أنه لا فوقه شيء من المخلوقات فتحيط به أو يكون الرب مفتقراً إليه .

وأما إن قصد أنه ليس فوق العرش فهذا باطل ، ولكن لفظ إيواء المحل بالمعنى الأول أشبه .

وأما قوله : من كان له جنس طالبه بكيف فهو نمط الذي قبله ، فإنه يتضمن نفي المجانسة عنه بانتفاء طلب الكيف ، والعلم بأن الله ليس له مثل ولا سمي ولا كفو أبين من العلم بأنه لا يقال له كيف ، فإن كثيرا من الناس دخلت عليهم الشبهة فطلبوا التكييف حتى بيّن لهم أن الكيف غير معلوم لنا .

فالذي ثبت نفيه بالشرع والعقل واتفاق السلف إنما هو علم العباد بالكيفية وسؤالهم عن الكيفية التي لا يمكن معرفتها ، بخلاف المجانسة فإنها منتفية عنه في نفس الأمر ، فكيف نجعل هذا دليلا على الآخر .

ولو قلب العبارة وقال : فالذي يطلب له كيف له جنس لكان قد سلك سبيل الاستدلال ، لكن قد لا يسلم له ذلك ويقال له : من أين تعلم أن كل ما يقال له كيف يجب أن يكون له مثل يجانسه؟

وحينئذ يمكن الاستدلال على ذلك بما ليس هذا موضعه ، ولعل المتكلم بهذا الكلام قصد هذا المعنى ، مع أنه في نفي السؤال بكيف كلام قد ذكرناه في غير هذا الموضع .

وأما قوله : لا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ولا يأخذه خلف ولا يحده أمام ولم يظهره قبل ولم يفنه بعد ولم يجمعه كل ولم يوجده كان ولم يفقده ليس ؛ فهذا الكلام أكثره مجمل وفيه ما هو حق وفيه ما هو باطل .

فقوله : لا يظله فوق حق ، إذ ظاهره أن الله ليس فوقه شيء ، وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء»[(١)]

وأما قوله : لا يقله تحت ، فإن أراد به أن الله ليس فوق الخلق فهذا ليس بحق ، والنبي ﷺ لما قال : «أنت الظاهر فليس فوقك شيء» ، لم يقل لست فوق شيء بل قال : «أنت الباطن فليس دونك شيء»[(٢)] ولم يقل ليس لك دون ولا قال لست موصوفا بالفوق ، ففرق بين قوله : ليس دونه شيء وليس شيء فوقه وبين قوله : ليس موصوفا بفوق وما هو موصوف بتحت .

وأما قوله : لا يقابله حد ولا يزاحمه عند ، فظاهره باطل إذ ظاهره أن الله لا يقابله شيء من المخلوقات ولا تنتهي إليه المحدودات ولا يكون عنده شيء من المخلوقات ، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة .

فإن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ (الأعراف) .

وقال : ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنبياء) .

وقال : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (فاطر : ١٠)

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الدعاء عند النوم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) المصدر السابق .

وقال تعالى : ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ (آل عمران ٥٥)

وقال : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ (المعارج : ٤) .

وقال النبي ﷺ في الأحاديث المستفيضة «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»(١) .

وقوله : لا يأخذه خلف ولا يحده أمام كلام مجمل والله موصوف في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة بأن المخلوق يكون أمامه وبين يديه في غير موضع فلا يجوز نفي ذلك عنه .

وأما قوله : ولم يظهره قبل ولم يفنه بعد ، فظاهره صحيح ، فإن ظاهره أنه ما ظهر بقبل كان قبله ولا يفنى فيكون شيء بعده وهذا حق ، فهو سبحانه كما قال النبي ﷺ : « **أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء** »(٢) .

وأما قوله : ولم يجمعه كل ولم يوجده كان ولم يفقده ليس ، ففيه إجمال ، فإن أراد أنه لا يقال كان الله فهذا باطل .

ففي الصحيح عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أن أهل اليمن قالوا : يا رسول الله ، جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان قال : «**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**»(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٥٧٣) كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة الفجر ، ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ، في حديث جرير بن عبدالله ﷺ .

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ وقد تقدَّم .

(٣) رواه البخاري (٣١٩١) كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ .

وكذلك إن أراد أنه لا يوصف بـ«ليس» فإن الله ينفى عنه أشياء كما ثبتت له أشياء ، وإن أراد أنه لم يوجد بـ«كان» ولا يفقد بـ«ليس» فهذا حق ، فإنه ليس بمحدث في وقت دون وقت ولا يجوز عليه العدم ، فلا حدث بـ«كان» ولا يفقد بـ«ليس» .

وأما قوله : وصفه لا صفة له فمجمل ، فإن أراد أن صفاته لا توصف بالكلام فالله ورسوله قد وصف صفاته ، مثل وصف علمه بأنه بكل شيء محيط وقدرته بعمومها وأنه على كل شيء قدير ورحمته بأنها وسعت كل شيء .

وإن أراد أن العبد لا تحيط صفته بصفة ربه فحق ، وما أظنه أراد ما يريده بعض المتكلمين من أن صفة لا تقوم بها صفة ، لأن العرض لايقوم بالعرض بل تكون الصفتان والعرضان جميعا قائمين بالعين .

وأما قوله : فعله لا علة له فمجمل ، وهو أقرب إلى الحق إن أراد أنه لم يفعل شيئا لعلة من غيره فهذا حق ، وإن أراد أنه لم يفعل الأشياء لعلة من نفسه مثل مشيئته وإرادته وعلمه فهذا ليس بحق ، والأشبه أنه أراد المعنى الأول .

وأما قوله : كونه لا أمد له فهذا حق صحيح .

وأما قوله تنزه عن أحوال خلقه ، فصحيح إذا أراد أنه ليس مثل خلقه في شيء من الأشياء ، ولكن من جعل في هذا الكلام أنه لا يوصف بالصفات التي تليق به كما يوصف خلقه من تلك الصفات بما يليق بهم فهذا باطل ، فإنه يوصف بالعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام وإن كان خلقه يوصفون بما يليق بهم من ذلك .

وأما قوله : ليس له من خلقه مزاج ولا في فعله علاج فهو صحيح ، فإن الله

لا عون له ولا ظهير كما قال تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ (سبأ) بل هو الغني عن جميع خلقه ، وكذلك سبحانه إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه من المعالجة .

وكذلك قوله : باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم صحيح ، وإن كان ما باين الله به خلقه أعم من مجرد القدم ، فإنه باينهم بجميع صفاته ليس له في شيء منها مثل .

وأما قوله : إن قلت متى فقد سبق الوقت ذاته فهذا صحيح ، فإن الله لا يقال متى كان إذ هو القديم الذي لم يزل ولا يزال .

وأما قوله : إن قلت هو فالهاء والواو خلقه فهو كلام فاسد ، فإنه إن أراد أنه لا يقال هو فهذا خلاف إجماع المسلمين وسائر الأمم ، وهو فاسد بضرورة العقل والشرع .

قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ (الحديد : ٣) ، وقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود : ٧) ، وقال : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ (البروج : ١٤) ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد : ٤) .

وفي القرآن من ذكر «هو» أكثر من أن يحصر هنا فنفي قول «هو» من أعظم الباطل .

وإن أراد أن يقال ما هو لعدم العلم بحقيقته فلا يصلح أن يدل على ذلك

بقوله فالهاء والواو خلقه ، فإن هذا لو كان حجة لصح أن يحتج به في متى وأين ، وبتقدير كون الحروف مخلوقة لا يصلح أن يحتج بذلك على نفي الإخبار بها عن الله أو الاستفهام بها عن بعض شؤونه وصفاته ، وإدخال لفظ هو بين متى وأين يدل على أنه أراد الاستفهام .

وإن أراد أنّا إذا قلنا هو فإنما تكلمنا بحروف مخلوقة وإن ذلك يفيد نفي معرفتنا به فهذا من أبطل الكلام ، فإن القائلين بأن الحروف مخلوقة والحروف غير مخلوقة متفقون على أن الإخبار عنه بهو لا ينفي معرفته ، فظهر أن قوله الهاء والواو خلقه كلام ليس فيه هنا فائدة بحال .

وإذا كان المتكلم بذلك لم يذكر كلاما منتظما مفيدا سواء كان حقا أو باطلا فهو جدير على أن لا يستدل بكلامه على أنه حق أو باطل ، ثم قال ذلك إن أراد أن نفس أصوات العباد مخلوقة فهذا صحيح ، وإن أراد أن نفس الحروف حروف القرآن وغيره ما تكلم الله بها وليست من كلامه ، وهذا خلاف الكتاب والسنة وخلاف سلف الأمة وأئمتها .

وأما قوله : إن قلت أين فقد تقدم المكان وجوده ؛فحجة ضعيفة لأن وجوده قبل المكان لا يمنع بعد خلق المكان أن يقال وأين هو ، فإن الأين نسبة وإضافة لا تكون إلا بعد وجود المضاف إليه ، وأما متى فهو يقتضي حدوث المسؤول عنه فجواب متى يقتضي حدوثه إلا أن يجاب عنها بأنه لم يزل ، فإذا قال قائل : متى كان؟ قيل له : لم يزل ولا يزال ، وأما جواب أين فهو يقتضي علوه وهو علي عظيم ليس بمحدث فلا يشبه أحدهما بالآخر .

وأما قوله : فالحروف آياته فكلام صحيح ، وكذلك القرآن هو كلام الله

غير مخلوق وهو آياته ، وكون القرآن بحروفه ومعانيه آياته لا يستلزم كون ذلك مخلوقا .

وأما قوله : ووجود إثباته فلم يرد به والله أعلم ما يعنيه المتكلم بلفظ الوجود ، وإنما أراد به ما يريده الصوفية وهو مطابق اللغة بقول : وجود العبد له هو إثبات .

وأما قوله : معرفته توحيده وتوحيده تميزه من خلقه ، فلا ريب أن هذا إبطال لمذهب الاتحاد والحلول وهو حق ، وتمييزه من خلقه متفق عليه بين أهل الإيمان ولا يستقيم ذلك إلا إذا كان بائنا من خلقه غير داخل فيهم .

وأما قوله : ما تصور في الأذهان فهو بخلافه فهو كلام مجمل ، ومعناه الصحيح أن حقيقة الرب لا يتصورها العبد ، من تصور شيئا اعتقد أنه حقيقة الرب فالله بخلاف ذلك ، والمعنى الباطل أن يقال : كلما تصوره العبد وعقله فهو مخالف للحق فليس الأمر كذلك .

وأما قوله : كيف يحل به ما منه بداه أو يعود إليه ما هو أنشأه فكلام مجمل ، فإن من يقول : القرآن مخلوق خلقه الله منفصلا عنه قد يقول مثل هذا الكلام فيقول : لا يحل القرآن به ولا يقوم بذاته فإنه منه بدأ ولا يعود إليه لأنه أنشأه ، والقول بأن كلام الله مخلوق منفصل عن قول باطل وهو شعار الجهمية وهو في الحقيقة تكذيب للرسل .

وكذلك قوله : لا تماقله العيون قد يشعر أنه لا تجوز رؤيته بالعيون وليس الأمر كذلك ، بل رؤيته بالعيون جائزة والمؤمنين يوم القيامة يرونه عيانا كما قال النبي ﷺ وإن كانت الأبصار لا تدركه .

وأما قوله : لاتقابل الظنون فمن المجملات .

وقوله : قربه كرامته وبعده إهانته فمردود .

أما أولا : فإنه وصفه بالبعد ، والله لا يوصف بالبعد وإن وصف بالقرب ، هذا إن أراد قربه من عباده وبعده منهم ، وإن أراد تقريبه لهم وتبعيده لهم فاللفظ لا يدل على ذلك ، فإن القرب والبعد غير التقريب والتبعيد .

وأما ثانيا : فلان قربه من عباده وتقريبه لهم عند سلف الأمة وأئمتها ، وعامة المشايخ الأجلاء ليس مجرد الإنعام والكرامة ، بل يقرب من خلقه كيف شاء ويقرب إليه منهم من يشاء ، كما قد بينا ذلك في موضعه .

وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل الآخر»(١) وثبت في الصحيح أنه قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ (العلق) .

وأما قوله علوه من غير توقل ومجيئه من غير تنقل فكلام مجمل ، هو إلى البدعة أقرب ، فإنه قد يظهر منه أنه ليس هو فوق خلقه ، ويفهم منه نفي ما دل عليه الكتاب والسنة من وصفه بالاستواء والمجيء والإتيان وغير ذلك ، وهذه المسألة والتي قبلها كبيرتان ذكرناهما في غير هذا الموضع ، مثل جواب الاعتراضات المصرية وغير ذلك .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٩) كتاب الدعوات/ باب ، وقال : هذا حديث حسن صحيح وغريب من هذا الوجه ، ورواه النسائي (٥٧٣) كتاب الصلاة / باب النهي عن الصلاة بعد العصر ، من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٤٨٢) كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقوله : هو الأول والآخر والظاهر والباطن والقريب والبعيد ، ليس في أسماء الله البعيد ، ولا وصفه بذلك أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل هو موصوف بالقرب دون البعد .

وفي الحديث المشهور في التفسير ، أن المسلمين قالوا يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[١] (البقرة : ١٨٦) وهذا يقتضي وصفه بالقرب دون البعد .

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه لما جعلوا يرفعون أصواتهم بالتكبير : «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[٢] .

وإنما الواجب أن يوصف بالعلو والظهور كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء»[٣] .

(١) رواه الطبري في تفسيره ٣/ ٤٨٠ وابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٣٠٩ .

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢) كتاب الجهاد والسير/ باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير ، ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها ، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ .

(٣) رواه مسلم (٢٧١٣) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الدعاء عند النوم من حديث أبي هريرة ﷺ ، وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : هو جزء من دعاء النوم ، ورواه مسلم ، وليس في صحيح مسلم ما يشير إلى أنه تفسير للآية ، ولم يروه في باب التفسير ، ولكن المفهوم أنه معنى هذه الأسماء الحسنى المذكورة في الآية .اهـ

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة)، فلو قال: هو العلي القريب كان حسنا صوابا، وكذلك لو قال قريب في علوه علي في دنوه.

فأما وصفه بأنه القريب البعيد فلا أصل له، بل هو وصف باسم حسن وبضده، كما لو قيل العلي السافل، أو الجواد البخيل، أو الرحيم القاسي، ونحو ذلك، والله تعالى له الأسماء الحسنى، وإنما يؤتى مثل هؤلاء من القياس الفاسد، لما سمعوه يخبر عن نفسه بأن الأول الآخر الظاهر الباطن، قاسوا على ذلك القريب والبعيد، وهذا خطأ لأن تلك الأسماء كلها حسنة دالة على كمال إحاطته مكانا وزمانا، وأما هذا فهو جمع بين الاسم الحسن وضده.

الوجه الرابع: أنه قدّم كلام الشبلي في الاعتقاد قبل كلام جميع المشايخ الذين هم أجل منه وأعظم، مع أن هذه المسألة لا تستحق التقديم، وإنما مرتبته فيما بعد، كما ذكرها هناك، وكان الواجب أن يؤخر ذلك إلى موضعه، فإنه ذكر بعد ذلك أول الواجبات، وهذا هو الذي يستحق التقديم، ومثل هذا يقتضي كون المصنف فيه نوع من الهوى، ومن أعظم الواجبات على أهل هذا الطريق خلوهم من الهوى، فإن مبناه على قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمعنى أن الواجب على المؤمن في مؤلفاته وفي كلامه وفي ردوده وفي كل شيء تحري العدالة، وتحري الإنصاف، والبعد عن الهوى، لأن الآية عامة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ومن ذلك النقول، كونه ينقل كلام من هو أدنى، ويقدمه على كلام من هو أعلى من أهل العلم؛ فيه شيء

من النظر، وقد يكون هذا سببه الهوى، لأنه يحب هذا ويكره هذا، أو لأنه يقدم هذا ويؤخر هذا، فالواجب تحري من الأولى بالتقديم، ومن هو الأولى بالملاحظة، لعلمه وفضله أو لتقدم زمانه، أو نحو ذلك، فالمقصود أنه يلاحظ في نقله الإنصاف وتحري الحق، لا لكونه يحب هذا ويكره هذا ونحو ذلك. أهـ

ثم قال أبو القاسم رحمه الله: سمعت أبا حاتم يقول سمعت أبا نصر السراج رحمه الله يقول: سئل رويم عن أول فرض افترضه الله على خلقه ما هو؟ قال: المعرفة، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ (الذاريات)، قال ابن عباس: ليعرفون.

قلت: هذا الكلام صحيح، فإن أول ما أوجبه الله على لسان رسوله هو الإقرار بالشهادتين، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» أخرجاه في الصحيحين.(١)

وكذلك قال المشايخ المعتمدون مثل الشيخ عبد القادر وغيره، والإقرار بالشهادتين يتضمن المعرفة، لكن ذهب طائفة من أهل الكلام وممن اتبعهم من الفقهاء والصوفية إلى أنه يجب على العبد المعرفة أولا قبل وجوب الشهادتين، ومنهم من قال يجب على العبد النظر قبل المعرفة، ومنهم من قال يجب القصد إلى النظر، ومن غاليتهم من أوجب الشك، وقد بسطنا القول في هذه المسألة في غير هذا الموضع.

(١) رواه البخاري (٧٣٧٢) كتاب التوحيد/ باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

فهذا القول يوافق هؤلاء ، لكن في صحة الحكاية بهذا اللفظ عن رويم نظر ، فإن رويمًا من أهل العلم والمعرفة ، وما ذكره من الحجة لا يدل على هذا الجواب ، فليس في قوله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ما يدل على أن المعرفة أول الواجبات ، سواء فسر يعبدون بيعرفون أو فسر بغير ذلك ، فإن خلقهم لشيء لا يدل على أنه أول واجب إن لم يبين ذلك بشيء آخر .

وأما التفسير المذكور عن ابن عباس ، فالذين ذكروه عنه جعلوا هذه المعرفة هي المعرفة الفطرية التي يقربها المؤمن والكافر ، ومقصودهم بذلك أن جميع الإنس والجن قد وجد منهم ما خلقوا له من العبادة التي هي مجرد الإقرار الفطري ، وجعلوا ذلك فرارًا من احتجاج القدرية بهذه الآية .

ولا ريب أن هذا ضعيف ، ليس المراد أن الله خلقهم لمجرد الإقرار الفطري ، وقد تكلمنا على الآية في غير هذا الموضع .

ولعل السائل سأله عن أعظم واجب فقال المعرفة لقوله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي يعرفون ، واعتقد رويم أن هذه المعرفة هي المعرفة التي يشير إليها مشايخ الطريق ، وهي معرفة الخواص ، فيكون جوابه عن أعظم واجب لا عن أول واجب ، فهذا كما ترى .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا الكلام فيه بحث للمؤلف غريب ، فإن الكلام هذا تارة يؤيد المعرفة وأنها أول واجب ، وتارة يعترضها ، والصواب أن أول واجب وأعظم واجب هو أن يُعبدَ اللهُ وحده بالإقرار بالشهادتين ، أما إطلاق المعرفة أو النظر إلى المعرفة أو القصد إلى المعرفة - مثل ما أشار في بعض كلماته - أن هذا غلط من أهل الكلام ، وإنما الصواب أن أول واجب وأعظم واجب وأهم واجب هو توحيد الله الذي خُلِقَ من أجله الثقلان ، أما المعرفة فاليهود والنصارى

وكفار العرب يعرفون أن الله خالقهم ورازقهم ، وهذا لا يكفي ، بل لابد من توحيد الله والإخلاص له ، ولهذا ذكر المؤلف حديث معاذ لما بعثه إلى اليمن ، قال : « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»(١) وفي اللفظ الآخر : «فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله » وفي اللفظ الآخر : «إلى أن يوحدوا الله» وفي اللفظ الآخر : «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله» هذا هو المقصود ، أن يكون العبد عابداً لله مخلصاً له موحداً له سبحانه ، علاوة على كونه يؤمن بأنه خالقه ورازقه ، فالخلق والرزق أمر مشترك بين الكفار والمسلمين ، يعرفون أن الله خالقهم ورازقهم ، لكن يمتاز المسلمون ، ويمتاز أهل التوحيد بإيمانهم بأنه معبودهم الحق ، مع أنه خالقهم فهو معبودهم الحق وهو إلههم ، ويشهدون أنه لا إله إلا الله ، ومع هذا أن محمداً رسول الله ، لأنها لابد منها مع ذلك في حق أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

فالحاصل أن أحسن ما يقال في هذا ـ وهو الصواب وهو الحق ـ أن أول واجب وأعظم واجب وأهم واجب على العبد ؛ هو أن يعبد الله وحده ، أن يعلم أنه المعبود بالحق ، فإذا فسرت المعرفة بهذا ، وقيل : المعرفة بأن يعرف أن الله هو المعبود بالحق وهو الإله الحق ، وأنه لا يكفي أن يكون معترفاً بأنه خالقه ورازقه ، فإن هذه المعرفة قد عرفها أبو جهل ، وعرفها عتبة بن ربيعة ، وعرفها أبو طالب ، وعرفها أبو لهب ، ولم تغن شيئاً عنهم ، حتى يعبدوا الله وحده ، وحتى يعلموا أنه المستحق للعبادة ، وأن آلهتهم باطلة ، وأنه لا يجوز أن يعبد معه أحد ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

(١) رواه البخاري (٧٣٧٢) كتاب التوحيد/ باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

فحديث معاذ هو أصرح شيء في هذا وأبين شيء في هذا، مع ما جاء في حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام، قال: «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً» في حديث أبي هريرة[(١)]، وفي حديث عمر: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[(٢)] وفي حديث معاذ: «فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[(٣)] هذا كله يبين لنا أن هذا أول واجب، وهو أعظم واجب، وهو أهم واجب، أن يُعبد الله وحده ويخصه بالعبادة ويشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإذا أريد بالمعرفة هذا المعنى صحت المعرفة.

وأما إطلاق المعرفة، مجرد المعرفة فلا يصح، لأن اليهود والنصارى والوثنيين وأشباههم ممن يؤمن بالخالق قد عرفوا هذا، ولكن لم يكف في حقهم، ولم يكونوا موحدين، بل قاتلهم النبي ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم حتى يعبدوا الله وحده، وحتى يعتقدوا بطلان آلهتهم وينكروها. أهـ

ثم ذكر أبو القاسم بغير إسناد عن الجنيد أنه قال إن أول ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق والقديم من المحدث، ويذل لدعوته ويتعرف بوجوب طاعته، فإن لم يعرف ما لكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه.

وهذا كلام حسن يناسب كلام الجنيد، وقد ضمن هذا الكلام التمييز بين

(١) رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان/ باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة.

(٢) رواه مسلم (٨) كتاب الإيمان/ باب أول من قال بالقدر.

(٣) رواه البخاري (٧٣٧٢) كتاب التوحيد/ باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

المخلوق والخالق ، لئلا يقع السالك في الاتحاد والحلول ، كما وقع فيه طوائف ، وذكر أصيلين : التصديق والانقياد ، لأن الإيمان قول وعمل ، فذكر معرفة الصانع ، وذكر الذل لدعوته والاعتراف بوجوب طاعته .

وهذا من أصول أهل السنة وأئمة المشايخ ، خصوصا مشايخ الصوفية ، فإن أصل طريقهم الإرادة التي هي أساس العمل ، فهم في الإرادات والعبادات والأعمال والأخلاق أعظم رسوخا منهم في المقالات والعلوم ، وهم بذلك أعظم اهتماما وأكثر عناية ، بل من لم يدخل في ذلك لم يكن من أهل الطريق بحال .

وهذا حق ، فإن الدين والإيمان قول وعمل ، وأوله قول القلب وعمله ، فمن لم ينقد بقلبه ولم يذل لله لم يكن مؤمنا ، ولا داخلا في طريق الله ، ولهذا لم يتنازع المشايخ أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الناس يتفاضلون فيه ، وأن أعمال القلوب من الإيمان ، كما يتنازع غيرهم .

وذكر أبو القاسم بعد هذا كلاما عن المشايخ فيه جمل مستحسنة ، قال : أخبرني محمد بن الحسين سمعت محمد بن عبد الله يقول سمعت أبا الطيب المراغي يقول : للعقل دلالة وللحكمة إشارة وللمعرفة شهادة ، فالعقل يدل والحكمة تشير والمعرفة تشهد أن صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد .

وقال : وسئل الجنيد ولم يسنده عن التوحيد؟ فقال : إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته ، أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد بنفي الأضداد والأنداد والأشباه ، فلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى) .

وقال : حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى الصوفي حدثنا عبد الله

بن علي التميمي الصوفي يحكى عن الحسين بن علي الدامغاني قال سئل أبو بكر الزاهد عن المعرفة؟ فقال: المعرفة اسم ومعناها وجود تعظيم في القلب يمنعك عن التعطيل والتشبيه.

وقال أبو الحسن البوشنجي رحمه الله: التوحيد أن يعلم أنه غير مُشبه للذوات ولا منفي الصفات.

وهذان قولان حسنان، ولا يتنازع في هذه الجملة أهل السنة والجماعة.

قال أبو القاسم القشيري: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول سمعت أبا نصر الطوسي السراج يحكي عن يوسف بن الحسين قال قام رجل بين يدي ذي النون فقال أخبرني عن التوحيد ما هو؟ فقال: أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصور في وهمك فالله بخلافه.

هذا الكلام غالبه في ذكر فعل الحق سبحانه وربوبيته، أخبر أنه رب كل شيء لا مدبر غيره ردا على القدرية ونحوهم ممن يجعل بعض الأشياء خارجة عن قدرة الله وتدبيره، وأخبر أن قدرته وصنعه ليس مثل قدرة العباد وصنعهم، فإن قدرة أبدانهم عن امتزاج الأخلاط وأفعالهم عن معالجة، والله تعالى ليس كذلك.

وأما قوله: علة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، فقد تقدم أن هذا يريد به أهل الحق معناه الصحيح، أن الله سبحانه لا يبعثه ويدعوه إلى الفعل شيء خارج عنه كما يكون مثل ذلك للمخلوقين، فليس له علة غيره، بل فعله علة كل شيء، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

و مقصود أبي القاسم يبين أن القوم لم يكونوا على رأي القدرية من المعتزلة ، وهذا حق ، فما نعلم في المشايخ المقبولين في الأمة من كان على رأي المعتزلة لا في قولهم في الصفات بقول جهم ، ولا في قولهم في الأفعال بقول القدرية ، بل هم أعظم الناس إثباتا للقدر و شهودا له وافتقارا إلى الله والتجاء إليه ، حتى أن من المنتسبين إلى الطريق من غلوا في هذا حتى يذهب إلى الإباحة والجبر ، ويعرض عن الشرع والأمر والنهي ، فهذه الآفة توجد كثيرا في المتصوفة والمتفقرة ، وأما التكذيب بالقدر فقليل فيهم جدا .

ثم ذكر عنهم في الإيمان كلمتين يدل بهما على أن الإيمان عندهم مجرد التصديق ، وليس هذا مذهب القوم ، بل الذي حكاه عن الجنيد ، فقال : وقال الجنيد : التوحيد علمك وإقرارك بأن الله فرد في أزليته لا ثاني معه ولا شيء يفعل فعله .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الإيمان تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيوب .

وهذا المذكور عن الجنيد وابن خفيف حسن وصواب ، لكن لم يدل على أن أعمال القلوب ليست من الإيمان .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : كتاب أبي القاسم هذا كتاب مشوه ، فيه حق كثير وباطل كثير ، فهو لا يصلح ، ولهذا نبّه المؤلف على كثير من ذلك مع تساهل المؤلف في كثير من كلماته .

فالحاصل أن كلام هؤلاء الصوفية ـ وإن كان فيه حق ـ لكن فيه إجمال وفيه احتمالات وفيه باطل كثير ، ولا أحسن ولا أطيب ولا أكمل من كلام الله وكلام رسوله ، فهو الكافي الشافي ، ما في القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة فيها

الغنى والشفاء والحق والهدى ، كلام واضح في صفات الله وأسمائه وبيان حقه ، لا يكون فيه إجمال ولا شبهة ولا ريب ، بخلاف كلام غيرهم من المتصوفة والقدرية والمعتزلة والجهمية ، ففي كلامهم من الباطل الكثير ما لا يحصى ، والمتصوفة عندهم من الإجمالات والإشارات التي تخفى على كثير من الناس .أهـ

ثم ذكر عنهم في مسألة الاستثناء في الإيمان شيئا حسنا فقال : وقال أبو العباس السياري : عطاؤه على نوعين : كرامة واستدراج ، فما أبقاه عليك فهو كرامة ، وما أزاله عنك فهو استدراج ، فقل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى .

قال : أبو العباس السياري كان شيخ وقته ، وقال : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : غمز رجل رجل أبي العباس السياري فقال : أتغمز رجلا ما نقلتها قط في معصية الله تعالى؟

قال : وقال أبو بكر الواسطي : من قال أنا مؤمن بالله حقا قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف واطلاع وإحاطة ، فمن فقده فقد بطل دعواه منها .

قال أبو القاسم : يريد بذلك ما قاله أهل السنة من أن المؤمن الحقيقي من كان محكوما له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سر حكمة الله تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيحة .

قلت : الاستثناء في الإيمان سنة عند عامة أهل السنة ، وقد ذكره طائفة من المرجئة وغيرهم ، وأوجبه كثير من أهل السنة ، ومن وجوهه وجهان حسنان :

أحدهما : أن الإيمان الذي أوجبه الله على العبد من الأمور الباطنة أو الظاهرة لا يتيقن أنه أتى بها على الوجه الذي أمر به كاملا ، بل قد يكون أخل ببعضه فيستثني لذلك .

والوجه الثاني : أن المؤمن المطلق من علم الله أنه يوافي بالإيمان ، فأما الإيمان الذي تتعقبه الردة فهو باطل ، كالصوم والصلاة الذي يبطل قبل فراغه ، فلا يعلم العبد أنه مؤمن حتى يقضي جميع إيمانه ، وذلك إنما يكون بالموت .

وهذا معنى ما يروى عن ابن مسعود أنه قيل له : إن فلانا يقول إنه مؤمن قال : فقولوا له أهو في الجنة؟ فقال : الله أعلم ، قال : فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية[1] .

وهذا الوجه تختاره طائفة من متكلمي أهل الحديث المائلين إلى الإرجاء ، كالأشعري وغيره ممن يقول بالاستثناء ولا يُدخل الأعمال في مسمى الإيمان ، فيجعل الاستثناء يعود إلا إلى النوايا فقط ، وهو الذي ذكره أبو القاسم وفسر به كلام أبي بكر الواسطي .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وأهل السنة ـ مثل ما قال الشيخ ـ أهل السنة على الاستثناء ، فيقولون إن شاء الله وليس قصدهم الشك ، وإنما هو لأجل مراعاة الأمرين المذكورين : أحدهما : أنه لا يدري هل كمّل أو ما كمّل ، لأن الواجبات والحقوق التي عليه كثيرة ، وهكذا ترك المحرمات ، وهو لا يدري هل وفّى أو ما وفى ، فيقول : أنا مؤمن إن شاء الله .

وكذلك من جهة ثانية : وهي أنه لا يدري هل يموت على الإيمان أو لا يموت على الإيمان؟ فالله هو الذي يعلم هذه الأحوال ، وإنما يكون له الجنة إذا مات على الإيمان ، فإنما يكون مؤمناً حقاً إذا مات على الإيمان ، فهم يستثنون لهذا ، لأنهم لا

---

(١) رواه أبو عبيدة القاسم بن سلام في كتاب الإيمان (٩) والآجري في الشريعة ١٣٣/ باب ذكر الاستثناء في الإيمان من غير شك فيه .

يدرون بماذا يوافون؟ ولا يدرون هل استكملوا أو ما استكملوا؟ ولهذا استثنوا من باب الورع والحيطة من غير شك .أهـ

وكلام الواسطي يحتمل الوجهين جميعا ، فإن الإشراف والاطلاع قد يكون على الحقيقة التي هي عند الله في هذا الوقت ، وقد يكون على ما يوافى به العبد ، وأما كلام أبي العباس فظاهر في أنه راعى الخاتمة .

فإن قيل : فإذا كان القدر السابق لا ينافي الأسباب فما وجه ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ﷺ : إني رجل شاب وأنا أخاف على نفسي العنت ولا أجد ما أتزوج به النساء فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فقال النبي ﷺ : «يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو دع»(١)

فهذا يقتضي أن اختصاءه الذي قصد أن يمتنع به من الفاحشة لا يدفع المقدور .

وكذلك في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أنهم سألوا النبي ﷺ عن العزل فقال النبي ﷺ : «لا عليكم أن تفعلوا فما من نسمة كتب الله أن تكون إلا وهي كائنة»(٢) .

فهذا يقتضي أن عزل الماء وهو سبب لعدم العلوق لا فائدة فيه لدفع ما كتبه الله من الأولاد .

وفي الصحيحين عن ابن عباس وهو في مسلم عن عمران بن حصين وهذا

---

(١) رواه البخاري (٥٠٧٦) كتاب النكاح/ باب ما يكره من التبتل والخصاء .

(٢) رواه البخاري (٢٥٤٢) كتاب العتق/ باب من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

لفظه أن النبي ﷺ قال : « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب» قال : ومن هم يا رسول الله؟ قال : «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقال عكاشة : ادع الله يجعلني منهم قال : «أنت منهم» فقام رجل فقال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : «سبقك بها عكاشة»[(1)].

فقد جعل التوكل ها هنا موجبا لترك الاكتواء والاسترقاء وهما من الأسباب .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ : اللهم أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية قال فقال النبي ﷺ : «قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل الله شيئا قبل أجله ولن يؤخر شيئا عن أجله ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيرا وأفضل»[(2)].

قال : وذكرت عنده القردة والخنازير هي من مسخ؟ فقال : «إن الله لم يجعل لمسخ نسلا ولا عقبا»[(3)] وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك .

(١) رواه البخاري (٦٥٤١) كتاب الرقاق / باب يدخل الجنة سبعون ألفا ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ومسلم (٢١٨) كتاب الإيمان / باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٣) كتاب القدر/ باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر ، وأحمد في المسند (١/ ٣٩٠-٤١٣-٤٣٣-٤٤٥-٤٤٦) وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٦٢-٢٦٣) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها .

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٣) كتاب القدر/ باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر .

وفي رواية قال رجل : يا رسول الله القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ : «إن الله لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا» فهذا الحديث أخبر فيه أن الدعاء - وهو من الأسباب - لا يفيد في إطالة الأعمار ، ويفيد في النجاة من عذاب الآخرة؟

قيل : ليس كل ما يظنه الإنسان سببا يكون سببا ، وليس كل سبب مباحا في الشريعة ، بل قد تكون مضرته أعظم من منفعته فينهى عنه ، وليس كل سبب مقدورا للعبد ، فالعبد يؤمر بالسبب الذي أحبه الله ويؤذن له فيما أذن الله فيه ، مع أمره بالتوكل على الله تعالى ، فأما ما لا قدرة له فيه فليس فيه إلا التوكل على الله والدعاء له ، وذلك من أعظم الأسباب التي يؤمر بها العبد أيضا .

وما كان من الأسباب محرما لرجحان فساده على صلاحه أو غير نافع لا يفيد ، بل يظن أنه نافع فإنه لا يؤمر به أيضا ، فلا يؤمر بما لا فائدة فيه ، وما كان فساده راجحا نهي عنه .

وجماع الأمر أن الأسباب إما أن تكون مقدورة أو غير مقدورة ، فغير المقدور ليس فيه إلا الدعاء والتوكل ، والمقدور إما أن يكون فساده راجحا أو لا يكون ، فإن كان فساده راجحا نهي عنه ، وإن لم يكن فساده راجحا فينهى عنه ، كما ينهى عن إضاعة المال والعبث ، وأما السبب المقدور النافع منفعة راجحة فهو الذي ينفع ويؤمر به ويندب إليه .

وأيضا فينبغي أن التوكل على الله من أعظم الأسباب ، فربما كان بعض الأسباب يضعف التوكل ، فإذا ترك ذلك كمل توكله ، فهذا التقسيم حاصر ، والقدر يأتي على جميع الكائنات ، وبهذا يتبين فقه الأحاديث .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : فالحاصل أن الأسباب أقسام - مثل ما قال

المؤلف ـ أسباب محرمة فلا يجوز تعاطيها، كالتداوي بالمحرمات، والدعاء بالإثم وقطيعة الرحم وأشباه ذلك.

وهناك أسباب جائزة لكنها مكروهة مثل الكي، فهذا تركه أولى إلا عند الحاجة، إلا عند عدم وجود أسباب أخرى، آخر الطب الكي، ولهذا قال: «ما أحب أن أكتوي» مع أنه قال عليه الصلاة والسلام: «الشفاء في ثلاث: كية نار أو شرطة محجم أو شربة عسل وما أحب أن أكتوي»[١] رواه البخاري في الصحيح «وأنا أنهى أمتي عن الكي»[٢] فهو آخر الطب.

وهناك أسباب مشروعة كالطاعات، طاعات الله والاستقامة على أمره، فهي من أسباب دخول الجنة، وترك المعاصي التي هي من أسباب دخول النار، هذه مشروعة بل واجبة.

وهنا أسباب مباحة مثل التداوي المباح، وعند الجمهور أنه مستحب أيضاً، فالتداوي بالمباح والأكل والشرب ونحو ذلك مما يكون فيه مصلحة العبد، وقد يجب إذا كان يخشى بتركه الموت.

فالأسباب متعددة، فيستخدم منها ما كان مباحاً أو مشروعاً، أما ما كان مكروهاً فتركه أولى كالكي إلا عند الحاجة، عند عدم وجود دواء آخر، والاسترقاء، وسؤال الناس حاجة من عندهم، وسؤالهم المساعدات، مهما أمكن الاستغناء عنهم فلا يسأل.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٣) كتاب الطب/ باب الدواء بالعسل، ومسلم (٢٢٠٥) كتاب السلام / باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٠) كتاب الطب/ باب الشفاء في ثلاث من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهناك أسباب مشروعة مأمور بها إما أمر وجوب كالطاعات الواجبة، وإما أمر استحباب كالنوافل ونحوها.

سؤال / على هذا يكون الدعاء بـ: أمد الله في عمرك أو أطال عمرك لا ينبغي؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: إذا قال: على خير، ففي الحديث: «لا يرد القدر إلا الدعاء»(١) إذا قال على خير، أفسح الله في أجلك على خير، أو أمد الله في عمرك على خير، أو على هدى، أو على صلاح، أو في الإسلام، وما أشبه ذلك، لأنه قد يمد الله في عمره على شر، نسأل الله العافية. أهـ.

سؤال / ترك التداوي هل يقال إنه أفضل من التداوي؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: للعلماء فيه أربعة أقوال: أحسنها وأصحها أنه مشروع، بالأسباب المباحة، فالأسباب المباحة مشروع.

قال قوم: تركه أولى.

وقال قوم: هو مستوي الطرفين.

وقال بعضهم: مكروه.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٣٠٧٦) والحاكم (١٧٦٨) كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، من حديث ثوبان رضي الله عنه، ورواه الترمذي بنحوه من حديث سلمان، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

قال الشيخ الألباني: الحديث «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» حسن، دون قوله: «وإن الرجل ليحرم ...» وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وفيه راو مجهول، لكن له شاهد دون الزيادة المذكورة، فالحديث حسن بدونها، وقد تكلمت على الحديث في «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٥٤). أهـ.

والصواب أنه مستحب ، لأن الرسول ﷺ تداوى وداوى أصحابه عليه الصلاة والسلام ، ورقى ورقي ، وقال عليه الصلاة والسلام : « عباد الله تداووا »(١)

سؤال / الذي دعت به أم حبيبة من أي الأقسام؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : كأنه من الأقسام المفضولة ، لأنه قال : « كان خيراً لك وأفضل » .أهـ

سؤال / الدعاء بطول العمر لابد أن يكون مقيداً؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : الأفضل والذي يظهر لي أنه لابد من تقييده .أهـ

سؤال / الرسول ﷺ دعا لأنس بن مالك بطول العمر وما قيده!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : « وبارك له فيه »(٢) دعا له بالبركة .أهـ

سؤال / معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام : « ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم »(٣)

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : الإثم يدعو بمعصية ، اللهم العنه ، اللهم أخزه . وقطيعة الرحم : اللهم افعل بفلان ، اللهم اقتله ، اللهم شدد عليه ، على أخيه أو أبيه أو عمه ، فتصير قطيعة رحم بينهم .أهـ

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٧٤) كتاب الطب/ باب في الأدوية المكروهة ، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٤) كتاب الدعوات/ باب دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة المال ، ومسلم (٦٦٠) كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب جواز الجماعة في النافلة والصلاة على الحصير وغيرها ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه أحمد في المسند ٣/ ١٨ ، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠) والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وصححه الألباني ، انظر صحيح الأدب المفرد ١/ ٢٤٨ ، والمنذري في الترغيب والترهيب وقال : رواه البزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة والحاكم وقال صحيح الإسناد .

أما حديث الاختصاء فإن الاختصاء محرم لرجحان مفسدته ، وقد ثبت في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال زجر رسول الله ﷺ عثمان ابن مظعون عن التبتل ولو أذن لاختصينا(١) .

وبيّن النبي ﷺ أنه مع ركوب الاختصاء المحرم لا يسلم من الزنا ، بل لا بد أن يفعل ما كتب عليه منه كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر واللسان يزني وزناه النطق والأذنان تزنيان وزناهما الاستماع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها الخطا والنفس تتمنى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(٢) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : التأثيم بالزنا نفسه ، الزنا الذي هو الجماع ، وزنا العين واليد لها آثامها .اهـ.

وأما حديث العزل ، فالعزل لا يمنع انعقاد الولد ، ولا تركه يوجب الولادة ، ولهذا لو عزل عن سريّته وأتت بولد ألحق به ، فإن الماء سباق ، مع ما فيه من ترك لذة الجماع ، فأخبر النبي ﷺ بأن الولد المكتوب يكون عزلت أو لم تعزل ، كما قال ليس من كل الماء يكون الولد ، فلا يكون ترك العزل سببا للولادة ، ولا العزل سببا لمنعها ، والقدر ماض بالأمرين فلا فائدة فيه .

---

(١) رواه البخاري (٥٠٧٣) كتاب النكاح/ باب ما يكره من التبتل والخصاء ، ومسلم (١٤٠٢) كتاب النكاح/ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة ، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣) كتاب الاستئذان/ باب زنا الجوارح دون الفرج ، ومسلم (٢٦٥٧) كتاب القدر / باب قُدّر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ومثل هذا ما ثبت في الصحيح أنه نهى عن النذر وقال : «**إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل**»[(١)] فأخبر أن النذر ليس من الأسباب التي تجتلب بها المنفعة وتدفع بها المضرة ، ولكن نلقيه إلى ما قدر له ، فنهى عنه لعدم فائدته .

وأما حديث السبعين ألفاً ، فلم يصفهم بترك سائر التطبب ، وإنما وصفهم بترك الاكتواء والاسترقاء ، والاكتواء مكروه ، وقد نهى عنه ﷺ في غير هذا الحديث ، لما قال : «**وأنا أنهى أمتي عن الكي**»[(٢)] . والمسترقي لم يفعل شيئاً إلا اعتماده على الراقي ، فتوكله على الله سبحانه وحده لا شريك له أنفع له من ذلك .

وهذا الجواب الأخر : وهو أن المسترقي يضعف توكله على الله ، فإنه إنما طلب دعاء الغير ورقيته ، فاعتماد قلبه على الله وحده وتوكله عليه أكمل لإيمانه وأنفع له .

وأما حديث أم حبيبة ففيه أن الدعاء يكون مشروعاً نافعاً في بعض الأشياء دون بعض ، وكذلك هو ، ولهذا لا يحب الله المعتدين في الدعاء ، فالأعمار المقدرة لم يشرع الدعاء بتغييرها ، بخلاف النجاة من عذاب الأخرة ، فإن الدعاء مشروع له نافع فيه ، وقد كتبت مسألة زيادة العمر بصلة الرحم في غير هذا الموضع ، ولا يلزم من تأثير صلة الرحم ونحو ذلك أن يزيد العمر ، كما قد يقال

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠٨-٦٦٠٩) كتاب القدر/ باب إلقاء العبد النذر إلى القدر ، ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر/ باب في قضاء النذر وكفارته وأنه لا نذر في معصية الله تعالى ، من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم .

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٠) كتاب الطب/ باب الشفاء في ثلاث من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

بزيادة العمر بتأثير الدعاء، ولذلك كان يكره أحمد أن يدعى له بطول العمر ويقول: هذا فرغ منه.

ثم ذكر ما جاء في الرؤية، قال أبو القاسم: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي رحمه الله يقول سمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت أبا الحسن العنبري يقول سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول: ينظر إليه تعالى المؤمنون بأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وهذا الكلام من أحسن الكلام، وكلام سهل بن عبد الله في السنة وأصول الاعتقادات أسد وأصوب من كلام غيره، وذلك الفضيل بن عياض ونحوه، فإن الذين كانوا من المشايخ أعلم بالحديث والسنة واتبع لذلك هم أعظم علما وإيمانا وأجل قدرا في ذلك من غيرهم.

وقول سهل: ولا إدراك نهاية يتضمن شيئين: أحدهما: نفي الإدراك الذي نفاه الله عنه يجمع بين ما أثبته الكتاب والسنة وما نفاه.

والثاني: أنه نفى إدراك النهاية ولم ينف نفس النهاية، وهذا في الظاهر يخالف قول أبي القاسم: لا حد لذاته.

ثم قال أبو القاسم: قال أبو الحسين النوري: شاهد الحق القلوب، فلم ير قلبا أشوق إليه من قلب محمد ﷺ فأكرمه بالمعراج تعجيلا للرؤية والمكالمة.

وقصده بهذه الحكاية إثبات رؤية محمد ﷺ ربه ليلة المعراج، وهذا هو قول أكثر أهل السنة أنه رأى ربه بفؤاده.

ثم ذكر ما جاء في العلو فقال: سمعت الإمام أبا بكر محمد بن الحسن بن فورك يقول سمعت محمد بن المحبوب خادم أبي عثمان المغربي يقول قال لي

أبوعثمان المغربي يوما يا محمد لو قيل لك أين معبودك إيش تقول؟ قلت : أقول حيث لم يزل . قال : فإن قال فأين كان في الأزل إيش تقول؟ قلت : أقول حيث هو الآن . قال : يعني أنه كان ولا مكان ، فهو الآن على ما عليه كان ، فارتضى مني ذلك ونزع قميصه وأعطانيه .

وقال أبو القاسم : سمعت أبا بكر بن فورك يقول سمعت أبا عثمان المغربي يقول : كنت أعتقد شيئا من حديث الجهة ، فلما قدمت بغداد زال ذلك عن قلبي ، فكتبت إلى أصحابنا بمكة أني أسلمت الآن إسلاما جديدا .

قلت : هذا الكلام الذي ذكره عن أبي عثمان كلام مجمل ، ليس فيه دليل على أنه كان يقول ليس فوق السماوات رب ولا هناك إله ، كما يقول من يقول إن الله ليس فوق العرش ، وقد يعبر عن ذلك بعضهم بأنه ليس في الجهة ، بل إقراره لخادمه على جواب السائل له أين معبودك؟ يخالف ما ذكره أبو القاسم الذي قال في خطبة كتابه : تعالى عن أن يقال كيف هو أو أين هو ، فلو أراد ما ذكره أبو القاسم لقال لا يقال أين هو ، بل قال حيث لم يزل ، وهذا لا يوافق قول من يقول ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا هو فوق العرش ولا في جهة ، لأن قوله : حيث لم يزل ، إخبار بأنه حيث لم يزل ، وحيث ظرف من ظروف المكان لا يطلق إلا على الجهة والحيز ، وعند النفاة لا يقال حيث لم يزل ولا كان في الأزل بحيث .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه الأشياء من أخطاء الصوفية وبعض العبّاد لأجل قلة العلم ، فلهذا أخطئوا في هذا ولم يتنبهوا للحق والصواب في إثبات العلو لله سبحانه وتعالى ، ووفق الله أهل السنة والجماعة فعرفوا الحق بأدلة الكتاب والسنة ، وأن الله سبحانه فوق العرش فوق جميع الخلق في جهة العلو

فوق جميع الخلق ، وأنه سبحانه استوى على عرشه ، وهذا أمر واضح من أعظم الواضحات ومن أبين الأشياء ، ولكن من حاد عن الكتاب والسنة ، وأخذ العلوم عن أهل الكلام وأصحاب الكلام والقيل والقال ؛ تلتبس عليه الأمور ويضيع عليه الحق ، نسأل الله السلامة ، وحتى يقبل ما لا ينبغي أن يقال ، وأهل الحق من أهل السنة والجماعة - الذين بنوا عقيدتهم على الكتاب والسنة - وفقوا للحق بغير تكلف ولا تعب ، مع أنهم على الأمر الواضح الذي لا ريب فيه ولا شك فيه ، وهو أنه فوق العرش فوق جميع الخلق سبحانه على الوجه اللائق به جل جلاله .أهـ

سؤال / قوله : رآه بفؤاده؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : يعني علمه بفؤاده ، من باب الرؤية التي هي العلم ، علم القلب .أهـ

سؤال / تشبيه العزل بالنذر؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : مثل ما قال النبي ﷺ : « ما من نفس كتب الله أن تكون إلا هي كائنة »(١) لأن العزل لا يمنع وجود الولد ، العزل له تسبب لكنه لا يمنع .أهـ

سؤال / تعاطي الحبوب ، حبوب منع الحمل؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا فيه تفصيل ، إذا دعت الحاجة إليه لا بأس ، إما مرضها أو مرض رحمها أو خطر عليها أو توالي الأولاد عليها حتى لا تستطيع التربية فتأخذ بعض الحبوب ، إذا كان ما فيها مرض وقرر الأطباء أنه ليس فيها مرض ووافق الزوج .

---

(١) رواه البخاري (٢٥٤٢) كتاب العتق/ باب من ملك من العرب رقيقاً فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

ومهما كانت الأسباب فلا تمنع ، حتى الحبوب لا تمنع ، إذا أراد الله شيئاً تم .أهـ

سؤال / رقية الإنسان لنفسه هل هي مستحبة؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : المكروه الطلب ، أما الرقية فهي مستحبة « من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه »(١) يعني بدون طلب ، يرقي نفسه أو يرقي غيره من دون طلب .

وهكذا الطلب عند الحاجة ، إذا دعت الحاجة ، فقد طلب النبي ﷺ من أسماء أن تسترقي لأولاد جعفر(٢) ، والنبي ﷺ قد رقى نفسه ورقى غيره .أهـ

سؤال / بيع الرقى ، الرقى المكتوبة تباع وتسمى العزائم؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا أعرف لهذا أصلاً ، لا ينبغي هذا ، بيعها لا ينبغي ، أما كون الإنسان يرقي أخاه أو يكتب له شيئاً فلا بأس ، أما بيعها فليس له أصل ، وقد يكون الكاتب لا يشربها بالزيت ، فلا خير فيه ، فلا يصلح هذا ولا ينبغي .

سؤال / أحدهم يأخذ العوض عن الرقية؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : نفس الكتابة ، بيع ما يكتب ، يكتبون أوراقاً ويبيعونها على الناس ، أما كونه يرقي على مريض بأجرة فلا بأس .أهـ

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٤٧٥٦) ومسلم (٢١٩٩) كتاب السلام/ باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأسماء بنت عميس : «مالي أرى أجسام بني أخي ضارعة تصيبهم الحاجة» قالت : لا ، ولكن العين تسرع إليهم ، قال : «ارقيهم» قالت : فعرضت عليه فقال : «ارقيهم» رواه مسلم (٢١٩٨) كتاب السلام/ باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

سؤال / بعض الناس يعمل احتفالاً ليلة ٢٧ من رجب وما يسمونه فضل المعراج؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا غلط وبدعة وقد كتبنا في هذا .أهـ

سؤال / ما يسمونه بمولد النبي ﷺ ويعملون حفلات؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : كل هذا ، الاحتفال بالمولد وليلة الإسراء والمعراج كلها بدعة .أهـ

وكذلك قوله : فإن قال فأين كان في الأزل فقال أقول حيث الآن ، لا يستقيم عند من ينفي الجهة ، فإنه لا يقال أين كان في الأزل ولا يقال حيث الآن ، بل هذا السؤال والجواب ممتنع عندهم وإن كانوا في ذلك مخالفين للنصوص وإجماع السلف وأئمة الدين فإن النبي ﷺ سأل بأين فقال : «أين الله؟» فقال له المسئول : في السماء[1] ، فحكم بإيمان من قال ذلك ، وكذلك سئل فقيل له : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ فأجاب عن ذلك[2] ، ولكن جواب أبي عثمان يوافق قول أهل الإثبات ، وهم أهل الفطرة العقلية السليمة من الأولين

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد / باب تحريم الكلام في الصلاة ، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه .

(٢) بقوله : «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء» رواه أحمد في المسند (١٦٦١٧) ورواه الترمذي (٣١٠٩) كتاب التفسير/ باب : من سورة هود ، وقال : هذا حديث حسن ، وابن ماجه (١٨٢) المقدمة/ باب فيما أنكرت الجهمية ، وابن حبان (٦١٤١) كما في الإحسان ذكر الأخبار عما كان الله فيه قبل خلقه السماوات والأرض ، من حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه ، وعبد الله بن أحمد في كتاب السنة ١/ ٢٤٥ رقم (٤٥٠) ، وأخرجه أحمد في المسند ٤/ ١١ وابن ماجه في المقدمة ١/ ٦٤ ح (١٨٢) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ، ثنا يزيد .

والآخرين ، الذين يقولون إنه فوق العالم ، إذ العلم بذلك فطري عقلي ضروري لا يتوقف على سمع .

أما العلم بأنه استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام فهذا سمعي ، إنما علم من جهة أخبار الأنبياء ، ولهذا شرع الله تعالى لأهل الملل الاجتماع كل أسبوع يوما واحدا ليكون الأسبوع الدائر دليلا على الأسبوع الذي خلق الله فيه السماوات والأرض ثم استوى على العرش ، ولهذا لا يعرف الأسبوع إلا من جهة أهل الكتب الإلهية ، بخلاف اليوم فإنه معلوم بالحس ، وكذلك الشهر والسنة يعلم بالحس وسير القمر فيعلم بالحس والحساب ، وأما الأسبوع فليس له سبب حسي ، وكذلك لا يوجد لأيام الأسبوع ذكر عند الأمم الذين لا كتاب لهم ولا أخذوا عن أهل الكتب ، كالترك الباقين في بواديهم في لغتهم اسم اليوم والشهر و السنة دون أيام الأسبوع ، بخلاف الفرس ونحوهم ممن أخذ عن المرسلين ، فإن في لغتهم أيام الأسبوع .

و أهل الإثبات متنازعون

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الصواب أنها بناء ، متنازعون فيما بينهم .أهـ

في أن الاستواء هل هو مجرد نسبة وإضافة بين الله وبين العرش من غير أن يكون الباري تصرف بنفسه بصعود أو علو ونحو ذلك ، أو هو يتصرف بنفسه وأنه استوى على العرش بعد أن لم يكن مستويا؟

وكذلك استواؤه إلى السماء ونزوله و نحو ذلك عن قولين مشهورين :

والأول : قول كثير ممن يميل إلى الكلام ، وقول طائفة من الفقهاء والصوفية .

والثاني : قول أهل الحديث وقول كثير من أهل الكلام والفقهاء والصوفية .

فكلام أبي عثمان ظاهره يوافق القول الأول ، وأما الذي كان يعتقده في الجهة ثم رجع عنه فهو أمر مجمل لم يذكره ، فلعله كان يعتقد من التجسيم والتمثيل ما يقوله أهل الضلال من الرافضة والمجسمة فرجع عن ذلك ، فإن هذا ممكن ، ولعله كان يعتقد أن الباري تعالى محصور في السموات تظله وتقره ، وأنه مفتقر إلى عرش يحمله فرجع عن ذلك .

وأعظم ما يقال إنه كان يعتقد أن الاستواء من الصفات الفعلية المتجددة أنه يفعله بنفسه ، ثم رجع عن ذلك إلى أنه على ما كان عليه ، مع كونه مستويا على العرش ، لكنه خلق العرش بعد أن لم يكن مخلوقا ، فيلزم أن يكون موصوفا بأنه فوق العرش ، وهذا يقوله كثير من المثبتة ، وإن كان هذا ليس موضع الكلام فيه .

فأما أن يقال إن أبا عثمان رجع عن اعتقاد علو الله على خلقه ، وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته عال عليهم ، فليس في كلامه ما يفهم منه ذلك بحال ، ثم لو فرض أن أبا عثمان قال قولا فيه غلط ، لم يصلح أن يجعل ذلك أصلا لاعتقاد القوم ، فإن كلام أئمة المشايخ المصرح بأن الله فوق العرش كثير منتشر ، فإذا وجد عن بعضهم ما يخالف ذلك كان ذلك خلافا لهم .

والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطئ كما يوجد في غيرهم ، وليسوا في ذلك بأجل من الصحابة والتابعين ، وليس أحد معصوما في كل ما يقوله إلا رسول الله ﷺ .

نعم وقوع الغلط في مثل هذا يوجب ما نقوله دائما أن المجتهد في مثل هذا من المؤمنين إن استفرغ وسعه في طلب الحق فإن الله يغفر له خطأه ، وإن حصل منه نوع تقصير فهو ذنب لا يجب أن يبلغ الكفر ، وإن كان يطلق القول بأن هذا الكلام كفر ، كما أطلق السلف الكفر على من قال ببعض مقالات الجهمية ، مثل

القول بخلق القرآن أو إنكار الرؤية، أو نحو ذلك مما هو دون إنكار علو الله على الخلق وأنه فوق العرش، فإن تكفير صاحب هذه المقالة كان عندهم من أظهر الأمور، فإن التكفير المطلق مثل الوعيد المطلق لا يستلزم تكفير الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ **«في الرجل الذي قال: إذا أنا مت فاحرقوني ثم استحقوني ثم ذروني في اليم فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين فقال الله له ما حملك على ما فعلت؟ قال خشيتك فغفر له»** .[(١)]

فهذا الرجل اعتقد أن الله لا يقدر على جمعه إذا فعل ذلك، أو شك وأنه لا يبعثه، وكل من هذين الاعتقادين كفر يكفر من قامت عليه الحجة، لكنه كان يجهل ذلك ولم يبلغه العلم بما يرده عن جهله وكان عنده إيمان بالله وبأمره ونهيه ووعده ووعيده، فخاف من عقابه فغفر الله له بخشيته.

فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد من أهل الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح لم يكن أسوأ حالا من هذا الرجل، فيغفر الله خطأه، أو يعذبه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدر دينه، وأما تكفير شخص علم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم.

فقد ثبت في الصحيح عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال: **«لعن المؤمن كقتله ومن رمى مؤمنا بالكفر فهو كقتله»**[(٢)] .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٨) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم (٢٧٥٦) كتاب الرقاق/ باب سعة رحمة الله على المؤمنين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٧) كتاب الأدب/ باب ما ينهى من السباب واللعن، وأحمد في المسند (١٦٨٢٩) من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

وثبت في الصحيح أن من قال لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما[١] ، وإذا كان تكفير المعين على سبيل الشتم كقتله ؛ فكيف يكون تكفيره على سبيل الاعتقاد؟ فإن ذلك أعظم من قتله إذ كل كافر يباح قتله ، وليس كل من أبيح قتله يكون كافرا ، فقد يقتل الداعي إلى بدعة لإضلاله الناس وإفساده ، مع إمكان أن الله يغفر له في الآخرة لما معه من الإيمان ، فإنه قد تواترت النصوص بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان[٢]

وقد رواه مسلم في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : «بينا جبريل قاعدا عند النبي ﷺ إذ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»[٣].

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ (البقرة : ٢٨٤) دخل في قلوبهم منها شي لم يدخل قلوبهم من شي فقال النبي ﷺ : «قولوا

(١) رواه البخاري (٦١٠٣) و (٦١٠٤) كتاب الأدب/ باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال ، من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم . ومسلم (٦٠) كتاب الإيمان/ باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري ٢٢) كتاب الإيمان/ باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) الحديث (٨٠٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة .

سمعنا، وأطعنا» قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) قال: «قد فعلت».(١)

وكلام المشايخ في مسألة العلو كثير مثل ما ذكر محمد بن طاهر المقدسي الحافظ الصوفي المشهور الذي صنف للصوفية كتاب صفة التصوف ومسألة السماع وغير ذلك، ذكر عن الشيخ الجليل أبي جعفر الهمداني أنه حضر مجلس أبي المعالي الجويني وهو يقول: كان الله ولا عرش وهو على ما عليه كان أو كلاما من هذا المعنى فقال: يا شيخ دعنا من ذكر العرش أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا فإنه ما قال عارف قط يا ألله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو ولا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه وقال: حيرني الهمداني حيرني الهمداني(٢).

وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني شيخ الصوفية في أواخر المائة الرابعة قبل القشيري في رسالة له: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين، قال فيها: وإن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول، وأنه عز

---

(١) مسلم (١٢٦) كتاب الإيمان/ باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الذهبي كما في «مختصر العلو» قال الألباني: إسناد هذه القصة صحيح مسلسل بالحفاظ ٢٧٦ - ٢٧٧ / ٣٣٧.

وجل مستو على عرشه بائن من خلقه، والخلق بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة، لأنه الفرد البائن من الخلق، الواحد الغني عن الخلق، وأن الله سميع بصير عليم خبير، يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء فيقول: هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر.

وتنزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: كلام معمر هذا كلام طيب، كلام موافق لكلام السلف، سلف الأمة، وهذا هو الحق، أنه يجب إثبات استواء الله على العرش استواءً يليق بجلال الله، لا يشابه الخلق في شيء من صفاتهم، وهو استواء بلا كيف، لا يعلم كيفيته إلا هو سبحانه وتعالى.

وهكذا رضاه وغضبه ونزوله وغير ذلك، كله يجب إثباته لله على الوجه اللائق بالله سبحانه بلا كيف. أهـ

ثم ذكر كلامهم في القدر، قال أبو القاسم سمعت محمد ابن الحسين السلمي يقول سمعت أبا عثمان المغربي يقول وقد سئل عن الخلق؟ فقال: قوالب وأشباح، تجري عليهم أحكام القدرة.

قال: وقال الواسطي: لما كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله وظهرتا به لا بذواتها، كذلك قامت الخطرات والحركات بالله لا بذواتها، إذ الخطرات والحركات فروع الأجساد والأرواح.

قال أبو القاسم : صرح بهذا الكلام أن أكساب العباد مخلوقة لله ، وكما أنه لا خالق للجواهر إلا الله ، فكذلك لا خالق للأعراض إلا الله .

وهذا الذي قاله صحيح ، وهو متفق عليه بين المشايخ ، لا يعرف منهم من أنكر شيئا من أصول السنة في مسائل القدر .

وقال : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السامي يقول سمعت محمد بن عبدالله سمعت أبا جعفر الصيدلاني سمعت أبا سعيد الخراز يقول : من ظن أنه ببذل الجهد يصل فمتعن ، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتمن .

وهذا كلام حسن ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل ما قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان».(١)

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ولكن قل : قدر الله « ما » زائدة ، غلط ، « ولكن قل : قدرُ الله وما شاء فعل » يعني هذا قدر الله ، ويحتمل « قدّر الله » يعني قدّر الله هذا ، ويكون المفعول محذوفاً ، المقصود أن « ما » لا محل لها ، وقد روي في الصحيح بدون « ما » .أهـ

وقال : «لن يدخل أحدا عمله الجنة» قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته»(٢)

قال سماحة الشيخ : والمعنى أن يبذل الجهد يصل بتوفيق الله ورحمته ، لا بمجرد بذله لجهده ، إنما بذل الجهد من أسباب التوفيق والهداية ، عليه بذل الجهد

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر/ باب الإيمان بالقدر والإذعان له ، من حديث أبي هريرة ﷺ .
(٢) رواه مسلم (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

وعليه العناية وعليه الحرص، وأما كونه يصل ويوفق فهذا إلى الله جل وعلا، ولكن من أسباب ذلك أنه يبذل المستطاع، ومن سنة الله ومن رحمته وفضله أنه يوفق من اجتهد وطلب الحق، ولكن مثل ما قال في الحديث الصحيح «لن يدخل الجنة أحد منكم بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

فدخول الجنة والنجاة من النار وقبول الأعمال فضل من الله سبحانه، لكن من أعرض وغفل فقد هلك، يقول الله جل وعلا: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل) هذه باء السبب، يعني بأسباب الأعمال، ولكن التوفيق بيد الله، هو الذي يرحم، وهو الذي يوفق، وهو الذي يهدي، وهو الذي يقبل، وهو الذي يتفضل بإدخال الجنة والنجاة من النار. اهـ.

ثم قال: وقال الواسطي: المقامات أقسام: قسمت ونعوت أجريت كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات؟

وهذا الكلام الظاهر ليس بجيد بل هو مردود، وهذه المسألة بعينها سئل عنها النبي ﷺ كما ثبت عنه في الأحاديث الصحاح من حديث عمران بن حصين وعلي بن أبي طالب وغيرهما لما أخبر بالقدر فقالوا: ألا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: «لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له»(٢).

وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢١٣٦) كتاب القدر/ باب ما جاء في الشقاء، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال : «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة» فقالوا يا رسول الله : أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل السعاده وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير لعمل الشقاء ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾»[1] (الليل) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني من أخذ بالأسباب الطيبة يسر لليسرى ووفق ، ومن أخذ بالأسباب الأخرى يسر للشقاء ، نعوذ بالله ، نسأل الله العافية ، فالحاصل من هذا أن القدر سابق ، والعبد مأمور ومنهي ، وقد أعطاه الله العقل والإرادة والمشيئة ، فمن استعمل ما أعطاه الله في ما يرضي الله واجتهد وطلب ربه التوفيق يسر لليسرى ووفق وحمد العاقبة ، ومن أعرض وغفل وتابع الهوى والشيطان يسر للعسرى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .أهـ

و في الصحيح عن عمران بن حصين قال : قال رجل : يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال : «نعم» قال : فلم يعمل العاملون؟ قال : «كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له» و في رواية : «كل ميسر لما خلق له» .[2]

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٥ـ٤٩٤٦ـ٤٩٤٧) كتاب التفسير/ باب : ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ و(٦٢١٧) كتاب الأدب/ باب : الرجل ينكت الشيء بيده في الأرض ، و(٦٦٠٥) كتاب القدر / باب : ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ و(٧٥٥٢) كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى : ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ .
ومسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر/ باب : كيفية خلق الأدمي في بطن أمه ، وأبو داود (٢٦٤٧) كتاب السنة / باب في القدر ، من حديث علي ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٦) كتاب القدر/ باب جف القلم على علم الله .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الأسود الدئلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم. قال: فقال أفلا يكون ظلما؟ قال: ففزعت من ذلك فزعا شديدا وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون منه مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ قال: «لا بل شي قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ ﴾»[1] (الشمس).

وفي السنن حديث عمر أنه سئل عن تفسير الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، قال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: ففيم العمل يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال النار فيدخل به النار وإذا خلق العبد

(١) الحديث (٢٦٥٠) رواه مسلم في كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.

للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة فيدخله به الجنة»[(١)] .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال : «لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قال : ففيم العمل؟ فقال : «اعملوا فكل ميسر» وفي لفظ : «كل عامل ميسر لعمله»[(٢)] .

وفي السنن عن ابن أبي خزامة عن أبيه قال : قلت يا رسول الله : أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال : «هي من قدر الله»[(٣)] .

فهذه السنن وغيرها تبين أن الله سبحانه وإن كان قد تقدم علمه وكتابه وكلامه بما سيكون من السعادة والشقاوة ، فمما قدره أن يكون ذلك بالأسباب التي قدرها ، فالسعادة بالأعمال الصالحة والشقاوة بالفجور ، وكذلك الشفاء

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : هو في المسند برقم : ٣١١ ونقله ابن كثير ٣/ ٥٨٦ـ٥٨٧ وفي التاريخ ١/ ٨٩ـ٩٠ وقد صححناه هنا من المسند ، والزيادتان هنا أثبتناهما من المسند .أهـ «شرح الطحاوية»

وقال الشيخ الألباني رحمه الله : صحيح لغيره ، إلا مسح الظهر ، فلم أجد له شاهدا «الضعيفة» (٣٠٧٠) .أهـ

(٢) رواه مسلم (٢٦٤٨) كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، ورواه أحمد أيضا (٣/ ٢٩٢ـ٢٩٣) .

(٣) رواه الترمذي (٢٠٦٥) كتاب الطب / باب ما جاء في الرقى والأدوية ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه / كتاب الطب / باب ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء ، عن أبي خزامة عن أبيه .

الذي يقدره للمريض يقدره بالأدوية والرقى، وكذلك سائر ما يقدر من أمر الدنيا والآخرة.

فقول القائل: كيف تستجلب الأقسام بالحركات؟

جوابه: أن الأقسام تناولت الحركات كما تناولت السعادات، والله تعالى قدّر أن يكون هذا بهذا، فإذا ترك العبد العمل ظانا أن السعادة تحصل له كان هذا الترك سببا لكونه من أهل الشقاوة.

وهنا ضل فريقان: فريق كذّبوا بالقضاء والقدر وصدقوا بالأمر والنهي، وفريق آمنوا بالقضاء والقدر، لكن قصّروا في الأمر والنهي، وهؤلاء شر من الأولين، فإن هؤلاء من جنس المشركين الذين قالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ (الأنعام: ١٤٨) وأولئك من جنس المجوس.

لكن إذا عني بهذا الكلام أن العبد لا يتكل على عمله ولا يظن أنه ينجو بسعيه فهذا معنى صحيح، فالأسباب التي من العباد بل ومن غيرهم ليست موجبات لا لأمر الدنيا ولا لأمر الآخرة، بل قد يكون لابد منها ومن أمور أخرى من فضل الله ورحمته خارجة عن قدرة العبد، وما ثم موجب إلا مشيئة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وكل ذلك قد بينه النبي ﷺ وهو معروف عند من نوّر الله بصيرته.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمعنى في هذا أن الأسباب غير موجبة، وإنما هي فضل من الله، فالعبد عليه أن يفعل الأسباب حتى في أمور الدنيا، وهكذا في أمور الآخرة، فالطاعات غير موجبة، مثل ما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «واعلموا أنه لا يدخل الجنة أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا

إلا أن يتغمدني الله برحمة وفضل»[١] فالأعمال أسباب : ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (النحل) بأسبابها ، فالله رتب رحمته وفضله وإحسانه على هذه الأسباب ، كما رتب غضبه وعقابه على الكفر والشرك والمعاصي .

وهكذا أمور الدنيا أيضاً ، جعل الله سبحانه وتعالى الزراعة والبيع والشراء وأشباه ذلك أسبابا للرزق ، فقد ينجح وقد لا ينجح ، فإن شاء الله نجاحه ربح في البيع وربح في الزراعة ، وإذا أراد الله عدم النجاح لم يربح في البيع ولم تنجح الزراعة ، فالأمور كلها بيده سبحانه ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .أهـ

وأما التفريق بين المقدور عليه والمعجوز عنه ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٢] .

وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه اختصم إليه رجلان فقضى على أحدهما فقال المقضي عليه : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ : «إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا أحزنك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل»[٣] .

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر / باب الإيمان بالقدر والإذعان له .

(٣) رواه أبو داود (٣٦٢٧) كتاب القضاء/ باب الرجل يحلف على حقه ، من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه .

قال أبو القاسم: وسئل الواسطي عن الكفر بالله أو لله؟ فقال: الكفر والإيمان والدنيا والآخرة من الله وإلى الله وبالله ولله من الله ابتداء وإنشاء، وإلى الله مرجعا وانتهاء وبالله بقاء وفناء، ولله ملكا وخلقا.

قال: وقال الجنيد: سئل بعض العلماء عن التوحيد؟

فقال: هو اليقين، فقال السائل بيّن لي ما هو؟ فقال: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله وحده لا شريك له، فإذا فعلت ذلك فقد وحدته.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا فيه نظر، تعريف الجنيد فيه نقص، فإن الإيمان بأن حركات العباد وسكناتهم من تقدير الله، وأنه سبحانه هو المقدر لهذا والمدبر لهذا ما يكفي، هذا هو توحيد الربوبية، ولعل المؤلف يرجع إليه بعد ذلك، بل لابد مع هذا من إخلاص العبادة لله وحده، فقد كان المشركون الأولون وغيرهم يعرفون أن الله مدبر الأمور وخالقها، وأنه خالق الحركات والسكنات، ولكن هناك أمر وراء هذا، وهو أن يصرف العبد عباداته لله وحده، ويخص الله بعباداته، من صومه وصلاته ودعائه وذبحه ونذره ونحو ذلك، حتى يكون الله معبوده وحده ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء ٢٣)، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (البينة ٥) فإذا ضم هذا إلى هذا، آمن بأن الله سبحانه هو خالق الحركات والسكنات ومدبر الأمور، وضم إلى هذا إخلاص العبادة لله وحده؛ استقام أمره. أهـ

وقال: سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت عبد الواحد بن علي يقول سمعت القاسم بن القاسم سمعت محمد بن موسى الواسطي سمعت محمد

ابن الحسين الجوهري سمعت ذا النون المصري يقول وجاءه رجل فقال : ادع الله لي ، فقال : إن كنت أيدت في علم الغيب بصدق التوحيد فكم من دعوة مجابة قد سبقت لك ، وإلا فإن النداء لا ينفع الغرقى .

قال : وقال الواسطي : ادعى فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة على السر تقول ما شئت فعلت .

وقال أبو الحسين النوري : التوحيد كل خاطر يشير إلى الله بعد أن لا تزاحمه خواطر التشبيه .

قلت :

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا تنبيه المؤلف ، جاء تنبيه المؤلف رحمه الله أهـ

كلام الواسطي والجنيد المذكور هنا هو توحيد الربوبية وأن الله رب كل شي ومليكه وخالقه .

وفيه الرد على القدرية الذين يجعلون أفعال العبد خارجة عن قدرته وخلقه وملكه ، وكذلك جعل فيهم الواسطي شبها من فرعون ، فإن فرعون كشف كفره وقال : أنا ربكم الأعلى ، فادعى الربوبية علانية ، والقدرية تدّعي أنها رب الأفعال وما يتولد عنها ، فقد أدعت ربوبيته ، لكن في السر ، وهي ربوبية أفعال الأعيان .

لكن مقصود أهل التحقيق كالجنيد ونحوه أن يكون هذا التوحيد للعبد خُلُقًا ومقاما بحيث يعطيه ذلك كمال توكله على الله تعالى ، وتفويضه إليه ، والصبر لحكمه والرضا بقضائه ، ما لم يخرجه ذلك إلى إسقاط الأمر والنهي والثواب والعقاب والوعد والوعيد ، كما يقع في بعض ذلك طائفة من المتصوفة .

وأما قول ذي النون: إن كنت أيدت في علم الغيب بصدق التوحيد، فلا يراد به مجرد الإقرار بالربوبية العامة، فإن المشركين كانوا يوحدون هذا التوحيد كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (الزمر: ٣٨)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف).

قالوا: إيمانهم هو إيمانهم بأنه خالق كل شيء، وشركهم أن عبدوا معه إلهاً آخر.

وإنما أراد تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وهو أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، فهذا التوحيد الذي جاءت به الرسل، هو يسعد صاحبه ويدخل الجنة لا محالة له من دعوة مجابة، ومن فاته هذا التوحيد فإن الله لا يغفر أن يشرك به، فلا ينفعه الدعاء.

وهذا هو التوحيد المذكور في قول المراغي: صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد.

وأما قول النوري: التوحيد كل خاطر يشير إلى الله، فهو يعم ذلك، يقول كل توجه إلى الله وحده بقول أو عمل فهو توحيد إذا لم يكن فيه تشبيه الخالق بالمخلوق أو المخلوق بالخالق، كما في قول الجهمية والممثلة والقدرية ونحوهم، وقد تقدم ما ذكره المشايخ من نفي التشبيه والتعطيل.

وكذلك ما ذكره عن الشيخ أبي عبد الرحمن سمعت عبد الواحد بن بكر سمعت هلال بن أحمد يقول سئل أبو علي الروذباري عن التوحيد فقال: استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل وإنكار التشبيه، والتوحيد في كلمة

واحدة كل ما صورته الأفهام والأفكار فإن الله سبحانه بخلافه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى) .

قال : وقال أبو القاسم النصراباذي : الجنة باقية بإبقائه ، وذكره لك ومحبته لك باق ببقائه ، فشتان بين ما هو باق ببقائه وبين ما هو باق بإبقائه .

قال القشيري : وهذا الذي قاله الشيخ النصراباذي غاية التحقيق ، فإن أهل الحق قالوا : صفات ذات القديم سبحانه باقيات ببقائه تعالى ، فنبه على هذه المسألة ، ونبه على أن الباقي باق ببقائه ، خلاف ما قاله مخالفوا الحق .

قلت : النصراباذي مقصوده التفريق بين من طلب النعيم بالمخلوق وطلب النعيم لحظه من الخالق ، فقال ما في المخلوق باق بإبقائه ، وأما محبته لك وذكره لك فباق ببقائه ، وليس مقصوده أن البقاء الذي يوصف به الرب هو صفة زائدة على الذات بما ليس بصفة ، كما يتنازع فيه أهل الكلام مثل متكلمة أهل الإثبات وغيرهم ، بل القاضي أبو بكر الذي يعظمه القشيري ويقول هو أوحد وقته ؟ كان يقول ليس الباقي باقيا ببقاء .

والنزاع في هذه المسألة إذا حقق لم يرجع إلى معنى محصل يستوجب النزاع .

ثم قال أبو القاسم : حدثنا محمد بن الحسين سمعت النصراباذي يقول : أنت متردد بين صفات الفعل وصفات الذات وكلاهما صفته تعالى على الحقيقة ، فإذا هيمك في مقام التفرقة قربك بصفات فعله ، وإذا بلغك إلى مقام الجمع قربك بصفات ذاته .

قال : وأبو القاسم النصراباذي كان شيخ وقته .

قلت : هذا الكلام من النصراباذي يقتضي أنه موصوف بصفات فعله على الحقيقة مثل الخلق والرزق ، كما أنه موصوف بصفات الذات على الحقيقة كالعلم والقدرة ، وهذا هو الذي ذكره أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي عن مذهب الصوفية في كتاب التعرف ، وهو قول جمهور الفقهاء، وأهل الحديث وطوائف من أهل الكلام ، وليس هو قول الأشعرية الذين سلك سبيلهم أبو القاسم القشيري ، فالخلق والرزق عندهم عين المخلوق ، ولا يستحق أن يسمى بالخالق الباعث الوارث إلا بعد وجود هذه المفعولات ، والنزاع في أن الفعل هل هو صفة لله؟ وهل يوصف بالأسماء الفعلية في الأزل؟ وقد بسطنا الكلام في هاتين المسألتين في موضعه .

وقال : سمعت الإمام أبا إسحاق الإسفراييني يقول : لما قدمت من بغداد كنت أُدرِّس في جامع نيسابور في مسألة الروح وأشرح القول أنها مخلوقة ، وكان أبو القاسم النصراباذي قاعدا متباعدا عنا يصغي إلى كلامي ، فاجتاز بنا بعد ذلك بأيام قلائل ، فقال لمحمد الفراء : أشهد أني أسلمت جديدا على يد هذا الرجل وأشار إلي .

قلت : لعله كان عنده بعض شبهة أو رأي فاسد في خلقها ، كما يعرض مثل ذلك لبعض الناس .

وقال : سمعت محمد بن الحسين السلمي يقول سمعت أبا حسين الفارسي يقول سمعت إبراهيم بن فاتك يقول سمعت الجنيد يقول : متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير بمن له شبيه ونظير ، هيهات ، هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان .

قلت: هذا الكلام يقتضي أن العباد إنما عرفوا ربهم بما لطف به من تعرفه إليهم وهدايته إياهم بما أعطاهم، لا معرفة إدراك وإحاطة، وهذا حسن، وربما يتضمن نوعاً من الرد على طريقة أهل النظر الذين يجعلونه بمجرده محصلاً للمعرفة المطلوبة.

وقال: حدثنا محمد بن الحسين سمعت عبد الواحد بن بكر حدثني أحمد بن محمد البردعي حدثنا طاهر بن إسماعيل الرازي قال قيل ليحيى بن معاذ: أخبرني عن الله؟ فقال إله واحد، فقال: كيف هو؟ فقال: ملك قادر، فقال: أين هو؟ فقال: بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا، فقال ما كان غير هذا، كان صفة المخلوق، فأما صفته فما أخبرتك عنه.

قلت: لا تعلم صحة هذا الكلام عن يحيى بن معاذ، إذ في الإسناد من لا نعرفه، وكلام يحيى بن معاذ عندهم دون كلام الكبار من أهل التحقيق في المعاملات وغيرها، فإنه يتكلم في الرجاء بكلام يشبه كلام سفلة المرجئة، لا يوافق أصول المشايخ الكبار المتمسكين بالسنة، ويدَّعي في التوحيد مقاماً هو الغاية، وقد عاب عليه أبو يزيد وغيره، وكلامه يشبه كلام الوعاظ، وهي طريقة أبي القاسم ونحوه.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا كله في الحقيقة، كله كلام الصوفية هؤلاء، وإن كان بعضهم له كلمات صحيحة، لكن غالب كلامهم يُدْخِلُه من الشبهة والقلق والضعف وعدم الوضوح ما يدخله، ولهذا تجد كلامهم دائماً ملتبساً، فيه من الاحتمال والاشتباه ما يجعله ليس أهلاً لأن يحتج به ولا أن يذكر.

وكان كلام السلف من الصحابة والتابعين في غاية الوضوح وغاية البيان، لأنهم استقوه من كلام الله وكلام رسوله، لا من أفكارهم وآرائهم وأذواقهم،

فكانت كلماتهم واضحة في وصف الرب جل وعلا وفي أحكامه وفي أوامره ونواهيه .

فلهذا ينبغي لطالب العلم أن تكون همته وأن تكون مراجعاته ومطالعاته لكلام سلف الأمة ، لأن كلامهم أوضح وأبين وأبعد عن الشبهة ، فهم يقولون فيما يقولون مثل ما نطق الكتاب والسنة ، إن تكلموا عن الله تكلموا بما جاء في الكتاب والسنة ، إن الله فوق خلقه ، فوق جميع خلقه ، فوق العرش ، استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته ، وإن تكلموا في صفاته وضحوا الصفات وأنها صفات حق وأنها لائقة به سبحانه لا يشابه فيها خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى) ، وأتوا بعبارات واضحة كما جاء في الكتاب والسنة ، وإن تكلموا في الشرع والأوامر والنواهي بلغوا عن ذلك بأشياء واضحة ، قالوا : أمر بكذا ونهى عن كذا وقال كذا وأمر بكذا ، بخلاف هؤلاء المتصوفة العبّاد الزهّاد ، فإنه يقع لهم من الكلمات والعبارات والجمل ما هو محتمل ، وما هو سقيم ، وما هو يعد إلى غاية البطلان والإلحاد ، ويقع في كلامهم ما هو طيب وما هو مستقيم ، لكن بأسلوب لا يفهمه كل أحد ، ولهذا أراد المؤلف بهذا التعليق على كلماتهم بيان ما فيها من الأخطاء والأغلاط والإجمالات التي قد تشتبه على الناس ، وقد يتسامح في بعض الكلمات رحمه الله ويمرها كما جاءت على ما فيها من إيهام ، بناءً على أن من تأملها من أهل التحقيق والبصيرة فهمها ، فهذا هو وجه ذكره لهذه الأشياء في كتابه هذا رحمه الله . أهـ

وهذا الكلام المذكور من هذا الباب ، فإنه ليس كل ما لم يذكره في هذا الجواب بصفة المخلوق لله ، بل لله صفات كثيرة عظيمة لم تدخل في هذا

الكلام، ثم صفة المخلوق إن كان لأجل الاشتراك في الاسم فقوله ملك قادر وإنه بالمرصاد كما قال تعالى: ﴿ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ (التوبة: ٥).

وأيضاً: فالجواب عن أين هو خلاف الجواب الذي رضيه رسول الله ﷺ وأقره وحكم بإيمان قائله، وخلاف ما أجاب به هو سائله فإنه لما قال: أين الله؟ فقيل له في السماء، رضي بهذا وأقر صاحبه ولم يقل هذا صفة المخلوق.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: لما سأل الجارية قال: «أين الله»؟ قالت: في السماء[1] يعني في العلو، السماء المراد بها العلو، مثل ما قال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الملك) يعني في العلو، لأن السماء تطلق على أمرين: تطلق على السماء المبنية يقال لها سماء، ويطلق على العلو ويقال له سماء. أهـ.

وقد روى شيخ الإسلام الأنصاري الهروي صاحب علل المقامات ومنازل السائرين في كتابه المسمى بالفاروق بإسناده عن يحيى بن معاذ أنه قال: إن الله على العرش بائن من خلقه، وقد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، لا يشذ عن هذه المقالة إلا جهمي رديء ضليل وهالك مرتاب يمزج الله بخلقه ويخالط منه الذات بالأقذار والإتيان في هيئته، وهو يخالف إنكاره الأين في هذه الرواية.

وقال أبو القاسم: حدثني ابن الحسين سمعت أبا بكر الرازي يقول سمعت أبا علي الروذباري يقول: كل ما توهم متوهم بالجهل أنه كذلك فالعقل يدل على أنه بخلافه.

(١) رواه مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

قال: وسأل ابن شاهين الجنيد عن معنى مع؟ فقال على معنيين: مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة قال الله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه)، ومع العامة بالعلم والإحاطة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (المجادلة ٧) فقال ابن شاهين: مثلك يصلح أن يكون دالاً للأمة على الله.

قلت: هذا كلام حسن متفق على صحة معناه بين أئمة الهدى.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا هو الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة، فإن المعية الواردة في الكتاب والسنة على معنيين:

أحدهما: بمعنى النصرة والتأييد والحفظ والكلاءة، وهذه هي المعية الخاصة التي جاءت في معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه) ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال) هذه معناها المعية الخاصة: الكلاءة والحفظ والتأييد والنصرة ونحو ذلك.

والمعنى الثاني: المعنى العام الذي يدل على العلم والإحاطة وهي المعية العامة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤) فالمعنى علمه بهم وإحاطته بهم واطلاعه على أحوالهم ورؤيته لهم، وهم لا يخفون عليه، بل هو يعلم كل شيء، وهو أعلم بهم من مجالسيهم ومن أصحابهم ومن أنفسهم سبحانه.

أما القول بأن المعية معناها المخالطة والحلول فهذا هو قول أهل الإلحاد والفساد والإلحاد في الدين، ولهذا قال أبو عمر الطلمنكي وابن عبد البر وأبو نصر

السجزي وجماعة قالوا : أجمع العلماء على أن معنى قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ معناه العلم والإحاطة .أهـ

سؤال / المعية معيتان؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : نعم ، معية خاصة ومعية عامة ، معية الكلاءة والحفظ والتأييد ، هذه معيته لأوليائه ، ومعية العلم والإحاطة معيته للعموم سبحانه .أهـ

سؤال / هذه المعية ، يقول بعض الناس إن أهل السنة يأولون؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا ليس بتأويل ، هذا إخبار عن الحقيقة التي أرادها الرب جل وعلا .أهـ

وكانوا يقولون مثل هذا الكلام ردا على من يقول من الجهمية إن الحق بذاته في كل مكان وينكر أن يكون فوق العرش ، وقد وقع في ذلك طائفة من المتصوفة حتى جعلوه عين الموجودات ونفس المصنوعات كما يقوله أهل الاتحاد العام .

قال القشيري : وسئل ذو النون المصري عن قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ (طه)؟ فقال : أثبت ذاته ونفى مكانه فهو موجود بذاته والأشياء موجودة بحكمه كما شاء .

قلت : هذا الكلام لم يذكر له إسنادا عن ذي النون ، وفي هذه الكتب من الحكايات المسندة شيء كثير لا أصل له ، فكيف بهذه المنقطعة السيئة التي تتضمن أن ينقل عن المشايخ كلام لا يقوله عاقل ، فإن هذا الكلام ليس فيه مناسبة للآية بل هو مناقض لها ، فإن هذه الآية لم تتضمن إثبات ذاته ونفي مكانه بوجه من الوجوه ، فكيف تفسر بذلك؟

وأما قوله : هو موجود بذاته والأشياء موجودة بحكمه ، فهو حق لكن ليس هذا معنى الآية .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا ، قوله : أثبت وجوده ولم يبين مكانه ، هذا هو وجه الغلط ، لأنه جل وعلا حين قال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾ (طه) فقد بيّن الوجود والمكان ، وأنه في العلو سبحانه وتعالى ، وأنه فوق العرش .اهـ

قال وسئل الشبلي عن قوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾

فقال : الرحمن لم يزل والعرش محدث والعرش بالرحمن استوى .

قلت : هذا الكلام أيضا ليس له إسناد عن الشبلي ، وهو يتضمن من الباطل ما هو تحريف للقرآن .

أما قوله : الرحمن لم يزل والعرش محدث فحق ، وأما قوله : العرش بالرحمن استوى ، فهو أولا خلاف القرآن ، فإن الله أخبر أنه هو الذي استوى على العرش فكيف يقال إن المستوي إنما هو العرش؟!

وأما ثانيا : فإنه إذا قال العرش استوى به فهذا ليس أبلغ من قوله إنه استوى على العرش ، كما في حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ أهل حين استوت به راحلته(١) ، وذلك يقتضي أن يكون العرش استوى بالله واستقل به وحمله ، وإن لم يرد هذا المعنى وإنما أراد أن العرش اعتدل واستوى بقدرة الله ؛ فهذا ليس هو معنى الآية ، بل هو تحريف صريح يستحق قائله العقوبة البليغة ، ولا يصلح أن يحكى مثل هذا عن قدوة في الدين ، بل ولا عن أطراف الناس .

(١) رواه البخاري (١٥٥٢) كتاب الحج/ باب من أهل حين استوت راحلته ، ومسلم (١١٨٤) كتاب الحج/ باب التلبية وصفتها ووقتها .

قال: وسئل جعفر بن نصير عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ (طه) فقال استوى علمه بكل شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء.

وهذا من نمط الذي قبله وأردى، وهو أسخف من تأويلات القرامطة الباطنية، فإن اللفظ ليس فيه ما يدل على ذلك أصلاً، وجعفر بن نصير أجل من أن يقول هذا التحريف الذي لا يصدر مثله إلا عن بعض غلاة الرافضة والقرامطة والملحدين الطاعنين في القرآن.

قال: وقال جعفر الصادق: من زعم أن الله في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، إذ لو كان على شيء لكان محمولاً، أو كان في شيء لكان محصوراً، أو كان من شيء لكان محدثاً.

قال: وقال جعفر الصادق في قوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝﴾ (النجم) من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثم مسافة، وإنما تدنى أنه كلما قرب منه بعده عن أنواع المعارف إذ لا دنو ولا بعد.

قلت: هذا الكلام وأشباهه مما اتفق أهل المعرفة على أنه مكذوب على جعفر، مثل كثير من الإشارات التي ذكرها عنه أبو عبد الرحمن في حقائق التفسير، والكذب على جعفر كثير منتشر، والذي نقله العلماء الثقات عنه معروف يخالف رواية المفترين عليه.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا يُكذِّبُه الرافضة وغير الرافضة، ولكن أكثرهم هم الرافضة يكذبون عليه كثيراً وعلى أبيه أبي جعفر، والله جل وعلا فوق العرش فوق جميع الخلق سبحانه، فهو أخبر عن نفسه بذلك، فكيف يخبر

عن جعفر أو عن أبيه ما يصادم القرآن ، وهم من أجل العلماء وأفضل العلماء ، فجعفر من خيرة العلماء ، ولكن الرافضة قبحهم الله كذبوا عليه أشياء كثيرة وشوهوا سمعته وشوهوا سمعة أبيه وسمعة جده وسمعة الحسن والحسين ، كله من كذبهم قبحهم الله .أهـ

قال : ورأيت بخط الأستاذ أبي علي أنه قيل لصوفي أين الله؟ فقال : أسحقك الله تطلب مع العين أثرا .

قلت : هذا كلام مجمل قد يعني به الصدّيق معنى صحيحا ، ويعني به الزنديق معنى فاسدا ، فإن السائل أين الله قد يكون سؤاله عن شك عن معرفة ما يستحقه الله من العلو ، وقد يكون الاستعلام عن حال المسئول ، كما سأل النبي ﷺ الجارية أين الله؟[1] فالذي سأل الصوفي أين الله؟ إن كان شاكا في نعت ربه أو جاهلا بحال المسئول فهو ناقص ، فيحتمل أن الصوفي كان عارفا بالله ، وقد عاين السائل من حاله ما عرف به صدقه ، فقال سؤالك سؤال من يريد أن يستدل بالأثر على حال ، وأنت قد عاينت ما يغنيك عن ذلك ، فقال أتطلب مع العين أثرا أو هدى .

كما أن المعروفين بالإيمان من الصحابة لم يكن النبي ﷺ يقول لأحدهم أين الله ، وإنما قال ذلك لمن شك في إيمانه كالجارية[2] ، وهذا كما يذكر في حكاية أخرى أن بعضهم لقي شخصا فقال أين ربك؟ فقال : لاتقل أين ربك ولكن قل أين محل الإيمان من قلبك؟ أي إن مثلي لايقال له أين ربك ، وإنما أسأل عما يليق بمثلي أن يسأل عنه .

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد / باب تحريم الكلام في الصلاة ، عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ .

(٢) المصدر السابق .

بل كما في الحكاية المعروفة عن يزيد بن هارون الواسطي ونحوها أيضاً لأحمد بن حنبل أن منكراً أو نكيراً لما أتياه وسألاه من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فقال: أتقولان لي هذا وأنا يزيد بن هارون الواسطي أُعَلِّم الناس السنة ستين سنة، فقالا: اعذرنا فإنا بهذا أمرنا وانصرفا وتركاه.

وظاهر الأمر في حال الصوفي الذي ذكره الأستاذ أبي علي أنه قصد هذا لأنه قال للسائل: أسحقك الله أتطلب مع العين أثراً.

وهذا العين الذي أغناه عن الأثر إما أن يكون في معرفته بربه أو معرفته بحال المسئول، فلو كان الأول لم يك جاهلاً فيسأل أين الله، ولم يجب عليه الصوفي حتى يقول له أسحقك الله، فعلم أنه كان عارفاً بحال الصوفي وطلب منه زيادة امتحان له عن معرفته بربه فقال أتطلب مع العين أثراً؟.

وأما العين الذي يعنيه الزنديق فأن يكون من أهل الاتحاد المعين، فيعتقد أنه عاين الله بعين بصره في الدنيا، فيقول أتطلب مع العين أثراً؟

أو يعتقد أن الوجود المعاين هو عين وجود الحق، كما تقوله الاتحادية أهل الاتحاد المطلق، أو نحو ذلك من مقالات الزنادقة المنافقين.

ولكن ظاهر الحكاية لا يوافق هذا، فإنه عند هؤلاء العين والأثر واحد، والصوفي قال أتطلب مع العين أثراً، وهذا يقتضي أن السائل بأين يصح منه طلب الأثر بعد العين.

وليس في الحكاية مقصود لأبي القاسم من نفي كون الله على العرش، ولا يقول أبو القاسم بأن العارف حصل له في الدنيا من معاينة الله تعالى ما يغنيه عن الأثر.

قال أبو القاسم : حدثنا الشيخ أبو عبد الرحمن سمعت أبا العباس بن الخشاب البغدادي سمعت أبا القاسم بن موسى سمعت محمد بن أحمد سمعت الأنصاري سمعت الخراز يقول : حقيقة القرب فقد حس الأشياء من القلب ، وهدوء الضمير إلى الله .

قلت : هذه الحكاية في إسنادها من لا يعرف حاله ، وإن صح هذا الكلام عن أبي سعيد الخراز فليس مقصوده أن القرب من الله ليس إلا مجرد ذلك ، ولكن أراد أن هذا هو الذي يحقق القرب ، وحقيقة الشيء عندهم ما يحققه ، فيكون علة لوجوده ودليلا على صحته .

كما يروون في الحديث الذي رواه ابن عساكر مرسلا وروي مسندا من وجه ضعيف لا يثبت أن النبي ﷺ قال لحارثة بن سراقة : **«كيف أصبحت يا حارثة؟»** قال : **أصبحت مؤمنا حقا** قال : **«فما حقيقة إيمانك» ؟ فقال : عرفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتمتعون فيها وإلى أهل النار يعذبون فيها فقال : «عرفت فالزم عبد نوّر الله قلبه»** (١) .

فقولهم في هذا الحديث الذي يروونه ما حقيقة إيمانك؟ أي ما يحققه ويصدقه ، فذكر ما يصدقه ويحققه من اليقين والزهد ، كما جاء في الحديث : **«نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد»** (٢) .

---

(١) قال في مجمع الزوائد : (١/ ٢٨) رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه ، ورواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال في جمع الجوامع : (١/ ٢٤٩٤٠) رواه ابن أبي الدنيا والخطيب في كتاب البخلاء عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وأخرجه الديلمي ٤/ ٢٨٩ (٦٨٥٣) .

فقول أبي سعيد : حقيقة القرب أي الذي يحققه هو خلو القلب مما سوى الله وسكونه إلى الله ، وهذا تحقيق الإخلاص والتوحيد الذي من حققه كان أقرب الخلق إلى الله هو تحقيق كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ، وهذا على درجتين : فأهل الفناء يفقدون إدراك الأشياء ومعرفتها مصطلمين في ذكر الله والملائكة وأولو العلم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لعلها : فيما ذكر الله ، مصطلمين فيما ذكر الله والملائكة وأولوا العلم ، يعني فيما ذكره الله ، يعني من التوحيد ، يعني فيما ذكره الله ، من قوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران : ١٨] . أهـ

وهو سبحانه شهد وحدانيتهم في الإلهيته متضمنه شهادته لجميع خلقه ، فإنه شهيد عليم ليس عن المخلوقات بغائب ، فأولو العلم الشاهدون ألا إله إلا هو إذا لم يكن فيهم عجز يوجب الفناء يعطون من القوة على ما يشهدون به الأمر ، وتلك شهادة كاملة أكمل من شهادة أهل الفناء ، فيفقدون تأله قلوبهم للأشياء ووجدهم وطمأنينتهم إليها ، معتاضين بتأله قلوبهم لله ووجدهم به وطمأنينة قلوبهم بذكره ، لا يفقدون الشهادة التي تزيد في علمهم وإيمانهم من شهود الربوبية المحيطة جملة وتفصيلا ، والإلهية الواجبة جملة وتفصيلا ، وما يدخل في ذلك من أصناف المخلوقات والمأمورات .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا عجب ، عناية المؤلف بكتاب عبد القادر هذا على ما فيه من الخرافات والضلالات والأخطاء ، كأنه رحمه الله إنما أراد بهذا التنبيه على ما غلط فيه أبو القاسم فيما يذكره عن هؤلاء الصوفية وأصحاب الزهد من حكايات باطلة وحكايات منقطعة وحكايات محتملة ، أراد بهذا التنبيه على ما فيها من الأخطاء والأغلاط .

ولا شك أن الصوفية عندهم أخطاء كثيرة وأغلاط، لأن علمهم ليس مقيداً بالكتاب والسنة كما قال الجنيد، إن هؤلاء أخذوا عن أفهامهم وعن أذواقهم وعن مشاهداتهم أشياء غلطوا فيها، ولو تقيدوا - كما قال الجنيد - بالكتاب والسنة لسلموا من هذه الأخطاء التي وقعت لهم، فإن الطريق الوحيد الذي هو طريق السلامة وطريق النجاة هو التقيد بالكتاب والسنة، وأن ينقل الإنسان عن ربه وعن دينه ما جاء في الكتاب والسنة، فإن هذه الأمور ليست مما تحققها العقول وتوجبها العقول، بل هذه أمور توقيفية، فما يتعلق بالله وصفاته وحقه على عباده وما يكون في الغيب، كل هذا إنما يتلقى عن الكتاب والسنة، فلا طريق إلى الإيمان بالله وإلى معرفة صفاته وأسمائه إلا ما قاله الله ورسوله، فمن خرج عن هذا الطريق كالصوفية والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة والقدرية والرافضة وغيرهم، كل من خرج عن هذا الطريق وقع في الأخطاء والأغلاط الكثيرة والإلحاد والفساد، فطريق العصمة وطريق النجاة هو التقيد بالكتاب والسنة، وأن تكون معلوماتك عن الله وعن رسوله متلقاة عن الله ورسوله فقط، أما عن الآراء التي يقولها الناس، والاجتهادات التي يقولها الناس فهي منقسمة إلى حق وباطل، ولا طريق إلى تحقيقها وبيان حقها من فاسدها إلا عرضها على الكتاب والسنة:

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. اهـ

سؤال/ «مصطلمين» أو «مصطلمين»؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: مصطلمون يعني قد أخذت عقولهم، اصطلموا حتى فنوا، يعني أخذت عقولهم فهم مصطلمون، المصطلم الذي قد قضي عليه وأخذ ما لديه من الفكر، يعني شهودهم لهذه الأشياء التي غير الله قد

زاد ، فصاروا مصطلمين ، يعني قد صودروا فلم يشهدوا إلا الله وحده فقط ، وفنوا عما سواه ، ولهذا قالوا إن الفناء هو الغاية في التحقيق .

وهذا غلط ، فإن الفناء ليس هو الغاية ، لابد من فناء معه فرق ، فالمؤمن يجمع قلبه على أن الله خالق الخلق ومدبر الأمور وهو الإله الحق سبحانه ، ثم يتسع قلبه للفرق ، وأنه فرق بين الله وبين عباده ، فرق بين الله وبين المعبودات الأخرى ، فيحقق التوحيد بإبطال ما سوى الله من الآلهة وإثبات العبادة لله وحده ، وأنه الإله الحق سبحانه ، ويكون عنده فرق أيضاً بين ما شرعه الله وأمر به وما نهى عنه ، وبين ما يجب لله من أسمائه وصفاته ، إلى غير ذلك .

فلابد من جمع مع فرق ، يجمع قلبه على الإيمان بالله وأنه رب الجميع وأنه الخلاق وأنه الرزاق وأنه المستحق للعبادة ، ويكون عنده فرق يفرق بين الحق والباطل ، وبين الشرك والتوحيد ، وبين المعصية والطاعة ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الخالق والمخلوق ، هكذا أهل السنة والجماعة عندهم الجمع والفرق .

أما كونه يفنى عن الفرق ، ولا يشاهد إلا وجود الرب سبحانه فقط وينسى المخلوقات ؛ هذا هو الذي جر أهل الوحدة إلى القول بوحدة الوجود كابن عربي وأشباهه ، حتى اعتقدوا ما هو أبطل الباطل وأضل الضلال من اتحاد الخالق بالمخلوق وأنهما شيء واحد ، هذا لا يقوله من يعقل ، لا يقوله إلا المجانين وأشباه المجانين ، نسأل الله العافية .أهـ.

سؤال / قرأت في كتاب أن الله يقول عن نفسه : أنا أعلم العلماء!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : ما سمعت بهذا وما قرأت هذا ، ولكن معناها فيما يظهر صحيح ، لأنه هو سبحانه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين

وأعلم العالمين ، لا أحد أعلم منه سبحانه ، وهو أحكم الحاكمين لا أحد أحكم منه ، وهو أرحم الراحمين لا أحد أرحم منه ، وهو خير الرازقين لا أحد خير منه سبحانه .

لكني لا أتذكر أني سمعت هذا عن أحد ، لكن معناه في الجملة صحيح .أهـ

سؤال / هناك كتاب يسمى نزهة المتقين ويتحدث عن الأحاديث التي تحت على الرحمة قال : والرحمة من المخلوق هي الشفقة ، ومن الله الرضا وإرادة إيصال النعمة إلى خلقه!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا قول الأشعرية ، الرحمة من الله غير الرضا وغير الإرادة ، الرحمة غير هذا ، رحمته سبحانه إلى عباده تقتضي إحسانه إليهم وإكرامه لأوليائه وإنجاءه لهم وما يسديه إليهم من النعم ، كل هذا من رحمته ، فالرحمة وصف مستقل غير الإرادة وغير الإنعام وغير الرضا ، وصف مستقل ، فالرحمن الرحيم وصف مستقل .

هذا من التأويل الذي سلكه الأشاعرة وغيرهم .أهـ

سؤال / حديث حارثة؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : أصله جيد ، لكن بعض ألفاظه مثل أنه قال : استوى عندي الذهب والخشب ، لا أتذكر صحة رواية هذه الزيادة ، وإلا فالحديث جيد ذكره النووي في رياض الصالحين وذكره غيره .أهـ

سؤال / هذه الفرق التي ضلت ، هل هو تأويل منها للآيات والأحاديث ، أو أنه عناد بعد ما عرفوا الحقيقة؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : فيهم المعاند وفيهم الجاهل ، فأئمتهم والمقتدى بهم الغالب عليهم العناد ، وأما العامة فأكثرهم جهلة .أهـ

وقال أبو القاسم: سمعت محمد بن الحسين سمعت محمد بن علي الحافظ سمعت أبا معاذ القزويني سمعت أبا علي الدلال سمعت أبا عبد الله بن قهرمان سمعت إبراهيم الخواص يقول انتهيت إلى رجل وقد صرعه الشيطان فجعلت أؤذن في أذنه فناداني الشيطان من جوفه دعني أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق.

قلت: هذه الحكاية موافقة لأصول السنة، وقد ذكروا نحوها حكايات، واعترض في ذلك الغزالي وغيره بأن هذا الاستدلال بكلام الشياطين في أصول الدين، وذكر عن الإمام أحمد في ذلك حكاية باطلة ذكرها في المنخول فقال رب رجل يعتقد الشيء دليلا وليس بدليل كما يذكر.

وجواب هذا أن الجن فيهم المؤمن والكافر كما دل على ذلك القرآن، ويعرف ذلك بحال المصروع، ويعرف بأسباب قد يقضي بها أهل المعرفة، فإذا عرف أن الجني من أهل الإيمان كان هذا مثل ما قصه الله في القرآن من إيمان الجن بالقرآن، وكما في السيرة من أخبار الهواتف.

وإبراهيم الخواص من أكابر الرجال الذين لهم خوارق، فله علمه بأن هذا الجني من المؤمنين لما ذكر هذه الحكاية على سبيل الذم لمن يقول بخلق القرآن.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا من الدلائل على أن هذا الجني مؤمن صاحب سنة، ولهذا لما قرأ في أذن المصروع، قال الجني على لسان المصروع: دعني أقتله فإنه يقول إن القرآن مخلوق، إذاً فالجني الصارع يريد أن يقتل الإنسي المصروع لأنه مبتدع، يقول إن القرآن مخلوق.

والجن مثل ما قال الله سبحانه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ (الجن) فهم أقسام، فيهم الجهمي وفيهم السني وفيهم المعتزلي وفيهم الرافضي وفيهم الطيب وفيهم الخبيث. أهـ

فصل

قال أبو القاسم وقال ابن عطاء : لما خلق الله الأحرف جعلها سرا ، فلما خلق آدم بث ذلك السر فيه ، ولم يبث ذلك السر في أحد من الملائكة ، فجرت الأحرف على لسان آدم بفنون الجريان وفنون المعارف ، فجعلها الله صورا لها .

قال أبو القاسم : صرح ابن عطاء رحمه الله بأن الحروف مخلوقة .

قلت : لم يذكر لهذه الحكاية إسنادا ، ومثل هذا لا تقوم به حجة ، ولا يحل لأحد أن يدل المسلمين في أصول دينهم بكلام لم تعرف صحة نقله ، مع ما علم من كثرة الكذب على المشايخ المقتدى بهم ، فلا يثبت بمثل هذا الكلام قول لابن عطاء ولا مذهب ، بل قد ظهر على هذه الحكاية من كذب ناقلها وجهل قائلها ما لا يصلح معه أن يحمد الاعتقاد بها ، فلو فرض أن هذه الحكاية قالها بعض الأعيان لكان فيها من الغلط ما يردها على قائلها .

وكذلك أن الله لم يخص آدم بالأحرف ، وإنما خصه بتعليم الأسماء كلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة) .

وقد تنازع الناس هل المراد بها أسماء من يعقل لقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ أو أسماء كل شيء؟ على قولين .

والأول اختيار ابن جرير الطبري وأبي بكر عبد العزيز صاحب الخلال وغيرهما .

والثاني أصح لأن في الصحيحين في حديث الشفاعة عن النبي ﷺ : «يا

آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء»[(١)] ويبين ذلك أن الملائكة كانوا يتكلمون قبل أن يخبرهم آدم بالأسماء، وقد خاطبوا الله وخاطبوا آدم قبل ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠).

قال: وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لما خلق الله آدم قال اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فسلم عليهم واسمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك فذهب إليهم فقال السلام عليكم فقالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فزادوه».[(٢)]

وأيضا فآدم عليه السلام تكلم قبل أن يعلمه الله أسماء كل شيء كما في الصحيحين: «أن الله لما خلق آدم عطس فقال الحمد لله رب العالمين فقال الله له يرحمك ربك».[(٣)]

وأيضا فمن المعلوم أن الملائكة كانوا يسبحون الله ويمجدونه قبل خلق آدم وقبل إخباره إياهم بالأسماء، فكيف يظن ظان أن النطق كان مختصا بآدم لما علم الأسماء.

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٦) كتاب التوحيد/ باب ما جاء في قوله عز وجل: (وكلم الله موسى تكليما) ومسلم (٣٢٧) كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٢٢٧) كتاب الاستئذان/ باب بدء السلام، ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب ما في الجنة من النعيم وما يكون لأهلها من الرضوان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢٩٩١)، قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٧٣).

وأيضاً فإن هذه الحكاية من قائلها الأول مرسلة لا إسناد لها، ولم يأثرها عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، وأحسن أحوالها أن تكون من الإسرائيليات التي إذا لم يعرف أنها حق أو باطل لم يصدق بها ولم يكذب، ومثل هذه لا يعتمد عليها في الدين بحال.

والمعروف عن بعض المشايخ حكاية لو ذكرها أبو القاسم لكان احتجاجه بها أمثل، وهو ما أن الإمام أحمد ذكر له عن السري السقطي أنه ذكر عن بكر بن حبيش العابد أنه قال: لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر: فقال أحمد: هذا كفر.

وهذا الكلام لم يقله بكر بن حبيش والسري ونحوه من العباد إلا ليبينوا الفرق بين من لا يفعل إلا ما أمر به، ومن يعتمد بما لم يؤمر به من البدع، وهذا مقصود صحيح فإن العمل الصالح المقبول هو ما أمر الله به ورسوله، دون ما شرع من الدين الذي لم يأذن به الله، لكن كثير من العباد لا يحفظ الأحاديث ولا أسانيدها، فكثيرا ما يغلطون في إسناد الحديث أو متنه، ولهذا قال يحيى بن سعيد: ما رأينا الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث، يعني على سبيل الخطأ.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: يعني العبّاد الذين ليس لهم عناية بالروايات، يقع منهم الغلط بسبب قلة معرفتهم بالأحاديث وغلبة العبادة عليهم وعدم اشتغالهم بالأسانيد، تقع منهم الأخطاء والأغلاط في الروايات، لأن الحديث له رجال وله قوم يُعنون به ويعرفون طرقه، فلهذا يقع منهم الخطأ ويسمى كذباً لأنه خلاف الواقع، والكذب تارة بتعمد فيكون صاحبه كذاباً آثماً، وتارة يقع من غير تعمد، لكن للجهل وعدم البصيرة بالروايات، فيكون كذباً من حيث أنه مخالف

للواقع، مثل ما جاء في الحديث: «كذب أبو السنابل»[١] لما قال في حق المرأة الحامل أنك لن تخرجي من العدة حتى تمضي عليك أربعة أشهر وعشر «كذب» يعني قال خطأ غلطاً مخالفاً للواقع مخالفاً للشرع، لأن الحامل عدتها وضع الحمل .أهـ

وقال أيوب السختياني: إن من جيراني لمن أرجو بركة دعائهم في السحر، ولو شهد عندي على جزرة بقل لما قبلت شهادته.

ولهذا يميزون في أهل الخير والزهد والعبادة بين ثابت البناني والفضيل بن عياض ونحوهما، وبين مالك بن دينار وفرقد السبخي وحبيب العجمي وطبقتهم، وكل هؤلاء أهل خير وفضل ودين، والطبقة الأولى يدخل حديثها في الصحيح.

وقال مالك بن أنس رحمه الله: أدركت في هذا المسجد ثمانين رجلا لهم خير وفضل وصلاح كل يقول حدثني أبي عن جدي عن النبي ﷺ لم نأخذ عن أحد منهم شيئا، وكان ابن شهاب يأتينا وهو شاب فنزدحم على بابه لأنه كان يعرف هذا الشأن.

هذا وابن شهاب كان فيه من مداخلة الملوك وقبول جوائزهم ما لا يحبه أهل الزهد والنسك، والله يختص كل قوم بما يختاره، فأولئك النساك رووا هذا الأثر ليفرقوا بين العمل المشروع المأمور به وما ليس بمشروع مأمور به.

وجاء في لفظ: لما خلق الله الحروف فاحتج بهذا من يقول من الجهمية إن القرآن أو حروفه مخلوقة، فقال أحمد هذا كفر، لأن فيه القول بخلق ما هو من

(١) رواه أحمد في المسند ٩/ ٣٨٨ (٤٣٦١) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

القرآن ، وذلك الأثر لا يعرف له إسناد ولا يعرف قائله ولا ناقله ، ولا يؤثر عن صاحب ولا تابع ، ولعله من الإسرائيليات ، فرد الاحتجاج به أسهل الأمور .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا من أسباب ما ذكر عنهم ، أنهم يروون الغث السمين ، ولا بصيرة عندهم ، فالعبّاد والزهاد الذين لم يعنوا بالحديث ولم يعرفوا طرقه ولم يعرفوا الرجال تقع منهم الأخطاء والأغلاط فيما ينقلون .اهـ

وأما ما تضمنه من الفرق بين العمل الذي يؤمر به والذي لا يؤمر به ، فهذا الفرق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، متى كان في الأحاديث التي لا تعرف صحتها والأحاديث الضعيفة ما يوافق أصول الإسلام وما لا يوافق قبل الحق وترك الباطل .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني أن هذا أصل وقاعدة شرعية : أن العبادات بالأوامر لا بالآراء ، فما جاء به الأمر فهو عبادة وما لم يأت به شيء فليس بعبادة ، إنما تتلقى العبادات من طريق الأوامر ، من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، أما عن الآراء والاستحسانات فلا ، لأن الله قال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (الشورى : ٢١) فعابهم على هذا وأنكر عليهم ، وقال ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[(١)] فالعبّاد والزهاد الذين ليس لهم بصيرة قد يتعبدون بأشياء ما لها أساس ، وقد يقولون أشياء ويتكلمون بأشياء ما لها أساس لعدم البصيرة ، فلا تقبل منهم ولا يلتفت إليها منهم حتى توجد بالأدلة الصحيحة .اهـ

(١) رواه مسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية / باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

فنقبل من هذه الحكاية ما وافق الأصول، وهو الذي أخذه بكر بن حبيش والسري وغيرهما، ونرد منها ما خالف الأصول، وهو الذي رده الإمام أحمد وغيره من أئمة الهدى، مع أن أحمد من أعظم الناس قولا لما قصده السري من الفرق بين المأمور وغير المأمور، وهو من أعظم الناس أمرا بالعمل المشروع ونهيا عن غير المشروع.

ثم حكاية السري لعله لم يرد بالحروف إلا المداد الذي تكتب به الحروف فسجدت، فإنه قال: فسجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر، وهذا إشارة إلى انتصاب الألف وانخفاض غيرها، وهذا صورة ما يكتب به من المداد، وأما الحروف التي أنزلها الله في كتابه فلم يختلف حكمها باختلاف ما يكتب به من صورة المداد.

ولعل هذا أيضا هو الذي قصده ابن عطاء في حكاية ابن عطاء - إن كان لها أصل - فإنه قد ذكر ابن قتيبة في المعارف أن الله لما أهبط آدم أنزل عليه حروف المعجم في إحدى وعشرين صحيفة، فيكون ناقلها قصد أن آدم اختص من بين الملائكة بأن علم الكتابة بهذه الحروف، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ (العلق).

والملائكة وإن كان الله قد وصفهم بأنهم يكتبون، كما قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ (الانفطار) وقال: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝﴾ (الزخرف)، فلا يجب أن تكون حروفهم المكتوبة مثل الحروف التي يكتبها الآدميون، إذ يكون الذين قالوا إنه خلق الحروف أرادوا أنه خلق أصوات العباد، فلا ريب أن الله خالق أصوات العباد وأفعالهم، لكن هذا لا

يقتضي أن حروف القرآن أو مطلق الحروف مخلوقة ، بل يجب التفريق بين ما هو من صفات الله تعالى وما هو من خصائص المخلوقين .

والتأويل من المداد ليس هو الظاهر من الحكاية ، فإنه قال : فجرت الأحرف على لسان آدم ، ولا هو أيضا بذاك ، ولكن ذكر أمثال هذه الحكايات لبيان المعتقدات نوع من ركوب الجهالات والضلالات ، فإذا تبين أنها لا تصح لا من ناقلها ولا من قائلها ، وأنها مشتملة على أنواع من الباطل ؛ كان بعد ذلك ذكر هذه التأويلات أحسن مما يذكره المحتجون بها من تأويلاتهم لنصوص الكتاب والسنة الصحيحات الصريحات .

فتبين بذلك أن أهل السنة في كل مقام أصح نقلا وعقلا من غيرهم ، لأن ذلك من تمام ظهور ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ظهوره بالحجة وظهوره بالقدرة .

ثم إن هذه الحكاية المعروفة عن السري لما بلغت الإمام أحمد أنكرها غاية الإنكار ، حتى توقف عن مدح السري ، مع ما كان يذكر من فضله وورعه ، ونهى عن أن يذكر عنه مدحه حتى يظهر خطأه في ذلك ، مع أن السري اعترف بأنه لم يقلها ذاكرا وإنما قالها آثرا .

فذكر الخلال في كتاب السنة : ذكر السري وما أحدث : أخبرني أحمد بن محمد عن مطر وزكريا بن يحيى أن أبا طالب حدثهم أنه قال لأبي عبد الله : جاءني كتاب من طرسوس أن سريا قال : لما خلق الله الحروف سجدت إلا الألف فإنه قال لا أسجد حتى أومر ، فقال : هذا الكفر .

قال الخلال : فأخبرنا أبو بكر المروذي قال : جاءني كتاب من الثغر في أمر

رجل تكلم بكلام وعرضته على أبي عبد الله فيه : لما خلق الله الحروف سجدت إلا الألف ، فغضب أبو عبد الله غضبا شديدا حتى قال : هذا كلام الزنادقة ، ويله هذا جهمي ، وكان في الكتاب الذي كتب به أن هذا الرجل قال : لو أن غلاما من غلمان حارث يعني المحاسبي لخبّر أهل طرطوس ، فقال أبو عبد الله : أشد ما ها هنا قوله لو أن غلاما من غلمان حارث لخبّر أهل طرطوس ، ما البلية إلا حارث ، احذروا عنه أشد التحذير .

قال أبو بكر المروذي : جاءني حسن بن البزاز برقعة فيها كلام هذا الرجل بخطه ، قال إن هذا خطه فيها مكتوب : إنني إنما حكيت عن غيري ، فلما قرأتها قلت لحسن : قد أقر ، قال إني أقر قلت : فقوله حكيت عن غيري قلت لأبي عبدالله : بأي شيء ترى؟ قال دعه حتى يقر . وبلغ أبا عبد الله عن حسن أنه قال بعد مجيئه إلى أبي عبد الله بالرقعة ليس له عند أبي عبد الله إلا خيرا فقال اذهب إليه فقل له قد علمت ما في قلبي حتى على مثل هذا ، قل له لا تحك عني شيئا مرة ، فلقيت حسنا فقال ليس أحكي عنه شيئا .

ثم أيضا قول القائل : لما خلق الله الأحرف جعلها سرا له ، فلما خلق آدم عليه السلام بث ذلك السر فيه ولم يبث ذلك السر في أحد من ملائكته ، فساده ظاهر من وجوه :

أحدها : أن فيه أنه خلق الحروف قبل خلق آدم ، وهذا لم يقله أحد من المسلمين ، فإن الذين يقولون بخلقها يقولون إنما يخلقها إذا أراد إنزال كلامه على رسوله ، فيخلق حروفا في الهواء يسمعها جبريل أو غيره ، ينزل بها ويفهمه المعنى الذي أراده بتلك الحروف ، فيكون جبريل أول من تكلم بتلك الحروف وعبر بها عن مراد الله ، وهو المعنى القائم بنفسه كما يعبّر عن الأخرس من فهم

معناه بإشارته، فأما أن يقال: خلقت الحروف قبل خلق آدم عليه السلام ولم تخاطب بها الملائكة؛ فهذا لم يقله أحد.

الثاني: أنه جعل الحروف لآدم دون الملائكة، ومن المعلوم أن الذي نزل بالقرآن وغيره من كلام الله هم الملائكة، وهم تلقوا الحروف عن الله قبل أن يتلقاها الأنبياء، فكيف يسلبون ذلك؟!

الثالث: أن قوله جعلها سرا له كلام لا حاصل له، لأن السر ما أسره الله فأخفاه عن عباده أو بعضهم أو ما تضمن ما أسره، وهذه الحروف أظهر شيء لبني آدم، حتى أن النطق هو أظهر صفاته.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الذاريات).

وإن قيل إن الحروف تتضمن من المعاني ما أسره الله؛ فلا ريب أنها تتضمن كل ما يعبر عنه من المعاني سرها وجهرها، فالاختصاص للسر بها.

قال أبو القاسم: قال سهل بن عبد الله: إن الحروف لسان فعل لا لسان ذات، لأنها فعل في مفعول. قال: وهذا أيضا صريح لأن الحروف مخلوقة.

قلت: هذا الكلام ليس له إسناد عن سهل، وكلام سهل بن عبد الله وأصحابه في السنة والصفات والقرآن أشهر من أن يذكر هنا، وسهل من أعظم الناس قولا بأن القرآن كله حروف ومعانيه غير مخلوقة، بل صاحبه أبو الحسن ابن سالم أخبر الناس بقوله، قد عرف قوله وقول أصحابه في ذلك، وقد ذكر أبوبكر بن إسحاق الكلاباذي في التعرف في مذاهب التصوف عن الحارث المحاسبي وأبي الحسن بن سالم أنهما كانا يقولان: إن الله يتكلم بصوت،

ومذهب السالمية أصحاب سهل ظاهر في ذلك، فلا يترك هذا الأمر المشهور المعروف الظاهر لحكاية مرسلة لا إسناد لها.

ثم هذا الكلام في ظاهره من قلة المعرفة ما لا يصلح أن يضاف إلى سهل بن عبد الله، لأن قوله: لأنها فعل في مفعول، إن أراد فعلا قائما بذات الله، كما يقال تكلم وخلق ورزق، عند الجمهور الذين يقولون هذه أمور قائمة بذاته، فقوله بعد ذلك في مفعول لا يصلح فإنه فعل قائم بذات الله ليس في مفعول.

وإن أراد بها فعل منفصل عن الله؛ فكل منفصل عن الله فهو مفعول، مثل قول القائل مفعول في مفعول وفعل في فعل، وهذا لا يصلح أن يحتج به، لأنه متى علم أنها مفعولة وأنها فعل بمعنى مفعول، فسواء كانت في نظيرها أو لم تكن هي مخلوقة.

وإن قيل إنه أراد أنها فعل في الآدمي الذي هو مفعول؛ فيقال كلاهما مفعول، وأيضا فهذا إنما يدل على أن أصوات العباد ومدادهم مخلوق، لا يدل على أن الحروف التي هي من كلام الله مخلوقة.

قال أبو القاسم: وقال الجنيد في جوابات مسائل الشاميين: التوكل عمل القلب والتوحيد قول القلب.

قال أبو القاسم: وهذا قول أهل الأصول، إن الكلام هو المعنى الذي قام بالقلب من معنى الأمر والنهي والخبر والاستخبار.

قلت: هذه المقالة لما أسند موضعها من كلام أبي القاسم الجنيد لم يكن فيها حجة لمطلوبه، فالمذكور عن المشايخ الكبار ليس فيه صحيح صريح لمطلوبه الذي يخالف به الأحاديث الصحيحة وإجماع السلف،

بل إما أن يفقد فيه الوصفان أو أحدهما ، وذلك أن الجنيد رحمه الله ذكر أن التوحيد قول القلب ، فأضاف القول إلى القلب ، وهذا مما لا نزاع فيه أن القول والحديث ونحوهما مع التقييد يضاف إلى النفس والقلب .

كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل»[1] .

وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف :٥٣) وقال أبو الدرداء : ليحذر أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر .

وقال الحسن البصري : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لعلها يعودون يعني يكررون ، يعني يذكّرون بها ، تارة يذكّرون وتارة يفكرون ، يفكر ويذكر حتى يستقيم له الطريق ، فيفكر في الطريق الحق ليأخذ به ويذكر به ، ويفكر في طريق الباطل ليحذره ويحذره غيره ، فتارة مفكراً وتارة مذكراً .اهـ

ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار فنطقت بالعلم وأورثت الحكمة .

فوصف القلب والنفس بأنه يقول ويأمر ويتحدث وينطق ونحو ذلك ، يستعمل مع التقييد باتفاق المسلمين ، لكن النزاع في شيئين :

(١) رواه البخاري (٢٥٢٨) كتاب العتق/ باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ولا عتاقة إلا لوجه الله تعالى ، ومسلم (١٢٧) كتاب الإيمان/ باب تجاوز الله تعالى عن حديث النفس ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أحدهما : أن الكلام على الإطلاق من غير إضافة إلى نفس وقلب أو نحو ذلك ، هل هو اسم لمجرد المعنى أو لمجرد الحروف أو لمجموع المعاني والحروف؟

هذا فيه ثلاثة أقوال : فالقشيري وطائفة يقولون بالأول ، وطائفة أخرى من أهل الكلام والفقه والعربية تقول بالثاني ، وأما سلف الأمة وأئمتها فإنهم يقولون بالوسط وهو الثالث ، أن الكلام عند الإطلاق يتناول الحروف والمعاني جميعا .

وقول النبي ﷺ : «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به**»[1] يفرق بين الحديث المقيد بالنفس وبين الكلام المطلق .

الثاني : أن معنى الكلام الذي تطابقه العبارة هل هو من جنس العلوم والإرادات أم ليس من هذا الأجنس ، بل هو حقيقة أخرى؟ وهذا فيه نزاع بين الطوائف المنتسبة إلى السنة والتي ليست منتسبة إليها ، ففي هؤلاء وهؤلاء من يقول بهذا ، وفي هؤلاء وهؤلاء من يقول بهذا .

فتبين أن ما ذكره الجنيد من قول القلب ليس هو قول من يقول إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس .

وأما قول أبي القاسم إن هذا قول أهل الأصول بالعموم ، فلا خلاف بين الناس أن أول من أحدث هذا القول في الإسلام أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري ، واتبعه على ذلك أبو الحسن الأشعري ومن نصر طريقتهما ، وكانا يخالفان المعتزلة ويوافقان أهل السنة في جمل أصول السنة ، ولكن لتقصيرهما في علم السنة وتسليمهما للمعتزلة أصولا فاسدة ؛ صار في مواضع

---

(١) رواه البخاري (٢٥٢٨) كتاب العتق/ باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ولا عتاقة إلا لوجه الله تعالى ، ومسلم (١٢٧) كتاب الإيمان/ باب تجاوز الله تعالى عن حديث النفس ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

من قوليهما مواضع فيها من قول المعتزلة ما خالفا به السنة ، وإن كانا لم يوافقا المعتزلة مطلقا .

وهذه المسألة مسألة حد الكلام ، قد أنكرها عليهما جميع طوائف المسلمين ، حتى الفقهاء ، والأصوليون والمصنفون في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، يذكرون الكلام وأنواعه من الأمر والنهي والخبر وما فيه من العام والخاص ، وأن الصيغة داخلة في مسمى ذلك عند جميع فرق الأمة أصوليها وفقيهها ومحدثها وصوفيها إلا عند هؤلاء ، فكيف يضاف هذا القول إلى أهل الأصول عموما وإطلاقا .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أن الكلام عند أهل السنة يشمل اللفظ والمعنى ، وليس خاصاً بالمعنى الذي يقوم بالنفس ، وليس خاصاً بالألفاظ التي جاءت خالية ، بل الكلام عند أهل السنة والجماعة يشمل المعنى واللفظ .

وقول ابن كلاب وقول الأشعري أنه هو المعنى القائم بالله ، وأن هذه الألفاظ حكاية وعبارة عن كلام الله ؛ رد عليهم أهل السنة وغلطوهم ، بل الصواب أن الموجود هو كلام الله حروفه ومعانيه ، القرآن والتوراة والإنجيل وجميع كتب الله كلها كلامه حروفها ومعانيها ، لا الحروف وحدها ولا المعاني وحدها ، بل الحروف والمعاني هي كلام الله سبحانه .

وهكذا إذا قلت لزيد : قم أو اجلس أو افعل كذا وكذا ، فكلامك يشمل اللفظ والمعنى جميعاً ، لا يختص بالمعنى ولا يختص باللفظ ، فالكلام عند أهل اللغة العربية التي نطق بها القرآن يشمل المعنى ويشمل اللفظ ، فقول الكلابية والأشعرية أنه يختص بالمعنى القائم بالله ، وأن هذه الألفاظ الموجودة حكاية

وعبارة وأنها مخلوقة؛ غلط، فخلطوا بين قول الجهمية، وبين أصل ما قاله أهل السنة في أن المعنى من الكلام.

والصواب الجمع بينهما، وأن الكلام يشملهما جميعاً، يشمل المعنى والحروف، فهما الكلام الحرف والمعنى.

والصيغة اللفظ، الصيغة الألفاظ.

وقد رد أبو العباس رحمه الله في الواسطية ـ على اختصارها ـ هذا القول، وقال لا يجوز أن يكون القرآن عبارة عن كلام الله ولا حكاية، وقصده الرد على ابن كلاب والأشعري، في الواسطية على اختصارها. اهـ.

ثم من العجب قول أبي القاسم عن أهل الأصول هو المعنى الذي قام بالقلب من معنى الأمر والنهي والخبر والاستخبار، ومعلوم أن الأمر والنهي والخبر والاستخبار أنواع الكلام، والجنس ينقسم إلى أنواعه، واسمه صادق على كل نوع من الأنواع، كما إذا قسمنا الحيوان إلى طير ودواب يعمهما ويصدق اسمه على كل منهما، فيجب أن يكون حد الكلام واسمه صادقاً على أنواعه من الأمر والنهي والخبر والاستخبار، فإن كان الكلام ليس إلا مجرد المعنى، فهذه الأنواع ليست إلا مجرد معنى، فإذا قال إن الكلام هو المعنى الذي قام بالقلب من معنى الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ كان قد جعل المعنى الذي للأمر غير الأمر، وهذا يطابق قول أهل الجماعة لا يطابق قوله، بل كان حقه أن يقول المعنى الذي قام بالقلب من الأمر والنهي لا من معنى الأمر والنهي، لكنه تكلم في الأمر والنهي والخبر والاستخبار.

فأما في الكلام فتكلم فيه بما تلقاه عن أولئك المتكلمة الذين أحسنوا في

مواضع كثيرة وردوا بها على المعتزلة وغيرهم، وأساءوا في مواضع خالفوا بها السنة، وإن كانوا متأولين، والله يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ (الحشر).

فصل

في الحديث الذي في الصحيحين عن جويرية أم المؤمنين لما خرج النبي ﷺ من عندها ثم رجع إليها فوجدها تسبح بحصى فقال لها ما زلت منذ اليوم قالت نعم قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلتيهن منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله عدد خلقه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله رضا نفسه سبحان الله مداد كلماته»(١).

فيه فوائد ترد على الجهمية والمتفلسفة:

منها: قوله: «زنة عرشه» وذلك في معرض التعظيم لوزن العرش وأنه أعظم المخلوقات وزنا، وذلك يدل على ثقله، كما جاءت بعض الأحاديث بثقله، خلافا لما يقوله من يقوله من المتفلسفة إن الأفلاك وما فوقها ليس بثقيل ولا خفيف، بناء على اصطلاح لهم الثقيل ما تحرك إلى السفل، والخفيف ما تحرك إلى فوق، وإن الأفلاك لا تهبط ولا تصعد، وذلك أن الله أمسكها بقدرته كما أمسك الأرض في مقرها، مع العلم بأن مقر الأجسام أمر عدمي ليس فيه ما يوجب اختصاص شيء به دون الآخر.

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب التسبيح أول النهار وعند النوم، من حديث جويرية رضي الله عنها.

ومنها : قوله : «رضا نفسه» فيه إثبات نفسه وإثبات رضاه ، وأن رضاه ليس هو مجرد إرادته ، فإنه قد قال «عدد خلقه» والمخلوق هو الذي أراده وشاءه ، فلو كان رضاه هو إرادته لكان مراده موجودا فإن مراده قد وجد قبل هذا الكلام ، فإنه ما شاء الله كان ، وهذا الكلام يقتضي أن رضا نفسه أعظم من ذلك .

ومن ذلك : أنه جمع بين رضا نفسه ومداد كلماته ، فأثبت له الرضا والكلام ، والرضا مستلزم الإرادة ، وإن لم يكن هو عين الإرادة ، ففيه إثبات كلامه ورضاه الذي يتضمن محبته ومشيئته .

وهاتان الصفتان هما اللتان أنكرهما الجعد بن درهم أول الجهمية ، لما زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا إذ لا محبة له ولا رضا ، ولم يكلم موسى تكليما ، وعند ذلك نفت المعتزلة أن يكون له في نفسه إرادة أو كلام ، ولم يجعلوا ذلك إلا مخلوقا في غيره .

وتقرب منهم طائفة من الأشعرية فأثبتت الإرادة ، ولم يجعلوا المحبة والرضا صفة إلا الإرادة ، وأثبتت الكلام ولم يجعلوه إلا معنى واحدا قائما بذاته ، فوافقوا أهل الإثبات في بعض الحق ، والجهمية في بعض الباطل .

قال سماحة الشيخ : والمعنى في هذا أن أهل السنة والجماعة تلقوا النصوص كما جاءت ، وأثبتوا ما دلت عليه فلم يحيدوا عنها ، فأثبتوا الإرادة : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ (البقرة :١٨٥) ، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ (الأنعام :١٢٥) ، وأثبتوا الرضا كما هنا «رضا نفسه» وكما في الحديث الآخر : «أعوذ برضاك من سخطك»[1] وفي القرآن الكريم :

(١) رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ (المجادلة :٢٢) في آيات ، وأثبتوا الكلام وأنه كلام يسمع ويتلى ويكتب ، بخلاف الجهمية فإنهم نفوا الصفات ، وبخلاف المعتزلة كذلك ، وبخلاف الأشعرية والكلابية فإنهم أثبتوا الإرادة وأثبتوا جنس الكلام ، بل قالوا إنه معنى قائم بالله ، وما يوجد من الكلام فهو تعبير عن ذلك وحكاية ، فجعلوه مخلوقاً ، وهذا أيضاً باطل ، فيقولون هناك سبع صفات مشهورة ، وبعضهم زاد عليها بعض الشيء ، أما أهل السنة والجماعة فلم يحددوا عدداً معيناً ، بل كل ما جاء في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته ، فإن أهل السنة والجماعة يثبتونه لله على الوجه اللائق بالله ، بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

والضابط في هذا ما صحت به السنة أو جاء به الكتاب العزيز فقط ، ولا يحدون ذلك بحد ، لا بعشرين ولا بمائة ولا بأكثر ولا بأقل ، بل كل ما جاء في القرآن العظيم من صفات الله وأسمائه فهو حق ، ومعانيها قائمة بالله على الوجه اللائق بالله ، كالعزيز والحكيم والرءوف والقدير والسميع والبصير وغير ذلك ، وهكذا ما ثبت في السنة من أسماء الله وصفاته كله حق .أهـ

ومن ذلك أنه انتقل من صفة المخلوق إلى صفة الخالق ، فذكر عدد المخلوقات وذكر وزن سقفها وأعظمها كما في الحديث الصحيح قال النبي ﷺ : «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنها وسط الجنة وأعلى الجنة وسقفها عرش الرحمن»[(١)] .

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير/ باب درجات المجاهدين في سبيل الله ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فصل يتعلق بالسماع

قال أبو القاسم القشيري في باب السماع قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر).

قال أبو القاسم: اللام في قوله (القول) تقتضي التعميم والاستغراق، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الأحسن.

قلت: وهذا يذكره طائفة منهم أبو عبد الرحمن السلمي وغيره، وهو غلط باتفاق الأمة وأئمتها لوجوه:

أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر باستماع كل قول بإجماع المسلمين حتى يقال اللام للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يكره، كما قال النبي ﷺ: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: الحديث صحيح رواه البخاري في صحيحه «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة» وهو خاص في بابه، فهؤلاء الصوفية وأهل السماع يقولون إن القول يعم، يعم الأغاني والملاهي وأشعارهم الخبيثة، حتى يدعوا الناس إلى استماع ما يقولون من رقص وأغاني وشعر باطل، وهم بزعمهم يستمعون القول، والمؤلف يرد عليهم رحمه الله. أهـ

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا

(١) رواه البخاري (٧٠٤٢) كتاب التعبير/ باب من كذب في حُلُمه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأنعام).

فقد أمر سبحانه بالإعراض عن كلام الخائضين في آياته ونهى عن القعود معهم ، فكيف يكون استماع كل قول محموداً؟!

وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ (النساء : ١٤٠)

فجعل الله المستمع لهذا الحديث مثل قائله ، فكيف يمدح كل مستمع كل قول .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (المؤمنون) .

وقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الفرقان) .

وروي أن ابن مسعود سمع صوت لهو فأعرض عنه فقال النبي ﷺ : «إن كان ابن مسعود لكريماً» (١).

---

(١) رواه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣١٦ تفسير قوله تعالى : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) .

فإذا كان الله تعالى قد مدح وأثنى على من أعرض عن اللغو ومر به كريماً لم يستمعه ؛ كيف يكون استماع كل قول ممدوحاً؟

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء) فقد أخبر أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده ، ونهاه أن يقول ما ليس له به علم .

وإذا كان السمع والبصر والفؤاد كل ذلك منقسم إلى ما يؤمر به وإلى ما ينهى عنه والعبد مسئول عن ذلك كله ، كيف يجوز أن يقال : كل قول في العالم كان فالعبد محمود على استماعه ، هذا بمنزلة أن يقال : كل مرئي في العالم فالعبد ممدوح على النظر إليه .

ولهذا دخل الشيطان من هذين البابين على كثير من النساك ، فتوسعوا في النظر إلى الصور المنهي عن النظر إليها ، وفي استماع الأقوال والأصوات التي نهوا عن استماعها ، ولم يكتف الشيطان بذلك ، حتى زين لهم أن جعلوا ما نهوا عنه عبادة وقربة وطاعة ، فلم يحرموا ما حرم الله ورسوله ، ولم يدينوا دين الحق

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعنوا لم يكتفوا بأنه مباح فيستمعوا ، بل جعلوه قربة وطاعة ، يستمعون للأغاني والملاهي والخوض الباطل ، فهذا وقع فيه كثير من أهل التصوف لجهلهم وقلة علمهم ، نسأل الله العافية .أهـ.

كما حكي عن أبي سعيد الخراز أنه قال رأيت إبليس في النوم وهو يمر عني ناحية ، فقلت له تعال مالك؟ فقال : بقي لي فيكم لطيفة : السماع وصحبة الأحداث .

وأصحاب ذلك ـ وإن كان فيهم من ولاية الله وتقواهم ومحبته والقرب إليه

ما فاقوا به على من لم يساوهم في مقامهم ـ فليسوا في ذلك بأعظم من أكابر السلف المقتتلين في الفتنة ، والسلف المستحلين لطائفة من الأشربة المسكرة ، والمستحلين لربا الفضل والمتعة ، والمستحلين للحشوش ، كما قال عبد الله بن المبارك : رب رجل في الإسلام له قدم حسن وآثار صالحة كانت منه الهفوة والزلة لا يقتدى به في هفوته وزلته .

والغلط يقع تارة في استحلال المحرم بالتأويل ، وفي ترك الواجب بالتأويل ، وفي جعل المحرم عبادة بالتأويل كالمقتتلين في الفتنة ، حيث رأوا ذلك واجبا ومستحبا ، وكما قال طائفة مثل عبد الله بن داود الحربي وغيره : إن شرب النبيذ المختلف فيه أفضل من تركه .

فالتأويل يتناول الأصناف الخمسة ، فيجعل الواجب مستحبا ومباحا ومكروها ومحرما ، ويجعل المحرم مكروها ومباحا ومستحبا وواجبا ، وهكذا في سائرها .

ومما يعتبر به أن النساك وأهل العبادة والإرادة توسعوا في السمع والبصر ، وتوسع العلماء وأهل الكلام والنظر في الكلام والنظر بالقلب ، حتى صار لهؤلاء الكلام المحدث ، ولهؤلاء السماع المحدث هؤلاء في الحروف وهؤلاء في الصوت ، وتجد أهل السماع كثيري الإنكار على أهل الكلام ، كما صنف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي مصنفا في ذم الكلام وأهله ، وهما من أئمة أهل السماع ، وتجد أهل العلم والكلام مبالغين في ذم أهل السماع ، كما تجده في كلام أبي بكر بن فورك ، وكلام المتكلمين في ذم السماع وأهله والصوفية ما لا يحصى كثرة .

وذلك أن هؤلاء فيهم انحراف يشبه انحراف اليهود أهل العلم والكلام ، وهؤلاء فيهم انحراف يشبه انحراف النصارى أهل العبادة والإرادة .

وقد قال الله في الطائفتين : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (البقرة) .

ولهذا تجد تنافرا بين الفقهاء والصوفية ، وبين العلماء والفقراء من هذا الوجه .

والصواب أن يحمد من حال كل قوم ما حمده الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة ، ويذم من حال كل قوم ما ذمه الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة ، ويجتهد المسلم في تحقيق قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الفاتحة) ، قال النبي ﷺ : «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون»[(١)] وقد تكلمنا على بعض ما يتعلق بهذه الأمور في غير هذا الموضع في مواضع .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والخلاصة من هذا الوجه : أن الواجب على طالب العلم أن يميز بين الخبيث والطيب والحق والباطل والهدى والضلال ، فمن وُجد منه ضلال أنكر عليه وحُذر من اتباعه فيه ، ومن وُجد منه حق أثني عليه بالحق الذي وجد منه ، وجاز موافقته عليه ، ولا يجمع له الذنب أو المدح ، بل يفصَّل ، فيقال أصاب في هذا وأخطأ في هذا ، حتى يكون المستمعون والمقتدون على بصيرة ، فإن مدح من له أخطاء معروفة وانحراف في الدين بأنه أصاب في

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٣-٢٩٥٤) كتاب التفسير/ باب ومن سورة فاتحة الكتاب ، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ، وقال الشيخ الألباني رحمه الله : صحيح ، رواه الترمذي وغيره ، وصححه ابن حبان (١٧١٥-٢٢٧٩) .

كذا قد يوهم الغير أنه مصيب دائماً ، وذمه وعدم انصافه فيما أصاب فيه كذلك ، بل عند ترجمته وعند الكلام في حاله يبين ما أصاب فيه وأنه أصاب في كذا وأخطأ في كذا ، فلا يجوز اتباعه فيما أخطأ فيه ، ولا يجوز غمطه فيما أصاب فيه .أهـ

الوجه الثاني أن المراد بالقول في هذا الموضع القرآن ، كما جاء ذلك في قوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص) ، فإن القول الذي أمروا بتدبره هو الذي أمروا باستماعه ، والتدبر بالنظر والاستدلال والاعتبار والاستماع ، فمن أمرنا باستماع كل قول أو باستماع القول الذي لم يشرع استماعه ؛ فهو بمنزلة من أمر بتدبر كل قول والنظر فيه ، أو بالتدبر للكلام الذي لم يشرع تدبره والنظر فيه ، فالمنحرفون في النظر والاستدلال بمثل هذه الأقوال من أهل الكلام المبتدع ، وذلك أن اللام في لغة العرب هي للتعريف ، فتنصرف إلى المعروف عند المتكلم والمخاطب ، وهي تعم جميع المعروف ، فاللام في (القول) تقتضي التعميم والاستغراق ، لكن عموم ما عرفته وهو القول المعهود المعروف بين المخاطب والمخاطَب ، ومعلوم أن ذلك هو القول الذي أثنى الله عليه وأمرنا باستماعه والتدبر له واتباعه ، فإنه قال في أول هذه السورة ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ (الزمر) ، فذكر في السورة كلامه ودينه الكلم الطيب والعمل الصالح .

وخير الكلام كلام الله ، وأصل العمل الصالح عبادة الله وحده لا شريك

له ، كما في قوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ ﴾ (الزمر) .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر) .

فأثنى على أهل السماع والوجد للحديث الذي نزله وهو أحسن الحديث ، ولم يثن على مطلق الحديث ومستمعه ، بل تضمن السياق الثناء على أهل ذكره والاستماع لحديثه ، كما جمع بينهما في قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (الحديد : ١٦) ، وفي قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ﴾ (الأنفال) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ۝ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ (الأعراف: ٢٠٤-٢٠٥).

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝﴾ (الزمر)، فذكر القرآن وبين أنه قدّر فيه من جميع المقاييس والأمثال المضروبة لأجل التذكر، فدعا هنا إلى التذكير والاعتبار بما فيه من الأمثال، وذلك يتضمن النظر والاستدلال والكلام المشروع، كما أنه في الآية الأولى أثنى على أهل السماع له والوجد، وذلك يتضمن السماع والوجد المشروع.

ثم قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝﴾ (الزمر).

ذكر البخاري في صحيحه تفسير مجاهد وهو أصح تفسير التابعين قال: والذي جاء بالصدق القرآن، وصدق به المؤمن، يجيء يوم القيامة يقول هذا الذي أعطيتني عملت بما فيه، فذكر الصدق والمصدق به مثنيا عليه، وذكر الكاذب والمكذب للحق، وهما نوعان من القول ملعونان هما وأهلها، فكيف يكون مثنيا على من استمعها؟

ولا ريب أن البدعة الكلامية والسماعية المخالفة للكتاب والسنة تتضمن الكذب على الله والتكذيب بالحق، كالجهمية الذين يصفون الله بخلاف ما وصف به نفسه فيفترون عليه الكذب، أو يروون في ذلك آثار مضافة إلى الله،

أو يضربون مقاييس ويسندونها إلى العلوم الضرورية والمعقول الصحيح الذي هو حق من الله ، وكل ذلك دليل ، ويكذبون بالحق لما جاءه ، وهو ما ورد به الكتاب والسنة من الخبر بالحق والأمثال المضروبة له ، وكذلك كثير من الأشعار التي يسمعها أهل السماع قد يتضمن من الكذب على الله والتكذيب بالحق أنواعاً .

ونفس الانتصار لما خالف الشريعة من السماع وغيره يتضمن الكذب على الله ، مثل أن يقول القائل إن الله أراد بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ ﴾ (الزمر ١٨) مستمع كل قول في العالم ، فهذا كذب على الله ، وإن كان قائله منا ، ولأنهم يكذبون بالحق المخالف لأهوائهم .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ (الزمر) ، فأخبر أنه أنزل القول الذي هو الكتاب بالحق ، وأن المهتدي لنفسه هداه وضلاله على نفسه ، والرسول ليس بوكيل عليهم يحصي أعمالهم ويجزيهم عليها ، بل إلى الله إيابهم وعلى الله حسابهم .

ثم قال : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر :٥٣ ـ ٥٥) ، وهذا الأحسن هنا هو الأحسن الذي في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر :١٨) ، وفي قوله لموسى عن التوراة : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ (الأعراف :١٤٥) كما سنذكره إن شاء الله .

ثم قال : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الزمر) ، مع قوله : ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ (الزمر : ٦٩) .

فجعل الفرقان بين أهل الجنة والنار هؤلاء الآيات التي تلتها الرسل عليهم ، فمن استمعها واتبعها كان من المؤمنين أهل الجنة ، ومن أعرض عنها كان من الكافرين أهل النار .

قال سماحة الشيخ رحمه الله والمعنى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر : ١٨) مثل ما صرح العلماء ، يعني ما أمروا به ، فأحسنه ما أمروا به فيأخذون به ، وما نهوا عنه تركوه واجتنبوه ، فهم - أهل الإيمان - يتدبرون القرآن ويستمعون القول فيأخذون بالأحسن من فعل الأوامر والاعتبار في القصص والأمثال ، وترك النواهي التي نهوا عنها ، هذا هو الأحسن .

بخلاف المنحرف والكافر الزائغ فإنه يترك الأوامر ويأخذ بالنواهي ويتبع هواه ، فيكون قد خالف الأوامر ووقع في الباطل الذي نهاه الله عنه . أهـ

والكتاب هو الذي جعله الله حاكما بين الناس كما قال : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (البقرة ٢١٣) .

فهذا كله إذا تدبره المؤمن علم علما يقينا أن الكتاب والقول والحديث وآيات الله كل ذلك واحد، والمحمودون الذين أثنى الله عليهم هم المتبعون لذلك استماعا وتدبرا وإيمانا وعملا، أما مدح الاستماع لكل قول فهذا لا يقصده عاقل، فضلا عن أن يفسر به كلام الله، وهذا يتوكد بالوجه الثالث: وهو أن الله في كتابه إنما حمد استماع القرآن، وذم المعرضين عن استماعه، وجعلهم أهل الكفر والجهل الصم البكم، فأما مدحه لاستماع كل قول، فهذا شيء لم يذكره الله قط، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ (الأعراف).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال: ٢).

قال سماحة الشيخ: وهذا الذي نبه عليه الشيخ رحمه الله أمر يجب أن ينبه عليه، ولا شك في ذلك إجماعا ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨) ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ يعني القول الذي فيه فائدة، وهو القرآن الكريم والعظة والتبشير وما ينفع الناس، فإذا سمعوا هذا انتفعوا به واتبعوا أحسنه، وليس المراد كل قول، فإن الأقوال فيها المنكر وفيها السب وفيها الشتم وفيها اللعن وفيها الأغاني وفيها أشياء منكرة، فليست داخلة في الآية الكريمة، إنما المراد ما ينفع الناس، وأعظم ذلك القرآن الكريم. اهـ

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا

﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩﴾ (مريم).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ (المائدة: ٨٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ۝ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩ ۝﴾ (الإسراء).

وقال الله تعالى في ذم المعرضين عنه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝﴾ (الأنفال).

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ۝﴾ (الفرقان).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝﴾ (فصلت).

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝﴾ (المدثر).

وقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝﴾ (النجم)، قال غير واحد من السلف: هو الغناء، فقال أسمد لنا أي غنَّ لنا، فذم المعرض عما يجب من استماع المشتغل عنه باستماع الغناء، كما هو فعل كثير من الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وحال كثير من المتنسكة في اعتياضهم بسماع المكاء والتصدية عن سماع قول الله تعالى.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾ (لقمان).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝﴾ (فصلت).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وفي هذه الآيات والكلمات وما جاء في معناها أخذ أهل العلم كراهة الاستماع لما يضر ويصد عن الحق، بل حرموا

ذلك ، ومن ذلك ما في قوله جل وعلا : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ ﴾ (النجم) ، فأنكر عليهم عملهم هذا ، وأن هذا مما لا يليق بالمؤمن ، فكونه يضحك ويعرض ويستمع الغناء والملاهي ، ولا يستمع لكتاب الله عز وجل ، ولهذا قال : السمود إنه الغناء ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ ﴾ (النجم) يعني مغنون ، مشتغلون بالغناء ، ومن هذا الآية الكريمة : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ (لقمان) ، قال أكثر أهل العلم إنه الغناء ، وأنه يورث هذه الآفات المتعددة ، وهو من أسباب الضلال والإضلال ، قد قرأها بعضهم (يَضل) وقرأ آخرون (يُضل) فاستماع الأغاني والتشاغل بها من أسباب الضلال عن الحق والإضلال عنه .

وفوق ذلك من عواقبه الوخيمة أنه يسبب الاستهزاء بآيات الله وبدينه ، فأهل المجون والأغاني يثقل عليهم سماع القرآن وسماع الخير ، ويفضي بهم إلى الاستهزاء .

ثالثاً : أنه أيضاً يفضي إلى التكبر عن سماع القرآن والتثاقل ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ فمن تلذذه بالغناء واعتياده له ينشأ عن هذا تثاقل عن سماع القرآن واستكباره عن سماعه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إلى غير هذا مما يسبب أيضاً سماع ألحان النساء وأصوات النساء وما يفضي إليه من الزنا والفواحش ، إلى غير هذا من الشرور .

وقد يفضي أيضاً إلى اللواط وهو أقبح من الزنا وأخبث ، نسأل الله العافية .أهـ

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ (محمد) .

وقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (يونس) .

وقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (يونس) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ (الأنعام :٢٥) .

الوجه الرابع : أنهم لا يستحسنون استماع كل قول منظوم ومنثور ، بل هم من أعظم الناس كراهة ونفرة لما لا يحبونه من الأقوال منظومها ومنثورها ، ونفورهم عن كثير من الأقوال أعظم من نفور المنازع لهم في سماع المكاء والتصدية عن هذا السماع ، وإذا لم يكن العموم مرادا بالاتفاق كان حمل الآية عليه باطلا .

الوجه الخامس : أنه قال ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ

﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر ١٧ـ١٨) ، فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه ، ومعلوم أن كثيرا من القول ليس فيه حسن فضلا عن أن يكون فيه أحسن ، بل فيه كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ (العنكبوت : ٦٨) .

وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ (الأعراف : ١٥٢) ، وقال : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (الحجرات :١٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ (الحجرات : ١١) ، وقال : ﴿ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ (المجادلة : ٩) ، وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء : ٨١) ، وهو قد استدل بقوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر : ١٨) ، على العموم ، وهو حجة على صدق ذلك كما تقدم ، وقوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ كقوله في هذه السورة : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر : ٥٥) ، فهذه الكلمة مثل هذه الكلمة سواء بسواء ، وهذا من معاني تشابه القرآن كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ (الزمر ٢٣)

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومعنى التشابه هنا هو التماثل وكونه يفسر بعضه بعضاً ويوضح بعضه بعضاً ويدل بعضه على بعض ، فما أُجمل في مكان وضح في مكان ، وما اختصر في مكان بسط في مكان ، فأوضح بعضه بعضاً : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ (الزمر :٢٣) فهو أحسن الحديث وهو أحسن القصص ، يقول الله : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (يوسف :٣) وهو أصدق القول ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ (الزمر :٢٣) يعني يثنى ويكرر في الصلوات وفي الختمات ، بخلاف التشابه في قوله جل وعلا : ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ (آل عمران :٧) فهو معنى آخر ، يعني ﴿أخر﴾ فيها بعض الاشتباه ، فتفسر في المحكم ويدل عليها المحكم وهو الشيء الواضح ، فيرد المشتبه الذي قد يخفى معناه إلى الآيات المحكمات الواضحات المعنى ، فيفسر هذا بهذا .

فإذا علم المؤمن هذا ؛ تدبر الآيات التي تشتبه عليه ، فوجد حلها ووجد بيانها في الآيات الواضحة التي فيها البيان والإيضاح ، فهذا معنى ﴿متشابها﴾ .

وهكذا قوله : ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ (هود :١) فهي محكمة متقنة ليس فيها تناقض ولا خلل ، بل هي آيات محكمات صادقات واضحات متشابهات يشبه بعضها بعضاً .اهـ

فاتباع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو اتباع أحسن القول ، وبهذا أمر بني إسرائيل حيث قال : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ (الأعراف) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وأحسنها ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر :٥٥) وقوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (الزمر :١٨) أحسنه هو ما أمرنا به وترك ما نهانا عنه ، هذا هو المراد ، يعني ما نهيتم عنه اتركوه ، وما أمرتم به خذوا به ، والعكس أن يدع الأوامر ويرتكب النواهي ، هذا ليس من الأحسن ، وهذا هو المنهي عنه ، فالمؤمنون مأمورون بأن يأخذوا بالأحسن ويتبعوا الأحسن ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر :٥٥) وهكذا قوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (الزمر :١٧) يعني يتبعون أحسن ما أنزل إليهم من قول وعمل ، فيشتغلون بذكر الله وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويشتغلون بفعل ما شرع الله من الصلوات والصيام والحج والصدقات وغير ذلك ، ويدعون ما نهاهم الله عنه ، فإن فعل ذلك ليس هو الأحسن ، بل ترك المنهي هو الأحسن ، وفعل المأمور هو الأحسن ، فترك المأمور ليس هو الأحسن ، وفعل المنهي ليس هو الأحسن .أهـ

ثم قال أبو القاسم : وقال تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الروم) ، جاء في التفسير أنه السماع .

قلت : فهذا قد ورد عن طائفة من السلف أنه السماع الحسن في الجنة ، وأن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بأحسن منها ، لكن تنعيم الله تعالى لعباده بالأصوات الحسنة في الجنة واستماعها لا يقتضي أنه يشرع أو يبيح سماع كل صوت في الدنيا ، فقد وعد في الآخرة بأشياء حرمها في الدنيا كالخمر والحرير وأواني الذهب والفضة .

بل قال ﷺ : «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»[١] وقال : «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[٢] وقال : «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة».[٣]

وهذه الأحاديث من الصحاح المشاهير المجمع على صحتها ، فقد أخبر أنه من استعمل هذه الأمور في الدنيا من المطعوم والملبوس وغيرها لم يستعلمه في الآخرة .

فلو قيل له : هذا السماع الحسن الموعود به في الجنة هو لمن نزه مسامعه في الدنيا عن سماع الملاهي ؛ لكان هذا أشبه بالحق والسنة ، وقد ورد به الأثر ، يقول الله يوم القيامة : أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشياطين أدخلوهم وأسمعوهم تحميدي وتمجيدي والثناء علي وأخبروهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .[٤]

ثم قال أبو القاسم : واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة والنغم

---

(١) رواه البخاري (٥٥٧٥) كتاب الأشربة/ باب قول الله تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس) ومسلم (٢٠٠٣) كتاب الأشربة/ باب بيان أن كل مسكر خمر وكل خمر حرام ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري (٥٨٣٢) كتاب اللباس/ باب لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه ، ومسلم (٢٠٧٣) كتاب اللباس والزين/ باب تحريم استعمال الحرير على الرجل وإباحته للنساء ، من حديث أنس ﷺ .

(٣) رواه البخاري (٥٤٢٦) كتاب الأطعمة/ باب الأكل في إناء مفضض ، ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس والزين/ باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة ، من حديث حذيفة ﷺ .

(٤) السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، والأصبهاني في الترغيب عن محمد بن المنكدر ، والديلمي عن جابر عن النبي ﷺ .

المستلذة ، إذا لم يعتقد المستمع محظوراً ، ولم يسمع على مذموم في الشرع ، ولم ينجر في زمان هواه ، ولم ينخرط في سلك لهوه ؛ مباحاً في الجملة ، ولا خلاف أن الأشعار أنشدت بين يدي النبي ﷺ ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها ، فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان ، هذا ظاهر من الأمر ، ثم ما يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات وتذكر ما أعد الله لعباده المتقين من الدرجات ، ويحمله على التحرز من الزلات ، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات مستحب في الدين ومختار في الشرع .

قال : وقد جرى على لفظ الرسول ﷺ ما هو قريب من الشعر وإن لم يقصد أن يكون شعراً ، وذكر الحديث المتفق عليه عن أنس بن مالك قال كانت الأنصار يحفرون الخندق فجعلوا يقولون :

نحن الذين بايعوا محمدا
على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم رسول الله ﷺ : «... اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة»[1] . . .

وقال : ليس هذا اللفظ منه ﷺ على وزن الشعر .

قلت : تضمن هذا الكلام شيئين :

(١) رواه البخاري (٢٩٦١) كتاب الجهاد والسير/ باب البيعة في الحرب على أن لا يفروا ، من حديث أنس ﷺ ، ومسلم (١٨٠٤-١٨٠٥) كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة الأحزاب وهي الخندق من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما .

أحدهما : إباحة سماع الألحان والنغمات المستلذة ، بشرط ألا يعتقد المستمع محظورا ، وألا يسمع مذموما في الشرع ، وألا يتبع منه هواه .

والثاني : أن ما أوجد للمستمع الرغبة في الطاعات والاحتراز من الذنوب وتذكر وعد الحق ووصول الأحوال الحسنة إلى قلبه فهو مستحب .

وعلى هاتين المقدمتين بنى من قال باستحباب ذلك مثل أبي عبد الرحمن السلمي وأبي حامد وغيرهما ، وفي هؤلاء من قد يوجبه أحيانا إذا رأوا أنه لا يؤدى الواجب إلا به .

وكذلك يفضلونه على سماع القرآن إذا رأوا أن ما يحصل بسماع الألحان أكثر مما يحصل بسماع القرآن ، وهم في ذلك يضاهئون لمن يوجب من الكلام المحدث ما يوجبه ولمن يفضل ما فيه من العلم على ما يستفاد من القرآن والحديث .

لكن في أولئك من يرى الإيمان لا يتم إلا بما ابتدعوه من الكلام ، وفيهم من يكفر بمخالفته أو يفسق .

وأهل السماع أيضا فيهم من يرى الإيمان لا يتم إلا به ، وفيهم من يقول في منكره الأقوال العظيمة ، وقد يكون يسعى في قتل منكره ، لكن جنسهم كان خيرا من جنس المتكلمة مما فعلوا غير ذلك من الذنوب ، كما يستحبون علم الكلام ويوجبونه ويذمون تاركه ويسبونه ، ويعاملونه من العداوة بما يعامل به الكافر ، وبإزاء استحباب هؤلاء أو إيجابهم ، أن قوما من أهل العلم يكفرونهم باستحباب ذلك أو إيجابه ، ولهذا تجد في المستحبين له وفي المنكرين له من الغلو ما أوجب الافتراق والعداوة والبغضاء ، وأصل ذلك ترك الفريقين جميعا لما شرعه الله من السماع الشرعي الذي يحبه الله ورسوله وعباده المؤمنون .

وهاتان المقدمتان كلاهما غلط مشتمل على دليل مجمل من جنس استدلالهم بما ظنوه من العموم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر: ١٨)، وبما وعد الله به في الآخرة من السماع الحسن.

ولهذا نشأ من هاتين المقدمتين اللتين ليس فيهما الحق بالباطل قول لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، فإنه وإن نقل عن بعض أهل المدينة وغيرهم أنه سمع الغناء، فلم يقل أحد منهم أنه مستحب في الدين ومختار في الشرع أصلا، بل كان فاعل ذلك منهم يرى مع ذلك كراهته، وأن تركه أفضل، أو يرى أنه من الذنوب، وغايته أن يطلب سلامته من الإثم، أو يراه مباحا كالتوسع في لذات المطاعم والمشارب والملابس والمساكن، فأما رجاء الثواب بفعله، والتقرب إلى الله، فهذا لا يحفظ عن أحد من سلف الأمة وأئمتها، بل المحفوظ عنهم أنهم رأوا هذا من ابتداع الزنادقة، كما قال الحسن بن عبد العزيز الجروي: سمعت الشافعي يقول: خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن.

والتغبير هو الضرب بالقضيب، غبّر أي أثار غبارا، وهو آلة من الآلات التي تقرن بتلحين الغناء.

والشافعي بكمال علمه وإيمانه علم أن هذا مما يصد القلوب عن القرآن ويعوضها به عنه، كما قد وقع أن هذا إنما يقصده زنديق منافق من منافقة المشركين أو الصابئين وأهل الكتاب، فإنهم هم الذين أمروا بهذا في الأصل، كما قال ابن الراوندي: اختلف الفقهاء في السماع: فقال بعضهم هو مباح، وقال بعضهم هو محرم، وعندي أنه واجب، وهذا مما اعتضد به أبو عبد الرحمن في مسألة السماع، وهذا متهم بالزندقة.

وكذلك ابن سينا في إشاراته أمر بسماع الألحان وبعشق الصور ، وجعل ذلك مما يزكي النفوس ويهذبها ويصفيها ، وهو من الصابئة الذين خلطوا بها من الحنيفة ما خلطوا ، وقبله الفارابي كان إماما في صناعة التصويت موسيقيا عظيما .

فهذا كله يحقق قول الشافعي رحمه الله ، ونحن نتكلم على المقدمتين إن شاء الله بكلام يناسب ما كتبته هنا .

فأما احتجاجه بأن النبي ﷺ سمع ما أنشد بين يديه من الأشعار ولم ينكره ، وأنه قال ما يشبه الشعر ؛ فيقال : بل الشعر أعظم مما وصفته ، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «إن من الشعر حكمة»(١) وقال : «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم»(٢) وكان ينصب لحسان منبرا لينشد الشعر الذي يهجو فيه المشركين وقال : «اللهم أيده بروح القدس»(٣) ، وقال ﷺ له : «إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه»(٤) .

قال سماحة الشيخ : روح القدس هو جبريل عليه الصلاة والسلام ، يقال له روح القدس ويقال له الروح الأمين .

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٤٤) كتاب الأدب / باب ما جاء إن من الشعر حكمة ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، ومن حديث ابن عباس « إن من الشعر حكماً » وقال : حديث حسن صحيح

(٢) رواه أبو داود (٢٥٠٤) كتاب الجهاد/ باب كراهية ترك الغزو ، والنسائي (٣٠٨٩) كتاب الجهاد/ باب وجوب الجهاد ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٤٥٣) كتاب الصلاة/ باب الشعر في المسجد ، ومسلم (٢٤٨٥) كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل حسان بن ثابت ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه مسلم (٢٤٩٠) كتاب الفضائل/ باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

لأنه جهاد، الشعر الشرعي جهاد في سبيل الله، في ذم المشركين وهجوهم والتنديد بهم ودعوتهم إلى الحق وتزييف ما هم عليه من الباطل، هذا غير ما تفعله الصوفية من الألحان الفاسدة في العشق والصور وأشياء أخرى مما يمدحون ويذمونه. أهـ

وقال عن عبد الله بن رواحة: «إن أخا لكم لا يقول الرفث»[1].

وقد استنشد الشريد بن سويد الثقفي مائة قافية من شعر أمية بن أبي الصلت وهو يقول: «هيه هيه»[2].

وسمع قصيدة كعب بن زهير، وهذا باب واسع.

وقد قال الله تعالى في كتابه بعد أن قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝﴾ (الشعراء)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝﴾ (الشعراء)، فلم يذم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا من الشعراء المنتصرين من بعد ما ظلموا، ولهذا قال النبي ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا»[3].

---

(١) رواه البخاري (١١٥٥) كتاب التهجد/ باب فضل من تعار من الليل فصلى، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه مسلم (٢٢٥٥) كتاب الشعر.

(٣) رواه البخاري (٦١٥٤) كتاب الأدب/ باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن، ومسلم (٢٢٥٧) كتاب الشعر، وهو من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما.

فذم الممتلي بالشعر الذي لم يستعمل بما يوجب الإيمان والعمل الصالح وذكر الله كثيرا ، ولم يذم الشعر مطلقا ، بل قد يبين معنى الحديث ما قاله الشافعي :الشعر كلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه . هذا قوله في الشعر مع قوله في التغبير ، ليبين أن إباحة أحدهما غير مستلزمة الآخر .

وأما قوله :فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطيبة ، فلا يتغير الحكم بأن تسمع بالألحان الطيبة ، هذا ظاهر من الأمر ، فإن هذه حجة فاسدة جدا ، والظاهر إنما هو عكس ذلك ، فإن نفس سماع الألحان مجردا عن كلام يحتاج إلى أن تكون مباحة مع انفرادها ، وهذا من أكبر مواقع النزاع ، فإن أكثر المسلمين على خلاف ذلك .

ولو كان كل من الشعر أو التلحين مباحا على الانفراد لم يلزم الإباحة عند الاجتماع إلا بدليل خاص ، فإن التركيب له خاصة يتعين الحكم بها .

وهذه الحجة بمنزلة حجة من قال إن خبر الواحد إذا لم يفد العلم عند انفراده لم يفد العلم مع نظائره ومع القرائن ، فجحد العلم الحاصل بالتواتر .

وبمنزلة ما يذكر عن إياس بن معاوية أن رجلا قال له ما تقول في الماء؟ قال حلال ، قال والتمر؟ قال حلال ، قال فالنبيذ قال ماء وتمر ، فقال له إياس بن معاوية :أرأيت لو ضربتك بكف من تراب أكنت أقتلك؟ قال لا ، قال فإن ضربتك بكف من تبن أكنت أقتلك؟ قال لا ، قال فإن ضربتك بماء أكنت أقتلك؟ قال لا ، قال فإن أخذت الماء والتبن والتراب فجعلتهما طينا وتركته حتى جف وضربتك به أقتلك؟ قال نعم ، فقال :كذلك النبيذ .

يقول إن القاتل هو القوة الحاصلة بالتركيب ، والمفسد للعقل هو القوة المسكرة الحاصلة بالتركيب ، وكذلك هنا الذي يسكر النفوس ويلهيها ويصدها

عن ذكر الله وعن الصلاة قد يكون في التركيب وليست الأصوات المجتمعة في استفزازها للنفوس وإزعاجها، إما بنياحة وتحزين، وإما بإطراب وإسكار، وإما بإغضاب وحمية، بمنزلة الصوت الواحد.

وهذا القرآن الذي هو كلام الله، وقد ندب النبي ﷺ إلى تحسين الصوت به وقال: «زينوا القرآن بأصواتكم»(١).

وقال لأبي موسى: «لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك» فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا(٢).

وكان عمر يقول: يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ أبو موسى وهم يستمعون(٣).

وقال النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»(٤).

وقال: «لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة

---

(١) رواه البخاري معلقا، كتاب التوحيد/ باب قول النبي ﷺ «الماهر بالقرآن مع سفرة الكرام البررة». قال الشيخ الألباني: صحيح، رواه أبو داود وغيره من أصحاب السنن، والحاكم وأحمد بسند صحيح عن البراء بن عازب «صحيح أبي داود» (١٣٢٠). أهـ.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٢) وابن حبان في صحيحه (٧٣٢٠) والحاكم في المستدرك (٥٩٩٨) ذكر مناقب أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٤١٨١) ٢/ ٤٨٦، والدارمي في السنن (٣٤٩٦) ٢/ ٥٦٤، وابن حبان في صحيحه (٧١٩٦) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) رواه البخاري (٥٠٢٣) كتاب فضائل القرآن/ باب من لم يتغن بالقرآن، ومسلم (٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد في المسند (٢٤٦٧٣) وابن ماجه (١٣٤٠) كتاب إقامة الصلوات/ باب في حسن الصوت، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

إلى فتنته» (٥).

ومع هذا فلا يسوغ أن يقرأ القرآن بألحان الغناء، ولا أن يقرن به من الألحان ما يقرن بالغناء من الآلات وغيرها، لا عند من يقول بإباحة ذلك، ولا عند من يحرمه، بل المسلمون متفقون على الإنكار لأن يقرن بتحسين الصوت بالقرآن الآلات المطربة بالفم كالمزامير، وباليد كالغرابيل.

فلو قال قائل: النبي ﷺ قد قرأ القرآن وقد استقرأه من ابن مسعود(١) وقد استمع لقراءة أبي موسى وقال: «لقد أوتي مزمارا من مزامير داود»(٢) فإذا قال قائل: إذا جاز ذلك بغير هذه الألحان، فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان؛ كان هذا منكرا من القول وزورا باتفاق الناس.

وأما المقدمة الثانية: وهي قوله بعد أن أثبت الإباحة إن ما أوجب للمستمع أن يوفر الرغبة على الطاعات، ويذكر ما أعد الله لعباده المتقين من الدرجات، ويحمله على التحرز من الزلات، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات؛ مستحب في الدين ومختار في الشرع.

فنقول: تحقيق هذه المقدمة أن الله سبحانه يحب الرغبة فيما أمر به والحذر مما نهى عنه، ويحب الإيمان بوعده ووعيده، وتذكر ذلك، وما يوجبه من خشيته ورجائه ومحبته والإنابة إليه، ويحب الذين يحبونه، فهو يحب الإيمان أصوله وفروعه والمؤمنين، والسماع يحصل المحبوب، وما حصل المحبوب فهو

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٢) كتاب التفسير/ باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا).

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨) كتاب فضائل القرآن/ باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ومسلم (٧٩٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب تحسين الصوت بالقرآن.

محبوب ، فالسماع محبوب .

وهذه المقدمة مبناها على أصلين : أحدهما : معرفة ما يحبه الله .

والثاني : أن السماع يحصل محبوب الله خالصا أو راجحا .

فإنه إذا حصل محبوبه ومكروهه والمكروه أغلب كان مذموما ، وإن تكافأ فيه المحبوب والمكروه لم يكن محبوبا ولا مكروها .

أما الأصل الأول : وهو معرفة ما يحبه الله فهي أسهل ، وإن كان غلط في كثير منها كثير من الناس .

وأما الأصل الثاني : وهو أن السماع المحدث يحصل هذه المحبوبات فالشأن فيها ، ففيها زل من زل وضل من ضل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله

ونحن نتكلم على ذلك بوجوه نبين بها إن شاء الله المقصود .

الوجه الأول أن نقول : يجب أن يعرف أن المرجع في القرب والطاعات والديانات والمستحبات إلى الشريعة ، ليس لأحد أن يبتدع دينا لم يأذن الله به ، ويقول هذا يحبه الله ، بل بهذه الطريق بدل دين الله وشرائعه ، وابتدع الشرك وما لم ينزل الله به سلطانا .

وكل ما في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة وأئمة الدين ومشايخه من الحض على اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ، واتباع صراطه المستقيم ، واتباع الكتاب واتباع الشريعة ، والنهي عن ضد ذلك ؛ فكله نهي عن هذا ، وهو ابتداع دين لم يأذن الله به ، سواء كان الدين فيه عبادة غير الله وعبادة الله بما لم يأمر به ، بل دين الحق أن نعبد الله وحده لا شريك له بما أمرنا به على ألسنة رسله ، كما قال الفضيل ابن عياض في قوله ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك :٢)

قال أخلصه وأصوبه ، قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة[١] .

قال سماحة الشيخ رحمه الله رحمه الله : والمعنى أنه لابد من الأمرين ، فالمسلم ليس له أن يتقرب لغير الله ، بل عليه أن يعبد الله وحده ، وعليه مع ذلك أن لا يعبد الله إلا بما شرع ليس بأهوائه وآرائه وقول زيد وعمرو ، لا يُتقرب إلى الله إلا بما شرع : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (الشورى :٢١) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ (الجاثية : ١٨) ، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران :٣١) . ويقول الرسول ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[٢] فلابد أن تكون العبادة على الوجه الذي شرعه الله ، فإذا اجتمع الأمران الإخلاص والصواب قبلت وإلا فلا .أهـ

وكلام المشايخ الذين ذكرهم أبو القاسم في هذا الأصل كثير ، مثل ما ذكره عن الشيخ أبي سليمان الداراني أنه قال : ربما يقع النكتة في قلبي من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة[٣] .

وعن صاحبه أحمد بن أبي الحواري أنه قال : من عمل بلا اتباع سنة فباطل

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية (٥٠ـ٥١) وأبو نعيم في حلية الأولياء/ ٩٨٨ .

(٢) رواه مسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية / باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٣ «أبو سليمان الداراني» .

عمله .

وعن سهل بن عبد الله التستري أنه قال : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس ، وكل فعل يفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني يحتاج إلى جهادها ، لأنه ليس لهواها .أهـ

وعن أبي حفص النيسابوري أنه قال : من لم يزن أفعاله وأحواله كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال[1] .

وعن الجنيد بن محمد أنه قال : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ .

وعن الجنيد أيضاً أنه قال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وعن أبي عثمان النيسابوري أنه قال : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور : ٥٤) .

وعن أبي حمزة البغدادي قال : من علم طريق الحق تعالى سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله .

وعن أبي عمرو بن نجيد قال : كل حال لا يكون نتيجة علم فإن ضرره أكثر

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٨٦٥) وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٠

على صاحبه من نفعه. وسئل عن التصوف؟ فقال: الصبر تحت الأمر والنهي.

وعن أبي يعقوب النهرجوري قال: أفضل الأحوال ما قارن العلم.

ومثل هذا كثير في كلام أئمة المشايخ، وهم إنما وصوا بذلك لما يعلمونه من حال كثير من السالكين أنه يجري مع ذوقه ووجده وما يراه ويهواه، غير متبع لسبيل الله التي بعث بها نبيه ﷺ، وهذا نوع الهوى بغير هدى من الله.

والسماع المحدث يحرك الهوى، ولهذا كان بعض المشايخ المصنفين في ذمه سمى كتابه: الدليل الواضح في النهي عن ارتكاب الهوى الفاضح، ولهذا كثيرا ما يوجد في كلام المشايخ الأمر بمتابعة العلم يعنون بذلك الشريعة، كقول أبي يزيد البسطامي رحمه الله: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لتفتت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيته يدّعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربن منه.

وقال أبو عثمان النيسابوري: الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثما، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم.

وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد، والعمل في ذلك فيه من الحب والوجد ما لا ينضبط فكثير ما يعمل السالك بمقتضى ما يجده في قلبه

من المحبة ، وما يدركه ويذوقه من طعم العبادة ، وهذا إذا لم يكن موافقاً لأمر الله ورسوله ، وإلا كان صاحبه في ضلال ، من جنس ضلال المشركين وأهل الكتاب الذين اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله ، قال الله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان) .

وقال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (الأنعام) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا بحث مهم . أهـ

وكثيراً ما يبتلى كثير من أهل السماع بشعبة من حال النصارى من الغلو في الدين ، واتباع أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وإن كان فيهم من فيه فضل وصلاح ، فهم فيما ابتدعوه من ذلك ضالون عن سبيل الله ، يحسبون أن هذه البدعة تهديهم إلى محبة الله ، وإنها لتصدهم عن سبيل الله ، فإنهم

عشوا عن ذكر الله الذي هو كتابه عن استماعه وتدبره واتباعه ، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الزخرف) ، وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الجاثية) فالشريعة التي جعله عليها تتضمن ما أمر به ، وكل حب وذوق ووجد لا تشهد له هذه الشريعة فهو من أهواء الذين لا يعلمون ، فإن العلم بما يحبه الله إنما هو ما أنزله الله إلى عباده من هداه .

ولهذا قال في إحدى الآيتين : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام :١١٩) ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (القصص) .

فكل من اتبع ذوقا أو وجدا بغير هدى من الله ، سواء كان ذلك عن حب أو بغض ، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به ويتخذه دينا ، وينهى عما يبغضه ويذمه ، ويتخذ ذلك دينا إلا بهدى من الله ، وهو شريعة الله التي جعل

عليها رسوله، ومن اتبع ما يهواه حبا وبغضا بغير الشريعة فقد اتبع هواه بغير هدى من الله.

ولهذا كان السلف يعدّون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، ويذمونهم بذلك ويأمرون بألا يغتر بهم ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام والحجاج أو العبادة والأحوال، مثل المكاشفات وخرق العادات، كقول يونس بن عبد الأعلى قلت للشافعي: تدري يا أبا عبد الله ما كان يقول فيه صاحبنا - أريد الليث بن سعد وغيره؟ - كان يقول: لو رأيته يمشي على الماء لا تثق به ولا تعبأ به ولا تكلمه، قال الشافعي: فإنه والله ما قصر[1].

قال سماحة الشيخ رحمه الله: يعني لا تغتر بأحوال المبتدعة وأتباع الهوى ولو رأيت منهم العبادة الكثيرة، أو الكرامات التي يدعونها من مشي على الماء أو غير ذلك، فلا تغتر بهم، حتى تزنهم بميزان الشريعة، وحتى تنظر أحوالهم من جهة الشريعة، وحتى تعرف تمسكهم بها وتعظيمهم لها ومحاربتهم لما خالفها، هذا هو الميزان، أما ما يدعون من الكرامات فلا قيمة لها، لأنها قد تكون من خوارق الشياطين، تكون ابتلاء وامتحاناً تضرهم. فالواجب على من أراد أن يزن الناس ويعرف حالهم، أن يزنهم بالشرع، هل استقاموا عليه في أقوالهم وأعمالهم أو انحرفوا؟ هذا هو الميزان، وأما ما يدعون من كرامات أو مكاشفات أو غير ذلك فهذه أشياء لا قيمة لها، قد يكون لها أسباب أخرى. اهـ.

(١) رواه أبو إسماعيل الهروي في ذم الكلام وأهله (١١١٨) ٤/ ٢٧٥، وابن بطة في الإبانة (٦٦٢) ٢/ ٥٣٥.

وعن عاصم قال : قال أبو العالية : تعلموا الإسلام فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه ، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام ، ولا تحرفوا الإسلام يمينا وشمالا وعليكم بسنة نبيكم والذي كان عليه أصحابه ، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء ، فحدثت الحسن قال : صدق ونصح ، قال : فحدثت حفصة بنت سيرين فقالت : أبا علي أنت حدثت محمدا بهذا؟ قلت : لا ، قالت : فحدثه إذاً .

وقال أبي بن كعب : عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما على الأرض عبد على السبيل والسنة ذكر الله ففاضت به عيناه من خشية الله فيعذبه ، وما على الأرض عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله ، إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها ، فهي كذلك إذ أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها ، ولتحط عنه خطاياه كما تحات عن تلك الشجرة ورقها ، وإن اقتصادا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة ، فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادا أو اقتصادا أن يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم[1]

وكذلك قال عبد الله بن مسعود : الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه٨/ ٢٩٧ واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة١/ ٥٤ سياق ما روي عن النبي ﷺ في ثواب من حفظ السنة ومن أحياها ومن دعا إليها ، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء١/ ٢٥٣

(٢) رواه المروزي في السنة١/ ٣٠ واللالكائي في اعتقاد أهل السنة١/ ٥٥ سياق ما روي عن النبي ﷺ في ثواب من حفظ السنة ومن أحياها ومن دعا إليها ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٤٩٣٣) باب القصد في العبادة والجهد في المداومة ، والحاكم في المستدرك ١/ ١٨٤ (٣٥٢) كتاب العلم ، والأثر ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ ١/ ١٦

(٣) اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٥٣) ١/ ٦٥ سياق ما روي عن النبي ﷺ في ثواب من حفظ السنة ومن أحياها ومن دعا إليها .

البدعة(٢) .

وقيل لأبي بكر بن عياش : يا أبا بكر من السني؟ قال : الذي إذا ذكرت الأهواء لم يغضب لشيء منها(٣) .

وهذا أصل عظيم من أصول سبيل الله وطريقه يجب الاعتناء به ، وذلك أن كثيرا من الأفعال قد يكون مباحا في الشريعة أو مكروها أو متنازعا في إباحته وكراهته ، وربما كان محرما أو متنازعا في تحريمه ، فتستحبه طائفة من الناس يفعلونه على أنه حسن مستحب ودين وطريق يتقربون به ، حتى يعدون من يفعل ذلك أفضل ممن لا يفعله ، وربما جعلوا ذلك من لوازم طريقتهم إلى الله ، أو جعلوه شعار الصالحين وأولياء الله ، ويكون ذلك خطأ وضلالا وابتداع دين لم يأذن به الله .

مثال ذلك حلق الرأس في غير الحج والعمرة لغير عذر ، فإن الله قد ذكر في كتابه حلق الرأس وتقصيره في النسك ، وذكر حلقه لعذر في قوله : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة : ١٩٦) .

وأما حلقه لغير ذلك فقد تنازع العلماء في إباحته وكراهته نزاعا معروفا على قولين هما روايتان عن أحمد ، ولا نزاع بين علماء المسلمين وأئمة الدين أن ذلك لا يشرع ولا يستحب ، ولا هو من سبيل الله وطريقه ، ولا من الزهد المشروع للمسلمين ، ولا مما أثنى الله به على أحد من الفقراء ، ومع هذا فقد اتخذه طوائف من النساك الفقراء والصوفية دينا ، حتى جعلوه شعارا

وعلامة على أهل الدين والنسك والخير والتوبة والسلوك إلى الله المشير إلى الفقر والصوفية، حتى أن من لم يفعل ذلك يكون منقوصا عندهم، خارجا عن الطريقة المفضلة المحمودة عندهم، ومن فعل ذلك دخل في هديهم وطريقهم.

وهذا ضلال عن طريق الله وسبيله باتفاق المسلمين، واتخاذ ذلك دينا وشعارا لأهل الدين من أسباب تبديل الدين، بل جعله علامة على المروق من الدين أقرب، فإن الذي يكرهه - وإن فعله صاحبه عادة لا عبادة يحتج - بأنه من سيماء الخوارج المارقين الذين جاءت الأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ بذمهم من غير وجه، وروي عنه ﷺ: «سيماهم التحليق»[(١)].

فإذا كان هذا سيماء أولئك المارقين، وفي المسند والسنن عن النبي ﷺ أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[(٢)] كان هذا على بعده من شعار أهل الدين أولى من العكس.

ولهذا لما جاء صبيغ بن عسل التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله عن المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وضربه ضربا عظيما، كشف رأسه فوجده ذا ضفيرتين، فقال: لو وجدتك محلوقا لضربت الذي فيه عيناك[(٣)]،

---

(١) رواه البخاري (٧٥٦٢) كتاب التوحيد/ باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) رواه أحمد في المسند ١١/ ٣٦٠ (٥٢٣٢) وأبو داود (٤٠٣١) كتاب اللباس/ باب في لبس الشهرة، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٦٣٥ سياق ما روي عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين في مجانبة أهل القدر وسائر أهل الأهواء، والأجري في الشريعة (١٧) باب تحذير النبي ﷺ أمته الذين يجادلون بمتشابه القرآن وعقوبة الإمام لمن يجادل فيه.

لأنه لو وجده محلوقا استدل بذلك على أنه من الخوارج المارقين ، وكان يقتله لأمر النبي ﷺ بقتالهم .

وقد قال النبي ﷺ في صفتهم : «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»(١)

ولا ريب أن الخوارج كان فيهم من الاجتهاد في العبادة والورع ما لم يكن في الصحابة ، كما ذكره النبي ﷺ ، لكن لما كان على غير الوجه المشروع أفضى بهم إلى المروق من الدين .

قال سماحة الشيخ رحمه الله :حتى جرهم ذلك إلى تكفير أهل الذنوب وتخليدهم في النار ، فهذا من غلوهم غلو الخوارج ، اجتهدوا في العبادات وزعموا أنهم بذلك بزوا وفاقوا من قبلهم ، ثم جرهم هذا إلى الخروج عن الدين وتكفير المسلمين ، ولهذا قال النبي ﷺ : « أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»(٢) لبدعتهم العظيمة وتكفيرهم المسلمين وخروجهم عن الصراط المستقيم .

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٠) كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ومسلم (١٠٦٣) كتاب الزكاة/ باب التحريض على قتال الخوارج ، من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٦٩٣٠) كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/ باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم ، ومسلم (١٠٦٦) كتاب الزكاة/ باب التحريض على قتال الخوارج ، من حديث علي رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٧٥٦٢) كتاب التوحيد/ باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وكان من شأنهم التشديد في التحليق تحليق الرؤوس والإلزام بذلك، وأنه من دينهم وعبادتهم وقرباتهم، فكان علامة لهم، فلهذا قال: «سيماهم التحليق»[3] وإنما التحليق جائز فقط ليس بواجب ولا مشروع، فقصاراه أن يكون جائزاً، بل كرهه بعض أهل العلم إلا للحاجة، كالحلق في العمرة أو الحج أو لأسباب أخرى.

فالحاصل أن هؤلاء الخوارج ابتلوا بالغلو والزيادة في الدين حتى جرهم ذلك إلى التنطع ثم كفروا المسلمين، وقالوا من زنى كفر، ومن سرق كفر ومن عق والديه كفر ومن قطع الرحم كفر، فأخرجوهم من الدين بهذه المعاصي، ثم جعلوهم مخلدين في النار كالكفرة، نسأل الله العافية. اهـ.

ولهذا قال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب: اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة.

وقد تأول فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قاتلهم بأمر النبي ﷺ وكان قتاله لهم من أعظم حسناته وغزواته التي يمدح، بها لأن النبي ﷺ حض على قتالهم وقال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[1] وقال: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة»[2].

وفي الصحيح عن علي أيضاً: لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان

(١) متفق عليه، وقد تقدّم.

(٢) رواه البخاري (٦٩٣٠) كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/ باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، ومسلم (١٠٦٦) كتاب الزكاة/ باب التحريض على قتال الخوارج، من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١٠٦٦) كتاب الزكاة/ باب التحريض على قتل الخوارج.

محمد لتكلوا عن العمل(٣).

وكانوا يتشددون في أمر الذنوب والمعاصي حتى كفروا المسلمين وأوجبوا لهم الخلود في النار.

ولا ريب أن كثيرا من النساك والعباد والزهاد قد يكون فيه شعبة من الخوارج، وإن كان مخالفا لهم في شعب أخرى، فلزوم زي معين من اللباس، سواء كان مباحا أو كان مما يقال إنه مكروه، بحيث يجعل ذلك دينا ومستحبا وشعارا لأهل الدين، هو من البدع أيضا، فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله، فلا دين إلا ما شرعه الله.

الوجه الثاني: أن قولهم إن هذا السماع يحصّل محبوب الله، وما حصل محبوبه فهو محبوب له، قول باطل، وكثير من هؤلاء أو أكثرهم حصل لهم الضلال والغواية من هذه الجهة، فظنوا أن السماع يثير محبة الله، ومحبة الله هي أصل الإيمان الذي هو عمل القلب، وبكمالها يكمل، وهي فيما يذكره أبو طالب وغيره نهاية المقامات، وربما قال بعضهم: هي المقام التي يرتقي مقدمه العامة وساقه الخاصة، ويقول من يقول منهم: إن السماع هو من توابع المحبة، وأنهم إنما فعلوه لما يحركه من محبة الله سبحانه، إذ السماع يحرك من كل قلب ما فيه، فمن كان في قلبه حب الله ورسوله حرك السماع هذا الحب، وما يتبع الحب من الوجد والحلاوة وغير ذلك، كما يثير من قلوب أخرى محبة الأوثان والصلبان والإخوان والخلان والأوطان والعشراء والمردان والنسوان، ولهذا يذكر عن طائفة من أعيانهم سماع القصائد في باب المحبة كما فعل أبو طالب.

فيقال: إن ما يهيجه هذا السماع المبتدع ونحوه من الحب وحركة القلب ليس هو الذي يحبه الله ورسوله، بل اشتماله على ما لا يحبه الله وعلى ما يبغضه أكثر من اشتماله على ما يحبه ولا يبغضه، وحده عما يحبه الله ونهيه عن ذلك أعظم من تحريكه لما يحبه الله، وإن كان يثير حبا وحركة، ويُظن أن

ذلك يحبه الله وأنه مما يحبه الله ، فإنما ذلك من باب اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

ومما يبين ذلك أن الله سبحانه وتعالى بيّن في كتابه محبته وذكر موجباتهما وعلاماتها ، وهذا السماع يوجب مضادا لذلك منافيا له .

وذلك أن الله يقول في كتابه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة ١٦٥) ، وقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران) ، ويقول : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ (المائدة : ٥٤) .

فهذه ثلاثة أصول لأهل محبة الله : إخلاص دينه ، ومتابعة رسوله ، والجهاد في سبيله .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني هذه ثمرات المحبة وموجباتها أيضاً ، فهي توجبها وهي من ثمراتها ، فمن ثمرات المحبة لله الصادقة اتباع الرسول ﷺ ، واتباع الرسول ﷺ مما ينمي هذه المحبة ويقويها ويثبتها ، وهكذا الإخلاص لله وترك الإشراك من ثمرات المحبة ، فإن هذا المحبوب لا يرضى أن يشارك ، فمن كمال هذه المحبة وتمامها وصحتها أن يُخص بها المولى سبحانه ، وأن يعبد وحده سبحانه ، وهذه العبادة له والتخصيص له مما ينمي هذه المحبة ويقويها ويكملها .

وهكذا الجهاد في سبيل الله ومعاداة أعدائه ومحبة أوليائه هي من أسباب

محبة الله ومن مقوياتها وموجباتها ، كما أنها من مكملاتها أيضاً .أهـ

فإنه أخبر عن المشركين الذين يتخذون الأنداد أنهم يحبونهم كما يحبون الله ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٦٥) ، فالمؤمنون أشد حبا لله من المشركين الذين يحبون الأنداد كما يحبون الله ، فمن أحب شيئا غير الله كما يحب الله فهو من المشركين لا من المؤمنين .

ومحبة رسوله من محبته ولهذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه في الصحيحين : «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(١) .

وفي صحيح البخاري أن عمر قال له : يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال : «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» قال : فأنت أحب إليّ من نفسي قال : «فأنت الآن يا عمر»(٢) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : « فأنت الآن » يعني أنت الآن كامل الإيمان أو تام الإيمان .أهـ

---

(١) رواه البخاري (١٣) كتاب الإيمان/ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ومسلم (٤٤) كتاب الإيمان/ باب وجوب محبة الرسول ﷺ أكثر من الأهل وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة ، من حديث أنس ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٦٦٣٢) كتاب الأيمان والنذور/ كيف كانت يمين محبة النبي ﷺ ، عن عبد الله ابن هشام ﷺ .

(٣) رواه البخاري (٦٩٤١) كتاب الإكراه/ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان/ باب وجوب محبة الرسول ﷺ أكثر من الأهل وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة ، من حديث أنس ﷺ .

وفي الصحيحين أنه قال: «ثلاث من كن فيه فقد وجد حلاوة الإيمان ـ وفي لفظ ـ لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(٣).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذه المحبة ليست بمجرد الدعوى، بل لها دلائل، فمن أحب الله المحبة الصادقة فللمحبة دلائل، أما مجرد أنه يدّعي هذا وهو يعصي الله ويخالف أوامره ويبتدع في دينه؛ فالدعوى باطلة، وإنما يكون صادقاً في دعواه إذا تابع الشريعة وتقيد بالشريعة وسارع إلى الأوامر وترك النواهي ووقف عند الحدود، فهذه من العلامات الدالة على صحة الدعوى، ولهذا قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (آل عمران: ٣١) وقال في الآية الأخرى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤) هذه من دلائل صدق المحبة، موالاتهم للمؤمنين وتواضعهم مع المؤمنين وغلظتهم على الكافرين وبغضهم لله وجهادهم في سبيله سبحانه .أهـ

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ فبين أنه إن كان الأهل والمال أحب إليهم من الله ورسوله

والجهاد في سبيله فليتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، فلم يرض منهم أن يكون حبهم لله ورسوله كحب الأهل والمال ، وأن يكون حب الجهاد في سبيله كحب الأهل والمال ، بل حتى يكون الجهاد في سبيله الذي هو تمام حبه وحب رسوله أحب إليهم من الأهل والمال .

فهذا يقتضي أن يكون حبهم لله ورسوله مقدماً على كل محبة ، ليس عندهم شيء يحبونه كحب الله ، بخلاف المشركين .

ويقتضي الأصل الثاني وهو أن يكون الجهاد في سبيله أحب إليهم من الأهل والمال ، فإن ذلك هو تمام الإيمان الذي ثوابه حب الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ إنما لا يكون بعده ريب : ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (الحجرات : ١٥) .

وبذلك وصف أهل المحبة في قوله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ (المائدة : ٥٤) ، فأخبر سبحانه بذلهم للمؤمنين وعزهم على الكافرين وجهادهم في سبيله ، وأنهم لا يخافون لومة لائم ، فلا يخافون لوم الخلق لهم على ذلك .

وهؤلاء هم الذين يحتملون الملام والعذل في حب الله ورسوله والجهاد في سبيله ، والله يحبهم وهم يحبونه ، ليسوا بمنزلة من يحتمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله ورسوله ، ولا بمنزلة الذين أظهروا من مكروهات الحق ما

يلامون عليه ويسمون بالملامية ، ظانين أنهم لما أظهروا ما يلومهم الخلق عليه من المنكرات مع صحتهم في الباطن كان ذلك من صدقهم وإخلاصهم ، وهم في ذلك إنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس .

فإن ذلك المنكر الذي يكرهه الله ورسوله لا يكون فعله مما يحبه الله ورسوله ، ولا يكون من الصدق والإخلاص في حب الله ورسوله ، والناس يلامون عليه .

وسنام ذلك الجهاد في سبيل الله ، فإنه أعلى ما يحبه الله ورسوله ، واللائمون عليه كثير ، إذ كثير من الناس الذين فيهم إيمان يكرهونه ، وهم إما مخذلون مفترون للهمة والإرادة فيه ، وإما مرجفون مضعفون للقوة والقدرة عليه ، وإن كان ذلك من النفاق .

قال الله عز وجل : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب) وقال تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب) .

وأما الأصل الثالث وهو متابعة السنة والشريعة النبوية ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران ٣١) .

قال طائفة من السلف : ادعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية ، فجعل حب العبد لربه موجبا ومقتضيا لاتباع رسوله ،

وجعل اتباع رسوله موجبا ومقتضيا لمحبة الرب عبده ، فأهل اتباع الرسول يحبهم الله ، ولا يكون حبا لله إلا من يكون منهم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه الآية يقال لها آية المحنة ، وهي قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران : ٣١) امتحن الله بها من يدعي حب الرسول ﷺ أو حب الله سبحانه ، وأن هذه الدعوى تحتاج إلى دليل ، ودليلها هو اتباع النبي ﷺ في الأقوال والأعمال ، فمن كان متبعاً للرسول ﷺ في أقواله وأعماله عُلم أنه صادق في دعواه أنه يحب الله ، أو في دعواه أنه يحب الرسول ﷺ ، أما من قال إنه يحب الله أو قال إنه يحب الرسول ﷺ وهو متخلف عن طاعة الله ورسوله ؛ فهذا كاذب في الدعوى ليس بصادق ، فإن الصدق في الدعوى يوجب العمل ، يقول الشاعر في هذا المعنى :

أتعصي الإله وأنت تزعم حبه
هذا لعمري في القياس بديع
لو كنت صادقاً في حبه لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

والمقصود أن كلام الرب في هذا أعظم وأكبر : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران : ٣١) فالدعوى تحتاج إلى عمل ، تحتاج إلى اتباع ، والاتباع هو السير على المنهاج الذي رسمه الله على يد رسوله عليه الصلاة والسلام في الأقوال والأعمال ، فمن ذلك حصل له حب الله وحصلت له المغفرة ، ومن لم يفعل ذلك فليس بصادق في

دعواه أنه يحب الله وهو يرتكب محارمه ويدع فرائضه ، ليس بصادق .اهـ

وإذا عرفت هذه الأصول ، فعامة أهل السماع المحدث مقصرون في هذه الأصول الثلاثة ، وهم في ذلك متفاوتون تفاوتا كثيرا ، بحسب قوة اعتياضهم بالسماع المحدث عن السماع المشروع وما يتبع ذلك ، حتى آل الأمر بآخره إلى الانسلاخ من الإيمان بالكلية ومصيره منافقا محضا أو كافرا صرفا .

وأما عامتهم وغالبهم الذين فيهم حب الله ورسوله وما يتبع ذلك ، فهم فيه مقصرون ، تجد فيهم من التفريط في الجهاد في سبيل الله وما يدخل فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتفريط في متابعة رسول الله ﷺ في شريعته وسننه وأوامره وزواجره أمرا عظيما جدا ، وكذلك في أمر الإخلاص لله ، تجد فيهم من الشرك الخفي أو الجلي أمورا كثيرة .

ولهذا كان هذا السماع - سماع المكاء والتصدية - إنما هو في الأصل سماع المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (الأنفال :٣٥) وفيهم من اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ما ضاهوا به النصارى في كثير من ذلك ، حتى إن منهم من يعبد بعض البشر ويعبد قبورهم ، فيدعوهم ويستغيث بهم ويتوكل عليهم ويخافهم ويرجوهم ، إلى غير ذلك مما هو من حقوق الله وحده لا شريك له ، ويطيعون سادتهم وكبراءهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال ، ويقول بعضهم في اتحاد الله ببعض مخلوقاته وحلوله فيهم شبيه ما قالته النصارى في المسيح عليه الصلاة والسلام .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا أراد به المؤلف - كما تقدم - الرد على من أحدث الطرق الصوفية وأحدث السماع ، فقالوا إن السماع لنغمات

القصائد والأشعار وضرب الدفوف والمزامير في ذلك أن هذا أخشع لقلوبهم ، وأن هذا أقرب إلى صفاء قلوبهم من اجتماعهم على القرآن وسماع القرآن والأحاديث ، فأحدثوا هذا الذي يسمونه السماع ، وهو سماع الأغاني والملاهي وضرب الدفوف وضرب المزامير والقصب وغير هذا مما يخشعون عنده بزعمهم ، فبيّن لهم المؤلف رحمه الله أن هذا باطل وأن هذا بدعة أحدثه هؤلاء ، وأن الواجب الاشتغال بذكر الله وقراءة القرآن ، بغير هذا السماع المنكر الذي أحدثوه ، وجعلوا يطربون له ويجعلون فيه أنواع المزامير وأنواع الطبول وأنواع الأشياء التي سموها بزعمهم ملينة للقلوب ومحركة للقلوب ، وهي صادة للقلوب عن الله وعن الآخرة .

فالواجب على الآخرين أن يسيروا على نهج الأولين من أصحاب النبي ﷺ في التأدب بالقرآن والسماع للقرآن والإنصات للقرآن ، وأن يقرأوه منصتين خاشعين متدبرين متعقلين ، وأن لا يعتاضوا عنه بالقصائد وأنواع الملاهي التي أحدثها هؤلاء . اهـ

ولهذا يكون كثير من سماعهم الذي يحرك وجدهم ومحبتهم إنما يحرك وجدهم ومحبتهم لغير الله ، كالذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني أن هذا الشعر وهذه القصائد وهذه الطبول وهذه الدفوف وهذه المزامير والقصب الذي فعلوه ؛ إنما في الحقيقة جرهم إلى أن يعظموا مشايخهم ويعبدوهم من دون الله ، حتى صاروا بهذه القصائد وبهذا التعظيم للمشايخ يعبدونهم من دون الله ، ويتخذونهم أندادا ، ويحرمون ما حرموه ويحلون ما أحلوا من دون شرع من الله ، فصاروا بهذا من جنس اليهود

والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فأحلوا ما أحلوه وحرموا ما حرموه من دون حجة، فصاروا بهذا عابدين لهم، لأن من أحل ما حرم الله وحرم ما أحل الله لمراعاة الشيخ، واعتقاده أنه لا ينطق عن الهوى وأنه لا يغلط، وأن ما أحله هو الحلال وما حرمه هو الحرام؛ هذا شرك بالله وعبادة لغيره، وموافقة لليهود والنصارى في عقائدهم الباطلة، نسأل الله العافية، هذا الذي أوقع الصوفية في هذا البلاء، نسأل الله العافية. أهـ

والأشعار الجائزة لا شيء فيها، فالقصائد الجائزة والأشعار الجائزة إذا كان على الإبل في السفر أو في الحضر فالأشعار جائزة، مثل ما كان حسان ينشد النبي ﷺ ويهجو المشركين، وكذلك كعب بن زهير وكعب بن مالك وغيرهم، فالقصائد والأشعار الشرعية التي ليس فيها إلا حب الله ورسوله والدعوة إلى دين الله والدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسنه؛ هذه لا شيء فيها «إن من الشعر لحكمة»[1] لكن هؤلاء اتخذوها عبادة واتخذوها ديناً يعظمون بها مشايخهم ويخلطون معها آلات الملاهي ويكون عندها ويعرضون عن القرآن والسنة، نسأل الله العافية. أهـ

وأما الشريعة وما أمر الله به ونهى عنه وأحله وحرمه ففيهم من المخالفة لذلك، بل من الاستخفاف بمن يتمسك به ما الله به عليم، حتى سقط من قلوبهم تعظيم كثير من فرائض الله، وتحريم كثير من محارمه، فكثيرا ما يضيعون فرائضه ويستحلون محارمه ويتعدون حدوده، تارة اعتقادا وتارة

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٤٤) كتاب الأدب / باب ما جاء إن من الشعر حكمة، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وقال الترمذي: هذا حديث غريب، ومن حديث ابن عباس «إن من الشعر حكماً» وقال: حديث حسن صحيح.

عملا ، وكثير من خيارهم الذين هم مؤمنون يقعون في كثير من فروع ذلك ، وإن كانوا مستمسكين بأصول الإسلام .

وأما غير هؤلاء فيصرحون بسقوط الفرائض كالصلوات الخمس وغيرها عنهم ، ويحل الخبائث من الخمر والفواحش ، أو الظلم أو البغي أو غير ذلك لهم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يقولون بزعمهم في هذا أنهم وصلوا إلى درجة لم يعد عليهم تكليف ، وصلوا إلى درجة من حب الله والشوق إليه ما أسقط عنهم التكاليف ، هذا مما قادهم إليه الشيطان ، حتى أسقطوا الصلوات والزكوات والصيام والحج والمحارم عن مشائخهم وعمن زعموا أنه وصل إلى الحقيقة ، وأنه وصل إلى الله ، وأنه ما بقي عليه تكليف فليفعل ما يشاء من الحلال والحرام ، وهذا غاية الردة عن الإسلام ، نعوذ بالله ، وغاية الفجور والفساد .

الله قال لنبيه ﷺ : ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (الحجر) يعني حتى يأتي الموت ، فالتكاليف لا تسقط عن أحد إلا إذا جاء الموت ، إذا مات أو زال عقله بجنون أو نحوه ، أما التكاليف فباقية .

أما هؤلاء فيقولون : إذا بلغ أصحابهم ومشايخهم درجة من وجدهم وتعظيمهم من زعمهم لله ، من طريق الأشعار وطريق الوجد وطريق الاستماعات وطريق ما يزعمونه خوارق ، إذا بلغ هذا الحد سقطت عنهم التكاليف ، نسأل الله العافية . أهـ

وتزول عن قلوبهم المحبة لكثير مما يحبه الله ورسوله ، كالمحبة التامة التي هي كمال الإيمان ، بل لا بد أن ينقص في قلوبهم حب ما أحبه الله ورسوله ، فلا يبقى للقرآن والصلاة ونحو ذلك في قلوبهم من المحبة والحلاوة والطيب وقرة العين ما هو المعروف لأهل كمال الإيمان ، بل قد يكرهون بعض ذلك

ويستثقلونه ، كما هو من نعت المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ (النساء : ١٤٢) وقد يهجرون القرآن الذي ما تقرب العباد إلى الله بأحب إليه منه ، بل قد يستثقلون سماعه وقراءته لما اعتاضوا عنه من السماع ، وقد يقومون ببعض هذه العبادات الشرعية صورا ورسما كما يفعله المنافقون ، لا محبة وحقيقة ووجدا كما يفعله المؤمنون .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني قد يقع لهم ـ لما اشتغلوا بهذه القصائد وما معها من آلات الملاهي والبكاء والوجد فيما بينهم ، وبعضهم يسقط صريعاً مغشياً عليه ـ بسبب هذا قد يستثقلون الصلوات ، ولا ينشطون لإقامة الصلاة ولا ينشطون لقراءة القرآن ، بل قد يستثقلون هذا ، ويرون أنهم انتقلوا من أفضل إلى مفضول ، وقد يصيبهم ما أصاب المنافقين من أدائها رسماً لا حقيقة ، ومجاملة لا عبادة ، ما لا موقع في قلوبهم من الإعراض والغفلة ، نسأل الله العافية . اهـ

وأما الجهاد في سبيل الله فالغالب عليهم أنهم أبعد عنه من غيرهم ، حتى نجد في عوام المؤمنين من الحب للآمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبة والتعظيم لأمر الله والغضب والغيرة لمحارم الله ، وقوة المحبة والموالاة لأولياء الله ، وقوة البغض والعداوة لأعداء الله ، ما لا يوجد فيهم ، بل يوجد فيهم ضد ذلك ، ومعلوم أن أهل الإيمان والصلاح منهم لا يفقدون هذا بالكلية ، لكن هذا السماع المحدث هو وتوابعه سبب ومظنة لضد الجهاد في سبيل الله ، حتى إن كثيرا منهم يعدون ذلك نقصا في طريق الله ، وعيبا ومنافيا للسلوك الكامل إلى الله .

ومن السبب الذي ضل به هؤلاء وغووا ما وجدوه في كثير ممن ينتسب إلى الشريعة من الداعين إلى الجهاد من ضعف قوة الإيمان وسوء النيات والمقاصد ،

وبعدهم عن النيات الخالصة لله، وصلاح قلوبهم وسرائرهم، وعن أن يقصدوا بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، كما وجدوه في كثير ممن يذم السماع المحدث من قسوة القلب والبعد عن مكارم الأخلاق وذوق حقيقة الإيمان.

فهذا التفريط في حقوق الله والعدوان على حدوده الذي وجد في هؤلاء وأمثالهم، ممن لا يتدين بالسماع المحدث، بل يتدين ببعض هذه الأمور صار شبهة لأولئك، كما أن التفريط والعدوان الموجود في أهل السماع المحدث صار شبهة لأولئك في ترك كثير مما عليه كثير منهم من حقائق الإيمان وطاعة الله ورسوله.

ولهذا تفرق هؤلاء في دينهم، وصارت كل طائفة مبتدعة لدين لم يشرعه الله، ومنكرة لما مع الطائفة الأخرى من دين الله، وصار فيهم شبه الأمم قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (المائدة: ١٤)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ (البقرة: ١١٣)، وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران: ١٠٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام)

وأما دين الله وهداه الذي أنزل به كتابه وبعث به رسوله ؛ فهو اتباع كتابه وسنته في جميع الأمور ، وترك اتباع ما يخالف ذلك في جميع الأمور ، والإجماع على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ ﴾ (آل عمران) .

وأما كون الشعر في نفسه لا يُستمع إليه إلا إذا كان من الكلام المباح أو المستحب ، والشعر المقول في سماع المكاء والتصدية كثير منه أو أكثره ليس كذلك ، فهذا مقام آخر نبينه إن شاء الله ، فصار احتجاجهم بما سمعه النبي ﷺ من الشعر على استماع الغناء مردودا بهذه الوجوه الثلاث .

قال أبو القاسم : وقد سمع الأكابر الأبيات بالألحان ، فممن قال بإباحته مالك ابن أنس وأهل الحجاز ، كلهم يبيحون الغناء ، فأما الحداء فإجماع منهم على إباحته .

قلت: هذا النقل يتضمن غلطا بإثبات باطل وترك حق، وقد تبع فيه أبا عبدالرحمن على ما ذكره في مسألة السماع، وذلك أن المعروف عند أئمة السلف من الصحابة والتابعين مثل عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وغيرهم، وعن أئمة التابعين ذم الغناء وإنكاره.

وكذلك من بعدهم من أئمة الإسلام في القرون الثلاثة، حتى ذكر زكريا بن يحيى الساجي في كتابه الذي ذكر فيه إجماع أهل العلم واختلافهم، فذكر أنهم متفقون على كراهته إلا رجلان: إبراهيم بن سعد من أهل المدينة وعبيد بن الحسن العنبري من أهل البصرة.

وأما نقلهم لإباحته عن مالك وأهل الحجاز كلهم؛ فهذا غلط من أسوأ الغلط، فإن أهل الحجاز على كراهته وذمه، ومالك نفسه لم يختلف قوله وقول أصحابه في ذمه وكراهته، بل هو من المبالغين في ذلك، حتى صنف أصحابه كتبا مفردة في ذم الغناء والسماع، وحتى سأله إسحاق بن عيسى الطباع عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء، فقال إنما يفعله عندنا الفساق.

وقد ذكر محمد بن طاهر في مسألة السماع حكاية عن مالك أنه ضرب بطبل وأنشد أبياتا، وهذه الحكاية مما لا يتنازع أهل المعرفة في أنها كذب على مالك.

وكذلك الشافعي لم يختلف قوله في كراهته، وقال في كتابه المعروف بأدب القضاة: الغناء لهو مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته.

وقد قال عن السماع الديني المحدث: خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن.

نعم ، كان كثير من أهل المدينة يسمع الغناء ، وقد دخل معهم في ذلك بعض فقهائهم ، فأما أن يكون هذا قول أهل الحجاز كلهم أو قول مالك فهذا غلط ، وكان الناس يعيبون من استحل ذلك من أهل المدينة ، كما عابوا على غيرهم ، حتى كان الأوزاعي يقول : من أخذ بقول أهل الكوفة في النبيذ ، وبقول أهل مكة في المتعة والصرف ، وبقول أهل المدينة في الغناء أو قال الحشوش والغناء فقد جمع الشر كله ، أو كلاما هذا معناه .

وأما فقهاء الكوفة فمن أشد الناس تحريما للغناء ، ولم يتنازعوا في ذلك ولم يكونوا يعتادونه كما كان يفعله أهل المدينة ، بل كانوا بالنبيذ المتنازع فيه .

وقد سئل مالك عما يترخص فيه بعض أهل المدينة من الغناء ، فقال : لا ، إنما يفعله عندنا الفساق .

وقد سئل القاسم بن محمد عن الغناء فقال : إذا ميَّز الله الحق من الباطل من أي قسم يكون الغناء؟ !

ثم قال أبو القاسم : وقد وردت الأخبار واستفاضت الآثار في ذلك ، وروى عن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع ، فقيل له : إذا أتى بك يوم القيامة ويؤتى بحسناتك وسيئاتك ففي أي الجنبين يكون سماعك؟ فقال : لا في الحسنات ولا في السيئات ، يعني أنه من المباحات .

قلت : ليس ابن جريج وأهل مكة ممن يعرف عنهم الغناء ، بل المشهور عنهم أنهم كانوا يعيرون من يفعل ذلك من أهل المدينة ، وإنما المعروف عنهم المتعة والصرف ، ثم هذا الأثر وأمثاله حجة على من احتج به ، فإنه لم يجعل منه شيئا من الحسنات ، ولم ينقل عن السلف أنه عد شيئا من أنواعه حسنة ، فقوله على ذلك لا يخالف الإجماع

ومن فعل شيئا من ذلك على أنه من اللذة الباطلة التي لا مضرة فيها ولا منفعة ؛ فهذا كما يرخص للنساء في الغناء والضرب بالدف في الأفراح ، مثل قدوم الغائب وأيام الأعياد ، بل يؤمرون بذلك في العرسات ، كما روي : «أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدف»[(1)] وهو مع ذلك باطل كما في الحديث الذي في السنن أن امرأة نذرت أن تضرب لقدوم رسول الله ﷺ فلما قدم عمر أمرها بالسكوت وقال : «إن هذا رجل لا يحب الباطل»[(2)] .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبة امرأته فإنهن من الحق»[(3)]

والباطل من الأعمال هو ما ليس فيه منفعة ، فهذا يرخص فيه للنفوس التي لا تصبر على ما ينفع ، وهذا الحق في القدر الذي يحتاج إليه في الأوقات التي تقتضي ذلك الأعياد والأعراس وقدوم الغائب ونحو ذلك .

---

(١) رواه أحمد (١٦٥٩٩) ٣٤/ ٣٥٠ ، والترمذي (١٠٨٩) كتاب النكاح/ باب ما جاء في إعلان النكاح ، وابن ماجه (١٨٩٥) كتاب النكاح/ باب إعلان النكاح بلفظ «بالغربال» بدل «بالدف» من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه أحمد (١٥٩٩٠) ٣٣/ ١٢٠ من حديث الأسود بن يزيد أنه أنشد بين يدي النبي ﷺ ، وأما حديث المرأة التي نذرت أن تضرب بالدف بين يدي النبي ﷺ فرواه أبو داود (٣٣١٢) كتاب الأيمان والنذور/ باب ما يؤمر به من وفاء النذر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٣) رواه أبو داود (٢٥١٣) كتاب الجهاد/ باب في الرمي ، والترمذي (١٦٣٧) كتاب فضائل الجهاد/ باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي (٣٦٠٨) كتاب الخيل/ تأديب الرجل فرسه ، ورواه ابن ماجه بلفظه (٢٨١١) كتاب الجهاد/ باب الرمي في سبيل الله ، من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ .

والحديث ذكره البخاري تعليقا في صحيحه من كتاب الاستئذان ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح/ ٩١ (ح : ٦٣٠١) أخرجه أحمد والأربعة وصححه ابن خزيمة والحاكم .

وهذه نفوس النساء والصبيان ، فهن اللواتي كن يغنين في ذلك على عهد النبي ﷺ وخلفائه ويضربن بالدف ، وأما الرجال فلم يكن ذلك فيهم ، بل كان السلف يسمون الرجل المغني مخنثا لتشبهه بالنساء ، ولهذا روي : «اقرأوا القرآن بلحون العرب وإياكم ولحون العجم والمخانيث والنساء»[١] .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومن هذا الحديث أن الرسول ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء[٢] ، والمخنث بكسر النون ويقال بفتح النون ، يعني المتشبه بالنساء في كلامه وفي تكسره وفي فعله وفي أشباه ذلك ، فالواجب على المؤمن أن يكون بعيداً عن مشابهة النساء ، لا في كلامه ولا في مشيه ولا في غير ذلك .أهـ

سؤال / بالنسبة للعيد وقدوم الغائب؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا هو الذي يقع ، ولهذا وقع لجاريتين عند أبي بكر الصديق ما وقع في يوم العيد[٤] ، وأمر النبي ﷺ بذلك في العرس لأجل

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧٤٣٠) ٦/١٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٤١) ٦/ ١٧٥ فصل في ترك التعمق في القرآن ، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما .
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٤ رواه الطبراني في الأوسط وفيه راو لم يسم وبقية أيضا .
والراوي الذي لم يسم هو أبو محمد ، قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١١٨ : هذا حديث لا يصح ، وأبو محمد مجهول ، وبقية يروي عن حديث الضعفاء ويدلسهم .أهـ والحديث ضعفه الألباني ، انظر ضعيف الجامع (١٠٦٧و٢٢٩٢) .

(٢) رواه البخاري (٥٨٨٦) كتاب اللباس/ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه البخاري (٩٥٢) كتاب العيدين/ باب سنة العيدين لأهل الإسلام ، ومسلم (٨٩٢) كتاب صلاة العيدين وما يتعلق بها من أحكام ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

تمييزه عن السفاح ، وأما قدوم الغائب فللمرأة التي فعلت ذلك عند مقدم النبي ﷺ فأقرها ، فهذا للنساء .أهـ

سؤال / يفعله الرجال كما هو الواقع الآن!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا ، ليس من شأن الرجال هذا ، هذا من شأن النساء ، ولهذا قال : كانوا يسمون من فعل هذا « المخنث » قال الإمام مالك : إنما يفعله عندنا الفساق ، وعلى كلٍ لا ينبغي فعله في هذه الأحوال ، والآن الشر قد انتشر ، فينبغي البعد عن هذه الأشياء إلا في العرس فقط .

سؤال / يقع الشر والاختلاط في العرس!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : العرس لا بأس به بين النساء خاصة ، أما الاختلاط يمنع ، كذلك إذا كان بصوت المطربات ، فإذا كان بين النساء فهو سنة لإظهار النكاح وإعلان النكاح بينهن خاصة من دون مطربات ومن دون مكبرات ، وقتاً من الليل ثم ينتهي ، فهو سنة باقية .أهـ

سؤال / يقصد بالغناء الذي كان في وقت الرسول ﷺ؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : يُمنع المُحرَّم ، وإلا فالغناء مباح ، الغناء الذي في مدح المرأة أو أهل المرأة أو أهل الرجل ، الشيء العادي بين النساء ، أما الغناء الذي يمدح الزنا أو يمدح الفجور أو يمدح الخمور فهذا محرم مطلقاً .أهـ

سؤال/ ما يسمى بالعرضات؟

أجاب سماحته رحمه الله : هذا يختلف ، إن كان بالسلاح والرمي فلا بأس ، وإذا كان بالدفوف وضرب الطبول فلا ينبغي .أهـ

ولهذا لما سئل القاسم بن محمد عن الغناء فقال للسائل : يا ابن أخي ،

أرأيت إذا ميز الله يوم القيامة بين الحق والباطل ففي أيهما يجعل الغناء؟ فقال في الباطل، قال: فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

فكان العلم بأنه من الباطل مستقراً في نفوسهم كلهم، وإن فعله بعضهم مع ذلك، إذ مجرد كون الفعل باطلاً إنما يقتضي عدم منفعته لا يقتضي تحريمه إلا أن يتضمن مفسدة.

قال أبو القاسم: وأما الشافعي رحمه الله فإنه لا يحرمه ويجعله في العوام مكروهاً، حتى لو احترف الغناء، أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهي به ترد به الشهادة، ويجعله مما يسقط المروءة ولا يلحقه بالمحرمات.

قال: وليس كلامنا في هذا النوع من السماع، فإن هذه الطائفة جلّت مرتبتهم عن أن يسمعوا بلهو أو يقعدوا للسماع بسهو، أو يكونوا بقلوبهم متفكرين في مضمون لغو، أو يستمعوا على صفة غير كفء.

قلت: لم يختلف قول الشافعي في كراهته والنهي عنه للعوام والخواص، لكن هل هي كراهة تحريم أو تنزيه أو تفصيل بين بعض وبعض؟ هذا مما يتنازع فيه أصحابه، وهذا قوله في سماع العامة، وأما السماع الديني الذي جعله أبو القاسم للخاصة، فهو عند الشافعي من فعل الزنادقة، كما قال: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن.

فعنده أن هذا السماع أعظم من أن يقال فيه مكروه أو حرام، بل هو عنده مضاد للإيمان، وشرع دين لم يأذن الله به، ولم ينزل به سلطان.

وإن كان من المشايخ الصالحين من تأول في ذلك وبتأويله واجتهاده يغفر الله له خطأه، ويثيبه على ما مع التأويل من عمل صالح، فذلك لا يمنع أن يقال ما

في الفعل من الفساد ، إذ التأويل من باب المعارض في حق بعض الناس ، تدفع به عند العقوبة كما تدفع بالتوبة والحسنات الماحية ، وهذا لمن استفرغ وسعه في طلب الحق .

فقول الشافعي رحمه الله في هؤلاء كقوله في أهل الكلام : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام[(١)] . وقوله : لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام[(٢)] .

ومع هذا فقد ابتلي ببعض ذلك على وجه التأويل طوائف من أهل العلم والدين والتصوف والعبادة ،

ولهذا كان الكلام في السماع على وجهين :

أحدهما : سماع اللعب والطرب ، فهذا يقال فيه مكروه أم محرم أو باطل أو مرخص في بعض أنواعه .

الثاني : السماع المحدث لأهل الدين والقرب ، فهذا يقال فيه إنه بدعة وضلالة ، وإنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع السالفين جميعهم ، وإنما حدث في الأمة لما أحدث في الأمة ، لما أحدث الكلام فكثر هذا في العلماء وهذا في العباد .

---

(١) رواه أبو إسماعيل الهروي في ذم الكلام وأهله (١١٤٢) ٤/ ٢٩٤ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩ وقال : لعل هذا متواتر عن الإمام .

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (١٨٨١) ٢/ ٢٦٢ باب فيما يروى عن جماعة من فقهاء المسلمين ومذهبهم في القدر ، ورواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣٠٠ـ٣٠١) ١/ ١٤١ ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ، رقم (٩٨٦) ص ٣٦٦

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا هو الذي وقع للصوفية ، وهو التعبد به وجعله دينا وقربة ، وهو السماع ، يعني سماع الأغاني والملاهي بينهم ، والضرب بالقصب أو بغيره ، حتى جعلوه شغلاً لهم شاغلاً ، شغلهم عن القرآن ، فصار هذا من الخصائص التي ابتلوا بها ، وأنكره عليهم الشافعي وقال إن هذا أحدثه الزنادقة .أهـ

لهذا كان يزيد بن هارون الواسطي وهو من أتباع التابعين وأواخر القرون الثلاثة ، تجتمع في مجلسه الأمم العظيمة ، وكان أجل مشايخ الإسلام إذ ذاك ، فكان ينهى عن الجهمية وعن المغبرة .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : المغبرة يعني أهل السماع وأهل الشعر .أهـ

هؤلاء أهل الكلام المخالف للكتاب والسنة ، وهؤلاء أهل السماع المحدث المخالف للكتاب والسنة .

ولهذا لم يستطع أحد ممن يستحب السماع المحدث ويستحسنه أن يحتج لذلك بأثر عمن مضى ، ولا بأصل في الكتاب والسنة .

قال أبو القاسم : وقد روي عن ابن عمر آثار في إباحته للسماع ، وكذلك عبد الله بن جعفر أبي طالب .

قلت : أما النقل عن ابن عمر فباطل ، بل المحفوظ عن ابن عمر ذمه للغناء ونهيه عنه ، وكذلك عن سائر أئمة الصحابة كابن مسعود وابن عباس وجابر وغيرهم ، ممن ائتم بهم المسلمون في دينهم .

وأما ما يذكر من فعل عبد الله بن جعفر في أنه كان له جارية يسمع غناءها في بيته ، فعبد الله بن جعفر ليس ممن يصلح أن يعارض قوله في الدين ، فضلا عن فعله لقول ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وجابر وأمثالهم .

ومن احتج بفعل مثل عبد الله في الدين في مثل هذا ؛ لزمه أن يحتج بفعل معاوية في قتاله لعلي ، وبفعل ابن الزبير في قتاله في الفُرقة ، وأمثال ذلك مما لا يصلح لأهل العلم والدين أن يدخلوه في أدلة الدين والشرع ، لا سيما النساك والزهاد وأهل الحقائق ، لا يصلح لهم أن يتركوا سبيل المشهورين بالنسك والزهد بين الصحابة ويتبعوا سبيل غيرهم .

وما أحسن ما قال حذيفة رضي الله عنه : يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم ، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقا بعيدا ، ولئن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا(١) .

ثم الذي فعله عبد الله بن جعفر كان في داره ، لم يكن يجتمع عنده على ذلك ، ولا يسمعه إلا من ملوكته ، ولا يعده دينا وطاعة ، بل هو عنده من الباطل ، وهذا مثل ما يفعله بعض أهل السعة من استماع غناء جاريته في بيته ونحو ذلك ، فأين هذا من هذا ، هذا لو كان مما يصلح أن يحتج به ، فكيف وليس بحجة أصلا؟

قال : وكذلك عن عمر وغيره في الحداء .

قلت : أما الحداء فقد ذكر الاتفاق على جوازه ، فلا يحتج به في موارد النزاع .

وقد ثبت أن عامر بن الأكوع كان يحدو الصحابة مع النبي ﷺ قال : «من السائق» قالوا عامر بن الأكوع فقال : «يرحمه الله» فقالوا يا رسول الله : لولا أمتعتنا به ، ففي الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله

(١) رواه البخاري (٧٢٨٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .

ﷺ فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع ألا تسمعنا من هنياتك ، وكان عامر رجلا شاعرا ، فنزل يحدو بالقوم يقول . . والله لولا أنت ما اهتدينا . . ولا تصدقنا ولا صلينا . . فاغفر فداء لك ما اقتفينا . . وثبت الأقدام إن لاقينا . . . وألقين سكينة علينا . . إنا إذا صيح بنا أتينا . . وبالصياح عولوا علينا .

فقال رسول الله ﷺ : «من هذا السائق؟» قالوا : عامر بن الأكوع فقال : «يرحمه الله» فقال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله لولا أمتعتنا به ، فذكر الحديث في استشهاده في تلك الغزوة غزوة خيبر .(١)

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الاكوع قال لما كان يوم خيبر قاتل أخي قتالا شديدا مع رسول الله ﷺ فارتد عليه سيفه فقتله فقال أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك وشكوا فيه رجل مات في سلاحه قال سلمة : فقفل رسول الله ﷺ من خيبر فقلت يا رسول الله أتأذن لي أن أرجز لك فأذن له رسول الله ﷺ فقال عمر : أعلم ما تقول ، قال فقلت . . . لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا .

فقال رسول الله ﷺ : «صدقت» . . . فأنزلن سكينة علينا . . وثبت الأقدام إن لاقينا . . والمشركون قد بغوا علينا .

فلما قضيت رجزي قال رسول الله ﷺ : «من قال هذا» قلت له أخي فقال رسول الله ﷺ : «يرحمه الله» قال فقلت يا رسول الله : والله إن ناسا ليهابون الصلاة عليه يقولون رجل مات بسلاحه فقال رسول الله ﷺ : «كذبوا مات جاهدا مجاهدا فله أجره مرتين»(٢) .

(١) رواه البخاري (٤١٩٦) كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر ، ومسلم (١٨٠٢) كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة خيبر ، من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ .

(٢) رواه مسلم (١٨٠٢) كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة خيبر ، من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وذلك لأن الإنسان إذا أصابه سيفه من غير قصد فإنه لا يضره ذلك ، ولا بأس عليه بذلك ، فإنه أراد أن يسفر في قتل مرحب رئيس اليهود فقطعه سيفه بركبته ، وكان من أسباب موته رضي الله عنه وأرضاه ، فهذا الذي شكوا فيه لا محل للشك فيه ، ولهذا بيّن لهم النبي ﷺ أنه جاهد مجاهد وأن له أجره مرتين ، لأنه إنما أراد قتل الأعداء ، فأراد الله أن طرف السيف يصيبه من غير قصد منه ولا قصد قتل نفسه ، فلا يضره ذلك ، وإنما المحذور أن يتعمد قتل النفس ، أما إذا أصابه سيفه بغير قصد ، أو غير ذلك مما يصيب الإنسان بغير قصد فإنه لا يضره ذلك .اهـ

وكذلك قد ثبت في الصحيح حديث أنجشة الحبشي الذي كان يحدو حتى قال النبي ﷺ : « رويدك أنجشة سوقك بالقوارير »(١) يعني النساء أمره بالرفق بهن لئلا تزعجهن الإبل في السير إذا اشتد سيرها وينزعجن بصوت الحادي .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والحُداء نوع من الشعر من الرجز وغيره يستعمل في تشجيع الإبل على السير ، وإيناس الصلاة في وقت الليل ، فيستعملون ذلك من الأشعار الطيبة السليمة التي كان يفعلها الصحابة وغيرهم ، فليس فيه محذور ، وهكذا بقية الشعر الذي ليس فيه محذور ، كما قال النبي ﷺ : « إن من الشعر حكمة »(٢) فالأشعار التي ليس فيها محذور تقال عند الحاجة كالحُداء أو في الاستشهاد لحق ، أو في الرد على باطل ، أو لتشجيع الدعاة ، أو في

---

(١) البخاري (٦١٤٩) كتاب الأدب / باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، ومسلم (٢٣٢٣) كتاب الفضائل / باب رحمته ﷺ بالنساء والرفق بهن ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٢٨٤٤) كتاب الأدب / باب ما جاء إن من الشعر حكمة ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، ومن حديث ابن عباس « إن من الشعر حكماً » وقال : حديث حسن صحيح .

تشجيع المجاهدين ، أو ما أشبه ذلك غير داخلة في ما ذمه الله وعابه في أمر الشعراء ، ولهذا قال النبي ﷺ لحسان : « اهجهم ، فوالذي نفسي بيده إنه أشد عليهم من وقع النبل »[(١)] وقال : « اللهم أيده بروح القدس »[(٢)] وفي لفظ قال : «اهجهم وروح القدس معك »[(٣)] وهكذا لما قال لعامر : اللهم لولا أنت ما اهتدينا . . . ولا تصدقنا ولا صلينا . . . فأنزلن سكينة علينا . . وثبت الأقدام إن لاقينا . . . إن المشركين قد بغوا علينا . . قال : « صدقت »[(٤)] .أهـ

ففي الصحيحين عن أنس قال كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وغلام أسود يقال له أنجشة يحدوا فقال رسول الله ﷺ : « ويحك أنجشه رويدك سوقك بالقوارير »[(٥)] قال أبو قلابة يعني النساء ، وأخرجاه من حديث ثابت عن أنس بنحوه .

ومن حديث قتادة عن أنس قال كان للنبي ﷺ خادم يقال له أنجشة وكان حسن الصوت فقال له النبي «رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير »[(٦)] قال قتادة يعني ضعفة النساء .

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩٠) كتاب الفضائل/ باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٤٥٣) كتاب الصلاة/ باب الشعر في المسجد ، ومسلم (٢٤٨٥) كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل حسان بن ثابت ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٤٥٣) كتاب الصلاة/ باب الشعر في المسجد ، ومسلم (٢٤٨٥) كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل حسان بن ثابت ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري(٤١٩٦) كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر ، ومسلم (١٨٠٢) كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة خيبر ، من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه .

(٥) البخاري (٦١٤٩) كتاب الأدب / باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، ومسلم (٢٣٢٣) كتاب الفضائل / باب رحمته بالنساء والرفق بهن ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٦) تقدم تخريجه في المصدر السابق .

وفي رواية البخاري عن أبي قلابة قال : كانت أم سليم في الثقل وأنجشة غلام النبي ﷺ يسوق بهن فقال النبي ﷺ : «يا أنجش رويدك سوقك بالقوارير» .(١)

وفي رواية البخاري عن ثابت عن أنس قال كان النبي ﷺ في سفر فحدا الحادي فقال له النبي ﷺ : «أرفق يا أنجشة ويحك بالقوارير»(٢) .

واحتجاجهم بإنشاد الشعر كما قال أبو القاسم وأنشد بين يدي النبي ﷺ الأشعار فلم ينه عنها ، وروي أنه ﷺ استنشد الأشعار ، وهذا من القياس الفاسد كما تقدم .

قال : ومن المشهور الظاهر حديث الجاريتين وذكر حديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان في بيت عائشة بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث فقال أبو بكر : مزمور الشيطان ! فقال النبي ﷺ : «دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدا وعيدنا هذا اليوم»(٣) .

وقد تقدم أن الرخصة في الغناء في أوقات الأفراح للنساء والصبيان أمر مضت به السنة ، كما يرخص لهم في غير ذلك من اللعب ، ولكن لا يجعل الخاص عاما ، ولهذا لما قال أبو بكر أمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ لم ينكر النبي ﷺ هذه التسمية ، والصحابة لم يكونوا يفعلون شيئا من ذلك ، ولكن ذكر النبي ﷺ أمرا خاصا بقوله : «إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا» .(٤)

---

(١) البخاري (٦١٤٩) كتاب الأدب / باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه من حديث أنس ﷺ .

(٢) البخاري (٦١٤٩) كتاب الأدب / باب المعاريض مندوحة عن الكذب ، من حديث أنس ﷺ .

(٣) رواه البخاري (٩٥٢) كتاب العيدين / باب سنة العيدين لأهل الإسلام ، ومسلم (٨٩٢) كتاب صلاة العيدين وما يتعلق بها من أحكام ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) متفق عليه .

ومثل هذا قوله لعمر : «لو رآك سالكا فجا لسلك فجا غير فجك»(١) لما خاف منه النساء فيما كن يفعلنه بحضرة النبي ﷺ ، فعلم أن هذا وإن كان من الشيطان ، لكن الرخصة فيه لهؤلاء لئلا يدعوهم إلى ما يفسد عليهم دينهم ، إذ لا يمكن صرفهم عن كل ما تتقاضاه الطبائع من الباطل .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا معناه أن ما يتعلق بالجواري والنساء في الأعراس والأفراح والصبيان أنه أمر مختص ، خاص لا يقاس عليه غيره من أمر الرجال وأمر الكبار واتخاذ ذلك عادة وطريقة كما اتخذه الصوفية ، بل هذا من باب الترويح عن النفوس لهؤلاء الذين اعتادوا على ذلك ، ولو منعوا لربما جرهم إلى ما يضرهم ، فما يتعلق بالنساء في الأعياد في بيوتهن والجواري والأعراس أمر سمحت به الشريعة ، لما فيه من إظهار النكاح وإعلان النكاح ، والفسح للجواري والصبيان في أيام العيد ، من غير أمر يضر المسلمين أو يدخل عليهم باطلاً .

فأما من احتج بذلك على أن يفعله الكبار ويفعله الناس في المجامع ويتخذ ديناً وقربة ، تضرب معه الطبول وتضرب معه الأعواد كما يفعله الصوفية ؛ هذا هو المنكر الذي أنكره الشيخ رحمة الله عليه .اهـ

والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فهي تحصل أعظم المصلحتين بفوات أدناهما ، وتدفع أعظم الفسادين باحتمال أدناهما ، فإذا وصف المحتمل بما فيه من الفساد مثل كونه من عمل الشيطان ، لم

(١) رواه البخاري (٣٦٨٣) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ / باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه ، ومسلم (٢٣٩٦) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم / باب فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

يمنع ذلك أن يكون قد وقع به ما هو أحب إلى الشيطان منه، ويكون إقرارهم على ذلك من المشروع، فهذا أصل ينبغي التفطن له.

والشيطان يوسوس لبني آدم في أمور كثيرة من المباحات، كالتخلي والنكاح وغير ذلك، وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم، فلا يمكن حفظ جميع بني آدم من كل ما للشيطان فيه نصيب، لكن الشارع يأمر بالتمكن من ذلك، كما شرع التسمية والاستعاذة عند التخلي والنكاح وغير ذلك، ولو لم يفعل الرجل ذلك لم نقل إنه يأثم بالتخلي ونكاح امرأته ونحو ذلك.

وكذلك ذكر العرس وقول النبي ﷺ: «إن الأنصار فيهم غزل ولو أرسلتم من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم»[1] . . .

وقد تقدم أن الخاص لا يجعل عاما، ومدار الحجج في هذا الباب ونحوه إما على قياس فاسد وتشبيه الشيء بما ليس مثله، وإما على جعل الخاص عاما، وهو أيضا من القياس الفاسد، وإما احتجابهم بما ليس بحجة أصلا.

ثم احتج أبو القاسم بما هو من جنس القياس الفاسد، فذكر حديث البراء ابن عازب قال سمعت النبي ﷺ يقول: «حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت

---

(١) رواه أحمد (١٥٦٠٠) ٣٢/ ١٣٤ من حديث جابر ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد٣/ ٢٠٠: رواه أحمد والبزار وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. أهـ ورواه ابن ماجه (١٩٠٠) كتاب النكاح/ باب الغناء والدف، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه رواد بن الجراح وثقه أحمد وابن معين وابن حبان وفيه ضعف. أهـ والحديث حسنه الألباني بطرقه كما في الإرواء٧/ ٥١، وأصل الحديث في صحيح البخاري (٥١٦٢) كتاب النكاح/ باب النسوة التي يهدين المرأة إلى زوجها ودعائهن بالبركة، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحسن يزيد القرآن حسنا»[١] وحديثاً عن أنس مرفوعا : «لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت» وهذا ضعيف عن النبي ﷺ ، من رواية عبد الله ابن محرز ، وهو ضعيف لا يحتج به بحال .[٢]

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لعلها : ابن محرر بالراء ، وذكره البخاري معلقاً في كتابه ، في آخر كتابه الصحيح « زينوا القرآن بأصواتكم »[٣] ويبدو أن عليه معنى : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به»[٤] تحسين الصوت بالقراءة والعناية بذلك هذا من أفضل القربات .أهـ

سؤال / الناس في هذه الأيام يأخذون هذا الحديث على ظاهره بالغناء من الخلاعة في العرس والمناسبات ، نريد أن نفهم الغناء الذي يستعمل في العرس؟

---

(١) رواه الدارمي في سننه (٣٥٦٥) كتاب فضائل القرآن/ باب التغني بالقرآن ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٧٤) فصل في تحسين الصوت بالقراءة والقرآن ، والحاكم (٢٠٨٣) من حديث البراء بن عازب ﷺ ، وذكر السخاوي في «المقاصد الحسنة» ١/ ١٢٧عن أبي نعيم في الحلية من حديث علقمة قال : كنت رجلا حسن الصوت بالقرآن فكان ابن مسعود يبعث إلي فآتيه فيقول لي : رتل فداك أبي وأمي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «حسن الصوت زينة القرآن» وكلاهما مما يتأيد به رواية : «زينوا القرآن بأصواتكم» .

(٢) الحديث رواه عبد الرزاق في مصنفه ، وهو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ضعفه الهيثمي في المجمع ٧/ ٨٦ وقال : رواه البزار وفيه عبد الله بن المحرر وهو متروك .أهـ
والحديث رواه أيضا الطبراني في الأوسط ١٦/ ٣٢٠ من حديث ابن عباس وقال : لم يرو هذا الحديث عن ابن جريج إلا محمد بن مروان .

(٣) رواه البخاري معلقا ، كتاب التوحيد / باب قول النبي ﷺ « الماهر بالقرآن مع سفرة الكرام البررة » . قال الشيخ الألباني : صحيح ، رواه أبو داود وغيره من أصحاب السنن ، والحاكم وأحمد بسند صحيح عن البراء بن عازب «صحيح أبي داود» (١٣٢٠) .أهـ

(٤) رواه البخاري (٧٥٢٧) كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى : (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) من حديث أبي هريرة ﷺ .

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : الذي ما فيه محذور ، الذي ما فيه دعوة إلى الزنا ولا إلى الخمر ، وإنما هو شيء فيما بينهم ، مدح الزوج مدح الزوجة مدح أهل الزوج مدح أهل الزوجة وأشباه ذلك ، الأمور التي جرت في عهد النبي ﷺ .أهـ

سؤال / وإن خالطها موسيقى أو مزمار؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا ، لا يدخل فيها إلا الدف فقط ، أما إذا كان فيه موسيقى أو فيه طبل أو فيه عود ، كما يفعل بعض الناس ، كل هذا منكر ، ما فيه إلا الدف وهو ذو وجه واحد يضربونه ويغنون عليه بين النساء خاصة من دون اختلاط .أهـ

سؤال / والرجال؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا يجوز للرجال إلا ما كان يتعلق بالسلاح والتدرب مثل ما فعل الحبشة بالحراب والسيوف والرماح ، أما بالدفوف والطبول فهذا لا يصلح للرجال .أهـ

سؤال / التدرب في كل وقت أو في أوقات؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : التدرب متى ما شاءوا ، التدرب بالسلاح ما فيه وقت مخصوص ، أقر النبي ﷺ الحبشة حتى في المسجد على التدرب بالسلاح[1] .أهـ

وقال دل هذا الخبر على فضيلة الصوت .

---

(١) رواه البخاري (٩٨٨) كتاب العيدين/ باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين ، ومسلم (٨٩٢) كتاب صلاة العيدين/ باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

قلت : هذا دل على فضل الصوت الحسن بكتاب الله لم يدل على فضيلته بالغناء ، ومن شبه هذا بهذا فقد شبه الباطل بأعظم الحق .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (يس) ، فكيف نشبه ما أمر الله به من تلاوة كتابه وتحسينه بالصوت بما لم يأمر بتحسين الصوت به؟ هذا مثل من قال : إذا أمر الله بالقتال في سبيله بالسيف والرمح والرمي ، دل على فضيلة الضرب والطعن ، ثم يحتج بذلك على الضرب والطعن والرمي في غير سبيل الله .

ومثل من قال : إذا أمر الله بإنفاق المال في سبيله دل على فضيلة المال ، ويحتج بذلك على إنفاق المال في غير سبيله .

أو قال : إذا أمر الله بالاستعفاف بالنكاح دل على فضيلة النساء ، ويحتج بذلك على فضيلة النساء ، ويحتج بذلك على فضيلة النكاح ، ويحتج بذلك على فضيلة ما لم يأذن الله به من النكاح .

وكذلك كل ما يعين على طاعة الله من تفكر أو صوت أو حركة أو قوة أو مال أو أعوان أو غير ذلك ، فهو محمود في حال إعانته على طاعة الله ومحابه ومراضيه ، ولا يستدل بذلك على أنه في نفسه محمود على الإطلاق ، ويحتج بذلك على أنه محمود إذا استعين به على ما هو من طاعة الله ، ولا يحتج به على ما ليس هو من طاعة الله ، بل هو من البدع في الدين أو الفجور في الدنيا .

ومثل هذا قوله ﷺ : «لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»(١) وقال : «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت

(١) رواه أحمد في المسند (٢٤٦٧٣) وابن ماجه (١٣٤٠) كتاب إقامة الصلوات/ باب في حسن الصوت ، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه .

يتغنى بالقرآن يجهر به»[١] بل قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٢] يقتضي أن التغني المشروع هو بالقرآن، وأن من تغنى بغيره فهو مذموم، ولا يقال هذا يدل على استحباب حسن التغني.

وقوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، إما أن يريد به الحض على أصل الفعل، وهو نفس التغني بالقرآن، وإما أن يريد به مطلق التغني، وهو على صفة الفعل، والأول هو أن يكون تغنيه إذا تغنى بالقرآن لا بغيره، وهذا كما وقع في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩)، هل هو أمر بأصل الحكم أو بصفته إذا حكم؟

والمعنى الثاني ذم لمن تغنى بغيره مطلقا دون من ترك التغني به وبغيره.

والمعنى الأول ذم لمن ترك التغني به دون من تغنى به ومن تغنى بغيره.

ثم ذكر أبو القاسم حديث ابن عاصم عن شبيب بن بشر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «صوتان ملعونان: صوت ويل عند مصيبة وصوت مزمار عند نغمة»[٣] مفهوم الخطاب يقتضي إباحة غير هذا في غير هذه الأحوال، وإلا لبطل التخصيص.

قلت: هذا الحديث من أجود ما يحتج به على تحريم الغناء، كما في اللفظ المشهور عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما نهيت عن صوتين

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٣) كتاب فضائل القرآن/ باب من لم يتغن بالقرآن، ومسلم (٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٧) كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٥: رواه البزار ورجاله ثقات. اهـ.

أحمقين فاجرين صوت عند نعمة لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب ودعوى بدعوى الجاهلية»(١).

فنهى عن الصوت الذي يفعل عند النغمة، كما نهى عن الصوت الذي يفعل عند المصيبة، والصوت الذي عند النغمة هو صوت الغناء.

وأما قوله «صوت مزمار» فإن نفس صوت الإنسان يسمى مزمارا، كما قيل لأبي موسى: «لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود»(٢) وكما قال أبو بكر ﷺ: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟

وأما قوله: مفهوم الخطاب يقتضي إباحة غير هذا جوابه من وجهين:

أحدهما: أن مثل اللفظ الذي ذكره لا مفهوم له عند أكثر أهل العلم.

والتخصيص في مثل هذا كقوله ﷺ: «ثلاث في أمتي من أمر الجاهلية»(٣) ومن قال إنه يكون له مفهوم، فذلك إذا لم يكن للتخصيص سبب آخر، وهذا التخصيص لكون هذه الأصوات هي التي كانت معتادة في زمنه، كقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ (الإسراء: ٣١).

(١) رواه الترمذي (١٠٠٥) كتاب الجنائز/ باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٤٤٥: رواه أبو يعلى والبزار وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وفيه كلام. أهـ ونقل الزيلعي في نصب الراية ٩/ ٤٧٢ عن النووي في الخلاصة قوله: ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ضعيف ولعله اعتضد. أهـ.

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨) كتاب فضائل القرآن/ باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ومسلم (٧٩٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب تحسين الصوت بالقرآن.

(٣) رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز باب التشديد في النياحة من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

والثاني: أن اللفظ الذي ذكره الرسول يدل على مورد النزاع، فإنه صوت النغمة، ولو لم تكن نعمة لكان تنبيها عليه، فإنه إذا نهى عن ذلك عند النغمة، والإنسان معذور في ذلك، كما رخص في غناء النساء في الأعراس والأعياد ونحو ذلك، فلأن ينهى عن ذلك بدون ذلك بدون أولى وأحرى.

والآلات الملهية قد صح فيها ما رواه البخاري في صحيحه تعليقا مجزوما به داخلا في شرطه عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح بسارحة لهم يأتيهم لحاجتهم فيقولون ارجع إلينا غدا فيبيتهم الله ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»(١).

وقال أبو القاسم: وقد روي أن رجلا أنشد بين يدي النبي ﷺ فقال...

أقبلت فلاح لها عارضان كالسبج... أدبرت فقلت لها والفؤاد في وهج...

هل علي ويحكما إن عشقت من حرج...

فقال رسول الله ﷺ: «لا حرج إن شاء الله».

قلت: هذا الحديث موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث لا أصل له، وليس هو في شيء من دواوين الإسلام، وليس له إسناد، بل هو من جنس الحديث الآخر الذي قيل فيه إن أعرابيا أتى إلى النبي ﷺ وأنشده... قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب لها ولا راقي... إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وترياقي.

وهذا أيضا موضوع باتفاق أهل العلم كذب مفترى.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٩٠) كتاب الأشربة/ باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

وكذلك ما يروى من أنهم تواجدوا وأنهم مزقوا الخرقة ونحو ذلك ، كل ذلك كذب لم يكن في القرون الثلاثة لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا بالعراق ولا خراسان من يجتمع على هذا السماع المحدث ، فضلا عن أن يكون كان نظيره على عهد النبي ﷺ ، ولا كان أحد يمزق ثيابه ولا يرقص في سماع ولا شيء من ذلك أصلا ، بل لما حدث التغبير في أواخر المائة الثانية ، وكان أهله من خيار الصوفية ، وحدث من جهة المشرق التي يطلع منها قرن الشيطان ومنها الفتن .

قال الشافعي رحمه الله : خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن .

والذين شهدوا هذا اللغو متأولين من أهل الصدق والإخلاص والصلاح غمرت حسناتهم ما كان لهم فيه وفي غيره من السيئات أو الخطأ في مواقع الاجتهاد وهذا سبيل كل صالحي هذه الأمة في خطئهم وزلاتهم

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ (الزمر) ، وذلك كالمتأولين في تناول المسكر من صالحي أهل الكوفة ومن اتبعهم على ذلك ، وإن كان المشروب خمرا لا يشك في ذلك من اطلع على أقوال النبي ﷺ وأقوال الصحابة ، وكذلك المتأولون في المتعة والصرف من أهل مكة متبعين لما كان يقوله ابن عباس ، وإن كان قد رجع عن ذلك أو زادوا عليه ، إذ لا يشك في ذلك ، وأنه من أنواع الربا المحرم والنكاح المحرم من اطلع على نصوص النبي ﷺ .

وكذلك المتأولون في بعض الأطعمة والحشوش من أهل المدينة ، وإن كان لا يشك في تحريم ذلك من اطلع على نصوص النبي ﷺ وأصحابه ، وكذلك ما دخل فيه من دخل من السابقين والتابعين من القتال في الفتنة والبغي بالتأويل ، مع ما علم في ذلك من نصوص الكتاب والسنة من ترك القتال والصلح ، فما تأول فيه قوم من ذوي العلم والدين من مطعوم أو مشروب أو منكوح أو مملوك أو مما قد علم أن الله قد حرمه ورسوله ؛ لم يجز اتباعهم في ذلك ، مغفورا لهم وإن كانوا خيار المسلمين ، والله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو سبحانه يمحو السيئات بالحسنات ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وبهذا يحصل الجواب عما ذكره الشيخ أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب ، حيث ذكر أنه من أنكر السماع مطلقا غير مقيد فقد أنكر على سبعين صدِّيقًا ، ولعل الانكار اليوم يقع على خلق عظيم من الصدِّيقين ، لكن يقال الذين أنكروا ذلك أكثر من سبعين صديقا وسبعين صديقا وسبعين صديقا ، وهم أعظم علما وإيمانا وأرفع درجة ، فليس الانتصار بطائفة من الصديقين على نظرائهم ، لا سيما من هو أكبر وأكبر بأدل من العكس .

فإن القائل إذا قال : من شرع هذا السماع المحدث وجعله مما يتقرب به فقد خالف جماهير الصديقين من هذه الأمة ورد عليهم ؛ كان قوله أصح وأقوى في الحجة ، دع ما سوى ذلك .

وهنا أصل يجب اعتماده ، وذلك أن الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ، ولم يعصم آحادها من الخطأ ، لا صدِّيقًا ولا غير صدِّيق ، لكن إذا وقع بعضها في خطأ فلا بد أن يقيم الله فيها من يكون على الصواب في ذلك

الخطأ، لأن هذه الأمة شهداء على الناس، وهم شهداء الله في الأرض، وهم خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فلا بد أن تأمر بكل معروف وتنهى عن كل منكر، فإذا كان فيها من يأمر بمنكر متأولاً فلا بد أن يكون فيها من يأمر بذلك المعروف.

فأما الاحتجاج بفعل طائفة من الصديقين في مسألة نازعهم فيها أعداهم فباطل، بل لو كان المنازع لهم أقل منهم عدداً وأدنى منزلة لم تكن الحجة مع أحدهما إلا بكتاب الله وسنة رسوله، فإنه بذلك أمرت الأمة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ (النساء)، فإذا تنازعت الأمة وولاة الأمور من الصديقين وغيرهم فعليهم جميعهم أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمعنى أن الكثرة لا تكفي، فإذا وقع النزاع واشتبه الأمر لم تكن الكثرة مرجحة وكافية في أن هذا هو الحق، بل لابد من مراجعة الدليل حتى يتبين، فإن كان مع الكثير فهم أصحاب الصواب، وإن كان مع القليل فهو صاحب الصواب، ولهذا وجب في مسائل النزاع الرد إلى الله وإلى رسوله ﷺ:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٩) أهـ

ومن المعلوم أن الصديقين الذين أباحوا بعض المسكر كانوا أسبق من هؤلاء وأكثر وأكبر، وكذلك الذين استحلوا المتعة والصرف وبعض المطاعم الخبيثة والحشوش، والذين استحلوا القتال في الفتنة متأولين معتقدين أنهم على الحق وغير ذلك، هم أسبق من هؤلاء وأكثر وأكبر.

فإذا نهى عما نهى الله عنه ورسوله لم يكن لأحد أن يقول هذا إنكار على كذا وكذا رجلا من السابقين والتابعين ، فإن هذا الإنكار كان من نظرائهم ومن هو فوقهم أو قريبا منهم ، وعند التنازع فالمرد إلى الله ورسوله .

ولكن من ذهب إلى القول المرجوح ينتفع به في عذر المتأولين ، فإن عامة ما حرمه الله ، مثل قتل النفس بغير حق ، ومثل الزنا والخمر والميسر والأموال والأعراض قد استحل بعض أنواعه طوائف من الأمة بالتأويل ، وفي المستحلين قوم من صالحي الأمة وأهل العلم والإيمان منهم .

لكن المستحل لذلك لا يعتقد أنه من المحرمات ، ولا أنه داخل فيما ذمه الله ورسوله ، فالمقاتل في الفتنة متأولا لا يعتقد أنه قتل مؤمنا بغير حق ، والمبيح للمتعة والحشوش ونكاح المحلل لا يعتقد أنه أباح زنا وسفاحا ، والمبيح للنبيذ المتأول فيه ولبعض أنواع المعاملات الربوية وعقود المخاطرات لا يعتقد أنه أباح الخمر والميسر والربا .

ولكن وقوع مثل هذا التأويل من الأئمة المتبوعين أهل العلم والإيمان صار من أسباب المحن والفتنة ، فإن الذين يعظمونهم قد يقتدون بهم في ذلك ، وقد لا يقفون عند الحد الذي انتهى إليه أولئك ، بل يتعدون ذلك ويزيدون زيادات لم تصدر من أولئك الأئمة السادة ، والذين يعلمون تحريم جنس ذلك الفعل قد يعتدون على المتأولين بنوع من الذم فيما هو مغفور لهم ، ويتبعهم آخرون فيزيدون في الذم ما يستحلون به من أعراض إخوانهم وغير أعراضهم ما حرمه الله ورسوله ، فهذا واقع كثير في موارد النزاع الذي وقع فيه خطأ من بعض الكبار .

واعتبر ذلك بمسألة السماع التي تكلمنا فيها ، فإن الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه ، حيث أكمل الدين وأتم عليهم النعمة ورضي لهم

الإسلام دينا ، وهو سماع القرآن الذي شرعه لهم في الصلاة التي هي عماد دينهم وفي غير الصلاة مجتمعين ومنفردين ، حتى كان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقون يسمعون ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون(١) . وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهكذا النبي ﷺ كان إذا اجتمع بهم يقرأ عليه الصلاة والسلام ويفسر لهم كلام ربهم سبحانه ويعلمهم ، وإذا مر بالسجدة سجد وسجدوا معه عليه الصلاة والسلام ، ومرة قال لابن مسعود : « اقرأ علي » فقال : كيف أقرأ وعليك أنزل؟ قال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » ﷺ ، فشرع ابن مسعود في سورة النساء يقرأ حتى بلغ قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (النساء) فقال : « حسبك » قال عبد الله بن مسعود : فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان(٢) ، ﷺ ، تذكر هذا الموقف العظيم يوم القيامة ، فلهذا بكى ﷺ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (النساء) على هذه الأمة .أهـ

وإنما ذكرنا هنا نكتا تتعلق بالسماع .

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٤١٨١) ٢/ ٤٨٦ ، والدارمي في السنن (٣٤٩٦) ٢/ ٥٦٤ ، وابن حيان في صحيحه (٧١٩٦) وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٢) كتاب التفسير/ باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)، وذكر سماع المؤمنين والعارفين والعالمين والنبيين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ (الأنفال) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ (الإسراء)، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ (مريم)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ (الزمر: ١٨)، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ (الفرقان)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (فصلت)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ (الفرقان)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ

ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنفال) وقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ (المدثر)، وقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ (الإسراء)، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٦)، وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (العنكبوت:٤٥)، وقال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل:٢٠)..

وقال النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1] وقال: «**من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول الم حرف ولكن أقول ألف حرف ولام حرف وميم حرف**»[2] وهذا باب واسع يضيق هذا الموضع عن ذكر جزء منه.

فلما انقرضت القرون الفاضلة حصل فترة في هذا السماع المشروع الذي به صلاح القلوب وكمال الدين، وصار أهل التغيير فيه أحد رجلين: رجل معرض عن السماع المشروع وغير المشروع، ورجل احتاج إلى سماع القصائد والأبيات فأحدث سماع القصائد والأبيات كالتغير، وكان الأكابر الذين حضروه لهم من

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧) كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٠) كتاب فضائل القرآن/ باب ما جاء في من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقال: حديث حسن صحيح.

التأويل ما لهم ، فأقام الله في الأمة من أنكر ذلك ، كما هو سنة الله في هذه الأمة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني سنته سبحانه أنه كلما حدثت بدعة قيّض الله لها من ينكرها ويبين بطلانها ، هكذا حتى ينتهي هذا العالم ، لأن الأمة لا تجتمع على ضلالة ، فلابد من وجود طائفة على الحق منصورة تنكر ما يحدثه الناس ، وتبين خطأ من أحدث الباطل ، حتى تقوم الحجة وتنقطع المعذرة .أهـ

والتغبير اصطلاح لهم في ما أحدثوه من السماع ، أبيات يختارونها ويرددونها بينهم ، أشعاراً بينهم في الحب والوجد أو في الخوف والخشية ، يرددون بأعواد يضربونها أو مزمار يضربونه أو قصبة ، حتى يكون عندهم خشوع أكثر بزعمهم .

التغبير في سماعهم ، يسمونه التغبير وهو اصطلاح لهم ، عندهم قصبة أو عود أو مزمار يضربون به ، يحصل به مع سماع الأغاني هذه يحصل لهم نوع شوق لهم ونوع خضوع وبكاء .أهـ

سؤال / « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » يفيد للوجوب؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : ظاهره ، لأن هذا ظاهره الوعيد « يجهر به » يعني بتحسين صوته .أهـ

وهؤلاء المنكرون فيهم المقتصد في إنكاره ومنهم المتأول بزيادة في الإنكار غير مشروعة ، كما أحدث أولئك ما ليس مشروعا ، وصار على تمادي الأيام يزداد المحدث من السماع ، ويزداد التغليظ في أهل الإنكار ، حتى آل الأمر من أنواع البدع والضلالات والتفرق والاختلافات إلى ما هو من أعظم القبائح المنكرات التي لا يشك في عظم إثمها وتحريمها من له أدنى علم وإيمان .

وأصل هذا الفساد من ذلك التأويل في مسائل الاجتهاد، فمن ثبته الله بالقول الثابت أعطى كل ذي حق حقه، وحفظ حدود الله فلم يتعدها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق: ١)، فالشر في التفريط بترك المأمور أو العدوان بتعدي الحدود، وحصلت الزيادات في جميع الأنواع المبتدعة.

فإن أصل سماع القصائد كان تلحينا بإنشاد قصائد مرققة للقلوب، تحرك تحريك المحبة والشوق أو الخوف والخشية أو الحزن والأسف وغير ذلك، وكانوا يشترطون له المكان والإمكان والخلان، فيشترطون أن يكون المجتمعون لسماعها من أهل الطريق المريدين لوجه الله والدار الآخرة، وأن يكون الشعر المنشد غير متضمن لما يكره سماعه في الشريعة، وقد يشترط بعضهم أن يكون القوال منهم، وربما اشترط بعضهم ذلك في الشاعر الذي أنشأ تلك القصائد، وربما ضموا إليه آلة تقوي الصوت، وهو الضرب بالقضيب على جلد مخدة أو غيرها وهو التغبير.

ومن المعلوم أن استماع الأصوات يوجب حركة النفس بحسب ذلك الصوت الذي يوجب الحركة وهو يوجب الحركة.

وللأصوات طبائع متنوعة تتنوع آثارها في النفس، وكذلك للكلام المسموع نظمه ونثره، فيجمعون بين الصوت المناسب والحروف المناسبة لهم.

وهذا الأمر يفعله بنو آدم من أهل الديانات البدعية كالنصارى والصابئة، وغير أهل الديانات ممن يحرك بذلك حبه وشوقه ووجده، أو حزنه وأسفه، أو حميته وغضبه، أو غير ذلك فخلف بعد أولئك من صار يجمع عليه أخلاطا من الناس، ويرون اجتماعهم لذلك شبكة تصطاد النفوس بزعمهم إلى التوبة والوصول في طريق أهل الإرادة.

وأحدث بعد أولئك أيضا الاستماع من المخانيث المعروفين بالغناء لأهل الفسوق والزنا، وربما استمعوه من الصبيان المردان، أو من النسوان الملاح كما يفعل أهل الدساكر والمواخير.

وقد يجمعون في السماع أنواع الفساق والفجار، وربما قصدوا التكاثر بهم والافتخار، لا سيما إن كانوا من أهل الرياسة واليسار، وكثيرا ما يحضر فيه أنواع المردان، وقد يكون ذلك من أكبر مقاصد أهل السماع، وربما ألبسوهم الثياب المصبغة الحسنة وأرقصوهم في طابق الرقص والدوران، وجعلوا مشاهدتهم بل معانقتهم مطلوبا لمن يحضر من الأعيان، وإذا غلبهم وجد الشيطان رفعوا الأصوات التي يبغضها الرحمن.

وكذلك زادوا في الابتداع في إنشاد القصائد، فكثيرا ما ينشدون أشعار الفساق والفجار، وفيهم كثير ينشدون أشعار الكفار.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: هكذا البدع يجر بعضها إلى بعض، ويجر شرها إلى ما هو أشر منه، نسأل الله العافية. اهـ.

بل ينشدون ما لا يستجيزه أكثر أهل التكذيب، وإنما يقوله أعظم الناس كفرا برب العالمين وأشدهم بعدا عن الله ورسوله والمؤمنين.

وزادوا أيضا في الآلات التي تستثار بها الأصوات مما يصنع بالأفواه والأيدي كأبواق اليهود ونواقيس النصارى، من يبلغ المنكرات كأنواع الشبابات والصفارات وأنواع الصلاصل والأوتار المصوتات ما عظمت به الفتنة، حتى ربا فيها الصغير وهرم فيها الكبير، وحتى اتخذوا ذلك دينا وديدنا، وجعلوه من الوظائف الراتبة بالغداة والعشي كصلاة الفجر والعصر، وفي الأوقات والأماكن الفاضلات، واعتاضوا به عن القرآن والصلوات، وصدق فيهم قوله: ﴿فَخَلَفَ

مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ (مريم :٥٩) ، وصار لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ (الأنفال :٣٥) إذ المكاء هو الصفير ونحوه من الغناء ، والتصدية هي التصفيق بالأيدي ، فإذا كان هذا سماع المشركين الذي ذمه الله في كتابه ؛ فكيف إذا اقترن بالمكاء الصفارات المواصيل ، وبالتصدية مصلصلات الغرابيل ، وجعل ذلك طريقا ودينا يتقرب به إلى المولى الجليل .

وظهر تحقيق قول عبد الله بن مسعود ﷺ : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل[1] .

بل أفضى الأمر إلى أن يجتمع في هذا السماع على الكفر بالرحمن والاستهزاء بالقرآن ، والذم للمساجد والصلوات ، والطعن في أهل الإيمان والقربات ، والاستخفاف بالأنبياء والمرسلين ، والتحضيض على جهاد المؤمنين ، ومعاونة الكفار والمنافقين ، واتخاذ المخلوق إلها من دون رب العالمين ، وشرب أبوال المستمعين ، وجعل ذلك من أفضل أحوال العارفين ، ورفع الأصوات المنكرات التي أصحابها شر من البهائم السائمات ، الذين قال الله في مثلهم : ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ (الفرقان) ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٢٣ وفي شعب الإيمان ٤/ ٢٧٨ .

﴿هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ (الأعراف)، الذين يفعلون في سماعاتهم ما لا يفعله اليهود والنصارى، ولهذا يتولون من يتولاهم من اليهود والنصارى والصابئة والمشركين والمجوس، ويجعلونهم من إخوانهم وأصحابهم وأهل خرقتهم، مع معاداتهم للأنبياء والمؤمنين.

فصار السماع المحدث دائرا بين الكفر والفسوق والعصيان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكفره من أغلظ الكفر وأشده، وفسوقه من أعظم الفسوق.

وذلك أن تأثير الأصوات في النفوس من أعظم التأثير يغنيها ويغذيها، حتى قيل إنه لذلك سمي غناء لأنه يغني النفس.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: يعني يشغلها عن الأكل والشرب وغير ذلك، بسبب الطرب الذي يحصل لهم يشتغلون بذلك حتى عن الأكل والشرب. أهـ

وهو يفعل في النفوس أعظم من حميا الكؤوس، حتى يوجب للنفوس أحوالا عجيبة يظن أصحابها أن ذلك من جنس كرامات الأولياء، وإنما هو من الأمور الطبيعية الباطلة المبعدة عن الله، إذ الشياطين تمدهم في هذا السماع بأنواع الإمداد كما قال تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ٢٠٢﴾ (الأعراف) وقال للشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ (الإسراء: ٦٤) فربما يخف أحدهم حتى يرقص فوق رؤوسهم، ويكون شيطانه هو المغوي لنفوسهم.

ولهذا كان مرة في سماع يحضره الشيخ شبيب الشطي، فبينما هم في سماع أحدهم وإذا بعفريت يرقص في الهواء على رؤوسهم، فتعجبوا منه

وطلب الشيخ لمريده الشيخ أبا بكر بن فينان وكان له حال ومعرفة، فلما رآه صرخ فيه فوقع، فلما فرغوا طلب منه أن ينصفه، وقال هذا سلبني حالي، فقال الشيخ: لم يكن له حال ولكن كان بالرحبة فحمله شيطانه إلى هنا وجعل يرقص به، فلما رأيت الشيطان صرخت فيه فهرب فوقع هذا، والقصة معروفة يعرفها أصحاب الشيخ.

وصار في أهل هذا السماع المحدث الذين اتخذوا دينهم لغوا ولعبا ضد ما أحبه الله وشرعه في دين الحق الذي بعث به رسوله من عامة الوجوه، بل صار مشتملا على جميع ما حرمه الله ورسله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وصنيعهم هذا فيه الأشياء كلها، اجتمعت فيه الفواحش والبغي والشرك والقول على الله بغير علم والإثم، كله جمعوه في هذه الاجتماعات التي لهؤلاء الصوفية، على سماعهم وغناهم وما عندهم من الفواحش ونحو ذلك، نسأل الله العافية. اهـ

فصار فيه من الفواحش الظاهرة والباطنة والإثم والبغي بغير الحق والإشراك بالله ما لم ينزل به سلطانا والقول على الله بغير علم ما لا يحصيه إلا الله، فإنه تنوع وتعدد وتفرق أهله فيه وصاروا شيعا لكل قوم ذوق ومشروب وطريق يفارقون به غيرهم، حتى في الحروف المنشدة والأصوات الملحنة والأذواق الموجدة والحركات الثائرة، والقوم المجتمعين، وصار من فيه من العلم

والإيمان ما ينهاه عما ظهر تحريمه من أنواع الكفر والظلم والفواحش ، يريد أن يحد حدا للسماع المحدث يفصل به بين ما يسوغ منه وما لا يسوغ ، فلا يكاد ينضبط حد لا بالقول ولا بالعمل ، فإن قرب في الضبط والتحديد بالقول لم ينضبط له بالعمل ، إذ يندر وجود تلك الشروط ، حتى إنه اجتمع مرة ببغداد في حال عمارتها ووجود الخلافة بها أعيان الشيوخ الذين يحضرون السماع المفتون ، فلم يجدوا من يصلح له في بغداد وسوادها إلا نفرا إما ثلاثة وإما أربعة وإما نحو ذلك .

وسبب هذا الاضطراب أنه ليس من عند الله ، وما كان من عند غير الله وجدوا فيه اختلافا كثيرا : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ ﴾ (الروم).

ثم مع اشتماله على المحرمات كلها أو بعضها يرون أنه من أعظم القربات بل أعظمها وأجلها قدرا .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني السماع الذي عندهم ، سماع الصوفية للأغاني والضرب بالقضيب .اهـ

وأن أهله هم الصفوة أولياء الله وخيرته من خلقه ، ولا يرضون بمساواة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسلف الأمة ، حتى يتفضلوا عليهم ،

وفيهم من يساوون أنفسهم بالأنبياء والمرسلين ، وفيهم من يتفضل أيضاً على الأنبياء والمرسلين على أنواع من الكفر التي ليس هذا موضعها .

وجماع الأمر أنه صار فيه وفيما يتبعه في وسائل ذلك ومقاصده في موجوده ومقصوده في صفته ونتيجته ضد ما في السماع والعبادات الشرعية في وسائلها ومقاصدها موجودها ومقصودها صفتها ونتيجتها ، فذاك يوجب العلم والإيمان ، وهذا يوجب الكفر والنفاق ، ولهذا كان أعراب الناس أهل البوادي من العرب والترك والكرد وغيرهم أكثر استعمالاً له من أهل القرى ، فإنهم كما قال الله تعالى : ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ (التوبة : ٩٧) .

ولهذا كان يحضره الشياطين كما أن سماع أهل الإيمان تحضره الملائكة ، وتنزل عليهم فيه الشياطين وتوحي إليهم كما تنزل الملائكة على المؤمنين وتقذف في قلوبهم ما أمرهم الله ، فإن الملائكة تنزل عند سماع القرآن وعند ذكر الله كما في الصحيح : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»(١) .

وفي الصحيح أن أسيد بن الحضير كان يقرأ سورة الكهف فرأى مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فقال النبي ﷺ : «تلك السكينة تنزلت لسماع القرآن»(٢) .

(١) رواه أبو داود (١٤٥٥) كتاب الصلاة/ باب في ثواب قراءة القرآن ، من حديث أبي هريرة ﷺ .
(٢) رواه البخاري (٥٠١٨) كتاب فضائل القرآن/ باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن ، واللالكائي (٥١) ٩/ ١٠٤ .

وفي الصحيح : «إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس فإذا رأوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم» الحديث بطوله[1] .

وهذا السماع المحدث تحضره الشياطين كما رأى ذلك من كشف له ، وكما توجد آثار الشياطين في أهله ، حتى أن كثيرا منهم يغلب عليه الوجد فيصعق كما يصعق المصروع ويصبح كصياحه ويجري على لسانه من الكلام ما لا يفهم معناه ولا يكون بلغته كما يجري على لسان المصروع ، وربما كان ذلك من شياطين قوم من الكفار الذي يكون أهل ذلك السماع مشابهين لقلوبهم ، كما يوجد ذلك في أقوام كثيرين كانوا يتكلمون في وجدهم واختلاطهم بلغة الترك التتر الكفار ، فينزل عليهم شياطينهم ويغوونهم ويبقون منافقين موالين لهم ، وهم يظنون أنهم من أولياء الله وإنما هم من أولياء الشيطان وحزبه .

ولهذا يوجد فيه أعظم مما يوجد في الخمر من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ومن إيقاع العداوة والبغضاء حتى يقتل بعضهم بعضا فيه ، ولهذا يفعلونه على الوجه الذي يحبه الشيطان ويكرهه الرحمن وذلك من وجوه :

أحدها : أن العبادات الشرعية مثل الصلاة والصيام والحج قد شرع فيها من مجانبة جنس المباشرة المباحة في غيرها ما هو من كمالها وتمامها فقال تعالى :

﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ (البقرة : ١٨٧) ، وقال : ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾

(١) رواه أحمد (٧٦٢٩) ١٦/ ١٦٠ ، ورواه مسلم بنحوه (٢٨٦٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل مجالس الذكر ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(البقرة : ١٨٧) ، وقال : ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ﴾ (النساء : ٤٣) .

وأعظم ذلك الحج ، فليس للمحرم أن يباشر فيه النساء ولا ينظر إليهن لشهوة والمعتكف قريب منه والصائم دونه ، والمصلي لا يصاف النساء بل يؤخرن عن صفوف الرجال ويصلين خلف الرجال كما قال النبي ﷺ : «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» .[١]

وليس للمصلي في حال صلاته أن ينظر إلى ما يلهيه عن الصلاة لا نساء ولا غيرهم ، بل قد ثبت في الصحيح أنه إذا مر أمامه المرأة والحمار والكلب الأسود قطع صلاته[٢] وإن كان قد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يصلي وعائشة مضطجعة في قبلته بالليل في الظلمة فإذا أراد أن يسجد غمزها[٣] فاللابث غير المار ، ولم يكن ذلك يلهيه لأنه كان بالليل في الظلمة ، وكذلك مس النساء لشهوة ينقض الطهارة عند أكثر العلماء .

فإذا كان هذا في النظر والمباشرة المباح في غير حال العبادة نهى الله عنه حال

---

(١) رواه مسلم (٤٤٠) كتاب الصلاة/ باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) رواه مسلم (٥١٠) كتاب الصلاة/ باب سترة المصلي والندب إلى الصلاة إلى سترة ، من حديث أبي ذر ﷺ .

(٣) رواه البخاري (٥١٤) كتاب الصلاة/ باب من قال لا يقطع الصلاة شيء ، ومسلم (٥١٢) كتاب الصلاة باب سترة المصلي والندب إلى الصلاة إلى سترة ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

العبادة لما في ذلك من المباينة للعبادة والمنافاة لها ؛ فكيف بما هو حرام خارج عن العبادة كالنظر إلى البغي والمباشرة لها ؛ فكيف بالنظر إلى المردان الصباح المخانيث وغير المخانيث والمباشرة لهن؟ ثم هذا قد يفعل لمجرد شهوة النظر فيكون قبيحا مكروها خارج العبادة ، فكيف في حال العبادة؟

وهؤلاء قد يجعلون ذلك مما لا يتم السماع إلا به ، بل ويتخذونه في الصلاة وغيرها من العبادات ، فيجعلون حضورهم في السماع ، والسماع من النساء والصبيان من جملة القربات والطاعات .

وهذا من أعظم تبديل الدين ، فإن الرجل لو جعل النظر إلى امرأته في الصلاة أو الصيام أو الاعتكاف من جملة العبادة كان مبتدعا ، بل كان هذا كفرا ، فكيف إذا جعل النظر إلى المرأة الأجنبية أو الأمرد في الصلاة من جملة العبادات كما يفعله بعضهم؟ ! وقد أوقد شمعة على وجه الأمرد فيستجليه في صلاته ويعد ذلك من عباداته ، هذا من أعظم تبديل الدين ومتابعة الشياطين .

وهذا إذا كان العمل عبادة في نفسه كالصلاة والصيام ، فكيف إذا كان العمل بدعة عظيمة وهو سماع المكاء والتصدية ، وضم إليه مشاهدة الصور الجميلة ، وجعل سماع هذه الأصوات ورؤية هذه الصور من العبادات؟ ! فهذا من جنس دين المشركين .

ولقد حدثني بعض المشايخ أن بعض ملوك فارس قال لشيخ رآه قد جمع الناس على مثل هذا الاجتماع : يا شيخ إن كان هذا هو طريق الجنة فأين طريق النار؟ !

الوجه الثاني : أن التطريب بالآلات الملهية محرم في السماع الذي أحبه الله وشرعه وهو سماع القرآن ؛ فكيف يكون قربة في السماع الذي لم يشرعه

الله؟ وهل ضم ما يشرعه الله إلى ما ذمه يصير المجموع المعين بعضه لبعض مما أحبه الله ورضيه؟

الوجه الثالث: كثرة إيقاد النار بالشموع والقناديل وغير ذلك مما لا يشرع في الصلاة وقراءة القرآن، إذ فيه من تفريق القلوب وغير ذلك مما هو خلاف المقصود.

الوجه الرابع: التنوع في المطاعم والمشارب فيه، وهذا ليس شأن العبادات، وإنما شرع نوع ذلك عند الفراغ من العبادة، وأما أن يكون هذا التنوع في المطاعم والمشارب في السماع من العبادة التي يتقرب بها إلى الله فلا، وأما موجبه من الحركات المختلفة والأصوات المنكرة والحركات العظيمة فهذا أجل من أن يوصف، ولا يمكن رد موجبه بعد قيام المقتضي التام، كما لا يمكن رد السكر عن النفس بعد شرب ما يسكر من الخمر، بل إسكاره للنفوس وصده عن ذكر الله وعن الصلاة أعظم مما في الخمر بكثير، فإن الصلاة كما ذكر الله تعالى: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وهذا أمر مجرب محسوس، يجد الإنسان من نفسه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويجد أهل هذا السماع أن نفوسهم تميل إلى الفحشاء والمنكر، ولهذا يتعاطى كل أحد من الفاحشة، حتى تعاطى كثير من المتصوفة صحبة الأحداث ومشاهدتهم.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «العينان يزنيان وزناهما النظر»[(١)]، وغالب أهله يخالطون الأحداث والنسوان الأجانب، ومن امتنع منهم عن ذلك لورع أو غيره فإنه إنما ينتهي عن ذلك بغير هذا السماع، وأما هذا

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣) كتاب الاستئذان/ باب زنا الجوارح دون الفرج، ومسلم (٢٦٥٧) كتاب القدر/ باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، من حديث أبي هريرة ﷺ.

السماع فلا ينهاه عن ذلك قطعا ، بل يدعوه إليه ، لاسيما النفوس التي بها رقة ورياضة وزهد ، فإن سماع الصوت يؤثر فيها تأثيرا عظيما ، وكذلك مشاهدة الصور ، ويكون ذلك قوتا لها ، وبهذا اعتاض الشيطان فيمن يفعل ذلك من المتصوفة ، فإنه لم يبال بعد أن أوقعهم فيما يفسد قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ألا يشتغل بجمع الأموال والسلطان ، إذ قد تكون فتنة أحدهم بذلك أعظم من الفتنه بالسلطان والمال ، فإن جنس ذلك مباح وقد يستعان به على طاعة الله ، وأما ما يشغل به هؤلاء أنفسهم فإنه دين فاسد منهي عنه مضرته راجحة على منفعته .

الوجه الخامس : تشبيه الرجال بالنساء ، فإن المغاني كان السلف يسمونهم مخانيث ، لأن الغناء من عمل النساء ، ولم يكن على عهد النبي ﷺ يغني في الأعراس إلا النساء كالإماء والجواري الحديثات السن ، فإذا تشبه الرجل كان مخنثا وقد لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء[(١)].

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمخنث هو المتشبه بالنساء ، من التخنث وهو اللين والتكسر ، فهو متشبه بالنساء في صوته ومشيه وغناء ، فهو يسمى مخنثاً ، نسأل الله السلامة .أهـ.

سؤال / حلق اللحى هل يدخل فيه؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : نوع من التشبه .أهـ.

وهكذا فيمن يحضرون في السماع من المردان الذين يسمونهم الشهود ، فيهم من التخنث بقدر ما تشبهوا بالنساء ، وعليهم من اللعنة بقدر ذلك ، وقد

(١) رواه البخاري (٥٨٨٦) كتاب اللباس / باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر بنفي المخنثين وقال : «أخرجوهم من بيوتكم»[١] فكيف نمر بقربهم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لعلها : تأمر بقربهم . وسقطت الهمزة . أهـ

ونعظمهم ونجعلهم طواغيت معظمون بالباطل الذي حرمه الله ورسوله وأمر بعقوبة أهله وإذلالهم ، وهذا مضاد في أمره فإن النبي ﷺ قال : «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره» رواه أبو داود[٢] فإذا كان هذا في الشفاعة بالكلام فكيف بالذي يعظم المتعدين لحدود الله ويعينهم على ذلك ويجعل ذلك دينا ، لا سيما التعظيم لما هو من جنس الفواحش ؟ ! فإن هذا من شأنه إذا كان مباحا ستره أو إخفاؤه ، وأهله لا يجوز أن يجعلوا من ولاة الأمور ، ولا يكون لهم نصيب من السلطان بما فيهم من نقص العقل والدين ، فكيف بمن هو من جنس هؤلاء ممن لعنه الله ورسوله ؟ فإن من يعظم القينات المغنيات ويجعل لهن رياسة وحكما لأجل ما يستمع منهن من الغناء وغيره عليه من لعنة الله وغضبه أعظم ممن يؤمّر المرأة الحرة ويملكها ، وقد قال النبي ﷺ : «لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[٣] .

فالذي يعظم المخنثين من الرجال ويجعل لهم من الرياسة والأمر على الأمر المحرم ما يجعل ؟ ! هو أحق بلعنة الله وغضبه من أولئك ، فإن غناء الإماء

---

(١) رواه البخاري (٥٨٨٦) كتاب اللباس / باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) الحديث رقم (٣٥٩٧) كتاب القضاء / باب في الرجل يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه أحمد في المسند (٢١٠٤٩) والبخاري (٤٤٢٥) كتاب المغازي / باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، وكذا رواه الترمذي والنسائي ، كلهم من حديث أبي بكرة ﷺ .

والاستمتاع بهن من جنس المباح ، وما زال الإماء وغيرهن من النساء يغنين على عهد النبي ﷺ وأصحابه في الأفراح كالعرس وقدوم الغائب ونحو ذلك ، بخلاف من يستمعون الغناء من المردان والنساء الأجنبيات ويجتمعون معهم على الفواحش ، فإنما يكون ذلك من أعظم المحرمات ، فكيف إذا جعل ذلك من العبادات؟! وقد كتبنا في غير هذا الموضع مما يتعلق بذلك ما لا يحتمله هذا الموضع .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا - مثل ما قال المؤلف - معناه تبديل الدين وتغييره ، فجعل المغنيات والمخنثين وسماع أقوالهم والاجتماع عليهم ديناً وقربة يتقربون به إلى الله ؛ هذا انتكاس ، نعوذ بالله . أهـ

الوجه السادس : أن رفع الأصوات في الذكر المشروع لا يجوز إلا حيث جاءت به السنة كالأذان والتلبية ونحو ذلك ، فالسنة للذاكرين والداعين ألا يرفعوا أصواتهم رفعا شديدا ، كما ثبت في الصحيح عن أبي موسى أنه قال كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا علونا على شرف كبرنا فارتفعت أصواتنا فقال : «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(١) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝ ﴾ (الأعراف) ، وقال عن زكريا : ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٢) كتاب الجهاد والسير/ باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير ، ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها ، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ .

نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ (مريم)، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمعنى في هذا أن السنة خفض الصوت وعدم الرفع في الأذكار والدعاء، هذا هو الأصل، إلا ما جاء الشرع برفع الصوت فيه كالأذان والإقامة والتلبية ونحو ذلك مما جاء فيه رفع الصوت، والذكر عقب الصلاة حتى يتعلم الجاهل ويتذكر الناسي، فما جاء فيه رفع الصوت فهو مشروع لذلك، وما لم يأت فيه فخفض الصوت فيه وعدم الجهر به أولى، لا سيما الدعاء فإن كونه بين العبد وبين ربه أنفع، إلا ما كان يُستمع له كالقنوت والاستسقاء ونحو ذلك.

فالحاصل أن الأمور تتعلق بما جاء به الشرع في هذا، فالأصل في الدعاء السر وفي الذكر عدم الجهر إلا ما جاء به الشرع، وإلا ما دل عليه الشرع من شرعية رفع الصوت به، كما يرفع الصوت بالأذان والإقامة والتلبية والذكر بعد السلام من الصلاة، لما في هذا من المصالح وتعليم الجاهل وإرشاد الضال والدعوة إلى الحق وتلبية دعوة الله سبحانه للحج، هذا هو الأصل، ولهذا قال للصحابة الذين يرفعون أصواتهم إذا علوا مشهداً: «اربعوا على أنفسكم - يعني ارفقوا - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إن الذي تدعونه سميع قريب وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(١) يعني فلا حاجة إلى هذا الجهر الزائد. اهـ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٢) كتاب الجهاد والسير/ باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وفي هذه الآثار عن سلف الأمة وأئمتها ما ليس هذا موضعه، كما قال الحسن البصري: رفع الصوت بالدعاء بدعة، وكذلك نص عليه أحمد بن حنبل وغيره، وقال قيس بن عباد ـ وهو من كبار التابعين من أصحاب علي عليه السلام ـ روى عنه الحسن البصري قال: كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر وعند الجنائز وعند القتال.

وهذه المواطن الثلاثة تطلب النفوس فيها الحركة الشديدة ورفع الصوت عند الذكر والدعاء لما فيه من الحلاوة ومحبة ذكر الله ودعائه، وعند الجنائز بالحزن والبكاء، وعند القتال بالغضب والحمية.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذه الثلاث خفض الصوت عندها لأنه يدعو إلى الفكر والتأمل، فعند الذكر يخفض صوته ويتأمل ما يتعلق بحق الله وتعظيمه.

وفي اتباع الجنائز لا حاجة إلى رفع الصوت، وكان السلف يخفضون أصواتهم، لأنهم يتفكرون في مصير الجنازة وما لها في قبرها من نعيم أو عذاب وبعد ذلك، فهو محل تفكير ومحل اعتبار ليس محل رفع الصوت.

وبهذا يعلم أن ما يفعله بعض الناس من رفع الصوت مع الجنائز: اذكروا الله، وحِّدُوا الله، هذا لا أصل له.

كذلك عند القتال محل تفكير ومحل نظر ومحل إخلاص لله سبحانه، وتأمل في مواطن التمكن من العدو، فليس محل رفع الصوت.

فهذه المواطن التي كان السلف يستحبون فيها خفض الصوت، عند الذكر وعند الجنائز وعند القتال لما في هذه المقامات من الحاجة إلى الإخلاص والتدبر والتعقل، وعدم رفع الصوت الذي قد يشغله عما هو أهم. اهـ

ومضرته أكبر من منفعته بل قد يكون ضررا محضا، وإن كانت النفس تطلبه، كما في حال المصائب، ولهذا قال النبي ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»(١) وتبرأ النبي ﷺ من الصالقة والحالقة والشاقة(٢) والصالقة التي ترفع صوتها بالمصيبة.

وقال: «إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا وأشار إلى لسانه أو يرحم»(٣) وقال: «إن النائحة إذا لم تتب فإنها تلبس يوم القيامة درعا من جرب وسربالا من قطران»(٤).

وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح، ولهذا عظم نهي العلماء عما ابتدع فيها مثل الضرب بالدفوف ونحو ذلك، ورأوا تقطيع الدف في الجنازة كما نص عليه أحمد وغيره، بخلاف الدف في العرس فإن ذلك مشروع.

وأما القتال فالسنة أيضا فيه خفض الصوت، ولهذا قال حماس بن قيس بن خالد لامرأته يوم فتح مكة:

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٧) كتاب الجنائز/ باب ليس منا من ضرب الخدود، و (١٢٩٨) باب ما ينهى من الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة، و (٣٥١٩) كتاب المناقب/ باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٠٤) كتاب الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (١٣٠٤) كتاب الجنائز/ باب البكاء عند المريض، ومسلم (٩٢٤) كتاب الجنائز/ باب البكاء على الميت، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز/ باب التشديد في النياحة، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

إنك لو شـــهـــدت يوم الخندمـــة
إذ فـــر صـــفـوان وفـــر عكرمـــة
وأبـو يـزيـد قـــائـم كـــالمـوتمه
واســتـقـبلهم بالسـيـوف المسلمـة
يقطعن كل ســاعـــد وجـــمـــجـــمـــة
ضـربا فـلا يسـمع إلا غـمـغـمـه
لهم نهـيت خلفنا وهمـــهـــمـــه
لم تـنـطـقي في اللوم أدنى كلمـــه

وهذه الدقادق والأبواق التي تشبه قرن اليهود وناقوس النصارى لم تكن تعرف على عهد الخلفاء الراشدين ولا من بعدهم من أمراء المسلمين، وإنما حدث في ظني من جهة بعض ملوك المشرق من أهل فارس، فإنهم أحدثوا في أحوال الإمارة والقتال أمورا كثيرة، وانبثت في الأرض لكون ملكهم انتشر، حتى ربا في ذلك الصغير وهرم فيها الكبير لا يعرفون غير ذلك، بل ينكرون أن يتكلم أحد بخلافه، حتى ظن بعض الناس أن ذلك من إحداث عثمان بن عفان وليس كذلك، بل ولا فعله عامة الخلفاء والأمراء بعد عثمان ﷺ.

ولكن ظهر في الأمة ما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: «لتاخذن ماخذ الأمم قبلكم شبرا شبرا وذراعا بذراع» قالوا: فارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا هؤلاء»؟[1] كما قال في الحديث الآخر: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو

---

(١) رواه البخاري (٧٣١٩) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم، من حديث أبي هريرة ﷺ، ومسلم (٢٦٦٩) كتاب العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال : «فمن»؟[1]

وكلا الحديثين في الصحيح ، أخبر بأنه يكون في الأمة من يتشبه باليهود والنصارى ، ويكون فيها من يتشبه بفارس والروم .

ولهذا ظهر في شعائر الجند المقاتلين شعائر الأعاجم من الفرس وغيرهم ، حتى في اللباس وأعمال القتال والأسماء التي تكون لأسباب الإمرة ، مثل الألفاظ المضافة إلى دار ، كقولهم ركاب دار وطشت دار وخان دار ، فإن ذلك في لغة الفرس بمعنى صاحب وحافظ ، فإذا قالوا جان دار فالجان هي الروح في لغتهم ، فالجان دار بمعنى حافظ الروح وصاحب الروح ، وكذلك الركاب دار أي صاحب الركاب وحافظ الركاب ، وهو الذي يسرج الفرس ويلجمه ، ويكون في ركاب الراكب .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذه عادتهم يقدمون المضاف على المضاف إليه ، فالأعاجم مثل ما ذكر المؤلف ، ركاب دار ونحو ذلك مثل كتب خان وغاز خانه وأشباه ذلك ، يعني خانات الكتب وخانات الغاز وأشباه ذلك .

فالحاصل أن الناس ابتلوا بأعراف الدول من النصارى والفرس بعد ما مضت القرون المفضلة ، وكثرت هذه الاتصالات بين المسلمين وبين الكفار ، حتى جرى ما جرى من ظهور شعائر الكفار وعوائدهم بالحروب وغير الحروب من الطبول

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦) كتاب أحاديث الأنبياء / باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم (٢٦٦٩) كتاب العلم / باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

والمزامير وغير هذا مما اعتادوه في حروبهم وفي جيوشهم حتى عمت البلية للناس «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»(١) أهـ.

وكذلك صاحب الطشت الذي يغسل الثياب والأبدان ، وكذلك برد دار وهو صاحب العتبة ، وهو الموكل بدار الأمير كالحداد والبواب الذي يمنع من الدخول والخروج ويأذن فيه ، وكذلك يقولون جمدار وسلاح دار وجوكان دار وبندق دار ودوادار وخبرندار واستادار لصاحب الثياب الذي يحفظ الثياب وما يتعلق بذلك ، ولصاحب السلاح والجوكان والبندق والدواه وخزانة المال والاستدانة ، وهي التصرف في إخراج المال وصرفه فيما يحتاج إليه من الطعام واللباس وغير ذلك .

ويتعدى ذلك إلى ولاة الطعام والشراب ، فيقولون مرق دار أي صاحب المرقة وما يتعلق بها ، وشراب دار لصاحب الشراب ، ويقولون مهما ندار أي صاحب المهم كما يقولون مهمان خاناه أي بيت المهم والمهمة ، وهو في لغتهم الضيف أي بيت الإضافة وصاحب الضيافة .

مهمان دار لمثل رسول يرد على الأمير والعيون الذين هم الجواسيس ونحو ذلك ممن يتخذ له ضيافة ويوجد منه أخبار وكتب ويعطى ذلك ونحو ذلك .

فإن الألف والنون في لغتهم جمع ، كما يقولون مسلمان وفقيهان وعالمان ، أي مسلمون وفقهاء وعلماء ونحو ذلك ، قولهم فراش خاناه أي بيت الفرس ، والفراش يسمونه باللفظ العربي ، ويقولون زرد خاناه أي بيت الزرد .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦) كتاب أحاديث الأنبياء / باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم (٢٦٦٩) كتاب العلم / باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ .

وهذا الخاص هو عام في العرف يراد به بيت السلاح مطلقا ، وإن ذكر لفظ الزرد خاصة كما كان الصحابة يعبرون عن السلاح بالحلقة ، والحلقة هي الدروع المسرودة من السرد الذي يقال له الزرد ، فقلت السين زايا ، وربما قالوا الحلقة والسلاح ، أي الدروع والسلاح .

ولهذا لما صالح النبي ﷺ من صالحه من يهود صالحهم على أن له الحلقة ، وفي السيرة كان في بني فلان وفلان من الأنصار الحلقة والحصون ، أي هم الذين لهم السلاح الذين يقاتلون بها ، والحصون التي يأوون إليها ، كما يكون لأمراء الناس من أصناف الملوك المعاقل والحصون والقلاع ولهم السلاح ، فإن هذه الأمور هي جنن القتال وبها يمتنع المقاتل والمطلوب ، بخلاف من لا سلاح له ولا حصن فإنه ممكن من نفسه مقدور عليه في مثل الأمصار ، وإن كان القتال على الخيل بالسلاح هو أعلى وأفضل من القتال في الحصون بالسلاح ، فالحصان خير من الحصون ، ومن لم يكن قتاله إلا في الحصون والجدر فهو مذموم ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحشر) .

والمحدثات في أمر الإمارة والملك والقتال كثيرة جدا ليس هذا موضعها ، فإن الأمة هي في الأصل أربعة أصناف كما ذكر ذلك في قوله : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (المزمل : ٢٠) .

فالصنف الواحد القراء وهم جنس العلماء والعباد، ويدخل فيهم من تفرع من هذه الأصناف من المتكلمة والمتصوفة وغيرهم.

والصنف الآخر المكتسب بالضرب في الأرض، وأما المقيمون من أهل الصناعات والتجارات فيمكن أن يكونوا من القراء المقيمين أيضاً، بخلاف المسافر فإن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل مثل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم» أخرجاه في الصحيحين عن أبي موسى. (١)

والله سبحانه إنما ذكر هذه الأصناف في الآية ليبين من يسقط عنه قيام الليل من أهل الأعذار، فذكر المريض والمسافر اللذين ذكرا في الحديث، وذكر المسافرين في ضربين: الضاربين في الأرض يبتغون من فضل الله، والمقاتلين في سبيل الله وهم التجار والأجناد.

والمقصود هنا أن الأجناس الأربعة من المقاتلة والتجار ومن يلحق بهم من الصناع والقراء وأهل الأعذار كالمرضى ونحوهم؛ كل هؤلاء قد حصل فيهم من الأنواع المختلفة ما يطول وصفه، وأمورهم ما بين حسن مأمور به وبين قبيح منهي عنه ومباح، واشتمال أكثر أمورهم على هذه الثلاثة المأمور به والمنهي عنه والمباح والواجب الأمر بما أمر الله به والنهي عما نهى عنه والإذن فيما أباحه الله.

لكن إذا كان الشخص أو الطائفة لا تفعل مأموراً إلا بمحظور أعظم منه، أو لا تترك مأموراً إلا لمحظور أعظم منه؛ لم يأمر أمراً يستلزم وقوع محظور راجح، ولم

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير/ باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة.

ينه نهيا يستلزم وقوع مأمور راجح ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي بعث به الرسل ، والمقصود تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان .

فإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستلزما من الفساد أكثر مما فيه من الصلاح لم يكن مشروعا ، وقد كره أئمة السنة القتال في الفتنة التي يسميها كثير من أهل الأهواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن ذلك إذا كان يوجب فتنة هي أعظم فسادا مما في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدفع أدنى الفسادين بأعلاهما ، بل يدفع أعلاهما باحتمال أدناهما ، كما قال النبي ﷺ : «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»[1] .

لكن المقصود هنا أن هذه الأصوات المحدثة في أمر الجهاد - وإن ظن أن فيها مصلحة راجحة - فإن التزام المعروف هو الذي فيه المصلحة الراجحة كما في أصوات الذكر ، إذ السابقون الأولون والتابعون لهم بإحسان أفضل من المتأخرين في كل شيء من الصلاة وجنسها من الذكر والدعاء وقراءة القرآن واستماعه وغير ذلك ، ومن الجهاد والإمارة وما يتعلق بذلك من أصناف السياسات والعقوبات والمعاملات في إصلاح الأموال وصرفها ، فإن طريق السلف أكمل في كل شيء ، ولكن يفعل المسلم من ذلك ما يقدر عليه ، كما قال الله تعالى :

---

(١) رواه أبو داود (٤٩١٩) كتاب الأدب/ باب في إصلاح ذات البين ، والترمذي (٢٥١٠) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع/ باب في فضل صلاح ذات البين ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذي : حديث صحيح .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦)، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[(١)] ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سؤال/ ما ذكره عن الحسن البصري ورواية عن الإمام أحمد أن رفع الصوت بالدعاء بدعة، هذا مطلق في كل أنواع الدعاء؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: كون الإنسان يجهر بالدعاء عند الناس فهذا ليس بمشروع ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: ٥٥)، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم) فالسنة أن يكون بينه وبين ربه، لأنه يكون أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء. أهـ

سؤال/ وإذا كان وحده؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: ولو لوحده. أهـ

سؤال/ قراءة القرآن في المسجد؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: كذلك في المسجد لا يقرأ قراءة تؤذي من حوله، فلا يرفع صوته، فيقرأ قراءة لا تؤذي من حوله ولا تشوش على من حوله، يُسِرّ بها، فإذا كان حوله قرّاء ومصلّون فإنه لا يجهر، ولهذا لما خرج النبي ﷺ على أناس في المسجد يجهر بعضهم على بعض قال: «لا يؤذ بعضكم بعضاً، لا يجهر بعضكم على بعض، كلكم يناجي الله»[(٢)] فالسنة للمؤمن أن لا

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ومسلم (١٣٣٧) كتاب الفضائل/ باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه النسائي في الكبرى (٨٠٩٢) ذكر قول النبي ﷺ لا يجهر بعضكم على بعض في القرآن، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٥٤ كتاب صلاة التطوع، وعبد الرزاق (٤٢١٦) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يؤذي من حوله ، وبعضهم يرفع صوته وحوله قراء وحوله مصلين يشوش عليهم ، لا ، يخفض صوته .أهـ

سؤال/ رفع الصوت بالذكر في الاجتماعات كالأسواق؟

أجاب سماحته رحمه الله : هذا للتذكير وهذا من المستثنيات .أهـ

سؤال / مسألة الدقات بالطبل!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : دقات الطبل والدف وغيره ، أما الدف فقط للنساء في العرس ، أما استعمال الأعاجم للدفوف وللطبول وللمزامير ولأشياء أحدثوها مثل الموسيقى الآن ، ومثل أشياء أحدثوها كثيرة ، هذه مما أحدثه الناس وليس من هدي السلف الصالح .أهـ

سؤال/ بعض الكتاب العصريين يقول إن الصحابة اصطحبوا معهم الطبول في بعض غزواتهم!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا لا أصل له وكله كذب .أهـ

قال أبو القاسم القشيري : وإن حسن الصوت مما أنعم الله تعالى به على صاحبه من الناس ، قال الله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ (فاطر : ١) قيل في التفسير : من ذلك الصوت الحسن ، وذم الله وسبحانه الصوت الفظيع فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (لقمان) .

قلت : كون الشيء نعمة لا يقتضي استباحة استعماله فيما شاء الإنسان من المعاصي ، ولا يقتضي إلا حسن استعماله ، بل النعم المستعملة في طاعة الله يحمد صاحبها عليها ، ويكون ذلك شكرا لله يوجب المزيد من فضله ، فهذا يقتضي حسن استعمال الصوت الحسن في قراءة القرآن ، كما كان أبو موسى

الأشعري يفعل ، وكما كان النبي ﷺ يستمع لقراءته ، وقال : «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك» فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبير[١] وقال : «لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود»[٢] .

فأما استعمال النعم في المباح المحض فلا يكون طاعة ، فكيف في المكروه أو المحرم؟ ! ولو كان ذلك جائزا لم يكن قربة ولا طاعة إلا بإذن الله ، ومن جعله طاعة لله بدون ذلك فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله .

ومعلوم أن القوة نعمة والجمال نعمة وغير ذلك من نعم الله التي لا يحصيها إلا هو ، فهل يجعل أحد مجرد كون الشيء نعمة دليلا على استحباب إعماله فيما شاء الإنسان؟ أم يؤمر المنعم عليه بألا يستعملها في معصية ويندب إلى ألا يستعملها إلا في طاعة الله تعالى؟

فالاستدلال بهذا منزلة من استدل بإنعام الله بالسلطان والمال على ما جرت عادة النفوس باستعمال ذلك فيه من الظلم والفواحش ونحو ذلك ، فاستعمال الصوت الحسن في الأغاني وآلات الملاهي مثل استعمال الصور الحسنة في الفواحش واستعمال السلطان بالكبرياء والظلم والعدوان واستعمال المال في نحو ذلك .

ثم يقال له : هذه النعمة يستعملها الكفار والفساق في أنواع من الكفر والفسوق أكثر مما يستعلها المؤمنون في الإيمان ، فإن استمتاع الكفار والفساق

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٢) وابن حبان في صحيحه (٧٣٢٠) والحاكم في المستدرك (٥٩٩٨) ذكر مناقب أبي موسى ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨) كتاب فضائل القرآن/ باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن ، ومسلم (٧٩٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب تحسين الصوت بالقرآن .

بالأصوات المطربة أكثر من استمتاع المسلمين، فأي حمد لها بذلك إن لم تستعمل في طاعة الله ورسوله؟!

وأما قوله: إن الله ذم الصوت القطيع، فهذا غلط منه، فإن الله لا يذم ما خلقه ولم يكن فعلا للعبد، إنما يذم العبد بأفعاله الاختيارية دون ما لا اختيار له فيه، وإن كان صوته قبيحا فإنه لا يذم على ذلك، وإنما يذم بأفعاله، وقد قال الله في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون: ٤)، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة).

وإنما ذم ما يكون باختيار العبد من رفع الصوت الرفع المنكر، كما يوجد ذلك في أهل الغلظ والجفاء، كما قال النبي ﷺ: «الجفاء والغلظ وقسوة القلوب في الفدادين من أهل الوبر»[1] وهم الصياحون صياحا منكرا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان)، فأمره أن يغض من صوته، كما أمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم، وكما أمره أن يقصد في مشيه، وذلك كله فيما يكون باختياره لا مدخل للذة الصوت وعدم لذته في ذلك.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

(١) رواه البخاري (٣٤٩٨) كتاب المناقب/ باب المناقب، من حديث ابن مسعود ﷺ، ومسلم (٥٢) كتاب الإيمان/ باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الحجرات)، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ (الحجرات: ٢)، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (الحجرات ٣).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو في صفة النبي ﷺ في التوراة قال: ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر[١]. وفي الصحيح أيضا أنه أمر أن يبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.[٢]

وعنه ﷺ قال: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة صوت لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية»[٣].

ثم قال أبو القاسم: واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الطيبة

---

(١) الحديث رقم (٢١٢٥) كتاب البيوع/ باب كراهية السخب في السوق، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) روى البخاري في المناقب (٣٨٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا محمد: هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه أدام وطعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» كتاب مناقب الأنصار/ باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله تعالى عنها ورواه مسلم (٢٤٣٢) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم/ باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

(٣) رواه الترمذي (١٠٠٥) كتاب الجنائز/ باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الهيثمي في

واسترواحها إليها مما لا يمكن جحوده ، فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة فيهون عليه بالحداء ، قال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝﴾ (الغاشية) .

وحكى إسماعيل بن علية قال : كنت أمشي مع الشافعي رحمه الله وقت الهاجرة ، فجزنا بموضع يقول فيه أحد شيئاً فقال : مل بنا إليه ، ثم قال : أيطربك هذا؟ فقلت : لا فقال : مالك حس .

قلت : قد كان مستغنيا عن أن يستشهد على الأمور الحسية بحكاية مكذوبة على الشافعي ، فإن إسماعيل بن علية شيخ الشافعي لم يكن ممن يمشي معه ، ولم يرو هذا عن الشافعي ، بل الشافعي روى عنه ، وهو من أجلاء شيوخ الشافعي وابنه إبراهيم بن إسماعيل كان متكلما تلميذا لعبد الرحمن بن كيسان الأصم أحد شيوخ المعتزلة ، وكان قد ذهب إلى مصر ، وكان بينه وبين الشافعي مناوأة ، حتى كان الشافعي يقول فيه : أنا مخالف لابن علية في كل شيء حتى في قول لا إله إلا الله ، لأني أقول لا إله إلا الله الذي كلم موسى من وراء الحجاب ، وهو يقول لا إله إلا الله الذي خلق في الهواء كلاما يسمعه موسى .

وهذا يذكر له أول رسالة في أصول الفقه ، ويظن بعض الناس أن ابنه يشتبه بأبيه ، فإنه شيخ الشافعي وأحمد وطبقتهما .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وإبراهيم هذا معتزلي ، إبراهيم بن إسماعيل بن علية معتزلي خبيث من أئمة الكلام الملحدين ، فلا ينبغي أن يشتبه أمره ، وأما

مجمع الزوائد ١/ ٤٤٥ : رواه أبو يعلى والبزار وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وفيه كلام .أهـ ونقل الزيلعي في نصب الراية ٩/ ٤٧٢ عن النووي في الخلاصة قوله : ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ضعيف ولعله اعتضد .أهـ

إسماعيل فهو إمام، وهو شيخ الشافعي رحمه الله وشيخ أحمد رحمهما الله وهو من رجال الشيخين، وله ولد اسمه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أيضاً إمام من شيوخ النسائي رحمه الله وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، يشتبه في البخاري باسمه واسم أبيه واسم جده، ولكن هذا ينفصل بمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم وهو ابن عُلَيَّة، فينفصل عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري رحمه الله.

فالمقصود أن إبراهيم هذا قد يشتبه على بعض الناس، وهو معتزلي ليس بشيء، وأما أبوه إسماعيل فهو إمام. اهـ

فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة من له أدنى معرفة بالناس، ولو صحت عمن صحت عنه لم يكن فيها إلا ما هو مدرك بالإحساس من أن الصوت الطيب لذيذ مطرب، وهذا يشترك فيه جميع الناس، ليس هذا من أمور الدين حتى يستدل فيه بالشافعي، بل ذكر الشافعي في مثل هذا غض من منصبه، مثل ما ذكر ابن طاهر عن مالك رحمه الله حكاية مكذوبة، وأهل المواخر أعلم بهذه المسألة من أئمة الدين، ولو حكي مثل هذا عن إسحاق بن إبراهيم النديم وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني لكان أنسب من أن يحكيها عن الشافعي.

ثم يقال: كون الصوت الحسن فيه لذة أمر حسي، لكن أي شيء في هذا مما يدل على الأحكام الشرعية من كونه مباحاً أو مكروهاً أو محرماً، ومن كون الغناء قربة أو طاعة؟!

بل مثل هذا أن يقول القائل: استلذاذ النفوس بالوطء مما لا يمكن جحوده، واستلذاذها بالمباشرة للجميل من النساء والصبيان مما لا يمكن جحوده، واستلذاذها بالنظر إلى الصور الجميلة مما لا يمكن جحوده، واستلذاذها بأنواع

المطاعم والمشارب مما لا يمكن جحوده ، فأي دليل في هذا لمن هداه الله على ما يحبه ويرضاه أو يبيحه ويجيزه؟ !

ومن المعلوم أن هذه الأجناس فيها الحلال والحرام والمعروف والمنكر ، بل كان المناسب لطريقة الزهد في الشهوات واللذات ومخالفة الهوى أن يستدل بكون الشيء لذيذا مشتهى على كونه مباينا لطريق الزهد والتصوف ، كما قد يفعل كثير من المشايخ ، يزهدون بذلك في جنس الشهوات واللذات .

وهذا وإن لم يكن في نفسه دليلا صحيحا ، فهو أقرب إلى طريقة الزهد والتصوف من الاستدلال بكون الشيء لذيذا على كونه طريقا إلى الله .

وكل من الاستدلالين باطل ، فلا يستدل على كونه محمودا أو مذموما أو حلالا أو حراما إلا بالأدلة الشرعية ، لا بكونه لذيذا في الطبع أو غير لذيذ .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : **والمقصود بهذا أن كون الأصوات الحسنة يستلذها الناس ليس بحجة على استباحة الأغاني والاستماع لها وجعلها دينا وقربة للصوفية وأشباههم ، بل هذا من الأغلاط الكبيرة والافتراء وانتكاس الأمور ، وإنما يقال في مثل هذا : إن الصوت الحسن بقراءة القرآن وبالدعوة إلى الله والتوجيه إليه ونحو ذلك ؛ هذا مطلوب ، أما أن يقال : إن الصوت الحسن شيء لذيذ وشيء طيب فلا مانع من استماع الأغاني بالأصوات الحسنة للرجال والنساء ، فهذا انعكاس في الفطر ، وفساد في القلوب ، نسأل الله العافية . اهـ**

ولهذا ينكر على من يتقرب إلى الله بترك جنس اللذات كما قال ﷺ : للذين قال أحدهم أما أنا فأصوم لا أفطر وقال الآخر أما أنا فأقوم لا أنام وقال الآخر أما أنا فلا أتزوج النساء وقال الآخر أما أنا فلا آكل اللحم فقال النبي ﷺ :

«لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١) .

وقد أنزل الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (المائدة)

ثم إن أبا القاسم وطائفة معه تارة يمدحون التقرب إلى الله بترك جنس الشهوات ، وتارة يجعلون ذلك دليلا على حسنه وكونه من القربات ، وهذا بحسب وجد أحدهم وهواه ، لا بحسب ما أنزل الله وأوحاه ، وما هو الحق والعدل وما هو الصلاح والنافع في نفس الأمر .

والتحقيق أن العمل لا يمدح ولا يذم لمجرد كونه لذة ، بل إنما يمدح ما كان لله أطوع وللعبد أنفع ، سواء كان فيه لذة أو مشقة ، فَرُبَّ لذيذ هو طاعة ومنفعة ، ورب مشق هو طاعة ومنفعة ، ورب لذيذ أو مشق صار منهيا عنه .

ثم لو استدل بهذا على تحسين القرآن به لكان مناسبا ، فإن الاستعانة بجنس اللذات على جنس الطاعات مما جاءت به الشريعة ، كما يستعان بالأكل والشرب على العبادات ، قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ (البقرة) ، وقال : ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا﴾ (المؤمنون : ٥١)

وفي الحديث المتفق عليه قوله ﷺ لسعد : **«إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها**

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) كتاب النكاح / باب الترغيب في النكاح ، ومسلم (١٤٠١) كتاب النكاح / باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ، من حديث أنس ؓ .

وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك»[١] وقال : «في بضع أحدكم أهله صدقة»[٢] وكذلك حمده في النعم كما في الحديث الصحيح : «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها»[٣]

فلو قال : إن الله خلق فينا الشهوات واللذات لنستعين بها على كمال مصالحنا ، فخلق فينا شهوة الأكل واللذة به ، فإن ذلك في نفسه نعمة ، وبه يحصل بقاء جسومنا في الدنيا ، وكذلك شهوة النكاح واللذة به هو في نفسه نعمة ، وبه يحصل بقاء النسل ، فإذا استعين بهذه القوى على ما أمرنا كان ذلك سعادة لنا في الدنيا والآخرة ، وكنا من الذين أنعم الله عليهم نعمة مطلقة ، وإن استعملنا الشهوات فيما حظره علينا بأكل الخبائث في نفسها أو كسبها كالمظالم أو بالإسراف فيها أو تعدينا أزواجنا أو ما ملكت أيماننا كنا ظالمين معتدين غير شاكرين لنعمته ؛ لكان هذا كلاما حسنا .

والله قد خلق الصوت الحسن وجعل النفوس تحبه وتلتذ به ، فإذا استعنا بذلك في استماع ما أمرنا باستماعه وهو كتابه ، وفي تحسين الصوت به ، كما أمرنا بذلك حيث قال : «زينوا القرآن بأصواتكم»[٤] وكما كان يفعل أصحابه بحضرته مثل أبي موسى وغيره ؛ كنا قد استعملنا النعمة في الطاعة ، وكان هذا

---

(١) رواه البخاري (٥٦) كتاب الإيمان/ باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية/ باب الوصية بالثلث ، من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ .

(٢) رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة/ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ، من حديث أبي ذر ﷺ .

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب ، من حديث أنس ﷺ .

(٤) رواه البخاري معلقا ، كتاب التوحيد / باب قول النبي ﷺ « الماهر بالقرآن مع سفرة الكرام

حسنا مأمورا به، كما كان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: يا أبا موسى ذكّرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون(١). وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقي يستمعون.

فهذا كان استماعهم، وفي مثل هذا السماع كانوا يستعملون الصوت الحسن، ويجعلون التذاذهم بالصوت الحسن عونا لهم على طاعة الله وعبادته باستماع كتابه، فيثابون على هذا الالتذاذ، إذ اللذة المأمور بها المسلم يثاب عليها كما يثاب على أكله وشربه ونكاحه، وكما يثاب على لذات قلبه بالعلم والإيمان، فإنها أعظم اللذات، وحلاوة ذلك أعظم الحلاوات.

ونفس التذاذه وإن كان متولدا عن سعته وهو في نفسه ثواب، فالمسلم يثاب على عمله وعمل ما يتولد عن عمله، ويثاب عما يلتذ به من ذلك مما هو أعظم لذة منه، فيكون متقلبا في نعمة ربه وفضله.

فأما أن يستدل بمجرد استلذاذ الإنسان للصوت أو ميل الطفل إليه أو استراحة البهائم به على جواز أو استحباب في الدين؛ فهو من أعظم الضلال، وهو كثير فيمن يعبد الله بغير العلم المشروع.

ومن المعلوم أن الأطفال والبهائم تستروح بالأكل والشرب، فهل يستدل بذلك على أن كل أكل وشرب فهو حسن مأمور به؟!

البررة». قال الشيخ الألباني: صحيح، رواه أبو داود وغيره من أصحاب السنن، والحاكم وأحمد بسند صحيح عن البراء بن عازب «صحيح أبي داود» (١٣٢٠). أهـ.

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٤١٨١) ٢/ ٤٨٦، والدارمي في السنن (٣٤٩٦) ٢/ ٥٦٤، وابن حبان في صحيحه (٧١٩٦) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

سؤال / بالنسبة لقوانين التجويد ما حكم الالتزام بها؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : أفضل ، التجويد مما يحسّن به تلاوة القرآن ويجود به إلقاء القرآن بحروفه الكاملة وتفخيمه وترقيقه ومدوده ، لكن ليس بواجب كما يقوله بعض المجوّدين من أئمة التجويد ، فهو مما يستحب ومما ينبغي لأنه من باب تحسين الصوت بالقرآن وتلاوته كما أمر الله . أهـ

سؤال / بعض الناس يموّت القرآن تمويتا؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا ، التطويل الزائد هذا لا ينبغي ، وإنما هو الشيء الذي درج عليه السلف الصالح . أهـ

سؤال / التكبير مثل أن يقول الله أكبر الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا ورد فيه حديث ضعيف ، ولكن يقرأ من دون تكبير ، ما يقال إنه يشرع التكبير عند ﴿وَالضُّحَى﴾ إلى آخره وهو حديث ضعيف كما نبه عليه ابن كثير وغيره ، هذا ذكره بعض القراء أنه يكبر عندما يبدأ بسورة الضحى إلى آخره ، ولكن الأحاديث في هذا ضعيفة . أهـ

وأصل الغلط في هذه الحجج الضعيفة أنهم يجعلون الخاص عاما في الأدلة المنصوصة ، وفي عموم الألفاظ المستنبطة ، فيجنحون إلى أن الألفاظ في الكتاب والسنة أباحت أو حمدت نوعاً من السماع يدرجون فيها سماع المكاء والتصدية أو يجنحون إلى المعاني التي دلت على الإباحة أو الاستحباب في نوع من الأصوات والسماع ويجعلون ذلك متناولا لسماع المكاء والتصدية .

وهذا جمع بين ما فرق الله بينه ، بمنزلة قياس الذين قالوا : ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة : ٢٧٥) وأصل هذا القياس المشركين الذين عدلوا بالله ،

وجعلوا لله أندادا سوّوهم برب العالمين في عبادتها أو اتخاذها آلهة، وكذلك من عدل برسوله متنبئا كذابا كمسيلمة الكذاب، أو عدل بكتابه وتلاوته واستماعه كلاما آخر أو قراءته أو سماعه، أو عدل بما شرعه من الدين دينا آخرا شرعه له شركاؤه، فهذا كله من فعل المشركين، وإن دخل في بعضه من المؤمنين قوم متأولون، فالناس كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ (يوسف).

فالشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، وهذا مقام ينبغي للمؤمنين التدبر فيه، فإنه ما بدل دين الله في الأمم المتقدمة وفي هذه الأمة إلا بمثل هذا القياس، ولهذا قيل: ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به، كمن عمد إلى كلام الله الذي أنزله وأمر باستماعه فعدل به سماع بعض الأشعار، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» رواه الترمذي وغيره (١).

وروي أيضا عنه: «ما تقرب العباد إلى الله بشيء أحب إليه مما خرج منه

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٢٦) كتاب فضائل القرآن/ باب، من حديث أبي سعيد، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٦٦) رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف، وأخرجه ابن الضريس أيضا من وجه آخر عن شهر بن حوشب مرسلا ورجاله ثقات، وقد بين العسكري أنها من قول أبي عبد الرحمن السلمي، وأشار في خلق أفعال العباد إلى أنه لا يصح مرفوعا. انتهى
والحديث رواه الدارمي أيضا وضعفه الألباني كما في ضعيف سنن الترمذي (٣١٠٦).

يعني القرآن[(١)] وهذا محفوظ عن خباب بن الأرت أحد المهاجرين الأولين السابقين قال: يا هناه تقرب إلى الله بما استطعت فلن يتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه [(٢)].

فإذا عدل بذلك ما نزه الله عنه ورسوله بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس: ٦٩)، وجعله قرآناً للشيطان كما في الحديث: فما قرآني؟ قال الشعر. كان هذا عدل كلام الرحمن بكلام الشيطان، وهذا قد جعل الشيطان عدلاً للرحمن، فهو من جنس الذين قال الله فيهم: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ (الشعراء).

والاستدلال بكون الصوت الحسن نعمة، واستلذاذ النفوس به على جواز استعماله في الغناء أو استحباب ذلك في بعض الصور، مثل الاستدلال بكون الجمال نعمة، ومحبة النفوس الصور الجميلة على جواز استعمال الجمال الذي للصبيان في إمتاع الناس به مشاهدة ومباشرة وغير ذلك، أو استحباب ذلك في

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١١) كتاب فضائل القرآن/ باب ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره. انتهى

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٩٥: فيه ليث بن أبي سليم وفيه كلام.

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (٥/ ٩١) باب ما جاءت به السنة عن النبي ﷺ وعن أصحابه بأن القرآن كلام الله، ورواه الحاكم في المستدرك (٣٦١٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٣٠.

بعض الصور ، وهذا أيضاً قد وقع فيه طوائف من المتفلسفة والمتصوفة والعامة ، كما وقع في الصوت أكثر من هؤلاء ، لكن الواقعون في الصور فيهم من له من العقل والدين ما ليس لهؤلاء ، إذ ليس في هؤلاء رجل مشهور بين الناس شهرة عامة بخلاف أهل السماع ، ولكن هم طرّقوا لهم الطريق وذرّعوا الذريعة ، حتى آل الأمر بكثير من الناس أن قالوا وفعلوا في الصوت نظير ما قاله هؤلاء ، وفعلوه في الصور ، يحتجون على جواز النظر إليه والمشاهدة بمثل قوله ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال»[(١)] ويُنسون قوله : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(٢)].

ويحتجون بما في ذلك من راحة النفوس ولذاتها ، كما يحتج هؤلاء ويكرمون ذا الصورة لما يبذله من صورته وإشهادهم إياها ، كما يكرم هؤلاء ذا الصوت على ما يبذله من صوته وإسماعهم إياه ، بل كثيراً ما يجمع في الشخص الواحد بين الصورة والصوت كما يفعل في المغنيات من القينات .

وقد زين الشيطان لكثير من المتنسكة والعبّاد أن محبة الصور الجميلة إذا لم يكن بفاحشة فإنها محبة لله ، كما زين لهؤلاء أن استماع هذا الغناء لله ، ففيهم من يقول هذا اتفاقاً ، وفيهم من يظهر أنه يحبه لغير فاحشة ، ويبطن محبة الفاحشة وهو الغالب ، لكن ما أظهروه من الرأي الفاسد وهو أن يحب لله ما لم يأمر الله بمحبته ؛ هو الذي سلط المنافق منهم على أن يجعل ذلك ذريعة إلى الكبائر ، ولعل هذه البدعة منهم أعظم من الكبيرة ، مع الإقرار بأن ذلك ذنب

---

(١) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عظيم والخوف من الله من العقوبة ، فإن هذا غايته أنه مؤمن فاسق قد جمع سيئة وحسنه ، وأولئك مبتدعة ضلال حين جعلوا ما نهى الله عنه مما أمر الله به وزين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنا ، وبمثلهم يضل أولئك حتى لا ينكروا المنكر إذا اعتقدوا أن هذا يكون عبادة الله .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أن الذين يستحسنون الأغاني والملاهي والطرب ويتعبدون بذلك ويؤثرون عليها أنواع الملاهي ـ كما يفعل ذلك بعض الصوفية ـ يكون حالهم أقبح من حال العاصي الذي يأتي بعض الكبائر ، لأن العاصي الذي يأتي بعض الكبائر قصاراه أنه مذنب ، يعرف أنه مذنب ، وقد يتوب إلى الله وقد يبادر بالتوبة ، وقد جمع سيئة وتوحيداً وحسنة ، أما هؤلاء الذين جعلوا هذا الرقص وهذا السماع للأغاني ، جعلوه عبادة وجعلوه قربة وجعلوه طاعة قد ابتدعوا ، والبدعة شر من المعصية ، لأن صاحب البدعة لا يتوب منها ، لأنه يراها عبادة ويراها قربة فيبتلى بالموت عليها نعوذ بالله ، وأما صاحب المعصية فقد ينتبه وقد يتوب وقد يرجع إلى الله عزَّ وجلَّ .

وهكذا من ابتلي من بعض الصوفية بالنظر إلى الصور من المردان والنساء وتعبد بذلك ، وقال لأنها جميلة فأحب أن أنظر إلى الجمال ، لا لقصد فاحشة ولكن لكذا وكذا ، فيجرهم هذا إلى الفواحش والمنكرات واللواط والزنا ، نعوذ بالله من ذلك .

هؤلاء ابتدعوا في النظر ، نظر المردان والنساء وجعلوه قربة ، وهؤلاء ابتدعوا في الأصوات والأغاني والملاهي وجعلوه قربة ، وكلتا الطائفتين ابتدعتا ، لا فيما يتعلق بالصور ، ولا فيما يتعلق بالأغاني واستحسان ذلك وجعل ذلك عبادة ، أما من تعاطى المعاصي من سائر المعاصي وهو مسلم موحِّد ؛ فهذا قد ينتبه وقد

يتوب الله عليه وقد يرجع ، لأنه يعلم أنه مذنب وأنه عاص ، فهو حري بأن يتوب ويرجع ويبادر ، لكن أولئك ضلوا من جهة الابتداع ، والمبتدع يرى أنه على هدى ولا يتوب ، نسأل الله العافية .أهـ

ومن جعل ما لم يأمر الله بمحبته محبوبا لله فقد شرع دينا لم يأذن الله به ، وهو مبدأ الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة ١٦٥)

فإن محبة النفوس الصورة والصوت قد تكون عظيمة جدا ، فإذا جعل ذلك دينا وسمي لله صار كالأنداد والطواغيت المحبوبة تدينا وعبادة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (البقرة ٩٣) ، وقال تعالى عنهم : ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ (ص : ٦) .

بخلاف من أحب المحرمات مؤمنا بأنها من المحرمات ، فإن من أحب الخمر والغناء والبغي والمخنث مؤمنا بأن الله يكره ذلك ويبغضه ، فإنه لا يحبه محبة محضة ، بل عقله وإيمانه يبغض هذا الفعل ويكرهه ، ولكن قد غلبه هواه ، فهذا قد يرحمه الله إما بتوبة إذا قوي ما في إيمانه من بغض ذلك وكراهته حتى دفع الهوى ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بغير ذلك .

أما إذا اعتقد أن هذه المحبة لله فإيمانه بالله يقوّي هذه المحبة ويؤيدها ، وليس عنده إيمان يزعه عنها ، بل يجتمع فيها داعي الشرع والطبع الإيمان والهدى ، وذلك أعظم من شرب النصراني للخمر ، فهذا لا يتوب من هذا الذنب ولا يتخلص من وباله إلا أن يهديه الله .

فتبين له أن هذه المحبة ليست محبة لله ولا أمر الله بها بل كرهها ونهى عنها ، وإلا فلو ترك أحدهم هذه المحبة لم يكن ذلك توبة ، فإنه يعتقد أن جنسها دين ، بحيث يرضى بذلك من غيره ويأمره به ويقره عليه ، وتركه لها كترك المؤمن بعض التطوعات والعبادات .

وليس في دين الله محبة أحد لحسنه قط ، فإن مجرد الحسن لا يثيب الله عليه ولا يعاقب ، ولو كان كذلك كان يوسف عليه السلام لمجرد حسنه أفضل من غيره من الأنبياء لحسنه ، وإذا استوى شخصان في الأعمال الصالحة ، وكان أحدهما أحسن صورة وأحسن صوتا ، كانا عند الله سواء ، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، نعم صاحب الصوت الحسن والصورة الحسنة ، إذا استعمل ذلك في طاعة الله دون معصيته كان أفضل من هذا الوجه ، كصاحب المال والسلطان إذا استعمل ذلك في طاعة الله دون معصيته ، فإنه بذلك الوجه أفضل ممن لم يشركه في تلك الطاعة ، ولم يمتحن بما امتحن به حتى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ثم ذلك الغير إن كان له عمل صالح آخر يساويه به ، وإلا كان الأول أفضل مطلقا .

وهذا عام لجميع الأمور التي أنعم الله تعالى بها على بني آدم وابتلاهم بها ، فمن كان فيها شاكرا صابرا كان من أولياء الله المتقين ، وكان ممن امتحن بمحبة حتى صبر وشكر ، وإن لم يكن المبتلى صابرا شكورا ، بل ترك ما أمر الله به وفعل ما نهى الله عنه ، كان عاصيا أو فاسقا أو كافرا ، وكان من سلم من هذه المحنة خيرا منه ، إلا أن يكون له ذنوب أخرى يكافيه بها .

وإن جمع بين طاعة ومعصية ، فإن ترجحت طاعته كان أرجح ممن لم يكن له مثل ذلك ، وإن ترجحت معصيته كان السالم من ذلك خيرا منه ، فإن كان له

مال يتمكن به في الفواحش والظلم فخالف هواه وأنفقه فيما يبتغي به وجه الله أحب الله ذلك منه وأكرمه وأثابه .

ومن كان له صوت حسن فترك استعماله في التخنيث والغناء ، واستعمله في تزيين كتاب الله والتغني به ، كان بهذا العمل الصالح وبترك العمل السيء أفضل ممن ليس كذلك ، فإنه يثاب على تلاوة كتاب الله فيكون في عمله معنى الصلاة ومعنى الزكاة .

ولهذا قال النبي ﷺ : «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»[1] وقال : «لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته» .[2]

قال سماحة الشيخ رحمه الله :هذا الحديث صحيح؟

ومن كان له صورة حسنة فعف عما حرم الله تعالى وخالف هواه وجمل نفسه بلباس التقوى الذي قال الله فيه : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ (الأعراف : ٢٦) ؛ كان هذا الجمال يحبه الله ، وكان من هذا الوجه أفضل ممن لم يؤت مثل هذا الجمال مما لا يكساه وجه العاصي ، فإن كانت خلقته حسنة ازدادت حسنا ، وإلا كان عليها من النور والجمال بحسبها .

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٣) كتاب فضائل القرآن/ باب من لم يتغن بالقرآن ، ومسلم (٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٤٦٧٣) وابن ماجه (١٣٤٠) كتاب إقامة الصلوات/ باب في حسن الصوت ، من حديث فضالة بن عبيد ﷺ .

وأما أهل الفجور فتعلو وجوههم ظلمة المعصية حتى يكسف الجمال المخلوق ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن للحسنة لنورا في القلب وضياء في الوجه وقوة في البدن وزيادة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمة في القلب وغبرة في الوجه وضعفا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق .

وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل أحد كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٠٧) ﴾ (آل عمران) .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾ (الزمر) وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾ (القيامة) وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ (عبس) ، وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) ﴾ (الغاشية) ، و﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) ﴾ (الغاشية) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ (الكهف : ٢٩) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ

لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (المطففين).

وقال النبي ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدهم حتى يجيء يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»[(١)] وقال: «من سأل الناس وله ما يكفيه جاءت مسألته خدوشا أو كدوحا في وجهه يوم القيامة»[(٢)] وقال عليه السلام: «أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم كأشد كوكب في السماء إضاءة»[(٣)] وقال يوم حنين: «شاهت الوجوه»[(٤)] لوجوه المشركين.

وأمثال هذا كثير مما فيه وصف أهل السعادة بنهاية الحسن والجمال والبهاء، وأهل الشقاء بنهاية السوء والقبح والعيب.

وقد قال تعالى في وصفهم في الدنيا: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الفتح: ٢٩)، فهذه السيما في وجوه

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٤) كتاب الزكاة/ باب من سأل الناس تكثرا، ومسلم (١٠٤٠) كتاب الزكاة/ باب كراهة المسألة للناس، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في المسند (٤٢٩٣) والنسائي (٢٥٩٣) كتاب الزكاة/ باب حد الغني، وابن ماجه (٤٢٩٣) كتاب الزكاة/ باب من سأل عن ظهر غنى، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٥) كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ومسلم (٢٨٣٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (١٧٧٧) كتاب الجهاد والسير/ باب في غزوة حنين، من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

المؤمنين ، والسيما العلامة ، وأصلها من الوسم ، وكثيرا ما يستعمل في الحسن كما جاء في صفة النبي ﷺ :وسيم قسيم .

وقال الشاعر :

غلام رماه الله بالحسن يافعا

له سيماء لا تشق على البصر

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يمكن أنه استعمل التخفيف والتثقيل لأجل الشعر أيضاً ، سيما وسِيْما يعني العلامة ، التشديد من أجل الشعر ، أو أنها تستعمل مثقّلة ومخففة .أهـ

وقال الله سبحانه وتعالى في صفة المنافقين : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ (محمد : ٣٠) ، فجعل للمنافقين سيما أيضا ، وقال : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (الحج : ٧٢) فهذه السيما وهذا المنكر قد يوجد في وجه من صورته المخلوقة وضيئة كما يوجد مثل ذلك في الرجال والنساء والولدان ، لكن النفاق قبح وجهه فلم يكن فيه الجمال الذي يحبه الله ، وأساس ذلك النفاق والكذب .

ولهذا يوصف الكذاب بسواد الوجه كما يوصف الصادق ببياض الوجه كما أخبر الله بذلك ، ولهذا روي عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزير شاهد الزور بأن يُسوَّد وجهه ويركب مقلوبا على الدابة ، فإن العقوبة من جنس الذنب ، فلما اسود وجهه بالكذب وقلب الحديث سود وجهه وقلب في ركوبه ، وهذا أمر

محسوس لمن له قلب ، فإن ما في القلب من النور والظلمة والخير والشر يسري كثيرا إلى الوجه والعين ، وهما أعظم الأشياء ارتباطا بالقلب .

ولهذا يروى عن عثمان أو غيره أنه قال : ما أسر أحد بسريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه[١] ، والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه فقال : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ (محمد : ٣٠) فهذا تحت المشيئة ، ثم قال : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (محمد : ٣٠) فهذا مقسم عليه محقق لا شرط فيه ، وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه ، لكنه يبدو في الوجه بدوا خفيا يعلمه الله ، فإذا صار خلقا ظهر لكثير من الناس ، وقد يقوى السواد والقسمة حتى يظهر لجمهور الناس ، وربما مسخ قردا أو خنزيرا كما في الأمم قبلنا وكما في هذه الأمة أيضا ، وهذا كالصوت المطرب إذا كان مشتملا على كذب وفجور فإنه موصوف بالقبح والسوء الغالب على ما فيه من حلاوة الصوت .

فذو الصورة الحسنة إما أن يترجح عنده العفة والخلق الحسن ، وإما أن يترجح فيه ضد ذلك ، وإما أن يتكافآ ، فإن ترجح فيه الصلاح كان جماله بحسب ذلك ، وكان أجمل ممن لم يمتحن تلك المحنة ، وإن ترجح فيه الفساد لم يكن جميلا بل قبيحا مذموما فلا يدخل في قوله : «إن الله جميل يحب الجمال»[٢] ، وإن تكافأ فيه الأمران كان فيه من الجمال والقبح بحسب ذلك فلا يكون محبوبا ولا مبغضا .

والنبي ﷺ ذكر هذه الكلمة للفرق بين الكبر الذي يبغضه الله والجمال الذي

---

(١) الأثر ذكره ابن كثير في تفسيره سورة الفتح ﴿سيماهم في وجوههم﴾ .

(٢) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان / باب تحريم الكبر وبيانه ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

يحبه الله فقال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس»(١). فأخبر أن تحسين الثوب قد يكون من الجمال الذي يحبه الله كما قال تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١) فلا يكون حينئذ من الكبر.

وقد يرد أنه ليس كل ثوب جميل وكل نعل جميل فإن الله يحبه، فإن الله يبغض لباس الحرير ويبغض الإسراف والخيلاء في اللباس وإن كان فيه جمال، فإذا كان هذا في لبس الثياب الذي هو سبب هذا القول فكيف في غيره، وتفسير هذا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٢).

فعلم أن مجرد الجمال الظاهر في الصور والثياب لا ينظر الله إليه وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال، فإن كان الظاهر مزينا مجملا بحال الباطن أحبه الله، وإن كان مقبحا مدنسا بقبح الباطن أبغضه الله، فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش.

وأهل جمال الصورة يبتلون بالفاحشة كثيرا واسمها ضد الجمال، فإن الله سماه فاحشة وسوءا وفسادا وخبيثا فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء)، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟

(١) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام : ١٥١) ، وقال : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأعراف) وقال : ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هود ٧٨) ، وقال : ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأنبياء ٧٤) .

وقال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (العنكبوت) ، وقال : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأعراف) .

والفاحش والخبيث ضد الطيب والجميل ، فإذا كان كذلك أبغضه الله ولم يحبه ولم يكن مندرجا في الجميل .

ونظير ذلك قوله ﷺ : «إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»(١) وقوله : «إن الله يبغض الفاحش البذيء»(٢) فلو أفحش الرجل وبذأ بصوته الحسن كان الله يبغض ذلك .

ونفي المخنثين سنة من سنن النبي ﷺ الثابته عنه في موضعين : في حق الزاني

(١) رواه مسلم (٢١٦٥) كتاب السلام/ باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٢) كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في حسن الخلق ، من حديث أبي الدرداء ﷺ ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي .

والزانية اللذين لم يحصنا كما قال : «**جلد مائة وتغريب عام**»[١] وفي حق المخنث وهو إخراجه من بين الناس ، وذلك أن الفاحشة لا تقع إلا مع قدرة ومكنة الإنسان لا يطلب ذلك إلا إذا طمع فيه بما يراه من أسباب المكنة ، فمن العقوبة على ذلك قطع أسباب المكنة ، فإذا تغرب الرجل عن أهله وأعوانه وأنصاره الذي يعاونون وينصرونه ذلت نفسه وانقهرت ، فكان ذلك جزاء نكالا من الله مع الجلد ، ولأنه مفسد لأحوال من يساكنه فيبعد عنهم ، وكذلك المخنث يفسد أحوال الرجال والنساء جميعا فلا يسكن مع واحد من الصنفين .

وقد كان من سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه التمييز بين الرجال والنساء والمتأهلين والعزاب ، فكان المندوب في الصلاة أن يكون الرجال في مقدم المسجد والنساء في مؤخره .

وقال النبي ﷺ : «**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**»[٢] وقال : «**يا معشر النساء لا ترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال رؤوسهم**»[٣] من ضيق الأزر ، وكان إذا سلم لبث هنيهة هو والرجال لينصرف النساء أولا لئلا يختلط الرجال والنساء ، وكذلك يوم العيد كان النساء يصلين في ناحية فكان إذا قضى الصلاة خطب

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٥-٢٦٩٦) كتاب الصلح/ باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، ومسلم (١٦٩٨) كتاب الحدود/ باب من اعترف على نفسه بالزنا ، من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما .

(٢) رواه مسلم (٤٤٠) كتاب الصلاة/ باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٣) رواه مسلم (٤٤١) كتاب الصلاة/ باب أمر النساء المصليات وراء الرجال أن لا يرفعن رؤوسهن من السجود حتى يرفع الرجال ، من حديث سهل بن سعد ﷺ .

الرجال ثم ذهب فخطب النساء فوعظهن وحثهن على الصدقة كما ثبت ذلك في الصحيح .(١)

وقد كان عمر بن الخطاب وبعضهم يرفعه إلى النبي ﷺ قد قال عن أحد أبواب المسجد - أظنه الباب الشرقي - لو تركنا هذا الباب للنساء فما دخله عبدالله بن عمر حتى مات .(٢)

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال للنساء : «لا تحققن الطريق وامشين في حافته»(٣) أي لا تمشين في حق الطريق وهو وسطه ، وقال علي رضي الله عنه : ما يغار أحدكم أن يزاحم امرأته العلوج بمنكبها يعني في السوق .

وكذلك لما قدم المهاجرون المدينة كان العزاب ينزلون دارا معروفة لهم متميزة عن دور المتأهلين فلا ينزل العزب بين المتأهلين ، وهذا كله لأن اختلاط أحد الصنفين بالآخر سبب الفتنة ، فالرجال إذا اختلطوا بالنساء كان بمنزلة اختلاط النار والحطب ، وكذلك العزب بين الآهلين فيه فتنة لعدم ما يمنعه ، فإن الفتنة تكون لوجود المقتضى وعدم المانع ، فالمخنث الذي ليس رجلا محضا ولا

(١) رواه البخاري (٩٧٨) كتاب العيدين/ باب موعظة الإمام النساء يوم العيد ، من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما ، ومسلم (٨٨٤) كتاب صلاة العيدين ، من حديث جابر بن عبدالله وابن عباس رضي الله عنهم .

(٢) رواه أبو داود (٤٦٢) كتاب الصلاة/ باب اعتزال النساء في المساجد عن الرجال ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود وقال في الثمر المستطاب : «وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين» .انتهى

(٣) رواه أبو داود (٥٢٧٢) كتاب الأدب/ باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق ، من حديث أبي أسيد الأنصاري ﷺ ، والحديث صححه الألباني في الصحيحة (٨٥٦) وقال في صحيح سنن أبي داود : حسن .اهـ

هو امرأة محضة لا يمكن خلطه بواحد من الفريقين، فأمر النبي ﷺ بإخراجه من بين الناس.

وعلى هذا المخنث من الصبيان وغيرهم لا يمكّن من معاشرة الرجال، ولا ينبغي أن تعاشر المرأة المتشبهة بالرجال النساء، بل يفرق بين بعض الذكران وبين بعض النساء إذا خيفت الفتنة، كما قال ﷺ: «مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع»(١).

وقد نهى عن مباشرة الرجل في ثوب واحد وعن مباشرة المرأة المرأة في ثوب واحد، مع أن القوم لم يكونوا يعرفون التلوط ولا السحاق، وإنما هو من تمام حفظ حدود الله، كما أمر الله بذلك في كتابه

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ولا شك أن هذا من الأسباب التي تبعد الشر، فإنه إذا كان الرجل مع الرجل في ثوب واحد وقعت الفتنة وهكذا المرأة مع المرأة في ثوب واحد، يعني في لحاف واحد، قد يقع السحاق، فالمقصود أن الشريعة جاءت بتمييز هؤلاء عن هؤلاء وإبعاد أسباب الشر مهما أمكن، لا في مسألة المخنثين، ولا في مسألة الشباب مع النساء، ولا في مسألة النساء مع الرجال، فينبغي ويجب على ولاة الأمور ورجال الحسبة أن يراعوا هذه الأمور حتى لا تقع هذه الكوارث، ومن ذلك نزول العزاب بين المتأهلين في عمارة أو في بيت واحد أو ما أشبه ذلك، بل يكون هؤلاء في محل وهؤلاء في محل إبعاداً لهم عن الفتنة، وهكذا نوم الإنسان مع أخته أو مع أخيه في لحاف واحد قد يقع الشيطان، فهذا يكون له فراش وهذا يكون له فراش. أهـ

(١) رواه أبو داود (٤٩٥) كتاب الصلاة/ باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وصححه الألباني كما في الإرواء وصحيح أبي داود.

وقد روي أن عمر بلغه أن رجلا يجتمع إليه نفر من الصبيان فنهى عن ذلك .

وأبلغ من ذلك أنه نفى من شبب به النساء وهو نصر بن حجاج لما سمع امرأة شببت به وتشتهيه ورأى هذا سبب الفتنة فجز شعره لعل سبب الفتنة يزول بذلك فرآه أحسن الناس وجنتين فأرسل به إلى البصرة ، ثم إنه بعث يطلب القدوم إلى وطنه ويذكر ألا ذنب له فأبى عليه وقال أما وأنا حي فلا[1] .

سؤال / الفتنة في البصرة كالفتنة في المدينة أي لا يكون إبعاده عن محل الصراع!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا ، هناك لا يعرفونه ، ووكل به الأمراء يلاحظونه ، أما الذين عرفوه في المدينة فلا ، فالإنسان قد ينفى من بلاده فلا يعرف ولا يهتم به أحد ، لكن في المدينة قد عرفه النساء وأنشدوا فيه الأشعار ، فلهذا أبعده عمر .أهـ

وذلك أن المرأة إذا أمرت بالاحتجاب وترك التبرج وغير ذلك مما هو من أسباب الفتنة بها ولها ، فإذا كان في الرجال من قد صار فتنة للنساء أمر أيضا بمباعدة سبب الفتنة إما بتغيير هيئته وإما بالانتقال عن المكان الذي تحصل به الفتنة فيه ، لأنه بهذا يحصن دينه ويحصن النساء دينهن .

وبدون ذلك مع وجود المقتضى منه ومنهن لا يؤمن ذلك ، وهكذا يؤمر من يفتن النساء من الصبيان أيضا .

وذلك أنه إذا احتيج إلى المباعدة التي تزيل الفتنة كان تبعيد الواحد أيسر من

---

(١) القصة رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق «نصر بن حبيب السلامي» والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٢٨٠) المقدمة . وذكرها الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦٨٣٤) كتاب الحدود/ باب نفي أهل المعاصي والمخنثين .

تبعيد الجماعة الرجال أو النساء، إذ ذاك غير ممكن، فتحفظ حدود الله ويجانب ما يوجب تعدي الحدود بحسب الإمكان، وإذا كان هذا فيمن لا ريبة فيه ولا ذنب فكيف بمن يعرف بالريبة والذنب؟!

وهكذا المرأة التي تعرف بريبة تفتن بها الرجال تبعد عن مواضع الريب بحسب الإمكان، فإن دفع الضرر عن الدين بحسب الإمكان واجب، فإذا كان هذا هو السنة فكيف بمن يكون في جمعه من أسباب الفتنة ما الله به عليم؟ والرجل الذي يتشبه بالنساء في زيهن، واستعمال أسماء الجمال والحسن والزينة ونحو ذلك في الأعمال الصالحة والقبح والشين والدنس في الأعمال الفاسدة أمر ظاهر في الكتاب والسنة وكلام العلماء، مثل اسم الطيب والطهارة والخبث والنجاسة، ومن ذلك ما في حديث أبي ذر المشهور وقد رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «من حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون له ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يكون فيها مع أصحابه الذين يخبرونه عن ذات نفسه وساعة يخلو فيها بلذاته فيما يحل ويجمل»(١) فذكر الحل والجمال.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: يعني أربع ساعات مما يقال في حكمة آل داود، أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه ويعمل الصالحات، وساعة يحاسب فيها نفسه ماذا فعل وماذا ترك وماذا قصّر فيه، وساعة مع أصحابه يخبرونه عن عيوبه وعن تقصيره ويذكرونه بالله ويذكرهم، ويتعاونون على الخير والبر والتقوى، والساعة الرابعة مع أهله أولاده وحاجة نفسه.

---

(١) ورواه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٧٩٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٩٩)، عن وهب بن منبه.

فهذه أربع ساعات مهمة ، هذه من الحكمة ، الساعة الأولى : فيما يتعلق بطاعة الله ومناجاته من أداء الصلوات وأداء الحقوق التي لله عليه في أوقاتها .

الساعة الثانية : في محاسبة النفس ، ماذا فعل وماذا ترك وماذا قصد بكذا وماذا أراد بكذا؟ ليتوب من سيئات أعماله .

الساعة الثالثة : مع أصحابه ورفاقه الطيبين يتذاكر معهم في الله وفي ما يتعلق به ، وينبهونه على عيوبه وينبههم على عيوبهم ويتذاكرون بينهم فيما يصلحهم .

والرابعة : فيما يتعلق بحاجات نفسه وحاجات أهله وأولاده .

هذه ساعات لا شك أنها مهمة والشرع الشريف يدل عليها .أهـ

سؤال / هذا الحديث صحيح؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا ليس حديثاً ، هذا من حكمة آل داود من أخبار نبي الله داود يعني ما جاء في الزبور ، وشرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يأت شرعنا بخلافه ، فشرعنا يؤيد هذا المعنى ، فالعبد مأمور بأن يعتني بمناجاة الله وأداء حقه ، مأمور بأن يحاسب نفسه ، مأمور بأن يجتمع مع أصحابه الأخيار للمذاكرة ، مأمور بأن يؤدي حق أهله .

هذا إن صح يكون مما أقرته الشريعة ، حتى لو لم يصح الحديث فالشريعة في مصادرها ومواردها تدل على فضل هذه الساعات الأربع .أهـ

وهذا يشهد لقول الفقهاء في العدالة إنها صلاح الدين والمروءة ، قالوا والمروءة استعمال ما يجمله ويزينه وتجنب ما يدنسه ويشينه ، وهذا يرجع إلى

الحسن والقبح في الأعمال ، وأن الأعمال تكون حسنة وتكون قبيحة ، وإن كان الحسن هو الملائم النافع والقبيح هو المنافي ، فالشيء يكمل ويجمل ويحسن بما يناسبه ويلائمه وينفعه ويلتذ به ، كما يفسد ويقبح بما ينافيه ويضره ويتألم به ، والأعمال الصالحة هي التي تناسب الإنسان والأعمال الفاسدة هي التي تنافيه .

ولهذا لما قال بعض الأعراب إن مدحي زين وذمي شين قال النبي ﷺ : «ذاك الله»[1] فمدحه يزين عنده لأنه مدحه بحق وذمه يشينه لأنه حق .

وهذا الحسن والجمال الذي يكون عن الأعمال الصالحة في القلب يسري إلى الوجه ، والقبح والشين الذي يكون عن الأعمال الفاسدة في القلب يسري إلى الوجه كما تقدم ، ثم إن ذلك يقوى بقوة الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة ، فكلما كثر البر والتقوى قوي الحسن والجمال ، وكلما قوي الإثم والعدوان قوي القبح والشين ، حتى ينسخ ذلك ما كان للصورة من حسن وقبح ، فكم ممن لم تكن صورته حسنة ولكن من الأعمال الصالحة ما عظم به جماله وبهاؤه حتى ظهر ذلك على صورته .

ولهذا يظهر ذلك ظهورا بينا عند الإصرار على القبائح في آخر العمر عند قرب الموت ، فترى وجوه أهل السنة والطاعة كلما كبروا ازداد حسنها وبهاؤها ، حتى يكون أحدهم في كبره أحسن وأجمل منه في صغره ، ونجد وجوه أهل البدعة والمعصية كلما كبروا عظم قبحها وشينها حتى لا يستطيع النظر إليها من كان منبهرا بها في حال الصغر لجمال صورتها .

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٧) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة الحجرات ، بلفظ «حمدي» بدل «مدحي» من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب ، والحديث صححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي .

وهذا ظاهر لكل أحد فيمن يعظم بدعته وفجوره مثل الرافضة وأهل المظالم والفواحش من الترك ونحوهم ، فإن الرافضي كلما كبر قبح وجهه وعظم شينه حتى يقوى شبهه بالخنزير وربما مسخ خنزيرا وقردا كما قد تواتر ذلك عنهم ، ونجد المردان من الترك ونحوهم قد يكون أحدهم في صغره من أحسن الناس صورة ، ثم إن الذين يكثرون الفاحشة تجدهم في الكبر أقبح الناس وجوها ، حتى إن الصنف الذي يكثر ذلك فيهم من الترك ونحوهم يكون أحدهم أحسن الناس صورة في صغره وأقبح الناس صورة في كبره ، وليس سبب ذلك أمرا يعود إلى طبيعة الجسم ، بل العادة المستقيمة تناسب الأمر في ذلك ، بل سببه ما يغلب على أحدهم من الفاحشة والظلم فيكون مخنثا ولوطيا وظالما وعونا للظلمة فيكسوه ذلك قبح الوجه وشينه .

ومن هذا أن الذين قوي فيهم العدوان مسخهم الله قردة وخنازير من الأمم المتقدمة ، وقد ثبت في الصحيح أنه سيكون في هذه الأمة أيضا من يمسخ قردة وخنازير ، فإن العقوبات والمثوبات من جنس السيئات والحسنات كما قد بين ذلك في غير موضع .

ولا ريب أن ما ليس محبوبا لله من مسخوطاته وغيرها تزين في نفوس كثير من الناس حتى يروها جميلة وحسنة يجدون فيها من اللذات ما يؤيد ذلك وإن كانت اللذات متضمنة لآلام أعظم منها ، كما قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَٰتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران) ، وقال : ﴿ أَفَمَن

زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (فاطر: ٨)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ (غافر)، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الأنعام)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨)، وقد قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ (الحجرات)

فهو سبحانه يزين لكل عامل عمله فيراه حسنا وإن كان ذلك العمل سيئا، فإنه لولا حسنا لم يفعله إذ لو رآه سيئا لم يرده ولم يختره، إذ الإنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيء، فالحسن الجميل محبوب مراد، والسيء القبيح مكروه مبغض، والأعيان والأفعال المبغضة من كل وجه لا تقصد بحال، كما أن المحبوبة من كل وجه لا تترك بحال، ولكن قد يكون الشيء محبوبا من وجه مكروها من وجه ويقبح من وجه ويحسن من وجه، ولهذا كان الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن والسارق لا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن كامل الإيمان، فإنه لو كان اعتقاده بقبح ذلك الفعل اعتقادا تاما لم يفعله بحال، ولهذا كان كل عاص لله تعالى جاهلا كما قال ذلك

أصحاب محمد ﷺ ، فإنه لو كان عالما حق العلم بما فعله لم يفعل القبيح ولم يترك الواجب ، بل قد زين لكل أمة عملهم .

لكن العاصي إذا كان معه أصل الإيمان فإنه لا يزين له عمله من كل وجه بل يستحسنه من وجه ويبغضه من وجه ، ولكن حين فعله يغلب تزيين الفعل ولذلك قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ (آل عمران : ١٤) ، فإن هنا شيئين : حب الشهوات وأنه زين ذلك الفحش وحسن فرأوا تلك المحبة حسنة ، فلذلك استقرت هذه المحبة عندهم وتمتعوا بهذه المحبات ، فإذا رأوا ذلك الحب قبيحا لما يتبعه من الضرر لم يستقر ذلك في قلوبهم ، فإن رؤية ذلك الحب حسنا يدعو إليه قبيحا ينفر عنه .

وكذلك ذكر في الإيمان أنه حببه إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم حتى رأوه حسنا ، فإن الشيء إذا حبب وزين لم يترك بحال .

وهنا أخبر سبحانه أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وفي الشهوات قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ (آل عمران : ١٤) ، ولم يقل المزين بل ذكر العموم .

وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ (الأنعام : ١٠٨) ، وكما حذف المزين هناك قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ (آل عمران : ١٤) ، فجعل المزين نفس الحب لها لم يجعل المزين هو المحبوب ، كما أخبر أنه زين لكل أمة عملها ، فإن المزين نفس الحب لها لم يجعل المزين هو المحبوب بل هو حب الشهوات ، فإن المزين إذا كان نفس الحب والعمل لم ينصرف القلب عن ذلك ، بخلاف ما لو كان المزين هو المحبوب ، فقد يزين الشي لكن الإنسان لا يحبه لما يقوم بقلبه من العلم بحاله والبغض ، ففرق بين التزيين المتصل بالقلب وتزيين الشيء المنفصل عنه ، فيه رد على القدرية الذين

يجعلون التنزيين المنفصل، وكذلك قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ (فاطر: ٨)، وهو سبحانه امتن في الإيمان بشيئين: بأنه حببه إلينا وزينه في قلوبنا، فالنعم تتم بهما بالعلم والمحبة.

وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء[١] وفي الصحيح أيضاً أنه لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال[٢] وفي الصحيح أنه أمر بنفي المخنثين وإخراجهم من البيوت، كما روى البخاري في صحيحه عن عكرمة عن ابن عباس قال: لعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال[٣].

وفي رواية: لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال والمسترجلات من النساء وقال: «أخرجوهم من بيوتكم»، فأخرج النبي ﷺ فلانة وأخرج عمر فلاناً[٤].

فإذا كان الرجل الذي يتشبه بالنساء في لباسهن وزيهن وزينتهن ملعوناً قد لعنه رسول الله ﷺ فكيف بمن يتشبه بهن في مباشرة الرجال له فيما يتمتع الرجال به بتمكينه من ذلك لغرض يأخذه أو لهبته لذلك، فكلما كثرت مشابهته لهن كان أعظم للعنه، وكان معلوناً من وجهين: من جهة الفاحشة

(١) رواه البخاري (٥٨٨٦) كتاب اللباس/ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري (٥٨٨٥) كتاب اللباس/ باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) رواه البخاري (٥٨٨٦) كتاب اللباس/ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) المصدر السابق.

المحرمة فإنه يلعن على ذلك ولو كان هو الفاعل، ومن جهة تخنثه لكونه من جنس المفعول بهن.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: يعني أن اللوطي - نعوذ بالله - قد تشبه بالنساء من جهتين، نسأل الله العافية: من جهة أنه يُفعَل فيه، ومن جهة أنه تشبه بهن في هذا الشيء، حتى هيأ نفسه لهذا الأمر، نسأل الله السلامة، فيكون ملعوناً للواطه وملعوناً لتشبهه بالنساء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي الحديث الصحيح: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط»[1] نسأل الله العافية. أهـ.

سؤال / ما ورد في السلام على من يعرفه الإنسان ومن لا يعرفه، ففي عصرنا هذا من كثرة تشبه الناس بالأجانب بحلق الحى والخنافس فإذا واجه الإنسان إنساناً لا يعرفه ماذا يقول؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: النبي ﷺ لما سئل: أي الإسلام أفضل؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[2] فما دمت لا تعرف أنه كافر فلا بأس أن تسلم، تبدأ بالسلام وترد السلام وتنشر السلام والحمد لله.

وإذا تيسر لك النصيحة فانصح، لأنه قد يكون فيهم الجاهل الذي لا يعرف الحكم الشرعي. أهـ.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٨٧٠) والنسائي في السنن الكبرى (٧٣٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (١٢) كتاب الإيمان/ باب إطعام الطعام من الإسلام، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان/ باب تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فمن جعل شيئاً من التخنث ديناً أو طلب ذلك من الصبيان مثل تحسين الصبي صورته أو لباسه لأجل نظر الرجال واستمتاعهم بذلك في سماع وغير سماع أليس يكون مبدلاً لدين الله ، من جنس الذي ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف)؟

وإذا كانت فاحشة العرب المشركين كشف عوارتهم عند الطواف لئلا يطوفوا في ثياب عصوا الله فيها فكيف بما هو أعظم من ذلك؟

والمخنث قد يكون مقصوده معاشرة النساء ومباشرتهن ، وقد يكون تخنثه بمباشرة الرجال ونظرهم ومحبتهم ، وقد يجمع الأمرين ، وفي المتنسكين من الأقسام الثلاثة خلق كثير .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : التنسك التعبد ، يتعبدون بالتشبه بالنساء والتشبه بالرجال ، نسأل الله العافية .أهـ

وهؤلاء شر ممن يفعل هذه الأمور على غير وجه التدين ، فإنه يوجد في الأمم الجاهلية من الترك ونحوهم من يتشبه فيهم من النساء بالرجال ومن يتشبه من الرجال بالنساء خلق عظيم ، حتى يكون لنسائهم من الإمرة والملك والطاعة والبروز للناس وغير ذلك مما هو من خصائص الرجال ما ليس لنساء غيرهم ، وحتى أن المرأة تختار لنفسها من شاءت من مماليكها وغيرهم لقهرها للزوج وحكمها ، ويكون في كثير من صبيانهم من التخنث وتقريب الرجال له وإكرامه لذلك أمر عظيم ، حتى قد يغار بعض صبيانهم من النساء ، وحتى يتخذهم الرجال كالسراري ، لكن هم لا يفعلون ذلك تديناً ، فالذين يفعلون

ذلك تدينا شر منهم ، فإنهم جعلوا الفجور دينا والفاحشة حسنة ، لا لما في ذلك من ميل الطباع ، فهكذا من جعل مجرد الصوت الذي تحبه الطباع حسنا في الدين فيه شبه من هؤلاء ، لكن في المشركين من هذه الأمة من يتدين بذلك لأجل الشياطين ، كما يوجد في المشركين من الترك التتار وساحرهم الطاغوت صاحب الجبت الذي تسميه الترك البوق ، وهو الذي تستخفه الشياطين وتخاطبه ويسألها عما يريد ويقرب لها القرابين من الغنم المنخنقة وغير ذلك ويضرب لها بأصوات الطبول ونحو ذلك ، ومن شرطه أن يكون مخنثا يؤتى كما تؤتى المرأة ، فكلما كانت الأفعال أولى بالتحريم كانت أقرب إلى الشياطين .

وهذا الذي ذكرناه من أن الحسن الصورة والصوت وسائر من أنعم الله عليه بقوة أو بجمال أو نحو ذلك إذا اتقى الله فيه كان أفضل ممن لم يؤت مما لم يمتحن فيه ، فإن النعم محن ، فإن أهل الشهوات من النساء والرجال يميلون إلى ذي الصورة الحسنة ويحبونه ويعشقونه ويرغبونه بأنواع الكرامات ويرهبونه عند الامتناع بأنواع المخوفات ، كما جرى ليوسف عليه السلام وغيره ، وكذلك جماله يدعوه إلى أن يطلب ما يهواه ، لأن جماله قد يكون أعظم من المال المبذول في ذلك .

وكذلك حسن الصوت قد يدعى إلى أعمال في المكروهات ، كما أن المال والسلطان يحصل بهما من المكنة ما يدعى مع ذلك إلى أنواع الفواحش والمضال ، فإن الإنسان لا تأمره نفسه بالفعل إلا مع نوع من القدرة ، ولا يفعل بقدرته إلا ما يريده ، وشهوات الغي مستكنة في النفوس ، فإذا حصلت القدرة قامت المحنة ، فإما شقي وإما سعيد ، ويتوب الله على من تاب ، فأهل الامتحان إما أن يرتفعوا وإما أن ينخفضوا ، وأما تحرك النفوس عن مجرد الصوت فهذا

أيضا محسوس ، فإنه يحركها تحريكا عظيما جدا بالتفريح والتحزين والإغضاب والتخويف ، ونحو ذلك من الحركات النفسانية ، كما أن النفوس تتحرك أيضا عن الصور بالمحبة تارة وبالبغض أخرى ، وتتحرك عن الأطعمة بالبغض تارة والنفرة أخرى ، فتحرك الصبيان والبهائم عن الصوت هو من ذلك ، لكن كل ما كان أضعف كانت الحركة به أشد ، فحركة النساء به أشد من حركة الرجال ، وحركة الصبيان أشد من حركة البالغين ، وحركة البهائم أشد من حركة الآدميين ، فهذا يدل على أن قوة التحرك عن مجرد الصوت لقوة ضعف العقل ، فلا يكون في ذلك حمد إلا وفيه من الذم أكثر من ذلك ، وإنما حركة العقلاء عن الصوت المشتمل على الحروف المؤلفة المتضمنة للمعاني المحبوبة ، وهذا أكمل ما يكون في استماع القرآن .

وأما التحرك بمجرد الصوت فهذا أمر لم يأت الشرع إليه بالندب ولا عقلاء الناس يأمرون بذلك ، بل يعدون ذلك من قلة العقل وضعف الرأي ، كالذي يفزع عن مجرد الأصوات المفزعة المرعبة وعن مجرد الأصوات المغضبة .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود أن الأصوات الحسنة والأفعال الحسنة والصور يتأثر بها الصبيان والنساء والجهلة أكثر من غيرهم ، فإذا كانت في طاعة الله ومحبة الله كقراءة القرآن وتوجيه الناس إلى الخير نفع ذلك ، وإذا كانت في الأغاني والملاهي جر ذلك إلى الفواحش والمنكرات ولا حول ولا قوة إلا بالله ، نسأل الله السلامة .

فالذين يفعلون ذلك تديناً شر من الجهلة الذين يفعلون ذلك ويعلمون أنهم عصاة ، فالذي يعرف أنه عاص أسهل ، والذي يفعل الفواحش تديناً على أنها دين وقربة مثل المبتدع ، لأنه يرى أنها دين فلا يتوب ، نسأل الله العافية . اهـ

سؤال / حكم من يفعل اللواط؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: حكمه القتل، كذلك المفعول به إذا كان مكلفاً، يقول النبي ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

ولا يقتل إلا من كان مطاوعاً، أما من كان مكرهاً مجبوراً فالقتل على من جبره، فالقتل على من فعل اللواط عن اختيار، نعوذ بالله، ونسأل الله العافية، وسواء محصن أو غير محصن، وهو ليس مثل الزنا، بل هو أقبح من الزنا، فاللواط أشر من الزنا، ولهذا يقتل الفاعل مطلقاً ولو كان بكراً إذا كان مكلفاً، وهكذا المفعول به، نعوذ بالله. اهـ.

سؤال / البهيمة؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: البهيمة جاء في الحديث أنها تقتل لئلا يُتحدث عنها أن هذه هي التي فعل فيها فلان، فيكون فيها إشاعة الفاحشة، إذا ثبت ذلك(٢). اهـ.

قال أبو القاسم: وقال النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغني

---

(١) رواه أبو داود (٤٤٦٢) كتاب الحدود/ باب فيمن عمل عمل قوم لوط، والترمذي (١٤٥٦) كتاب الحدود/ باب ما جاء في حد اللوطي، وابن ماجه (٢٥٦١) كتاب الحدود/ باب من عمل عمل قوم لوط، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والحديث صححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود وإرواء الغليل.

(٢) الحديث رواه أبو داود (٤٤٦٤) كتاب الحدود/ باب فيمن أتى بهيمة، والترمذي (١٤٥٥) كتاب الحدود/ باب ما جاء فيمن يقع على البهيمة، وابن ماجه (٢٥٦٤) كتب الحدود/ باب من أتى ذات محرم ومن أتى بهيمة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال في تلخيص الحبير: في إسناد هذا الحديث كلام. اهـ.

بالقرآن»[1] وروى حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن الله لنبي يتغنى بالقرآن».[2]

قال: وقيل إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الجن والإنس والوحش والطير إذ قرأ الزبور، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات ممن سمعوا قراءته، وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري: «لقد أعطي مزمارا من مزامير آل داود»[3] وقال معاذ لرسول الله ﷺ: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا.[4]

قلت: هذا القول لأبي موسى كان لم يكن لمعاذ، ومضمون هذه الآثار استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وهذا مما لا نزاع فيه، فالاستدلال بذلك على تحسين بالغناء أفسد من قياس الربا على البيع، إذ هو من باب تنظير الشعر بالقرآن.

وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ (يس) وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ

(١) رواه البخاري (٥٠٢٣) كتاب فضائل القرآن/ باب من لم يتغن بالقرآن، ومسلم (٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري (٥٠٤٨) كتاب فضائل القرآن/ باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ومسلم (٧٩٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب تحسين الصوت بالقرآن.

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٢) وابن حبان في صحيحه (٧٣٢٠) والحاكم في المستدرك (٥٩٩٨) ذكر مناقب أبي موسى رضي الله عنه، وليس الحديث في معاذ رضي الله عنه.

﴿...﴾ (الشعراء)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝﴾ (الشعراء).

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ (الحاقة).

وهذا القياس مثل قياس سماع المكاء والتصدية الذي ذمه الله في كتابه وأخبر أنه صلاة المشركين، على سماع القرآن الذي أمر الله به في كتابه، وأخبر أنه سماع النبيين والمؤمنين، وقياس لأئمة الصلاة كالخلفاء الراشدين وسائر أئمة المؤمنين، بالمخنثين المغاني الذين قد يسمون الحد أو القوالين، وقياس للمؤذن الداعي إلى الصلاة وسماع القرآن، بالمزمار الداعي إلى حركة المستمعين للمكاء والتصدية، وقد روى الطبراني في معجمه عن ابن عباس عن النبي ﷺ أن الشيطان قال يارب اجعل لي قرآنا قال قرآنك الشعر قال اجعل لي مؤذنا قال مؤذنك المزمار قال اجعل لي كتابه قال كتابتك الوشم قال اجعل لي بيتا قال بيتك الحمام قال اجعل لي طعاما قال طعامك مالم يذكر اسم الله عليه.

فمن قاس قرآن الله فالله يجازيه بما يستحقه.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝﴾ (مريم) فهؤلاء يشتغلون بالشهوات عن الصلاة.

ولهذا فإن من هؤلاء الشيوخ من يقصد الاجتماعات في الحمام ويكون له فيها حال وظهور لكونه مادته من الشياطين، فإن الشيطان يظهر أثره في بيته وعنده تأذين مؤذنه وتلاوة قرآنه، كما يظهر ذلك على أهل المكاء والتصدية.

وإذا كان السماع نوعين : سماع الرحمن وسماع الشيطان ، كان ما بينهما من أعظم الفرقان ، لكن الأقسام هنا أربعة : إما أن يشتغل العبد بسماع الرحمن دون سماع الشيطان ، أو بسماع الشيطان دون سماع الرحمن ، أو يشتغل بالسماعين ، أو لا يشتغل بواحد منهما .

فالأول حال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، وأما الثاني فحال المشركين الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (الأنفال : ٣٥) وهو حال من يتخذ ذلك دينا ولا يستمع القرآن ، فإن كان يشتغل بهذا السماع شهوة لا دينا ويعرض عن القرآن فهم الفجار والمنافقون إذا أبطنوا حال المشركين .

وأما الذين يشتغلون بالسماعين فكثير من المتصوفة .

والذين يعرضون عنهما على ما ينبغي كثير من المتعربة .

فهذه النصوص المأثورة عن النبي ﷺ التي فيها مدح الصوت الحسن بالقرآن والترغيب في هذا السماع فيحتج بها على المعرض عن هذا السماع الشرعي الإيماني ، لا يحتج بها على حسن السماع البدعي الشركي .

بل الراغبون في السماعين جميعا والزاهدون في السماعين جميعا خارجون عن محض الاستقامة والشريعة القرآنية الكاملة ، هؤلاء معتدون وهؤلاء مفرطون ، وإنما الحق الرغبة في السماع الإيماني الشرعي والزهد في السماعي الشركي البدعي .

ثم ذكر أبو القاسم حكاية أبي بكر الرقي في الغلام الذي حدا بالجمال حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم فلما حط عنها ماتت ، وحدا بجمل فهام على

وجهه وقطع حباله ، قال الرقي : ولم أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه ووقعت لوجهي حتى أشار عليه بالسكوت فسكت ، فقال حدثنا أبو حاتم السجستاني حدثنا أبو نصر السراج قال حكى الرقي .

قلت : مضمون هذه الحكاية أن الصوت البليغ في الحسن قد يحرك النفوس تحريكا عظيما خارجا عن العادة ، وهذا مما لا ريب فيه ، فإن الأصوات توجب الحركات الإرادية بحسنها ، وهي في الأصل ناشئة عن حركات إرادية ، ويختلف تأثيرها باختلاف نوع الصوت وقدره ، بل هي من أعظم المحركات أو أعظمها ، وإذا اتفق قوة المؤثر واستعداد المحل قوى التأثير ، فالنفوس المستعدة لصغر أو أنوثة أو جزع ونحوه أو لفراغ وعدم شغل أو ضعف عقل إذا اتصل بها صوت عظيم حسن قوي أزعجها غاية الإزعاج ، لكن هذا لا يدل على جواز ذلك ولا فيه ما يوجب مدحه وحسنه ، بل مثل هذا أدل على الذم والنهي منه على الحمد والمدح ، فإن هذا يفسد النفوس أكثر مما يصلحها ، ويضرها أكثر مما ينفعها ، وإن كان فيه نفع فإثمه أكثر من نفعه .

وقد قال الله للشيطان : ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ (الإسراء ٦٤) ، فالصوت الشيطاني يستفز بني آدم ، وقال النبي ﷺ : «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين»(١) وذكر صوت النعمة وصوت المعصية ووصفهما بالحمق والفجور وهو الظلم والجهل .

---

(١) رواه الترمذي (١٠٠٥) كتاب الجنائز/ باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : حديث حسن . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٤٤٥ : رواه أبو يعلى والبزار وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وفيه كلام . أهـ ونقل الزيلعي في نصب الراية ٩/ ٤٧٢ عن النووي في الخلاصة قوله : ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ضعيف ولعله اعتضد . أهـ

وقال لقمان لابنه: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ (لقمان: ١٩) والمغني بهذه الأصوات لم يغض من صوته، والمتحركون بها الراقصون لم يقصدوا في مشيهم، بل المصوتون أتوا بالأحمق الجاهل الظالم الفجر من الأصوات، والمتحركون أتوا بالأحمق الجاهل الفاحش من الحركات، وربما جمع الواحد بين هذين النوعين وجعل ذلك من أعظم العبادات.

ثم قال أبو القاسم: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي سمعت محمد ابن عبد الله بن عبد العزيز سمعت أبا عمرو الأنماطي سمعت الجنيد يقول وسئل: ما بال الإنسان يكون هادئا فإذا سمع السماع اضطرب؟ فقال: إن الله لما خاطب الذر في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢) استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك.

قلت: هذا الكلام لا يعلم صحته عن الجنيد، والجنيد أجل من أن يقول مثل هذا، فإن هذا الاضطراب يكون لجميع الحيوان ناطقه وأعجمه، حتى يكون في البهائم أيضا ويكون للكفار والمنافقين، ثم الاضطراب قد يكون لحلاوة الصوت ومحبته، وقد يكون للخوف منه وهيبته، وقد يكون للحزن والجزع، وقد يكون للغضب.

ثم من المعلوم أن الصوت المسموع ليس هو ذاك أصلا، ولو سمع العبد كلام الله كما سمعه موسى بن عمران لم يكن سماعه لأصوات العباد محركا لذكر ذلك، بل المأثور أن موسى مقت الآدميين لما وقر في مسامعه من كلام الله، ثم التلذذ بالصوت أمر طبعي لا تعلق له بكونهم سمعوا صوت الرب أصلا، ثم إن أحدا لا يذكر ذلك السماع أصلا إلا بالإيمان، والناس متنازعون في أخذ الميثاق،

وفي ذلك السماع بما ليس هذا موضعه ، ثم إن مذهب الجنيد في السماع كراهة التكلف لحضوره والاجتماع عليه ، وعنده أن من تكلف السماع فتن به فكيف يعلله بهذا؟

وقد ذكر أبو القاسم ذلك فقال : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر سمعت أبا بكر بن ممشاد سمعت الجنيد يقول :السماع فتنة لمن طلبه ترويح لمن صادفه .

فأخبر أنه فتنة لمن قصده ولم يجعله لمن صادفه مستحبا ولا طاعة بل جعله راحة ، فكيف يقول إنه أظهر خطاب الحق المتقدم؟

وقال أبو القاسم : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم ، مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم ، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم .

قلت :قد قدم أبو القاسم في ترجمة الشيخ أبي علي الروذباري ، وهو قديم توفي بعد العشرين وثلاثمائة صحب الجنيد والطبقة الثانية ، وكان يقول : أستاذي في التصوف الجنيد ، وفي الفقه أبو العباس بن سريج ، وفي الأدب ثعلب ، وفي الحديث إبراهيم الحربي ، وقال فيه أبو القاسم : هو أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة .

قال : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي رحمه الله يقول سمعت أبا القاسم الدمشقي يقول : سئل أبو علي الروذباري عمن يسمع الملاهي ويقول هي لي حلال لأني وصلت إلى درجة لايؤثر في اختلاف الأحوال ، فقال : نعم قد وصل لعمري ولكن إلى سقر .

فقول الدقاق: هو مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم، هو الذي أنكره أبو علي الروذباري، فكيف بقوله مستحب؟ وسنتكلم إن شاء الله على هذا.

ثم إنه ذكر بعد هذا أنه سمع الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: السماع طبع إلا عن شرع، وخرق إلا عن حق، وفتنة إلا عن عبرة، وهذا الكلام يوافق قول الروذباري ويخالف قوله إنه مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم، فإنه جعل كل سماع ليس بمشروع فهو عن الطبع، ومعلوم أن سماع المكاء والتصدية ليس مشروعا، فيكون مسموعا بالطبع مطلقا.

وقال: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول سمعت أبا نصر الصوفي يقول سمعت الوجيهي يقول سمعت أبا علي الروذباري يقول كان الحارث بن أسد المحاسبي يقول: ثلاث إذا وجدن تمتع بهن وقد فقدناهن: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الصوت مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

قلت: قد قررت قبل هذا المعنى بأن الحسن في الصورة والصوت إن لم يكن مع تقوى الله وإلا لم يكن إلا مذموما، ومن الديانة أن يكون حسن الصوت مستعملا فيما أمر الله به.

قال أبو القاسم: وسئل ذو النون المصري عن الصوت الحسن فقال: مخاطبات وإشارات أودعها الله كل طيب وطيبة.

وسئل مرة أخرى عن السماع فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق.

قلت: هذا الكلام لم يسنده عن ذي النون وإنما أرسله إرسالا، وما يرسله في هذه الرسالة قد وجد كثير منه مكذوب على أصحابه، إما أن يكون أبو القاسم

سمعه من بعض الناس فاعتقد صدقه أو يكون من فوقه كذلك أو وجده مكتوبا في بعض الكتب فاعتقد صحته ، ومن كان من المرسلين لما يذكرونه من الأولين والآخرين يعتمد في إرساله لصحيح النقل والرواية عن الثقات فهذا يعتمد إرساله ، وأما من عرف فيما يرسله كثير من الكذب لم يوثق بما يرسله .

فهذا التفصيل موجود فيمن يرسل المنقول عن الناس من أهل المصنفات ، ومن أكثر الكذب الكذب على المشايخ المشهورين ، فقد رأينا من ذلك وسمعنا ما لا يحصيه إلا الله ، وهذا أبو القاسم مع علمه وروايته بالإسناد ، ومع هذا ففي هذه الرسالة قطعة كبيرة من المكذوبات التي لا ينازع فيها من له أدنى معرفة بحقيقة حال المنقول عنهم .

وأما الذي يسنده من الحكايات في باب السماع فعامته من كتابين :كتاب اللمع لأبي نصر السراج ، فإنه يروي عن أبي حاتم السجستاني عن أبي نصر عن عبد الله بن علي الطوسي ، ويروي عن محمد بن أحمد بن محمد التميمي عنه ، ومن كتاب السماع لأبي عبد الرحمن السلمي قد سمعه منه .

فإن كان هذا الكلام ثابتا عن ذي النون رحمة الله عليه فالكلام عليه من وجهين :من جهة الاحتجاج بالقائل ، ومن جهة تفسير المنقول .

أما الأول :فقد نقلوا أن ذا النون حضر هذا السماع بالعراق .

وقد ذكر أبو القاسم حكاية بعد ذلك مرسلة ، فقال وحكى أحمد بن مقاتل العكي قال لما دخل ذو النون المصري بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعه قوال يقول شيئا ، فاستأذنوه بأن يقول بين يديه فأذن له فابتدأ يقول :

صغير هواك عذبني
فكيف به إذا احتنكا

وأنت جمعت من قلبي
هوى قد كان مشتركا

أما ترثى لمكتئب إذا
ضحك الخلي بكى

قال : فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض ، ثم قام رجل من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾ (الشعراء) ، فجلس الرجل .

قال : وسمعت أبا علي الدقاق يقول : كان ذو النون صاحب إسراف على ذلك الرجل حيث نبهه أن ذلك ليس مقامه ، وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف حيث قبل ذلك منه فرجع وقعد .

فهذا ونحوه هو الذي أشار إليه الأئمة كالشافعي في قوله : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن ، فيكون ذو النون هو أحد الذين حضروا التغبير الذي أنكره الأئمة وشيوخ السلف ، ويكون هو أحد المتأولين في ذلك ، وقوله فيه كقول شيوخ الكوفة وعلمائها في النبيذ الذين استحلوه مثل سفيان الثوري وشريك بن عبد الله وأبي حنيفة ومسعر بن كدام ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وغيرهم من أهل العلم ، وكقول علماء مكة وشيوخها فيما استحلوه من المتعة والصرف كقول عطاء بن أبي رباح وابن جريج وغيرهما ، وكقول طائفة من شيوخ المدينة وعلمائها فيما استحلوه من الحشوش ، وكقول طائفة من شيوخ الشاميين وعلمائها فيما كانوا استحلوه من القتال في الفتنة لعلي بن أبي طالب وأصحابه ، وكقول

طوائف من أتباع الذين قاتلوا مع علي من أهل الحجاز والعراق وغيرهم في الفتنة، إلى أمثال ذلك مما تنازعت فيه الأمة وكان في كل شق طائفة من أهل العلم والدين.

فليس لأحد أن يحتج لأحد الطريقين بمجرد قول أصحابه، وإن كانوا من أعظم الناس علما ودينا، لأن المنازعين لهم هم أهل العلم والدين.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ (النساء: ٥٩)، فالرد عند التنازع إنما يكون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال سماحة الشيخ: وهذا هو الواجب على جميع الفرق، فليس فعل فرقة أو قول فرقة حجة على الأخرى، وإنما الواجب على الجميع عند التنازع في قليل أو كثير الواجب عليهم أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة، فهما الحكمان اللذان لا يجوران، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولم يزل النزاع موجوداً بين الناس في مسائل كثيرة، فمن أنصف رد النزاع إلى الأدلة الشرعية، ومن جفا أو أفرط رده إلى فلان أو فلان أو فلان، وهذا غلط، وإنما الحاكم في مسائل النزاع هو ما قاله الله ورسوله لا سوى ذلك، لا في السماع ولا في غير السماع ولا في المسائل التي أشار إليها المؤلف هنا من الأغاني وغيرها. أهـ.

نعم إذا ثبت عن بعض المقبولين عند الأمة كلام في مثل موارد النزاع كان في ذلك حجة على تقدم التنازع في ذلك، وعلى دخول قوم من أهل الزهد والعبادة والسلوك في مثل هذا، ولا ريب في هذا، لكن مجرد هذا لا ينتج

للمريد الذي يريد الله ويريد سلوك طريقه أن يقتدي في ذلك بهم مع ظهور النزاع بينهم وبين غيرهم وإنكار غيرهم عليهم ، بل على المريد أن يسلك الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ويتبع ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، فإن ذلك هو صراط الله الذي ذكره ورضي به في قوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام :١٥٣) وهذا أصل في أنه لا يحتج في مواضع النزاع والاشتباه بمجرد قول أحد ممن نوزع في ذلك .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الحقيقة أن ما وقع فيه الصوفية من المحن العظيمة والبلاء الكثير الذي شوشوا به على الناس وجعلوه ديناً وقربة حتى هلك فيه من هلك إلى يومنا هذا ، نسأل الله العافية ، سماعهم ، وتواجدهم ، وإعراضهم عن الكتاب والسنة ، وزعمهم أن العبد متى بلغ كذا وكذا سقط عنه التكاليف ، كل هذا من البلاء العظيم والشر الكثير .

فجزى الله المؤلف خيراً ، على تنبيهه .أهـ

سؤال / قضايا التواجد عندهم حتى يفقدوا الشعور هذا ادعاء أم حقيقة؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : يفقد الشعور ويسقط ، حقيقة ، يغلب عليه الوجد والتأثر في السماع والشعر وضرب مثل الموسيقى ، سواء كان قصباً أو آلة من الصفر أو من الحديد أو من غيره الذي يضربونه مع الشعر والأصوات الحسنة والبكاء فيتواجدون ويسقطون ، مثل ما قال الشافعي : إن هذا أحدثه الزنادقة ، شر كبير أحدثه الجهال الذين ما عندهم بصيرة ، وفيهم من هو زنديق لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر فشوش على الناس .أهـ

سؤال / الأناشيد الإسلامية في التسجيلات تعتبر من السماع؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : فيها الطيب وفيها الخبيث ، إذا كانت سليمة فلا مانع منها ، إذا كانت سليمة ليس فيها شيء يخالف أمر الله ، مثل الشعر حسنه حسن وقبيحه قبيح « إن من الشعر حكمة »(١) .أهـ.

وأما الوجه الثاني :فقول القائل عن الصوت الحسن مخاطبات وإشارات أودعها الله كل طيب وطيبة ، لا يجوز أن يراد به أن كل صوت طيب كانا ما كان بأن الله أودعها مخاطبات يخاطب بها عباده ، فإن هذا القول كفر صريح ، إذ ذلك يستلزم أن تكون الأصوات الطيبة التي يستعملها المشركون وأهل الكتاب في الاستعانة بها على كفرهم قد خاطب بها الله عباده ، وأن تكون الأصوات الطيبة التي يستفز بها الشيطان لبني آدم كما قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ (الإسراء : ٦٤) ، أن تكون هذه الأصوات الشيطانية إذا كانت طيبة قد أودعها مخاطبات يخاطب بها عباده ، وأن تكون أصوات الملاهي قد أودعها الله مخاطبات يخاطب بها عباده .

ومن المعلوم أن هذا لا يقوله عاقل فضلا عن أن يقوله مسلم ، ثم لو كان الأمر كذلك فلم لم يستمع الأنبياء والصديقون من الأولين والآخرين إلى كل صوت صوت ويأمروا أتباعهم بذلك لما في ذلك من استماع مخاطبات الحق ، إذ قد علم أن استماع مخاطبات الحق من أفضل القربات .

(١) رواه الترمذي (٢٨٤٤) كتاب الأدب / باب ما جاء إن من الشعر حكمة ، من حديث ابن مسعود ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، ومن حديث ابن عباس « إن من الشعر حكماً » وقال : حديث حسن صحيح .

فقد ظهر أن هذا الكلام لا يجوز أن يكون عمومه وإطلاقه حقاً .

يبقى أن يقال : هذا خاص ومقيد في الصوت الحسن إذا استعمل على الوجه الحسن ، فهذا حق مثل أن يزين به كلام الله كما كان أبو موسى الأشعري يفعل وقال له النبي ﷺ : «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك» فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا(١) .

وكان عمر يقول له : ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون(٢) .

فلا ريب أن ذا الصوت الحسن إذا تلا به كتاب الله فإنه يكون حينئذ قد أودع الله ذلك مخاطبات وإشارات وهو ما في كتابه من المخاطبات والإشارات ، فقد ظهر أن هذا الكلام إذا حمل على السماع المشروع الذي يحبه الله ورسوله كان محملا حسنا ، وإن حمل على عمومه وإطلاقه كان كفرا وضلالا .

يبقى بين ذلك العموم وهذا المخصوص مراتب منها : أن يحمل ذلك على ما يجده المستمع في قلبه من المخاطبات والإشارات من الصوت وإن لم يقصده الصوت المتكلم ، فهذا كثير ما يقع لهم ، وأكثر الصادقين الذين حضروا هذا السماع يشيرون إلى هذا المقصد ، وصاحب هذه الحال يكون ما يسمعه مذكرا له ما كان في قلبه من الحق .

وهذا يكون على وجهين :

أحدهما : من الصوت المجرد الذي لا حرف معه كأصوات الطيور والرياح

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٢) وابن حبان في صحيحه (٧٣٢٠) والحاكم في المستدرك (٥٩٩٨) ذكر مناقب أبي موسى ﷺ .

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٤١٨١) ٢/ ٤٨٦ ، والدارمي في السنن (٣٤٩٦) ٢/ ٥٦٤ ، وابن حبان في صحيحه (٧١٩٦) وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

والآلات وغير ذلك ، فهذا كثيرا ما ينزله الناس على حروف بوزن ذلك الصوت ، وكثيرا ما يحرك منهم ما يناسبها من فرح أو حزن أو غضب أو شوق أو نحو ذلك ، كقول بعضهم :

رب ورقـاء هتـوف في الضحى
صـدحـت في فـنن عـن فـنن

ربما أبكي فـلا أفـهمهـا وهي
قـد تبكي فـلا تفـهمني

غـيـر أني بالجـوى أعرفـهـا
وهي أيضـا بالجـوى تعرفني

والثاني : يكون من صوت بحروف منظومة إما شعر وإما غيره ، ويكون المستمع ينزل تلك المعاني على حاله ، سواء قصد ذلك الناظم والمنشد أو لم يقصد ذلك ، مثل أن يكون في الشعر عتاب وتوبيخ ، أو أمر بالصبر على الملام في الحب ، أو ذم على التقصير في القيام بحقوق المحبة ، أو تحريض على ما فرض للإنسان من الحقوق ، أو إغضاب وحمية على جهاد العدو ومقاتله ، أو أمر ببذل النفس والمال في نيل المطلوب ورضا المحبوب ، أو غير ذلك من المعاني المجملة التي يشترك فيها محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب الأوطان ومحب النسوان ومحب المردان ومحب الإخوان ومحب الخلان .

وربما قرع السمع حروف أخرى لم ينطق بها المتكلم على وزن حروفه ، كما يذكر عن بعضهم أنه سمع قائلا يقول : ستر بري ، فوقع في سمعه : اسع تر برّي .

وقد ذكر ذلك فيما بعد أبو القاسم فقال : سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفي يقول سمعت عبد الله بن علي الطوسي يقول سمعت يحيى بن على الرضا العلوي قال : سمع ابن حلوان الدمشقي طوافا ينادي : ياه سعتر بري ، فسقط مغشيا عليه فلما أفاق سئل فقال : حسبته يقول اسع تر بري .

وسمع عتبة الغلام رجلا يقول :

سبحان رب السماء

إن المحب لفي عناء

فقال عتبة :صدقت .

وسمع رجل آخر ذلك القول فقال : كذبت .

فكل واحد يسمع من حيث هو ، لا سيما وأكثرها إنما وضعت لمحبة لا يحبها الله ورسوله مثل بعض هذه الأجناس ، وإنما المدعي لمحبة الله ورسوله يأخذ مقصوده منها بطريق الاعتبار والقياس ، وهو الإشارة التي يذكرونها ، ولهذا قال : مخاطبات وإشارات ، فالمخاطبات كدلالة النصوص والإشارات كدلالة القياس ، ولا بد أن يكون قد علم أن تلك المخاطبات والإشارات إنما يفهم منها المستمع ويتحرك فيها حركة يحبها الله ورسوله ، فيكون قد علم من غيرها أن ما يقتضيه من الشعور والحال مرضي عند ذي الجلال بدلالة الكتاب والسنة ، وإلا فإن مجرد الاستحسان بالذوق والوجد إن لم يشهد له الكتاب والسنة وإلا كان ضلالا .

ومن هذا الباب ضل طوائف من الضالين ، وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن مثل هذا جميعه لا يجوز أن يجعل طريقا إلى الله ويجمع عليه عباد الله

ويستحب للمريدين وجه الله ، لأن ما فيه من الضرر هو أضعاف ما فيه من المنفعة لهم ، ولكن قد صادف السر الذي يكون في قلبه حق بعض هذه المسموعات فيكون مذكرا له ومنبها .

وهذا معنى قول الجنيد : السماع فتنة لمن طلبه ترويح لمن صادفه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا كله أن الصوفية وأصحاب الزهد والتأوهات التي تحصل منهم إنما تقع منهم أشياء مجملة وعبارات محتملة وألفاظ فيها حق وباطل ، فالواجب على من سمع ذلك أو قرأ ذلك أو سئل عن ذلك أن يتأنى ويتبصر ، ولا يعطي الجواب المجمل ، بل يفصل بما قد يقع منهم ، فما كان حقاً يوافق الأدلة قُبل ، وما لا فلا ، وما ذاك إلا لأنهم يصطلحون على عبارات وألفاظ يعرفونها بينهم ، فقد يكون فيها حق يجهله سامعها من غيرهم ، وقد يكون فيها باطل كذلك ، فالواجب في هذا التثبت والتبصر وعدم العجلة في جوابه أو تفسير ما يريدون إلا عن بصيرة وعن تثبت ، وأن لا يقبل من ذلك إلا ما قامت عليه الأدلة الشرعية ، ومن ذلك ما ذكر من الأمثلة ، قول بعضهم لما سمع من يقول :

سبحان من في السماء ... إن المحب لفي عناء

واحد قال صدق ، وواحد قال كذب ، فالمحب قد يكون في عناء وقد يكون في هناء ، فالمحب لله ولرسله ولأوليائه في نعمة وراحة وطمأنينة إذا استقام على الشريعة ، فهو مرتاح القلب مطمئن .

والمحب للنسوان والمردان في تعب وعناء وبلاء وشر كبير نعوذ بالله ، لأن هذا الحب قد يقوده إلى الباطل والفواحش والفساد .

فالحاصل أن هذا وأشباهه من الألفاظ التي تقع على ألسنة بعض العبَّاد أو بعض الصوفية، كلها محتملة. أهـ

وأما قول القائل: السماع وارد حق يزعج القلوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصغى إليه بنفس تزندق، فالسماع الموصوف أنه وارد حق الذي يزعج القلوب إلى الحق هو أخص من السماع الذي قد يوجب التزندق، فالكلام في ظاهره متناقض، لأن قائله أطلق القول بأنه وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، ثم جعل من أصغى إليه بنفس تزندق.

ووارد الحق الذي يزعج القلوب إلى الحق لا يكون موجبا للتزندق، لكن قائله قصد أولا السماع الذي يقصده أهل الإرادة لوجه الله، فلفظه وإن كان فيه عموم فاللام لتعريف المعهود، أي يزعج قلوب أهل هذه الإرادة إلى الحق لكونه يحرك تباكيهم ويُهَيِّج باطنهم فتتحرك قلوبهم إلى الله الذي يريدون وجهه، وهو إلههم ومعبودهم ومنتهى محبوبهم ونهاية مطلوبهم.

ثم ذكر أنه من أصغى إلى هذا السماع تزندق، وهو من أصغى إليه بإرادة العلو في الأرض والفساد وجعل محبة الخالق من جنس محبة المخلوق، وجعل ما يطلب من الاتصال بذي الجلال من جنس ما يطلب من الاتصال بالخلق، فإن هذا يوجب التزندق في الاعتقادات والإرادات، فيصير صاحبه منافقا زنديقا، وقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل[1]. ولهذا تزندق بالسماع طوائف كثيرة كما نبهنا عليه قبل هذا.

ويقال هنا: من المعلوم أن النفس سواء أريد بها ذات الإنسان أو ذات روحه المدبرة لجسده أو عني بها صفات ذلك من الشهوة والنفرة والغضب والهوى وغير ذلك، فإن البشر لا يخلو من ذلك قط، ولو فرض أن قلبه يخلو عن حركة

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٢٣ وفي شعب الإيمان ٤/ ٢٧٨.

هذه القوى والإرادات فعدمها شيء وسكونها شيء آخر ، والعدم ممتنع عليها ولكن قد تسكن ، ولكن إذا كانت ساكنة ومن شأن السماع أن يحركها فكيف يمكن الإنسان أن يسكّن الشيء مع ملابسته لما يوجب حركته؟!

فهذا أمر بالتفريق بين المتلازمين والجمع بين المتناقضين ، وهو يشبه أن يقال له أدم مشاهدة المرأة والصبي والأمرد أو مباشرته بالقبلة واللمس وغير ذلك من غير أن تتحرك نفسك أو فرجك إلى الاستمتاع به ونحو ذلك ، فهل الأمر بهذا إلا من أحمق الناس؟!

ولهذا قال من قال من العلماء العارفين : إن أحوال السماع بعد مباشرته تبقى غير مقدورة للإنسان ، بل تبقى حركة نفسه وأحوالها أعظم من أحوال الإنسان بعد مباشرة شرب الخمر ، فإن فعل هذا السماع في النفوس أعظم من فعل حميا الكؤوس .

وقوله من أصغى إليه بحق تحقق فيقال عليه وجهان :

أحدهما : أن يقال : إن الإصغاء إليه بحق مأمون الغائلة أن يخالطه باطل أمر غير مقدور عليه للبشر أكثر مما في قوة صاحب الرياضة والصفاء التام أن يكون حين الإصغاء لا يجد في نفسه إلا طلب الحق وإرادته ، لكنه لا يثق ببقائه على ذلك ، بل إذا سمع خالط الإصغاء بالحق الإصغاء بالنفس ، إذ تجرد الإنسان عن صفاته اللازمة لذاته محال ممتنع .

الثاني : أن يقال : ومن أين يعلم أن كل من أصغى إليه بحق تحقق؟ بل المصغي إليه بحق يحصل له من الزندقة والنفاق علما وحالا ما قد لا يشعر به ، كما قال عبد الله بن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل[1] ،

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٢٣ وفي شعب الإيمان ٤/ ٢٧٨ .

والنفاق هو الزندقة ، ومن المعلوم أن البقل ينبت في الأرض شيئاً فشيئاً لا يحس الناس بنباته ، فكذلك ما يبدو في القلوب من الزندقة والنفاق قد لا يشعر به أصحاب القلوب ، بل يظنون أنهم ممن تحقق ويكون فيهم شبه كثير ممن تزندق .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا أن السماع الذي اعتاده الصوفية وسيلة إلى الزندقة والفساد ، لأن سماعهم الأغاني والدفوف والرقص ، وربما سقط بعضهم مغشياً عليه فصار أعظم وأقبح من حال السكران ، لأنهم اعتاضوا عن سماع القرآن وسماع السنة وسماع ما جاءت به الرسل ، إلى أغانيهم وأشعارهم الفاسدة وطبولهم ودفوفهم وأشباه ذلك ، فربما جرهم ذلك إلى الفساد والوقوع في اللواط والزنا وغير هذا مما هو أشر من فعل الخمر ، نسأل الله العافية .

ولهذا جزم العلماء بتحريم ذلك ، وأن هذا السماع من أنكر المنكرات ، فليس هو من المحرمات فقط ؛ بل هو من البدع ، لأنهم تعبدوا به وجعلوه ديناً وقربة فصار بدعة ومحرماً جميعاً .

بدعة لأنهم شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله ، ومحرماً لأنه من المعاصي المحرمة .

فالسماع الحقيقي والرياضة الحقيقية في إصلاح القلوب في إقبالها على الله وسماعها لكتابه العظيم ، وتلذذها بسماع القرآن ، والمذاكرة فيما أمر الله به وما نهى عنه ، والتذكر بما كانت عليه أحوال الرسل وأتباعهم بإحسان ، هذا هو طريق السعادة وطريق الهدى .

أما الاعتياض عنها بسماع الأغاني من المردان والنسوان ، وسمعها بالطبول وضرب الدفوف ، وجعل هذا قربة وطاعة ؛ فهذا أبعد شيء عن الهدى ، ولهذا

قال ابن مسعود رضي الله عنه : «النفاق ينبت النافق في القلب كما ينبت الماء البقل»(١) يعني لا يزال يعتاد الغناء والأشعار في حب فلان وفلان ، وفي ذكر محاسن فلان وفلان حتى يقع في قلبه من الزندقة والنفاق وبغض الإسلام وبغض الدين ومحبة اللواط والفساد ما لا يخطر بالبال ، نسأل الله العافية .

ويزيد في القلب شيئاً فشيئاً ، شيئاً فشيئاً ، شيئاً فشيئاً ، مثل ما أن النبات ينبت أولاً ضعيف صغير لاصق في الأرض ، ثم لا يزال يزيد يزيد يزيد ويبعث ويقوى حتى يرتفع ، فهكذا النفاق في القلوب ينبت شيئاً فشيئاً ، ينبت قليلاً قليلاً حتى يعظم ، حتى ينسلخ صاحبه من الهدى ، نسأل الله العافية .اهـ .

يوضح هذا أن دعوى التحقق والتحقيق والحقائق قد كثرت على ألسنة أقوام هم من أعظم الناس زندقة ونفاقا قديما وحديثا من الباطنية القرامطة والمتفلسفة الاتحادية وغير هؤلاء .

وكذلك قوله : هو وارد حق يزعج القلوب إلى الحق .

يقال له : إن كان قد تنزعج به بعض القلوب أحيانا إلى الحق فالأغلب عليه أنه يزعجها إلى الباطل وقلما يزعجها إلى الحق محضا .

بل قد يقال : إنه لا يفعل ذلك بحال بل لابد أن يضم إلى ذلك شيء من الباطل فيكون مزعجا لها إلى الشرك الجلي أو الخفي ، فإن ما يزعج إليه هذا السماع مشترك بين الله وبين خلقه ، فإنما يزعج إلى القدر المشترك وذلك هو الإشراك بالله .

ولهذا لم يذكر الله هذا السماع في القرآن إلا عن المشركين الذين قال فيهم :

(١) رواه البيهقي وقد تقدم .

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال :٣٥) ، فلا يكون مزعجاً للقلوب إلى إرادة الله وحده لا شريك له بل يزعجها إلى الباطل تارة وإلى الحق والباطل تارة .

ولو كان يزعج إلى الحق الذي يحبه الله خالصاً أو راجحاً لكان من الحسن المأمور به المشروع ، ولكان شرعه رسول الله ﷺ بقوله أو فعله ، ولكان من سنة خلفائه الراشدين ، ولكان المؤمنون في القرون الثلاثة يفعلونه لا يتركون ما أحبه الله ورسوله وما يحرك القلوب إلى الله تحريكاً يحبه الله ورسوله . وأيضاً فهذا الإزعاج إلى الحق قد يقال إنه إنما قد يحصل لمن لم يقصد الاستماع بل صادفه مصادفة سماع شيء يناسب حاله ، بمنزلة الفأل لمن خرج في حاجة ، فأما من قصد الاستماع إليه والتغني به فقد قال النبي ﷺ : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(١) .

قال أبو القاسم : وحكى جعفر بن نصير عن الجنيد أنه قال : تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن : عند السماع فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ولا يقومون إلا عن وجد ، وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند مجاراة العلم فإنهم لا يذكرون إلا صفة الأولياء .

وذكر عقيب هذا فقال : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت الجنيد يقول : السماع فتنة لمن طلبه ترويح لمن صادفه ، وذكر بعد هذا : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت عبد الله بن

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧) كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ من حديث أبي هريرة ﷺ.

محمد بن عبد الرحمن الرازي يقول سمعت الجنيد يقول : إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

قلت : فهاتان المقالتان أسندهما عن جنيد ، وأما القول الأول فلم يسنده بل أرسله ، وهذان القولان مفسران والقول الأول مجمل ، فإن كان الأول محفوظا عن الجنيد فهو يحتمل السماع المشروع ، فإن الرحمة تنزل على أهله كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف) فذكر أن استماع القرآن سبب الرحمة .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة وتنزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»(1) .

وقد ذكر الله في غير موضع من كتابه أن الرحمة تحصل بالقرآن كقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء : ٨٢) ، وقال : ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف) ، وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل) .

يبيّن ذلك أن لفظ السماع يدخل فيه عندهم السماع الشرعي كسماع القرآن والخطب الشرعية والوعظ الشرعي ، وقد أدخل أبو القاسم هذا النوع في باب السماع ، وذكر أبو القاسم هذا النوع في باب السماع وذكر في ذلك آثارا

(1) رواه أبو داود (١٤٥٥) كتاب الصلاة/ باب في ثواب قراءة القرآن ، وأحمد في المسند من حديث أبي هريرة ﷺ .

فقال: سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمي يقول سمعت عبد الله بن الصوفي يقول سمعت الرقي يقول سمعت ابن الجلاء يقول: كان بالمغرب شيخان لهما أصحاب وتلامذة يقال لأحدهما جبلة وللثاني رزيق، فزار رزيق يوماً جبلة، فقرأ رجل من أصحاب رزيق شيئاً فصاح رجل من أصحاب جبلة صيحة ومات، فلما أصبحوا قال جبلة لرزيق: أين الذي قرأ بالأمس فليقرأ آية، فقرأ فصاح جبلة صيحة فمات القارئ! فقال جبلة: واحد بواحد والبادي أظلم.

فهذا من سماع القرآن، وأما الموت بالسماع فمسألة أخرى نتكلم عليها إن شاء الله في موضعها.

سؤال/ هل نقل بنقل صحيح أن أحد السلف أو التابعين مات من سماع القرآن؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: ما بلغنا هذا وهذه أسانيد فيها نظر، هذه الأسانيد التي ذكرها أبو القاسم فيها نظر، لا نعرف ثقات الرواة فيها، والمعروف عن الصحابة رضي الله عنهم عند سماع القرآن البكاء والخشية، ولا نعرف أن أحداً غشي عليه ولا مات أيضاً، كلاهما، إنما هذا يقع لبعض الضعفاء، ضعفاء القلوب وضعفاء البصيرة، وأما أقوياء القلوب وأهل البصائر فيخشعون، ولكن لا يكون ذلك سبباً لموتهم أو ذهاب عقولهم، لا، بل يخشعون ويطمئنون وتدمع عيونهم ويبكون، كما جرى للنبي ﷺ لما قرأ عبد الله بن مسعود أول سورة النساء حتى وصل قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، قال: «حسبك» قال: فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[1]. عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٢) كتاب التفسير/ باب ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾.

وهكذا الصحابة لما حدثهم على المنبر ، وأخبرهم أن عبداً من عباد الله خيّر فاختار ما عند الله ، بكى الصدّيق .(١)

ومرة وعظهم وذكرهم ، قال أنس : فغطوا رؤوسهم ولهم خنين من البكاء .(٢)

فالمقصود أنهم يخشعون ويبكون عند سماع العظة والذكرى ، لكن لا نعلم أن أحداً من الصحابة مات عند ذلك أو غشي عليه .أهـ

سؤال / إذا ذكرت النار فأغمي عليه ، هذا يدل على ضعف الإيمان؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا ضعف القلوب ، لا يتحمل قلبه ، والمؤمنون الأقوياء يسمعون ويخشعون ولكن لا تزول عقولهم .أهـ

قال أبو القاسم : وسئل إبراهيم المارستاني عن الحركة عند السماع فقال : بلغني أن موسى عليه السلام قص في بني إسرائيل فمزق واحد منهم قميصه فأوحى الله إليه ، قل له : مزق لي قلبك ولا تمزق لي ثيابك فهذا سماع لقصص الأنبياء .

قال أبو القاسم : وسأل أبو علي المغازلي الشبلي فقال : ربما يطرق سمعي آية من كتاب الله عز وجل فتحدوني على ترك الأشياء والإعراض عن الدنيا ثم أرجع إلى أحوالي وإلى الناس ، فقال الشبلي : ما اجتذبك إليه فهو عطف منه

(١) رواه البخاري (٤٦٦) كتاب الصلاة/ باب الخوخة والممر في المسجد ، ومسلم (٢٣٨٣) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم/ باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ ، وهو من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٤٦٢١) كتاب التفسير/ باب قوله : «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» ومسلم (٢٣٥٩) كتاب الفضائل/ باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك ، من حديث أنس بن مالك ﷺ .

عليك ولطف ، وما ردك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك ، لأنه لا يصح لك التبري من الحول والقوة في التوجه إليه .

فهذا سماع في القرآن .

وقال : سمعت أبا حاتم السجستاني يقول سمعت أبا نصر السراج يقول سمعت أحمد بن مقاتل العكي يقول : كنت مع الشبلي في مسجد ليلة في شهر رمضان وهو يصلي خلف إمام له وأنا بجنبه فقرأ الإمام : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (الإسراء :٨٦) ، فزعق زعقة قلت : طارت روحه وهو يرتعد ويقول : بمثل هذا يخاطب الأحباء ، يردد ذلك كثيرا ، فهذا سماع القرآن .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا إن صح عن الشبلي فهذا من ضعفه وعدم البصيرة .أهـ

قال : وحكى عن الجنيد أنه قال : دخلت على السري يوما فرأيت عنده رجلا مغشيا عليه فقلت ما له؟ فقال : سمع آية من كتاب الله تعالى ، فقلت : تقرأ عليه ثانيا فقرئ فأفاق ، فقال لي : من أين علمت هذا؟ فقلت : إن قميص يوسف ذهبت بسببه عين يعقوب عليه السلام ثم به عاد بصره ، فاستحسن مني ذلك .

قال : وسمعت أبا حاتم السجستاني يقول سمعت أبا نصر السراج يقول سمعت عبد الواحد بن علوان يقول : كان شاب يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئا من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يوما : إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني ، فكان إذا سمع شيئا يتغير ويضبط نفسه حتى كان يقطر من كل شعرة

من بدنه ، فيوماً من الأيام صاح صيحة تلفت بها نفسه ، فهذا سماع الذكر لا يختص بسماع الشعر الملحن .

فقول القائل : تنزل الرحمة عليهم عند السماع ، يصح أن يراد به هذا السماع المشروع .

وقوله : لا يقومون إلا عن وجد ، يعني أنهم صادقون ليسوا متصنعين بمنزلة المظهر للوجد من غير حقيقة ، لكن قد يقال : قوله : لا يستمعون إلا عن حق ، هذا التقييد لا يحتاج إليه في السماع الشرعي فإنه حق ، بخلاف السماع المحدث فإنه يسمع بحق وباطل .

فيقال : وكذلك سماع القرآن وغيره قد يكون رياء وسمعة وقد يكون بلا قلب ولا حضور ولا تدبر ولا فهم ولا ذوق .

وقد أخبر الله عن المنافقين أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، والصلاة مشتملة على السماع الشرعي .

وقد أخبر الله عن كراهة المنافقين للسماع الشرعي في غير موضع كقوله : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (التوبة) ، فهؤلاء المنافقون ينصرفون عن السماع الشرعي .

وبالجملة فإذا كان المسند المحفوظ المعروف من قول الجنيد أنه رحمه الله لا يحمد هذا السماع المبتدع ولا يأمر به ولا يثني عليه ، بل المحفوظ من أقواله ينافي ذلك ، لم يجز أن يعمد إلى قول مجمل روي عنه بغير إسناد فيحمل على أنه مدح هذا السماع المحدث .

وقد روى بعض الناس أن الجنيد كان يحضر هذا السماع في أول عمره ثم تركه ، وحضوره له فعل والفعل قد يستدل به على مذهب الرجل وقد لا يستدل به .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الأقوال أقرب ، لأن الفعل قد يكون له أسباب ، لكن الأقوال هي العمدة في المذهب .أهـ

ولهذا يتنازع الناس في مذهب الإنسان هل يوجد من فعله .

وقال بعض السلف : أضعف العلم الرؤية وهو قوله : رأيت فلانا يفعل ، وقد يفعل الشيء بموجب العادة والموافقة من بعد اعتقاد له فيه ، وقد يفعل نسيانا لا لاعتقاده فيه أو حضا ، وقد يفعله ولا يعلم أنه ذنب ثم يعلم بعد ذلك أنه ذنب ثم يفعله وهو ذنب ، وليس أحد معصوما عن أن يفعل ما هو ذنب ، لكن الأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب فيتأسى بأفعالهم التي أقروا عليها ، لأن الإقرار عليها يقتضي أنها ليست ذنبا ، وأما غير الأنبياء فلا ، فكيف بمن يكون فعل فعلا ثم تركه ؟!

وأقصى ما يقال إن الجنيد كان يفعل أولا هذا السماع على طريق الاستحسان له والاستحباب ، أو يقول ذلك فيكون هذا لو صح معارضا لأقواله المحفوظة عنه ، فيكون له في المسألة قولان .

وقد قال أبو القاسم : حكى عن الجنيد أنه قال : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء :الزمان والمكان والإخوان .

وهذه حكاية مرسلة والمراسيل في هذه الرسالة لا يعتمد عليها إن لم تعرف صحتها من وجه آخر كما تقدم ، ولو صح ذلك وأنه أراد سماع القصائد لكان هذا أحد قوليه .

وذلك أن قوله : السماع فتنة لمن طلبه ترويح لمن صادفه ، صريح بأنه مكروه مذموم منهي عنه لمن قصده ، وهذا هو الذي نقرره ، فقول الجنيد رحمه الله من محض الذي قلناه .

وقوله : ترويح لمن صادفه ، لم يثبت منه وإنما أثبتوا أنه راحة ، وجعل ذلك مع المصادفة لا مع القصد والتعمد .

والمصادفة فيها قسم لا ريب فيه وهو استماع دون استماع .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : محتمل ، يعني استماع خاطف ، ويحتمل أنه سماع دون استماع ، لأن المار سامع وليس بمستمع .أهـ

كالمرء يكون مارا فيسمع قائلا يقول بغير قصده واختياره ، أو يكون جالسا في موضع فيمر عليه من يقول ، أو يسمع قائلا من موضع آخر بغير قصده .

وأما إذا اجتمع بقوم لغير السماع إما حضر عندهم أو حضروا عنده وقالوا شيئا فهذا قد يقال إنه صادفه السماع ، فإنه لم يمش إليه ويقصده ، وقد يقال : بل إصغاؤه إليه واستماعه الصوت يجعله مستمعا فيجعله غير مصادف .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي

حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ (النساء ١٤٠) ، فجعل القاعد المستمع بمنزلة القائل .

فأكثر ما يقال : إن الجنيد أراد بالمصادفة هذه الصورة ، وهو مع جعله ترويحا لم يجعله سببا للرحمة ، وهذا غايته أن يكون مباحا لا يكون حسنا ولا رحمة ولا مستحبا ، والكلام في إباحته وتحريمه غير الكلام في حسنه وصلاحه ومنفعته وكونه قربة وطاعة ، فالجنيد لم يقل شيئا من هذا .

وقول القائل : تنزل الرحمة على أهل السماع ، إذا أراد به سماع القصائد يقتضي أنه حسن وأنه نافع في الدين ، وكلام الجنيد صريح في خلاف ذلك .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وإنما أطال في الجنيد لأن الجنيد معروف بالعلم والفضل واتباع السنة ، وهو القائل : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فلهذا أطال المؤلف في الدفاع عنه وبيان أنه ليس من أهل السماع الذي هو سماع الأغاني وسماع الطبول والدفوف الذي يفعله بعض الصوفية ، ويسمونه السماع ، ويدّعون أنه ترق به القلوب ، وهو بدعة منكرة ، والله المستعان . اهـ

قال أبو القاسم : وسئل الشبلي عن السماع؟ فقال : ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة حل له السماع بالعبرة ، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية .

قلت : هذا القول مرسل لم يسنده فالله أعلم به ، فإن كان محفوظا عن الشبلي فقد نبهنا على أن الأئمة في طريق الحق الذين يعتد بأقوالهم كما يعتد بأقوال أئمة الهدى هم مثل الجنيد وسهل ونحوهما ، فإن أقوالهم صادرة عن أصل وهم مستهدون فيها .

وأما الشبلي ونحوه فلا بد من عرض أقواله وأحواله على الحجة فيقبل منها ما وافق الحق دون ما لم يكن كذلك ، لأنه قد كان يعرض له زوال العقل حتى يذهب به إلى المارستان غير مرة ، وقد يختلط اختلاطا دون ذلك .

ومن كان بهذه الحال فلا تكون أقواله وأفعاله في مثل هذه الأحوال مما يعتمد عليها في طريق الحق ، ولكن له أقوال وأفعال حسنة قد علم حسنها بالدليل فتقبل لحسنها في نفسها ، وإن كان له حال أخرى بغير عقله أو اختلط فيها أو وقع منه ما لا يصلح .

ومعلوم أن الجنيد شيخه هو الإمام المتبع في الطريق ، وقد أخبر أن السماع فتنة لمن طلبه ، فتقليد الجنيد في ذلك أولى من تقليد الشبلي في قوله :ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، إذ الجنيد أعلى وأفضل وأجل باتفاق المسلمين ، وقد أطلق القول بأنه فتنة لطالبه ، وهو لا يريد أنه فتنة في الظاهر فقط ، إذ من شأن الجنيد أن يتكلم على صلاح القلوب وفسادها ، فإنما أراد أنه يفتن القلب لمن طلبه ، وهذا نهي منه وذم لمن يطلبه مطلقا ، ومخالفا لما أرسل عن الشبلي أنه قال : من عرف الإشارة حل له السماع بالعبرة .

وهذا التفصيل يضاهي قول من يقول : هو مباح أو حسن للخاصة دون العامة ، وقد تقدم الكلام على ذلك وأنه مردود لأن قائله اختلف قوله في ذلك ، وما أعلم أحدا من المشايخ المقبولين يؤثر عنه في السماع نوع رخصة وحمد إلا ويؤثر عنه الذم والمنع ، فهم فيه كما يذكر عن كثير من العلماء أنواع من مسائل الكلام .

فلا يوجد عمن له في الأمة حمد شيء من ذلك إلا وعنه ما يخالف ذلك ، وهذا من رحمة الله بعباده الصالحين حيث يردهم في آخر أمرهم إلى الحق الذي

بعثه به رسوله ﷺ ، ولا يجعلهم مصرين على ما يخالف الدين المشروع ، كما قال تعالى في صفة المتقين الذين أعد لهم الجنة فقال : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝ ﴾ (آل عمران) .

وقول القائل : من عرف الإشارة حل له السماع بالعبرة ، وقد تقدم أن الإشارة هي الاعتبار والقياس لأن يجعل المعنى الذي في القول مثلا مضروبا لمعنى حق يناسب حال المستمع ، ولهذا قال : باطنه عبرة .

يقال له : هب أنه يمكن الاعتبار به ، لكن من أين لك أن كل ما أمكن أن يعتبر به الإنسان يكون حلالا له؟ مع أن الاعتبار قد يكون بما يسمع ويرى من المحرمات ، فهل لأحد أن يعتبر بقصد النظر إلى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية ، ويعتبر بقصد الاستماع إلى أقوال المستهزئين بآيات الله أو غير ذلك مما لا يجوز؟

قال أبو القاسم : وقيل : لا يصح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة وقلب حي ، فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة وقلبه حي بنور المشاهدة ، وهذا التفصيل من جنس ما تقدم الكلام عليه .

قال : وسئل أبو يعقوب النهرجوري عن السماع؟ فقال : حال يبدي الرجوع إلى الأسرار من حيث الإحراق .

قلت : وهذا وصف لما يعقب السماع من الأحوال الباطنة وقوة الحرارة والإحراق والوجودية ، وهذا أمر يحسه المرء ويجده ويذوقه ، لكن ليس في ذلك مدح ولا ذم ، إذ مثل هذا يوجد لعبّاد المسيح والصليب وعباد العجل وعباد الطواغيت ، ويوجد للعشاق وغير ذلك ، فإن لم تكن هذه الأحوال مما يحبها الله ورسوله لم تكن محمودة ولا ممدوحة .

قال أبو القاسم :وقيل السماع لطف غذاء الأرواح لأهل المعرفة ، وهذا القول لم يسم قائله ، ولا ريب أن السماع فيه غذاء ، وقد قيل :إنما سمي الغناء غناء لأنه يغني النفس ، لكن الأغذية والمطاعم منها طيب ومنها خبيث ، وليس كل ما استلذه الإنسان لحسنه يكون طيبا ، فإن أكل الخنزير يستلذه آكله وشارب الخمر يستلذها شاربها .

ومما يبين ذلك أن سماع الألحان يتغذى به أهل الجهل أكثر مما يتغذى به أهل المعرفة ، كما يتغذى به الأطفال والبهائم والنساء ، وكما يكثر في أهل البوادي والأعراب ، وكل من ضعف عقله ومعرفته كما هو مشهود .

فأما السماع الشرعي فلا ، إنه غذاء طيب لأهل المعرفة كما أخبر الله بذلك في قوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة :٨٣) .

قال سماحة الشيخ :ومن هذا قوله جل وعلا :﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد :٢٨) فأهل الإيمان

تطمئن قلوبهم وترتاح نفوسهم لسماع ما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام من الكتاب والسنة والترغيب والترهيب، وتخشع القلوب وتدمع العيون، ويشتاق العبد إلى ما عند الله من النعيم والخير الكثير، بخلاف أهل الفسوق والمعاصي فإنهم يستلذون الأغاني والملاهي لأنها عادتهم وطبيعتهم، نسأل الله السلامة. أهـ

ثم ذكر أبو القاسم قول أبي علي الدقاق: السماع طبع إلا عن شرع وخرق إلا عن حق وفتنة إلا عن عبرة، وهذا كلام حسن وقد قدمنا ذكره، فإنه جعل ما ليس بمشروع هو عن الطبع فلا يكون محمودا مستحسنا في الدين وطريق الله.

وقوله: خرق إلا عن حق وفتنة إلا عن عبرة، يقتضي أنه إذا لم يكن عن حق فهو مذموم وأنه لم يكن عن عبرة فهو فتنة، وهذا كلام صحيح ولا يقتضي ذلك أن يستحب كل ما يظن أن فيه عبرة أو أنه عن حق إذا لم يكن مشروعا لأنه قد قال: إنه طبع إلا عن شرع.

قال أبو القاسم: ويقال السماع على قسمين: سماع بشرط العلم والصحو، فمن شرط صاحبه معرفة الأسامي والصفات والا وقع في الكفر المحض.

وسماع بشرط الحال، فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية والتنقي من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة.

قلت: قوله: معرفة الأسامي والصفات، يعني أسماء الحق وصفاته، وذلك لأن المسموع هو المشروع من الصفات التي يوصف بها المخلوقون، وهم إنما يأخذون مقصودهم منها بطريقة الإشارة والاعتبار كما تقدم، فيحتاج ذلك إلى أن نفرق بين ما يوصف به الرب ويوصف به المخلوق، لئلا تجعل تلك الصفات صفات لله فيكون فتنة وكفرا، هذا إذا كان صاحبه صاحيا يعلم ما يقول، وأما

إذا كان فانيا عن الشعور بالكائنات لم يحمل القول على ذلك لعدم شعوره به، فلا بد أن يكون شاعرا بالأحوال البشرية، ويكون منتقيا عن الحظوظ البشرية التي تميل إلى المخلوقات، وذلك بظهور سلطان التوحيد على قلبه، وهو قوله: ظهور أحكام الحقيقة، وهذا التفصيل يحتاج إليه من يستحسن بعض أنواع السماع المحدث لأهل الطريق إلى الله.

والفتنة تحصل بالسماع من وجهين: من جهة البدعة في الدين، ومن جهة الفجور في الدنيا.

أما الأول فلما قد يحصل به من الاعتقادات الفاسدة في حق الله أو الإرادات والعبادات الفاسدة التي لا تصلح لله، مع ما يصد عنه من الاعتقادات الصالحة والعبادات الصالحة، تارة بطريق المضادة وتارة بطريق الاشتغال، فإن النفس تشتغل وتستغني بهذا عن هذا.

وأما الفجور في الدنيا فلما يحصل به من دواعي الزنا والفواحش والإثم والبغي على الناس.

ففي الجملة جميع المحرمات قد تحصل فيه، وهو ما ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف).

قال أبو القاسم: وحكي عن أحمد بن أبي الحواري أنه قال: سألت أبا سليمان عن السماع فقال: من اثنين أحب إليّ من الواحد.

قلت : هذه المقالة ذكرها مرسلة فلا يعتمد عليها ، وإن أريد بها السماع المحدث فهي باطلة عن أبي سليمان ، فإن أبا سليمان ﷺ لم يكن من رجال السماع ولا معروفا بحضوره ، كما أن الفضيل بن عياض ومعروفا الكرخي رحمهما الله ونحوهما لم يكونوا ممن يحضر هذا السماع .

قال أبو القاسم : سئل أبو الحسين النوري عن الصوفي فقال : من سمع السماع وآثر الأسباب .

قلت : هذا النقل مرسل فلا يعتمد عليه ، ولعل المقصود بهذا هو الصوفي المذموم عندهم التصوف ، فإنه جمع بين إيثار السماع الذي يدل على الأهواء الباطلة وضعف الإرادة والعبادة ، وإيثار الأسباب التي تنقصه عندهم عن التوكل ، فضعف كونه يعبد الله وضعف كونه يستعينه ، وإلا فالنوري لا يجعل هذا شرطا في الصوفي المحقق .

قال أبو القاسم : وسئل أبو علي الروذباري عن السماع يوما ؟ فقال : ليتنا تخلصنا منه رأسا برأس .

قلت : هذا الكلام من مثل هذا الشيخ الذي هو أجل المشايخ الذين صحبوا الجنيد وطبقته يقرر ما قدمناه من أن حضور الشيخ السماع لا يدل على مذهبه واعتقاد حسنه ، فإنه يتمنى ألا يكون عليه فيه إثم ، بل يخلص منه لا عليه ولا له ، ولو كان من جنس المستحبات لم يقل ذلك فيه إلا لتقصير المستمع لا لجنس الفعل ، وليس له أن يقول ذلك إلا عن نفسه ، لا يجعل هذا حكما عاما في أهل ذلك العمل .

كما يروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يقول : وددت أني انفلت من

هذا الأمر رأساً برأس(١)، قال هذا بعد توليه الخلافة، لفرط خشيته ألا يكون قد قام بحقوق، ولم يقل هذا في أبي بكر ﷺ، بل ما يزال يشهد له بالقيام في الخلافة بالحق، ولذلك كان عمر خوفه يحمله على ذلك القول.

فقول أبي علي ليس من هذا الجنس، بل وصف الطائفة كلها بذلك، فعلم أنه لا يعتقد فيه أنه حسن وإن كان فاعلاً له.

وقال أبو القاسم: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول سمعت أبا عثمان المغربي يقول: من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب وصفير الرياح فهو مفتر مدع.

قلت: هذا الذي قاله أبو عثمان هو مما يفصلون به بين سماع العبرة وسماع الفتنة، فإن سماع العبرة الذي يحرك وجد السالكين بالحق يحصل بسماع هذه الأصوات، لا يقف على السماع الذي يهواه أهل الفتن.

وقال أبو القاسم: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول سمعت أبا نصر السراج الطوسي يقول سمعت أبا الطيب أحمد بن مقاتل العكي يقول قال جعفر: كان ابن زيري من أصحاب الجنيد شيخاً فاضلاً، ربما كان يحضر موضع السماع، فإن استطابه فرش إزاره وجلس وقال: الصوفي مع قلبه، وإن لم يستطبه قال: السماع لأرباب القلوب، ومر وأخذ نعليه.

قلت: ستكلم إن شاء الله على مثل هذه الحال، وهو المشي مع طيب القلب وما يذوق الإنسان ويجد فيه صلاح القلب، ونبين أن السلوك المستقيم هكذا من غير اعتبار لطيب القلب وما يجده ويذوقه من المنفعة واللذة والجمع

---

(١) رواه البخاري (٣٩١٥) كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

على الله ونحو ذلك ، أما ذلك الحال فهو مذموم في الكتاب والسنة ضلال في الطريق ، وهو مبدأ ضلال من ضل من العبّاد والنسّاك والمتصوفة والفقراء ونحوهم ، وحقيقته اتباع الهوى بغير هدى من الله ، وقد تقدم من كلام المشايخ في ذم هذا ما فيه كفاية .

فإن مجرد طيب القلب ليس دليلا على أنه إنما طاب لما يحبه الله ويرضاه ، بل قد يطيب بما لا يحبه الله ويرضاه مما يكرهه أولا يكرهه أيضا ، لا سيما القلوب التي أشربت حب الأصوات الملحنة ، فقد قال عبد الله بن مسعود :الغناء ينبت النفاق في القلوب كما ينبت الماء البقل (١) .

وإطلاق القول بأن الصوفي مع قلبه هو من جنس ما ذم به هؤلاء المتصوفة حتى جعلوا من أهل البدع ، لأنهم أحدثوا في طريق الله أشياء لم يشرعها الله ، فكان لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (الشورى :٢١) ، مثلما ذكره الخلال بإسناده عن عبدالرحمن بن مهدي وذكر الصوفية فقال : لا تجالسوهم ولا أصحاب الكلام وعليكم بأصحاب القماطر فإنهم بمنزلة المعادن والمفاصل هذا يخرج درة وهذا يخرج قطعة ذهب .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : أهل القماطر ، يعني أهل الكتب أهل الحديث ، أما الصوفية الذين ابتلي الناس بهم وحصل بهم الشر العظيم فهم أحدثوا في الدين ما لم يأذن به الله ، وحكّموا مواجيدهم وقلوبهم وأذواقهم على الشرع ، فهلكوا وأهلكوا ، فلا يجوز تحكيم القلب وتحكيم الذوق وتحكيم

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٢٣ وفي شعب الإيمان ٤/ ٢٧٨

المواجيد وما يستلذه وما يستطيبه ، لأن بعض الناس قد يستطيب الخبث ، وقد يستطيب الرديء ، وقد يستطيب الأغاني ، وقد يستطيب الأشياء الضارة ، ليس قلبه بميزان ، إنما الميزان ما قاله الله ورسوله .

فالمواجيد التي يجدها الإنسان ، والأذواق التي يجدها الإنسان لابد أن تعرض على الكتاب والسنة ، فإن وافقت الكتاب والسنة قبلت ، وإلا فهي من وحي الشيطان ومن لغف الشيطان ومن إغوائه وإضلاله ، ولهذا يقول بعضهم : حدثني قلبي عن ربي ، يعني ما فيه حاجة إلى الرسول ﷺ ، وقالوا : المحجوبون يروون عن الرسول ﷺ عن الله ، أما هؤلاء الذين كشف لهم فهم يروون عن ربهم رأساً مباشرة ، وهذا من الجهل العظيم والضلال البعيد ، نعوذ بالله .

ومن يستطيع ذلك؟ ومن يحكم أن ما رآه في النوم أو ما حل في قلبه أنه عن الله؟ ومن يقول له ذلك؟ ومن يمنعه أن يكون من الشيطان؟"

هذا من جهلهم العظيم وضلالهم البعيد ، نسأل الله السلامة .

فالقلوب فيها الشر والخير ، ويقع فيها الشر والخير ، ويوحي إليها الشيطان زخرف القول ، فلابد أن تعرض هذه المواجيد وهذه الأذواق التي تقع في القلوب ، لابد أن تعرض على الكتاب والسنة ، فإن طابت في الكتاب والسنة وصدقها الكتاب والسنة وأباحها وشرعها فالحمد لله ، وإلا وجب اطراحها .

وبهذا يعلم الإنسان خطر هذه الطائفة وشرها ، وهكذا أصحاب الكلام الذين أحدثوا الكلام وحكّموا عقولهم هم من جنس هؤلاء بل أشد وأخطر ، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي تجد هؤلاء وهؤلاء ، أصحاب هذه المواجيد وأصحاب الكلام الذين شرعوا لأنفسهم قوانين ما أنزل الله بها من سلطان ، وقالوا : هذا يجب على الله وهذا يمتنع على الله ، وهذا من عقولهم الفاسدة .

وطريق العصمة وطريق النجاة وطريق السعادة التفقه في الكتاب والسنة والنهل مما قاله الله ورسوله، والحذر مما يقع في القلوب أو يقوله أهل الكلام بعقولهم من نفي صفات الله أو تعطيل صفات الله أو بعضها أو الحكم على الله بغير حق، فكل هذا باطل.

فليس هنا أحد أعلم بالله من الله، هو أعلم بنفسه سبحانه، والرسول عليه الصلاة والسلام أعلم بالله من الناس، فلا طريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته وحقه إلا من طريق الكتاب والسنة.

وما يقوله هؤلاء الصوفية أو هؤلاء المتكلمون كله يجب إيقافه، وأن لا يقبل منه إلا ما شهد له الكتاب العزيز أو السنة المطهرة الصحيحة بأنه صحيح .أهـ

ويروى عن الشافعي أنه قال: لو تصوف رجل أول النهار لم يأت نصف النهار إلا وهو أحمق.

قال أبو القاسم: سمعت محمد بن الحسين رحمه الله تعالى يقول سمعت عبد الواحد بن بكر يقول سمعت عبد الله بن عبد المجيد الصوفي يقول: سئل رويم عن وجود الصوفية عند السماع فقال: يشهدون المعاني التي تعزب عن غيرهم فتشير إليهم إلي إلي فيتنعمون بذلك من الفرح، ثم يقع الحجاب فيعود ذلك الفرح بكاء، فمنهم من يخرق ثيابه ومنهم من يصيح ومنهم من يبكي كل إنسان على قدره.

قلت: هذا وصف لما يعتريهم من الحال ليس في ذلك مدح ولا ذم، إذ مثل هذه الحال يكون للمشركين وأهل الكتاب، إذ قد يشهدون بقلوبهم مع أنهم يفرحون بها فتتبع ذلك المحبة، فإن الفرح يتبع المحبة فمن أحب شيئا فرح بوجوده وتألم لفقده والمحبوب قد يكون حقا وقد يكون باطلا.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥)، وقال تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (البقرة: ٩٣).

فقد يكون المرء محبا لله صادقا في ذلك، لكن يكون ما يشهده من المعاني السارة خيالات لا حقيقة لها فيفرح بها ويكون فرحه لغير الحق وذلك مذموم.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وقد علم أن سماع المكاء والتصدية إنما ذكره الله في القرآن عن المشركين ولا يخلو من نوع شرك جلي أو خفي، ولهذا يحكي عنهم تلك الأمور الباطلة التي بدت لهم أولا، كما قال تعالى: ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ (النور: ٣٩).

ومع هذا فقد يكون في تلك المعاني التي تشاهد وتحتجب من حقائق الإيمان ما يفرح به المؤمنون أيضا، ولولا ما فيه من ذلك لما التبس على فريق من المؤمنين، لكن قد لبس الحق فيه بالباطل هذا الأمر منه ليس بحق محض أصلا، وبالحق الذي فيه نفق على من نفق عليه من المؤمنين وزهادهم وصوفيتهم وفقرائهم وعبادهم، ولكن لضعف إيمانهم نفق عليهم، ولو تحققوا بكمال الإيمان لتبين لهم ما فيه من الشرك ولبس الحق بالباطل.

ولهذا تبين ذلك لمن أراد الله أن يكمل إيمانه منهم فيتوبون منه ، كما هو المأثور عن عامة المشايخ الكبار الذين حضروه ، فإنهم تابوا منه كما تاب كثير من كبار العلماء مما دخلوا فيه من البدع الكلامية .

قال أبو القاسم : سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمي يقول سمعت عبد الله بن علي يقول سمعت الحصري يقول في بعض كلامه : إيش أعمل بسماع ينقطع إذا انقطع من يستمع منه ، ينبغي أن يكون سماعك سماعا متصلا غير منقطع .

وقال الحصري : ينبغي أن يكون ظمأ دائم وشرب دائم ، فكلما ازداد شربه ازداد ظمؤه .

قلت : هذا الكلام فيه عيب لأهل هذا السماع وبيان أن المؤمن عمله دائم ليس بمنقطع ، كما قال النبي ﷺ : «أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه»[1] فيكون اجتماع قلبه لمعاني القرآن دائما غير منقطع لا يزال عطشانا طالبا شاربا .

كما قال تعالى لنبيه : ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (الحجر) ، وقال الحسن البصري : لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلا دون الموت ، وقد اعتقد بعض الغالطين من هؤلاء أن المعنى اعبد ربك حتى تحصل لك المعرفة ثم اترك العبادة ، وهذا جهل وضلال بإجماع الأمة ، بل اليقين هنا كاليقين في قوله : ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ (المدثر) .

(١) رواه البخاري (٥٨٦١) كتاب اللباس / باب الجلوس على الحصير ونحوه ، ومسلم (٧٨٢) كتاب الصيام / باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهرا عن صوم ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

في الصحيح لما مات عثمان بن مظعون قال النبي ﷺ : «أما عثمان فقد أتاه اليقين من ربه والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»(١) .

فأما اليقين الذي هو صفة العبد فذاك قد فعله من حين عبد ربه ، ولا تصلح العبادة إلا به وإن كان له درجات متفاوتة .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى هنا هو الموت ، لأن العبد مأمور بالاستمرار في طاعة الله حتى يفجأه الموت أو يذهب عقله ، فليس له حد ينتهي إليه ، إذا بلغ من العلم كذا أو كذا كما تقول جهلة الصوفية أو ضلالهم ، أنه عندما تأتيه المعرفة الكاملة يسقط عنه التكليف فلا يصلي ولا يصوم ولا ولا ، وهذا من الضلال البعيد والكفر الواضح نعوذ بالله ، بل هو لا يزال مكلفاً مأموراً منهياً وإن كان أعلم الناس ، فالرسل أعلم الناس وهو مكلفون ، فمن دونهم من باب أولى ، فلا يزال التكليف بالعبد ، مأموراً بأن يصلي ويصوم ويتقي المحارم حتى يأتي الموت ، حتى يموت أو يزول عقله فيرفع عنه التكليف ، ولهذا قال هذا الرجل الذي قال عنه المؤلف : إنما نريد شيئاً لا ينقطع .

فالمقصود أن تدبر القرآن والسنة شيء لا ينقطع .

فعلى المؤمن أن يعنى بكتاب الله وسماع كلام الله وسماع كلام الرسول ، فإن هذا شيء لا ينقطع ، موجود ، جعله الله رحمة للعباد ، أما أهل الباطل من الصوفية وسماع أشعارهم وسماع قصائدهم ، فهذا شيء ينقطع ، هذا يأتي بقصيدة وهذا يأتي بقصيدة ، وهذا يأتي بأشعار فيها الشر ، وهذا فيها ما قد تستطيبه القلوب ، وهذا يخلط فتارة كذا وتارة كذا ، ثم ترجع إليهم حالاتهم وحيرتهم وشكهم .

(١) رواه البخاري (١٢٤٣) كتاب الجنائز/ باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه ، من حديث أم العلاء الأنصارية رضي الله عنها .

أما من كان إقباله على كتاب الله وعلى سنة رسوله ﷺ فهذا شيء لا ينقطع ، موجود مستمر .

فطريق النجاة أن يقبل على هذا الذي وضعه الله للعباد وجعله طريقاً لهم ، كلما زادوا علماً زادوا حاجة إليه ، فكلما زاد العالم علماً زاد حاجة إلى العلم وعرف جهله وعرف أنه بحاجة إلى المزيد ، ولهذا قال الله لنبيه : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه) ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء) وكلما زاد طلب العلم عرف الإنسان جهله وأنه بحاجة إلى مزيد من العلم ، وهكذا وهكذا ، فإذا علم اليوم مسائل عرف أنه بحاجة إلى مسائل أخرى يتعلمها ويستفيد منها .

فطلب العلم والتفقه في الدين يزداد به صاحبه معرفة بجهله ومعرفة بحاجته إلى المزيد من العلم ، فلا يزال أبداً في إقبال على كتاب الله وعلى سنة الرسول ﷺ يطلب المزيد من العلم ويطلب إزالة الجهل الذي عنده ، حتى يلقى ربه ، والله المستعان . اهـ

قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة ١-٤) ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة) ، وقال عن الكفار : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (الجاثية) .

قال أبو القاسم : وجاء عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ

﴿يُحْبَرُونَ ۝﴾ (الروم) أنه السماع من الحور العين بأصوات شهية ، نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا .

وهذا فيه أنهم يتنعمون في الآخرة بالسماع ، وقد تقدم الكلام على هذا وأن التنعم بالشيء في الآخرة لا يقتضي أن يكون عملا حسنا أو مباحا في الدنيا .

وقال : وقيل : السماع نداء والوجد قصد .

وهذا كلام مطلق ، فإن المستمع يناديه ما يستمعه بحق تارة وبباطل أخرى ، والواجد هو قاصد يجيب المنادي الذي قد يدعو إلى حق وقد يدعو إلى باطل ، فإن الواجد تجد في نفسه إرادة وقصدا .

قال : وسمعت محمد بن الحسين يقول سمعت أبا عثمان المغربي يقول : قلوب أهل الحق قلوب حاضرة وأسماعهم أسماع مفتوحة .

وهذا كلام حسن ، قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝﴾ (ق) ، قالوا : وهو حاضر القلب ليس بغائبه ، ووصف الله الكفار بأنهم صم بكم عمي لا يسمعون ولا يعقلون ، وأن في آذانهم وقرا وأنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم .

قال : وسمعته يعني أبا عبد الرحمن يقول سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكي يقول : المستمع بين استتار وتجل ، فالاستتار يوجب التلهيب والتجلي يورث الترويح ، والاستتار يتولد منه حركات المريدين وهو محل الضعف والعجز ، والتجلي يتولد منه سكون الواصلين وهو محل الاستقامة والتمكن ، وذلك صفة الحضرة ليس فيها إلا الذبول تحت موارد الهيبة ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ (الأحقاف)

قلت: هذا كلام على أحوال أهل السماع وهو مطلق في السماع الشرعي والبدعي، لكنه إلى وصف حال المحدث أقرب وهو وصف لبعض أحوالهم، فإن أحوالهم أضعاف ذلك، وأما الاستدلال بالآية ففيه كلام ليس هذا موضعه.

قال: وقال أبو عثمان الحيري: السماع على ثلاثة أوجه: فوجه منها للمريدين والمبتدئين، يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ويخشى عليهم في ذلك الفتنة والمراءاة.

والثاني: للصادقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ويستمعون من ذلك ما يوافق أوقاتهم.

والثالث: لأهل الاستقامة من العارفين، وهؤلاء لا يختارون على الله فيما يرد على قلوبهم من الحركة والسكون.

قلت: هذا الكلام مطلق في السماع يتناول القسمين.

فصل

في محبة الجمال

ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبر»(١).

وفي رواية: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا فقال: «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

---

(١) (٩١) كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه.

(٢) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فقوله : « إن الله جميل يحب الجمال » قد أدرج فيه حسن الثياب التي هي المسئول عنها ، فعلم أن الله يحب الجمال و الجميل من اللباس ، ويدخل في عمومه وبطريق الفحوى الجميل من كل شيء ، هذا كقوله في الحديث الذي رواه الترمذي : « إن الله نظيف يحب النظافة »(١) وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « إن الله طيب يحب الأطيباء »(٢) وهذا مما يستدل به على استحباب التجمل في الجمع والأعياد ، كما في الصحيح أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى حلة تباع في السوق فقال : يا رسول الله لو اشتريت هذه تلبسها فقال : « إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة »(٣) .

وهذا يوافقه في حسن الثياب ما في السنن عن أبي الأحوص الجشمي قال : رآني النبي ﷺ وعلي أطمار فقال : « هل لك من مال »؟ قلت : نعم قال : « من أي المال؟ قلت : من كل ما أتى الله من الإبل والشاء قال : « فلتر نعمة الله وكرامته عليك »(٤) .

وفي السنن أيضا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله

(١) الحديث رقم (٢٧٩٩) كتاب الأدب/ باب ما جاء في النظافة ، من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ ، وقال الترمذي : حديث غريب . والحديث ضعفه الألباني كما في ضعيف الترمذي .

(٢) رواه الترمذي كما في الحديث السابق ، ورواه أبو يعلى الموصلي (٧٥٩) والبزار في مسنده (١١١٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ .

(٣) رواه البخاري (٨٨٦) كتاب الجمعة/ باب يلبس أحسن ما يجد ، ومسلم (٢٠٦٨) كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه أحمد في المسند (١٦٣٠٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٧٩) وفي شعب الإيمان (٤٣٩٣) عن أبي الأحوص عن أبيه .

ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: «ومعنى قوله في هذا، أن التجمل ولبس الحسن من الثياب وتعاطي الحسن والجيد أيضاً من الطعام يكون من باب إظهار نعمة الله على العبد، فإذا يسر الله له ذلك وأنعم عليه فينبغي له أن يري الناس أثر نعمة الله عليه، وأن لا يتظاهر بمظهر الفقراء في ملبسه ومأكله ومشربه ونحو ذلك، بل يظهر نعم الله عليه ويبينها.

فإذا تعاطى بعض الأحيان شيئاً من التواضع والبذلة لكسر النفس فهذا هو المطلوب، أما أن تكون مظاهره مظاهر الفقراء والعاجزين وهو قد أنعم الله عليه، فهذا هو المكروه الذي لا ينبغي، ولهذا لما قال الرجل يا رسول الله: الرجل يحب أنت يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً أفذلك من الكبر؟

قال: «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢) الكبر بطر الحق يعني رد الحق والتكبر عن قبوله والعياذ بالله، وغمط الناس يعني احتقارهم، أخرجه الإمام مسلم رحمه الله في الصحيح.

فهذا يدل على أنه ينبغي التجمل بلبس الحسن من الثياب بين الناس في صلاته ولا سيما الجمعة، ولهذا لما رأى عمر ﷺ حلة من ديباج قال يا رسول الله: لو اشتريتها للوفد والجمعة، فقال: «إنما يلبسها من لا خلاق له»(٣) لأنها حرير،

---

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩) كتاب الاستئذان/ باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقال الترمذي: حديث حسن، والحديث صححه الألباني كما في صحيح الترمذي.

(٢) تقدم.

(٣) رواه البخاري (٨٨٦) كتاب الجمعة/ باب يلبس أحسن ما يجد، ومسلم (٢٠٦٨) كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يعني من لا خلاق له في الآخرة ، فدل على أن الجمعة يلبس لها الحسن من الثياب وعند مقابلة الوفود .

فهذا كله يبين لنا أن المؤمن ينبغي أن تكون له مظاهر حسنة حسَب ما أعطاه الله من النعمة ، وهكذا حديث عبد الله بن عمرو : «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[1] فإذا كانت عنده النعمة والخير فليكن مظهره مظهر الغنى والسعة في لباسه ومأكله ونحو ذلك .

أما أن يلبس الخُلقان والرديء من الطعام وقد أنعم الله عليه ؛ فهذا معناه نوع من الجحد لنعم الله بالفعل ، ونوع إظهار للفقر بالفعل ، نسأل الله السلامة .أهـ

سؤال / هل يؤخذ من الحديث «إن الله جميل» «إن الله طيب» أنه من أسماء الله الجميل والطيب؟

أجاب سماحة الشيخ : نعم ، مثل ما صح ، أما حديث : «إن الله نظيف يحب النظافة» فهو ضعيف ، رواه الترمذي لكنه ضعيف ، لكن معناه صحيح ، معناه إن الله جميل «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا» رواه مسلم[2] .أهـ

سؤال / إن الله يحب أن يَرى أو يُرى؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : في الرواية : «إن الله يحب أن يَرى أثر نعمته عليه»[3] وإذا رآه رآه الناس أيضاً .أهـ

---

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩) كتاب الاستئذان/ باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وقال الترمذي : حديث حسن . والحديث صححه الألباني كما في صحيح الترمذي .

(٢) كتاب الزكاة/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ، من حديث أبي هريرة ﷺ (١٠١٥)

(٣) رواه الترمذي (٢٨١٩) كتاب الاستئذان/ باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وقال الترمذي : حديث حسن . والحديث صححه الألباني كما في صحيح الترمذي .

لكن هذا الظهور لنعمة الله وما في ذلك من شكره والله يحب أن يشكر وذلك لمحبته الجمال، وهذا الحديث قد ضل قوم بما تأولوه عليه وآخرون رأوه معارضا لغيره من النصوص ولم يهتدوا للجمع.

فالأولون قد يقولون: كل مصنوع الرب جميل لقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (السجدة: ٧)، فتحب كل شيء، وقد يستدلون بقول بعض المشايخ، المحبة نار تحرق في القلب كل ما سوى مراد المحبوب والمخلوقات كلها مراده، وهو لا يقوله قائلهم، فصرح بإطلاق الجمال، وأقل ما يصيب هؤلاء أنهم يتركون الغيرة لله والنهي عن المنكر والبغض في الله والجهاد في سبيله وإقامة حدوده، وهم في ذلك متناقضون، إذ لا يتمكنون من الرضا بكل موجود، فإن المنكرات هي أمور مضرة لهم ولغيرهم، ويبقى أحدهم مع طبعة وذوقه وهواه ينكر ما يكره ذوقه دون ما لا يكره ذوقه وينسلخون عن دين الله، وربما دخل أحدهم في الاتحاد والحلول المطلق، ومنهم من يخص الحلول أو الاتحاد ببعض المخلوقات كالمسيح أو علي بن أبي طالب أو غيرهما من المشايخ والملوك والمردان، فيقولون بحلوله في الصور الجميلة ويعبدونها.

ومنهم من لا يرى ذلك لكن يتدين بحب الصور الجميلة من النساء الأجانب والمردان وغير ذلك، ويرى هذا من الجمال الذي يحبه الله ويحبه هو، ويلبس المحبة الطبيعية المحرمة بالمحبة الدينية، ويجعل ما حرمه الله مما يقرب إليه:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ (الأعراف: ٢٨).

والآخرون قالوا: ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١] ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك لكن نظر المحبة، وقد قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ (المنافقون: ٤)، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ (مريم)، والأثاث المال من اللباس ونحوه والرئي المنظر، فأخبر أن الذين أهلكهم قبلهم كانوا أحسن صورا وأموالا لتتبين أن ذلك لا ينفع عنده ولا يعبأ به.

وقال النبي ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[٢] وفي السنن عنه أنه قال: «البذاذة من الإيمان»[٣].

وأيضا فقد حرم علينا من لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة ما هو أعظم الجمال في الدنيا، وحرم الله الفخر والخيلاء واللباس الذي فيه الفخر والخيلاء كإطالة الثياب، حتى ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله

---

(١) الحديث رقم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٢) رواه أحمد (٢٤٢٠٤) من حديث أبي نضرة ﷺ، وقال الشيخ الألباني: صحيح، ولكن عزوه للسنن وهم، فإنه لم يروه أحد منهم، وإنما هو في مسند الإمام أحمد، وقد كنت توقفت فيه قبل سنين، ثم يسر الله تعالى لي جمع كثير من طرقه، وحققت الكلام عليها، فتبين لي أنه صحيح بمجموعها، وأودعت تفصيل ذلك في الموضع المشار إليه، وعليه استجزت إيراده في كتابي الكبير «صحيح الجامع الصغير وزياداته» (١٧٨٠). اهـ من التعليق على شرح الطحاوية.

(٣) رواه أبو داود (٤١٦١) كتاب الترجل/ باب النهي عن كثير من الإرفاه، وابن ماجه (٤١١٨) كتاب الزهد/ باب من لا يؤبه له، من حديث أبي أمامة ﷺ، والحديث صححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٣٤١).

ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا»[(١)] وفي الصحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[(٢)] وفي الصحيح أيضا قال: «بينما رجل يجر أزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[(٣)].

وقد قال تعالى في حق قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ (القصص: ٧٩)، قالوا: ثياب الأرجوان.

ولهذا ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: رآني رسول الله ﷺ وعلي ثوبين معصفرين فقال: «إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها» قلت: أغسلهما قال: «أحرقهما»[(٤)].

قال سماحة الشيخ رحمه الله: الرواية بالرفع «ثوبان» مبتدأ وخبر، رآني وعلي ثوبان جملة مستقلة. أهـ[(٥)]

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٨) كتاب اللباس/ باب من جر ثوبه من الخيلاء، ومسلم (٢٠٨٧) كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٣) كتاب اللباس/ باب قول الله تعالى: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده» ومسلم (٢٠٨٥) كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٥٧٩٠) كتاب اللباس/ باب من جر ثوبه من الخيلاء، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه مسلم (٢٠٨٨) كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) رواه مسلم (٢٠٧٧) كتاب اللباس والزينة/ باب النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر.

(٥) الرواية التي بالرفع هي رواية الإمام أحمد في المسند بلفظ: «رآه وعليه ثوبان معصفران» والله أعلم.

ولهذا كره العلماء المحققون الأحمر المشبع حمرة، كما جاء النهي عن الميثرة الحمراء[١]، وقال عمر بن الخطاب: دعوا هذه الرايات للنساء، وقد بسطنا القول في هذه المسألة في موضعها.

وأيضا فقد قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (النور ٣٠ ـ ٣١)، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة: «**العينان تزنيان وزناهما النظر**»[٢] وفي الصحيح عن جرير بن عبد الله قال سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة فقال: «**اصرف بصرك**»[٣] وفي السنن أنه قال لعلي: «**يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة**»[٤].

وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ (طه).

---

(١) رواه مسلم (٢٠٦٦) كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء وإباحة العلم ونحوه للرجل ما لم يزد على أربع أصابع، من حديث البراء بن عازب ﷺ، ورواه أبو داود (٤٠٥١) كتاب اللباس/ باب من كرهه، عن علي ﷺ، ورواه الترمذي (٢٧٨٨) كتاب الاستئذان/ باب ما جاء في طيب الرجال والنساء، عن عمران بن حصين ﷺ، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، ورواه النسائي (٥١٨٨) كتاب الزينة/ باب حديث عبيدة، عن عبيدة.

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣) كتاب الاستئذان/ باب زنا الجوارح دون الفرج، ومسلم (٢٦٥٧) كتاب القدر/ باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه مسلم (٢١٥٩) كتاب الآداب/ باب نظر الفجأة.

(٤) رواه أبو داود (٢١٤٩) كتاب النكاح/ باب في ما يؤمر به من غض البصر، والترمذي (٢٧٧٧) كتاب الاستئذان/ باب ما جاء في نظرة الفجاءة، من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ، وقال الترمذي: حسن غريب. والحديث قال عنه الألباني: «حسن» كما في صحيح أبي داود.

وقال : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر) ، وقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران)

وقد قال مع ذمه لمذامه من هذه الزينة : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأعراف : ٣٢) .

فنقول : اعلم أن ما يصفه به النبي ﷺ من محبة الأجناس المحبوبة من الأعيان والصفات والأفعال وما يبغضه من ذلك هو مثل ما يأمر به من الأفعال وينهى عنه من ذلك ، فإن الحب والبغض هما أصل الأمر والنهي ، وذلك نظير ما يعده على الأعمال الحسنة من الثواب ويتوعد به على الأعمال السيئة من العقاب .

فأمره ونهيه ووعده وحبه وبغضه وثوابه وعقابه كل ذلك من جنس واحد ، والنصوص النبوية تأتي مطلقة عامة من الجانبين ، فتتعارض في بعض الأعيان والأفعال التي تندرج في نصوص المدح والذم والحب والبغض والأمر والنهي والوعد والوعيد ، وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذه القاعدة في غير موضع لتعلقها بأصول الدين وفروعه .

فإن من أكبر المسائل التي تتبعها مسألة الأسماء والأحكام في فساق أهل الملة، وهل يجتمع في حق الشخص الواحد الثواب والعقاب -كما يقوله أهل السنة والجماعة- أم لا يجتمع ذلك؟ وهل يكون الشيء الواحد محبوبا من وجه مبغوضا من وجه محمودا من وجه مذموما من وجه؟ كما يقوله جمهور الخوارج والمعتزلة، وهل يكون الفعل الواحد مأمورا به من وجه منهيا عنه من وجه؟

وقد تنازع في ذلك أهل العلم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا الذي ذكره المؤلف رحمه الله في الأمور المجملة، إنما يفصّله في النصوص الأخرى، فإذا أحب الله شيئاً وأثنى عليه إجمالاً، أو ذم شيئاً وعابه إجمالاً فلابد من الرجوع إلى النصوص للتفصيل، فما فصله من المباح أخذ به، وما فصله من النهي أخذ به، فإذا قال: «إن الله جميل يحب الجمال»[(١)] ليس معناه أن كل جميل محبوب إلى الله مطلقاً، بل المقصود أنه يحب الجمال الذي أباحه وشرعه لعباده، فهو يحب الجمال الذي شرعه لعباده وأحبه لهم دون ما نهاهم عنه، فالذهب مثلاً والحرير جميل ولكنه ما أحبه للرجال سبحانه، بل جعله للنساء، فلا يقول قائل: إن الذهب جميل فيتحلى به الرجل ويجعله خاتماً له أو قلادة له، لأن هذا جميل لكن في محله، في محل النساء لا محل الرجال، وهكذا الحرير هو جميل في نفسه ونفيس لكن لجنس آخر وهو للنساء لا للرجال، وهكذا الأواني جميلة وطيبة لكن الله ما أباح لنا أواني الذهب والفضة ولا أباحه لعباده في الدنيا، بل جعلها لهم في الآخرة، في الجنة والنعيم المقيم، فلا ينبغي أن يستعجلوها في الدنيا، أو يتشبهوا بأعداء الله في الدنيا الذين استحلوها.

(١) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه، من حديث ابن مسعود ﷺ.

وهكذا ما أشبه ذلك ، فقوله : «إنه يحب أن يرى أثر نعمته عليه»(١) ليس معنى أنه يحب أن يرى أثر نعمته عليه أن يلبس الحرير أو يلبس الذهب أو يتبختر أو يجر ثيابه ، لا ، بل يلبس منها ما شرعه الله ، ويتجمل بما جعله الله له من اللباس الجميل المباح غير الحرير ، وهكذا يتجمل بالثياب لكن من دون إرخائها وإسبالها ، بل يتجمل بها بالحدود الشرعية .

فالحاصل أن الألفاظ المجملة العامة لابد من تفصيلها وتقييدها بالنصوص الخاصة المفصلة لما أباح الله جل وعلا ، أما أهل الباطل فيأخذون ما ناسب أهواءهم ويتأولون النصوص على غير تأويلها .

والواجب على أهل الإيمان أن يفسروا النصوص بما جاءت به ، وأن يقيدوا المطلق بالمقيد ويخصوا العام بالخاص ، وأن لا يأخذوها هكذا مطلقة فيجعلوها متعارضة متناقضة ، لا ، فإن كتاب الله وسنة رسوله لا يتناقضان ، بل كلاهما حق ، فما أطلق في مكان فسره مكان آخر ، وما عمم في مكان فسره تخصيص آخر وهكذا . أهـ

سؤال / كيف يجمع بين الحث على الزهد والحث على لبس أجمل الثياب؟

أجاب سماحة الشيخ : لا منافاة ، يكون الزاهد زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة وهو عليه ملابس جيدة ما عنده مفاخرة ولا تكبر ولا إضاعة للآخرة في مشاغل الدنيا ، وهو يلبس الجميل ويتواضع لله ، ويزهد في الدنيا لا يؤثرها على الآخرة .

---

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩) كتاب الاستئذان/ باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وقال الترمذي : حديث حسن . والحديث صححه الألباني كما في صحيح الترمذي .

فالمؤمن زاهد في الدنيا وإن لبس الجميل وإن أكل الطيب من الطيبات من اللحوم والطعام ونحو ذلك ، فالزهد محله القلب .

وإذا ترك ذلك بعض الأحيان من باب كسر النفس ، من باب البذاذة بعض الأحيان فهذا حسن ، من باب كسر النفس عن ترفعها وتكبرها ونحو ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ (المؤمنون : ٥١) ، فهم يأكلون الطيبات ويعملون الصالحات وهم زهاد ، أزهد الناس الأنبياء ، ومع ذلك أمرهم أن يأكلوا من الطيبات عليهم الصلاة والسلام ، وهكذا قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٧٢) وكان لا يتكلف بأكل ما تيسر من اللحم ، من لحم الإبل أو من لحم الغنم أو من الصيود ويشرب العسل ويأكل الفاكهة ويلبس الحسن من الثياب إذا تيسر ذلك .أهـ

سؤال / بعض الناس إذا نُصح عن النظر إلى النساء يستدل بهذا الحديث "إن الله جميل يحب الجمال"!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا من الجهل نسأل الله العافية .أهـ

سؤال / التكبر على المتكبرين؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : التكبر قسمان : تكبر عنهم بمعنى أنه لا يعاملهم بالشرع ، فهذا غلط ، أما أنه لا يهتم بهم ولا يباليهم بالأ ولكن ينصفهم ويعطيهم حقوقهم حق ، فينصفهم ويعطيهم حقوقهم ويرد السلام ويبدأ بالسلام .أهـ

سؤال / الوعيد الذي ورد في إسبال الإزار يدخل فيه جميع أنواع الخيلاء من السيارة والملبس؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا ، لا يدخل ، ركوب الناقة الطيبة والفرس الطيبة ليس من الخيلاء ، هذه خيلاء مقيدة ، في القلوب وفي الملابس ونحوها مما بينه الرسول ﷺ ، لكن الذي قلبه فيه تكبر ولو عليه خلق ، مثل ما قال النبي ﷺ : «وعائل مستكبر»(١) قد يكون عائلاً فقيراً وهو متكبر ، الكبر في قلبه .أهـ

سؤال / يقول بعضهم «من جر ثوبه خيلاء» أنه لا يحرم إلا ما كان بطراً وكبراً!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا ، هذا يكون أشد تحريماً ، وإلا فالإسبال كله محرم ، لكن ما كان عن كبر يكون أشد في الإثم ، نسأل الله العافية ، ولهذا قال ﷺ : «ما أسفل من الكعبين من الإزار فهو في النار»(٢) ولم يقيده .أهـ

والتعارض بين النصوص إنما هو لتعارض المتعارض المقتضى للحمد والذم من الصفات القائمة بذاته تعالى ، ولهذا كان هذا الجنس موجبا للكفر أو الفتنة ، فأول مسألة فرقت بين الأمة مسألة الفاسق الملي ، فأدرجته الخوارج في نصوص الوعيد والخلود في النار وحكموا بكفره ، ووافقتهم المعتزلة على دخوله في نصوص الوعيد وخلوده في النار ، لكن لم يحكموا بكفره ، فلو كان الشيء خيرا محضا لم يوجب فرقة ، ولو كان شرا محضا لم يخف أمره ، لكن لاجتماع الأمرين فيه أوجب الفتنة .

وكذلك مسألة القدر التي هي من جملة فروع هذا الأصل ، فإنه اجتمع في

---

(١) رواه مسلم (١٠٧) كتاب الإيمان/ باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٨) كتاب اللباس/ باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

الأفعال الواقعة التي نهى الله عنها أنها مرادة له لكونها من الموجودات، وأنها غير محبوبة له ولا مرضية، بل ممقوتة مبغوضة لكونها من المنهيات.

فقال طوائف من أهل الكلام: الإرادة والمحبة والرضا واحدة أو متلازمة، ثم قالت القدرية: والله لم يحب هذه الأفعال ولم يرضها فلم يردها، فأثبتوا وجود الكائنات بدون مشيئة.

ولهذا لما قال غيلان القدري لربيعة بن أبي عبد الرحمن: يا ربيعة نشدتك بالله أترى الله يحب أن يعصى؟ فقال له ربيعة: أفترى الله يعصى قسرا؟ فكأنه ألقمه حجرا[1]، يقول له: نزهته عن محبة المعاصي فسلبته الإرادة والقدرة وجعلته مقهورا مقسورا.

وقال من عارض القدرية: بل كل ما أراده فقد أحبه ورضيه، ولزمهم أن يكون الكفر والفسوق والعصيان محبوبا لله مرضيا.

وقالوا أيضا: يأمر بما لا يريده وكل ما أمر به من الحسنات فإنه لم يرده، وربما قالوا: ولم يحبه ولم يرضه إلا إذا وجد ولكن أمر به وطلبه.

فقيل لهم: هل يكون طلب وإرادة واستدعاء بلا إرادة ولا محبة ولا رضا؟ هذا جمع بين النقيضين، فتحيروا.

فأولئك سلبوا الرب خلقه وقدرته وإرادته، وهؤلاء سلبوا محبته ورضاه وإرادته الدينية وما يصحبه أمره ونهيه من ذلك، فكما أن الأولين لم يثبتوا أن الشخص الواحد يكون مثابا معاقبا، بل إما مثاب وإما معاقب، فهؤلاء لم يبينوا أن الفعل الواحد يكون مرادا من وجه دون وجه مرادا غير محبوب، بل إما مراد

(١) رواه ابن بطة في الإبانة ٢/ ٢٦٠ باب فيما روي عن جماعة من فقهاء المسلمين ومذهبهم في القدر، وابن عساكر في تاريخ دمشق «غيلان بن أبي غيلان».

محبوب وإما غير مراد ولا محبوب ، ولم يجعلوا الإرادة إلا نوعا واحدا ، والتحقيق أنه يكون مرادا غير محبوب ولا مرضي ، ويكون مرادا من وجه دون وجه ، ويكون محبوبا مرضيا غير مراد الوقوع .

والإرادة نوعان : إرادة دينية وهي المقارنة الأمر والنهي والحب والبغض والرضا والغضب .

وإرادة كونية وهي المقارنة للقضاء والقدر والخلق والقدرة .

وكما تفرقوا في صفات الخالق تفرقوا في صفات المخلوق ، فأولئك لم يثبتوا له إلا قدرة واحدة تكون قبل الفعل ، وهؤلاء لم يثبتوا له إلا قدرة واحدة تكون مع الفعل .

أولئك نفوا القدرة الكونية التي بها يكون الفعل ، وهؤلاء نفوا القدرة الدينية التي بها يأمر الله العبد وينهاه .

وهذا من أصول تفرقهم في مسألة تكليف ما لا يطاق ، وانقسموا إلى قدرية مجوسية تثبت الأمر والنهي وتنفي القضاء والقدر ، وإلى قدرية مشركية شر منهم تثبت القضاء والقدر وتكذب بالأمر والنهي أو ببعض ذلك .

وإلى قدرية إبليسية تصدق بالأمرين لكن ترى ذلك تناقضا مخالف للحق والحكمة .

وهذا شأن عامة ما تتعارض فيه الأسباب والدلائل ، تجد فريقا يقولون بهذا دون هذا ، وفريقا بالعكس ، وفريقا رأوا الأمرين واعتقدوا تناقضهما ، فصاروا متحيرين أو معرضين عن التصديق بهما جميعا ، أو متناقضين مع هذا تارة ومع هذا تارة .

وهذا تجده في مسائل الكلام والاعتقادات ومسائل الإرادة والعبادات ،

كمسألة السماع الصوتي ومسألة الكلام ومسائل الصفات وكلام الله وغير ذلك من المسائل .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والخلاصة في هذا أن الله سبحانه له إرادتان : إرادة كونية كالمشيئة ، هذه بها خلق الأشياء وبها أوجد الأشياء وهي المرادة في قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس) وفي قوله جل وعلا : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الأنعام : ١١٢) وفي الحديث : «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[١] هذه بها أوجد الله الأشياء وخلق الأشياء خيرها وشرها .

وهناك إرادة دينية تتبعها المحبة والرضا ، وهي ما جاءت به الرسل ، فما أمر الله به فقد أراده شرعاً وأحبه شرعاً ، فإن وجد فقد شاءه قدراً وأراده قدراً ، وإن لم يوجد فذلك لأنه لم يشأه قدراً ولم يرده قدراً سبحانه .

فإذا وجد من المؤمن اجتمعت في حقه الإرادتان الإرادة الشرعية والإرادة الكونية ، فإنه إنما صلى وصام ووحد ربه بإرادة الله سبحانه الإرادة الكونية ووافق إرادته الشرعية ومحبته سبحانه .

وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي والكافر ، فإنه إنما كفر وعصى بما سبق من المشيئة والإرادة الكونية ، ولكنه لم يوفق لقبول الإرادة الشرعية والأمر الشرعي فصار عاصياً ضالاً ، ولكنه لم يخرج عن قدر الله ولا عن إرادته الكونية سبحانه ، فإنه سبحانه لا يكون في ملكه ما لا يريد .

فتجتمع الإرادتان في حق المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية والمشيئة في حق العاصي والكافر .

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٥) كتاب الأدب/ باب ما يقول إذا أصبح ، عن بعض بنات النبي ﷺ .

وهذا فصل النزاع بين أهل السنة وبين أهل البدع ، والله المستعان .أهـ

وجماع القول في ذلك أن كل أمرين تعارضا فلا بد أن يكون أحدهما راجحا أو يكونا متكافئين فيحكم بينهما بحسب الرجحان وبحسب التكافؤ ، فالعملان والعاملان إذا امتاز كل منهما بصفات فإن ترجح أحدهما فهو الراجح ، وإن تكافئا سوي بينهما في الفضل والدرجة ، وكذلك أسباب المصالح والمفاسد ، وكذلك الأدلة بأنه يعطى كل دليل حقه ، ولا يجوز أن تتكافأ الأدلة في نفس الأمر عند الجمهور ، لكن تتكافأ في نظر الناظر ، وأما كون الشيء الواحد من الوجه الواحد ثابتا منتفيا فهذا لا يقوله عاقل .

وأصل هذا كله العدل بالتسوية بين المتماثلين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد : ٢٥) ، وقد بسطنا القول في ذلك وبينا أن العدل جماع الدين والحق والخير كله في غير موضع .

والعدل الحقيقي قد يكون متعذرا إما عمله وإما العمل به ، لكن التماثل من كل وجه غير ممكن أو غير معلوم ، فيكون الواجب في مثل ذلك ما كان أشبه بالعدل وأقرب إليه وهي الطريقة المثلى .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ولعظم ذلك يقول جل وعلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل : ٩٠) ويقول النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله «إمام عادل»[1] ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) كتاب الزكاة/ باب الصدقة باليمين ، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة/ باب فضل إخفاء الصدقة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ (النساء : ١٣٥) ويقول : ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝﴾ (الحجرات : ٩) فهذا كله في العدل في الأمور كلها في نفسه وفي الناس .أهـ

وقال سبحانه : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (الأنعام ١٥٢) .

وعلى هذا فالحق الموجود وهو الثابت الذي يقابله المنفي ، والحق المقصود وهو المأمور به المحبوب الذي يقابله المنهي عنه المبغوض ثلاثة أقسام :

فإنها في الحق المقصود إما أمر ترجحت المصلحة المحبوبة فيه وهذا يؤمر به .

وإما أمر ترجحت فيه المفسدة المكروهة فهذا ينهى عنه .

وإما أمر استوى فيه هذا وهذا فهذا لا يؤمر به ولا ينهى عنه ولا يترجح فيه الحب ولا يترجح فيه البغض بل يكون عفوا .

وما دون هذا إن كان مثل هذا موجودا فإن الناس يتنازعون في وجوده ، فقيل : هو موجود وقيل : بل هو مقدر في الفعل لا وجود له ، بل لا بد من الرجحان كما قيل مثل ذلك في تكافؤ الأدلة .

وعلى هذا فالأمر الذي ترجحت فيه المصلحة وأمر به غلب فيه جانب المحبة ، مع أن الذي فيه المفسدة مبغض لكنه مراد ، فهو مراد بغيض والأمر الذي ترجح فيه جانب المصلحة محبوب ، لكنه مراد الترك محبوب فهو محبوب في نفسه ، لكن للملازمة لما هو بغيض وجب أن يراد تركه تبعا للكراهة اللازمة ، فإنه بغض اللازم ونفى الملزوم .

فحاصله أن المراد إرادة جازمة هو أحد الأمرين إما الفعل وإما الترك ، والأول هو المأمور به والثاني هو المنهي عنه ، لكن مع هذا فقد يشتمل المفعول على بغيض محتمل ، ويشتمل المتروك على حبيب مرفوض ، فهذا أصل نافع .

فهذا في الفعل الواحد ، وأما الفاعل الواحد الذي يعمل الحسنة والسيئة معا وهو وإن كان التفريق بينهما ممكنا ، لكنه هو يعملهما جميعا أو يتركهما جميعا لكون محبته لأحدهما مستلزمة لمحبته للأخرى ، وبغضه لأحدهما مستلزما لبغضه للأخرى ، فصار لايؤمر إلا بالحسن من الفعلين ولا ينهى إلا عن السيئ منهما ، وإن لزم ترك الحسنة لاينبغي أن يأمره في مثل هذا بالحسنة المرجوحة ، فإنه يكون أمرا بالسيئة ، ولاينهاه عن السيئة المرجوحة فإنه يكون نهياً عن الحسنة الراجحة ، وهكذا المعين يعين على الحسنة الراجحة وعلى ترك السيئة المرجوحة .

وهذا أصل عظيم تدخل فيه أمور عظيمة مثل الطاعة لأئمة الجور وترك الخروج عليهم وغير ذلك من المسائل الشرعية ، وهكذا حكم الطائفة المشتملة أفعالها على حسنات وسيئات بمنزلة الفاعل في ذلك ، وبما ذكرناه في الفعل الواحد والفاعل الواحد تظهر أمور كثيرة ، إما الحق الموجود وإما أن يكون الشئ في نفسه ثابتا ومنتفيا ، لكن كثيرا ما تحصل المقابلة بين إثبات عام ونفي عام ، ويكون الحق في التفصيل ، وهو ثبوت بعض ذلك العام وانتفاء بعضه ، وهذا هو الغالب على المسائل الكبار التي يتنازع فيها أحزاب الكلام والفلسفة ونحوهم .

والدليل إما أن يكون دليلا معلوما فهذا لايكون إلا حقا ، لكن كثيرا ما يظن الإنسان أن الشيء معلوم ولايكون معلوما ، وحينئذ فإذا ظن ظان تعارض الأدلة المعلومة كان غالطا في تعارضها ، بل يكون أحد الأمرين لازما إما كلها أو بعضها

غير معلوم ، وإما أن موجب الدليل حق من غير تعارض وإن ظنه الظان تعارضا ، فالحق الموجود لا ينافي الحق الموجود ، بل يكون كل منهما موجودا بخلاف الحق المقصود فإنه قد يقصد الضدان لما في كل منهما من المصالح المقصودة ، لكن لا يوجد الضدان ، وإن كان الدليل مغلبا للظن اعتقد فيه موجبه ، وإذا تعارضت هذه الأدلة رجح راجحها وسوى بين متكافيها .

إذا تقرر ذلك فنقول قول النبي ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال»(١) كقوله للذي علمه الدعاء : «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»(٢) وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝﴾ (البقرة) ، «إن الله نظيف يحب النظافة»(٣) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الحديث ضعيف أخرجه الترمذي لكنه ضعيف ، لكن لا أدري أين وجده المؤلف؟ . أهـ

فهو سبحانه إذا كان يحب العفو لم يوجب هذا ألا يكون في بعض أنواع العفو من المعارض الراجح ما يعارض ما فيه من محبة العفو ، ولولا ذلك لكان ينبغي أن يعفو عن كل محرم ، فلا يعاقب مشركا ولا فاجرا لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهذا خلاف الواقع ، ولوجب أن يستحب لنا العفو عن كل كافر وفاجر ، فلا نعاقب أحدا على شيء ، وهذا خلاف ما أمرنا به وخلاف ما هو صلاح لنا ونافع في الدنيا والآخرة .

---

(١) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٥٠) كتاب الدعاء/ باب الدعاء بالعفو والعافية عن عائشة رضي الله عنها ، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٦٨) .

(٣) رواه الترمذي (٢٧٩٩) كتاب الأدب/ باب ما جاء في النظافة ، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث غريب . والحديث ضعفه الألباني كما في ضعيف الترمذي .

وكذلك محبته للمتطهرين ومحبته للنظافة لا تمنع حصول المعارض الراجح، مثل أن يكون الماء محتاجاً إليه للعطش، فمحبته لسقي العطشان راجحة على محبته للطهارة والنظافة.

وكذلك سائر ما يتزاحم من الواجبات والمستحبات فإنها جميعها محبوبة لله، وعند التزاحم يقدم أحبها إلى الله، والتقرب إليه بالفرائض أحب إليه من التقرب إليه بالنوافل، وبعض الواجبات والمستحبات أحب إليه من بعض.

وكذلك إذا تعارض المأمور والمحظور فقد تعارض حبيبه وبغيضه فيقدم أعظمهما في ذلك، فإن كان محبته لهذا أعظم من بغضه لهذا قدّم، وإن كان بغضه لهذا أعظم من حبه لهذا قدم.

كما قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)

وعلى هذا استقرت الشريعة بترجيح خير الخيرين ودفع شر الشرين، وترجيح الراجح من الخير والشر المجتمعين.

والله سبحانه يحب صفات الكمال مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»[1] وفي الصحيح عنه أنه قال: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[2] وفي الصحيح أيضاً عنه: «إنما يرحم الله

(١) الحديث رقم (٢٦٦٤) كتاب القدر/ باب في الأمر بالقوة وترك العجز.

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٦) كتاب التوحيد/ باب قول الله تبارك وتعالى ﴿قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى﴾ من حديث جرير بن عبد الله ﷺ.

من عباده الرحماء»،[1] وفي السنن حديث ثابت عنه: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».[2]

ومع هذا فقد قال تعالى في حد الزاني والزانية: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النور: ٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣).

وهذا في الحقيقة من رحمة الله بعباده، فإن الله إنما أرسل محمداً رحمة للعالمين، وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، لكن قد تكون الرحمة المطلوبة لا تحصل إلا بنوع من ألم وشدة تلحق بعض النفوس، كما ورد في الأثر: إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمعنى في هذا أن الرحمة ونحوها وسائر ما أمر الله به ورسوله قد يفضل بعضها على بعض، فيكون الشيء محبوباً لله مفضلاً ولكن يعتريه شيء يوجب إزالة ذلك وتقديم ذلك عليه، فمثلاً رحمة المؤمن والإحسان إليه وكراهة الضرر عليه من مرض أو قطع طرف أو سجن أو غير ذلك محبة للمؤمن ورحمة له، لكن قد يعارض هذا شيء يضره، وهو إذا

---

(١) رواه البخاري (٧٣٧٧) كتاب التوحيد/ باب قول الله تبارك وتعالى «قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى» من حديث أسماء بن زيد رضي الله عنهما.

(٢) ورواه أبو داود (٤٩٤١) كتاب الأدب/ باب في الرحمة، والترمذي (١٩٢٤) كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في رحمة الصبيان، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فعل ما يوجب التعذيب ويوجب السجن ويوجب الحد ، فإذا زنى وثبت الأمر أو سرق وثبت الأمر أو عق والديه وثبت الأمر فمن رحمته أن يعاقب ، لأنه إذا استمر في هذا الأمر ضر نفسه وأهلكها ، فمن رحمته أنه يعاقب على ما جنى حتى يقف عند الحد ، حتى لا يضر نفسه وحتى لا يضر غيره ، فإقامة الحدود عليه وسجنه عند الحاجة إلى ذلك ، وعقوبة العاق وعقوبة القاطع وعقوبة من حارب الله ورسوله بقطع الطريق أو ما أشبه ذلك لا تنافي الرحمة ، بل هي من الرحمة ، والإحسان ، لأنها تزجره وتحول بينه وبين الإيذاء للناس وبين إهلاك نفسه ، فقد رحم رحمة تنفعه ، فعقوبته وسجنه ونحو ذلك كلها من رحمته ، فلا ينافي قوله جل وعلا : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الأعراف) ولا قول النبي ﷺ : «من لا يرحم لا يرحم»(1) فهذه رحمة خاصة ، تقتضي تكفير سيئاته وكف شره عن الناس .

هكذا قتله إذا كان محصناً ، وهكذا قتله قصاصاً . اهـ

وكذلك كون الفعل عفوا وصف يقتضي محبة الله له ، فإذا عارضه ما هو أحب إلى الله منه أو اشتمل على بغض الله له أعظم من محبته لذلك العفو قدم الراجح .

فكون الشيء جميلا يقتضي محبة الله له ، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، إذ كل موجود فلا بد فيه من وجه الحكمة التي خلقه الله لها ، ومن ذلك الوجه يكون حسنا محبوبا وإن كان من وجه آخر يكون مستلزما شيئا يحبه الله ويرضاه أعظم مما فيه نفسه من البغض .

---

(1) رواه البخاري (٥٩٩٧) كتاب الأدب/ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، ومسلم (٢٣١٨) كتاب الفضائل/ رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ومن هذا مثلاً القصاص، فالعفو مطلوب ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٧) ولكن قد يحصل من العفو شر ومضرة فيترك ولا يعفى عنه، فيقام الحد وينفذ التعزير وينفذ القصاص، لأنه لو عفا هؤلاء الذين هم أهل القصاص لزاد شر هذا وفتنته وأضر الناس، وقد يكون أهل القصاص جماعة فلو عفا بعضهم صارت بينهم فتنة وشرور فلا ينبغي أن يخالف جماعته ويعفو فيسبب فتنة بينهم وشراً وقتالاً وتقاطعاً ونحو ذلك، فترك العفو في هذه الحال حتى ينفذ القصاص وتهدأ الأمور وتطفأ الفتن ويردع الظالم وتجتمع الأسرة على الخير والمحبة أولى من العفو الذي يفرقهم ويشتت شملهم ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، أو يجرأ من عفي عنه على الفساد الآخر. أهـ

فهذا موجود فينا، فقد يفعل الشخص الفعل كشرب الدواء الكرية الذي يغضبه له أعظم من حبه له، وهذا لما تضمن ما هو محبته له أعظم من بغضه للدواء أراده وشاءه وفعله، فأراد بالإرادة الجازمة المقارنة للقدرة فعلاً فيه ما يبغضه أكثر مما يحبه لكونه مستلزما لدفع ما هو إليه أبغض، ولحصول ما محبته له أعظم من بغضه لهذا، فإن بغضه للمرض ومحبته للعافية أعظم من بغضه للدواء.

فالأعيان التي نبغضها كالشياطين والكافرين، وكذلك الأفعال التي نبغضها من الكفر والفسوق والعصيان خلقها وأراد وجودها لما تستلزمه من الحكمة التي يحبها، ولما في وجودها من دفع ما هو إليه أبغض، فهي مرادة له وهي مبغضة له مسخوطة كما بينا هذا في غير هذا الموضع.

وأما الجمال الخاص فهو سبحانه جميل يحب الجمال، والجمال الذي للخلق من العلم والإيمان والتقوى أعظم من الجمال الذي للخلق وهو الصورة الظاهرة.

وكذلك الجميل من اللباس الظاهر فلباس التقوى أعظم وأكمل، وهو يحب الجمال الذي للباس التقوى أعظم مما يحب الجمال الذي للباس الرياش، ويحب الجمال للخُلُق أعظم مما يحب الجمال الذي للخلق، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[(١)].

قال سماحة الشيخ: والمعنى في هذا إذا كان سبحانه يحب الجمال في الصورة الظاهرة في الملابس ونحوها فمحبته للجمال الخُلُقي المعنوي من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة والأعمال الصالح أعظم وأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٦) أهـ.

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «**البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[(٢)].

وفي السنن عنه أنه قال: «**أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن**»[(٣)] وروي عنه أنه قال لأم سلمة: «**يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة**»[(٤)].

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٨٢) كتاب السنة/ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والترمذي (١١٦٢) كتاب الرضاع/ باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: حسن صحيح. والحديث قال عنه الألباني: «حسن صحيح» انظر السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

(٢) الحديث رقم (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تفسير البر والإثم.

(٣) رواه أبو داود بنحوه (٤٧٩٩) كتاب الأدب/ باب في حسن الخلق، والترمذي (٢٠٠٣) بنحوه، كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في حسن الخلق، من حديث أبي الدرداء ﷺ، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه. والحديث صححه الألباني في الصحيحة (٨٧٦).

(٤) رواه الطبراني في الكبير ١٧/ ١٨٩ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٥: وفيه سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدي.

قال سماحة الشيخ : ومثل هذا في الحديث الصحيح : «أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[(١)] وقوله ﷺ : « إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً »[(٢)] فحسن الخلق له شأن عظيم عند الله سبحانه في الدعوة إلى الله وتوجيه الناس إلى الخير والصبر على أذاهم وإعانتهم على الخير ومواساتهم ونفعهم ، إلى غير ذلك .أهـ

ومن المعلوم أن أحب خلقه إليه المؤمنون ، فإذا كان أكملهم إيمانا أحسنهم خلقا كان أعظمهم محبة له أحسنهم خلقا ، والخلق الدين كما قال الله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ (القلم) ، قال ابن عباس : على دين عظيم . وبذلك فسره سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل وغيرهما كما قد بيناه في غير هذا الموضع .

قال سماحة الشيخ : ولهذا قالت عائشة : «كان خلقه القرآن »[(٣)] لأنه عمل به ، يعني العمل به والأخذ به ، فالأخذ به والعمل هو الدين .أهـ

وقال ابن عدي : هذا حديث منكر ٣/ ٢٦٢ ترجمة سليمان بن أبي كريمة ، وضعفه الألباني كما في ضعيف الترغيب والترهيب (٢٢٣٠) وقال : منكر .أهـ

(١) رواه أبو داود (٤٨٠٠) كتاب الأدب/ باب في حسن الخلق ، من حديث أبي أمامة ﷺ ، والحديث قال عنه الألباني في الصحيحة (٢٧٣) : حسن .

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في معالي الأخلاق ، من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : حسن غريب .والحديث صححه الألباني كما في الصحيحة (٧٩١)

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٤٦٠١) والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٨) والطبراني في الكبير (١٧٥٥) والأوسط (٧٢) وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٣٦٤ ذكر صفة أخلاق رسول الله ﷺ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٢٨) فصل في خلق الرسول ﷺ .

وهو سبحانه يبغض الفواحش ولا يحبها ولا يأمر بها كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (الأعراف : ٢٨) .

فإذا كان الجمال متضمنا لعدم ما هو أحب إليه أو لوجود ما هو أبغض له لزم من ذلك فوات ما في الجمال المحبوب ، فإذا كان في جمال الثياب بطر وفخر وخيلاء وسرف فهو سبحانه لا يحب كل مختال فخور ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ (الفرقان : ٦٧) بل هو يبغض البطر الفخور المختال والمسرف ، وقال : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ (غافر) ، فلهذا قال ﷺ : «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر أزاره خيلاء وبطرا»[1] فإنه يبغضه فلا ينظر إليه وإن كان فيه جمال ، فإن ذلك غرق في جانب ما يبغضه الله من الخيلاء والبطر .

وكذلك الحرير فيه من السرف والفخر والخيلاء ما يبغضه الله وينافي التقوى التي هي محبوب الله ، كما ثبت في الصحيحين عنه أنه نزع فروج الحرير وقال : «لا ينبغي هذا للمتقين»[2] .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا أنه ـ رحمه الله ـ يريد أن

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٨) كتاب اللباس / باب من جر ثوبه من الخيلاء ، ومسلم (٢٠٨٧) كتاب اللباس والزينة / باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب ، من حديث أبي هريرة ﵁ .

(٢) رواه البخاري (٣٧٥) كتاب الصلاة / باب من صلى في فرّوج حرير ثم نزعه ، ومسلم (٢٠٧٥) كتاب اللباس والزينة / باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء وإباحة العلم ونحوه للرجل ما لم يزد على أربع أصابع ، من حديث عقبة بن عامر ﵁ .

قوله ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال»(١) يعني الجمال الذي ليس فيه ما حرمه الله ، جمال مما شرعه الله كاللباس الحسن للجمعة وغيرها والعناية بإزالة الأوساخ ونحو ذلك .

أما إذا كان الجمال يقصد من ورائه الإسراف والتبذير وتعاطي ما حرّم الله ، أو الاستعانة به على ما حرّم الله ؛ كره من هذا الجانب ولم يكن محبوباً .

وإنما يكون محبوباً إذا كان عوناً على طاعة الله أو ليس فيه محذور مما حرم الله .

فإذا تعاطى الجمال على وجه يفخر به ويتكبر به على الناس ، أو على وجه الإسراف والتبذير ، أو على وجه الاستعانة بذلك على معاصي الله والانحراف في الكبائر والتعرض للنساء وما أشبه من الأشياء المنكرة ؛ صار هذا منكراً ، وصار هذا بغيضاً إلى الله سبحانه ، نسأل الله السلامة .

وهكذا كل خلق أحبه الله إنما هو محبوب إذا لم يستعن به على معاصي الله . اهـ

و كذلك سائر ما حرمه الله وكرهه مما فيه جمال فإن ذلك لاشتماله على مكروه الحق على ما فيه مما يبغضه الله أعظم مما فيه من محبوبه ولتفويته ما هو أحب إليه منه .

وكذلك الصور الجميلة من الرجال و النساء ، فإن أحدهم إذا كان خلقه سيئا بأن يكون فاجرا أو كافرا معلنا أو منافقا كان البغض أو المقت لخلقه ودينه مستعليا على ما فيه من الجمال ، كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ

---

(١) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (المنافقون : ٤) ، وقال : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (البقرة : ٢٠٤) ، فهؤلاء إنما أعجبه صورهم الظاهرة للبصر وأقوالهم الظاهرة للسمع لما فيه من الأمر المعجب ، لكن لما كانت حقائق أخلاقهم التي هي أملك بهم مشتملة على ما هو أبغض الأشياء وأمقتها إليه لم ينفعهم حسن الصورة و الكلام .

وقال النبي ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم و لا إلى أموالكم و إنما ينظر إلى قلوبكم و أعمالكم»(١) .

و كذلك المرأة و الصبي إذا كان فاجرا فإن ذلك يفوّت حسن الخَلق والتقوى التي هي أحب إلى الله من ذلك ، ويوجب بغض الله للفاحشة ولصاحبها ولسيء الخلق ومقته وغضبه عليه ما هو أعظم بكثير مما فيه من الجمال المقتضي للمحبة .

وكذلك القوة -وإن كانت من صفات الكمال التي يحبها الله- فإذا كانت الإعانة على الكفر والفجور الذي يبغض الله له ومقته عليه وتفويته لما يحبه من الإيمان والعمل الصالح أعظم بكثير من مجرد ما في القوة من الأمر المحبوب ترجح جانب البغض بقدر ذلك .

فإذا كانت القوة في الإيمان كان الأمر كما قال النبي ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»(٢) .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) الحديث رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر/ باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود القوة في الخير ، «المؤمن القوي» ، فالمؤمن لا يكون إلا هكذا ، لأن إيمانه يدعوه إلى أن تكون قوته في الخير ، في إنكار المنكر ، وفي بذل العلم ، وفي مواساة الناس ، وفي إزالة الظلم ، إلى غير ذلك ، فإذا كانت القوة تستعمل في الشر فلا خير فيها ، وضرت صاحبها .

وهكذا قوله : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ (القصص) إذا كانت القوة مع الأمانة ، أما إذا كانت القوة تخالف الأمانة ، وكان قوياً في الباطل صارت قوته ضرراً عليه وصارت مذمومة ، لأنها لم تنفعه بل ضرته ، نسأل الله العافية .أهـ

ومن المعلوم أن الله يحب الحسنات وأهلها ويبغض السيئات وأهلها ، فهو يحب كل ما أمر به أمر إيجاب أو أمر استحباب ، وكل ما حمده وأثنى عليه من الصفات مثل العلم والإيمان والصدق والعدل والتقوى والإحسان وغير ذلك ، ويحب المقسطين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب المحسنين والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، ويبغض الكفر وأنواعه والظلم والكذب والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أغير منه وكل ما حرمه يبغضه .

فإذا كان مع الجمال أو غيره مما فيه وجه محبة ما هو بغيض من الفواحش أو الكذب ، أو الظلم ، أو غير ذلك ، كما ذكره في قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف) ، فإن ذلك يفوِّت ما هو أحب إلى الله من الجمال بكثير ، ويوجب

من مقت الله وبغضه ما هو أعظم بكثير مما لمجرد الجمال من الحب ، ويوجب النهي عما يوجب هذه السيئات الكثيرة ، ويفوت الجمال الأفضل وهو كمال الخلق وحسنه وما في ذلك من الحسنات ، وكان ما في ذلك من المبغضات وترك المحبوبات راجحا على الحب الذي للجمال .

وعلى هذا يجري الأمر على محبة الإنسان للشيء الجميل من الصورة والنظر إليه وما يدخل في ذلك من قوة الحب والزيادة فيه التي تسمى العشق ، فإن ذلك إذا خلا عن المفسدة الراجحة مثل أن يحب الإنسان امرأته وجاريته حبا معتدلا ، أو يحب ما لا فتنة فيه كحبه للجميل من الدواب والثياب ، ويحب ولده وأباه وأمه ونحو ذلك من محبة الرحم كنوع من الجمال الحب المعتدل فهذا حسن .

أما إذا أحب النساء الأجانب أو المردان ونحو ذلك فهذا الحب متضمن للمحبة الحيوانية ، وليس في ذلك مجرد محبة الجمال والمحبة الحيوانية مما يبغضها الله ويمقتها ، وتوابعها منهي عنها مع ذلك ، سواء كان مع المحبة فعل الفاحشة الكبرى أو كانت للتمتع بالنظر والسماع وغير ذلك .

فالتمتع مقدمات الوطء ، فإن كان الوطء حلالا حلت مقدماته ، وإن كان الوطء حراما حرمت مقدماته ، وإن كان في ذلك رفض للجمال كما فيه رفض للذة الوطء المحرم فإن ما في ذلك مما يبغضه الله ويمقت عليه أعظم مما في مجرد الجمال من الحب المتضمن ، وذلك متضمن لتفويت محاب الله من التقوى والعفاف والإقبال على مصالح الدين والدنيا أعظم بكثير مما فيها من مجرد حب الجمال ، فلهذا كانت هذه مذمومة منهيا عنها ، حتى حرم الشارع النظر في ذلك بلذة وشهوة ، وبغير لذة وشهوة إذا خاف الناظر الفتنة ، والفتنة مخوفة في النظر إلى الأجنبية الحسنة والأمرد الحسن في أحد قولي العلماء الذي يصححه كثير من

أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما، وهذا قد يختلف باختلاف العادات والطبائع، وأما النظر للحاجة من غير شهوة ولا لذة فيجوز.

ولهذا لم يأمر الله ولا رسوله ولا أهل العلم والإيمان بعشق الصور الجميلة، ولا أثنوا على ما كان كذلك، وكذلك العقلاء من جميع الأمم، ولكن طائفة من المتفلسفة والمتصوفة تأمر بذلك وتثني عليه لما فيه ـ زعموا ـ من إصلاح النفس ورياضتها وتهذيب الأخلاق واكتساب الصفات المحمودة من السماحة والشجاعة والعلم والفصاحة والاحتيال ونحو ذلك من الأمور، حتى أن طائفة من فلاسفة الروم والفرس ومن اتبعهم من العرب تأمر به، وكذلك طائفة من المتصوفة، حتى يقول أحدهم: ينبغي للمريد أن يتخذ له صورة يجتمع قلبه عليها ثم ينتقل منها إلى الله.

وربما قالوا إنهم يشهدون الله في تلك الصورة ويقولون: هذه مظاهر الجمال، ويتأولون قوله ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[1] على غير تأويله.

فهؤلاء وأمثالهم ممن يدخل في ذلك يزعمون أن طريقهم موافق لطريق العقل والدين والخلق، وإن اندرج في ذلك من الأمور الفاحشة ما اندرج، وهؤلاء لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ (الأعراف: ٢٨).

لكن العرب الذين كانوا سبب نزول هذه الآية إنما كانت فاحشتهم التي قالوا فيها ما قالوا طوافهم بالبيت عراة لاعتقادهم أن ثيابهم التي عصوا الله فيها لا

---

(١) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

تصلح أن يعبد الله فيها ، فكانوا ينزهون عبادة الله عن ملامسة ثيابهم ، فيقعون في الفاحشة التي هي كشف عوراتهم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا أصله الجهل ، والداء العضال هو الجهل ، فإنهم يقولون : ثياباً عصينا الله فيها ما نطوف فيها ، ويستعيرون من الحمس ثياباً أو يلبسون شيئاً جديداً فيطوفون به ، وليس كل واحد عنده ذلك ، فلهذا يطوفون عراة حتى النساء ، هذا من الجهل والمنكر العظيم الذي ذمه الله وعابه ، وظنوه ديناً .

وهكذا ما وقع لبعض الصوفية والفلاسفة من عشق الصور والتمتع بالصور الجميلة من النساء والمردان حتى وقعوا في الفواحش والمحرمات ، وزعموا أنهم بهذا يستدلون على عظمة الله وعلى من خلق هذا الشيء وجعل فيه هذا الجمال ، فيستدلون بزعمهم في معرفة الله .

وهذا من الجهل والضلال ، فإن هذا جرهم إلى الوقوع في الفواحش والمنكرات وهم لا يشعرون ، نسأل الله العافية .أهـ

وأما هؤلاء فأمرهم أجل وأعظم ، إذ غاية ما كان أولئك يفعلون طواف الرجال والنساء عراة مختلطين ، حتى كانت المرأة منهم تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . . وما بدا منه فلا أحله

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني فرجها ، نسأل الله العافية .أهـ

ولم يكن ذلك الاختلاط والاجتماع إلا في عبادة ظاهرة لا يتأتى فيها فعل الفاحشة الكبرى ، ولم يقصدوا بالتعري إلا التنزه من لباس الذنوب بزعمهم .

فالذين يجتمعون من الرجال والنساء والمردان لسماع المكاء والتصدية ، ويطفئون المصابيح حتى لا يرى أحدهم الآخر ، حتى اجتمعوا على غناء وزنا

ومطاعم خبيثة وجعلوا ذلك عبادة، فهؤلاء شر من أولئك بلا ريب، فإن هؤلاء فتحوا أبواب جهنم، كما روى أبو هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ ما أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الأجوفان الفم والفرج»، قال الترمذي حسن صحيح[1].

وكذلك روي عنه ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن»[2].

سؤال/ قوله: وإذا كان النظر بغير شهوة ولا لذة فيجوز؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: إذا كان في الأسواق والطرقات مع المردان ما قصد شهوة إنما نظر لحاجة ليس في نفسه شيء ولا في قلبه شيء.

وهكذا نظر بدل العارض إلى النساء الذي لم يقصده بل فجأة فلا يضر، أما تعمد النظر فيدعو للشهوة من جهة النساء والمردان، أما النظر العارض الذي دعت إليه الحاجات، أما اتخاذه صاحباً وصديقاً ليتمتع بجماله فهذا يضر دون شك. أهـ

سؤال/ ما ذكره من حال الصوفية وجعلهم هذا عبادة هل يعد من الكفر بالله؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: لا، بدعة، من جهة أنهم ابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله. أهـ

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٤) كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في حسن الخلق، وقال الترمذي: صحيح غريب، ورواه ابن ماجه (٤٢٤٦) الزهد/ باب ذكر الذنوب، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٠٣٠٣) والطبراني في الصغير (٥١٢) كلاهما من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٣٠: رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح.

وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «قال حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره»(١) وفي رواية مسلم: «حفت» مكان «حجبت»(٢) وإذا كانت النار محجوبة ومحفوفة بالشهوات لم يدخل النار إلا بها، وإذا كانت الجنة محجوبة ومحفوفة بالمكاره لم يدخل الجنة إلا بها.

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(٣) وما بين لحييه يتناول الكلام والطعام.

كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي شريح الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»(٤) فبين ﷺ أنه من ضمن له هذين ضمن له الجنة.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا يبين خطر اللسان وخطر الفرج وخطر المآكل والمشارب، فلهذا في هذا الحديث قال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(٥) يعني عن الله سبحانه، لأنه رسول الله، فهذا يدل على خطر ما بين اللحيين وهو اللسان، وهكذا البطن، فإنه مدخل للطعام

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٧) كتاب الرقاق/ باب حجبت النار بالشهوات، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث رقم (٢٨٢٢) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب ما في الجنة من النعيم وما يكون لأهلها من الرضوان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) الحديث رقم (٦٤٧٤) كتاب الرقاق/ باب حفظ اللسان، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٦١٣٦) كتاب الأدب/ باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان/ باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٦٤٧٤) كتاب الرقاق/ باب حفظ اللسان، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

والشراب ، فالواجب أن يحذر التساهل في المأكل والمشرب والكلام .

وهكذا ما بين رجليه وهو الفرج ، فمن صان فرجه وحفظ لسانه وحفظ مأكله ومشربه وابتعد عن الكسب الحرام فهو من أهل الجنة بهذا الحديث الصحيح ، والله المستعان .أهـ

وهذا يقتضي أن من هذين يدخل النار ، ولهذا حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وحرم أيضا انتهاك الأعراض وجعل في القذف بالفاحشة من العقوبة المقدرة وهي حد القذف ثمانين جلدة ، وبين ﷺ أن الزنا من الكبائر وأن قذف المحصنات الغافلات من الكبائر وهو من نوع الكبائر إذ لم يأت عليه القاذف بأربعة شهداء ، وإن كان قد وقع فإنه أظهر ما يحب الله إخفاؤه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (النور : ١٩) .

وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ : «كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستره»(١) .

وقال : «من ابتلي من هذه القاذورة بشيء فليستتر بستر الله فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»(٢) .

وفي الصحيحين عن صفوان بن محرز أن رجلا سأل ابن عمر كيف سمعت

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) كتاب الأدب/ باب ستر المؤمن على نفسه ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) رواه مالك في الموطأ (١٥١٤) كتاب الحدود/ باب من اعترف على نفسه بالزنا عن زيد بن أسلم مرسلا ، والنسائي في الصغرى (٣٧١٤) وقال إنه مسند عن ابن عمر مرفوعا .

النبي ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ويقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقرره ثم يقول سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١) ولهذا يكثر وقوع الناس في أحد هذين الذنبين.

فمن الناس من يبتلى بالفاحشة وإن كان ممسكا عن الكلام، ومن الناس من يبتلى بالكلام والاعتداء على غيره بلسانه وإن كان عفيفا عن الفاحشة.

وأيضا فإن من الكلام المنهي عنه الخوض في الدين بالبدع والضلالات مع تضمنه لشهوة الطعام، وما بين الفرجين يتضمن أقوى الشهوات، وذلك من الاستمتاع بالخلاق في الدنيا، كما جمع الله تعالى بينهما بقوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ (التوبة: ٦٩)، الأول يتضمن الشبهات والثاني يتضمن الشهوات، الأول يتضمن الدين الفاسد والثاني يتضمن الدنيا الفاجرة.

وكان السلف يحذرون من هذين النوعين من المبتدع في دينه والفاجر في دنياه، كل من هذين النوعين وإن لم يكن كفرا محضا فهذا من الذنوب والسيئات التي تقع من أهل القبلة.

وجنس البدع وإن كان شرا، لكن الفجور شر من وجه آخر، وذلك أن الفاجر المؤمن لا يجعل الفجور شرا من الوجه الآخر الذي هو حرام محض،

(١) رواه البخاري (٢٤٤١) كتاب المظالم/ باب قول الله تعالى: «ألا لعنة الله على الظالمين» ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة/ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله.

لكن مقرونا باعتقاده لتحريمه، وتلك حسنة في أصل الاعتقاد، وأما المبتدع فلا بد أن تشتمل بدعته على حق وباطل، لكن يعتقد أن باطلها حق أيضا ففيه من الحسن ما ليس في الفجور، ومن السيء ما ليس في الفجور وكذلك بالعكس.

فمن خلص من الشهوات المحرمة والشهوات المبتدعة وجبت له الجنة، وهذه هي الثلاثة: الكلام المنهي عنه والطعام المنهي عنه والنكاح المنهي عنه، فإذا اقترن بهذه الكبائر استحلالها كان ذلك أمرا.

قال سماحة الشيخ حمه الله: من استحلها كفر، لعلها كان ذلك كفراً أو أمراً آخر أعظم، فالكلام فيه شيء، لأن الذي يستحل الزنا ويستحل المعاصي كفر. اهـ.

فكيف إذا جعلت طاعة وقربة وعقلا ودينا؟!

وهؤلاء هم الذين يستحقون عقوبة أمثالهم من الأمم كما ثبت في الصحيح أنه يكون في هذه الأمة من يمسخ قردة وخنازير[(١)] وكما روي أنه سيكون فيها خسف وقذف ومسخ[(٢)].

وقال بعض السلف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝﴾ (هود)، أي من ظالمي هذه الأمة، وفي ذلك من الأحاديث ما يضيق هذا الموضع عن ذكره، وفي عامتها يذكر استحلالهم لها.

---

(١) البخاري (٥٥٩٠) كتاب الأشربة/ باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) كما ـ رواه البخاري (٥٥٩٠) كتاب الأشربة/ باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، ورواه الترمذي (٢١٨٥) كتاب الفتن/ باب ما جاء في الخسف، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي: حديث غريب.

وأصل الضلال والغي من هؤلاء الذين يستحسنون عشق الصور ويحمدونه ويأمرون به، وإن قيدوه مع ذلك بالعفة، أن المحبة هي أصل كل حركة في العالم، فالنفس إذا لم يكن فيها حركة ولا هي قوية الهمة والإرادة حتى تحصل لها محبة شديدة كانت تلك المنهيات عنها هي أصول الشر، وهي التي إذا ظهرت قامت الساعة، كما في الصحيح عن أنس أنه قال: لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكموه أحد بعدي سمعته من النبي ﷺ سمعت النبي ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد»(١).

قال سماحة الشيخ حمه الله: وهذا وقع من أزمان طويلة وكثيرة ولا يزال يقع، فلا يزال العلم يقل، ولا يزال شرب الخمر يكثر، ولا يزال أيضاً يفشو الزنا -والعياذ بالله- في الناس، بسبب ضعف الإيمان وقلة العلم وظهور أسباب الفواحش من تبرج النساء وإظهارهن المحاسن واختلاطهن بالرجال، ويكثر هذا كله، نسأل الله العافية.

ويقل الرجال تارة بقلة الأولاد الذكور، وتارة بما قد يقع من الحروب التي تقضي على الرجال، وتارة بأسباب أخرى، نسأل الله السلامة. اهـ.

فمن ظهور الجهل ظهور الكلام في الدين بغير علم وهو الكلام بغير سلطان من الله وسلطان الله كتابه، ومن ظهور الزنا ظهور اللواط، وإن كان له اسم يخصه، فهو شر نوعي الزنا، ولكون ظهور شهوات الغي البطن والفرج هي

---

(١) رواه البخاري (٨١) كتاب العلم/ باب رفع العلم وظهور الجهل، ومسلم (٢٦٧١) كتاب العلم/ باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

جنس المحمودات حمده بذلك ، وهذا من جنس من حمد الخمر لما فيها من الشجاعة والكرم والسرور ونحو ذلك .

وذلك أن هؤلاء كلهم لحظوا ما فيها من جنس المحبوب وأغفلوا ما تتضمنه من جنس المذموم ، فإن الذي يورثه العشق من نقص العقل والعلم وفساد الخلق والدين والاشتغال عن مصالح الدين والدنيا أضعاف ما يتضمنه من جنس المحمود .

وأصدق شاهد على ذلك ما يعرف من أحوال الأمم وسماع أخبار الناس في ذلك ، فهو يغني عن معاينة ذلك وتجربته ، ومن جرب ذلك أو عاينه اعتبر بما فيه كفاية ، فلم يوجد قط عشق إلا وضرره أعظم من منفعته .

ولهذا قال أبو القاسم القشيري في رسالته : ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة صحبة الأحداث ، ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ هذا عبد أهانه الله وخذله ، بل عن نفسه شغله ، ولو ألف كرامة أهله ، وهب أنه بلغ رتبة الشهداء لما في الخبر من التلويح بذلك أليس قد شغل ذلك القلب بمخلوق؟ وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب حتى يعد ذلك يسيرا ، وقد قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ ﴾ (النور) .

وهذا الواسطي رحمه الله يقول : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف .

وقال : سمعت أبا عبد الله الصوفي يقول سمعت محمد بن أحمد النجار يقول سمعت أبا عبد الله الحصري يقول سمعت فتحا الموصلي يقول : صحبت ثلاثين شيخا كانوا يعدون من الأبدال فكلهم أوصوني عند فراقي إياهم وقالوا لي : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم .

ومن ارتقى في هذا الباب عن حال الفسق وأشار إلى أن ذلك من بلايا الأرواح وأنه لا يضر فما قالوه من وساوس القائلين بالسماع وإيراد حكايات عن بعض الشيوخ كان الأولى بهم إسبال الستر على هناتهم وآفاتهم ، فذلك نظير الشرك وقرين الكفر .

فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم ، فإن اليسير منه فتحُ باب الخذلان وبدء حال الهجران ، ونعوذ بالله من قضاء السوء .

قال سماحة الشيخ حفظه الله : ومراده بالأحداث : الشباب المردان ، فإنهم فتنة كفتنة النساء أو أعظم ، نسأل الله العافية . اهـ

وهذا أصل عظيم نافع يجب اعتباره ، وهو أن الأمور المذمومة في الشريعة - كما ذكرناه- هو ما ترجح فساده على صلاحه ، كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فساده ، فالحسنات تغلب فيها المصالح ، والسيئات تغلب فيها المفاسد ، والحسنات درجات بعضها فوق بعض ، والسيئات بعضها أكبر من بعض ، فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين ، فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفار المكذبين ، وكل من هؤلاء هم درجات عند الله .

ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل ، فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها كان في مزيد التقريب ، وإن انتقل إلى ما هو دونها كان في التأخر والرجوع ، وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أولى بالغضب واللعنة والعقاب ، وقد وقال الله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ (النساء ٩٥)، وقال: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (التوبة)، وقال: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ (الحديد: ١٠)، وقال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة: ١١).

وكذلك قال في السيئات: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ (التوبة: ٣٧) وقال: ﴿ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (النحل: ٨٨)، وقال ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ (التوبة: ١٢٥)، وقال: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة: ١٠)، وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ومعلوم أن التوبة هي جماع الرجوع من السيئات إلى الحسنات، ولهذا لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة، والردة هي جماع الرجوع من الحسنات إلى السيئات، ولهذا لا يحبط جميع الحسنات إلا الردة عن الإيمان.

وكذلك ما ذكرناه في تفاوت السيئات هو في الكفر والفسق والعصيان، فالكفار بعضهم دون بعض، ولهذا يذكر الفقهاء في باب الردة والإسلام «انتقال

الرجل كأحد الزوجين من دين إلى دين آخر انتقال إلى دين خير من دينه أو دون دينه أو مثل دينه فيقولون : إذا صار الكتابي مجوسيا أو مشركا فقد انتقل إلى شر من دينه ، وإذا صار المشرك أو المجوسي كتابيا فقد انتقل إلى خير من دينه ، وإذا تهود النصراني أو بالعكس فقد انتقل إلى نظير دينه ، والتمجس يقر عليه بالاتفاق ، وأما الإشراك فلا يقر عليه إلا بعض الناس عند بعض العلماء ، والصابئة نوعان عند المحققين وعلى قولين عند آخرين ، ومعرفة مراتب الأديان محتاج إليها في مواضع كثيرة لمعرفة مراتب الحسنات .

قال سماحة الشيخ حمه الله : لعلها : «كمعرفة مراتب الحسنات» كما أن هذه محتاج إليها مراتب الحسنات ، فهكذا مراتب الأديان والسيئات ، فلعلها بالكاف .اهـ

والفقهاء يذكرون ذلك لأجل معرفة أحكامهم وتناكحهم وذبائحهم وفي دمائهم وقتالهم وإقرارهم بالجزية المضروبة عليهم ونحو ذلك من الأحكام التي جاء بها الكتاب والسنة في أهل الملل والأحزاب الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ (هود : ١٧) ، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (الشورى : ١٥) .

والعدل وضع كل شيء في موضعه ، كما أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه .

ولهذا لما اقتتلت فارس المجوس والروم النصارى وكان النبي ﷺ بمكة إذ ذاك

وهو في طائفة قليلة ممن آمن به ، كان هو وأصحابه يحبون أن تغلب الروم لأنهم أهل كتاب ، وكان المشركون يحبون أن تغلب فارس الروم لأنهم من جنسهم ليسوا أهل كتاب ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (الروم ١٢) ، والقصة مشهورة في كتب الحديث والتفسير والمغازي .

وإذا كان كذلك فقد يكون الرجل على طريقة من الشر عظيمة فينتقل إلى ما هو أقل منها شرا وأقرب إلى الخير ، فيكون حمد تلك الطريقة ومدحها لكونها طريقة الخير الممدوحة ، مثال ذلك أن الظلم كله حرام مذموم ، فأعلاه الشرك ، فإن الشرك لظلم عظيم والله لا يغفر أن يشرك به ، وأوسطه ظلم العباد بالبغي والعدوان ، وأدناه ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله ، فإذا كان الرجل مشركا كافرا فأسلم باطنا وظاهرا بحيث صار مؤمنا ، وهو مع إسلامه يظلم الناس ويظلم نفسه فهو خير من أن يبقى على كفره ولو كان تاركا لذلك الظلم .

وأما إذا أسلم ظاهرا فقط وهو منافق في الباطن فهذا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار ، وأما في الدنيا فقد يكون أضر على المسلمين منه لو بقي على كفره وقد لا يكون كذلك ، فإن إضرار المنافقين بالمؤمنين يختلف باختلاف الأحوال .

لكن إذا أسلم نفاقا فقد يرجى له حسن الإسلام فيصير مؤمنا كمن أسلم تحت السيف ، وكذلك من أسلم لرغبة أو لرهبة أو نحو ذلك ، فالإسلام والإيمان أصل كل خير وجماعه .

وكذلك من كان ظالما للناس في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم فانتقل عن ذلك إلى ما يظلم به نفسه خاصة من خمر وزنا فهذا أخف لإثمه وأقل لعذابه .

وهكذا النِّحَل التي فيها بدعة قد يكون الرجل رافضيا فيصير زيديا فذلك خير له ، وقد يكون جهميا قدريا فيصير جهميا غير قدري ، أو قدريا غير جهمي ، أو يكون من الجهمية الكبار ، فيتجهم في بعض الصفات دون بعض ونحو ذلك .

فهؤلاء المتفلسفة والمتصوفة ونحوهم ممن مدح العشق والغناء ونحو ذلك ، وجعلوه مما يستعينون به على رياضة أنفسهم وتهذيبها وصلاحها من هذا الباب ، فإن هؤلاء في طريقهم من الشرك والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ، فإن المتفلسفة قد يعبدون الأوثان والشمس والقمر ونحو ذلك ، فإذا صار أحدهم يروض نفسه بالعشق لعبادة الله وحده ، أو رياضة مطلقة لا يعبد فيها غير الله كان ذلك خيرا له من أن يعبد غير الله .

وكذلك الاتحادية الذين يجعلون الله هو الوجود المطلق ، أو يقولون إنه يحل في الصور الجميلة ، متى تاب الرجل منهم من هذا وصار يسكِّن نفسه بعشق بعض الصور وهو لا يعبد إلا الله وحده كانت هذه الحال خيرا من تلك الحال .

فهذه الذنوب مع صحة التوحيد خير من فساد التوحيد مع عدم هذه الذنوب ، ولهذا نجد الناس يفضلون من كان من الملوك ونحوهم إنما يظلم نفسه بشرب الخمر والزنا أو الفواحش ويتجنب ظلم الرعية ويتحرى العدل فهم على من كان يتجنب الفواحش والخمر والزنا وينتصب لظلم الناس في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم .

وهؤلاء الظالمون قد يجعلون الظلم دينا يتقربون به بجهلهم ، كما أن أولئك الظالمين لأنفسهم قد يجعلون ذلك بجهلهم دينا يتقربون به ، فالشيطان قد زين لكثير من هؤلاء وهؤلاء سوء عملهم فرأوه حسنا .

لكن كثير من الناس يجمعون بين هذا وهذا ، فإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، والحسنات والسيئات قد تتلازم ويدعو بعضها إلى بعض ، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»[1] .

فالصدق مفتاح كل خير كما أن الكذب مفتاح كل شر ، ولهذا يقولون عن بعض المشايخ إنه قال لبعض من استتابه من أصحابه : أنا لا أوصيك إلا بالصدق ، فتأملوا فوجدوا الصدق يدعوه إلى كل خير .

قال سماحة الشيخ حمه الله : وفي هذا المعنى يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (المائدة : ١١٩) فمن صدق في قوله وفي عمله أفلح ، ومن كذب هلك ، نسأل الله العافية ، فالصدق أصل في كل خير .أهـ

ولهذا فرق الله سبحانه بين أهل السعادة وأهل الشقاوة بذلك فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) رواه البخاري بنحوه (٦٠٩٤) كتاب الأدب/ باب قول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ وما ينهى عن الكذب ، ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة والآداب/ باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الزمر) .

وترتيب الكبائر ثابت في الكتاب والسنة كما في الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود قال : قلت يا رسول : أي الذنب أعظم؟ قال : «أن تجعل الله نداً وهو خلقك» قلت ثم أي؟ قال : «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت ثم أي؟ قال : «أن تزاني بحليلة جارك»[1] وتصديق ذلك في كتاب الله :

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (الفرقان : ٦٨)

ولهذا قال الفقهاء : أكبر الكبائر الكفر ثم قتل النفس بغير حق ثم الزنا ، لكن النبي ﷺ ذكر لابن مسعود من جنس أعلى فأعلى ، الكفر هو أن تجعل لله ندا ، بخلاف الكتابي الذي ليس بمشرك فإنه دون ذلك ، وأعظم القتل ولدك ، وأعظم الزنا الزنا بحليلة الجار .

وهذا كما ذكرنا أن الظلم ثلاث مراتب : الشرك ثم الظلم للخلق ثم ظلم النفس ، فالقتل من ظلم الخلق ، فإذا كان قتلا للولد الذي هو بضعة منك كان فيه الظلمان ، والزنا هو من ظلم النفس لكن إذا كان بحليلة الجار صار فيه الظلمان أيضا .

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧) كتاب التفسير/ باب قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان/ باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومعنى الظلمان في قتل الولد :قطيعة الرحم مع قتل النفس بغير حق ، ظلمان .

وفي زوجة الجار ظلمان : الزنا وإيذاء الجار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .أهـ .

لكن المغلب في القتل ظلم الغير ، والظلم في الزنا ظلم النفس .

ولهذا كان القود حقا للآدمي إن شاء استوفاه وإن شاء عفا عنه ، وكان حد الزنا حدا لله ليس للآدمي فيه حق معين ، لكن قد يقترن ببعض أنواع الزنا ويقتضي أمورا تضر الناس يكون بها أعظم من قتل لا يضر به إلا المقتول فقط .

وأيضا فقتل النفس يدخل فيه من التأويل ما ليس يدخل في الزنا ، فإن حلاله بيّن من حرامه ، بخلاف القتل فإن فيه ما يظهر تحريمه وفيه ما يظهر وجوبه أو استحبابه أو حله ، وفيه ما يشتبه ، ولهذا جعل الله فيه شيئا ولم يجعل ذلك في الزنا بقوله : ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ﴾ (الفرقان : ٦٨) .

قال سماحة الشيخ :هذا بحث عظيم في مراتب الشرور ومراتب الخير .أهـ .

سؤال / إذا كان الرجل رافضياً وانتقل الرجل من مذهب أجداده إلى مذهب أهل السنة ، لكن بقي فيه عرق في إيذاء المسلمين في أعراضهم والكذب عليهم؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : على كل حال هذا أسهل ، أسهل من بقائه على الرفض ، لكن ينصح في البقية ، ويسأل ربه العافية من البقية ، مثل ما قال المؤلف ، ومثل ما دل عليه الكتاب والسنة ، فالكفر أنواع ودرجات ، والمعاصي أنواع ودرجات ، فإذا انتقل من الرفض الذي هو الكفر المحض ، والكفر الأكبر ، وسب للصحابة وغلو في أهل البيت وعبادة لهم من دون الله ، إلى الاستقامة

ومذهب أهل السنة ، لكن بقي عنده شيء من الغيبة أو شيء من الحقد على بعض الناس فهذا أسهل .أهـ

سؤال / ما يقولونه عن عمر بن الخطاب كما تقوله الرافضة؟

أجاب سماحة الشيخ : هذا لا يمكن أن يقوله في عمر إلا وهو باق على رفضه .أهـ

سؤال / إذا كان يروي الخلافات عن المسلمين بهذا ، وبهذه الروايات التي ورثها عن أجداده؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا أسهل ، كونه يرمي بعض المسلمين أسهل من أن رميه لعمر ، فرق بعيد .أهـ

سؤال / التنبيه على عدم مجالسة المردان ، هل في هذا معالجة لوقت كان منتشراً فيه؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : المقصود أن يتخذهم أصحاباً له يجلس معهم وينام معهم ويخلو بهم ، فقد يبتلى بعشق أحد منهم ثم يقع في فاحشة اللواط ، لكن الصحبة الخفيفة العارضة للنصيحة والتعليم والتوجيه غير داخلة في هذا .أهـ

سؤال / نصح الأبدال؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : مقصودهم بهذا اتخاذهم أصحاباً ، فبعض الصوفية يتخذه مثل الزوجة ، ينام معه ويجلس هو وإياه دائماً فيبتلى بالبلاء العظيم نسأل الله العافية .أهـ

في الغيرة وأنواعها
وما فيها من محمود ومذموم

في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**ما أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه**»[١].

وفي رواية لمسلم: «**وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل**»[٢]. جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين وصفة سبحانه بأكمل المحبة للممادح وأكمل البغض للمحارم

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتي لأضربنه بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدحة من الله من أجل ذلك وعد الله الجنة**»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٣٤) كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ ومسلم (٢٧٦٠) كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) الحديث رقم (٢٧٦٠) كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) رواه البخاري (٧٤١٦) كتاب التوحيد/ باب قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله» ومسلم (١٤٩٩) كتاب اللعان، من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

وقال البخاري وقال عبيد الله بن عمرو عن عبد الملك: لا شخص أغير من الله وترجم البخاري على ذلك باب[1].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يغار وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه**»[2].

وفي الصحيح عن أسماء أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا شيء أغير من الله**»[3].

وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «**يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته**»[4].

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من الغيرة ما يحبها الله ومن الغيرة ما يكرهها**»[5].

فالغيرة التي يحبها الله الغيرة في الريبة، والغيرة التي يكرهها الله الغيرة في

---

(١) انظر الحديث رقم (٧٤١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٢٢٣) كتاب النكاح/ باب الغيرة، ومسلم (٢٧٦١) كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش.

(٣) رواه البخاري (٥٢٢٢) كتاب النكاح/ باب الغيرة، ومسلم (٢٧٦٢) كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش.

(٤) رواه البخاري (١٠٤٤) كتاب الكسوف/ باب الصدقة في الكسوف، ومسلم (٩٠١) كتاب الكسوف/ باب صلاة الكسوف.

(٥) رواه أبو داود (٢٦٥٩) كتاب الجهاد/ باب الخيلاء في الحرب، والنسائي (٢٥٥٩) كتاب الزكاة/ باب الاختيال في الصدقة، من حديث جابر بن عتيك ﷺ، ورواه ابن ماجه (١٩٩٦) كتاب النكاح/ باب الغيرة، من حديث أبي هريرة ﷺ، والحديث قال عنه الألباني: حسن، كما في إرواء الغليل ٧/ ٥٨.

غير ريبة ، وإن من الخيلاء ما يحبها الله ومن الخيلاء ما يبغضها الله ، فالخيلاء التي يحبها اختيال الرجل نفسه عند الحرب وعند الصدقة والخيلاء التي يبغضها الله اختيال الرجل في البغي والفخر .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الخيلاء عند الصدقة يعني كونه يبرزها ويظهرها ويوزعها حتى لا يتهم بأنه أخل بالزكاة وبخل بها ، يعني يظهر بها فرحاً مسروراً طيب النفس مرتاح الضمير في إخراجها بين الناس .

وهكذا في الجهاد يظهر بأنه طيب النفس مرتاح النفس في جهاد الأعداء ، ويظهر أنه قوي بذلك وأنه نشيط بذلك وأنه راغب بذلك وأنه لا يبالي بالعدو .أهـ

وقد ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ قال لعمر ﷺ : «دخلت الجنة فرأيت امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت : لمن هذا؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب فأردت أن أدخله فذكرت غيرتك ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله بأبي وأمي أو عليك أغار»(١) .

وكذلك في الصحيحين حديث أسماء لما كانت تنقل النوى للزبير قالت : فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار فدعاني ثم قال : إخ إخ ليحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته وكان أغير الناس فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى ، فجئت الزبير فقلت : لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب فاستحييت منه وذكرت غيرتك فقال : والله لحملك النوى كان أشد علي من

(١) رواه البخاري (٣٦٧٩) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ/ باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي ﷺ ، ومسلم (٢٣٩٤) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم/ باب من فضائل عمر ﷺ .

ركوبك، معه قالت: حتى أرسل إلي أبي أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس فكأنما أعتقني.[١]

فقد أخبر النبي ﷺ: «**لا أحد أغير من الله**»[٢] وقال: «**غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه**»[٣] وهذا يعم جميع المحرمات، وقال: «**ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[٤] فهذا تخصيص لغيرته من الفواحش وكذلك في حديث عائشة: «**لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته**»[٥] فهذه الغيرة من الفواحش.

وكذلك عامة ما يطلق من الغيرة إنما هو من جنس الفواحش، وبين النبي ﷺ أنه أغير من غيره من المؤمنين، وأن المؤمن يغار والله يحب الغيرة وذلك في الريبة، ومن لا يغار فهو ديوث، وقد جاء في الحديث: «**لا يدخل الجنة ديوث**»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٤) كتاب النكاح/ باب الغيرة، ومسلم (٢١٨٢) كتاب السلام/ باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق.

(٢) رواه البخاري (٤٦٣٤) كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ ومسلم (٢٧٦٠) كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٥٢٢٣) كتاب النكاح/ باب الغيرة، ومسلم (٢٧٦١) كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٤٦٣٤) كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ ومسلم (٢٧٦٠) كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (١٠٤٤) كتاب الكسوف/ باب الصدقة في الكسوف، ومسلم (٩٠١) كتاب الكسوف/ باب صلاة الكسوف.

(٦) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٤٣٦) عن رجل من قريش رفعه، ورواه الطيالسي في مسنده (٦٧٠) عن عمار رضي الله عنه.

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أن الواجب على المؤمن أن يغار عند انتهاك محارم الله ، فيفعل ما يستطيع من إنكار المنكر وإقامة الحد ووضع الأشياء التي تحول بين الناس وبين الوقوع في محارم الله إذا كان إماماً أو أميراً أو له سلطة في قبيلته ونحو ذلك .

فالغيرة لها آثار ، ودعواها لا تنفع من دون وجود آثارها ، فالغيرة لله هي الغضب لله واستنكار ما حرم الله والقيام بما يردع عن الفواحش قولاً وعملاً ، هكذا تكون الغيرة .

والله سبحانه وتعالى له الغيرة الكاملة جل وعلا ، فلا أحد أغير منه سبحانه ، ولهذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وشرع الحدود ، ونهى عن كل ما يتسبب إلى الوصول إلى ما حرم الله سبحانه .

والرسل هم أغير الناس وأعلمهم بالله ، وعلى رأسهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم بعد ذلك المؤمنون على حسب مراتبهم في الإيمان والعلم والفضل ، فكل من كان أعلم بالله وأكمل إيماناً صارت غيرته أكمل وأعظم ، ولكن عند وجود الأسباب ، أما الغيرة في التهم من دون أسباب فهذا شيء يكرهه الله ، مثل تهمة المؤمن أو المؤمنة بغير حق فهذا لا يجوز ، ولهذا شرع الله إقامة الحدود حد القذف ردعاً للناس عن الغيرة الفاسدة التي لا أساس لها ولا سبب لها .

فالغيرة عند وجود الأسباب محمودة ، والغيرة عند عدم وجود الأسباب مذمومة .

فكل مؤمن وكل مؤمنة عليه نصيب من ذلك فيما يتعلق بأهله وجيرانه وإخوانه وأحبابه ومجتمعه ، حتى يكون نشيطاً في الغيرة الشرعية ، مشجعاً عليها

حريصاً على حماية مجتمعه وسلامة مجتمعه من ظهور الشر فيه ، ولهذا يقول سبحانه : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (التوبة : ٧١) وهذا الأمر والنهي هو من ثمرة الغيرة .

وهكذا قوله سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) الآية ، فالأمة المحمدية من فضائلها العناية بهذا الأمر واستكمال ما يجب فيه .اهـ

سؤال / ينكر وإن علم أنه سيسجن؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : لا ، لا يلزمه ، يتقي الله ما استطاع ، مثل ما قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه »(١) وإذا صبر ورضي بالسجن فهذا ينبغي أن يثنَى عليه .اهـ

فالغيرة المحبوبة هي ما وافقت غيرة الله تعالى ، وهذه الغيرة هي أن تنتهك محارم الله وهي أن تؤتى الفواحش الباطنة والظاهرة .

لكن غيرة العبد الخاصة هي من أن يشركه الغير في أهله ، فغيرته من فاحشة أهله ليست كغيرته من زنا الغير ، لأن هذا يتعلق به وذاك لا يتعلق به إلا من جهة بغضه لمبغضة الله .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني لما أبغضه الله .اهـ

ولهذا كانت الغيرة الواجبة عليه هي في غيرته على أهله وأعظم ذلك امرأته

---

(١) رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ثم أقاربه ومن هو تحت طاعته ، ولهذا كان له إذا زنت أن يلاعنها لما عليه في ذلك من الضرر بخلاف ما إذا زنا غير امرأته ، ولهذا يحد قاذف المرأة التي لم يكمل عقلها ودينها إذا كان زوجها محصنا في أحد القولين ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد .

فالغيرة الواجبة ما يتضمنه النهي عن المخازي ، والغيرة المستحبة ما أوجبت المستحب من الصيانة ، وأما الغيرة في غير ريبة وهي الغيرة في مباح لا ريبة فيه فهي مما لا يحبه الله بل ينهى عنه إذا كان فيه ترك ما أمر الله ، ولهذا قال النبي ﷺ : «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وبيوتهن خير لهن»[1] .

وأما غيرة النساء بعضهن من بعض فتلك ليس مأمورا بها لكنها من أمور الطباع كالحزن على المصائب ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «كلوا غارت أمكم لما كسرت القصعة»[2] وقالت عائشة : أو لا يغار مثلي على مثلك[3] . وقالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة[4] .

وعن فاطمة أنها قالت للنبي ﷺ : أن الناس يقولون إنك لا تغار لبناتك لما أراد علي أن يتزوج بنت أبي جهل ، وخطب النبي ﷺ وذكر صهرا له من أبي

(١) رواه البخاري (٩٠٠) كتاب الجمعة/ باب ، ومسلم (٤٤٢) كتاب الصلاة/ باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري (٥٢٢٥) كتاب النكاح/ باب الغيرة ، من حديث أنس ﷺ .

(٣) رواه مسلم (٢٨١٥) كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا .

(٤) رواه البخاري (٣٨١٦) كتاب مناقب الأنصار/ باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله تعالى عنها ، ومسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم/ باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها .

العاص وقال: «حدثني فصدقني ووعدني فوفاني وقال: إن بني العاص استأذنوني في أن يزوجوا بنتهم عليا وإني لا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ويتزوج ابنتهم والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل أبدا»(١).

قال سماحة الشيخ: يعني عدو لأبيها، هذا شيء من خصائص النبي ﷺ، وإلا فالجمع بين ثنتين وبين ثلاث وأربع لا بأس به كما جاء به النص، فهذا شيء اختص به النبي ﷺ لما يحصل لابنته من التأثر، فهي بضعة منه يريبه ما يريبها ويؤذيه ما يؤذيها عليه الصلاة والسلام. أهـ

فهذه الغيرة التي جاءت بها سنة رسول الله ﷺ، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه، وغيرته أن يزني عبده أو تزني أمته، وغيرة المؤمن أن يُفعل ذلك عموما وخصوصا في حقه، والغيرة التي يحبها الله الغيرة في ريبة، والغيرة التي يبغضها الله الغيرة التي في غير ريبة.

وهنا انقسم بنو آدم أربعة أقسام:

قوم لا يغارون على حرمات الله بحال ولا على حرمها مثل الديوث والقوّاد وغير ذلك، ومثل أهل الإباحة الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، ومنهم من يجعل ذلك سلوكاً وطريقاً: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾. (الأعراف ٢٨)

---

(١) رواه البخاري بنحوه (٣١١٠) كتاب فرض الخمس/ باب ما ذكر من درع النبي ﷺ وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه، ومسلم (٢٤٤٩) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم/ باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها السلام، من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

وقوم يغارون على ما حرمه الله وعلى ما أمر به مما هو من نوع الحب والكره يجعلون ذلك غيرة فيكره أحدهم من غيره أمورا يحبها الله ورسوله ، ومنهم من جعل ذلك طريقا ودينا ويجعلون الحسد والصد عن سبيل الله ويبغض ما أحبه الله ورسوله غيرة .

وقوم يغارون على ما أمر الله به دون ما حرمه ، فتراهم في الفواحش لا يبغضونها ولا يكرهونها ، بل يبغضون الصلوات والعبادات كما قال تعالى فيهم : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝ ﴾ (مريم) .

وقوم يغارون مما يكرهه الله ويحبون ما يحبه الله ، هؤلاء هم أهل الإيمان .

فصل

ومن أسباب ذلك ما وقع من الإشراك في لفظ الغيرة في كلام المشايخ أهل الطريق .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لعلها الاشتراك ، يعني أنها كلمة مشتركة ، كل له معنى فيها . اهـ

فإنهم تكلموا فيها بمعاني بعضها موافق لعرف الشارع وبعضها ليس كذلك ، وبضعهم حمد منها ما حمده الشارع وبعضهم حمد منها ما لم يحمده الشارع بل ذمه .

وقد تقدم أن الغيرة التي وصف الله بها نفسه إما خاصة وهو أن يأتي المؤمن ما حرم عليه ، وإما عامة وهي غيرته من الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

وأما الغيرة في اصطلاح طائفة من أهل الطريق فقال أبو القاسم القشيري :

الغيرة كراهة مشاركة الغير، وإذا وصف الحق بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له تعالى من طاعة عبده له.

فقوله: الغيرة كراهة مشاركة الغير أشار بلفظ الغير إلى اشتقاق لفظ الغيرة وهذا أقرب، فإن الغيرة إما من تغير الغائر وإما من مزاحمه الغير.

لكن قوله: كراهة مشاركة الغير، هو اصطلاح خاص ليس بمطابق لاصطلاح الشارع، بل هو أعم منه من وجه وأخص منه من وجه.

أما كونه أعم فإنه يدخل فيه مشاركة الغير المباحة كالمشاركة في الأموال والعبادات والطاعات وهذه ليست غيرة مأمورا بها، بل بعضها محرم وهو حسد ويدخل فيها المشاركة في البضع والغيرة على ذلك غيرة مشروعة.

وأما كونه أخص فإنه يخرج منه الغيرة التي لا يشاركه فيها مثل غيرة المؤمن أن يزني أقاربه أو غيرته أن تنتهك محارم الله، فإن الله يغار من ذلك والمؤمن موافق لربه فيحب ما أحب ويكره ما كره، ولهذا وصف غيرة الله بما يوافق اصطلاحه، فقال: غيرة الله أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له من طاعة عبده، وهذه الغيرة أعم مما ذكره النبي ﷺ من وجه وأبعد عن مقصود الغيرة التي ذكرها النبي ﷺ من غيرة الحق سبحانه، فقد فسر غيرته أن يأتي المؤمن ما حرم عليه وبأن يزني عبده أو تزني أمته، وقال: «من أجل غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»، فجعل الغيرة مطلقة متعلقة بفعل المحرمات، وجعل عظمها وسلطانها في إتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ومن جعلها لنفي المشاركة في حقه كان دخول الشرك في الله في باب الغيرة عنده أولى من دخول الفواحش، وكان استعمال لفظ الغيرة في الشرك أولى من استعمال لفظ الغيرة في الزنا.

وأيضا إذا جعلناها لنفي المشاركة فيما هو حق له من طاعة عبده فقد يدخل في ذلك ما يفعله العبد من المباحات على غير وجه التقرب ، فإن هذا لم يفعله لله ، ومع هذا فليس من غيرة الله التي وصف الرسول بها ربه .

وأيضا فالمشاركة فيما هو حق له قد لا يدخل فيه فعل الفواحش والمحرمات إذا لم يقصد العبد بها طاعة غيره وإن كان مطيعا فيها للشيطان ، وإنما يدخل فيه ما فعله من الطاعات لله ولغيره برا ونحوه ، ومع هذا فقد يقال : بل كل ما كان من ترك واجب أو فعل محرم ففيه مشاركة الغير معه ما يستحقه من طاعة عبده . وعلى هذا فيدخل كل ذنب فيما يغار الله منه سواء كان ترك واجب ما أو فعل محرم .

وهذا المعنى حسن موافق للشريعة ، فإن الله يبغض ذلك ويمقته ، فيكون لفظ الغيرة مرادفا للفظ البغض والمقت والسخط ، لكن هو أعم مما يظهر في عرف الشارع حيث جعل غيرته أن يأتي المؤمن ما حرم عليه وجعل غيرته أن يزني عبده أو تزني أمته ، ومن غيرته أن حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وهذه الغيرة أخص من مطلق البغض إلا أن يقال ترك للشريعة ، وأما تسميته غيرة فهو أمر اصطلاحي والنزاع فيه لفظي ، ثم إنه ذكر عن بعض المشايخ مذهبين في الغيرة ، أحدهما : يتضمن الغيرة مما لا يغار الله منه بل يحبه .

والثاني : يتضمن ترك الغيرة مما يغار الله منه ويحب الغيرة منه ويأمر ذلك .

وكلاهما مذهب مذموم متضمن إما لترك مأمور يحبه الله أو لفعل مكروه يكرهه الله .

وذكر من كلامه وكلام المشايخ ما هو حسن مقبول ، فاشتمل كلامه في الغيرة على الأقسام الثلاثة ، فالأول من الغيرة كراهة توبة العاصين وعبادة المقصرين ، كما ذكر عن الشبلي أنه سئل متى يستريح؟ قال إذا لم أر له ذاكرا .

وقال :حكي أن الشبلي مات ابن له كان اسمه أبو الحسن فحزنت أمه عليه وقطعت شعرها ، ودخل الشبلي الحمام وتنور بلحيته ، فكل من أتاه معزيا له قال : أيش هذا يا أبا بكر؟ فكان يقول : موافقة لأهلي ، فقال له بعضهم :أخبرني يا أبا بكر لم فعلت هذا؟ قال : علمت أنهم يعزونني على الغفلة ويقولون آجرك الله تعالى ، ففديت ذكرهم لله تعالى على الغفلة بلحيتي .

قال : وأذن الشبلي مرة فلما انتهى إلى الشهادتين قال : لولا انك أمرتني ما ذكرت معك غيرك .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا مما انتقد عليه ورُجع في عقله ، فالشبلي له مواقف غريبة تدل على ضعف في العقل وضعف في التصرف ، فإن صح عنه ما ذكر عنه من هذا وأشباهه ، فإن حلق اللحية منكر ، كيف يفعله لموافقة أهله أو لأجل إشغال المعزين بذلك ، وهكذا قوله في الشهادتين ، فإن ما بعد الشهادتين فيه تعظيم لله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، فهي دعوة لما أمر به ، فليس في ذلك شيء يستنكر .اهـ

قال : وسمع النوري رجلا يؤذن فقال : طعنة وسم الموت ، وسمع كلبا ينبح فقال : لبيك وسعديك ، فقيل له : إن هذا ترك للدين فإنه يقول للمؤذن في تشهده طعنة وسم الموت ويلبي عند نباح الكلاب ، فسئل عن ذلك فقال : أما المؤذن فإنه يذكره على رأس الغفلة ، وأما الكلب فإن الله تعالى يقول : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء ٤٤) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه من الجهل القبيح ، فهذا من جهلهم وانحراف عقولهم حتى صاروا كالمجانين .اهـ

ومثل الكلمات والحكايات لا تصلح أن تذكر للاقتداء أو سلوك سبيل وطريقة لما فيها من مخالفة أمر الله ورسوله ، والذي يصدر عنه أمثال هذه الأمور إن كان معذوراً بقصور في اجتهاده أو غيبة في عقله فليس من اتبعه بمعذور مع وضوح الحق والسبيل ، وإن كانت سيئته مغفورة لما اقترن بها من حسن قصد وعمل صالح فيجب بيان المحمود والمذموم لئلا يكون لبساً للحق بالباطل .

وأبو الحسين النوري وأبو بكر الشبلي رحمة الله عليهما كانا معروفين بتغيير العقل في بعض الأوقات حتى ذهب الشبلي إلى المارستان مرتين ، والنوري رحمه الله كان فيه وله ، وقد مات بأجمة قصب لما غلبه الوجد حتى أزال عقله .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : اصطدم بأجمة حتى هلك ، والأجمة خشبة أو قطعة حجر .أهـ

سؤال / الشبلي له كتاب اسمه «الإنسان الكامل» ؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : ما أعرفه ولا رأيته ولا أعرف أن له مؤلفات ، ويحتمل أن هذا وقع غلطاً من الكتّاب أو من الخطاطين ، فهؤلاء أشبه بالمجانين والمعتوهين .أهـ

ومن هذه حاله لا يصلح أن يتبع في حال لا يوافق أمر الله ورسوله وإن كان صاحبها معذوراً أو مغفوراً له ، وإن كان له من الإيمان والصلاح والصدق والمقامات المحمودة ما هو من أعظم الأمور ، فليس هو في ذلك بأعظم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فإنهم يُتبعون في طاعة ولا يذكرون إلا بالجميل الحسن ، وما صدر منهم من ذنب أو تأويل وليس هو مما أمر الله به ورسوله لا يتبعون فيه ، فهذا أصل يجب اتباعه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومقصوده من هذا أن ما ثبت من خطأ وزلل لا يتبع فيه قائله ولو كان من العلماء الكبار ، ولو كان من الصحابة ، ولو كان من التابعين ، فالخطأ لا يتبع فيه أحد ، فما دل الكتاب والسنة على أنه خطأ من صاحبه لا يتبع فيه ، وإنما يتبع في الحق والصواب ، هذا إذا كان في سلف الأمة والقرون المفضلة ، فكيف إذا كان في المتأخرين من الصوفية وأشباههم؟

من باب أولى أن يُطَرح ما قالوه أو فعلوه مما يخالف الحق ، وإنما يؤخذ منهم ما وافق الحق ويحمدون عليه ، وأما ما خالف الحق فينكر عليهم ويبين بطلانه .

وهو قد دخل عليهم من قلة العلم ، فدخل على أكثر هؤلاء من قلة العلم ، رموا بالأحوال والزهد والأشياء التي ارتضوها لأنفسهم من العبادات كالصوم المستمر والصلاة ونحو ذلك وأعرضوا عن العلم فوقعوا في هلاك كثير .أهـ

فحلق اللحيه منهي عنه ومثلة كرهها الله ورسوله ، والمعزي أو المؤذن وإن لم يكن معه كمال الحضور فلا يجوز سبه وذمه على ما أظهره من ذكر الله ، بل يؤمر بما يكمل ذلك من حقائق القلوب المحمودة وإن كان ذاكرا الله بلسانه ، فأعظم المراتب ذكر الله بالقلب واللسان ، ثم ذكر الله بالقلب ، ثم ذكر الله باللسان .

وقد روي أن الملائكة حضرت محتضرا لم تجد له حسنة إلا أن لسانه يتحرك بذكر الله فكان ذلك مما رحمه الله به .

وقد قال رجل للنبي ﷺ : أوصني فإن شرائع الإسلام قد كثرت علي فقال : «لا يزال لسانك رطبا بذكر الله»(١) .

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٨١٤٩) والترمذي (٣٣٧٥) كتاب الدعوات/ باب ما جاء في فضل الذكر ، وابن ماجه (٣٧٩٣) كتاب الأدب/ باب فضل الذكر ، من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه .

وقال الله تعالى : «أنا مع عبدي ما ذكرني»[١] والذكر يكون بلسان الإنسان ولكن يكون لقلبه من ذلك نصيب ، إذ الأعضاء لا تتحرك إلا بإرادة القلب ، لكن قد تكون الغفلة غالبة عليه ، وذلك الكلام خير من العدم والله يحبه ويأمر به .

وكان النبي ﷺ إذا سمع المؤذن لا يغزو وإلا أغار[٢] وكثير من المؤذنين لا يكون كامل الحضور ، بل المنافقون الذين يظهرون الإيمان بألسنتهم دون قلوبهم يقرون على ذلك في الظاهر بأمر الله ورسوله فكيف بالمؤمن؟

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «إذا سمعتم نهاق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا وإذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكا»[٣] .

وفي سنن أبي داود عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : «إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمر بالليل فتعوذوا بالله منهن فإنهن يرين ما لا ترون»[٤] .

وثبت في الصحيحين عنه من حديث أبي هريرة أنه قال : «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط لا يسمع التأذين فإذا قضي التأذين أقبل فإذا ثوب

---

(١) رواه البخاري تعليقا في صحيحه كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى : «لا تحرك به لسانك» وفعل النبي ﷺ حيث ينزل عليه الوحي ، وورواه مسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الحث على على ذكر الله تعالى ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٣٨٢) كتاب الصلاة/ باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٣٣٠٣) كتاب بدء الخلق/ باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ، ومسلم (٢٧٢٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب الدعاء عند صياح الديك ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) الحديث رقم (٥١٠٣) كتاب الأدب/ باب نهيق الحمير ونباح الكلاب ، والحديث صححه الألباني في «صحيح الكلم الطيب» (٢٢٠) .

بالصلاة أدبر فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه فيقول: اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لم يدر كم صلى»(١).

فإذا كان التأذين يطرد الشيطان ونباح الكلاب يكون عن رؤية الشياطين كيف يصلح أن يقال لهذا: طعنة وسم الموت لأجل تقصير هذا بغفلة في قلبه ولهذا: لبيك وسعديك لكون الكلب يسبح بحمده؟ فإن هذه حجة فاسدة.

أما ذلك الغافل فإن أجره ينقص بغفلته كما روى أبو داود في السنن عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها إلا سدسها حتى قال إلا عشرها»(٢).

فلا ريب أن الأجر ينقص بالغفلة، لكن استحقاق العقوبة نوع آخر، وإذا استحق العقوبة لم يجز أن تكون عقوبته مقابلة لما أظهره من الحسنة.

وأما نباح الكلب إن كان تسبيحا فصوت المؤذن أولى أن يكون تسبيحاً، فبكل حال لا يكون نباح الكلاب الذي يقترن به الشيطان أدنى من ذلك من صوت المؤذن الذي هو سبب لهروب الشياطين، فإن ذلك إن كان لدلالته على الربوبية فصوت المؤذن أكمل، وإن كان لعبادته بما يستحقه الرب من الإلهية فصوت المؤذن أعظم عبادة لله من نباح الكلب.

فتسبيح كل شيء بحمده يدخل فيه المؤذن بكل حال أعظم مما يدخل فيه الكلب، فكيف يدخل الكلب النابح ويخرج المؤذن لنوع من الغفلة؟! فهذا والكلب محرم اقتناؤه إلا الضرورة من صيد أو حرث أو ماشية، ومن اقتنى كلبا

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٢) العمل في الصلاة/ تفكر الرجل الشيء في الصلاة، ومسلم (٣٨٩) كتاب الصلاة/ باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه.

(٢) الحديث رقم (٧٩٦) كتاب الصلاة/ باب ما جاء في نقصان الصلاة، وقال عنه الألباني: حسن.

بغير هذه الثلاثة نقص كل يوم من عمله قيراط ، وتلبية الكلب في نباحه أمر منكر لا وجه له أصلاً ، فلا يتبع أحد في ذلك وإن كان معذوراً أو مغفوراً له مشكوراً على حسنات غير هذا .

وكذلك الحكاية عن الشبلي أنه لما انتهى إلى الشهادتين قال : لولا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك ، فإن ذكر هذا في باب الغيرة منكر من القول وزور لا يصلح إلا أن نبين أن هذا من الغيرة التي يبغض الله صاحبها ، بل الغيرة من الشهادة لرسله بالرسالة من الكفر وشعبه ، وهل يكون موحداً شاهداً لله بالإلهية إلا من شهد لرسله بالرسالة؟ وقد بينا في غير موضع من القواعد وغيرها أن كل من لم يشهد برسالة المرسلين فإنه لا يكون إلا مشركاً يجعل مع الله إلهاً آخر ، وأن التوحيد والنبوة متلازمان ، وكل من ذكر الله عنه في كتابه أنه مشرك فهو مكذب للرسل ، ومن أخبر عنه أنه مكذب للرسل فإنه مشرك ، ولا تتم الشهادة لله بالإلهية إلا بالشهادة لعبده بالرسالة ، كما جاء مرفوعاً في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾ (الانشراح) قال : «لا أذكر إلا ذكرت معي ولا تتم لأمتك خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي»(١) .

وكذلك الحكاية التي سمعتها من بعض الفقراء عن أبي الحسن الخزفاني أنه قال : لا إله إلا الله من داخل القلب ، محمد رسول الله من القُرط .

---

(١) الحديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٢٠ كتاب الفضائل ، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢٠٩ باب ما يستدل به على وجوب ذكر النبي ﷺ في الخطبة ، قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير ١/ ٢٥٠ : رواه ابن حبان من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً وهو من رواية دراج عن أبي الهيثم عنه ، وقال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٧٤٦) : ضعيف ، ودراج فيه ضعف يقول عنه الحافظ : «صدوق في حديثه عن أبي الهيثم ضعف» أهـ .

قال أبو القاسم : ومن ينظر إلى ظاهر هذا اللفظ يتوهم أنه استصغر الشرع ولا كما يخطر بالبال ، إذ الأخطار للأغيار بالإضافة إلى قدر الحق متصاغرة في التحقيق .

وهذه الحكاية أيضا من أقبح الكلام وأفحشه ، وذكر هذا في باب الغيرة من أنكر المنكر ، فإن هذا الكلام لا يقال إنه استصغار للشرع ، بل هو من أكبر شعب النفاق وأعظم أركان الكفر ، وصاحبه إن لم يغفر الله له لحسن قصده في تعظيم الرب ـ كما غفر للذي قال : إذا أنا مت فاحرقوني واسحقوني وذروني في اليم[1] فغفر له شكه في قدرته على إعادته لخشيته منه ولم يتب من مثل هذا الكلام ـ وإلا كان هذا الكلام موجبا لعظيم عقابه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني أنه خفي عليه الأمر ، خفي عليه كمال القدرة وجهل كمال القدرة ، وظن بهذا أنه يفوت الله ، فلما كان الحامل له خشية الله وخوفه ومراقبته غفر له ، لأنه كان مؤمناً بالله موحداً ، لكن ظن أنه بسبب المعاصي التي فعلها أو المعصية التي فعلها أو اعتقد أنها معصية خاف من ذلك .

فالإنسان قد يجهل ، وقد تخفى عليه بعض الأمور وهو مؤمن ، فإذا كان خفي عليه بعض الأمور ولا قامت عليه الحجة يعفى عنه .اهـ

وذلك أن الإيمان بالرسل عليهم السلام ليس من باب ذكر الأغيار ، بل لا يتم التوحيد لله والشهادة له بالوحدانية والإيمان به إلا بالإيمان بالرسالة ، فمن جعل الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله مغايرا للإيمان به وجعل الإعراض عنه من باب

(١) رواه البخاري (٣٤٧٨) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، ومسلم (٢٧٥٦) كتاب الرقاق/ باب سعة رحمة الله على المؤمنين ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

الغيرة المعظمة عند المشايخ فقد ضل سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، ومن لم تكن الشهادة بالرسالة داخله في ضمن قلبه بالشهادة بالألوهية فليس بمؤمن .

وفي مثل هذا جاء الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أسماء عن النبي ﷺ أنه قال : «إنه أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل وقريبا من فتنة الدجال يؤتى الرجل في قبره فيقال له ما علمك بهذا الرجل الذي بعث فيكم فأما المؤمن أو الموقن فيقول هذا هو محمد عبد الله ورسوله جاء بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه وأما المنافق أو المرتاب فيقول آه آه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته»(١) .

ثم إنك تجد هؤلاء الذين يغلون بزعمهم في التوحيد حتى يعرضوا عن الكتاب والسنة ويستخفون بحرمتهما ويعظم أحدهم شيخه ومتبوعه أكثر مما يعظم الرسول ﷺ ، وتجدهم يشركون بالله في استغاثتهم بغيره وخوفهم ورجائهم لغيره ومحبتهم لغيره ، فتجد فيهم من أنواع الشرك الجلي والخفي التي نهى الله عنها ورسوله ما الله به عليم ، ومع هذا فيعرضون عما هو من تمام التوحيد زعما أنهم يحققون التوحيد .

وأما اعتذار أبي القاسم عنه بأن الأخطار للأغيار بالإضافة إلى قدر الحق متصاغرة فعذر باطل ، وذلك أن الشاهد للرسول بالرسالة لم يجعله ندا لله ولا شريكا له ولا ظهيرا حتى يفاضل بينهما .

هذا الكلام يليق بمن يقول إن الله ثالث ثلاثة أو يجعل الله شريكا وولدا أو بمن يستغيث بمخلوق ويتوكل عليه أو يعمل له أو يشتغل به عن الله فيقال له :

---

(١) رواه البخاري (٨٦) كتاب العلم/ باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ، ومسلم (٩٠٥) كتاب الكسوف/ باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار .

﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (مريم) ويقال له:

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الزمر)، وقوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ (الزمر)، إلى أمثال ذلك مما في كتاب الله من الآيات التي فيها تجريد التوحيد وتحقيقه وقطع ملاحظة الأغيار في العبادة والاستغاثة والدعاء والمسألة والتوكل والرجاء والخشية والتقوى والإنابة ونحو ذلك مما هو من خصائص حق الربوبية التي لاتصلح لملك مقرب ولا نبي مرسل .

فأما الإيمان بالكتاب والرسول فهذا من تمام الإيمان بالله وتوحيده لا يتم إلا به ، وذكر الله بدون هذا غير نافع أصلا بل هو سعي ضال وعمل باطل ، لم يتنازع المسلمون في أن الرجل لو قال : أشهد أن لا إله إلا الله ولم يقر بأن محمدا رسول الله أنه لم يكن مؤمنا ولا مسلما ولا يستحق إلا العذاب ، ولو شهد أن محمدا رسول الله لكان مؤمنا مسلما عند كثير من العلماء ، وبعضهم يفرق بين من كان معترفا بالتوحيد كاليهود ومن لم يكن معترفا به ، وبعضهم لا يجعله مسلما إلا بالنطق بالشهادتين ، وهي ثلاثة أقوال معروفة في مذهب أحمد وغيره .

وهذا معنى ما يروى في بعض الآثار : «يا محمد تذكر ولا أذكر فأرضى وأذكر ولا تذكر فأقبض» يعني ذكره بالرسالة ، ومن ذكره بالرسالة فقد تضمن ذلك ذكر الله ، وأما من ذكر الله ولم يذكره بالرسالة فإنه لا يكون مؤمنا .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا بالنسبة إلى من يأتي بالشهادة وهو موحد ، ولكن لا يأتي بشهادة أن لا إله إلا الله ، فقال أشهد أن محمداً رسول الله وهو موحد لله مؤمن بأنه لا شريك له ، ولكنه لم يأت بنص الشهادة عند قوله أشهد أن محمداً رسول الله ، ولكنه مقر بها ومؤمن بها قد أتى بها في وقت آخر .

وأما من جحد لفظ الشهادة فقد أجمع العلماء على أنه كافر ، ولا يجوز أن يكون مسلماً أبداً حتى يأتي بالشهادتين إذا كان يستطيع النطق بهما ، فلابد من الشهادتين نطقاً وعقيدة ، فلو اعتقد أن محمداً رسول الله ولم ينطق بذلك ، أو شهد أن لا إله إلا الله ولم ينطق بذلك وأبى فإنه يكون كافراً حتى ينطق بذلك وحتى يقر بذلك ، فلابد منهما لفظاً ومعنى ، ولهذا كفر اليهود ولو وحّدوا ، ولو قالوا إنهم يوحدون الله ، فقد كفروا بإنكارهم نبوة محمد ﷺ ، وهكذا النصارى ، وهكذا غيرهم ممن كذّب بمحمد عليه الصلاة والسلام ولو عبد الله ولو أخلص لله حتى يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .

فلابد من الأمرين : من توحيد الله والإيمان برسول الله عليه الصلاة والسلام .

كما أنه لابد أيضاً من الإيمان بجميع الرسل والملائكة والكتب إلى غير ذلك ، كما هو معلوم ، فهذه الأقوال الثلاثة في حق من هو موحد ولكن تلفظ بشهادة أن محمداً رسول الله ولم يتلفظ بالشهادتين ، أو أتى بشهادة أن لا إله إلا الله وهو مؤمن بأن محمداً رسول الله ولكن لم يتلفظ بها ، وهذا محل نظر ، فإذا كان قد أتى بها سابقاً واستقام عليها سابقاً ولكن عند المطالبة لم يأت بذلك ، هذا هو الوجه ، وإلا فالكلام هذا - وهي أقوال ثلاثة - فيه شيء ، وهو كلام فيه إجمال ، وقد أجمع علماء السنة على أنه لابد من الشهادتين ، هذا أمر لا نزاع فيه ، فلابد

من توحيد الله والإقرار بالشهادة ، ولابد من شهادة أن محمداً رسول الله والإيمان بها قولاً وعقيدة .أهـ

سؤال / هناك من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولكنه يدعو غير الله!

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله : هذا ما أتى بها عقيدة ، وإنما أتى بها لفظاً فقط ، فلايقبل حتى يأتي بها حقيقة .أهـ

وحيث جاء في الأحاديث «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله»(١) «وأسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه»(٢) ونحو ذلك فلأن ذلك ، مستلزم الإيمان بالرسالة كما بيناه في غير هذا الموضع ، وأنه لاتصح هذه الكلمة إلا من المقرين بالرسالة ، وبما وقع فيه هؤلاء وأمثالهم من ضعف الإيمان بالكتاب والرسول ، وبعض أنواع الضلالة والجهالة حتى في الشرك الذي زعموا أنهم فروا منه ، فنسأل الله مقلب القلوب أن يثبت قلوبنا على دينه .

وكذلك قول الشبلي لما سئل متى تستريح فقال : إذا لم أر له ذاكرا ، وذكر هذا في الغيرة التي هي من طريق أولياء الله وعباده الصالحين من أعظم المنكرات ومن القول الذي يبغضه الله ورسوله وأولياؤه من الأولين والآخرين ، أيغار المؤمن أن يذكر الله أو يغار أن تنتهك محارم الله؟ وليس لهذا القول وجه يحمد به ، وأما قائله فلعله كان مسلوب العقل حين قال ذلك ، فقد كان كثيرا ما يزول عقله ، فإن قصد به أن أحدا لا يذكره كما يستحقه فالذي يستحقه هو العبادة التي

---

(١) رواه البخاري (٤٤) كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ونقصانه ، ومسلم (١٩٣) كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٩٩) كتاب العلم/ باب الحرص على الحديث ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

هي حقه على عباده ، وهو لا يكلفهم أكثر من طاقتهم ، وهذا هو الذي يؤمرون به ويقبله الله منهم .

وإن قصد أنهم يقصرون في الواجب فبعض الواجب خير من تركه كله ، وإن كان هذا لضيق في نفسه وحرج في فؤاده فهذا من الغيرة التي يبغضها الله ورسوله وهو شر من الحسد .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا من شطحات الصوفية ، شطحاتهم الخبيثة ، نسأل الله العافية . أهـ

ومما يشبه هذا ما ذكره له مرة بعد أصحابنا الفقراء وفيه خير ودين ومعرفة أنه كان يصلي بالليل فقام آخر يصلي قال : فأخذتني الغيرة فقلت له : هذا حسد وضيق عطن وظلم ليس بغيرة ، إنما الغيرة إذا انتهكت محارم الله والله تعالى واسع عليم يسع عباده الأولين والآخرين ، وهو يحب ذلك ويأمر به ويدعو إليه فكيف يبغض المؤمن ما يحبه؟

وهذا القدر واقع كثير من أرباب الأحوال حتى يقتل بعضهم بعضا ويعتدي بعضهم على بعض يؤذي بعضهم بعضا ويقولون هذا غيرة على الحق ، وإنما هو تعد لحدوده وظلم لعباده وصد عن سبيله وتمثيل فيه للحق تعالى بالمرأة أو الأمرد الذي يتغاير عليهم الفساق لضيق المحل غير الإشراك ، وأصل ذلك من طلب الفساد والعلو في الأرض وطلب الانفراد بالتأله لا لأجل الله لكن لأجل الاستعلاء في الأرض ، فهو من الكبر والحسد من جنس ذنب إبليس وفرعون وأخي ابن ادم لا من أعمال عوام الخلق فضلا عن مؤمنيهم فضلا عن أولياء الله المتقين .

ولهذا نجد أمثال هؤلاء من أقل الناس غيرة إذا انتهكت محارم الله ، ويكون

المؤمنون منهم في تعب والمشركون منهم في راحة ضد ما نعت الله به المؤمنين حيث قال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)، وقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٥٤)، فشأنهم من جنس الخوارج الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج) هؤلاء الضالون لا يستريحون إلا إذا رأوا الناس غافلين عن ذكر الله، فيستريحون إذا غفل الناس عن ذكر الله حتى يتفردوا هم بالعبادة وحدهم، وهذا من الجهل الزائد والضلال البعيد، نعوذ بالله. اهـ.

وأما المذهب الثاني فإنه قال: ومن الناس من قال: إن الغيرة من صفات أهل البداية وأن الموحد لا يشهد الغيرة ولا يتصف بالاختيار وليس له فيما يجري في المملكة تحكم، بل الحق سبحانه أولى بالأشياء فيما يقضي على ما يقضي.

وقال: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي رحمه الله يقول سمعت أبا عثمان المغربي يقول: الغيرة من عمل المريدين فأما أهل الحقائق فلا.

قال: سمعته يقول سمعت أبا نصر الأصبهاني يقول سمعت الشبلي يقول: الغيرة غيرتان: فغيرة البشرية على النفوس وغيرة الإلهية على القلوب.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٤) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قلت: أما نفي الغيرة مطلقا وجعلها من عمل المريدين فهذا يضاهي قول من يشهد توحيد الربوبية وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكة لا يشهد توحيد الإلهية وما يستحقه الرب من عبادته وطاعته وطاعة رسله فلا يفرق بين المؤمن والكافر والأعمى والبصير والظلمات والنور وأهل الجنة وأهل النار.

وهذا من جنس قول المشركين الذين قالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، فإن المشركين استدلوا بالقدر على نفي الأمر والنهي والمحبوب والمكروه والطاعة والمعصية، ومن سلك هذا المسلك فهو في نوع من الكفر البين.

وقول القائل: إن الموحد لا يتصف بالاختيار كلام مجمل، فإن أراد به أنه لا يختار بنفسه ولنفسه فقد أحسن، وإن أراد به أنه لا يختار ما اختاره الله وأمر به وأحبه ورضيه وأمره هو أن يختاره ويريده ويحبه فهذا كفر وإلحاد، بل المؤمن عليه أن يريد ويختار ويحب ويرضى ويطلب ويجتهد فيما أمر الله به وأحبه ورضيه وأراده واختاره دينا وشرعا.

وكذلك قوله: ليس له فيما يجري في المملكة تحكم، إن أراد به أنه لا يعارض الله في أمره ونهيه فهذا حسن وحق، فإن عليه أن يرضى بما أمر الله به ويسلم لله ومن ذلك التسليم لرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

مِن أَمْرِهِمْ ﴾ (الاحزاب : ٣٦) ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد) ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ (محمد) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة) وأمثال هذا كثير .

وقال النبي ﷺ : **«من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره»** رواه أبو داود وغيره .(١)

وقوله : الموحد لايشهد الغيرة ولا يتصف بالاختيار ، فالتوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو أن يعبد الله وحده لاشريك له ، فهو توحيد الألوهية وهو مستلزم لتوحيد الربوبية وهو أن يعبد الحق رب كل شيء ، فأما مجرد توحيد الربوبية وهو شهود ربوبية الحق لكل شيء فهذا التوحيد كان في المشركين كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف) .

وكذلك إن أراد اعترافه بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله وشهوده لفقره وعبوديته

---

(١) أبو داود (٣٥٩٧) كتاب القضاء/ باب في الرجل يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٩٠٢) باب من حالت شفاعته دون حد ، وابن أبي شيبة ٦/ ٤٦٢ كتاب الحدود/ باب ما جاء في التشفع للسارق ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وفقر سائر الكائنات ، وأن الله هو رب كل شيء وعالم بكل شيء ومليكه ، لا يخلق ولا يرزق إلا هو ولا يعطي ولا يمنع إلا هو ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع : ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (فاطر : ٢) ، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الزمر) ، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ (يونس) ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (فاطر : ١٥) .

فإن أراد هذه المشهد فهذا أيضا من الإيمان والدين ، فالأول الإقرار بالأمر والنهي واتباع ذلك هو عبادته ، وهذا الإقرار بالقضاء والقدر وشهود الافتقار إلى الله هو استعانته ، ولهذا قال تعالى في الصلاة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ (الفاتحة) ، قال الله : فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل[1] .

وعلى هذا يخرج قول أبي يزيد : أريد ألا أريد ، أي أريد ألا أريد بنفسي

(١) رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة/ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ولنفسي بل لا أريد إلا ما أمرتني أنت بإرادته ، وأما عدم الإرادة مطلقا فمحال طبعا وطلبه محرم شرعا والمقر بذلك فاسد العقل والدين .

والمريد لجميع الحوادث المأمور بها والمنهي عنها كافر بدين الله وما جاءت به رسله ، وأما المريد لما أمر أن يريده ويعمله والكاره لما نهى عنه فهذا هو المؤمن الموحد ، فإن أراد بقوله : الموحد لا يشهد الغيرة ولا يتصف بالاختيار أنه لا يختار شيئا أصلا لا مما أمر به ولا مما نهي عنه ، فهذا مع بطلانه في الواقع وفساده في العقل فهو من أعظم المروق من دين الله ، إذ عليه أن يريد كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه له ويحبه له ، ويستعين الله على هذه الإرادة والعمل بها فإنه لا حول ولا قوة إلا به ، كما كان النبي ﷺ يقول : **«يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»**[1] .

وأصل صلاح القلب صلاح إرادته ونيته فإن لم يصلح ذلك لم يصلح القلب ، والقلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : **وهذا كله يبين أن كلمات الصوفية ومشايخهم كلمات خطيرة يقع فيها من الالتباس والإيهام والشمول وعدم التفصيل ما فيه ضلال وشر على من لم يعرف مرادهم ولم يفصّل فيما أجملوا ، وأن الصواب هو التمسك بما جاء في الشرع من الأوامر والنواهي والمدح والذم والمحبة والكراهة ، فيكون مؤمناً متقيداً بما جاء في الشرع ، فما مدحه الله وأحبه وأثنى عليه أخذ به المؤمن وأثنى عليه وأحبه وآثره ، وما كرهه الله وأبغضه وأنكره كرهه المؤمن وأبغضه وأنكره .**

(١) رواه أحمد (١٢٤٣٦) ورواه الترمذي (٢١٤٠) كتاب القدر/ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ، من حديث أنس رضي الله عنه وقال الترمذي : حسن صحيح .

فالمؤمن منقيد بما جاء في الشرع ، فهو مع الأوامر فعلاً ومع النواهي تركاً ، فليس له اختيار وليس له إرادة إلا ما أراده الله ورسوله وأمر الله به ورسوله ، أما تحكيم العقول وتحكيم الإرادات مطلقاً فهذا شأن من لا إيمان له ولا بصيرة له من ضلال الصوفية وجهلتهم ومارقيهم .

فالمقصود من هذا أن الواجب التقيد بما دل عليه الكتاب والسنة حباً وكراهة وإرادة وتركاً وأمراً ونهياً في جميع الأحوال ، فالإيمان بأن الله هو الخلاق الرزاق المحيي المميت هذا لا يكفي ، قد أقر به المشركون ومع ذلك لم يكفهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحتى يخصوا الله بالعبادة ، وحتى يؤمنوا بأسمائه وصفاته ، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية ويقتضيه ، وهكذا توحيد الأسماء والصفات يستلزم ذلك .

وأما توحيد الإلهية فهو يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، لأن المعبود بالحق يجب أن يكون مستكملاً لجميع الصفات العظيمة من كونه خالقاً ورازقاً ومدبراً وله الأسماء الحسنى والصفات العلى ، ولهذا استحق أن يعبد واستحق أن يأله دون جميع المخلوقات سبحانه .

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾

ولهذا خاطب الله سبحانه جميع الخلق بأن يعبدوه وحده ويخصوه بالعبادة ، وأنه لا يكفيهم أن يقولوا إن الله هو الخالق الرازق وإن الله ربنا ، حتى يعبدوه وحتى يخصوه بالعبادة دون الآلهة الأخرى ، ولهذا قال سبحانه : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة) وقال : ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (الأنعام : ١٩) وقال :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ (الفاتحة)، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (البينة) **كل هذا خطاب لهؤلاء الذين يقرون بأن الله ربهم وأن الله خالقهم، فلم يكفهم ذلك، ولم يكتف الرب منهم بذلك حتى يخصوه بالعبادة، وحتى يفردوه بها دون كل ما سواه سبحانه. أهـ**

وكذلك قوله: ليس له فيما يجري في المملكة تحكم، إن أراد به أنه لا يغار إذا انتهكت محارم الله ولا يغضب الله ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ولا يجاهد في سبيل الله فهذا فاسق مارق بل كافر، وإن أظهر الإسلام فهو منافق وإن كان له نصيب من الزهد والعبادة ما كان فيه.

ومعلوم أن المؤمن لا يخلو من ذلك بالكلية ومن خلا من ذلك بالكلية فهو منافق محض وكافر صريح، إذ المؤمن لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولابد أن يتبرأ من الإشراك بالله وأعداء الله كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ (الممتحنة: ٤)

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ (الشعراء)

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا

تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الزخرف) ، وقال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (المجادلة ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (المائدة) ، وقال : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (المائدة) ، وقال : ﴿ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (الممتحنة ١٣) وهذا كثير جدا .

وأيضا فالقائل لذلك لا يثبت عليه بل لا بد أن يكره أمورا كثيرة مضرة ، وكثيرا ما يعتدي في إنكارها حتى يخرج عن العدل ، فهذا خروج عن العقل والدين وعن الإنسانية بالكلية إذا أخذ على عمومه ، وأما إن قبل ذلك في بعض الأمور بحيث يترك الكراهة أحيانا لما كرهه الله والغيرة أحيانا إذا انتهكت محارم الله ، فهذا ناقص الإيمان بحسب ذلك .

بل قد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : «من رأى منكم

منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١] فإن لم يكن في القلب إنكار ما يكرهه ويبغضه لم يكن فيه إيمان .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة نفاق»[٢] وتحقيق ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (التوبة : ٢٤) .

وقد ذكر الله في سورة براءة وغيرها من صفة المنافقين ما فيه عبرة لهؤلاء ووصف المؤمنين والمؤمنات بقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة) .

وكذلك قوله بل الحق أولى بالأشياء فيما يقضي على ما يقضي فيه تقصير في خلق الرب وأمره ، فإن قوله أولى قد يفهم منه أن له شريكا ، بل لا خالق إلا

(١) رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (١٩١٠) كتاب الإمارة/ باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الله ولارب غيره ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ (سبأ).

وأما الأمر فإنه سبحانه أمر العباد ونهاهم فعلى العبد أن يفعل ما أمره به من الغيرة وغيرها.

قال سماحة الشيخ :فلهذا يقول سبحانه : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (الأعراف :٥٤) فالخلق خلقه والأمر أمره ، فله الخلق وليس هناك خالق سواه : ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ (يس) ، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ (الزمر) ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ (فاطر :٣) والاستفهام معناه النفي ، يعني لا خالق سواه سبحانه ، فهو الموجد للخلائق جميعاً جامدها وناطقها .

فهكذا الأمر أمره ، ليس لأحد أمر سواه ، بل الأمر أمره فيما أمر ونهى جل وعلا ، وما قاله الناس يُرجع إليه ، فإن وافق أمره وإلا رد إليهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الشورى :١٠) ، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء :٥٩) .

فالشرع شرعه والأمر أمره ، وليس للناس التخلف عن ذلك أو الحيدة عن ذلك لأمر فلان أو لأمر فلان ، إنما الطاعة في المعروف ، وليس للمخلوق طاعة في معصية الخالق سبحانه ، لا العلماء ولا غير العلماء .

وبهذا يُعلم أن ما يقع لبعض الشيوخ من الصوفية أو غيرهم من تقديم أمر مشايخهم ورؤسائهم، وما يقع لبعض الناس من تقديم أوامر أمرائهم وشيوخهم على طاعة الله ورسوله؛ أن هذا غلط عظيم وفساد كبير، وهو مخالف لما قال جل وعلا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤). اهـ.

فإذا كان قد أمره بأن يغار لمحارمه إذا انتهكت وأن ينكر المنكر بما يقدر عليه من يده ولسانه وقلبه فلم يفعل فإنما هو فاسق عن أمر ربه لا تارك لمشاركته، إذ سبيل له إلى الشركة بحال، وهو سبحانه لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

فالاحتجاج بكونه أولى من العبد بخلقه على ترك ما أمر به من محبوبة ومرضية وطاعته وعبادته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه أمران قبيحان: توهم نوع مشاركة من العبد له إذا أطاعه وعبده، وإسقاط ما أمر به وأحبه من الغيرة.

وهذا الكلام كأن قائله لم يغالب المقادير بنفسه لنفسه مثل الملوك المتغالبين والأمم المتعادين من أهل الجاهلية الذين ليس فيهم من هو مطيع لله ورسوله بجهاده، بل كلاهما متبع هواه خارج عن طاعة مولاه، إذا أعرض المؤمن عنهم ولم يعاون واحداً منهما لا بباطنه ولا بظاهره إذا كانا في معصية الله سواء فهو محسن في ذلك، وأما إذا كان الأمر عبادة لربه وهو مستعين به فيه فكيف يكون الإعراض عن هذا الأمر طريقة عباد الله الصالحين وأولياء الله المتقين؟ وهل الإعراض عن هذا إلا من طريقة الجاهلين الظالمين الفاسقين عن أمر رب العالمين؟

وأما قول الشيخ أبي عثمان: الغيرة من عمل المريدين فأما أهل الحقائق فلا، فلم يرد ـ والله أعلم ـ بذلك الغيرة على محارم الله وهي الغيرة الشرعية، فإن

قدر الشيخ أبي عثمان أجل من أن يجعل الغيرة التي وصف الله بها نفسه وكان رسوله فيها أكمل من غيره وهي مما أوجبه الله وأحبه من عمل المريدين دون أهل الحقائق، وإنما يعني الغيرة الاصطلاحية التي يسميها هؤلاء المتأخرون غيرة، كما قدمناه مثل الغيرة المتضمنة للمنافسة والحسد، مثل أن يغار أحدهم إذا رأى أحدا سبقه إلى الحق أو نال منه نصيبا وافرا ونحو ذلك، فإن هذا كثير جدا في السالكين، فقال الشيخ: إن هذه الغيرة تعرض للمريدين حيث لم يشهدوا الحقائق وأن الله هو المعطي المانع، فأما أهل الحقائق الذين يشهدون أن الله هو المعطي المانع وأنه لا رب غيره فإنهم لا يغارون على ما وهبه الله عباده من هباته المستحبة أو المباحة، ولا يعتبون على الحوادث كما يفعله من يفعله من الناس في سبهم الدهر.

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر بيده الأمر يقلب الليل والنهار»[1] وقال: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[2].

قال سماحة الشيخ: والمعنى في هذا أن بعض الناس من قليلي العلم وقليلي البصيرة من الصوفية وغيرهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ويكرهون الغيرة ويحسدون أهلها إذا سبقوهم إلى الخير، فإذا رأوهم سبقوهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو سبقوهم إلى الصف الأول، أو سبقوهم إلى غير ذلك من أنواع الخير، غاروا وكرهوا منهم ذلك وحسدوهم على ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٦١٨١) كتاب الأدب/ باب لا تسبوا الدهر، ومسلم (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها/ باب النهي عن سب الدهر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها/ باب النهي عن سب الدهر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا غلط كبير ، بل الواجب أن يُحَبوا على هذا ، وأن يجتهد الإنسان ليتأسى بهم ، أما أن يحسدهم أو يثبطهم أو يكرههم على العمل أو ما أشبه ذلك مما يدل على حسد وكراهة أن يعمل هذا العمل هذا الشخص أكثر مما عمل هذا الشخص ؛ فهذا ليس من دين الإسلام ، بل الواجب التسابق في الخير ، مع محبة الخير لأخيه وثنائه عليه وفرحه بسبق أخيه إلى الخيرات .

فالغيرة التي شرعها الله للعباد هي الغيرة في إنكار المنكر والقضاء على أسباب الفساد ، فيغار أن تنتهك محارم الله ويسعى في إزالة ذلك والمنع من ذلك ، ولهذا حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

فأما أن يغار لأن فلاناً سبقه إلى هذه الطاعة أو إلى الصف الأول أو إلى مساعدة منكوب أو إلى نصر مظلوم أو ما أشبه ذلك ؛ فينبغي له أن يفرح بهذا الشيء ويسر بهذا الشيء ويسارع إلى مثله حتى يكون من المتسابقين في الخيرات ، فالله يقول : ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (المائدة :٤٨) ، ﴿سَابِقُوٓا۟﴾ (الحديد :٢١) .اهـ

وكذلك ما ذكره الشبلي أنه قال : الغيرة غيرتان : فغيرة البشرية على النفوس وغيرة الإلهية على القلوب ، قال الشبلي : غيرة الإلهية على الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله إذا فسر بأن البشر يغارون على الحظوظ مما هو من جنس المنافسة والمحاسدة ، وليس هذا بمحمود .

وأما الغيرة الإلهية على القلوب على ما يفوتها من محاب الحق ومراضيه فهذا كلام حسن من أحسن كلام الشبلي رحمة الله عليه ، فإن كان هذا يغار على نفسه فلا كلام ، وإن كان يغار من حال غيره ففيه شبه ما من قول النبي ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ورجل آتاه

الله مالا وسلطه على هلكته في الحق»(١) فإنه أخبر أنه لا ينبغي لأحد ألا يغبط أحداً إلا على هذا .

قال سماحة الشيخ :وهذا الحسد يسمونه حسد الغبطة ،وهو أن يتمنى أن يكون له مثل عمل أخيه ،ولا يتمنى زواله عن أخيه ،فإذا تمنى زواله عن أخيه صار الحسد المذموم وهو الظلم ،لكن يغبطه بالخير ويتمنى أن يكون مثله في ذلك ، وأن يحصل له مثل ما حصل لأخيه ،فإذا رآه ينفق ويحسن أحب أن يكون مثله ، وإذا رآه يكثر من قراءة القرآن أحب أن يكون مثله ،وإذا رآه يحكم بالحق ويأمر بالحق ويدعو إليه أحب أن يكون مثله ،هذا هو الحسد الذي أراده النبي ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين»(٢) يعني لا غبطة .أهـ

وكذلك ما ذكره أبو القاسم القشيري بعد ذلك حيث قال :والواجب أن يقال :الغيرة غيرتان :غيرة الحق على العبد وهو أن لا يجعله للخلق فيضن به عليهم ،وغيرة العبد للحق وهو أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحق ،فلا يقال :أنا أغار على الله ،ولكن يقال :أنا أغار له ،فإن الغيرة على الله جهل وربما تؤدي إلى ترك الدين ،والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له .

فهذا كلام جيد ،لكنه بالاصطلاح الحادث ليس هو بالاصطلاح القديم ، فإن النبي ﷺ قد بين أن غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه ،وهذا يشترك فيه

---

(١) رواه البخاري (٧٣) كتاب العلم/ باب الاغتباط في العلم والحكمة ،من حديث ابن مسعود ﷺ ،ورواه مسلم (٨١٥) كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها ،من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم .

(٢) متفق عليه وقد تقدم .

السابقون والمقتصدون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ثم السابقون يجعل أعمالهم كلها لله ، فإنهم الذين لا يزالون يتقربون إلى الله بالنوافل حتى يحبهم ، ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان ، فإذا صانهم عن العمل لغيره فصارت أعمالهم كلها لله تركوا المحارم وأتوا بالواجبات والمستحبات .

وقد شبه تنزيههم عن فضول المباح وعن فعل المكروهات وترك المستحبات غيرة من الحق عليهم فهذا أمر اصطلاحي ، لكن المعنى صحيح موافق الكتاب والسنة .

وأما قوله : غيرة العبد للحق أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحق فهذا غيرة على نفسه أن يكون شيء من عمله لغير الله .

وهذا أيضاً حال هؤلاء السابقين الآتين بالفرائض والنوافل المجتنبين للمحارم والمكاره ، قال الله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر : ٣٢) .

ولا ريب أنه يدخل في هذا غيرته إذا انتهكت محارم الله ، فإنه إذا لم يغر لله حينئذ مع أمر الله له بالغيرة لم يكن عمله الذي اشتغل به عن هذا الحق لله وكان للشيطان .

وكذلك قوله : لا يقال أغار على الله ولكن يقال أنا أغار لله كلام حسن جيد ، كما قال : الغيرة على الله جهل ، وهي كما قدمناه حسد وكبر يسمونه غيرة ، فيحب أحدهم أن لا يشركه غيره في التقرب إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه ، ويريدون أن يسموا ذلك باسم حسن لئلا يذموا عليه ، ويسمونه غيرة لأن من عادة البشر إذا أحب أحدهم إنساناً محبة طبيعية سواء كانت محبته محرمة

كمحبة الأمرد والمرأة الأجنبية ، أو غير محرمة كمحبة أم أنه ببشريته يغار من أن يشاركه في ذلك أحد ، فجعلوا محبتهم لله بمنزلة هذه المحبة وهذا من أعظم الجهل والظلم ، بل محبة الله من شأنها أن يحب العبد أن جميع المخلوقات يشركونه في ذلك ، كما قال النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه»[١] .

ومثل هذه الغيرة المذمومة ما ذكره طائفة من السلف قالوا : لا تقبل شهادة القراء أو قالوا الفقهاء بعضهم على بعض لأن بينهم حسداً كحسد النفوس على زريبة الغنم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : «كحسد النفوس» محتملة ، والسياق قد يقتضي «التيوس» ولا مانع أن تكون النفوس ، نفوس التيوس ، أو نفوس الناس الذين يريدون أن يأخذوا الغنم ويسرقوها ، فهي محتملة ، قد يقال إنه أشار لهذا ، وقد يقال إن المراد بهذا أن النفوس لها مقاصد ولها إرادات ، كمسألة التيوس هذا يريد العنز وهذا يريد العنز فيتقاتلان ويتناطحان عليها .اهـ

ويقال : فلان وفلان يتصاولان على الرياسة تصاول الفحلين ، فلا ريب أن فحول البهائم تتغاير وتتحاسد وتتصاول على إناثها يطلب كل منها من الآخر أن لا يزاحمه ، كما يتغاير الفحول الآدميون على مناكحهم ، وهذا فيما أمر الله به محرم ، كما قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»[٢] وكذلك شبه تغاير الضراير .

---

(١) رواه البخاري (١٣) كتاب الإيمان/ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ، من حديث أنس ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٥) كتاب الأدب/ باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ، ومسلم (٢٥٥٩) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر ، من حديث أنس ﷺ .

لكن هنا قد يعترض أمر فيه شبهة ، وهو أن يكون من المعارف والأحوال ما يقال فيه إنه لا يصلح لبعض الناس فيغار أحدهم أن تكون تلك الأمور ، كذلك المنقوص الذي يصنع مثل ذلك .

ويصفون الله بالغيرة أن يجعل هذا كهذا ، فهذا قد يكون حقا وإن لم يسم في الشرع غيرة ، فإن الله سبحانه يكره ويبغض أن يكون من العبد ما يستعين به على معصية الله دون طاعته ، وأن يكون ما جعله للمؤمنين مع الكفار والمنافقين ، وكذلك المؤمنون ينبغي أن يكرهوا ذلك ، فكل ما نهى الله عنه وأمر المؤمنين بالمنع منه وإزالته فهو يكرهه .

وهذا كقول الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (الأعراف : ١٤٦) ، قال طائفة من السلف :أمنع قلوبهم عن فهم القرآن .

هذا ما ذكره عن السري أنه قرئ بين يديه ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء) ، فقال السري لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة ولا أحد أغير من الله تعالى .

فهذا يشبه قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الأنعام : ١١٠) ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف : ٥) ، فإن الله عاقب المعرض عن اتباع ما بعث به رسله بالحجاب الذي في قلوبهم ، فسمى السري هذا حجاب الغيرة لأنه تعالى يكره ويبغض أن يكون هؤلاء الذين كفروا وفسقوا عن أمره يعطون ما يعطاه المؤمن من الفهم لسبب هذه

الغيرة التي وصف الرسول بها ربه ، فإن غيرته أن يأتي العبد ما حرم عليه ذكرها النبي ﷺ ، وهي غيرة على ما هو من أفعال العبد التي نهى عنها ، وأما هذه الغيرة فهي غيرة على ما هو من فعل الرب .

والنبي ﷺ لم يصف الله بأنه يغار على ما يقدر عليه من الأفعال ، ولكن لما رأى السري أن الشيء المحبوب النفس تغار عليه أن يكون في غير محله سمى ذلك حجاب الغيرة ، والله يحب لعباده أن يفعلوه من جهة كونهم مأمورين به ، لكنه سبحانه لا يفعله بهم ولا يحب من يفعله بهم ، فلا بد من التفريق بين مواقع الأمر والنهي ومواقع القضاء والقدر ، وإن كانت الأفعال الواقعة من العباد يشترك فيها الأمر والنهي ، وأما أحوال القلب وأنفاسه فإن الأحوال تحولات القلب والنفس والهوى الذي يحمل الصوت وأحوال القلب ، فهما ألطف ما في الإيمان .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا يدلنا أن كلام هؤلاء الصوفية أهل السلوك فيه من الباطل والخطأ الشيء الكثير ، وليس كل أحد يفطن له ولا يفهم مقاصدهم ، لأنهم يلبسون الحق بالباطل تارة بعمد وتارة بجهل بالنسبة إلى كثير منهم ، وتارة باصطلاح لهم وضعوه ، ليس كل واحد يفهمه ، فلهذا تقع بينهم الأخطاء الكثيرة ، ويغلط الناس فيما ينقلونه عنهم بسبب جهلهم باصطلاحاتهم ومراداتهم ، وهذا من أسباب إحداث هذه البدع ، والخروج عن الطريق الذي سلكه سلف الأمة ، فأحدثوا اصطلاحات وأشياء ارتضوها لأنفسهم سببت لهم مشاكل كثيرة ووقوعاً في بدع كثيرة ، حتى أفضى بهم ذلك إلى أن يقعوا في أنواع من الإلحاد والفساد بسبب الجهل وقلة البصيرة .

فلا طريق للعبد في النجاة وفي الصلاح وفي السعادة وفي السلامة أحسن من الطريق التي سلكها أصحاب النبي ﷺ وتلقوها عن نبيهم ، وتبعهم سلف الأمة ،

فأخذوا الأمر على ظاهره وعلى وجهه في الأوامر والنواهي بعبارات واضحة وأساليب بينة، حتى سلك الناس صراطاً مستقيماً واضحاً، وابتعدوا عما حرم الله عليهم وعما كرهه لهم بألفاظ واضحة وعبارات بينة لا تلتبس على من قرأ ولا من سمع، والله المستعان .أهـ

قال أبو القاسم: ربط الحق بأقدامهم الخذلان واختار لهم البعد وأخرجهم عن محل القرب ولذلك يؤخروا وفي معناه أنشدوا:

أنا صب لمن هويت ولكن

ما احتيالي لسوء رأي الموالي

وقال: وفي معناه قالوا: سقيم لا يعاد ومريد لا يراد، سمعت الأستاذ أبا علي يقول سمعت العباس المروزي يقول: كان لي بداية حسنة فكنت أعرف كم بقي بيني وبين الوصول إلى مقصودي من الظفر بمرادي، فرأيت ليلة من الليالي في المنام كأنني أتدهده من حالق جبل فأردت الوصول إلى ذروته، قال: فحزنت وأخذني النوم فرأيت قائلا يقول: يا عباس الحق لم يرد منك أن تصل إلى ما كنت طلبت ولكنه فتح على لسانك الحكمة قال: فأصبحت وقد ألهمت كلمات الحكمة.

وقال: سمعت الأستاذ أبا علي يقول: كان شيخ من الشيوخ له حال ووقت مع الله، فخفي مدة لم ير بين الفقراء ثم ظهر بعد ذلك لا على ما كان عليه من الوقت فسئل عنه فقال: واه وقع الحجاب.

قال: وكان الأستاذ أبو علي إذا وقع شيء في خلال المجلس يشوش قلوب الحاضرين يقول: هذا من غيرة الحق يريد أن لا يجرس ما يجري من صفاء هذا الوقت، وأنشدوا في معناه:

همت بإتيـــانـنا حـــتى إذا نظرت
إلى المرآة نهاها وجـهـهـا الحسن

مـا كـان هذا جـزائي من محـاسنهـا
عـذبت بالهـجر حـتى شـفني الحـزن

قلت : ذكر هذه الأمور في باب الغيرة مضر : ومع أن الحق يغار أن يعطي بعض الناس ما يعطيه لأوليائه المتقين من السابقين والمقربين فقد سموا منع الحق غيرة كما تقدم ، لكن هذا اللفظ يشعر بأن الحق منع ذلك العبد العطاء العظيم عنده ، وكون العبد ليس أهلا له كما يغار على الكريمة أن تتزوج بغير الكفء .

وهذا المعنى صحيح كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام : ١٢٤) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأنعام) .

وهذا المعنى إذا ذكر العبد وظلمه وإقامة الحجة عليه أو بيان حكمة الرب وعدله كان حسنا ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (الشورى : ٣٠) ، وهو لا يمنع من ذلك ما يستحقه العبد أصلاً ، ولا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح ، فأما مع وجود

السبب وهو العمل الصالح فإنه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (طه) .

وهو سبحانه المعطي المانع لامانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، لكن مَنَّ على الإنسان بالإيمان والعمل الصالح ثم لم يمنعه موجب ذلك أصلاً ، بل يعطيه من الثواب والقرب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وحيث منعه ذلك فلا يبقى سببه وهو العمل الصالح .

ولا ريب أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء لكن ذلك كله حكمة منه وعدل ، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله ، وأما المسببات بعد وجود أسبابها فلا يمنعها بحال إلا إذا لم تكن أسباباً صالحة إما لفساد في العمل وإما السبب يعارض موجبه ومقتضاه فيكون لعدم المقتضي أو لوجود المانع ، وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح ابتداء حكمة منه وعدلا فله الحمد في الحالين وهو المحمود على كل حال ، كل عطاء منه فضل وكل عقوبة منه عدل .

وهذا الموضع يغلط فيه كثير من الناس في تمثلهم بالأشعار وفي مواجيدهم ، فإنهم يتمثلون بما يكون بين المحب والمحبوب والسيد والعبد من العباد من صدق المحب والعبد في حبه واستفراغه وسعه ، ويحب المحبوب والسيد وإعراضه وصده كالبيت الذي أنشده حيث قال :

أنا صب بمن هويت ولكن
ما احتيالي لسوء رأي الموالي

وفي معناه قالوا : سقيم لا يعاد ومريد لا يراد .

وهذا التمثيل يشعر بأن العبد صادق الإرادة تام السعي وإنما الإعراض من المولى، وهذا غلط بل كفر، فإن الله يقول: «من تقرب إلي شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[١] وقد أخبر أنه من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأنه يضاعفها سبعمائة ضعف ويضاعفها أضعافا كثيرة، وأخبر أنه «من هم بحسنة كتبت له حسنة كاملة فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة لم تكتب عليه فإن تركها لله كتبت له حسنة كاملة وإن عملها لم تكتب عليه إلا سيئة واحدة»[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد ١٧)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (طه)، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ (الشورى: ٢٠) إلى أمثال ذلك.

فكيف يظن أو يقال: إن العبد يتقرب إليه كما يتقرب العبد والمحب الصادق إلى محبوبه وسيده وهو مع ذلك لا يقربه إليه ولا يتقرب منه، بل يصده ويمنعه كما يفعل ذلك المخلوق إما لبخله وإما لتضرره وإما لغير ذلك.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا سوء ظن بالله وقياس له سبحانه على

---

(١) رواه البخاري (٧٥٣٦) كتاب التوحيد/ باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الحث على ذكر الله تعالى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١) كتاب الرقاق/ باب من همّ بحسنة أو سيئة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه مسلم (١٢٨) (١٣١) كتاب الإيمان/ باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تكتب، من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم.

المخلوقين، فالمخلوقون فيهم الظلم وفيهم الجهل، وقد يفيدهم الإنسان وقد يحبهم وقد يقصدهم فيصدونه، لكن المولى العظيم جل وعلا من أرده صادقاً قبله وزاده من فضله وأعانه على الخير سبحانه، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝﴾ (محمد) وأخبر -كما تقدم- أن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ (الليل)

فمن أقبل عليه جل وعلا واتقاه وسارع إلى مراضيه عن إخلاص وعن صدق وتباعد عن الموانع فالله يقبله ويزيده من فضله جل وعلا ولا يرده سبحانه وتعالى. أهـ

وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال: «لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يرى راحلته إذا وجدها عليها طعامه وشرابه»(1) لن يكون(2) بتوبة التائب أعظم فرحا من الواجد لطعامه وشرابه ومركبه بعد الخوف المفضي الى الهلاك، كيف يتمثل له بالتجني والصد والإعراض وسوء رأي الموالي ويحق الله مما يفعله السادة بعبيدهم والمحبوب مع محبه؟ وكيف يتمثل له بقولهم: سقيم لا يعاد ومريد لا يراد؟ وهل في الصادقين مع الله سقيم لا يعاد؟ وهل أراد اللهَ أحد بصدق فلم يُرِدْه الله؟

---

(1) رواه البخاري (٦٣٠٨) كتاب الدعوات/ باب التوبة عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢٧٤٧) كتاب التوبة/ باب الحض على التوبة والفرح بها، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) قال سماحة الشيخ: لعلها: «فمن» أهـ

وقد ثبت في صحيح مسلم أن الله يقول : «عبدي مرضت فلم تعدني قال: رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: إن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما إنك لو عدته لوجدتني عنده»(١).

والله تعالى قد أخبر أنه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ (الشورى : ٢٠) ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإسراء) .

وفي الجملة فهذا الباب تكذيب بما وعده الله عباده الصالحين ، ونسبة الله إلى ما نزه نفسه عنه من ظلم العباد بإضاعة أعمالهم الصالحة بغير ذنب لهم ولا عدوان ، وتمثيل لله بالسيد البخيل الظالم ونحوه ، وإقامة لعذر النفس ونسبة لها إلى إقامة الواجب ، ففيه من الكبر والدعوى ما فيه .

والحق الذي لا ريب فيه أن ذلك جميعه لا يكون إلا لتفريط العبد وعدوانه بأن لا يكون العمل الذي عمله صالحا أو يكون له من السيئات ما يؤخر العبد ، وإنما العبد ظالم جاهل يعتقد أنه قد أتى بما يستوجب كمال التقريب ، ولعل الذي أتى به إنما يستوجب به اللعنة والغضب ، بمنزلة من معه نقد مغشوش جاء ليشتري متاعا رفيعا فلم يبيعوه فظن أنهم ظلموه وهو الظالم ، وهو في ذلك شبيه بأحد ابني آدم : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة : ٢٧) .

(١) الحديث رقم (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل عيادة المريض ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا واقع ، قد يظن الإنسان أنه مهضوم وأنه مظلوم وهو الظالم ، لأنه ما فكر في عمله وتقصيره وذنوبه الكثيرة ، وهو يظهر الشماتة ويظهر الحزن ويظهر كذا وأنه مظلوم وأنه وأنه ، ولا يفكر في عمله ، الضعيف أو الباطل أو المغشوش ، فيحسب أنه على شيء وهو ليس على شيء .

فالواجب أن يحاسب نفسه وأن ينظر فيما قدم وأن لا يتهم ربه ، فإن ربه جل وعلا هو الجواد الكريم سبحانه ، فلابد أن يحاسب نفسه حتى ينقي عمله حتى يكون عمله خالصاً وحتى يكون موافقاً للشريعة ، وحتى يكون بعيداً صاحبه عن الكبر والعجب والخيلاء ، فبعض الناس قد يعمل عملاً صالحاً ، وقد يخلصه لله ولكن يبتلى بالعجب والكبر والمنة على الله وأنه فعل وفعل ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الحجرات) .

فعلى العبد أن يعمل ويجتهد ومع هذا يُزري على نفسه ويتهمها بالتقصير وأن حق فوق ذلك سبحانه وتعالى .اهـ .

وعلى هذا الأصل تخرج حكاية عباس وأمثالها فإنه لم يعين مطلوبه ومراده ، وما العمل الذي عمله فقد طلب أمراً ولم يأت بعمله الذي يصلح له ، وأما كون الحق لم يرد منه أن يصل إلى مطلوبه فقد يكون لعدم استئهاله وقد يكون لتضرره لو حصل له ، وكم ممن يتشوق إلى الدرجات العالية التي لا يقدر أن يقوم بحقوقها فيكون وصوله إليها وبالاً في حقه .

وهذا في أمر الدنيا كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن

فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ (التوبة : ٧٧ ٧٥) .

وغالب من يتعرض للمحن والابتلاء ليرتفع بها ينخفض بها لعدم ثباته في المحن ، بخلاف من ابتلاه الحق ابتداء كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ﴾ (آل عمران) وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (الصف : ٣) .

وقال النبي ﷺ : «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»[١] وقال : «إذا سمعتم بالطاعون ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منها»[٢] .

قال أبو القاسم : واعلموا أن من سنة الحق مع أوليائه أنهم إذا ساكنوا غيرا أو لاحظوا شيئا أو ضاجعوا بقلبوهم شيئا شوش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه فارغة عما ساكنوه .

وقال : سمعت السلمي يقول سمعت أبا زيد المروزي الفقيه يقول سمعت

---

(١) رواه البخاري (٦٦٢٢) كتاب الأيمان والنذور/ باب قول الله تعالى : «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» ومسلم (١٦٥٢) كتاب الإمارة/ باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها ، من حديث سمرة بن جندب ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٥٧٢٨) كتاب الطب/ ما يذكر في الطاعون ، ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام/ باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها ، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما .

إبراهيم بن سنان سمعت محمد بن حسان يقول : بينما أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج علينا رجل شاب قد أحرقته السموم والرياح فلما نظر إلي ولى هاربا فتبعته وقلت له : تعظني بكلمة فقال : احذروه فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه .

وقال : سمعت السلمي يقول سمعت النصراباذي يقول : الحق غيور ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقا سواه .

قلت : هذه الغيرة تدخل في الغيرة التي وصفها النبي ﷺ إذ قال : «غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه»،(١) وأعظم الذنوب أن تجعل لله ندا وهو خلقك وتجعل معه إلهاً آخر ، والشرك منه جليل ومنه دقيق .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الشرك أنواع ، فالشرك الأكبر معروف ، عبادة الأوثان والتعلق بالأصنام ودعاء الأموات والاستغاثة بالأموات فهذا كله شرك أكبر ظاهر .

ومن الدقيق ما يكون في القلوب من الرياء وطلب محامد الناس وثنائهم ، وقد يتعبد أو يصلي أو يصوم أو يقرأ عند الناس سراً في قلبه ليثنوا عليه ويمدحوه ، فقد يقرأ لذلك ، وقد يذهب إلى محلات يثنى على الذهاب إليها كحلقات العلم والمساجد البعيدة ليصلي فيها ، لا لقصد وجه الله بل للرياء .

فالشرك يكون في أشياء دقيقة تكون في القلوب ، ما يعلمها إلا علام الغيوب سبحانه من أنواع الرياء ، ولهذا قال في الحديث الآخر حديث أبي سعيد : «ألا

(١) رواه البخاري (٥٢٢٣) كتاب النكاح/ باب الغيرة ، ومسلم (٢٧٦١) كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش .

أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال»؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : «الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه»[(١)] وفي اللفظ الآخر : «من سمّع سمّع الله به ومن راءى راءى الله به»[(٢)] . فالحاصل أن الشرك فيه الخفي وفيه الجلي ، فيه الدقيق وفيه الكبير ، فالدقيق ما يكون في القلوب ، ويكون في بعض الألفاظ التي لا يفطن لها الناس ، والشرك الظاهر ما يكون يراه الناس ويسمعونه ، كدعاء الأموات والاستغاثة بالأموات وسب الإسلام والطعن في الإسلام وسب الأنبياء ، أشياء واضحة ، نسأل الله العافية .

ومما يكون من الشرك الخفي مثل ما قد يشتبه على الناس مثل ما شاء الله وشاء فلان ، لولا الله وأنت ، بالنبي ، بالأمانة ، قد يخفى على بعض الناس هذا ، فلا ينتبه أنه شرك ، ولهذا يقع في كلام الناس كثير الحلف بغير الله ، وما شاء الله وشاء فلان ، ولولا الله وأنت ، لجهلهم ولقلة علمهم .اهـ

فالمقتصدون قاموا بواجب التوحيد ، والسابقون المقربون قاموا بمستحبه مع واجبه ، ولا شيء أحب إلى الله من التوحيد ولا شيء أبغض إليه من الشرك ، ولهذا كان الشرك غير مغفور بل هو أعظم الظلم .

وقد قال النبي ﷺ : «مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تارة

(١) رواه أحمد (١١٥٥٦) وابن ماجه (٤٢٠٤) كتاب الزهد/ باب الرياء والسمعة ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، والحديث قال عنه الألباني : «حسن» كما في صحيح ابن ماجه .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩) كتاب الرقاق/ باب الرياء والسمعة ، من حديث جندب بن عبد الله البجلي ﷺ ، ومسلم (٢٩٨٦) كتاب الزهد والرقائق/ باب من أشرك في عمله غير الله ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

تميلها وتعدلها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابته على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة»[١].

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني كالخامة من الزرع تفيئها الريح هكذا وهكذا وهكذا ، فالمؤمن يبتلى بأنواع المصائب ، أما الكافر والمنافق مثل شجرة الأرز ، شجرة معروفة لا تزال قائمة حتى تنجعف مرة واحدة ، وهكذا الغالب على الكفرة والمنافقين السلامة والصحة والعافية حتى يهجم عليهم الأجل ، نسأل الله السلامة .أهـ

فالله تعالى يبتلي عبده المؤمن ليطهره من الذنوب والمعايب ، ومن رحمته بعبده المخلص أن يصرف عنه ما يغار عليه منه كما قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف) ، وكما قال : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (النحل) ، فإذا صرف عنه ما يغار عليه منه كان ذلك من رحمته به واصطفائه إياه ، وإن كان في ذلك مشقة عليه فهو تارة يمنعه مما يكرهه له وتارة ليطهره منه بالابتلاء ، فإذا كان يغار من ذلك فإذا فعل العبد ما يغار عليه فقد يعاقبه على ذلك بقدر ذنبه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أنه سبحانه قد يحمي عبده فضلاً منه وإحساناً عن الذنوب فلا يقع في المهالك والمعاصي والشرور فضلاً من

(١) رواه البخاري (٥٦٤٣) كتاب المرضى/ باب ما جاء في كفارة المرض وقول الله تعالى : «من يعمل سوءا يجز به» ومسلم (٢٨١٠) كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجرة الأرز ، من حديث كعب بن مالك ﷺ .

الله وإحساناً ، وغيرة من الله على عبده أن يقع في محارمه ، وقد يبتلى بالزلة والهفوة ، فيبتلى بشيء من الأمراض والمصائب ليطهره من هذه المعائب ، وليرجع إلى ربه بالتوبة والإنابة وينتبه ، فتارة يبتلى بالعافية والصحة والسلامة والاستقامة والشكر لله والقيام بحقه ، فهذه نعمة السراء .

وتارة يبتلى بنعمة الضراء ليبتعد عما حرمه الله عليه وليحاسب نفسه وينظر في عيوبه لعله يتطهر مما قد وقع منه من الزلات والأخطاء . أهـ

كما قال أبو القاسم : وحكي عن السري أنه قال : كنت أطلب رجلا صديقا مرة من الأوقات ، فمررت في بعض الجبال فإذا أنا بجماعة زمنى ومرضى وعميان فسألت عن حالهم فقالوا : ها هنا رجل يخرج في السنة مرة فيدعو لهم فيجدون الشفاء ، فصبرت حتى خرج ودعا لهم فوجدوا الشفاء ، فقفوت أثره وتعلقت به وقلت له : بي علة باطنة فما دواؤها؟ فقال : يا سري خل عني فإنه غيور لايراك تساكن غيره فتسقط من عينه .

وهذا من قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (الاسراء) ، وقوله : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ (الشعراء) ، وقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الحج) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الزمر) ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى

بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الأنعام)، وقوله : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (يوسف).

وأما مقام الرجل وأمثاله في ذلك الزمان بجبل لبنان، فإن جبل لبنان ونحوه كان ثغراً للمسلمين لكونه بساحل البحر مجاوراً للنصارى بمنزلة عسقلان والاسكندرية وغيرهما من الثغور، وكان صالحوا المسلمين يقيمون بالثغور للرباط في سبيل الله، وما ورد من الآثار في فضل هذه البقاع فلفضل الرباط في سبيل الله، وأما بعد غلبة النصارى عليها والقرامطة والروافض فلم يبق فيها فضل، وليس به في تلك الأوقات أحد من الصالحين، ولا يشرع في ديننا سكنى البوادي والجبال إلا عند الفرار من الفتن، إذ كان المقيم بالمصر يلجأ إليها عند الفتنة في دينه فيهاجر إلى حيث لا يفتن، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، وقد بسطنا هذا في غير الموضع.

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أن المشروع بقاء المسلم مع إخوانه في القرى والأمصار بالتعاون على البر والتقوى والتناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم وتَعَلُّم العلم والتفقه في الدين، ولا يشرع الخروج إلى البوادي ويدع ساحة المسلمين للتعاون معهم إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، كما في الحديث الصحيح أنه يكون في آخر الزمان «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[(١)] فإذا دعت الحاجة إلى ذلك بأن الأمصار خربت والقرى انتشر فيها الشر وكثر الفساد وخاف

(١) رواه البخاري (١٩) كتاب الإيمان/ باب من الدين الفرار من الفتن، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا من الجهل .أهـ

قال : وفي المعنى أنشدوا :

إني لأحسد ناظري عليكا
حتى أغض إذا نظرت إليكا
وأراك تخطر في شمائلك التي
هي فتنتي فأغار منك عليكا

وكما ذكر في باب المحبة فقال : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت الشبلي يقول : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك .

وهذا أيضاً وجه فاسد جداً وهو جهل بالله وبما يستحقه ، وتشبيه له بالمحبوب من البشر ، وظن من هذا القائل أنه إذا رأى الله حصل بذلك نقص في حق الله أو ضرر عليه ، فإن الإنسان إنما يغار على محبوبه مما فيه عليه ضرر أو على المحب فيه ضرر ، فيغار من الشركة لما فيه من الضرر ، وقد يغار عليه من نفسه لاستشعاره به أن ذلك نقص ، وذلك كله محال في حق الله .

ومن قال هذا قد يقول : أغار عليه من أن أحبه ومثلي لا يصلح أن يعبده وإنما أعبد من يعبده ، ونحو ذلك مما زينه الشيطان للمشركين وأهل الضلال ، وذلك أنهم قد يدخلون في غيرة الله متعه لمواهبه وعطاياه من الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتقربوا إليه بأصناف القربات كما قد يمنع السيد والمحبوب عبيده ومحبيه ما يستحقونه ، وهذا أيضاً جهل بالله ، وتكذيب بوعده ، وتجويرله ، وتزكية لنفوسهم ، وهو باطل .

قال سماحة الشيخ : والمعنى في هذا أن الغيرة تكون من ترك المحارم ، فيغار أن تنتهك محارم الله ، كما جاءت به النصوص .

والمعنى الثاني : يغار أن يُعبد الله بغير ما أمر ، بالبدع والشرور ، وهذا نقص ، ولا يجوز للمؤمن أن يتعبد بغير ما شرع الله له .

فالمؤمن يغار أن تنتهك محارم الله ، ويغار أن يعبد الله بغير ما شرع ، ويدعو الناس إلى أن يعبدوا الله بما شرعه الله ، وأن يحذروا ما حرمه الله ، أما أن يغار - بزعمه - أن لا يعبد معه الله ، بل هو الذي ينفرد بالعبادة لله وحده ، وهو الذي يطيع وحده ، وهو الذي يحبه وحده ، وهو الذي يصلي وحده ؛ فهذا من أفسد الفاسد ومن أقبح القبيح ، وهو حسد وبغي .

كذلك كونه يغار أن يرى ربه أو أن يحبه فهذا أيضاً من الجهل وانتكاس الأمور ، بل من سعادة ومن توفيق الله له أن يحب ربه وأن يجتهد في حبه وأن يفرح برؤيته والأنس به وبمناجاته وطاعة أمره ، هكذا يكون المؤمن وهكذا تكون سعادة المؤمن .اهـ

وفي الجملة فالغيرة المحمودة إما ترك ما نهى الله عنه أو ترك ما لم يأمر الله به ولا أوجبه ، ومن لم يكن فيه أحد الحالين فهو ممن فسق عن أمر ربه ، والثانية حال الكمّل الصادقين .

فأما الغيرة على ما لم يحرمه أو على ما أباحه الله لعباده أن يفعلوه وهو لا يكرهه ولا يسخطه فهو مذموم كله كما تقدم .

فهذه الغيرة الاصطلاحية ، من مدحها مطلقا فقد أخطأ ، ومن ذمها مطلقا فقد أخطأ ، والصواب أن يحمد منها ما حمده الله ورسوله ويذم منها ما ذمه الله

ورسوله ، وهذا يقع كثيرا للسالكين في هذا الخلق وغيره ، فإنه يلبس الحق بالباطل ، ولهذا السبب ينكر كثير من الناس مثل هذا الطريق لما فيه من لبس الحق بالباطل ، والآخرون يعظمونه لما فيه من الحق والصواب الفرقان : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور : ٤٠) .

قال سماحة الشيخ : والصواب الفرقان مبتدأ وخبر ، والصواب الفرقان بين هذا وهذا ، تمييز بين هذا وهذا .أهـ

فصل

فيما ذكره الأستاذ أبو القاسم القشيري في باب الرضا عن الشيخ أبي سليمان الداراني رحمه الله أنه قال : الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار .

فإن الناس تنازعوا في هذا الكلام فمنهم من أنكره ومنهم من قبله ، والكلام على هذا الكلام من وجهين :

أحدهما : من جهة ثبوته عن الشيخ أبي سليمان .

والثاني : من جهة صحته في نفسه وفساده .

أما المقام الأول : فينبغي أن يعلم أن الأستاذ أبا القاسم القشيري لم يذكره عن الشيخ أبي سليمان بإسناد وإنما ذكره مرسلا عنه في رسالته عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ، والمشايخ وغيرهم تارة يذكره بإسناد وتارة يذكره مرسلا ، وكثيرا ما يقول في الرسالة : وقيل عنه كذا ، ثم الذي يذكره الأستاذ أبو القاسم بالإسناد تارة يكون إسناده صحيحا وتارة يكون ضعيفا بل موضوعا ، وما يذكره مرسلا ومحذوفا لقائل أولى ، وهذا كما يوجد ذلك في مصنفات الفقهاء ، فإن

فيها من الأحاديث والآثار ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف ومنها ما هو موضوع ، فالموجود في كتب الرقائق والتصوف من الآثار المنقولة فيها الصحيح وفيها الضعيف وفيها الموضوع .

وهذا أمر متفق عليه بين جميع المسلمين لا يتنازعون في أن هذه الكتب فيها هذا وفيها هذا ، بل نفس الكتب المصنفة في الحديث والآثار فيها هذا وهذا ، وكذلك الكتب المصنفة في التفسير فيها هذه وهذا ، مع أن أهل الحديث أقرب إلى معرفة المنقولات ، وفي كتبهم هذا وهذا فكيف غيرهم؟

والمصنفون قد يكونون أئمة في الفقه أو التصوف أو الحديث ويروون هذا تارة لأنهم لم يعلموا أنه كذب وهو الغالب على أهل الدين ، فإنهم لا يحتجون بما يعلمون أنه كذب ، وتارة يذكرونه وإن علموا أنه كذب ، إذ قصدهم رواية ما روى في ذلك الباب .

ورواية الأحاديث المكذوبة مع بيان أنها كذب جائز وأما روايتها مع الإمساك عن ذلك رواية عمل فإنه حرام عند العلماء لما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»(١) .

وقد فعل ذلك كثير من العلماء متأولين أنهم لم يكذبوا وإنما نقلوا ما رواه غيرهم ، وهذا يسهل إذ رووه ليعرف أنه روي لا لأجل العمل به والاعتماد عليه .

والمقصود هنا أن ما يوجد في الرسالة وأمثالها من كتب الفقه والتصوف والحديث من المنقولات عن النبي ﷺ وغيره من السلف فيه الصحيح وفيه الضعيف وفيه الموضوع ، فالصحيح الذي قامت الدلالة على صدقه ، والموضوع

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (١) باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين ، من حديث سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما .

الذي قامت الدلالة على كذبه عليها ولا يحتج بها ، فإن الضعف ظاهر عليها وإن كان هو لا يتعمد ، وإما لاتهامه ولكن يمكن أن يكون صادقا فيه ، فإن الفاسق قد يصدق والغالط قد يحفظ .

وغالب أبواب الرسالة فيه الأقسام الثلاثة ، ومن ذلك باب الرضا ، فإنه ذكر فيه عن النبي ﷺ حديثا صحيحا في أثناء الباب وهو حديث العباس بن عبدالمطلب عن النبي ﷺ أنه قال : «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا»(١) .

وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه ، وإن كان الأستاذ لم يذكر أن مسلما رواه ، لكن رواه بإسناد صحيح ، وذكر في أول هذا الباب حديثا ضعيفا بل موضوعا وهو حديث جابر الطويل الذي رواه من حديث الفضل ابن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر ، فهو وإن كان أول حديث ذكره في الباب ، فإن حديث الفضل بن عيسى من أوهى الأحاديث وأسقطها ، ولا نزاع بين الأئمة أنه لا يعتمد عليها ولا يحتج بها ، فإن الضعف ظاهر عليها وإن كان هو لا يعتمد الكذب ، فإن كثيرا من الزهاد والفقهاء لا يحتج بحديثهم لسوء الحفظ لا لاعتماد الكذب ، وهذا الرقاشي اتفقوا على ضعفه كما يعرف ذلك أئمة هذا الشأن ، حتى قال أيوب السختياني : لو ولد فضل أخرس لكان خيرا له ، وقال سفيان بن عيينة : لاشيء ، وقال الإمام أحمد والنسائي هو ضعيف ، وقال يحيى بن معين : رجل سوء ، وقال أبو حاتم وأبو زرعة : منكر الحديث .

---

(١) رواه مسلم (٣٤) كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر ، من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه .

وكذلك ما ذكره من الآثار فإنه قد ذكر آثاراً حسنة بأسانيد حسنة، مثل ما رواه عن الشيخ أبي سليمان الداراني أنه قال: إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض، فإن هذا رواه عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي بإسناده، والشيخ أبو عبد الرحمن كانت له عناية بجمع كلام هؤلاء المشايخ وحكاياتهم، وصنف في الأسماء كتاب الطبقات طبقات الصوفية وكتاب زهاد السلف وغير ذلك، وصنف في الأبواب كتاب مقامات الأولياء وغير ذلك، ومصنفاته تشتمل على الأقسام الثلاثة.

وذكر عن الشيخ أبي عبد الرحمن أنه قال: سمعت النصراباذي يقول: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه.

فإن هذا الكلام في غاية الحسن، فإنه من لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه - لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها - يرضى الله عنه، كما أنه من لزم محبوبات الله أحبه الله، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته...» الحديث[1].

وذلك أن الرضا نوعان: أحدهما: الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ويتناول ما أباحه الله من غير تعد إلى المحظور كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ (التوبة)، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ

(١) رقم (٦٥٠٢) كتاب الرقاق/ باب التواضع، من حديث أبي هريرة ﷺ.

مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ (التوبة)، فهذا الرضا واجب.

وكذلك ذم من تركه بقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (التوبة)

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل، فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء وليس بواجب، وقد قيل إنه واجب.

والصحيح أن الواجب هو الصبر كما قال الحسن البصري رحمه الله: الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن.

وقد روى في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال له: «**إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**»[(١)].

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك فإن الله لا يرضاه كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (الزمر: ٧)، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ (البقرة)، وقال تعالى:

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٦٤٤) وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣١٤ والحاكم في مستدركه (٦٣٦٤) لكن بلفظ «بالصبر مع اليقين» قال الشيخ الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (٥١٠٧) «ضعيف أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في «رسالة التوبة» ص: ٢٥٠ -جامع الرسائل مشيرا الضعفه بتصديره إياه بقوله: «روي...» إلى أن قال الشيخ: وجملة القول أن حديث الترجمة من حديث ابن عباس ضعيف كما أشار إليه ابن تيمية رحمة الله عليه لأن طرقه كلها ضعيفة وبعضها أشد ضعفا من بعض» انتهى.

﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة) ، وقال تعالى : ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء) ، وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد) وقال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة ٦٨) ، وقال : ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (المائدة) ، وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (الزخرف : ٥٥) .

فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه ذلك وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم ، فكيف يسوغ للمؤمن أن يرضى ذلك وأن لا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه؟!

وإنما ضل هنا فريقان من الناس : قوم من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة في مناظرة القدرية ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته ، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافاً للقدرية ، وقالوا هو أيضاً محب لها مريد لها ، ثم أخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه فقالوا : لا يحب الفساد بمعنى لا يريد الفساد ، أي لا يريده للمؤمنين ، ولا يرضى لعباده الكفر بمعنى لا يريده أي لا يريده للمؤمنين .

وهذا غلط عظيم ، فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال : لا يحب الإيمان ولا يرضى لعباده الإيمان بمعنى لا يريده للكافرين ولا يرضاه للكافرين .

وقد اتفق أهل الإسلام على أن ما أمر الله به فإنه يكون مستحبا يحبه ، ثم قد يكون مع ذلك واجبا وقد يكون مستحبا ليس بواجب سواء فُعل أو لم يفعل ، والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والفريق الثاني : من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها وعلموا أنه قدّر كل شيء وشاءه ، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره الله ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى قال بعضهم :المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب .

قالوا : والكون كله مراد المحبوب .

وضل هؤلاء ضلالا عظيما حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية والإذن الديني والكوني والأمر الديني والكوني والبعث الكوني والديني والإرسال الكوني والديني كما بسطناه في غير هذا الموضع .

وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن لا يفرقوا بين المحظور والمأمور وأولياء الله وأعداء الله والأنبياء والمتقين ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ويجعلون المتقين كالفجار ويجعلون المسلمين كالمجرمين ويعطلون الأمر والنهي والوعد والوعيد والشرائع ، وربما سموا هذا حقيقة ، ولعمري إنه حقيقة كونية ، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عبّاد الأصنام كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (لقمان : ٢٥) ، وقال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ (المؤمنون) .

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان غايته أن يكون كعبّاد الأصنام .

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله وبتصديقهم فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا واتباع ما يرضاه الله ويحبه دون ما يقضيه ويقدره من الكفر والفسوق والعصيان ، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب لا بما فعله من المعايب ، فهو من الذنوب يستغفر وعلى المصائب بصبر ، كما قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ (غافر : ٥٥) ، فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (آل عمران : ١٢٠) ، وقال : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران) ، وقال يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف : ٩٠) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا مبحث عظيم جدير بالعناية ، فإن كثيراً من الصوفية التبس عليهم الأمر ، وهكذا أصحاب البدع التبس عليهم الأمر في الإرادة الشرعية والإرادة الكونية والأمر الشرعي والأمر الكوني والبعث الشرعي والبعث الكوني والإرسال الشرعي والكوني إلى غير ذلك ، والواجب على أهل الإيمان أن يحبوا ما أحبه الله ورسوله وأن يرضوا بما رضيه الله ورسوله من الإيمان والتقوى والعمل الصالح ، وأن يكرهوا ما كرهه الله ويسخطوا ما سخطه الله من الكفر والمعاصي ، ولو كانت وقعت بقدره وإذنه تعالى الكوني ، فكونه قدرها لحكمة وأذن فيها لحكمة وأرادها لحكمة لا يقتضي حبها والرضا بها ،

فالمؤمن يعلم أن ما كان فهو بقضاء الله وقدره ، فهو الخلاق لكل شيء سبحانه ، لكن مثل ما قال جل وعلا : ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ (الزمر :٧) ، فهو سبحانه لا يحب الفساد ، فالمؤمن يكره الكفر والفساد والمعاصي ولا يرضاها ويبتعد عنها ويحذرها وإن كانت بقدر ، كما أنه يحب الطاعات وأعمال الخير من الإيمان والتقوى وسائر الأعمال الصالحات فيحبها ويرضاها ويسارع إليها وهي مع ذلك بقدر ، وكل شيء بقدر ، لكن عليه أن يفرق كما فرقت الرسل ، فعليه أن يفرق بين ما فرّق الله بينه ، فيحب التوحيد والإيمان والتقوى والعمل الصالح ويرضى بذلك ويسارع إلى ذلك ، ويعلم أن ما وقع من الناس فهو بقضاء الله وقدره ، وهو مع ذلك يحب هذا ، قدّر للمؤمن الطاعات وسبق علمه بذلك وأحب منه ذلك ورضي منه ذلك ، وسبق في علمه ما قدّر من الكفر والمعاصي وكره ذلك ، لكنه قدّره لحكمة ، فعلى المؤمن أن يحب ما أحبه الله ورسوله ، وأن يرضى بما يرضاه الله ورسوله ، وأن يكره ما كرهه الله ورسوله ، وأن يسخط ما سخطه الله ورسوله من الكفر والمعاصي ، هكذا يجب على أهل الإيمان .

أما الصوفية فقد وقع كثير منهم في الالتباس ، فظن أنه لا مانع من الرضا بالكفر والمعاصي لأنها وقعت بقدر .

وهذا جهل كبير وضلال بعيد نسأل الله العافية ، فهي وإن كانت بقدر لحكمة بالغة ، قدّر الله لهذا أن يكفر أو هذا أن يعصي لحكمة بالغة ، وله الحجة الدامغة سبحانه وتعالى والحكمة البالغة ، لكنه أمرنا أن نحب أحبابه ونكره أعداءه ، وأن نرضى ما يرضى ، ونكره ما يكره ، ونحب ما يحب ، ونسخط ما

يسخط ، فعلينا أن نتبع ما جاءت به الأوامر ، وأما القدر فأمره إلى الله ، وله فيه الحكمة البالغة سبحانه وتعالى .

ولكن المؤمن مأمور بتوحيد الله والإخلاص له والرضا بتوحيده ، منهي عن الكفر بالله والشرك به وعن المعاصي ، مأمور بكراهة ذلك وبغض ذلك ، وهكذا المؤمنون يحبون في الله ويبغضون في الله ويطيعون الله ورسوله ، ويرضون ما رضيه الله ورسوله ﷺ ، ويكرهون ما كرهه الله ورسوله ، فرحم الله المؤلف ، وجزاه الله خيراً .أهـ

والقصد هنا أن ما ذكره القشيري عن النصراباذي من أحسن الكلام حيث قال : من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه .

وكذلك قول الشيخ أبي سليمان : إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض ، وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها فإذا لم يحصل سخط ، فإذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق .

وكذلك ما ذكره عن الفضيل بن عياض أنه قال لبشر الحافي : الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته ، كلام حسن ، لكن أشك في سماع بشر الحافي من الفضيل .

وكذلك ما ذكره معلقا قال : وقيل قال الشبلي بين يدي الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الجنيد : قولك ذا ضيق صدر ، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء . فإن هذا من أحسن الكلام

وكان الجنيد رحمه الله سيد الطائفة ومن أحسنهم تعليما وتأديبا وتقويما ، وذلك أن هذه الكلمة هي كلمة استعانة لا كلمة استرجاع ، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ويقولها جزعا لا صبرا .

فالجنيد أنكر على الشبلي حاله في سبب قوله لها إذ كانت حالا ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: كلام الجنيد في هذا ظاهر في قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، يعني الأصل في هذا أن هذه الكلمة مثل ما قال النبي ﷺ: «كنز من كنوز الجنة» كما في الصحيحين «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»(١) فالقرار إليها عند المصائب أو عند الأخطار أو عند الخوف ظاهر في النصوص «لا حول ولا قوة إلا بالله» وشرعها الله عند الحيعلة في الأذان، فهي كلمة عظيمة يشرع للمؤمن أن يأتي بها دائما، ومعناها التجرد من حوله والتجرد من قوته في الدفع عن نفسه أو في القيام بما يجب عليه، فهو لا يستطيع إلا بالله، لا من جهة الدفع ولا من جهة الفعل، وهي كنز من كنوز الجنة، وهي من الباقيات الصالحات، فكيف يعترض الجنيد على الشبلي؟ وكيف يستحسن أبو العباس رأي الجنيد ويمدحه ويصفه أنه سيد الجماعة وأن هذا من المحاسن؟

وقوله: «وذلك أن هذه الكلمة هي كلمة استعانة لا كلمة استرجاع» فإنه لم يبين ما هي الأسباب، ولم يوضح ما هي الأسباب التي من أجلها قالها الشبلي، وإذا كان من جهة أنه مات ولده فقال لا حول ولا قوة إلا بالله، يخشى أن يموت الآخر، ومعناه لا أدفع عن نفسي إذا مات الولد، فلا حول ولا قوة إلا بالله، يعني من جهة نفسي، حتى أنا قد أموت، فلا حول ولا قوة إلا بالله عند المصيبة، أو قالها عند الخوف من وقوع شيء.

وقوله: «وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ويقولها جزعا

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٢) كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر، ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

لا صبرا ، فالجنيد أنكر على الشبلي حاله في سبب قوله لها إذ كانت حالا ينافي الرضا ، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه » فإنه ما ظهر لي هذا ، ولم يظهر لي هذا الاعتراض ولا استحسان الشيخ له ، والأصل أن هذه الكلمة عظيمة ومشروعة كيفما قالها الإنسان من دفع أو جلب خير ، فينبغي أن يُتأمل هذا .

وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة) ، فإنه يشرع هذا ، ولكن لا يمنع أن يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله أو يقول : لا إله إلا الله أو سبحان والحمد لله وشيء من هذا مع إنا لله وإنا إليه راجعون ، فإنه لا يمنع ، فهو لو قال : لا إله إلا الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم اغفر لي ، سبحان الله والحمد لله هل في هذا شيء؟ وهل يعترض عليه ويقال له : كيف تقول لا حول ولا قوة إلا بالله؟! .أهـ

وفيما ذكره آثار ضعيفة مثل ما ذكره معلقا قال : وقيل قال موسى : إلهي دلني على عمل إذا عملته رضيت عني فقال : إنك لا تطيق ذلك ، فخر موسى ساجدا متضرعا ، فأوحى الله إليه يا ابن عمران رضائي في رضائك عني .

فهذه الحكاية الإسرائيلية فيها نظر ، فإنه قد يقال : لا يصلح أن يحكى مثلها عن موسى عليه السلام ، ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد ولا تقوم بها حجة في شيء من الدين إلا إذا كانت منقوله لنا نقلا صحيحا مثل ما ثبت عن نبينا ﷺ أنه حدثنا به عن بني إسرائيل ، ولكن منه ما يعلم كذبه مثل هذه ، فإن موسى عليه السلام من أعظم أولي العزم وأكابر المرسلين ، فيكف يقال إنه لا يطيق أن يعمل ما يرضى الله به عنه ، والله تعالى رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان أفلا يرضى عن موسى بن عمران كليم الرحمن؟

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهناك أمر آخر، وهو النكارة، وهو أنه قال له: لا تطيق ذلك، لا تطيق الشيء الذي يرضى به عنك سبحانه وتعالى، ومعلوم أن الرب سبحانه إنما كلفهم ما يطيقون، ومن أدى ما أوجب الله وترك ما حرم الله رضي الله عنه، فمن أدى الواجبات وترك المحارم رضي الله عنه، كما رضي عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة، ورضي عن أتباعهم بإحسان، فمن أدى ما فرض الله عليه وترك ما حرم الله عليه فقد رضي الله عنه، إذا صدق في ذلك وأخلص في ذلك، فإن زاد على ذلك بفعل المستحبات والتوسع في الخير والحذر من المكروهات وبعض المباحات التي يخشى أن تضعفه أو تعوقه عن طريقه؛ كان الرضا أكمل، فهذا ما يبين بطلان هذه الحكاية.

والغالب على خطاب الرب لموسى أنه يخاطبه باسمه يا موسى، فقوله «يا ابن عمران» هذه مستغربة، ولا أعلم فيها شيئاً، لكن الغالب على من يحترمه أن يسأله باسمه أو كنيته ولا بأس أن يقال بأبيه، فالرسول ﷺ كان يقول: يا ابن الخطاب، وهذا من كلام النبي ﷺ ليس فيه غضاضة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝﴾ (البينة)، ومعلوم أن موسى عليه السلام من أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم إن الله خص موسى بمزية فوق الرضا حيث قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝﴾ (طه).

ثم إن قوله له في الخطاب: يا ابن عمران، يخالف ما ذكره الله من خطابه له في القرآن حيث قال: ﴿ يا موسى ﴾ وذلك الخطاب فيه نوع غض منه كما يظهر.

ومثل ما ذكره عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كتب لأبي موسى الأشعري: أما بعد فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر.

فهذا الكلام كلام حسن وإن لم يعلم إسناده.

وإذا تبين أن فيما ذكره مسندا ومرسلا ومعلقا ما هو صحيح؛ فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مرسلة، وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس، فإنه وإن قال بعض الناس إن المرسل حجة؛ فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف.

سؤال/ إرسال الثقات؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: لا، ولكن المرسل مطلقاً، إلا ما قيل في مرسل سعيد ابن المسيب، فالمرسل فيه بحث طويل لأهل العلم، فهذا الكلام غير محرر. أهـ.

فأما إذا عرف ذلك فلا تبقى حجة باتفاق العلماء، كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه، والكتب المسندة في أخبار هؤلاء المشايخ وكلامهم مثل كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم وطبقات الصوفية للشيخ أبي عبد الرحمن وصفوة الصفوة لابن الجوزي وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ أبي سليمان، وقد ذكروا فيها عن الشيخ أبي سليمان الأثر الذي رواه عنه مسندا حيث قال لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد لقد أوتيت من الرضا نصيبا لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضيا.

فهذا الكلام مأثور عن أبي سليمان بالإسناد ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبي عبد الرحمن ، بخلاف تلك الكلمة فإنها لم تسند عنه فلا أصل لها عن الشيخ أبي سليمان .

ثم إن القشيري قرن هذه الكلمة الثابتة عن أبي سليمان بكلمة أحسن منها ، فإنه قبل أن يرويها قال : وسئل أبو عثمان يعني أبا عثمان الحيري النيسابوري عن قول النبي ﷺ : «أسألك الرضا بعد القضاء»[1] فقال : لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا .

فهذا الذي قاله الشيخ أبو عثمان كلام حسن سديد .

ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال : أرجو أن أكون عرفت طرفا من الرضا لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضيا .

فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان ليس هو رضى وإنما هو عزم على الرضا ، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء ، وإذا كان هذا عزما على الرضا فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ ، وما أكثر انفساخ عزائم الناس خصوصا الصوفية ، ولهذا قيل لبعضهم : بم عرفت الله؟ قال : بفسخ العزائم ونقض الهمم .

وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (آل عمران) وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٦) كتاب الصلاة/ باب نوع آخر ، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما ، قال الألباني : حديث صحيح ، وأخرجه الحاكم أيضا وصححه ووافقه الذهبي ، وهو مخرج في «الكلم الطيب» (١٠٥) و«ظلال الجنة في تخريج السنة» (١٢٩) .أهـ

كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝﴾ (الصف).

وفي الترمذي أن بعض الصحابة قالوا للنبي ﷺ: لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله هذه الآية.(١)

وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (النساء)، فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه، وأين ألم الجهاد من ألم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به؟

ومثل هذا يذكر عن سمنون المحب أنه كان يقول:

وليس لي في سواك حظ
فكيف ما شئت فاختبرني

فأخذه الأسر من ساعته أي حصر بوله، فكان يدور على المكاتب ويفرق الجوز على الصبيان ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

وحكى أبو نعيم الأصبهاني عن أبي بكر الواسطي أنه قال: قال سمنون: يا رب قد رضيت بكل ما تقضيه علي، فاحتبس بوله أربعة عشر يوما، فكان

(١) الحديث رقم (٣٣٠٩) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة الصف، من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، والحديث صحح إسناده الشيخ الألباني كما في صحيح الترمذي.

يتلوى كما تتلوى الحية على الرمل يتلوى يمينا وشمالا ، وما أطلق بوله قال : يا رب تبت إليك .

قال أبو نعيم : فهذا الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى ، هذا مع أن سمنون كان يضرب به المثل في المحبة وله مقام مشهور ، وروي عن إبراهيم بن فاتك أنه قال : رأيت سمنونا يتكلم على الناس في المسجد الحرام ، فجاء طائر صغير فقرب منه ثم قرب فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يده ، ثم لم يزل يضرب بمنقاره الأرض حتى سقط منه دم ومات الطائر .

قال : ورأيته تكلم يوما في المحبة فاصطفقت قناديل المسجد وكسر بعضها بعضا .

وقد ذكر القشيري في باب الرضا عن رويم المقري رفيق سمنون حكاية تناسب هذا حيث قال : قال رويم : الرضا لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره ، فهذا يشبه قول سمنون : فكيف ما شئت فامتحني ، وإذا لم يطق الصبر على عسر البول أفيطيق أن تكون جهنم عن يمينه؟

والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وابتلى بعسر البول فغلبه الألم حتى قال : بحبي لك إلا فرجت عني فانفرج عنه .

ورويم وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة ، بل الصوفية يقولون : إنه رجع إلى الدنيا وترك التصوف ، حتى روي عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد أنه قال : من أراد أن يستكتم سرا فليفعل كما فعل رويم كتم حب الدنيا أربعين سنة ، فقيل : وكيف يتصور ذلك؟ قال : ولي إسماعيل ابن إسحاق القاضي قضاء بغداد ، وكانت بينهما مودة أكيدة فجذبه إليه وجعله وكيلا على بابه ، فترك لبس التصوف ولبس الخز والقصب والديبقي وأكل

الطيبات وبني الدور ، وإذا هو كان يكتم حب الدنيا ما لم يجدها ، فلما وجدها أظهر ما كان يكتم من حبها ، هذا مع أنه رحمه الله كان له من العبادات ما هو معروف وكان فقيها على مذهب داود .

وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها لا تجعل طريقة ولا تتخذ سبيلا ، ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك ، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق ، وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر .

والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح ، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصا مخطئا محروما وإن لم يكن عاصيا أو فاسقا أو كافرا .

ويشبه هذا الأعرابي الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو مريض كالفرخ فقال : «هل كنت دعوت الله بشيء؟» فقال : كنت أقول : اللهم ما كنت معذبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال : «سبحان الله لا تستطيعه أو لا تطيقه هلا قلت ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»(١) .

فهذا أيضا حمله خوفه من عذاب الآخرة ومحبته لسلامة عاقبته على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا ، وكان مخطئا في ذلك غالطا ، والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جدا ، فليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما من الخطأ والغلط بل ولا من الذنوب .

(١) رواه مسلم (٢٦٨٨) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب كراهة تعجيل العقوبة في الدنيا ، من حديث أنس ﷺ .

وأفضل أولياء الله بعد الرسل أبو بكر الصديق ﷺ، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال له لما عبر رؤيا: «**أصبت بعضا وأخطات بعضا**»[(١)].

ويشبه ـ والله أعلم ـ أن أبا سليمان لما قال هذه الكلمة، لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضيا، أن يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار.

وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان مع أنها لا تدل على رضاه بذلك ولكن تدل على عزمة بالرضا بذلك، ونحن نعلم أن ذلك العزم لا يستمر بل ينفسخ وأن مثل هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها، وأنها مستدركة كما استدركت دعوى سمنون ورويم وغير ذلك، فإن بين هذه الكلمة وبين تلك فرقا عظيما، فإن تلك الكلمة مضمونها أن من سأل الله الجنة واستعاذه من النار لا يكون راضيا، وفرق بين من يقول: أنا إذا فعل بي كذا كنت راضيا وبين من يقول: لا يكون راضيا إلا من لا يطلب خيرا ولا يهرب من شر.

وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجل من أن يقول مثل هذا الكلام فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم ومن أتبعهم للشريعة، حتى أنه كان يقول: إنه ليمر بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة، فمن لا يقبل نكت قلبه إلا بشاهدين يقول مثل هذا الكلام!

قال سماحة الشيخ رحمه الله: الصوفية لهم أغلاط كثيرة وأوهام وأخطاء يغلطون فيها لقلة علمهم، والغالب على أهل التصوف وأصحاب الزهد وأصحاب أحوال القلوب؛ الغالب عليهم قلة العلم وقلة البصيرة، فيرضون

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٦) كتاب التعبير/ باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب، ومسلم (٢٢٦٩) كتاب الرؤيا/ باب في تأويل الرؤيا، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بالتقليد من بعضهم لبعض ، فلهذا يقول بعضهم : إن سؤاله الجنة وتعوذه من النار ليس من الرضا ، بل ينافي الرضا ، وهذا لا شك أنه باطل وهو من أقبح الكلام ، فإن الرسول ﷺ سأل الله الجنة وتعوذ به من النار ، وشرع للناس أن يسألوا الله الجنة ويتعوذوا به من النار ، وقال بعض الناس للنبي ﷺ إني لا أحسن دندنتك ودندنة معاذ في صفة الدعاء ولكني أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال : «حولها ندندن»(١) .

فالمقصود أن الأحاديث في سؤال الجنة والتعوذ من النار والحث على ذلك كثيرة جدا معروفة ، وليس هذا مما ينافي الرضا ، بل هذا مما يدل على الرغبة في الرضا ، فكونه يسأل ربه أن يمنحه دخول الجنة ويمنحه النجاة من النار حتى يتم له غاية الرضا وغاية الكمال ، والله المستعان .أهـ

سؤال/ قول الرسول ﷺ : «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموه فاصبروا»(٢) .

أجاب سماحته رحمه الله : هذا حمله العلماء على أن المراد على سبيل العجب بالنفس أو على سبيل الثقة بالنفس ونحو ذلك ، أما إذا تمنى لقاء العدو رغبة في الجهاد ورغبة في الشهادة في سبيل الله فهو غير داخل في هذا ، فإن الرسول ﷺ حث على الجهاد ورغّب فيه ، فقال : «من مات ولم يغز ولم يحدث

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٣١٨) وأبو داود (٧٩٢) كتاب الصلاة/ باب تخفيف الصلاة ، من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ ، ورواه ابن ماجه (٣٨٤٧) كتاب الدعاء/ باب الجوامع من الدعاء ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والحديث صححه الألباني في صحيح ابن ماجه .

(٢) رواه البخاري (٢٩٦٦) كتاب الجهاد والسير/ باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ، من حديث عبد الله بن أبي أوفى ، ورواه مسلم (١٧٤١) كتاب الجهاد والسير/ باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق»(١) فالنهي عن التمني ليس على إطلاقه، وإنما المراد التمني الذي يصحبه الفخر والخيلاء أو الثقة بالنفس أو العجب بها، فأما تمني أن يحصل الجهاد، وأن يجاهد في سبيل الله، وأن يلقى عدو الله؛ فلا بأس به وليس داخلا في هذا النهي عند أهل العلم. اهـ

سؤال/ الذي يدعو أن يبتليه الله بما شاء هل يدل على العُجب؟

أجاب سماحته رحمه الله: ثقة بالنفس فلهذا عوقب. اهـ

سؤال/ تصافق قناديل المسجد حينما خطب سمنون ألا يكون من تلاعب الشياطين؟

أجاب سماحته: الله أعلم بصحة هذه الحكاية، وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم مثل غيرهم قد يقع عندهم كلمات وأشياء محل نظر، فهم كغيرهم من أهل العلم. اهـ

سؤال/ قول لا حول.

أجاب سماحته رحمه الله: المشهور: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا المشهور، لا يقال: لا حول، بل يأتي بها كاملة، هذه هي السنة، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا قال: لا حول إلا بالله ولا قوة إلا بالله، وقصده إضرار نفسه فلا بأس، لكن السنة أن يأتي بها كاملة، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعض الناس يقول: لا حول الله، وهذا عامي يُعَلَّم العبارة، وبعض العوام يقول لا حول أو يا حول، فيعلم السنة، لا حول إلا به، يعني لا تحول لي بشيء إلا

---

(١) رواه مسلم (١٩١٠) كتاب الإمارة/ باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالله ، أو لا قوة إلا بالله ، لكن يقال له أكملها ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيتعلم السنة .أهـ

وقال الشيخ أبو سليمان أيضا : ليس لمن ألهم شيئا من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر ، فإذا سمع فيه بأثر كان نورا على نور(١) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا كلام عظيم ، يعني ليس لأحد من الناس إذا قدح في نفسه شيء ، أو ألقي عليه إلهام في شيء أن يعتمده حتى يعرضه على الكتاب والسنة ، فينظر هل هذا الذي وقع في نفسه صحيح موافق للشرع ، أم ليس كذلك؟

بل ينظر في الآثار والروايات حتى يعرف صحة ما وقع في قلبه أو عدم صحة ذلك .أهـ

بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري كان من أتبع المشايخ للسنة فكيف أبو سليمان!

وتمام تزكية أبي سليمان من هذا الكلام يظهر بالكلام في المقام الثاني وهو قول القائل كائنا من كان : الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار ، ونقدم قبل ذلك مقدمة يتبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب ، وذلك أن قوما كثيرا من الناس من المتفقهة والمتصوفة والمتكلمة وغيرهم ظنوا أن الجنة ليست إلا التنعم بالمخلوق من أكل وشرب ولباس ونكاح

(١) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد «عبد الرحمن بن أحمد بن عطية» وابن عساكر في تاريخ دمشق «عبد الرحمن بن أحمد بن عطية» والذهبي في سير أعلام النبلاء «أبو سليمان الداراني» ١٠/ ١٨٣

وسماع أصوات طيبة وشم روائح طيبة ، ولم يدخلوا في مسمى الجنة نعيما غير ذلك ، ثم صاروا حزبين : حزبا أنكروا أن يكون للعباد نعيم غير تنعمهم بهذه الأمور المخلوقة وأشباهها ، ثم من هؤلاء من أنكر أن يكون المؤمنون يرون ربهم كما ذهب إلى ذلك الجهمية من المعتزلة وغيرهم .

ومنهم من أقر بالرؤية إما الرؤية التي أخبر بها النبي ﷺ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وإما برؤية فسرها بزيادة كشف أو علم أو جعلها بحاسة سادسة ، ونحو ذلك من الأقوال التي ذهب إليها ضرار بن عمرو وطوائف من أهل الكلام المنتسبين إلى نصر أهل السنة في مسألة الرؤية ، وإن كان ما يثبتونه من جنس ما نفته المعتزلة والضرارية ، والنزاع بينهم لفظي ونزاعهم مع أهل السنة معنوي ، ولهذا كان بشر المريسي وأمثاله يفسرون الرؤية بنحو من تفسير هؤلاء .

والمقصود هنا أن مثبتة الرؤية منهم من أنكر أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤيته ربه ، قالوا : لأنه لا مناسبة بين المحدث والقديم كما ذكر ذلك الأستاذ أبو المعالي الجويني في الرسالة النظامية وكما ذكره أبو الوفاء بن عقيل في بعض كتبه .

ونقلوا عن ابن عقيل أنه سمع قائلا يقول : أسألك لذة النظر إلى وجهك فقال : يا هذا هب أن له وجها أله وجه يتلذذ بالنظر إليه؟

وذكر أبو المعالي أن الله يخلق لهم نعيما ببعض المخلوقات مقارنا للرؤية ، فأما التنعم بنفس الرؤية فأنكره وجعل هذا من أسرار التوحيد .

وأكثر مثبتي الرؤية يقرون بتنعم المؤمنين برؤية ربهم ، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ومشايخ الطريق .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا هو الحق الذي أجمع عليه أهل السنة

والجماعة، أن الله جل وعلا يكشف لهم الحجاب عن وجهه الكريم، وأن أهل الجنة يرونه سبحانه رؤية حقيقية، ويتنعمون بذلك، وأنهم ما أعطوا في الجنة شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه سبحانه وتعالى، وأن رؤيتهم لوجهه أعلى نعيم في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال في الحديث الصحيح: «الزيادة النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى»[(١)]، فأهل السنة يتنعمون بذلك في الجنة وفي عرصات القيامة.

وأما هؤلاء المحرومون المخذولون فهؤلاء حرموا هذا الخير العظيم، حتى آل بهم الحال إلى أنهم يرون أن من كمال الإيمان أن لا تسأل الجنة ولا تتعوذ من النار، وهذا من جهلهم وضلالهم، فإن الرسل سألوا الله الجنة واستعاذوا به من النار، وأمروا الناس أن يسألوا الله الجنة ويستعيذوا به من النار، لما في الجنة من النعيم والخير الكثير الذي أعلاه وأفضله رؤيتهم لوجه ربهم سبحانه وتعالى وتلذذهم بذلك، ولما في النار من العذاب والآلام والشر والفساد، فلهذا شرع الله للمؤمنين أن يسألوه الجنة وأن يستعيذوا به من النار، والله المستعان.

وقد يوجد هذا في بعض كتب ابن عقيل الأولى، فقد يكون من أغلاطه الأولى لما كان متوغلاً في مذهب أهل الكلام وخوضه في الكلام، فلعله رجع عنه.

وقوله: «مشايخ الطريق» يعني الصوفية الطيبون، فالصوفية قسمان: فيهم الضال وفيهم المستقيم، فمشايخ الطريق يعني مشايخ السلوك، سلوك القلوب وأعمال القلوب من أهل الاستقامة وأهل البصيرة. اهـ

(١) رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان/ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، من حديث صهيب ﷺ.

كما جاء في الحديث الذي رواه النسائي وغيره عن النبي ﷺ: «اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا الحديث حديث عظيم، فيه دعوات عظيمة، ثلاث عشرة دعوة، مما أرشد إليه النبي عليه الصلاة والسلام، وقد رواه النسائي بإسناد صحيح عن عمار بن ياسر الصحابي الجليل أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا، أوله: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي» فهي دعوتان «اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا وأسألك القصد في الفقر والغنى» هذه خمس «وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع» سبع «وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت» هذه تسع «وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة» هذه إحدى عشرة «اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين» ثلاث عشرة دعوة عظيمة في هذا الحديث العظيم. أهـ.

(١) الحديث رقم (١٣٠٥) كتاب صفة الصلاة/ باب الدعاء بعد الذكر من حديث عمار بن ياسر، قال الألباني: حديث صحيح، وأخرجه الحاكم أيضا وصححه ووافقه الذهبي، وهو مخرج في «الكلم الطيب» (١٠٥) و«ظلال الجنة في تخريج السنة» (١٢٩). أهـ «التعليقات على شرح الطحاوية».

وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة ناد مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه»(١).

وكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنيله أعظم، وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشايخ الطريق، كما روي عن الحسن البصري أنه قال: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت نفوسهم في الدنيا شوقا إليه.

وكلامهم في ذلك كثير.

ثم هؤلاء الذين وافقوا السلف والأئمة والمشايخ على التنعم بالنظر إلى الله تعالى وتنازعوا في مسألة المحبة التي هي أصل ذلك، فذهب طوائف من المتكلمين والفقهاء إلى أن الله لا تحب نفسه وإنما المحبة محبة طاعته وعبادته، وقالوا: هو أيضا لا يحب عباده المؤمنين وإنما محبته إرادته للإحسان إليهم ولإثابتهم.

ودخل في هذا القول من انتسب إلى نصر السنة من أهل الكلام حتى وقع فيه طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد، كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وأمثال هؤلاء، وهذا في الحقيقة شعبة من التجهم والاعتزال، فإن أول من أنكر المحبة في الإسلام الجعد بن درهم أستاذ الجهم بن صفوان، فضحى به خالد بن عبد الله القسري وقال أيها الناس ضحوا تقبل الله

(١) الحديث رقم (١٨١) كتاب الإيمان/ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى.

ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه[1].

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وكان هذا يوم عيد النحر، في العراق، وهو أمير العراق، وكان الجعد هذا خبيثاً ضالاً مضلاً يدعو إلى نفي صفات الله وإنكار صفات الله سبحانه وتعالى، فلهذا ضحى به خالد بن عبد الله القسري، وقال ابن القيم في هذا في النونية:

شكر الضحية كل صاحب سنة
لله درك من أخي قربان

يعني أنه ضحى به، فقتله في سبيل الله، قتله لزندقته وكفره وضلاله. أهـ

والذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وجميع مشايخ الطريق أن الله يحِب ويحَب.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا الأمر قد ملء به القرآن، وجاء به القرآن الكريم، فهو واضح من أوضح الأشياء، كما قال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: ٥٤) غير محبة الطاعة، يحبون ذاته جل وعلا، للإحسان وكمال الإنابة وتوفيقه لهم بهدايته، وهو يحبهم أيضاً لإقامتهم بأمره وصلاحهم واستقامتهم، فهو يحبهم لهذه الخصال التي تخلقوا بها

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

(١) قصة قتل الجعد رواها الخلال في السنة (١٦٩٠) ٥/ ٨٨، وابن بطة في الإبانة (٣٨٦) ٢/ ١٢٠ باب ما روي في جهم وشيعته الضُلاَّل، والذهبي كما في مختصر العلوص: ١٣٣(١١٥) وقال الحافظ في الفتح ٣/ ٤٧٩: «أوردها البخاري في خلق أفعال العباد».

(البقرة) ، ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة) ، ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات :٩) ، فالقرآن مملوء من هذه الصفات العظيمة التي أخبر بها سبحانه وأنه يحب أولياءه وأهل طاعته ، كما أنهم يحبونه تعالى محبة صادقة ، لإحسانه وإنعامه وإكرامه وتوفيقه وهدايته لهم .اهـ

ولهذا وافقهم على ذلك من تصوف من أهل الكلام كأبي القاسم القشيري وأبي حامد الغزالي وأمثالهما ونصر ذلك أبو حامد في الإحياء وغيره وكذلك أبو القاسم ذكر ذلك في الرسالة على طريق الصوفية كما في كتاب أبي طالب المكي المسمى بقوت القلوب .

وأبو حامد مع كونه تابع في ذلك الصوفية استند في ذلك لما وجده من كتب الفلاسفة من إثبات نحو ذلك حيث قالوا يَعشق ويُعشق . وقد بسطت الكلام على هذه المسألة العظيمة في القواعد الكبار بما ليس هذا موضعه .

وقد قال الله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة ٥٤) ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة ١٦٥) ، وقال تعالى : ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (التوبة ٢٤) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»(١) .

---

(١) رواه البخاري (٦٩٤١) كتاب الإكراه/ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان/ باب وجوب محبة الرسول ﷺ أكثر من الأهل وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة ، من حديث أنس ﷺ .

والمقصود هنا أن هؤلاء المتجهمة من المعتزلة ومن وافقهم الذين ينكرون حقيقة المحبة يلزمهم أن ينكروا التلذذ بالنظر إليه ، ولهذا ليس في الحقيقة عندهم إلا التنعم بالأكل والشرب ونحو ذلك ، وهذا القول باطل بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومشايخها ، فهذا أحد الحزبين الغالطين .

والحزب الثاني: طوائف من المتصوفة والمتفقرة والمتنسكة وافقوا هؤلاء على أن المحبة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق ، ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتنعم بالنظر إليه ، وأصابوا في ذلك وصاروا يطلبون هذا النعيم وتسمو همتهم إليه ويخافون فواته ، وصار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقا إلى جنتك ولا خوفا من نارك ولكن لأنظر إليك أو إجلالا لك .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه من ورطات المتصوفة وأغلاط المتصوفة ، وإلا فالرسل ـ وهم أصدق الناس ـ والمؤمنون عبدوه سبحانه رجاء جنته وخوف عذابه ورجاء مرضاة ربهم سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ (الأنبياء :٩٠) رغباً في جنته ونعيمه ، ورهباً من عذابه سبحانه وتعالى ، وقال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ (الإسراء :٥٧) سبحانه وتعالى .

فالرسل وهم أكمل الناس ، والمؤمنون وهم أكمل الناس بعد الرسل عبدوا الله محبة له وشوقاً إليه وخوفاً من عذابه وطمعاً في ثوابه سبحانه وتعالى .

فلا نقص على المؤمن أن يكون خائفاً من عذاب عليه ، ولا نقص عليه إذا

كان يرجو رحمته ويرجو جنته ، كما أنه لا نقص عليه في شوقه إليه والنظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى .

فأهل الإيمان عبدوه جل وعلا طاعة له وتعظيماً لأمره وأداء لحقه وشوقاً إلى هذه الأمور التي أخبرهم بها سبحانه وتعالى من جنته ، والنظر إلى وجه الله ، وتلذذ بطاعته ، وتلذذ بالنظر إلى وجهه ، وتلذذ بمحبته ، وخوفاً من عذابه وغضبه سبحانه وتعالى .

ولكن المتصوفة بعضهم عنده نقص في العقل وضعف في العقل ، يظن أنه إذا قصد الجنة أو خاف من النار أن هذا نقص في إيمانه أو نقص في سلوكه ، وهذا من الجهل .اهـ

وأمثال هذه الكلمات ومقصودهم بذلك طلب ما هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق ، ولكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة ، وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة ، وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس ، وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب ، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة .

وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه حتى لا يشعر بنفسه وإراداتها ، فيظن أنه يفعل بغير مراد ، والذي طلبه وعلق به همته هو غاية مراده ومحبوبه ومطلوبه .

وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات ، يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم لكن ليس له عبارة تبين مراده ، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب مع صحة مقصوده ، وإن كان من الناس من يقع منه غلط في مراده واعتقاده ، فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام إذا عنوا به طلب

رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك ، لكن أخطأوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجا عن الجنة ، فأسقطوا حرمة اسم الجنة ولزم من ذلك أمور منكرة .

ونظير ذلك ما ذكره عن الشبلي رحمه الله أنه سمع قارئا يقرأ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ (آل عمران : ١٥٢) ، فصرخ وقال : أين من يريد الله؟ فيحمد منه كونه أراد الله ، ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله .

وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأحد وهم أفضل الخلق ، فإن لم يريدوا الله أفيريد الله من هو دونهم كالشبلي وأمثاله؟ ! .

قال سماحة الشيخ : وهذا من جهله وعدم بصيرته ، صوفي جهل بالحقائق ، فصرخته هذه الصرخة تدل على جهل كبير ، فإن من أراد الآخرة دخل في ذلك الجنة والنجاة من النار ورؤية الله سبحانه ، وسماع كلامه والنظر إلى وجهه ؛ كله داخل بإرادة الآخرة ، كما قال المؤلف رحمه الله .أهـ

ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشايخ أنه سئل مرة عن قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة : ١١١) ، قال : فإذا كانت الأنفس والأموال في ثمن الجنة فالرؤية بم تنال؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال .

والواجب أن تعلم أن كل ما أعده الله لأوليائه من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك فهو في الجنة كما أن كل ما توعد به أعداءه هو في النار .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : **والمعنى أن مذهب أهل السنة رؤية وجه الله في الجنة ، وهذا الصوفي الجاهل ظن أن رؤية الله غير داخلة في الجنة ، وهذا من الجهل ، فالله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة بما فيها من**

النعيم من المأكل ومن المشرب والمنكح ، وأعظم ذلك ما فيها من رؤية الله سبحانه وتعالى والنظر إلى وجهه الكريم الذي وعدهم به سبحانه وتعالى ، وهي الزيادة التي وعدهم جل وعلا ، كله داخل في الجنة .اهـ

وقد قال تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة ١٧) .

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : «يقول الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بَلْهَ ما أَطْلَعتم عليه»(١) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أن الله أعد للمؤمنين أشياء ما سمعوها ولا رأوها ولا خطرت على قلوبهم في هذه الدنيا من أنواع النعيم العظيم الذي ما خطر لهم على بال ، ولهذا قال : «بَلْهَ ما أطلعتم عليه» يعني غير ما أطلعتم عليه في الدنيا ، ما أطلعوا عليه من الحور والنعيم والاستبرق والمآكل والمشارب والقصور والأنهار ، كل هذا غير ما أعد الله لهم من الشيء الزائد من أنواع النعيم التي لم تخطر على بالهم «أعددت لعبادي الصالحين -يعني في الجنة - ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(٢) ولهذا قال سبحانه : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ هذا فضله وجوده سبحانه وتعالى .اهـ

وكذلك في قوله في حديث ابن عمر عن النبي ﷺ : «إن أدنى أهل الجنة

---

(١) رواه البخاري (٤٧٨٠) كتاب التفسير/ باب قوله : «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب ما في الجنة من النعيم ، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) متفق عليه وقد تقدم قبل قليل .

منزلة من ينظر في ملكه من مسيرة ألف عام، وإن أعلاهم منزلة من ينظر إلى وجه الله بكرة وعشيا»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: قوله: «بكرة وعشيا» يعني مقدار البكرة والعشي، لأن الجنة نهار مضطرد لا ليل فيها، فكلها نهار مضطرد ونور مضطرد، لكن أعلى أهل الجنة نعيما من ينظر إلى وجه الله بكرة وعشيا، يعني بمقدار أربع وعشرين ساعة، مرتين بمقدار أربع وعشرين ساعة، بمقدار البكرة والعشي، يعني أقل من أربع وعشرين ساعة، وهذا من فضل الله عليهم سبحانه وتعالى، وله رؤية في الأسبوع بمقدار الأسبوع، وله غير ذلك.

ولكن أعلاهم منزلة - بسبب إيمانه وتقواه وأعماله الصالحة كالرسل ومن شاركهم في هذا الشيء - من ينظر إلى وجه ربه بكرة وعشيا، هذا فضله سبحانه وتعالى وجوده وكرمه جل وعلا.

فكلهم يرون الله جل وعلا رجالهم ونساؤهم، كلهم يرى الله جل وعلا، لكنهم يتفاوتون في الأوقات، مثل ما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس :٢٦) فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله وما يلقون من الخير الكثير علاوة على ما أخبروا به.

وظاهر كلام الشيخ رحمه الله أن الحديث ثابت عنده رحمه الله. أهـ

وقوله في حديث صهيب: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداء الحديث ثم قال: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه» وشبه ذلك.

(١) رواه أحمد (٥٤٤١) والترمذي (٣٣٣٠) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة القيامة، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث غريب.

قال سماحة الشيخ رحمه الله : «إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ألم يدخلنا الجنة؟ ألم يجرنا من النار؟ قال : بلى قال : ثم يكشف لهم الحجاب عن وجهه فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه»[١].

وفي اللفظ الآخر يقول ﷺ : «ثم يقولون : ألم تبيض وجوهنا إلخ قال : فإني أرضى عنكم رضاء لا أسخط عليكم بعده أبداً»[٢] .اهـ

وإذا علم أن جميع ذلك وأمثاله داخل في الجنة فالناس على درجات متفاوته كما قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء) ، وكل مطلوب للعبد بعبادة وقربة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة .

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله وجميع أولياء الله السابقين المقربين وأصحاب اليمين ، كما في السنن أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه : «كيف تقول في دعائك»؟ قال أقول : اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال النبي ﷺ : «حولها ندندن»[٣] فقد أخبر أنه هو ﷺ ومعاذ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة

---

(١) رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان/ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ، من حديث صهيب رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٩) كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار ، ومسلم (٢٨٢٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه أحمد في المسند (١٦٣١٨) وأبو داود (٧٩٢) كتاب الصلاة/ باب تخفيف الصلاة ، من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ ، ورواه ابن ماجه (٣٨٤٧) كتاب الدعاء/ باب الجوامع من الدعاء ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والحديث صححه الألباني في صحيح ابن ماجه .

في حياة النبي ﷺ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ﷺ ومعاذ ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟!

ولو طلب هذا العبد ما طلب كان في الجنة وأهل الجنة نوعان: سابقون مقربون وأبرار أصحاب يمين.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (18) وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى
نَعِيمٍ (22) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ
(24) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (25) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ
(28)﴾ (المطففين).

قال ابن عباس: تمزج لأصحاب اليمين مزجا ويشربها المقربون صرفا.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»[1].

فقد أخبر أن الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله ورجا أن

---

(١) رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الصلاة/ باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

يكون هو ذلك العبد؛ هي درجة في الجنة، فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجاً عن الجنة يصلح للمخلوقين؟!

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ومقصوده من هذا الرد على هؤلاء الجاهلين الذين يقولون: ما عبدناك رجاء الجنة أو خوفاً من النار، وإنما عبدناك للرؤية، وهذا من جهلهم، فالنبي ﷺ أمر الأمة أن يسألوا الله الجنة ويستعيذوا به من النار، لأن من دخل الجنة حصل له كل خير، وسلم من كل شر، وحصلت له الرؤية، وحصل جميع النعيم. اهـ.

وثبت في الصحيح أيضاً في حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس في مجالس الذكر «قال: فيقولون للرب تعالى: وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك قال: فيقول: وما يطلبون؟ قالوا: يطلبون الجنة قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد لها طلبا قال: ومم يستعيذون؟ قالوا: يستعيذون من النار قال: فيقول: فهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا قال فيقول: فيكف لو رأوها؟ قالوا: لو رأوها لكانوا أشد منها استعاذة قال: فيقول: أشهدكم أني قد أعطيتهم ما يطلبون وأعذتهم مما يستعيذون ـ أو كما قال ـ قال: فيقولون: فيهم فلان الخطاء جاء لحاجة فجلس معهم قال: فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: هذا من باب التقريب، وإلا فهو يعلم أحوالهم ويعلم طلباتهم، ولكن لإظهاره بين الناس وإظهاره بين الملائكة، حتى يعلمه

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨) كتاب الدعوات/ باب فضل ذكر الله عز وجل، ومسلم (٢٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل مجالس الذكر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الناس وحتى يعلمه المسلمون ، ولهذا أوحاه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ، ليعلم الناس هذا الخير حتى يسابقوا إليه ، وأن الجنة أعلى المطالب ، وأن النار أعلى المراهب وأشد المراهب ، والمؤمنون في الدنيا يطلبون الجنة ويتعوذون من النار ، وهم لم يروا هذه ولا هذه ، ولكنهم جاءهم الخبر اليقين عن رسولهم وفي كتاب ربهم فكأنهم قد رأوها ، لتصديق الأخبار التي جاءت في ذلك عن نبيهم وفي كتاب ربهم فجاءهم علم يقين ، فلهذا سألوا الجنة وتعوذوا بالله من النار ، ولو رأوهما لكانوا أشد طلباً للجنة وأشد هرباً من النار ، لأن الرائي غير المخبَر ، ليس الرائي كالمخبر ، فما راءٍ كمن سمعا .

ولكن العلم اليقيني والخبر اليقيني يكسب الناس اليقين ويكسبهم الشوق إلى الخير والرهبة من الشر . أهـ

فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة ومهربهم من النار .

وأيضا فالنبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم قالوا للنبي ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك قال : «اشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم ، وأشترط لأصحابي أن تواسوهم» ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال : «لكم الجنة» ، قالوا : أمدد يدك فوالله لا نقيلك ولا نستقيلك ، وقد قالوا له في أثناء البيعة : إن بيننا وبين القوم حبالا وعهودا وإنا ناقضوها(١) .

فهؤلاء الذين بايعوه هم من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله وبذلا

---

(١) قصة بيعة الأنصار النبي ﷺ ليلة العقبة رواها بطولها الإمام أحمد في مسنده (١٦٢١٣) والطبراني في المعجم الكبير ١٣/ ٤٣٨ ، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه .

لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين ، قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة ، فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه ، لكنهم علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب ، بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه ، فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور ، فما لا يحسه الإنسان ولا يتصوره ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده .

والجنة فيها هذا وهذا كما قال تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (ق) ، وقال : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ (الزخرف : ٧١) ، ففيها كل ما يشتهونه وفيها مزيد على ذلك وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه كما قال ﷺ : «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١) وهذا باب واسع .

فإذا عرفت هذه المقدمة فقول القائل : الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار ، إن أراد بذلك أن لا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية ، فلا تسأله النظر إليه ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء ، وأنك لا تستعيذ به لا من احتجابه عنك ولا من تعذيبك في النار ؛ فهذا الكلام مع كونه مخالفًا لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين فهو متناقض في نفسه فاسد في صريح المعقول .

وذلك أن الراضي الذي لا يسأل إنما لا يسأله لرضاه عن الله ، ورضاه عنه إنما

---

(١) رواه البخاري (٤٧٨٠) كتاب التفسير/ باب قوله : «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب ما في الجنة من النعيم ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

هو بعد معرفته به ومحبته له ، فإذا قدر أنه حجب فرضي بزوال كل نعيم فرضي بزوال رضاه عن الله وبزوال محبته لله ، وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله فكأنه قال : يرضى أن لا يرضى ، وهذا جمع بين النقيضين ، ولا ريب أنه كلام من لم يتصور ما يقول ولا عقله .

يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته ، فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يحتمل ألما ومرارة ، فكيف يتصور أن يكون راضيا وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره !

وإنما هذا من جنس كلام السكران والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان ، وهذا غلط عظيم منه كغلط سمنون كما تقدم .

وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق بل يسأل ما هو أعلى من ذلك فقد غلط من وجهين : من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة ، ومن جهة أنه أيضا أثبت أنه طالب مع كونه راضيا ، فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب فلا ينافي طلبا آخر إذا كان محتاجا إلى مطلوبه .

ومعلوم أن تنعمه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر ، وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب ، فيكون طلبه للنظر طلبا للوازمه التي منها النجاة من النار ، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ولا دفع المضرة عنه ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر ، فتبين تناقض قوله .

وأيضاً فإذا لم يسأل الله الجنة لم يستعذ به من النار ، فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من جلب منفعة ودفع مضرة وإما أن لا يطلبه ، فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك فطلبه للجنة أولى واستعاذته من النار أولى .

وإن كان الرضا أن لا يطلب شيئاً قط ولو كان مضطراً إليه ولا يستعيذ من شيء قط ولو كان مضراً به فلا يخلو إما أن يكون ملتفتاً بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك وإما أن يكون معرضاً عن ذلك ، فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله .

ولا فرق بين الطلب بالحال والقال بل هو بهما أكمل وأتم فلا يعدل عنه ، وإن كان معرضاً عن جميع ذلك فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته ويدفع مضاره ، فذلك الذي به يحيا من طلب جلب المنافع ودفع المضار ، إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده ، فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشركاً مذموماً فضلاً على أن يكون محموداً .

وإن قال : لا أحبه ولا أطلبه ولا أريده لا من الله ولا من خلقه قيل : هذا ممتنع في الحي ، فإن الحي يمتنع عليه أن لا يحب ما به يبقى ، وهذا أمر معلوم بالحس ، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا ، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة ، إذ الرضا مستلزم لذلك فكيف يسلب عنه ذلك كله ، فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام في العقل .

وأما الرضا في سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه :

أحدها : أن يقال : الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله ، وإلا فكيف يكون

راضيا عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله ! وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه وينهى عنه !

وبيان هذا أن الرضا المحمود إما أن يكون الله يحبه ويرضاه وإما أن لا يحبه ويرضاه ، فإن لم يكن يحبه ويرضاه لم يكن هذا الرضا مأمورا به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب ، فإن من الرضا ما هو كفر كرضا الكفار بالشرك وقتل الأنبياء وتكذيبهم ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه ، قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد) ، فمن اتبع ما يسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله .

وقال النبي ﷺ : «إن الخطيئة إذا عملت في الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن شهدها ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها»(١)

قال سماحة الشيخ رحمه الله : جزْم المؤلف به يرى أن ظاهره صحيح .أهـ

وقال ﷺ : «سيكون بعدي أمراء تعرفون وتنكرون فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع»(٢) .

وقال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة) ، فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه وهو لا يرضى عنهم .

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٥) كتاب الملاحم/ باب الأمر والنهي ، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٧٣ وقال الألباني في صحيح الجامع الصغير : إنه حديث حسن . (العرف بن عميرة) وكذا حسنه في المشكاة (٥١٤١) .

(٢) رواه مسلم (١٨٥٤) كتاب الإمارة/ باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك ، من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

وقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝﴾ (التوبة)، فهذا رضى قد ذمه الله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ (يونس: ٧)، فهذا أيضا مذموم وشواهد هذا كثيرة.

فمن رضي بكفره وكفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصي غيره فليس هو متبعا لرضا الله ولا هو مؤمن بالله، بل هو مسخط لربه وربه غضبان عليه لاعن له ذام له متوعد له بالعقاب.

وطريق الله التي يأمر بها المشايخ المهتدون إنما هي الأمر بطاعة الله والنهي عن معصيته، فمن أمر واستحب أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه وينهى عنه ويعاقب أصحابه فهو عدو لله لا ولي لله، وهو يصد عن سبيل الله وطريقه ليس بسالك لسبيله وطريقه.

وإذا كان الرضا الموجود في بني آدم منه ما يحبه الله ومنه ما يكرهه ويسخطه ومنه ما هو مباح لا من هذا ولا من هذا كسائر أعمال القلوب من الحب والبغض وغير ذلك، كلها ينقسم إلى محبوب لله ومكروه لله ومباح.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمعنى في هذا أن هذا يتبع المرضي به والمحبوب، فقسم كفر وقسم معصية وقسم مباح.

فمن أحب الكفر ورضي به صار من قسم الكفر، ومن أحب المعصية ورضي بها صار من المعاصي، ما لم يستحلها، فإن استحلها كفر، ومن أحب المباح ورضي بالمباح فلا حرج، كالطعام والشراب واللباس المباح ونحو ذلك، فهو ينقسم على حسب أقسام المحبوب. اهـ.

فإذا كان الأمر كذلك فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار يقال له: سؤال الله الجنة واستعاذته من النار إما أن تكون واجبة وإما أن تكون مستحبة وإما أن تكون مباحة وإما أن تكون محرمة وإما أن تكون مكروهة، ولا يقول مسلم إنها محرمة ولا مكروهة وليست أيضاً مباحة مستوية الطرفين، ولو قيل إنها كذلك ففعل المباح المستوي الطرفين لا ينافي الرضا، إذ ليس من شرط الراضي أن لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل أمثال هذه الأمور، فإذا كان ما يفعله من هذه الأمور لا ينافي رضاه أينافي رضاه دعاء وسؤال هو مباح؟!

وإذا كان الدعاء والسؤال كذلك واجباً أو مستحباً فمعلوم أن الله يرضى بفعل الواجبات والمستحبات، فكيف يكون الراضي الذي هو من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه الله ويحبه بل يفعل ما يسخطه ويكرهه؟ وهذه صفة أعداء الله لا أولياء الله.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: هذا في الحقيقة تنزل من الشيخ رحمه الله، وعناية بالأمر ليوضح لهم الطريق، وإلا في الحقيقة أنهم ليسوا أهلاً لأن يخاض معهم في هذا، لأنهم كابروا العقول وكابروا الشرائع في ما ذكروه من أن سؤال الله الجنة أو التعوذ بالله من النار ينافي الرضا عن الله وينافي محبة الرؤية، فهذا لا يقوله من يعقل ما يقول ويفهم ما يقول، ولكنه - رحمه الله - تنزل معهم في هذا البحث ليشرح لهم بطلان ما هم عليه من الباطل، وإلا فالأمر واضح، فشيء جاءت به الرسل وأنزل الله به الكتب ودعا الله إليه عباده أن يسألوه الجنة ويتعوذوا به من النار، وأن يلجأوا إليه في الدعاء، ويسألوه ما ينفعهم ويتعوذوا به مما يضرهم، ثم يعيبون هؤلاء ويرون أن من فعل ذلك أنه نقص في إيمانه! هذا من أجهل الجهل ومن أبطل الباطل.

بل كون المؤمن يسأل ربه حاجاته ويضرع إليه ويسأله الجنة ويتعوذ به من النار ويسأله أن يعينه على طاعته ويسأله أن يعيذه من معصيته ؛ هذا من كمال إيمانه ومن كمال تقواه لا من النقص، بل هذا يدل على عظيم علمه بالله، وأنه مفتقر إليه، وأنه في أشد الضرورة إلى عونه وتسديده وتوفيقه، فكيف يزعم أنه يحب الله وأنه يرضى عن الله وأنه يهمه أن يراه يوم القيامة وفي الجنة؛ ثم يقول: لا يُسأل الجنة ولا يتعوذ به من النار؟!

هذا من أقبح الكلام ومن أفسد الرأي .اهـ.

والقشيري قد ذكر هذا في أوائل باب الرضا فقال :اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله الذي أمر بالرضا به، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب على العبد الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين، وهذا الذي قاله قبله وبعده وغيره ومعه غير واحد من العلماء كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأمثالهما لما احتج عليهم بعض القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به، فلو كانت المعاصي بقضاء الله لكنا مأمورين بالرضا بها والرضا بما نهى الله عنه لا يجوز، فأجابهم أهل السنة عن ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها: وهو جواب هؤلاء وجماهير الأئمة أن هذا العموم ليس بصحيح، فلسنا مأمورين أن نرضى بكل ما قضي وقدر، ولم يجيء في الكتاب والسنة أمر بذلك، ولكن علينا أن نرضى بما أمرنا بالرضا به كطاعة الله ورسوله، وهذا هو الذي ذكره أبو القاسم.

والجواب الثاني: أنهم قالوا: إنا نرضى بالقضاء الذي هو من صفة الله أو فعله ولا نرضى بالمقضي الذي هو مفعوله، وفي هذا الجواب ضعف قد بيناه في غير هذا الموضع.

الثالث: أنهم قالوا: إن هذه المعاصي لها وجهان: وجه إلى العبد من حيث هي فعله وصنعه وكسبه، ووجه إلى الرب من حيث أنه خلقها وقضاها وقدرها، فترضى من الوجه الذي يضاف به إلى الله ولا نرضى من الوجه الذي يضاف به إلى العبد، إذ كونها شرا وقبيحة ومحرمة وسببا للعذاب والذم ونحو ذلك إنما هو من جهة كونها مضافة إلى العبد، وهذا مقام فيه من كشف الحقائق والأسرار ما قد ذكرنا منه ما ذكرنا في غير هذا الموضع ولا يحتمله هذا المكان، فإن هذا متعلق بمسائل الصفات والقدر وهو من أعظم مطالب الدين وأشرف علوم الأولين والآخرين وأدقها على عقول أكثر العالمين.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا الباب فيه بحث قوي ومهم، وهو الكلام في الرضا بقضاء الله وقدره.

ومعلوم أن الواجب على المؤمن الصبر على المصائب التي تصيبه وعدم الجزع وعدم فعل ما حرم الله من شق ثوب أو لطم خد أو كلام سيء.

ويشرع له الرضا أيضا بما شرع الله له من الطاعات والواجبات وترك المحارم، يرضى بهذا الأمر كما شرع له، فيصلي ويصوم، فيرضى بقضاء الله هذا، ما قضى الله عليه من طاعته وترك معصيته، لأن الله يحب هذا ويرضاه سبحانه وتعالى، وهذا لا نزاع فيه، بل هذا بإجماع أهل العلم أن الرضا بهذا واجب، الرضا بما أمر الله به، والرضا بترك ما نهى الله عنه، والرضا بكل ما شرع الله لعباده، الرضا به ومحبته.

فهذا الرضا به قضاء وقدراً، والرضا به شرعاً وديناً، كله مطلوب.

فإذا قال نفاة القدر: إنه يلزمكم أن ترضوا بالمعاصي؛ قلنا: لا، لا نرضى بالمعاصي وإن كانت بقدر، فالمعاصي قدرها الله ولكن لا نرضى بها، وإنما نرضى

بما أحب الله لنا، وبما شرع الله لنا من طاعته وترك معصيته نرضى بذلك ونحب ذلك ونصبر عليه.

أما ما نهى الله عنه فلا نرضى به، وإن كان ربنا له الحكمة في ذلك، لكن لا نرضى به من جهة فعله ومن جهة من فعله، هذا جواب أهل السنة.

وهناك جواب ثان ذكره المؤلف هنا: وهو أن الراضي بها من جهة أن الله قضاها وقدرها سبحانه، وله الحكمة البالغة، فنرضى به من حيث فعل الله له وقضاء الله له وتقديره لأنه حكيم عليم، ولا نرضى به من جهة فعل المخلوقين فإنه شر عليهم ومعصية وضرر عليهم.

والوجه الثالث: أن نرضى به مضافاً إلى الله، فكونه قضى هذا وقدره وسبق في علمه وجوده؛ نرضى به من جهة الله، ولا نرضى به من جهة فعل المخلوق وكسب المخلوق.

وهذا الوجه الثالث يَقْرُب من الوجه الثاني وله صلة به، فإن المعنى متقارب، فإن الرضا به من جهة الله فعلاً وقضاء، أو من جهة الله نسبةً وإضافة إليه، متقاربان، فنرضى به من حيث أن الله قدره وهو الحكيم العليم، قدّر هذه المعاصي وما يقع من الكفر، كله قدره لحكمة بالغة، ليتميز الصالح من الطالح والطيب من الخبيث، وليظهر فضله على أوليائه، وعدله في أعدائه، فنرضى به تقديراً وقضاء، ونرضى به منسوباً إلى الله ومضافاً إليه لأنه الحكيم العليم، ولا نرضى بها من جهة المخلوق إذا عصى وكفر، لا نرضى عنه بذلك، بل نقيم عليه حدود الله.

وهذه الوجوه الثلاثة بها ينفصل المؤمن وأهل السنة من القدرية النفاة الذين

قالوا: إنكم إذا آمنتم بالقدر لزمكم الرضا بالمعاصي، وهذا باطل لا يلزمنا، فنؤمن بقضاء الله وقدره، ولا يلزمنا أن نرضى بالمعاصي من أهلها ولا بالكفر من أهله، ولكنا نعلم أن ربنا حكيم عليم، وأنه قدرها لحكمة بالغة، وقضاها لحكمة بالغة، فنرضى بها من جهة قضائه وتقديره وفعله، ولا نرضى بها من جهة فعل المخلوق وتناول المخلوق وكسب المخلوق. أهـ

سؤال/ تضعيف المؤلف للجواب الثاني وقوله «وفي هذا الجواب ضعف قد بيناه في غير هذا الموضع»؟

أجاب سماحته رحمه الله: الضعف ليس بواضح لأنه صحيح، لأن كونه قضاء من الله؛ نرضى بأنه قضى هذا سبحانه وقدره لأنه الحكيم العليم لا نعترض عليه، لكن الأول أظهر. أهـ

سؤال/ قوله: «ولا نرضى بالمقضي الذي هو من مفعوله»؟

أجاب سماحته رحمه الله: من مفعوله «مفعوله» الذي هو فعل العاصي، فمفعولات المخلوقين هو الذي قضاها وهو خلقها سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمفعولات الكفار والعصاة كلها مخلوقة لله، ما خلقها غيره سبحانه وتعالى، فالعبد مخلوق وأفعاله مخلوقة من معصية وطاعة، ولكنا نرضى بها من جهة أن الله قدّر وقضى، فنرضى عنه سبحانه، نرضى عنه ونعلم أنه حكيم عليم، فلا ننكر عليه ولا نعترض عليه ولا نسيء به الظن سبحانه وتعالى، بل له الحكمة البالغة في كل شيء. أهـ

سؤال/ قوله: «ونرضى بالقضاء الذي هو فعل الله»؟

أجاب سماحته رحمه الله: مضاف إلى الله على تقدير اللام، خلق الله يعني

خلق لله، عبد الله أي عبد لله، فالمضافات على وجوه ثلاثة: على تقدير اللام، وعلى تقدير من، وعلى تقدير في. أهـ

سؤال/ وأقواها - أي المضافات -؟

أجاب سماحته رحمه الله: على حسب السياق، شيء يكون بمعنى اللام وشيء بمعنى من خير من الله يعني خير من الله، فضل الله يعني فضل من الله، عبد الله عبد لله، ناقة الله ناقة لله أو من الله يعني خلقها. أهـ

سؤال/ أقوى الوجوه؟

أجاب سماحته رحمه الله: الأول، نرضى بما شرع الله ولا نرضى بما حرم الله. أهـ

والمقصود هنا أن مشايخ الصوفية وغيرهم من العلماء قد بينوا أن من الرضا ما يكون جائزاً ومنه ما لا يكون جائزاً فضلاً عن كونه مستحباً أو من صفات المقربين، وأن أبا القاسم ذكر في الرسالة ذلك أيضاً.

فإن قيل: هذا الذي ذكرتموه أمر بيّن واضح فمن أين غلط من قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار وغلط من يستحسن مثل هذا الكلام كائنا من كان؟

قيل: غلطوا في ذلك لأنهم رأوا أن الراضي بأمر لا يطلب غير ذلك الأمر، فالعبد إذا كان في حال من الأحوال فمن رضاه أن لا يطلب غير تلك الحال، ثم إنهم رأوا أن أقصى المطالب الجنة وأقصى المكاره النار فقالوا: ينبغي أن لا يطلب شيئاً ولو أنه الجنة ولا يكره شيئاً ولو أنه النار، فهذا وجه غلطهم، ودخل الضّلال عليهم من وجهين:

أحدهما : ظنهم أن الرضا بكل ما يكون أمر يحبه الله ويرضاه ، وأن هذا من أعظم طرق أولياء الله ، فجعلوا الرضا بكل حادث وكائن أو بكل حال يكون فيها العبد طريقا إلى الله فضلوا ضلالا مبينا ، والطريق إلى الله إنما هي أن ترضيه بأن تفعل ما يحبه ويرضاه لا أن ترضى بكل ما يحدث ويكون ، فإنه هو لم يأمرك بذلك ولا رضيه لك ولا أحبه ، بل هو سبحانه يكره ويسخط ويبغض على أعيان أو أفعال موجودة لا يحصيها إلا هو .

وولاية الله موافقته بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض وتكره ما يكره وتسخط ما يسخط وتوالي من يوالي وتعادي من يعادي ، فإذا كنت تحب وترضى ما يسخطه ويكرهه كنت عدوه لا وليه ، وكان كل ذم نال من رضي ما أسخط الله قد نالك ، فتدبر هذا فإنه تنبيه على أصل عظيم ضل فيه من طوائف النسّاك والصوفية والعُبّاد العامة من لا يحصيهم إلا الله .

الوجه الثاني : أنهم لم يفرقوا بين الدعاء الذي أمروا به أمر إيجاب وأمر استحباب وبين الدعاء الذي نهوا عنه أو لم يؤمروا به ولم ينهوا عنه ، فإن دعاء العبد لربه ومسألته إياه ثلاثة أنواع :

نوع أمر به العبد إما أمر إيجاب وإما أمر استحباب مثل قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة) ، ومثل دعائه في آخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي ﷺ يأمر به أصحابه فقال : «**إذا قعد أحدكم في التشهد فليستعذ بالله من أربع من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال**»(١) فهذا دعاء أمر به النبي ﷺ الصحابة أن يدعوا به في آخر صلاتهم ، وقد اتفقت

(١) رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الأمة على أنه مشروع يحبه الله ورسوله ويرضاه وتنازعوا في وجوبه ، فأوجبه طاووس وطائفة وهو قول في مذهب أحمد ، والأكثرون قالوا : هو مستحب .

والأدعية التي كان النبي ﷺ يدعو بها أو يعلم أصحابه أن يدعوا بها لا تخرج عن أن تكون واجبة أو مستحبة ، وكل واحد من الواجب والمستحب فالله يحبه ويرضاه ، ومن فعله رضي الله عنه وأرضاه ، فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه؟!

ونوع من الدعاء ينهى عنه كالاعتداء في الدعاء مثل أن يسأل الرجل ما لا يصلح له مما هو من خصائص الأنبياء وليس هو بنبي ، وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى ، مثل أن يسأل لنفسه الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد من عباده ، أو يسأل الله أن يجعله أفضل من أولياء الله حتى يكون أفضل من أبي بكر وعمر ، أو يسأل الله أن يجعله بكل شيء عليم أو على كل شيء قدير ، أو يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب وأمثال ذلك ، أو مثل من يدعوه ظانا أنه محتاج إلى عباده وأنهم يبلغون ضره ونفعه فيطلب منه ذلك الفعل ، ويذكر أنه إذا لم يفعله حصل له ضير من الخلق ، فهذا ونحوه جهل بالله واعتداء في الدعاء وإن وقع في نحو ذلك طائفة من الشيوخ .

ومثل أن يقول : اللهم اغفر لي إن شئت ، فيظن أن الله قد يفعل الشيء مختارا وقد يفعله مكرها كالملوك فيقول : اغفر لي إن شئت .

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال : «لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له»(١) ومثل أن يقصد السجع في الدعاء ويتشهق ويتشدق وأمثال ذلك .

(١) رواه البخاري (٦٣٣٩) كتاب الدعوات/ باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ، ومسلم (٢٦٧٩) =

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الظاهر أن هذه من باب البكاء والتشدق في ذلك .أهـ

سؤال/ السجع في الدعاء مكروه؟

أجاب سماحته رحمه الله : يتحرى السجع في الدعاء على قوافي ، أما إذا جاء من غير قصد فلا بأس ، أما كونه يتحراه ويتكلف ، أو يتكلف الشهيق في دعائه وهو ليس بصحيح ، ليس عن بكاء ولا عن خشية الله ونحو ذلك .أهـ

سؤال/ التباكي؟

أجاب سماحته رحمه الله : يحرص على أسباب البكاء في صلاته ولكن لا يتظاهر بشيء ليس صحيحاً ، أو يتكلف بما يشغله عن الخشوع في الدعاء والانكسار واستحضار قلبه بين يدي الله ، فيكون همه هذا ، وليس السجعات وشهيق بدون حقيقة .أهـ

فهذه الأدعية ونحوها منهي عنها ، ومن الدعاء ما هو مباح كطلب الفضول التي لا معصية فيها

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومقصوده من هذا - رحمه الله كما تقدم - أن الواجب على العبد أن يحب ما أحبه الله وأن يكره ما يكرهه الله ، هذا هو المقصود ، فما أحبه الله أحبه العبد وطلبه ورضي به ، وما كرهه الله كرهه العبد ، وليس المعول على الوجود وكون الرب أوجده ، لا ، فقد يوجد المعاصي لحكمة بالغة ، ويوجد أشياء تضر العبد ، لكن يحب ما أحبه الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيحب العدل ويحب الإحسان ويحب ما

كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أحب الله من طاعته والإحسان إلى عباده والعدل فيهم ونحو ذلك ، ويكره ما كرهه الله من الظلم والفسق وإظهار المعاصي والبدع ونحو ذلك .

وهكذا في الدعاء ، يدعو بما أحبه الله ، يسأل الله الجنة ويتعوذ به من النار ، يسأل الله الرزق الحلال والزوجة الصالحة والذرية الطيبة ، ويدعو بالدعوات التي دعا بها النبي ﷺ ، أما أن يدعو بدعوات منكرة ، كأن يقول : اللهم أعطني فوق درجة الصدّيق وفوق درجة الأنبياء ، اللهم علمني الغيب كله حتى أعلم الغيب ، اللهم يسر لي شرب الخمر ، أو اللهم أعني على الزنا ، أو ما أشبهه ، فكل هذا اعتداء وظلم في دعائه ، نسأل الله العافية ، أو اللهم يسر لي قطيعة الرحم أو عقوق والدي ، فيستعين بالله على ما حرم الله ، فهذا من الاعتداء في الدعاء ، ولهذا يقول النبي ﷺ : «ما من عبد يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن تعجل له دعوته في الدنيا أو تدخر له في الآخرة أو يصرف عنه من الشر بمثل ما دعا» قيل : يا رسول الله إذاً نكثر قال : «الله أكثر»(١) .

فإذا كان الدعاء ليس فيه إثم وليس فيه معصية ولا قطيعة رحم فهو حري بالإجابة ، أما إذا كان فيه اعتداء ـ مثل ما ذكر المؤلف ـ في كون الدعاء في نفسه حرام ، أو يتضمن طلب حرام ، هذا هو القول المنكر ، ومثل الذي يأتي بدعاء منكر مثل : اللهم إني أسألك بجاه فلان أو بحق فلان أو بحقي عليك أو ما أشبه ذلك ، فهذا اعتداء .

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣/ ١٨ ، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠) والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٣ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وصححه الألباني ، انظر صحيح الأدب المفرد ١/ ٢٤٨ ، والمنذري في الترغيب والترهيب وقال : رواه البزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة والحاكم وقال صحيح الإسناد .

بل يقول : اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى ، اللهم إني أسألك بإيماني بك ومحبتي لك ، هذا توسل بما أحب سبحانه وتعالى .أهـ

سؤال/ إذا قال : وأصلح لي في ذريتي فإن بعض أهل العلم ينكر أن يقول كل ذريتي ؟

أجاب سماحته رحمه الله : هذا دعاء طيب ، هذا دعا به إبراهيم ، يعني اجعل لي صلاحاً في ذريتي ، ما قال من ذريتي .أهـ

سؤال/ هل هناك وجه شبه بين الخلق والأمر ؟

أجاب سماحته رحمه الله : الخلق يشمل الشر والخير ، أما الأمر فلا يكون إلا خيرا ، خلق الطاعة والمعصية ، وخلق الكافر والمسلم .أهـ

والمقصود أن الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب ولا ترك مستحب ، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا ، كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع ولا فعل المحرمات من الرضا المشروع .

فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجاباً أو استحبابا والدعاء غير المشروع .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يسأل ويجتهد ، فإذا أجاب الله دعوته يسر له الأسباب وأعانه ، فيقول : اللهم ارزقني الحلال ويجتهد في طلب الحلال لا يصير كسلان عاجزاً ، ويقول : اللهم يسر لي طلب العلم اللهم علمني كذا ويطلب العلم ، ولا يكون كسلان عاجزاً ما أدى واجب السؤال .أهـ

وقد علم بالاضطرار من دين الاسلام أن طلب الجنة من الله والاستعاذة به

من النار هو من أعظم الأدعية المشروعة لكل أحد من المرسلين والنبيين وجميع الصديقين والشهداء والصالحين ، وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجبا أو مستحبا .

وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات ، إذ ما سوى ذلك محرم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين .

ثم إنه مما أوقع هؤلاء في هذا الغلط أنهم وجدوا كثيرا من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ودفع المضار ، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيرا بل من جهة كون النفس تطلب ذلك ، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلا ، بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر كائنا من كان ، وهذا هو الذي أدخل كثيرا منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة ، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به ، فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور عبادة يحكم الطبع والهوى والعادة ، ومعلوم أن الأفعال التي تقع على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة ، فرأى أولئك أن الطريق إلى الله ترك هذه الأمور لأنها من الطبيعيات والعادات ، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات ومحرمات .

وكلا الأمرين غير محمود ولا مأمور به ولا طريق إلى الله ، بل طريقها طريق المفرطين الذين فعلوا هذه الأمور المحتاج إليها على غير وجه العبادة والقربة إلى الله ، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال ، بل المشروع أن تفعل بنية التقرب إلى الله وأن يشكر الله .

قال تعالى : ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ (المؤمنون ٥١) ،

وقال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ (البقرة ١٧٢)، فأمر بالأكل والشكر، فمن أكل ولم يشكر كان مذموما، ومن لم يأكل لم يشكر كان مذموما.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا أساسه الجهل، وهذا مما ابتلي به بعض السالكين من الصوفية وأشباههم من الزهاد، حتى أضروا في أنفسهم بترك الأكل والشرب والنكاح ونحو ذلك، وزعموا أن هذا يعينهم على العبادة والتجرد من حظ النفس، حملهم عليه الجهل وقلة البصيرة في الدين، كما قال الشاعر:

ما يبلغ الأعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

فالجهل داء عضال، ولم يعلم أولئك ولم يتنبهوا أن الرسل - وهم أفضل الخلق - أكلوا وشربوا وتزوجوا، فاستعانوا بهذه النعم على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ وهذا الجسم لا يستقيم إلا بالأكل والشرب، فإذا أجاعه الإنسان وأظمأه وأتعبه فكيف يعبد الله وكيف يستقيم وكيف يتهجد وكيف يأمر بالمعروف وكيف ينهى عن المنكر وكيف يقضي حاجة أهله؟ فهذا الجهل الشديد والعدول عما طبع الله عليه العباد وما جبلهم عليه سبحانه وتعالى.

فالحاصل أن الذي فعله أولئك المتصوفة الجهلة كله مخالف لشرع الله وكله باطل، وكله حملهم عليه الجهل وقلة البصيرة، أو ما فعله بعضهم من إرادة الترفع عند الناس والتقرب إلى الناس بهذه الأشياء التي يزعمون أنها طاعة وأنها عبادة وهي جهل صرف، نسأل الله العافية. اهـ

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: هذا الحديث العظيم من نعم الله «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها» من نعم الله أنه يأكل ومع هذا يرضى عنه الرب جل وعلا، فهذه من نعم الله، فيأكل ويحمد ربه ويشرب ويحمد ربه ويشتكي ويحمد ربه، لا يتجرد ويبقى في جوعه يتلوى وفي الظمأ ويقول هذه عبادة، بل هذا جهل، بل يأكل ويشرب ويستعين بذلك على طاعة الله فيشكر الله على ما يسر له من النعم من الطعام والشراب والعافية واللباس وغير ذلك، وكونه يأكل ويحمد الله ويشرب ويحمد الله من أسباب رضا الله عنه سبحانه وتعالى، وهذا رواه مسلم في الصحيح «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»(٢). أهـ

وقال النبي ﷺ لسعد: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك»(٣).

وفي الصحيح أيضاً أنه: «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة»(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) تقدم.

(٣) رواه البخاري (٥٦) كتاب الإيمان/ باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية/ باب الوصية بالثلث، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٥٥) كتاب الإيمان/ باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ومسلم (١٠٠٢) كتاب الزكاة/ باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

فكذلك الأدعيـة هب أن من الناس من يسأل الله جلب المنفعـة له ودفع المضرة عنه طبعا وعادة لا شرعا وعبادة، فليس من المشروع لي أن أدع الدعاء مطلقا لأجل تقصير هذا وتفريطه بل أفعله أنا شرعا وعبادة.

ثم اعلم أن الذي يفعله شرعا وعبادة إنما يسعى في مصلحة نفسه وطلب حظوظه المحمودة فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته، بخلاف الذي يفعله طبعا فإنه إنما يطلب مصلحة دنياه فقط كما قال تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (البقرة)، وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النار إنما يطلب حسنة الآخرة فهو محمود.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمعنى في هذا أنهم فروا من شيء وهم واقعون فيه، فإن من يعمل بطاعة الله إنما أراد مصلحته أيضا، يريد الجنة يريد الاستعاذة من النار، وهذه مصلحة عظمى، وإذا كان من أكل وشرب في الدنيا يريد متاع الدنيا مذموم؛ فإنما ذم لأنه ما أراد الآخرة ولا قصد الآخرة ولا طلبها، فإذا أكل وشرب وعمل يريد السعادة ويريد الآخرة ويريد أن يستعين على طاعة الله ويريد الجنة والنجاة من النار فقد سعى لمصلحته وسعى لنجاته، فهو مشكور غير مذموم، وإن كان إنما أراد سعادة نفسه ونجاتها من عذاب الله، فهو مأمور بهذا، مأمور بأن يسعى لهذا الخلاص، مأمور بأن يسعى لخلاصه ونجاته من النار، فإذا أكل وشرب وحمد الله وشكره سبحانه واستعان بنعمه على طاعته

واجتهد في أداء ما أوجب الله وترك ما حرم الله والتهجد بالليل والجهاد في سبيل الله والصدقة على الفقراء يريد النجاة ويريد السعادة ؛ فهو ساع لنفسه ، والله غني عنه وعن عمله سبحانه وتعالى ، وهو بهذا إنما سعى للخير في الآخرة والسعادة في الآخرة ، فهو ممدوح غير مذموم ، وإنما ذاك الذي سعى للدنيا مذموم لأنه ما أراد الآخرة فاستحق الذم .أهـ.

ومما يبين الأمر في ذلك أن يرد قول هؤلاء بأن العبد لا يفعل مأمورا ولا يترك محظورا فلا يصلي ولا يصوم ولا يتصدق ولا يحج ولا يجاهد ولا يفعل شيئا من الخير ، فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب ، فإذا كان هو لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة ولا دفع العقاب الذي هو النار فلا يفعل مأمورا ولا يترك محظورا ، ويقول : أنا راض بكل ما يفعله بي وإن كفرت وفسقت وعصيت ، بل يقول : أنا أكفر وأفسق وأعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه فأنال درجة الرضا بقضائه ، وهذا قول من هو أجهل الخلق وأحمقهم وأضلهم وأكفرهم .

أما جهله وحمقه فلأن الرضا بذلك ممتنع متعذر ، ولأن ذلك مستلزم الجمع بين النقيضين .

وأما كفره فلأنه مستلزم لتعطيل دين الله الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ، ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر أوقعت كثيرا من أهل الإرادة من المتصوفة في أن تركوا من المأمور وفعلوا من المحظور ما صاروا به إما ناقصين محرومين وإما عاصين وإما فاسقين وإما كافرين ، وقد رأيت من ذلك ألوانا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور) .

وهؤلاء والمعتزله ونحوهم من القدرية في طرفي نقيض :هؤلاء يلاحظون

القدر ويعرضون عن الأمر، وأولئك يلاحظون الأمر ويعرضون عن القدر، والطائفتان نظن أن ملاحظة الأمر والقدر متعذر، كما أن طائفة تجعل ذلك مخالفا للحكمة والعدل.

وهذه الأصناف الثلاثة هي القدرية المجوسية والقدرية المشركية والقدرية الإبليسية، وقد بسطنا الكلام على هذه الفرق في غير هذا الموضع.

وأكثر ما يبتلى به السالكون أهل الإرادة والعامة في هذا الزمان هي القدرية المشركية فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

وإنما المشروع العكس وهو أن يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل ويشكره عليها بعد الفعل ويجتهد أن لا يعصي، فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار كما في الحديث: «سيد الاستغفار أن يقول: العبد أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا هو الواجب على العباد أن يشكروا الله على النعم بالطاعات، وأن يتوبوا إليه من المعاصي والمعائب، وأن يستمروا بهذا السبيل، يؤدون الطاعات شاكرين لله عزوجل، ويحذرون المعاصي سائلين له سبحانه وتعالى أن يعينهم على ذلك وأن يثبتهم على الحق، وهكذا سار الأنبياء والصالحون بين هذا وهذا، بين ترك المعاصي والسيئات والحذر منها، وبين فعل الطاعات وشكر الله عليها، وبين الخوف والرجاء، هكذا.

أما أهل الانحراف والفساد فإنهم عند الطاعات قدريون يقولون: لا نفعل إلا بقدر، وما قدّر الله هذا، وما قدّر الله أنا نصلي، وما قدّر أنا نزكي، وهكذا

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦) كتاب الدعوات/ باب أفضل الاستغفار، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

يحتجون بالقدر فيتركون ما أوجب الله ، وعند المعاصي يزعمون أنهم مجبورون وأنهم لا حيلة لهم وأن هذا قدر الله فيهم ، فيحتجون بالقدر على المعاصي والسيئات وعلى ترك الطاعات ـ نعوذ بالله ـ وهذا هو الفساد العظيم والكفر البواح ، وهذا عمل إبليس وجنوده ، نسأل الله العافية ، وعمل المشركين ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ .

فالحاصل أن الواجب على أهل الإيمانِ الإيمانُ بالقدر ، وأن الله قدّر الأشياء وكتبها سبحانه ، وملاحظة الأمر ، فلا هذا ولا هذا ، بل يؤمن بالقدر ويلاحظ الأمر ، فيسير إلى الله عزّ وجل ممتثلاً للأوامر تاركاً للمعاصي ، مؤمناً بقدر الله وأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له سبحانه وتعالى ، فهو حريص على طاعة الله ، كافٌ عن معاصي الله ، مؤمن بقدر الله ، جاد في طاعة الله جل وعلا والجهاد في سبيله ، وجهاده جهاد النفس ، مؤمن بأنه لن يصبه إلا ما كتبه الله له سبحانه وتعالى .أهـ

وكما في الحديث الصحيح الإلهي : «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك لا يلومن إلا نفسه»(١) .

ومن هذا الباب دخل قوم من أهل الإرادة في ترك الدعاء ، وآخرون جعلوا التوكل والمحبة ونحو ذلك من مقامات العامة ، وأمثال هذه الأغاليط التي قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع .

وبينا الفرق بين الصواب والخطأ في ذلك ، ولهذا وأمثاله يوجد في كلام أئمة

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

هؤلاء المشايخ الوصية باتباع العلم والشريعة ، كقول سهل بن عبدالله التستري رحمه الله : العمل بلا اقتداء عيش النفس والعمل بالاقتداء عذاب على النفس .

وقال : كل وَجْد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

وقال الجنيد بن محمد : من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الشأن لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال أحمد بن أبي الحواري : من عمل عملا بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل عمله .

فصل في السكر وأسبابه وأحكامه

قد تكلمت فيما مضى من القواعد على معاني الفناء الموجود في كلام المشايخ والصوفية وأنه ثلاثة أقسام : قسم كامل للسابقين ، وقسم ناقص لأصحاب اليمين ، وقسم ثالث للظالمين الفاسقين والكافرين .

فالأول : الفناء عن عبادة ما سوى الله والاستعانة به بحيث لا يعبد إلا الله ولا يستعين إلا بالله وهذا هو دين الاسلام .

والثاني : الفناء عن شهود ما سوى الله بحيث يغيب بمشهوده عن شهوده ، وهذا لمن لم يقدر على الجمع بين شهود الحقائق وعبادة الخالق ، بل ما شهده عنده ومعبوده واحد فمشهوده واحد ، وهذا يعتري كثيرا كالعيسوية من هذه الأمة الذين لهم وصف العبادة دون الشهادة ، فلهم قوة في العبادة والإنابة والمحبة يحتذبهم ذلك إلى معبودهم ومقصودهم ومحبوبهم ، وليس لهم قوة مع ذلك على شهود سائر ما يقوم به من الكائنات وما يستحقه من الأسماء والصفات ، فهؤلاء إذا لم يتركوا واجبا لم يضرهم ، وإن تركوا مستحبا مشتغلين عنه بما هو أفضل منه لم ينقلوا عن مقامهم ، وإن اشتغلوا عما تركوه من المستحب بما ليس

مثله فانتقالهم إلى ذلك الأفضل أفضل إذا أمكن، وإلا فعمل المقدور عليه من الصالحات خير من الاهتمام بما يعجز عنه ويصد عن غيره، وإن تركوا واجبا أو فعلوا محرما مع إمكان العلم والقدرة فهم مؤاخذون على ذلك، وإن كان مع سقوط التمييز لسبب يعذرون به مثل زوال عقل بسبب غير محظور أو سكر بسبب غير محظور، أو عجز لا تفريط فيه فلا ذم عليهم، وإن كان مع التكليف فسبب الذم قائم، ثم لهم حكم الله فيهم كما قال لسائر المؤمنين من كون الذنب صغيرا أو كبيرا مقرونا بحسنات ماحية أو غير ذلك من أحكام السيئات ما لم يخرجوا إلى القسم الثالث وهو فناء الكافرين، وهو جعل وجود الأشياء هو عين وجود الحق، أو وجود نفسه عين وجوده، كما بيناه من مذاهب أهل الحلول والاتحاد في غير هذا الموضع، فإن هذا كفر وصاحبه كافر بعد قيام الحجة عليه، وإن كان جاهلا أو متأولا لم تقم عليه الحجة، كالذي قال: «**إذا أنا مت فاحرقوني ثم ذروني في اليم**»(١) فهذا أمره إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء ٤٣)، فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكر أن يعلم ما يقول، فمتى كان لا يعلم ما يقول فهو في السكر وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، فهذا أصل يجب اعتماده، وهذا هو حد السكران عند جمهور العلماء.

قال أحمد بن حنبل بما نقله عن سعيد بن جبير أنه قال: إذا لم يعلم بثيابه من ثياب غيره ولا نعله من نعال غيره، فجعل ذلك عدم التمييز بين ثوبه وثوب غيره، ويروى عن الشافعي أنه قال إذا اختلط كلامه المنظوم وأفشى سره المكتوم.

(١) رواه البخاري (٣٤٧٨) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ومسلم (٢٧٥٦) كتاب الرقاق/ باب سعة رحمة الله على المؤمنين، من حديث أبي هريرة ﷺ.

فالسكر يجمع معنيين :وجود لذة وعدم تمييز ، والذي يقصد السكر قد يقصد أحدهما وقد يقصد كلاهما وهو اثم ، فإن النفس لها أهواء وشهوات تلتذ بنيلها وإدراكها والعقل والعلم بما في تلك الأفعال من المضرة في الدنيا والآخرة يمنعها عن ذلك ، فإذا زال العقل الحافظ انبسطت النفس في أهوائها .

وحرم الله السكر لسببين ذكرهما الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة) فأخبر أنه يوجب المفسدة الفاشية من النفس بعدم العقل ، ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل التي خلق لها العبد وهي ذكر الله والصلاة .

وقد يكون سبب السكر من الألم كما يكون من اللذة كما قال الله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج ٢) ، فأخبر أنهم يُرون سكارى وما هم بسكارى .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا أن الناس في هذا المقام أقسام :في الفناء ، وفي السكر كذلك ، فالفناء يعبر به الصوفية عن فناهم عن كل شيء إلا عن مشاهدة الله سبحانه وتعالى ، فهم يشاهدون عظمته وكبرياءه وحقه عليهم - بزعمهم - ويفنون عن ما سوى ذلك ، يعني ينقصون عما سوى ذلك حتى أوقعهم هذا الأمر في معاصي كثيرة ، وأوقعهم في وحدة الوجود ، وأوقعهم في أشياء كثيرة لأنهم لم يحصنوا عقولهم ، فصارت هذه الكلمة تجرهم إلى شر عظيم وفساد كبير ، فإنهم لم ينظروا في الأوامر ولا في النواهي ، بل نظروا في الجمع ، نظروا في أن الله خالق الخلق ، وأنه رب الجميع ، وأنه كل شيء ، وذهلوا

ووجدوا على عقولهم حتى لم يميزوا بين الطاعة والمعصية وبين الخير والشر وبين العبد والمعبود وبين الله والعابد، فصاروا في شر عظيم وفساد كبير، ووقعوا فيما لا تحمد عقباه.

وهذا هو الذي قد بيّن المؤلف رحمه الله أن صاحبه كافر ضال خارج عن دين الإسلام، إلا أن يكون جاهلاً لا يعرف شيئاً فتقام عليه الحجة ويعلّم، كما تقام الحجة على أهل الفترات والبعيدين عن الإسلام، فيعلم ما هو الواجب عليه.

وهناك فناء وهو فناء المؤمنين وفناء أهل التوحيد فناء عن عبادة غير الله وإعراض عنها وكفر بها وإنكار لها، وفناء عن المعاصي وإنكار لها، وجمع القلب على توحيد الله والإخلاص له والإيمان به واتباع شريعته وتعظيم أمره ونهيه، وهذا فناء أهل الإيمان الرسل وأتباعهم.

وسمي فناءً لمجاراة الصوفية فيما يقولون، وهو في الحقيقة إقبال على الله، وجهاد في طاعته، وحضور للقلب بين يديه سبحانه وتعالى، وكفاف عن معاصيه.

وبعض الناس وسط وفناؤه وسط، وهو إقباله على ما أوجب الله، وكفه عما حرم الله، واشتغاله عما سوى ذلك من المستحبات والمكروهات والتوسع في المباحات، فالمؤمن قد جمع قلبه على فعل الواجب وترك المحرم، وهذا هو صاحب اليمين، وهم أصحاب اليمين.

وإذا حصل عندهم يقظة وانتباه زادوا على هذا بتعاطي بعض المستحبات والبعد عن بعض المكروهات.

وأما السكر فهو أقسام:

أجاب سماحته رحمه الله : باطل ، لأنه ليس له عقد وإن كان هو الذي أسكر نفسه لكن لا يؤخذ ماله .أهـ

سؤال / التوسع في المأكولات؟

أجاب سماحته رحمه الله : التوسع في المأكولات لا شيء فيه ، ولكن شرب المسكرات والخمور والحشيش ، أما هذا التوسع في المأكولات قد يضره ، قد يسبب له المرض ، مرض البطنة ، التخمة .أهـ

فإذا عرف ذلك فسبب السكر ما يوجب اللذة ويمنع العلم ، فمنه السكر بالأطعمه والأشربة المسكرة ، فإن طاعمها يحصل له بذلك لذة وسرور وهو الحامل لأكثر الناس على شربها ويغيب عقله فتغيب عنه الهموم والأحزان تلك الساعة .

ومن الناس من يقصد المنفعة للبدن ولكن يحصل له من المضرة بالأفعال والأقوال التي تتولد عن السكر ويمنع عن المنفعة من ذكر الله والصلاة وغيرهما ما هو أعظم إثما من منفعتها ، فإن اللذة

الحاصلة بذكر الله والصلاة باقية دافعة للهموم والأحزان ليس دفعه إياه وقت الصلاة فقط كما قال تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة ٤٥) ، وقـال : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت ٤٥) ، ففي هذه اللذة والمنفعة العظيمة الشريفة الدافعة للمضار ما يغني عن تلك القاصرة المانعة مما هو أكمل منها والجالبة لمضرة تربو عليها ، وهذا السكر جسماني .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا من ضعف عقولهم ، فإنهم يظنون أنهم

إذا شربوا الخمر نسوا آلامهم ونسوا ما في نفوسهم من الشر، وهذا شيء مؤقت، فإذا صحوا عادت إليهم أمراضهم وعادت إليهم شرورهم وهمومهم وبلاؤهم، نسأل الله العافية.

بخلاف من رزق الاستعانة بالصلاة والذكر والاستقامة؛ فإن الله يمحو عنه شراً كثيراً ويزيح عنه هموماً كثيرة ويشرح صدره للخير ويستمر هذا الدهر الطويل.

ففي طاعة الله وذكره والقيام بأمره والصلاة من صلاح الصدر واستقامة الحال وانشراح القلب والطمأنينة ما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى. أهـ.

ومن السكر ما يكون بحب الصور وإما النساء وإما الصبيان، فإنه إذا استحكم الحب وحصل للمحب اتصال فقد يسكر كما قال بعضهم:

سكران سكر هوى وسكر مدامة

فمتى إفاقة من به سكران

ووقت الجماع ينقص تمييز أكثر الناس أيضا وهو مبدأ سكر.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: يعني جماع المرأة، قد يسكر عما أوجب الله عليه وعما حرم الله عليه بحب لذة الجماع وعدم الانتباه لما يترتب عليها.

والزنا واللواط - نعوذ بالله - قد يسكر الزناة واللوطية عما أوجب الله عليهم وما حرم عليهم، فتكون عقولهم في غيبة عن هذا بسبب حب الشهوة وحب الهوى. أهـ.

ومن السكر أيضا ما يكون بحب الرياسة والمال أو شفاء الغيظ فإنه إذا قوي ذلك أوجب سكرا.

قال سماحة الشيخ رحمه الله : حب المال وحب الرياسة ـ نسأل الله العافية ـ قد يغيب عنه صاحبه عن التمييز بسبب شغله بأسباب تحصيل الرئاسة أو تحصيل المال ، فلا يميز بين الضار والنافع وبين الحلال والحرام ، لأن قلبه مشغول بهذا الأمر ، نسأل الله العافية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .أهـ

وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب سكرا لأن السكر شبيه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل ، وسبب اللذة إدراك المحبوب ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحب قويا والعقل والتمييز ضعيفا كان ذلك سببا للسكر ، لكن ضعف العقل تارة يكون من ضعف نفس الإنسان المحب وتارة يكون من قوة السبب الوارد ، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرياسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه .

سؤال / ضابط حب الرئاسة؟

أجاب سماحته رحمه الله : كونه لا يفرق بين الحلال والحرام ، ولا يهمه إلا حصول مطلوبه .أهـ

سؤال / يقاس الجماع على الطعام إذا حضر في ترك الصلاة؟

أجاب سماحته رحمه الله :الله أعلم .أهـ

ومن أقوى الأسباب المقتضية للسكر سماع الأصوات المربية من وجهين :

من جهة أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل ، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائنا ما كان ، فتحصل بتلك الحركة والشوق والطلب مع ما قد تخيل المحبوب وتصوره لذات عظيمة تقهر العقل أيضا فتجتمع لذة الألحان والأشجان .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ولهذا حرم الله الأغاني ومثيلها من أسباب

أمراض القلوب ، فإن سماع الأصوات المطربة يغطي القلب ويحمل عليه غشاوة فيسكر بذلك عما يهمه وعما يجب عليه وعما يحرم عليه ، وربما وقع في الحرام وترك ما أوجب الله ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني : ليضل غيره ، وقرأ : ﴿ لِيَضِلَّ ﴾ يعني : تضله هذه الأشياء ، ولهذا يقول عبدالله بن مسعود ﷺ : « إن الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل »[(١)] ، ويحلف على هذا ، لأن العبد إذا اعتاد الأغاني وسماع الملاهي يحصل له مرضان :

مرض بسماعها ، ومرض بما تميل إليه النفس من الهوى والمشتهيات والمحبوبات التي يريدها ويعشقها .

فيجتمع عليه المرضان : مرض سماع الشر ، ومرض ما يميل إليه قلبه ويريده بهذه الشهوات التي تقع من الأغاني والملاهي ، نسأل الله العافية . اهـ .

ولهذا يقرن سماع الألحان بالشرب كثيرا إما شراب الأجسام وإما شراب النفوس وإما شراب الأرواح وهو ما يقترن بالصوت من الأقوال التي فيها ذكر الحب والمحبوب وأحوالهما ، فإن سماع الأقوال شراب وغذاء وقوت للقلوب ، فيجتمع سماع الحروف الطيبة والأصوات الطيبة ، فإن ذلك أقوى مما إذا انفرد أحدهما ، مثل سماع كلام يطيب للمستمع بلا أصوات ملحنة ، مثل من يناجي بحديث لحنه أو يجهر به جهرا قريبا ، ومثل سماع أصوات طيبة لا حروف فيها كأصوات الطيور الطيبة وأصوات الآلات المصنوعة من العيدان والأوتار والشبابة والصوت الذي يلحنه الآدمي بلا حروف ونحو ذلك ، فأما إذا اجتمع هذا وهذا فهو أقوى ويؤثر في النفوس تأثيرا عظيما كتأثير الخمر أو أشد .

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٢٣ وفي شعب الإيمان ٤/ ٢٧٨ .

فصل

إذا تبين هذا فاعلم أن اللذة والسرور أمر مطلوب بل هو مقصود كل حي ، وكونه أمرا مطلوبا ومقصودا أمر ضروري من وجود الحي ، وهو في المقاصد والغايات بمنزلة الحس والعلوم البديهية في المبادئ والمقدمات .

فإن الإنسان بل وكل حي له علم وإحساس وله عمل وإرادة ، فعلمه لا يجوز أن يكون كله نظريا استدلاليا يقف على الدليل ، بل لا بد له من علم بديهي أولي ، لأنه لو وقف كل علم على علم آخر لزم الدور أو التسلسل ، فإنه إذا توقف العلم الثاني على علم أول فالأول إن توقف على ذلك الثاني بحيث لا يكون إلا بعده لزم الدور ، وإن توقف على شيء قبل ذلك الأول لزم التسلسل ، فلا بد من علم أول يحصل ابتداء بلا علم قبله ولا دليل ولا حجة ولا مقدمة .

وذلك العلم بده النفس وابتدئ فيها وهو أول فيسمى بديهيا وأوليا وهو من نوع ما تضطر النفس إليه فيسمى ضروريا ، فإن النفس تضطر إلى العلم تارة وإلى العمل أخرى .

وذلك العمل الاختيار الإرادي له مراد ، فذلك المراد إما أن يراد لنفسه أو لشيء آخر ، ولا يجوز أن يكون كل مراد لغيره لأنه إن كان الذي قبله دائما لزم الدور ، وإن كان الذي بعده دائما لزم التسلسل ، فلا بد من مراد مطلوب محبوب لنفسه ، فإذا حصل المحبوب المطلوب المراد فاقترن اللذة والنعمة والفرح والسرور به على مقدار قوة محبته وإرادته ، وقوته في نفسه أمر ذوقي وجودي ضروري ، ولهذا غلب على كلام العباد الصوفية أهل الإرادة والعمل اسم الذوق والسرور والنعمة ، فالشهوة والإرادة والمحبة والطلب ونحو ذلك من الأسماء

المتقاربة إذا تعقبها الذوق والوجد والإدراك والوصول والنيل والإصابة ونحو ذلك من الأسماء المتقاربة تعقب ذلك النعمة والسرور واللذة والطيب ونحو ذلك من الأسماء المتقاربة .

فإن جنس اللذة يتعقب إدراك الملائم المطلوب ، ليس هو مدرك الملائم المطلوب كما يعتقده بعض أهل الفلسفة والكلام ، وكما غلب على أهل التصوف والعبادة ذكر ذلك وغلب على كلام العلماء المتكلمين أهل النظر والبحث والكلام أهل البديهة والنظر والضرورة والدليل والاستدلال .

وكل واحد من هذين الأمرين تحته أجناس وأصناف بعضها حق وبعضها باطل ، فلهذا وجب اعتبار ذلك جميعه بالكتاب والسنة ، فخير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد .

ولهذا كان أئمة الهدى ممن يتكلم في العلم والكلام أو في العمل والهدى والتصوف يوصون باتباع الكتاب والسنة وينهون عما خرج عن ذلك كما أمرهم الله والرسول ﷺ ، وكلامهم في ذلك كثير منتشر مثل قول سهل بن عبد الله التستري :كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا أن الكتاب والسنة هما الميزان ، وهما السفينة التي من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك ، فإن أذواق الناس ومواجيدهم وكلامهم وأعمالهم لا حد لها ولا حصر لها ، لا الصوفية ولا غير الصوفية ، فالناس لهم أذواق ولهم أشياء يستلذونها ، ولهم أقوال يصطلحون عليها ، ولهم أعمال يصطلحون عليها ، فهذه الأذواق والمواجيد والأعمال والأقوال وما يصطلحون عليه من الإشارات وغير ذلك ؛ كله لابد أن يكون له دليل من الكتاب أو السنة في حقه أو باطله ، فأذواقهم ومواجيدهم وأذواقهم

وأعمالهم وغيرها، وكذلك غيرهم، كلها يجب أن تعرض على الأدلة الشرعية، فما دلت الأدلة الشرعية على أنه طيّب أخذ به، وما لا فلا، لأنه لا تنضبط أمور الناس إلا بما بينه الله لعباده، فخير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ .أهـ

فصل

وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها أو منعت لذة خيراً منها وتحمد إذا أعانت على اللذة المستقرة وهو نعيم الآخرة التي هي دائمة عظيمة كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝﴾ (يوسف)، وقال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝﴾ (الاعلى)، وقال تعالى عن السحرة الذين آمنوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝﴾ (طه).

والله سبحانه إنما خلق الخلق لدار القرار وهي الجنة والنار، فأما الدار الدنيا فمنقطعة ولذاتها لا تصفوا ولا تدوم أبداً، بخلاف الآخرة فإن لذاتها ونعيمها صاف من الكدر دائم غير منقطع ليس فيها حزن ولا نصب ولا لغوب، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يمتخطون، بل فيها ما تشتهي

الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، فشهوة النفوس ولذة العيون هو النعيم الخالص والخلود هو الدوام والبقاء ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (السجدة ١٧)، فإن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بَلْه ما أطلعهم عليه.

وهذا المعنى هو الذي قاله العبد الصالح حيث قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ (غافر)، فأخبر أن الدنيا متاع نتمتع بها إلى غيرها وأن الآخرة هي المستقر.

وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها إنما هي متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة وكذلك خلقت فكل لذة أعانت على لذات الآخرة فهو مما أمر الله به ورسوله، ويثاب على تحصيل اللذة بما يثوب إليه منها من لذات الآخرة التي أعانت هذه عليها، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولباسه ونكاحه وشفاء غيظه بقهر عدوه في الجهاد في سبيل الله ولذة علمه وإيمانه وعبادته وغير ذلك، ولذات جسده ونفسه وروحه من اللذات الحسية والوهمية والعقلية.

وكل لذة أعقبت ألماً في الدار الآخرة أو منعت لذة الآخرة فهي محرمة، مثل لذات الكفار والفساق بعلوهم في الأرض وفسادهم، مثل اللذة التي تحصل بالكفر والنفاق كلذة الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، ولذة عقائدهم الفاسدة وعباداتهم المحرمة، ولذة غلبهم للمؤمنين الصالحين وقتل

النفوس بغير حقها والزنا والسرقة وشرب الخمر، ولهذا أخبر الله أن لذاتهم إملاء ليزدادوا إثما وأنها مكر واستدراج مثل أكل الطعام الطيب الذي فيه سم، وهذا المعنى قد قررته أيضا في قاعدة السكر.

وأما اللذة التي لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألما ولا تمنع لذة دار القرار فهذه لذة باطلة إذ لا منفعة فيها ولا مضرة، وزمانها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر، وهي لابد أن تشغل عما هو خير منها في الآخرة وإن لم تشغل عن أصل اللذة في الآخرة.

وهذا هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فإنهن من الحق» رواه مسلم[1]، وكقوله لعمر لما دخل عليه وعنده جوار يضربن بالدف فأسكتهن لدخوله وقال: «إن هذا رجل لا يحب الباطل»[2] فإن هذا اللهو فيه لذة ولولا ذلك لما طلبته النفوس.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ومعنى هذا أن الباطل لا فائدة فيه وربما أشغله عن شيء، وهو من جنس الشيء المباح الذي لا فائدة فيه ولا أهمية، بخلاف تأديبه فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه ونحو ذلك، هذا فيه فائدة، إيناس أهله،

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١٣) كتاب الجهاد/ باب في الرمي، والترمذي (١٦٣٧) كتاب فضائل الجهاد/ باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائي (٣٦٠٨) كتاب الخيل/ تأديب الرجل فرسه، ورواه ابن ماجه بلفظه (٢٨١١) كتاب الجهاد/ باب الرمي في سبيل الله، من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ.

(٢) رواه أحمد (١٥٩٩٠) ٣٣/ ١٢٠ من حديث الأسود بن يزيد أنه أنشد بين يدي النبي ﷺ، وأما حديث المرأة التي نذرت أن تضرب بالدف بين يدي النبي ﷺ فرواه أبو داود (٣٣١٢) كتاب الأيمان والنذور/ باب ما يؤمر به من وفاء النذر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

وإعداده للحرب ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ هذا فيه فائدة كبيرة.

فأما الشي الذي لا فائدة فيه كبعض الكلمات التي يُمدح بها، أو بعض الأشياء التي يتعاطاها من الأكل الذي لا حاجة إليه، أو ما أشبه ذلك. أهـ

سؤال/ لذة طلب العلم؟

أجاب سماحته رحمه الله: العلم مما يحبه الله، ومما يعين على طلب العلم، فلذة التسبيح والتهليل والتكبير ولذة الصلاة، لذة الصيام، هذه لذات يحبها الله وتعين صاحبها على الخير. أهـ

سؤال/ ملاعبته ولده؟

أجاب سماحته رحمه الله: إذا كانت لا تشغله فهي له جائزة، إنما الباطل الذي ليس فيه فائدة، لا شر ولا خير، وقد يكون يلحق بالخير إذا كانت قليلة، مثل الولد، مثل ما كان النبي يلاعب الحسن والحسين ويقبلهما، هذا مما يحبه الله جل وعلا، وفيه فائدة، إيناس الطفال وشرح صدورهم، ويدخل فيه ملاعبة أهله، لأن الولد من الأهل، ليس خاصا بالزوجة فقط. أهـ

سؤال/ اللهو في المزح في الكلام؟

أجاب سماحته رحمه الله: إذا كان لا يصد عن حق ولا يوقع في باطل فهو مباح. أهـ

ولكن ما أعان على اللذة المقصودة من الجهاد والنكاح فهو حق، وأما ما لم يعن على ذلك فهو باطل لا فائدة فيه، ولكن إذا لم يكن فيه مضرة راجحة لم يحرم ولم ينه عنه، ولكن قد يكون فعله مكروها لأنه يصد عن اللذة المطلوبة، إذ

لو اشتغل اللاهي حين لهوه بما ينفعه ويطلب له اللذة المقصودة لكان خيراً له ، والنفوس الضعيفة كنفوس الصبيان والنساء قد لا تشتغل إذا تركته بما هو خير منها لها ، بل قد تشتغل بما هو شر منه أو بما يكون التقرب إلى الله بتركه ، فيكون تمكينها من ذلك من باب الإحسان إليها والصدقة عليها كإطعامها وإسقائها ، فلهذا قال النبي ﷺ : إن بعض أنواع اللهو من الحق .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لا أعرفه ، ويحتاج إلى مراجعة فيلتمس ، والشيخ رحمه الله واسع الاطلاع كثيراً .أهـ

سؤال / الضرب في الدف كله يجوز؟

أجاب سماحته رحمه الله : إذا كان للجواري أو يوم العيد أو للعرس ، للنساء للعرس وما يصد عن حق ولا يوقع في باطل .أهـ

سؤال / حديث « كل لهو فهو باطل »(1)

أجاب سماحته رحمه الله : لعله في مسلم ، وقد ذكره ابن القيم رحمه الله في الفروسية وذكره غيره ، وغالب الظن أنه خارج مسلم ، لكن يراجع ، فالمؤلف واسع الاطلاع ، وقد يكون غلطاً من بعض النساخ ، وقد يكون المؤلف وقع في نفسه شيء من هذا .أهـ

وكان الجواري الصغيرات يضربن بالدف عنده وكان ﷺ يمكنهن من عمل

---

(1) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند (١٧٧٨٤) ٣٧/ ٢٧٤ ، ورواه أبو داود (٢٥١٣) كتاب الجهاد/ باب في الرمي ، والترمذي (١٦٣٧) كتاب فضائل الجهاد/ باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي (٣٦٠٨) كتاب الخيل/ تأديب الرجل فرسه ، ورواه ابن ماجه بلفظه (٢٨١١) كتاب الجهاد/ باب الرمي في سبيل الله ، من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ .

هذا الباطل بحضرته إحسانا إليهن ورحمة بهن ، وكان هذا الأمر في حقه من الحق المستحب المأمور به ، وإن كان هو في حقهن من الباطل الذي لا يؤمر أحد سواهن به ، كما كان اعطاؤه المؤلفة قلوبهم مأمورا به في حقه وجوبا أو استحبابا وإن لم يكن مأمورا به لأحد ، كما كان مزاحه مع من يمزح معه من الأعراب والنساء والصبيان تطييبا لقلوبهم وتفريحا لهم مستحبا في حقه يثاب عليه وإن لم يكن أولئك مأمورين بالمزح معه ولا منهيين عن ذلك .

فالنبي ﷺ يبذل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألفها به على الحق المأمور ويكون المبذول مما يلتذ فيه الآخذ ويحبه لأن ذلك وسيلة إلى غيره ، ولا يفعل ﷺ ذلك مع من لا يحتاج إلى ذلك كالمهاجرين والأنصار ، بل يبذل لهم أنواعا أخر من الإحسان والمنافع في دينهم ودنياهم .

وعمر رضي الله عنه لا يحب هذا الباطل ولا يحب سماعه .

وليس هو مأمورا إذ ذاك من التأليف بما أمر به النبي ﷺ حتى تصير نفسه على سماعه ، فكان إعراض عمر عن الباطل كمالا في حقه وحال النبي ﷺ أكمل .

ومحبة النفوس للباطل نقص لكن ليس كل الخلق مأمورين بالكمال ولا يمكن ذلك فيهم ، فإذا فعلوا ما به يدخلون الجنة لم يحرم عليهم ما لا يمنعهم من دخولها .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة»(١)

---

(١) رواه البخاري (٣٤١١) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى : «وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون» إلى قوله «وكانت من القانتين» ومسلم (٢٤٣١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم/ باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

هذا مع العلم بأن الجنة يدخلها كثير من النساء والرجال أكثر من الذين كملوا من الطائفتين .

سؤال / ما الشيء الذي رخص فيه؟

أجاب سماحته رحمه الله : مثل : « دعهما فإن لكل قوم عيداً »(١) الجاريتان ، ومثل اللهو الذي فعله الحبشة في المسجد(٢) وأشباه ذلك .

فصل

فإذا تبين أن السكر مؤلف من أمرين : وجودي وهو اللذة ، وعدمي وهو عدم العقل والتمييز ، وقد تقدم الكلام على اللذة وأن جنسها لا يذم إلا لمعارض راجح من فوات منفعة أو دخول مضرة وتحمد إذا كانت مقصودة أو معينة على المقصود .

وأما الوصف الآخر وهو عدم العقل والتمييز فهذا لا يحمد بحال من جهة نفسه ، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله مدح وحمد لعدم العقل والتمييز والعلم .

بل قد مدح الله العلم والعقل والفقه ونحو ذلك في غير موضع وذم عدم ذلك في مواضع مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر ٩) ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾

(١) رواه البخاري (٩٥٢) كتاب العيدين/ باب سنة العيدين لأهل الإسلام ، ومسلم (٨٩٢) كتاب صلاة العيدين وما يتعلق بها من أحكام ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه البخاري (٩٨٨) كتاب العيدين/ باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين ، ومسلم (٨٩٢) كتاب صلاة العيدين/ باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(فاطر ٢٢) وقال تعالى : ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ إلى قوله : ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (هود) وقال : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف) ، وقال : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان) ، وقال : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران ١٨) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أن الله سبحانه أثنى على العلم ، وأثنى على العقل والسمع والبصر ، وذم من لا يسمع ولا يعقل ولا يعلم ، فلهذا جاء في الخمر ما جاء فيها من الوعيد لأنها تزيل العقل وتوقع في شبه الجنون ، حتى لا يعقل ولا يفهم ، وحتى يفعل ما لا يفعله العقلاء من الضرب والشتم والقتل وغير ذلك ، فلهذا ذم الله سبحانه وتعالى من لا يعقل ولا يفهم ولا يعي ، فلا يسمع ولا يبصر إعراضاً عن الحق واستمراراً في الباطل .

كما أنه ذم سبحانه من يعقل ويعلم ثم يخالف ، يعقل الحق ويفهمه ويعلمه ثم يحيد عنه كعلماء اليهود ، وعلماء السوء في هذه الأمة وغيرها .

فمن عقل وعلم فهو ممدوح ، ومن لم يعقل ولم يعلم فهو مذموم ، ومن لم يستعمل عقله وعلمه في الخير فهو مذموم أيضاً .

ولهذا صار في الخمر ما فيها من الذم والعيب والحد الشرعي لأنها تفقد العقول وتزيلها وتوقع صاحبها فيما يفعله المجانين .

أما اللذة التي فيها فهي لذة موهومة تعقبها الحسرات والندامات والشرور ، واللذة إنما تمدح إذا كانت تعين على الخير وتنقذ من الباطل ، أما إذا كانت لذة تجر إلى المحرم وتوقع في المحرم فهي مذمومة .اهـ

وقال : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (الطلاق) ، وقال : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد ١٩) ، وقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه) ، وقال : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة ٩٨) ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد) ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأعراف ١٨٥) ، وقال : ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (الحشر ٢) .

وهذا كثير في القرآن يأمر ويمدح التفكر والتدبر والتذكر والنظر والاعتبار والفقه والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق ونحو ذلك من أنواع العلم وأسبابه وكماله ويذم أضداد ذلك .

فصل

فإذا تبين أن جنس عدم العقل والفقه لا يحمد بحال في الشرع بل يحمد العلم والعقل ويؤمر به أمر إيجاب أو أمر استحباب ، ولكن من العلم مالا يؤمر به الشخص نوعا أو عينا إما لأنه لا منفعة فيه له لأنه يمنعه عما ينفعه ، وقد ينهى عنه إذا كان فيه مضرة له وذلك أن من العلم مالا يحمله عقل الإنسان فيضره كما قال علي بن أبي طالب ﷺ : حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله(١) .

وقال عبد الله بن مسعود :ما من رجل يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم(٢) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني حدثوهم بالشيء الذي يفهمونه ويعقلونه ،أما أن يحدثوا بشيء لا تبلغه عقولهم من العامة وشبه العامة فلا ، ولكن يحدثون بما ينفعهم في صلاتهم وصيامهم وعقيدتهم ،أما علوم لا يتحملونها فلا يحدثون بها .أهـ

سؤال / بعض الناس يقول :لا ينبغي الكلام في الصفات!

أجاب سماحته رحمه الله :لا ،الصفات من باب العقيدة ،يبين لهم ، لأن هذا وصف الله وبيان صفاته سبحانه حتى تطمئن إليه القلوب وحتى تخشع له ، فالكلام في الصفات وبيان أنها وصف الله وأنه لا شبيه له ولا مثل له هذا حق ومن العقيدة .

---

(١) رواه البخاري تعليقا ، كتاب العلم/ باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا ، قال الحافظ في الفتح : ورواه أبو نعيم في المستخرج .

(٢) رواه مسلم في مقدمة صحيحه/ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع .

فالذي يقول: إن هذا مما لا ينبغي، هذا جهل غلط. اهـ

ومن الكلام ما يسمى علما وهو جهل مثل كثير من علوم الفلاسفة وأهل الكلام والأحاديث الموضوعة والتقليد الفاسد وأحكام النجوم، ولهذا روي أن من العلم جهلا ومن القول عيا ومن البيان سحرا.

ومن العلم ما يضر بعض النفوس لاستعانتها به على أغراضها الفاسدة فيكون بمنزلة السلاح للمحارب والمال للفاجر، ومنه ما لا منفعة فيه لعموم الخلق مثل معرفة دقائق الفلك وثوابته وتوابعه وحركة كل كوكب فإنه بمنزله حركات التغير عندنا، ومنه ما يصد عما يحتاج إليه، فإن الإنسان محتاج إلى بعض العلوم وإلى أعمال واجبة، فإذا اشتغل بما لا يحتاج إليه عما يحتاج إليه كان مذموما.

فبمثل هذه الوجوه يذم العلم بكونه ليس علما في الحقيقة وإن سماه أصحابه وغيرهم علما وهذا كثير جدا.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: جاء من دعاء النبي فيما رواه مسلم في الصحيح: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»(1) فالعلوم التي لا تنفع تضر، وتذهب بالأوقات، وتضيّع على الناس ما هو أنفع لهم. اهـ

أو يكون الإنسان يعجز عن حمله أو يدعوه ويعينه على ما يضره أو يمنعه عما ينفعه.

وقد يكون في حق الإنسان لا محمودا ولا مذموما هذا كله في جنس العلم.

وكذلك القوة التي بها يعلم الإنسان ويعقل وتسمى عقلا فهذه لا يحمد

(1) الحديث رقم (٢٧٢٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

عدمها أيضا إلا إذا كان بوجودها يحصل ضرر ، فإن من الناس من لو جن لكان خيرا له ، فإنه يرتفع عنه التكليف وبالعقل يقع في الكفر والفسوق والعصيان .

فإن العقل قد يراد به القوة الغريزية في الانسان التي بها يعقل وقد يراد به نفس أن يعقل ويعي ويعلم .

فالأول : قول الإمام أحمد وغيره من السلف : العقل غريزة والحكمة فطنة .

والثاني : قول طوائف من أصحابنا وغيرهم : العقل ضرب من العلوم الضرورية .

وكلاهما صحيح ، فإن العقل في القلب مثل البصر في العين يراد به الإدراك تارة ويراد به القوة التي جعلها الله في العين يحصل بها الإدراك ، فإن كل واحد من علم العبد وإدراكه ومن علمه وحركته حول ولكل منهما قوة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولهذا تجد المشايخ الأصحاء من الصوفية يوصون بالعلم ويأمرون باتباعه ، كما تجد الأصحاء من أهل العلم يوصون بالعمل ويأمرون به لما يخاف في كل طريقة من ترك ما يجب من الأخرى .

فصل

فهكذا زوال العقل بالسكر هو من نوع زواله بالإغماء والجنون ونحو ذلك ، فهذا لا يؤمر به المؤمنون بحال ولا يحمد منهم وإن حصل لهم مع ذلك ذوق إيماني ووجد عرفاني مما هو محمود ومأمور به فذاك هو المحمود لا عدم العقل والتمييز .

ولهذا لم يكن في الصحابة من حاله السكر لا عند سماع القرآن ولا عند غيره

ولا تكلم الأولون بالسكر، وإنما تكلم به طائفة من متأخري الصوفية صار يحصل لهم نوع سكر بما في قلوبهم من الذوق والوجد مع سقوط التمييز والعقل ويفرقون بين الصحو والسكر، والسكر لهؤلاء هو من جنس الإغماء والغشي الحاصل عند السماع الذي حدث في بعض التابعين من البصريين وغيرهم.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ولهذا الصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أكمل الناس عقولاً، وأكمل الناس كمالاً بعد الأنبياء؛ كانوا يخشعون عند سماع كلام النبي ﷺ ويبكون، ولكن لا تزول عقولهم ولا يغشون، فلا تزول عقولهم، بل عقولهم معهم، لكنهم يخشعون ويبكون من خشية الله عز وجل وتطمئن قلوبهم لذكر الله.

ثم حدث للناس بعد ذلك في التابعين من يغشى عليه من شدة الخوف والوجل والحذر، فيحصل له غشية وإغماء مما يسمع من المواعظ والذكرى، وكما يقع بعد ذلك لكثير من الناس في مجالس الوعاظ والمذكّرين، وصار عند الصوفية هذا ويسمونه السكر، لأنها تغيرت قلوبهم وعقولهم بسبب ما يقع عندهم من المواعظ والذكرى.

وهذه التسمية تسمية غير لائقة ـ السكر ـ ولا يحسن التسمية بها، فإن السكر مذموم، وهو الناشيء عن الخمور والمسكرات، ولكن تساهلوا في تسميته بدلاً من الإغماء.

وليست هذه حالات طيبة، وليست حالات جيدة، بل حالات الصحابة خير منها، فالذي يتعظ ويبكي من خشية الله، ولكن يبقى معه عقله ويبقى معه تمييزه؛ أفضل من هؤلاء المتأخرين الذين تذهب عقولهم، سواء سموا ذلك

خشية أو إغماء أو سموه سكراً، وبكل حال هو نقص في تحمل القلوب، فلا تتحمل قلوبهم، والصحابة كانوا أقوى قلوباً وأقوى إيماناً، فكانوا يتحملون ما يسمعون من العظة والذكرى من النبي ﷺ، فتخشع قلوبهم وترق قلوبهم ويبكون، ولكنهم لا تذهب عقولهم، رضي الله عنهم وأرضاهم .اهـ

فإن السكر والإغماء والغشي كلها زوال العقل والتمييز، لكن تفترق أسبابها وأذواقها، فقد يكون أحد الذوقين والوجدين عن محبة ولذة، وقد يكون عن خشية وألم، وقد يكون عن عجز عن الإدراك لفرط العظمة التي تجلت للإنسان كما وقع لموسى عليه السلام.

فهذه الأمور يجب أن يعرف أنها ليست كمالا مطلقا كالفناء، لكن يحمد ما فيها من الأمور المحمودة الإيمانية من ذوق أو وجد إيماني مشروع أو محبة إيمانية أو خشية إيمانية.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وقصده أنه ليس كمالاً، فالحال التي عليها الصوفية ليست كمالاً، بل هو نقص عليهم، لا يتحملون، فيفنون عن كل شيء حتى وقعوا في وحدة الوجود، نسأل الله العافية.

والواجب على المؤمن أن يكون غير هذا، بل يكون معه الشعور فيفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، فيكون عنده إيمان بأن الله خالق كل شيء ورب كل شيء، وعنده إيمان بالشرائع والأمر والنهي، حتى يميز بين ما أحل الله وما حرم الله وبين ما أمر الله وبين ما نهى الله عنه، فإذا فني بمشاهدة الخالق عن الأوامر والنواهي صار مذموماً، كفعل الصوفية الذين أداهم فناؤهم إلى وحدة الوجود، نعوذ بالله .اهـ

ولا يحمد منها ما زاد على المستحب وما شغل عن ما هو أحب منه .

ويذم منها ما تضمن ترك واجب من علم أو عمل أو فعل محرم ، لكن إذا كان المذموم بغير تفريط من العبد ولا عن عدوان منه لم يذم منه .

وكما ذكرت مثل ذلك في قاعدة المُولهين وعقلاء المجانين والمغلوبين في أحوالهم ومن يسلّم إليه حاله ومن لا يسلم إليه حاله ، فإن السكر نوع من الغلبة ، ويذم من لم يحصل له من هذه الأحوال ما يجب حصوله كما ينقص من عدم منها ما يستحب حصوله ، فهكذا يجب التفصيل في هذه الأحوال والله أعلم .

سؤال/ كتاب يباع في المكاتب يذكر فيه أن أويس القرني من هؤلاء المجانين؟

أجاب سماحته رحمه الله : لا ، هذا غلط ، فتسمية أويس بالمجنون هذا من أبطل الباطل ، بل هو من أعقل الناس ومن أعقل الرجال .

فالكتاب إذا كان فيه شيء من الباطل فإنه يمنع .أهـ

فصل

فقد تبين أن أحد وصفي السكر منفعة في الأصل والوصف الآخر إثم كما قال تعالى عن الخمر : ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة : ٢١٩) ، وقد يقترن باللذة ما يمنع أن تكون مصلحة إذا استعين بها على إثم وعدوان كما يستعان بالأكل والشرب على الكفر والفسوق والعصيان ، وقد يقترن بعدم العقل ما يمنع أن يكون مفسدة إذا استعين به على ترك الإثم والعدوان ، فالأصل حمد القلب وذوقه ولذته ما لم يشتمل على مفسدة راجحة بل وذوق الجسم ولذته مع علم القلب وعقله ، لأن

هذه كلها خيرات ، فإن العلم خير وذوق القلب خير واللذة به خير ، لكن قد يعارضها ما يجعلها شرا .

وإذا لم يجتمع التمييز واللذة بل إما صحو بلا لذة أو لذة بلا صحو ، فقد يترجح هذا تارة وهذا تارة ، فأما المؤمنون فالصحو خير لهم ، فإن السكر يصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ويوقع بينهم العداوة والبغضاء وكذلك العقل خير لهم لأنه يزيدهم إيمانا .

وأما الكفار فزوال عقل الكافر خير له وللمسلمين ، أما له فلأنه لا يصده عن ذكر الله وعن الصلاة بل يصده عن الكفر والفسق ، وأما للمسلمين فلأن السكر يوقع بينهم العداوة والبغضاء فيكون ذلك خيرا للمؤمنين ، وليس هذا إباحة للخمر والسكر ولكنه دفع لشر الشرين بأدناهما .

ولهذا كنت آمر أصحابنا أن لا يمنعوا الخمر عن أعداء المسلمين من التتار والكرج ونحوهم وأقول : إذا شربوا لم يصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة بل عن الكفر والفساد في الأرض ، ثم إنه يوقع بينهم العداوة والبغضاء وذلك مصلحة للمسلمين ، فصحوهم شر من سكرهم ، فلا خير في إعانتهم على الصحو ، بل قد يستحب أو يجب دفع شر هؤلاء بما يمكن من سكر وغيره .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا من المؤلف مراعاة للقواعد الشرعية ، فالقواعد الشرعية المعروفة هي أن الشرع جاء بتحصيل المصالح ودرء المفاسد ، وجاء بتحصيل المصلحة وتكميلها ورعايتها ، وتقليل المفسدة وتعطيلها والحذر منها ، فإذا تعددت المصالح ولم يمكن تحصيلها كلها وجبت العناية في أحسنها وأصلحها وأعمها وأعظمها ، وإن فاتت الدنيا منها أو منهما .

وهكذا المفاسد إذا تعددت ولم يتيسر السلامة منها كلها، فإنه يُحرَص ويجتهد في السلامة من أكبرها فأكبرها، وأشرها فأشرها، وإن ارتكب الأدنى منها.

ولهذا الخمور شر على المسلمين لأنها تصدهم عن ذكر الله، وتوقع الشحناء بينهم والعداوة والفساد بينهم، فحرمها الله عليهم ومنعهم منها، لما فيها من الفساد والشر.

وأما وقوعها من الكفرة الضالين، فإنها قد تكون خيراً لهم بالنسبة إلى تعطيلهم عن إيذاء المسلمين، وتعطيلهم عن أنواع الكفر، فيشتغلون بها، وتكون بينهم العداوة والبغضاء، فتكون شراً عليهم، وإن كانت محرمة عليهم، لكنها بالنسبة إلينا أسهل، لأنهم إذا شغلوا بأنفسهم وصارت بينهم العداوة وتعطلت عقولهم؛ كان أسلم لنا من شرهم وبلائهم، فشغلوا بأنفسهم، فكان ذلك من رحمة الله لنا أن شغلهم بأنفسهم، بالقتال بينهم، أو بالخمر التي سكروا بها وقتل بعضهم بعضاً، أو ما أشبه ذلك.

ولهذا يقول الشيخ رحمه الله: وإن كنت أقول لأصحابنا - يعني في وقت التتار، لما تعدى التتار على المسلمين، ومن معهم من قبائل الكرج الذين في جهة الشرق - كان بعض المسلمين يمر عليهم وهم سكارى فيتكلمون عليهم، فيقول لا، اتركوهم، لأنهم إذا وعوا شرعوا في قتال المسلمين وإيذاء المسلمين.

فالمعنى ومراده بهذا أنهم إذا أشغلهم الله بالخمر بينهم والقتال بينهم، كان من مصلحة المسلمين، حتى يُشغل بعضهم ببعض، وهذا من باب ارتكاب أدنى المفسدتين بتفويت كبراهما، حتى لا يؤذوا المسلمين ولا يقتلوهم.

وهذا تحت قاعدة، والقاعدة هي: تحصيل المصلحة وتوفيرها وتكميلها، وتعطيل المفسدة وتقليلها وإبعادها.

لكن إذا كان مصلحتان لم يتيسر تحصيلهما؛ فإنه يجتهد في تحصيل الكبرى التي هي العظمى منهما، وإن فاتت الصغرى.

وهكذا المفسدتان، فالخمر مفسدة في حق الشارب وضرر وفساد، لكن إذا كان إذا صحا ارتكب ما هو أكبر من سب الله وسب الرسول وقتال المسلمين فإنه يترك في حاله ولا يُسعى في تخليصه منها، لأنه إذا تخلص منها شرع فيما هو شر منها من الكفر والضلال والقتال للمسلمين، كفعل التتار وقت حربهم للمسلمين، نسأل الله السلامة. أهـ

سؤال / هل يجوز ترويج المسكرات والمخدرات في بلاد الكفار لمصلحة المسلمين؟

أجاب سماحته رحمه الله: هذا محل نظر، أما كونه هو يفعل ذلك فلا، لكن إذا وجدهم فعلوه يتركهم، وأما كونه يعطيهم إياها فلا. أهـ

سؤال / من باب الاستعانة عليهم، فهي حرب لهم ويكون كسلاح ضدهم؟

أجاب سماحته: لا يظهر لي أنه يعطيهم الخمور، لكن إذا وجدهم فيها فإنه يفرح بشغل بعضهم ببعض، وأما كونه يعطيهم إياها فمحل نظر. أهـ

سؤال / الكافر إذا شرب المسكر هل يقام عليه الحد؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: يمنع من إظهارها بين المسلمين، أما في بيته فلا يتعرض الناس له، لكن يمنع من إظهارها في أسواق المسلمين أو في مجالسهم. أهـ

فهذا في حق الكفار ، ومن الفساق الظلمة من إذا صحا كان في صحوه من ترك الواجبات وإعطاء الناس حقوقهم ومن فعل المحرمات والاعتداء في النفوس والأموال ما هو أعظم من سكره ، فإنه إذا كان يترك ذكر الله والصلاة في حال سكره ويفعل ما ذكرتُه في حال صحوه ، وإذا كان في حال صحوه يفعل حروبا وفتنا لم يكن في شربه ما هو أكثر من ذلك ، ثم إذا كان في سكره يمتنع عن ظلم الخلق في النفوس والأموال والحريم ويسمح ببذل أموال تؤخذ على وجه فيه نوع من التحريم ينتفع بها الناس ؛ كان ذلك أقل عذابا ممن يصحو فيعتدي على الناس في النفوس والأموال والحريم ويمنع الناس الحقوق التي يجب أداؤها .

فالحاصل أنه تجب الموازنة بين الحسنات والسيئات التي تجتمع في هذا الباب وأمثاله وجودا وعدما كما قررت مثل ذلك في قاعدة تعارض السيئات والحسنات ، فإن السكر والصحو قد يكونان من هذا الباب ، وهكذا السكر والصحو في الأذواق الإيمانية والمواجيد العرفانية .

فمن السالكين من إذا حصل له سكر حصل له فيه منفعة وإيمان وإن كان فيه من النقص وعدم التمييز مما يحتاج معه إلى العقل ما فيه ، فيكون خيرا من صحو ليس فيه إلا الغفلة عن ذكر الله وقسوة القلوب والكفر والفسوق والخيلاء ونحو ذلك من ترك الحسنات وفعل السيئات .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا يتعلق في الصوفية وما يقع لهم من الأذواق والمواجيد والسكر بما يزعمون من تذكرهم الآخرة وتذكرهم مقام الله وعظمته ، فقد يصيبهم من الذهول والسكر ما قد يزيل شعورهم ، فهذا قد يكون فيه بالنسبة إلى حالهم ما هو خير لهم من صحوهم إذا صحوا وصاروا بصحوهم يشتغلون

بما حرم الله من البدع والدعوة إلى الفساد في الأرض ، فيكون سكرهم هذا بمواجيدهم وأذواقهم ينفع المسلمين وينفع أهل السنة ، ولكن هم في أنفسهم ناقصون ، لأن هذا الذي يعتريهم من نقص العقول ومن نقص الدين .

وقد كان الصحابة من أفضل الناس بعد الأنبياء لا يصيبهم هذا ، بل عندهم من الإيمان ، وعندهم من البصيرة ، وعندهم من العلم ، وعندهم من الخير والفضل من الله ما هو خير من الصوفية ، ومع هذا لا تغيب عقولهم ، بل عقولهم معهم في جميع أحوالهم ، وما ذاك إلا لكمال إيمانهم وكمال بصيرتهم ، وهكذا الرسل وهم أفضل الناس ، هم أعلم الناس وأتقى الناس وأحسن الناس عملا ، ولا يفقدون شعورهم بذلك ، ولا تزول عقولهم بذلك ، فما يقع عند الصوفية نقص في إيمانهم ونقص في دينهم .

ولكن قد يكون هذا الذي يقع فيه مصلحة لأهل السنة وأهل الاستقامة ؛ لأنه يشغلون به عن فسادهم في الأرض وإظهارهم البدع ونحو ذلك ، ويكون هذا من رحمة الله أن شغلهم بهذا الشيء وجعلهم كالمجانين يُخلدون إلى الأرض ويسقطون إلى الأرض بسبب ما أصابهم ، ويسلم الناس من شرهم لو صحوا وصاروا دعاة للبدع والشر والفساد .أهـ

وأما الصحو المشتمل على العلم والإيمان وتذوق صاحبه طعم الإيمان ووجد حلاوته فهو خير من السكر بلا شك ، فعليك بالموازنة في هذه الأحوال والأعمال الباطنة والظاهرة حتى يظهر لك التماثل والتفاضل وتناسب أحوال أهل الأحوال الباطنة لذوي الأعمال الظاهرة ، لاسيما في هذه الأزمان المتأخرة التي غلب فيها خلط الأعمال الصالحة بالسيئة في جميع الأصناف .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : رحمه الله ، هذا في زمانه ، في أول القرن

الخامس ، فكيف بحال القرن الخامس عشر؟ الله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله : «في جميع الأصناف» يعني في العلماء والأمراء والعبّاد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، يعني كثر الخور ، لا في الصوفية وحدهم ، ولا في العباد وحدهم ، بل في غالب الطبقات ، كثر فيهم هذا وهذا ، من أمراء وحكام وعلماء وعباد وتجار بسبب الجهل ، لكثرة الجهل وقلة العلم ، والله المستعان .أهـ

لترجح عند الازدحام والتمانع خير الخيرين وندفع عند الاجتماع شر الشرين ، ونقدم عند التلازم تلازم الحسنات والسيئات ما ترجح منها ، فإن غالب رؤوس المتأخرين وغالب الأمة من الملوك والأمراء والمتكلمين والعلماء والعبّاد وأهل الأموال يقع غالبا فيهم ذلك .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومن هذا الباب قوله جل وعلا : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يقدم الصلح بين المتقاتلين من المسلمين ، فإذا لم يتيسر الصلح وأبت إحدى الطائفتين وبغت فإنها تقاتل لدفع شرها وإنقاذ المسلمين من بلائها ، وإن كانت مسلمة لأنها تعدت الحدود ، ولهذا قال : ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ .

ومن هذا الصائل ، فالصائل يقاتل إذا لم يندفع شره إلا بالقتال ، الصائل على الناس ، الذي يصول على دمائهم أو على أموالهم أو على حريمهم ، يدفع بالتي هي أحسن إذا تيسر ، فإذا لم يتيسر إلا بالضرب ضرب ، وإذا لم يتيسر إلا بالقتل قتل ، ولهذا في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ

فقال: يا رسول الله الرجل يأتيني يريد أخذ مالي، قال: «لا تعطه مالك» قال: فإن قاتلني؟ قال: «قاتله» قال: فإن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: فإن قتلته؟ قال: «فهو في النار»[(١)] لأنه صال عليه وآذاه يريد ماله، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم، والأدلة من هذا الباب واردة .أهـ

سؤال/ قطاع الطريق؟

أجاب سماحته رحمه الله: مثلهم قطاع الطريق .أهـ

سؤال/ ألا يفهم من قول شيخ الإسلام هنا أنه ربما أنه قد يقترف الإنسان بعض الأعمال التي في ظاهرها قد تكون مخالفة أو ما وردت في السنة، لكن على المدى البعيد هي لها منفعة، مثل الاجتماع على الذكر، فالاجتماع في حد ذاته غير وارد، لكن نتيجة الذكر لما فيه من الأمور المعروفة؟

أجاب سماحته رحمه الله: حول هذا المعنى، يعني قد ينفعهم هذا وقد يفيدهم، لكن ما هو معناه أصله الإباحة، فالشيء الذي هو غير مشروع لهم قد يحصل لهم الفائدة بالنسبة إلى ما إذا تركوه وانتقلوا إلى ما هو شر منه .أهـ

وأما الماشون على طريقة الخلفاء الراشدين فليسوا أكثر الأمة، ولكن على هؤلاء الماشين على طريقة الخلفاء أن يعاملوا الناس بما أمر الله به ورسوله من العدل بينهم وإعطاء كل ذي حق حقه وإقامة الحدود بحسب الإمكان، إذ الواجب هو الأمر بالمعروف وفعله والنهي عن المنكر وتركه بحسب الإمكان، فإذا عجز أتباع الخلفاء الراشدين عن ذلك قدموا خير الخيرين حصولا وشر الشرين دفعا والحمد لله رب العالمين .

---

(١) الحديث رقم (١٤٠) كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه وإن قتل كان في النار وأن من قتل دون ماله فهو شهيد .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا بحث مهم وكلام عظيم مختصر تجب العناية به ، لأن هذا هو الواجب على خلفاء الرسل ، وخلفاء الرسل هم الخلفاء الراشدون وأتباعهم ، وهو القيام بأمر الله وتنفيذ حكمه وإقامة الحدود والصبر على ذلك ، وإذا لم يتمكن الخليفة من حصول الأمر كله ؛ اعتنى بتقديم خير الخيرين ودفع شر الشرين ، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

فعلى ولي الأمر وعلى الحاكم وعلى الآمر الناهي إذا تعذر عليه دفع الشرور كلها وتحقيق الخيرات كلها ؛ اجتهد أن يحقق خير الخيرين وخير الخيرات ، وأن يدفع شر الشرين وشر الشرور ، الأشد فالأشد ، لأن ذلك هو الحكمة ، وهو عين المصلحة .أهـ

فصل

قال الله تعالى لما أهبط آدم ومن معه إلى الأرض : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (البقرة) وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (طه)

وقال: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ (الأعراف)

فأخبر سبحانه بنعمته على بني آدم بما أنزله من اللباس الذي يواري سوءاتهم ومن الريش وإنزاله له كما قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ (الحديد: ٢٥)، ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ﴾ (الزمر: ٦).

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»(١).

وأخبر سبحانه أن لباس التقوى خير من هذا اللباس كما قال لما أمرهم بالزاد فقال: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ (البقرة ١٩٧)، فهما لباسان وزادان.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: سمي لباساً لأن الشيء ينزه بمثله أو ما يناسبه، فلما بيّن نعمته عليهم باللباس الذي يستر عوراتهم ويحصل لهم به الرياش

(١) رواه البخاري (٥٦٧٨) كتاب الطب/ باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والجمال ؛ نبههم على اللباس الأعظم والأكبر الذي يحصل لهم به السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة ، والمنازل العالية يوم القيامة ، وأن هذا أولى من هذا .

فإذا كان أكثر الخلق يحرص على الأول في اللباس الذي هو الحسي لستر العورة والرياش الذي هو الجمال ؛ فالواجب أن تكون العناية باللباس الثاني الذي هو لباس التقوى ، أن تكون العناية بهذا أكمل وأشد لأنه اللباس الحقيقي الذي يبقى معه أبداً حتى يرث المنازل العالية في دار الكرامة .

وهكذا الزاد من الطعام والشراب زاد ، وهو نعمة كبيرة من الله على عباده في هذه الأرض ، ولكن يذكرهم بذلك زاداً أعظم ، زاد ينفعهم في الدنيا وينفعهم في الآخرة ، وهو زاد التقوى .

فلا ينبغي للعاقل أن يشتغل بالزاد الحاضر من الطعام والشراب وما إلى ذلك ، وينسى الزاد الأكبر والأعظم الذي له به النجاة بتوفيق الله ، وله به الزاد الباقي الدائم الكريم في دار الكرامة ، فلا ينبغي أن ينسى هذا الزاد العظيم ، ولهذا قال : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ يعني تزودوا في حجكم وأسفاركم ، واعلموا أن خير الزاد هو التقوى . أهـ

سؤال / معنى ريشاً؟

أجاب سماحته رحمه الله : يعني رياشاً ، الملابس الجميلة ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ يعني عوراتكم ﴿ وَرِيشًا ﴾ وجاء في قراءة أخرى ﴿ وَرِيَاشًا ﴾ يعني ولباساً يكون جمالاً فوق الثياب ، يكون لبساً جميلاً غير مجرد ستر العورة .

فاللباس لباسان :لباس يحتمل ستر العورة ويتساهل فيه ويتسامح فيه ،

ولباس يقصد به الجمال، عند لقاء الأحباب، وعند لقاء الضيوف، وفي الجمع والأعياد ونحو ذلك. اهـ

ثم قال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ (الأعراف: ٢٧)، فنهى بني آدم أن يفتنوا بفتنة الشيطان كما فتن أبويهما وذلك بمعصية الله وطاعة الشيطان في خلاف أمر الله ونهيه، وأنه لما نزع عن الأبوين لباسهما فكذلك قد ينزع عن الذرية لباس التقوى ولباس البدن ليريها سوءاتهما.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا واقع، لازال الشيطان بهم حتى أظهروا عوراتهم يعني الحسية، حتى صاروا يرضون بأن يظهروا عوراتهم ويبرزوها لدى الناس في الطرقات في بلدان كثيرة، وفيما يصور في هذه الأفلام الخبيثة، يصور الرجل وهو عار والمرأة وهي عارية على الفاحشة؛ من تزيين الشيطان نعوذ بالله حتى أراهما سوءاتهما.

وأعظم من هذا وأقبح؛ أنه زين لهم ما هو شقاء لهم في الآخرة، وسبب لنزع لباس التقوى بالكلية حتى يصلوا إلى النار، نعوذ بالله. اهـ

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأعراف)، فأخبر أن الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون بهدى الله الذي بعث به رسله.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والتحذير في قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ عظيم، وأن العبد متى تساهل في طاعة الشيطان

واتبع هواه بالمعاصي ، جعل الله أولياءه الشياطين ، يعني شياطين الإنس والجن جميعاً ، فإن شيطان الإنس شره أكبر وأعظم ، فإذا انتهك العبد حرمات الله ، واستعمل نفسه في معاصي الله ، وهتك ستر الله ، قيضت له الشياطين من الإنس والجن ، نسأل الله العافية ، شياطين الإنس يغوونه ويزينون له ، وشياطين الجن كذلك يغوونه ويزينون له ويعينونه ويجرونه بالفعل ، وربما جروه بالقوة حتى يسرح معهم في باطلهم ، نسأل الله العافية .أهـ

كما قال : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۝ ﴾ (الزخرف) .

وكذلك قال الشيطان : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ (ص) ، وقال : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ ﴾ (الحجر) ، وقال : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ۝ ﴾ (النحل) ، وقال : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝ ﴾ (الانعام) .

ثم أخبر عن أولياء الشيطان الذين لا يؤمنون فقال : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف) فقولهم ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يقتضي أنهم متدينون بها يرونها عبادة وطاعة كما كان مشركو العرب يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لانطوف في الثياب التي عصينا الله فيها، إلا الحمس قريش وحلفاؤها فكانوا يطوفون: في ثيابهم وكان غيرهم قد يطوف في ثياب أحمسي إن حصل له ذلك وإلا طاف عريانا، حتى كانت المرأة تطوف عريانة وربما سترت فرجها بيدها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله

وما بدا منه فلا أحله

وكان من طاف في ثيابه من الحمس ألقاها فسميت «اللَّقى» وحرمت عليه. وكانوا أيضا في الإحرام لا يأكلون من الدهن الذي في الأنعام، ولهذا لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة وغزا تبوك أنزل الله براءة وأمره الله بالبراءة إلى أهل العهد المطلق من الشرك وبسيرهم في الأرض أربعة أشهر وقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة ٥)، فبعث النبي ﷺ أبا بكر الصديق أميرا على الحاج وأمره أن ينادي أن: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف عريان، فكانوا يصرخون بها من الموسم كما ثبت ذلك في الصحيح وغيره في حديث أبي هريرة وغيره وهو من المتواتر، وأردفه النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب أن لا ينبذ للمعاهدين عهودهم.(١)

(١) رواه البخاري (٣٦٩) كتاب الصلاة/ باب ما يستر من العورة، ومسلم (١٣٤٧) كتاب

قال سماحة الشيخ رحمه الله : «لا» زائدة ، لأن العهود قسمان : عهود مؤجلة تبقى ، وعهود مطلقة أوصاه بأن ينبذها .أهـ

لأن عادتهم كانت أن لا يقبلوا بنبذ العهد وحله إلا من الكبير أو بعض أهل بيته ، فأخرهم النبي ﷺ إذ ذاك على عادتهم ليقبلوا ذلك وكان أبو بكر هو الإمام الذي يقيم للناس مناسكهم ويصلي بهم ويحكم فيهم وعلي معه ليبلغ رسالة البراءة إلى أهل العهود .

فكان أولياء الشيطان إذا فعلوا هذه الفاحشة وهي إبداء السوءات في الطواف يحتجون بشيئين : يقولون ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾ وهذا هو الرجوع إلى العادة والاتباع والتقليد للأسلاف ، ويقولون : ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ وهذا قول بغير علم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه حجة المبطلين الآن في كل مكان من الصوفية ومن أهل البدع ومن سائر أنواع الضالين ؛ تارة يقولون : هذه طريقة أسلافنا ما نحيد عنهم ، وهم أعلم منا وأفضل منا ومنك وأعلم ، فنحن معهم وإن كانوا على طريق النار .

وتارة يقولون : إن هذا عبادة وقربة وثبت عن السابقين ، وأنتم الغالطون وأنتم الجاهلون ، وهذا دين وقربة وإن كان كفراً بالله وشركاً به كما يقول عبّاد القبور .

فيجمعون بين الأمرين : بين تقليد الآباء والأسلاف في الباطل ، وبين التشبيه على الناس بزعم أن ما هم عليه قربة وطاعة ، وأن غيرهم هو المخطئ .

الحج/ باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فيضلون من الطريقين : من طريق التقليد الأعمى ، ومن طريق القول بغير علم ، والجهل ، نسأل الله العافية .اهـ

ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (الأعراف : ٢٨) ، فإن الفحشاء قبيحة منكرة تنكرها القلوب بفطرتها والله لا يأمر بمنكر ، وهذا يقتضي أن الأفعال القبيحة السيئة تكون على صفات تمنع معها أن الله يأمر بها ، وفي هذا نزاع معروف بين الناس بيناه في غير هذا الموضع .

ثم قال : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف) ، أي أتقولون أنه أمر بهذا وأنتم لا تعلمون أنه أمر به ، إذ ليس معكم إلا إعادة آبائكم ودينكم وأنتم لا تعلمون أن الله أنزل بهذا سلطانا .

فهذه الآية يدخل فيها كل من تعبد بفاحشة وأمر منكر وإن احتج بالعادة التي لسلفه أو زعم أن الله يأمر بذلك ، أو لما يذكره من الأسباب كقول مشركي العرب : هذه الثياب عصينا الله فيها فلا نطوف له فيها ، يريدون وقت العبادة أن يجتنبوا ثياب المعصية .

وكذلك تقسيمهم الناس إلى قسمين : حمس وغير حمس .

وإباحتهم للحمس ما يحرم على غيرهم من الطواف في الثياب ومن الطعام وعدم دخول البيوت المنقوبة في الإحرام من أبوابها ، وإسقاطهم عن الحمس الإفاضة من عرفة بالإفاضة من مزدلفة .

فمن هذا الباب ما يدعي قوم من أشراف بني هاشم ومن يزعمون أنهم منهم لموافقتهم لهم على رأي كالتشيع وغيره أنهم مختصون به في العبادات والمحظورات ، فهذا نظير ما كانت الحمس تدعيه .

ومن هذا الباب ما يفعله قوم من المتزهدة من كشف سوءاتهم في سماعاتهم وحماماتهم أو غير ذلك ويقولون: هذا طريقنا وهذا في طريقنا، فهذا مثل قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

وأبلغ من ذلك تعبد طوائف من المتزهدة والمتعبدة بمعاشرة الأحداث المردان والنساء الأجانب والنظر إليهم والخلوة بهم والمحبة والهوى فيهم ومما قد يكون وقد لا يكون وراء ذلك من الفاحشة الكبرى، وهذا ابتداه المشركون من الصابئة وغير الصابئة الذين هم أولياء الشياطين الذين هم مشركون، كما ذكر ابن سينا في إشاراته وزعم أنه مما يعين على السلوك والتأله العشق العفيف واستماع الأصوات الملحنة، كما ذكر أيضا الشرك بعبادة الصور، ويذكر هو وطائفته عبادة الكواكب.

وهذا في النصارى أيضا منه جانب قوي وهم أيضا قد ابتدعوا شركا لم ينزل الله به سلطانا كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة).

ولهذا كثر هذا في طوائف الزهاد والعباد من هذه الأمة من المبتدعة الخارجين عن الشريعة ورسالة محمد ﷺ من هذا الوجه، وإن كانوا من وجه آخر داخلين فيها.

فهذا شأن الطرائق المبتدعة كلها يجتمع فيها الحق والباطل، ومن المعلوم أن هذا الذي يفعلونه من الفواحش الظاهرة أو الباطنة وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف) وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (الأنعام ١٢٠).

وقد قال في الصحيحين عن ابن عباس أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر والأذنان تزنيان وزناهما السمع واللسان يزني وزناه النطق والقلب يتمنى ذلك ويشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه»[١].

فما كان من السمع والبصر واللسان في هذا الباب فهو من زناه والزنا من الفواحش والله لا يأمر بالفحشاء، فالله تعالى لا يأمر أن يعبده ويتقرب إليه بالعشرة للمردان الصباح والنظر إليهم والإصغاء إلى كلامهم ونحو ذلك: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: لأنه وسيلة للواط، كما أنه لا يرضى بالتعبد بالنظر إلى النسوان وعشرتهن والخلوة بهن، لأن هذا كله وسيلة للفحشاء، نعوذ بالله. أهـ.

وقوله: «فالله تعالى لا يأمر أن يعبده» الصواب: أن يُعبد، بلا هاء، فالهاء زائدة. أهـ.

بل قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وإن أتى هذه الفواحش معتقدا

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣) كتاب الاستئذان/ باب زنا الجوارح دون الفرج، ومسلم (٢٦٥٧) كتاب القدر/ باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، من حديث أبي هريرة ﷺ.

تحريمها فهو من المسلمين الذين قال فيهم النبي ﷺ في حديث أبي ذر: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة وإن زنا وإن سرق»(١).

فإن المسلم الذي يأتي بفاحشة إما أن يتوب إلى الله ويستغفره فيدخل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ (النساء)، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ۝﴾ (هود).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزل عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود ١١٤)، قال الرجل: ألي هذه الآية؟ قال: «لمن عمل بها من أمتي»(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٢٣٧) كتاب الجنائز/ باب ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، ومسلم (٩٤) كتاب الإيمان/ باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار، من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٥٢٦) كتاب مواقيت الصلاة/ باب الصلاة كفارة، ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة/ باب قوله تعالى «إن الحسنات يذهبن السيئات» من حديث ابن مسعود ﷺ.

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني أنها تبقى عامة ، لمن عمل بها من أمة محمد ﷺ إلى آخر الزمان ، فالذي يأتي المعصية وهو يعلم أنها معصية ؛ فهو تحت مشيئة الله ، وداخل في حديث أبي ذر ، إذا مات على التوبة دخل الجنة ، وإن مات على المعصية فهو تحت مشيئة الله ، إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عذبه على قدر الجريمة التي مات عليها ، ثم منتهاه على الجنة بتوحيده وإسلامه .

لكن من أتى المعاصي يتعبد بها ويراها دينا وقربة ؛ كما يفعله بعض الصوفية المجتهدة ، فهذا أعظم وأشنع ، لأنه جعل المعاصي قربة ، نسأل الله العافية ، فهذا حري أن لا يتوب ، وحري أن يعذب بها ، نسأل الله العافية ، لأنه يموت عليها ، ويزعم أنها دين وقربة ، نسأل الله العافية .أهـ

سؤال / ألا يكون معناه استحلال الحرام الذي يخرجه من الملة؟

أجاب سماحته رحمه الله : إذا استحلها فهو كافر ، حرام ، لكن المقصود التأويل ، وهذا محل البحث .أهـ

وقد قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الشورى) وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (النجم ٣٢) قال ابن عباس : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ : «إن العينين تزنيان وزناهما النظر»[1] وذكر الحديث .

والمسلم إذا أتى الفاحشة لا يكفر وإن كان كمال الإيمان الواجب قد زال عنه

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣) كتاب الاستئذان/ باب زنا الجوارح دون الفرج ، ومسلم (٢٦٥٧) كتاب القدر / باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن»[(١)]

فأصل الإيمان معه وهو قد يعود إلى المعصية ولكنه يكون مؤمنا إذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر أن رجلا كان يدعي حمارا وكان يشرب الخمر وكان كلما أتي به إلى النبي ﷺ أمر بجلده فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[(٢)] فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الآخر الصحيح: «وإن زنا وإن سرق»[(٣)].

وذلك أن معه أصل الاعتقاد أن الله حرم ذلك ومعه خشيه عقاب الله ورجاء رحمة الله وإيمانه بأن الله يغفر الذنب ويأخذ به فيغفر الله له به، كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أذنب عبد ذنبا فقال: أي رب إني أذنبت ذنبا فاغفر لي فقال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم أذنب ذنبا آخر فقال: أي رب أذنبت ذنبا فاغفره لي فقال ربه:

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥) كتاب المظالم / باب النهي بغير أذن صاحبه، و(٥٥٧٨) كتاب الأشربة / باب قول الله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس﴾ و(٦٧٧٢) كتاب الحدود / باب الزنا وشرب الخمر، و(٦٨١٠) باب إثم الزناة، ومسلم (٥٧) كتاب الإيمان / باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٦٧٨٠) كتاب الحدود/ باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) رواه البخاري (١٢٣٧) كتاب الجنائز/ باب ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، ومسلم (٩٤) كتاب الإيمان/ باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار، من حديث أبي ذر ﷺ.

علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم أذنب ذنبا آخر فقال: أي رب قد أذنبت ذنبا فاغفره لي فقال: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء»(١).

وكذلك في الصحاح من غير وجه حديث الذي لم يعمل خيرا قط وقال لأهله إذا أنا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم ريح الحديث فقال الله له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك يا رب فغفر الله له بتلك الخشية(٢).

قال سماحة الشيخ: وهذا جهل عموم قدرة الله وحمله الخوف من الله فأمر بتحريقه وذره، فهذا مما يحتج به على أن ما قد يخفى من دقائق أمور الصفات يعفى عنه لغلبة الجهل وشدة الخوف من الله عز وجل.

وهكذا صاحب المعصية مادام يعصي، وكلما أذنب تاب؛ فهو على طريق نجاة، ولكن يجب عليه الحذر، ويجب عليه سؤال الله العافية، لكن مادام إذا فعلها وفقه الله للتوبة؛ فإنه يزول شرها ويبقى عليه تبعة الذنب الجديد، وهكذا.

فكل ذنب إن تاب منه زال حكمه، وبقي عليه ما قد يأتي بعد ذلك، إذا تاب توبة صادقة، أما إذا قال: رب اغفر لي وهو مصمم على المعصية، فهذا ما تاب، إنما التائب الذي ندم عليها وأقلع منها وتركها خوفاً من الله وتعظيماً له، فهذا هو

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧) كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ومسلم (٢٧٥٨) كتاب التوبة/ باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٨) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ومسلم (٢٧٥٦) كتاب الرقاق/ باب سعة رحمة الله على المؤمنين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التائب، ثم قدّر عليه أنه وقع فيها مرة أخرى، نسأل الله العافية، وهو قد عزم على تركها وصمم على تركها. أهـ

سؤال / قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مراده الذين أو الذكر التسبيح والتحميد؟

أجاب سماحة الشيخ رحمه الله: عام «يعش» يغفل عن ذكر الرحمن، يغفل عن ذكر الله والواجب عليه من الصلوات أو من الذكر الواجب أو زانت له الغفلة وأعرض عن ذكر الله جل وعلا، فيه عموم، لأن «ذكر» مفرد مضاف، لكن أعظم ذلك الغفلة عما أوجب الله ﴿عن ذكر الرحمن﴾ أعظم ذلك هذا، نسأل الله العافية، وإذا غلب عليه الغفلة وقلة الذكر فهو على خطر أيضاً، نسأل الله العافية. أهـ

سؤال / قوله: «غفرت لعبدي فليفعل ما شاء»؟

أجاب سماحته رحمه الله: يعني ما دام أن هذا هو الواقع، يعني فعل وتاب، أما أنه يتعمده، فلا، لكن مادام أنه إذا وقع منه تاب فهو على طريق النجاة، لكن مادام بهذه الطريقة التي إذا ابتلي بادر بالتوبة، وليس إذناً له، بل المقصود إخباره بأنه مادام على هذه الحال، لأن المعاصي محرمة ممنوعة، يعني مادام على هذه الحال فهو على سبيل نجاة. أهـ

وكذلك من أفضل أعمال المؤمن التوبة كما قال النبي ﷺ للغامدية التي أقرت بالزنا حتى رجمها: «لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله»(١).

(١) رواه مسلم (١٦٩٥-١٦٩٦) كتاب الحدود/ باب من اعترف على نفسه بالزنى، من حديث بريدة بن الحصيب وعمران بن حصين رضي الله عنهما.

وحديث صلاة التوبة محفوظ في السنن عن علي عن أبي بكر الصديق عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له» وقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾[1] (آل عمران: ١٣٥).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا من أسباب المغفرة، كونه يتوضأ ويحسن الطهور ثم يصلي ركعتين وينوي بها توبة بينه وبين ربه فيستغفره سبحانه؛ هذا من أعظم الأسباب في قبول الله توبته، وإن كان هذا ليس بشرط التوبة والندم، بل في أي وقت كان، قبل صلاة أو بعد صلاة من ليل أو نهار في السفر والحضر والشدة والرخاء، إذا تاب توبة توبة صادقة قبل الله منه وغفر له، لكن إذا كانت التوبة بعد صلاة وبعد ضراعة إلى الله وانكسار بين يديه؛ صار ذلك أقرب إلى قبولها .أهـ

وهذا باب واسع، فإن الذنوب التي يبتلى بها العباد يسقط عنهم عذابها إما بتوبة تجب ما قبلها، وإما باستغفار وإما بحسنات يذهبن السيئات، وإما بدعاء المسلمين وشفاعتهم أو بما يفعلونه له من البر، وإما بشفاعة النبي ﷺ وغيره فيه يوم القيامة، وإما أن يكفر الله خطاياه بما يصيبه من المصائب، فقد تواتر عن النبي ﷺ أن ما يصيب المسلم من أذى شوكة فما فوقها إلا حط الله بها خطاياه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها .[2]

---

(١) رواه أحمد (٤٨) وأبو داود (١٥٢١) كتاب الصلاة/ باب في الاستغفار، والترمذي (٤٠٦) كتاب الصلاة/ باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، من حديث علي رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن. والحديث صححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه البخاري (٥٦٤٨) كتاب المرض/ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة والآداب/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وأصناف الحسنات التي تكفر بها السيئات كثيرة أكثر من السيئات من أنواع البر جميعها كما جاء ذلك في الأحاديث النبوية المطابقة لكتاب الله تعالى .

وأهل السنة والجماعة متفقون على أنه لا يكفر المسلم بمجرد الذنب كما يقوله الخوارج ، ولا أنه يخرج من الإيمان بالكلية كما يقوله المعتزلة ، لكن ينقص الإيمانَ ويمنع كماله الواجب ، وإن كانت المرجئة تزعم أن الإيمان لا ينقص أيضاً .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني وسط بين هؤلاء وهؤلاء ، بين المعتزلة والخوارج وبين المرجئة ، فالخوارج يكفرون بالمعاصي ، نعوذ بالله ، من زنا عندهم كفر ، ومن شرب الخمر كفر ، ولو كان يعرف تحريم ذلك ، ومن سرق كفر ، ومن عق والديه كفر ، وهكذا .

والمعتزلة يقولون : لا نسميه كافراً ولكنه خرج من الإيمان واستحق الخلود في النار ، نعوذ بالله .

وأهل السنة يخالفونهم في هذا ، ويقولون : المعاصي تنقص الإيمان وتضعف الإيمان وتمنع كماله الواجب ، لكن لا يكفر بذلك ولا يخلد في النار ، بل هو تحت مشيئة الله ، إن شاء غفر الله له يوم القيامة ، وإن شاء عذبه على قدر معاصيه التي مات عليها .

والمرجئة تقول : المعاصي لا تنقص الإيمان ولا تضعف الإيمان ، ولكنه مذموم عليها ، ناقص مذموم قد فعل ما لا يجوز له ، لكن إيمانه لا ينقص ، لأن عندهم الإيمان ما يتعلق بالقلوب ، قول القلب واللسان .

وهذا أيضاً خطأ مخالف لأهل السنة والجماعة ، بل هو ينقص الإيمان ، فالذنوب تنقص الإيمان وتضعف الإيمان ، والإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، هذا ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة ، خلافاً لهؤلاء وهؤلاء .

وأهل السنة دائماً وسط بين الأقوال الباطلة ، فأهل السنة في عقائدهم وسط بين الأقوال الباطلة . أهـ

فمذهب أهل السنة المتبعون للسلف الصالح أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

فأما استحلال ما حرم الله ورسوله من الفواحش وغيرها فهو كفر ، ومثله أهلك الله قوم لوط الذين استحلوا الفاحشة وفعلوها معلنين بها مستحلين لها ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝ ﴾ (هود) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ينبغي لطالب العلم أن ينتبه لهذا ، فرق بين فعل المعصية مع اعتقاده تحريمها ، وفرق بين تركه الواجب مع اعتقاده وجوبه ، فالذي يستحل المحارم ولو ما فعلها ؛ استحلاله لها كفر وردة عن الإسلام ، فلو قال : إن الزنا حلال ، ولو ما زنا كفر ، ولو قال : إن شرب الخمر حلال ، ولو ما شرب الخمر يكون كافراً ، فإذا شربه صار شراً إلى شر ، كافر وعاص جميعاً .

وهكذا لو قال : إن عقوق الوالدين حلال أو قطيعة الرحم حلال كفر ولو لم يعق والديه ، لكن بهذه العقيدة الفاسدة يكفر ، لأنها من نواقض الإسلام ، لكن لو عق والديه أو أحدهما أو زنا أو سرق وهو يعلم أنه عاص وهو يعلم أنه مجرم ؛ فهذا لا يكفر ، لكن يكون إيمانه ضعيفاً ويكون ناقص الإيمان ، لأنه فعل ذلك عن طاعة للهوى والشيطان والنفس الأمارة بالسوء ، وهو يعلم أنه مجرم وأنه عاص

لربه ، فلهذا لا يكفر بذلك ولكن يكون عاصيا ويكون تحت مشيئة الله عزوجل يوم القيامة إذا مات على ذلك ولم يتب .أهـ

وقد روي عن قتادة : من الظالمين من هذه الأمة ، وقد روي أنه يكون فيها خسف وقذف ومسخ[١] .

وقد شرع الله سبحانه في شريعة أهل التوراة وشريعة أهل القرآن رجم الزاني المحصن بالحجارة كما رجم الله أهل الفاحشة ، وأما أهل الفاحشة واللوطية فيرجمان سواء كانا بكرين أو ثيبين عند جمهور العلماء كما رجم الله قوم لوط ، وليس في الذنوب ما يعاقب أهله بالرجم إلا أهل هذه الفاحشة .

وقد رجم النبي ﷺ غير واحد ، رجم اليهوديين ورجم ماعز بن مالك ورجم الغامدية ورجم آخر[٢] وكذلك رجم خلفاؤه الراشدون أيضا[٣] .

---

(١) رواه البخاري (٥٥٩٠) كتاب الأشربة/ باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٢) أما رجم اليهوديين فقد رواه البخاري في صحيحه (٧٥٤٣) كتاب التوحيد/ باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها لقول الله تعالى : «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وأما رجم ماعز فقد رواه البخاري في صحيحه (٦٨٢٤) كتاب الحدود/ باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه مسلم (١٦٩٢) كتاب الحدود/ باب من اعترف على نفسه بالزنا ، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه .

وأما رجم الغامدية فقد رواه مسلم (١٦٩٥-١٦٩٦) كتاب الحدود/ باب من اعترف على نفسه بالزنى ، من حديث بريدة بن الحصيب وعمران ابن حصين رضي الله عنهما .

وأما الآخر فهو رجمه للمرأة في قصة العسيف الذي زنا بها وقد رواه البخاري في صحيحه (٦٨٢٧) كتاب الحدود/ باب الاعتراف بالزنا ، من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما .

(٣) روى البخاري في صحيحه عن الشعبي حين رجم علي رضي الله عنه المرأة يوم الجمعة وقال : «قد رجمتها بسنة رسول الله ﷺ» . (٦٨١٢) كتاب الحدود/ باب رجم المحصن .

وكذلك ما يعاقب الله به أهل ذلك كما روى البخاري في صحيحه تعليقا مجزوما به وهو داخل في الصحيح الذي شرطه عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقول : «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام إلي جنب علم يروح عليها بسارحة لهم يأتيهم لحاجتهم فيقولون ارجع إلينا غدا فيبيتهم الله ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[١] .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : هذا في هذه الأمة ، أخبر عن آخر الزمان أنه يكون في هذه الأمة قوم يستحلون الحر أي الزنا والحرير والخمر والمعازف ، يستحلونه فيكفرون بذلك ، وينزل قوم تحت علم «جبل» فيراح عليهم بسارحة من الغنم أو الإبل أو غيرها ، فيأتيهم آت يطلبهم حاجة فيقولون ائتنا غداً ، فيبيتهم الله بالعقوبة في الليل ، ويضع العلم ، هذا الجبل يخسف به ويذهب ، ويمسخ الله جماعة آخرين قردة وخنازير على أعمالهم السيئة ، نسأل الله العافية ، وهذا مما رواه البخاري في الصحيح معلقاً ، ومجزوم به سنداً رحمه الله بسنده عن هشام بن عمار .أهـ

فالعقوبة بما عوقبت به الأمم المتقدمة من قذف ومسخ وخسف إنما يكون لمن شاركهم فاستحل ما حرمه الله ورسوله كما قال النبي ﷺ : «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون» ثم قد يستحل بعضهم بعض أنواع الخمر بتأويل كما استحل ذلك أهل الكوفة، كما روي في الحديث : «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخمر يسمونها باسم غير اسمها»[٢] .

---

(١) البخاري (٥٥٩٠) كتاب الأشربة/ باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه .

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٠٥١) والمنذري في الترغيب والترهيب وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٦٧) وقال : صحيح .

فالاستحلال الذي يكون من موارد الاجتهاد وقد أخطأ المستحل في تأويله مع إيمانه وحسناته هو مما غفره الله لهذه الأمة من الخطأ في قوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة ٢٨٦) ، كما استحل بعضهم بعض أنواع الربا ، واستحل بعضهم نوعا من الفاحشة وهو إتيان النساء في حشوشهن ، واستحل بعضهم بعض أنواع الخمر ، واستحل بعضهم استماع المعازف ، واستحل بعضهم من دماء بعض بالتأويل ما استحل .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : معنى « حشوشهن » يعني الدبر ، وطء الدبر ، لأنه موضع قضاء الحاجة وموضع الغائط ، نسأل الله العافية .أهـ

فهذه المواضع التي تقع من أهل الإيمان والصلاح تكون سيئات مكفرة أو مغفورة أو خطأ مغفورا ، ومع هذا فيجب بيان ما دل عليه الكتاب والسنة من الهدي ودين الحق والأمر بذلك والنهي عن خلافه بحسب الإمكان .

ثم هذه الأمور التي كانت من أولئك تكثر وتتغلظ في قوم آخرين بعدهم حتى تنتهي بهم إلى استحلال محارم الله والخروج عن دين الله ، وإذا تغلظت هذه الأمور عاقب الله أصحابها بما يشاء .

وقد كان بعض الصحابة ظن أن الخمر حرمت على العامة دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات فشربها متأولا فأحضره عمر واتفق هو وأئمة الصحابة كعلي وغيره على أنهم إن أصروا على استحلالها كفروا وإن أقروا بالتحريم جلدوا فأقروا بالتحريم ، ثم حصل لذلك نوع من اليأس والقنوط لما فعل فكتب إليه عمر : ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾

(غافر) ، وأظنه قال : ما أدري أي ذنبيك أعظم استحلالك الرجس أم يأسك من رحمة الله[1] .

وهذا من علم أمير المؤمنين وعدله ، فإن الفقيه كلَّ الفقيه لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله ، واستحلال المحرمات كفر واليأس من رحمة الله كفر .

ولهذا كان دين الله بين الحرورية والمرجئة ، فالمسلم يذنب ويتوب كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه : «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب فاستغفروني أغفر لكم»[2] .

وفي صحيح مسلم عنه أيضاً من حديث أبي هريرة قال : «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»[3] ونحوه في الصحيح من رواية أبي أيوب .

وقال لعائشة لما قيل فيها الإفك : «يا عائشة إن كنت ألممت بذنب فاستغفري

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر : والصواب -أنه- (قدامة بن مظعون) كما في سير أعلام النبلاء ١/ ١٦١ ، والإصابة ٣/ ٢٢٨ ، أهـ .

قال الذهبي : لقدامة هجرة إلى الحبشة ، وقد شرب مرة الخمر متأولا مستدلا بقوله تعالى : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ ، فحده عمر وعزله عن البحرين . انتهى من سير أعلام النبلاء ١/ ١٦١ « قدامة ابن مظعون» . وروى عبد الرزاق عن أيوب بن تيمية يقول : « لم يحد في الخمر أحد من أهل بدر إلا قدامة بن مظعون » انتهى ، المصنف (١٧٠٧٥) ٩/ ٢٤٠ باب من حد من أصحاب النبي ﷺ .

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والأداب/ باب تحريم الظلم ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٣) الحديث رقم (٢٧٤٩) كتاب التوبة/ باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة .

الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه وإن كنت بريئة فسيبرئك الله»(١) .

وفي الصحيح عن جندب أن النبي ﷺ حدّث : «أن رجلا قال : لا يغفر الله لفلان وأن الله قال : من الذي يتألى عليّ أني لا أغفر لفلان فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك»(٢) .

وقال الترمذي وابن ماجة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»(٣) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا أن الواجب على العبد أن لا ييأس وأن لا يأمن ، بل يحذر المعاصي والسيئات ويبتعد عنها ، ومتى وقع فيها لا ييأس ، بل يبادر بالتوبة والله يتوب على التائبين ، فالله قدّر فيما سبق في علمه أنه لابد من وجود ذنوب ، حتى تظهر آثار رحمته وعفوه ومغفرته سبحانه وتعالى وتوبته ، فإذا وقع الذنب فلا ييأس ولا يقنط ، ولكن يبادر بالتوبة ، ويبادر بالإحسان ، والله يتوب على التائبين ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ يعني للتائبين ،

---

(١) رواه البخاري (٤١٤١) كتاب المغازي/ باب حديث الإفك ، ومسلم (٢٧٧٠) كتاب التوبة/ باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وأرضاها .

(٢) رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى .

(٣) رواه الترمذي بنحوه (٢٤٩٩) كتاب الزهد/ باب في استعظام المؤمن ، وقال الترمذي : حديث غريب ، وورواه ابن ماجه بلفظه (٤٢٥١) كتاب الزهد/ باب ذكر التوبة ، من حديث أنس ﷺ ، والحديث حسنه الألباني في المشكاة (٢٣٤١) وصحيح الترمذي .

فمن تاب إليه وأناب إليه صادقاً تاب الله عليه، حتى من الشرك الأكبر، فلا يجوز القنوط ولا اليأس، ولكن يجب الحذر، فمتى زلت القدم ووقع في الأمر المكروه؛ فالواجب البدار بالتوبة والإصلاح .أهـ

سؤال / قوله : واليأس من رحمة الله كفر؟

أجاب سماحته رحمه الله : يعني مقصوده نوع من الكفر، منكر، فالقنوط واليأس كفر دون كفر، هذا هو المعروف، لأنه مما تدخله الشبهات، وهو محتمل أن يكون كفراً أكبر .أهـ

سؤال / ما الفرق بينه وبين القنوط؟

أجاب سماحته رحمه الله : القنوط أشد اليأس، نسأل الله العافية .أهـ

وقال : «إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»[1] (المطففين)، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[2] وهذا الباب واسع .

سؤال / قوم لوط جمعوا نوعين من الكفر؟!

أجاب سماحته رحمه الله : نعم، استحلوا اللواط مع الكفر، واستحلوا أشياء

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة ويل للمطففين، وقال الترمذي : حسن صحيح، ورواه ابن ماجه (٤٢٤٤) كتاب الزهد/ باب ذكر الذنوب، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث حسنه الألباني في صحيح الترمذي .

(٢) الحديث رقم (٢٧٥٩) كتاب التوبة/ باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة .

أخرى معه ، كقطع الطريق ، واللواط ، وظلم الناس في أموالهم ، زيادة على كفرهم ، نسأل الله العافية .أهـ

سؤال / يقام الحد على الكافر إذا قدرنا عليه ، لأن فعله كله شر؟

أجاب سماحته رحمه الله : إذا كان من أهل الكتاب ، من أهل الذمة ، فإذا كان من أهل الذمة تقام عليهم الحدود ، أما الوثنيون المستأمنون فلا تقام عليهم الحدود ، لأنهم يعتقدون حل هذه الأشياء ، وما عندهم وازع منه ، وإنما يمنعون عن إظهار شعائرهم في بلاد المسلمين .

ولكن أهل الكتاب من اليهود والنصارى أقام عليهم النبي الحد ، لأنهم بين يديه ، ويعرفون تحريم ذلك ، ويعتقدون تحريم ذلك .أهـ

سؤال / من ادعى أن الموسيقى تعالج الأمراض ولها فوائد جمة؟

أجاب سماحته رحمه الله : هذا من الأغلاط ومن المنكر ، وينبغي له أن يستتاب ويؤدب ، إذا كان باليد فينبغي أنه يستتاب ويؤدب ويزجر ، نسأل الله العافية .أهـ

والله تعالى يقبل توبة العبد من جميع الذنوب الشرك فما دونه كما قال تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الزمر :٥٣) ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ (البروج ١٠) ، وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة ١١) ، وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ

لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (المائدة)، وقال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ (الانفال ٣٨).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا محل إجماع، وأن الذنوب متى تاب العبد منها تاب الله عليه، الشرك وما دونه، فمن تاب توبة صادقة تاب الله عليه، إذا اشتملت على شروطها المعتبرة، وقد تاب جم غفير في عهده ﷺ من الشرك فتاب الله عليهم، وقبل المسلمون منهم، وهكذا في عهد الصدّيق تاب كثير من المرتدين وقبلوا توبتهم، فتوبة المرتد وتوبة الكافر وتوبة العاصي كلها مقبولة إذا استوفت شروطها.

وإنما الخلاف في الحكم الدنيوي في بعض المسائل، هل تقبل أم لا؟ أو ينفذ عليه الحكم؟

ومسألة الحكم في الدنيا شيء ثان، أما التوبة فيما بينه وبين الله فجميع الذنوب كلها تغفر بالتوبة، فمن تاب توبة صادقة غفر الله له، أي ذنب كان.

وهكذا ما يروى عن ابن عباس في القاتل: لا توبة له[1]، يعني من جهة حق المخلوقين، أما حق الله فيسقط بالتوبة، لكن حق المخلوق لا يسقط، بل لهم القصاص، وللقتيل حقه يعطاه يوم القيامة، وليس مراده أن القاتل لا تقبل توبته بالكلية، لا من جهة الله ولا من جهة العباد.

وهكذا من سب الله أو سب الرسول أو تكررت ردته، قول جمع من أهل

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٩) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة النساء، والنسائي (٤٠١٠) كتاب المحاربة/ باب تعظيم الدم.

العلم وجماعة من أهل العلم أنه لا تقبل توبته، معناه في الدنيا، يعني بل يقتل، وأما في الآخرة إذا صدق في التوبة تاب الله عليه ولو كان سابًا، ولو تكررت ردته، إذا صدق في التوبة تاب الله عليه فيما بينه وبينه سبحانه وتعالى. أهـ

فمن تاب من هذه الاعتقادات الفاسدة وهو استحلال شيء من المحرمات أو التدين بشيء منها قبل الله توبته، وأما من استحل ذلك أو تدين به وإن لم يفعله فالذي يفعل ذلك وهو معتقد للتحريم خير منه، فإن هذا مؤمن مذنب وأما الاستحلال لها والتدين بها فهو كفر.

فأما أهل الإباحة الذين لا يحرمون شيئا من الفواحش وغيرها فهؤلاء كفار من أعظم الناس كفرا.

وكذلك استحلال التلوط مثل من يظن أن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ (النساء: ٣)، يتناول الذكران أو يظن قوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ (البقرة: ٢٢١)، هو في الموطوء لا في الزوج أو يظن أن ذلك يباح في السفر أو بعد أربعين يوما أو نحو ذلك فهذا يكفر بإجماع المسلمين.

ومثل هؤلاء قد يعاقبهم الله بما عاقب به قوم لوط وقد يحشر معهم لأن دينه دينهم، بخلاف المقر بتحريم ذلك فإنه مسلم.

وأما التدين بذلك فهو أعظم من استحلاله، وهؤلاء المتدينون ما يكادون يتدينون بنفس فعل الفاحشة الكبرى، ولكن بمقدماتها من النظر والتلذذ به والمباشرة والعشق للنسوان الأجانب والصبيان، ويزعمون أن ذلك يصفي نفوسهم وأرواحهم ويرقيهم إلى الدرجات العالية، وفيهم من يزعم أنه يخاطب من تلك الصورة وتتنزل عليه أسرار ومعارف، وفيهم من يترقى لغير ذلك فيقول

إنه يتجلى له فيها الحقائق وربما زعم أن الله يحل فيها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، وقد يسجدون لها.

ومن هؤلاء من يزعم أن دحية الكلبي كان أمردا.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: أمرد، بدون ألف، لا ينصرف، خبر عن دحية. أهـ

وأن جبريل كان يأتي النبي ﷺ في صورة أمرد ويقول له ما أحب أن تأتيني إلا في صورة أمرد، وفيهم من يتأول قوله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة»(١) وفي صورة كذا وكذا ويجعل الأمرد ربه.

وهؤلاء الحلولية والاتحادية منهم من يخصه بالصور الجميلة ويقول مظاهر الجمال، ومنهم من يقول بالاتحاد المطلق والحلول المطلق لكن هو يتخذ لنفسه من المظاهر ما يحبه.

فهو كما قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝﴾ (الفرقان)، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ (الجاثية).

وهؤلاء يجعل أحدهم معبوده من جنس موطوءه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة ص، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح.

قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأعراف)، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الاعراف) .

وكثير من هؤلاء إنما ينكر بكلامه إباحة ذلك التعبد به ولكن حاله حال من يتعبد به ، حتى إنهم يتواصون فيما بينهم بأن المريد السالك ينبغي أن يتخذ لنفسه صورة يجتمع عليها ثم يترقى منها إلى الله أو أنه يشاهد فيها الله .

فصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله وهو من الدين ، فإن رسالة الله إما أخبار وإما إنشاء .

فالأخبار عن نفسه عز وجل وعن خلقه مثل التوحيد والقصص الذي يندرج فيه الوعد والوعيد . والإنشاء الأمر والنهي والإباحة .

وهذا كما ذكر في الحديث أن قل هو الله أحد سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن[1] لتضمنها الثلث الذي هو التوحيد لأن القرآن توحيد وأمر وقصص .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وجه كونها تعدل ثلث القرآن ، لأن القرآن اشتمل على ما يتعلق بتوحيد الله ، وما يتعلق بالأوامر والنواهي ، وما يتعلق بالقصص عن الماضي والمستقبل ، فصار ثلثاً بهذا المعنى .أهـ

(١) رواه البخاري (٦٦٤٣) كتاب الأيمان والنذور/ باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ومسلم (٥٠١٣) كتاب فضائل القرآن/ باب فضل «قل هو الله أحد» من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

سؤال / قوله : الإباحة إنشاء؟

أجاب سماحته رحمه الله : الإباحة والتحريم إنشاء ، فالإباحة والتحريم كلها من قبيل الإنشاء .أهـ

وقوله سبحانه في صفة نبينا ﷺ : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (الأعراف : ١٥٧) ، هو لبيان كمال رسالته ﷺ ، فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ونهى عن كل منكر وأحل كل طيب وحرم كل خبيث .

ولهذا روي عنه ﷺ أنه قال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١) وقال في الحديث المتفق عليه : «إنما مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فكان الناس يطيفون بها ويعجبون من حسنها ويقولون : لولا موضع اللبنة فأنا تلك اللبنة»(٢) فيه أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر وإحلال كل طيب وتحريم كل خبيث .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ولهذا أجمع العلماء على ما دل عليه كتاب الله وسنة الرسول من الختم للنبوة ، وأن الله ختم به النبوة ، فليس بعده نبي ولا رسول ، وتمثيله بالقصر من أوضح الأشياء في هذا ، مع قوله جل وعلا : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤٢٢١) والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٩ : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .أهـ وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ح (٤٥)

(٢) رواه البخاري (٣٥٣٤) كتاب المناقب/ باب خاتم النبيين ﷺ ، ومسلم (٢٢٨٧) كتاب الفضائل/ باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

فمن ادعى النبوة بعده فهو كافر بإجماع المسلمين ، لأنه خالف النصوص المتواترة القطعية من الكتاب والسنة .اهـ.

وأما من كان قبله من الرسل فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات كما قال الله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (النساء ١٦٠) وربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث كما قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ (آل عمران :٩٣) .

وتحريم الخبائث يندرج في معنى النهي عن المنكر كما أن إحلال الطيبات يندرج في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن تحريم الطيبات هو مما نهى الله عنه ، وكذلك الأمر بجميع المعروف والنهي عن كل منكر مما لم يتم إلا للرسول الذي تمم الله به مكارم الأخلاق المندرجة في المعرفة .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لعلها : «في المعروف» لأن مكارم الأخلاق من آكد المعروف ، فلعلها «في المعروف» .اهـ.

وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة) ، فقد أكمل الله لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً .

وكذلك وصف الله الأمة بما وصف به نبيها ﷺ حيث قال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) ، وقال : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (التوبة : ٧١) .

ولهذا قال أبو هريرة ﷺ: كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة(١).

فبين الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهم أنفعهم لهم وأعظمهم إحسانا إليهم لأنهم كمّلوا أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهذا كمال النفع للخلق.

وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف ولا نهوا كل أحد عن كل منكر ولا جاهدوا على ذلك، بل منهم من لم يجاهدوا، والذين جاهدوا كبني إسرائيل فغاية جهادهم كان لدفع عدوهم من أرضهم كما يقاتل الصائل الظالم لا لدعوة المجاهدين إلى الهدى والخير ولا لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما قال موسى لقومه: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ۝ ﴾ (المائدة).

وكما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٥٥٧) كتاب التفسير/ باب «كنتم خير أمة أخرجت للناس».

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ (البقرة) ، فعللوا القتال بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، ومع هذا كانوا ناكلين عما أمروا به من ذلك ، ولهذا لم تحل الغنائم لهم ولم يكونوا يطئون بملك اليمين .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : **هذا الواجب العظيم ، واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هذا قد ضعف الناس فيه كثيراً ، وقلّ المهتمون به كثيراً في هذا العصر ، فالواجب على أهل العلم والإيمان أن يهتموا بهذا الواجب العظيم الذي جعل الله فيه لهذه الأمة الحظ الأوفر ، وجعلها خير أمة في إيمانها وعملها الصالح وأمرها بالمعروف والنهي عن المنكر ، فينبغي للمؤمن أن لا يقصّر في هذا وأن يحرص ، لإحياء هذا الواجب وإظهاره بيده ثم لسانه ثم قلبه ، والله جل وعلا أوجب المستطاع فقط ، فينبغي للمؤمن أن لا يبخل بلسانه ونصيحته لإخوانه ، وقد مكّن الله من ذلك ويسّر ذلك ، أينما كان ، حتى يكون من المحيين لهذا الواجب والمظهرين له والداعين إليه ، والله المستعان . أهـ**

ومعلوم أن أعظم الأمم المؤمنين قبلنا هم بنو اسرائيل كما جاء في الحديث المتفق على صحته في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج علينا النبي ﷺ فقال : **«عرضت علي البارحة الأنبياء بأممهم فجعل يمر النبي ومعه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي معه الرهط والنبي ليس معه أحد ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق وفي رواية : فإذا الطريق ممتلئة بالرجال فرجوت أن يكون أمتي فقلت : هذه أمتي فقيل : هذا موسى في بني إسرائيل ولكن انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق فقيل : هؤلاء أمتك ومع**

هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب» فتفرق الناس ولم يتبين لهم فتذاكر أصحاب النبي ﷺ فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ولكنا آمنا بالله ورسوله ولكن هؤلاء أبناؤنا فبلغ النبي ﷺ فقال : **«هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»** فقام عكاشة بن محصن فقال : أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال : «نعم» فقام آخر فقال : أمنهم أنا؟ فقال : **«سبقك بها عكاشة»**(١)

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة لأن الله قد أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ، فلو اتفقوا على إباحة محرم أو إسقاط واجب أو تحريم حلال أو إخبار عن الله أو خلقه بباطل لكانوا متصفين بالأمر بمنكر والنهي عن معروف ، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح ، بل الآية تقتضي أن ما لم تأمر به الأمة فليس من المعروف وما لم تنه عنه فليس من المنكر ، وإذا كانت آمرة بكل معروف ناهية عن كل منكر فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر أو تنهى كلها عن معروف .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا ظاهر من الأدلة أن إجماع الأمة يكون حجة على من خالفهم ، لأنهم إذا أجمعوا فهم لا يجمعون على منكر ولا على ترك معروف ، لأن الله قال : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فلا يجوز أن يجمعوا على ترك معروف أو على فعل منكر ، لأنهم إذا أجمعوا زالت عنهم هذه الصفة

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١) كتاب الرقاق / باب يدخل الجنة سبعون ألفا ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ومسلم (٢١٨) كتاب الإيمان / باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

التي قال الله عنهم بها ، ويستدل على ذلك أيضاً بقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»[1] فإذا أجمعوا دخل فيهم الطائفة المنصورة فصار إجماعهم حجة .

ولهذا أجمع العلماء ـ علماء الإسلام ـ على أن الإجماع حجة كما أن الكتاب حجة والسنة حجة ، والإجماع المنضبط هو إجماع سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ، إذ بعدهم انتشرت الأمة وتوزعت البلاد وتعذر الوقوف على إجماعهم .

فما أجمع عليه سلف الأمة فهو الحق ، ولابد أن يكون على نص .أهـ

والله سبحانه وتعالى كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران) .

وإذا أخبر بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها لم يكن من شرط ذلك أن يصل أمر الآمر ونهي الناهي منها إلى كل مكلف في العالم ، إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة ، فكيف يشترط فيما هو من توابعها ، بل الشرط أن

(١) رواه البخاري (٣٦٤٠) كتاب المناقب / باب : و (٧٣١١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب قول النبي ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون » وهم أهل العلم ، من حديث المغيرة بن شعبة ، ورواه مسلم (١٥٦) كتاب الإيمان / باب بيان نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ وإكرام الله تعالى هذه الأمة زادها الله شرفا وبيان الدليل على أن هذه الملة لا تنسخ وأنه لا تزال طائفة منها ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة ، من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما .

يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم ، ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التفريط منهم لا منه .

وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومراده رحمه الله «على الكفاية» ما لم يختص إنسان بشيء لا يشاركه غيره فيكون على العين ، كما قال ﷺ : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده» الحديث(١) ، فإذا رآه جماعة صار فرضاً عليهم فرض كفاية ، وإذا ما رآه إلا واحد صار فرض عين عليه ، لأنه ما هنا غيره ، فهو فرض كفاية في الجملة إذا لم ينفرد به أحد ، فإذا انفرد به أحد دون غيره ورآه دون غيره ؛ تعيّن عليه مع القدرة بيده ثم لسانه ثم قلبه .

فلو كان في طريق أو في سفر أو في طائرة أو في قطار أو سيارة ليس فيهم إلا مسلم واحد تعين عليه التبليغ عن الله وإنكار المنكر .

فالمقصود أنه إذا انفرد تعيّن عليه ، وإذا كان معه غيره صار فرض كفاية .أهـ

ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضاً كذلك ، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته ، كما قال النبي ﷺ : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(٢) .

---

(١) رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٢) رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

وإذا كان كذلك ، فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به ، ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله ، ويجب على أولي الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا بحث مهم ، فإن أولي الأمر تنازع فيهم الناس ، فقال قوم : إنهم الأمراء ، وقال قوم : إنهم العلماء ، والصواب أنهم المجموعة ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ المجموعة ، العلماء والأمراء ، ومن في حكمهم كالمشايخ - مشايخ القبائل كما قال المؤلف - فإن شيخ القبيلة أمير في المعنى ، لأنه أميرهم فيمتثلون أمره ، وقد يكون امتثالهم لأمره أعظم من امتثالهم للأمير الرسمي ، فواجب عليه أن يأمرهم بالمعروف وأن ينهاهم عن المنكر .

كما يجب على ولاة الأمور تنفيذ الحدود وإقامتها ، وإقامة أمر الله ، والدعوة إلى الجهاد عند هجوم العدو ، حتى يقوم الناس ويردعوا الباطل ، وإذا لم يقم هؤلاء فمن يقوم؟

فهؤلاء هم الأسوة وهم القادة ، الأمير والعالم وشيخ القبيلة ، وهكذا من في حكمهم في بعض البلاد ، كعمدة القرية أو عمدة الحارة ، فعليه من الواجب ما ليس على غيره ، لأنه أسند إليه أمر ، فهو عنده نوع إمارة في محله ، فعليه من الواجب ما ليس على أفراد العامة . أهـ.

فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله مثل شرائع الإسلام وهي الصلوات

الخمس في مواقيتها وكذلك الصدقات المشروعة والصوم المشروع وحج البيت الحرام ، ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره ، ومثل الإحسان وهو أن تبعد الله كأنك تراه فإنه لم تكن تراه فانه يراك .

ومثل ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة ، ومثل إخلاص الدين له والتوكل على الله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه والصبر لحكم الله والتسليم لأمر الله .

ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها وبر الوالدين وصلة الأرحام والتعاون على البر والتقوى والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك ، والعدل في المقال والفعال ، ثم الندب إلى مكارم الأخلاق مثل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عن ظلمك .

ومن الأمر بالمعروف كذلك الأمر بالائتلاف والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة وغير ذلك .

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله وهو أن يدعو مع الله إلهاً آخر كالشمس والقمر والكواكب أو كملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء أو رجل من الصالحين أو أحد من الجن أو تماثيل هؤلاء أو قبورهم أو غير ذلك مما يدعى من دون الله تعالى أو يستغاث به أو يسجد له ، فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرمه الله على لسان جميع رسله .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا هو أعظم الذنوب وأعظم الجرائم ، وهو الشرك بالله عزوجل ، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ لما سأله ابن مسعود : أي

الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» متفق عليه[١]، فأعظم الذنوب وأعظم الكبائر جنس الشرك، سواء كان الشرك بالجمادات كالشمس والقمر والأصنام والأشجار، أو بغير الجمادات كالأنبياء والأولياء والجن، كل ذلك ممنوع وكله شرك أكبر.

فدعاؤهم والاستغاثة بهم والنذر لهم والصلاة لهم والسجود لهم والطواف بقبورهم تقرباً إليهم، إلى غير هذا من أنواع العبادة؛ كله داخل في قوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقوله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وهذه البلية والمصيبة فشت في الناس من قرون طويلة، بسبب الجهل وتقليد الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم، وقع هذا الأمر العظيم الخطير لقوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»[٢]

«لتأخذن أمتي بأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع»[٣] فلما كانت اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم يعبدون غير الله ويشركون به؛ تبعهم الناس إلا من عصم الله وحفظ، ولا حول ولا قوة إلا بالله. أهـ

ومن المنكر كل ما حرمه الله كقتل النفس بغير الحق وأكل أموال الناس

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧) كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: «فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون» ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان/ باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده.

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٦) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب ما جاء عن بني إسرائيل، ومسلم (٢٦٦٩) كتاب العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) المصدر السابق.

بالباطل بالغصب أو بالربا أو الميسر والبيوع والمعاملات التي نهى عنها رسول الله ﷺ ، وكذلك قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وتطفيف المكيال والميزان والإثم والبغي ، وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ وغير ذلك .

والرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني ليكن بالرفق .اهـ

ولهذا قيل : ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر .

سؤال / الإلحاد أعظم من الشرك؟

أجاب سماحته رحمه الله : الإلحاد فيه تفصيل ، الإلحاد قد يكون إلحاداً في معصية وقد يكون إلحاداً في كفر ، فالإلحاد الذي معناه إنكار الربوبية وإنكار وجود الله هذا كفر أكبر ، أكبر من كفر المشركين كالشيوعيين وأشباههم ، أما الإلحاد في بعض الأشياء التي دون الشرك ، مثل تأويل بعض الجُمل على غير تأويلها جهلاً منه ، في بعض الصفات أو غيره ، فهو أقل من ذاك .

والإلحاد هو الميل عن الحق ، قد يكون شركاً وقد يكون معصية .اهـ

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة ، إذ بهذا بعثت الرسل وأنزلت الكتب ، والله لا يحب الفساد ، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح ، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذم الفساد والمفسدين في غير موضع ، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم يكن مما أمر الله به وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم ، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله وليس عليه هداهم ، وهذا من

معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ (المائدة: ١٠٥).

والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضالين، وذلك يكون تارة بالقلب وتارة باللسان وتارة باليد.

فأما القلب فيجب بكل حال إذ لا ضرر في فعله ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: «**وذلك أدنى أو أضعف الإيمان**»[١] وقال: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبه خردل**»[٢] وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: من ميت الأحياء؟ فقال: «**الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا**»[٣] وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه كالكوز مجخيا في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في الصحيحين: «**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير**» الحديث[٤].

---

(١) رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٥٠) كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٥٧٧) ما ذكر في فتنة الدجال، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٩٠) أحاديث في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من قدر عليهما بما قدر عليه وما في ترك ذلك من الفساد. وأما أثر ابن مسعود فقد رواه البيهقي في شعب الإيمان ولكن بلفظ: «اما أصحاب الريب فقال: قوم لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر» (٧٥٨٤) أحاديث في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٤) رواه مسلم (١٤٤) كتاب الإيمان/ باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

وهنا يغلط فريقان من الناس :

فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلا لهذه الآية كما قال أبو بكر الصديق ﷺ في خطبته : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة : ١٠٥) ، وإنكم تضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : **«إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»**(١) .

والفريق الثاني من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقا من غير فقه ولا حلم ولا صبر ولا نظر في ما يصلح من ذلك وما لا يصلح وما يُقدر عليه وما لا يقدر ، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني سألت عنها أبي الآية رسول الله ﷺ فقال : **«بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ورأيت أمرا لا يدان لك به فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام فإن من ورائك أيام الصبر الصبر فيهن مثل قبض على الجمر للعامل فيهن كأجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله»**(٢) فيأتي بالأمر والنهي معتقدا أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتد في حدوده ، كما

---

(١) رواه أحمد ١/ ٢ وأبو داود (٤٣٣٨) كتاب الملاحم/ باب الأمر والنهي ، والترمذي (٢١٦٨) كتاب الفتن/ باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ، وقال الترمذي : حديث صحيح ورواه ابن ماجه بلفظه (٤٠٠٥) كتاب الفتن/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من حديث قيس بن أبي حازم ، وقال النووي في رياض الصالحين : بأسانيد صحيحة (١٩٧) .

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤١) كتاب الملاحم/ باب الأمر والنهي ، والترمذي (٣٠٥٨) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة المائدة ، وقال الترمذي : حسن غريب . ورواه ابن ماجه (٤٠١٤) كتاب الفتن/ باب قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» .

نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهي كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد وغير ذلك فكان فساده أعظم من صلاحه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمقصود من هذا أن الواجب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجب التثبت في الأمور والنظر والتبصر ، وأن يكون بأمره ونهيه على بصيرة وعلى علم ، ولهذا قال : الناس في هذا طائفتان ، يعني المخالفون للحق طائفتان ، أما أهل البصيرة فهم الذين امتثلوا أمر الرسول ﷺ ، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر حسب الطاقة ، باليد ثم اللسان ثم القلب ، فلم يدعوا شيئاً من ذلك ، بل حسب طاقتهم ، فأقل شيء كراهة القلب لما حرّم الله وإنكار لما حرّم الله ، ولهذا لما قيل لابن مسعود ﷺ : هلكتُ إن لم آمر بالمعروف وأنه عن المنكر ، قال : هلكتَ إن لم تعرف المعروف وتنكر المنكر[1] ، فالمقصود أن الإنسان لابد أن يعرف المعروف ويعرف المنكر ، ويكون على بصيرة وعلى بينة .

فطائفة أعرضوا ولم يبالوا ولم يلتفتوا إلى ما أوجب الله عليهم ، وطائفة لم يتبصروا وأمروا على غير بصيرة ، فربما وقع منهم من الفساد والضرر والعواقب الوخيمة ما لا يعلمه إلا الله ، كما جرى للخوارج وغيرهم من أهل البدع ، بزعمهم أنهم يأمرون بالمعروف وأنهم ينكرون المنكر ، فكفّروا الناس وظلموا الناس وخرجوا على الناس بالسلاح وخالفوا الشريعة .

فبعض الناس قد لا يكون عنده حكمة ولا عنده حلم ولا عنده بصيرة ، فقد يؤتى من جهله ، وقد يؤتى من عجلته ، وقد يؤتى من جهة سوئه ، وقد

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٥٨٨) أحاديث في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من قدر عليهما بما قدر عليه وما في ترك ذلك من الفساد .

يؤتى من جهة عدم معرفة الحكم الشرعي في هذه المسألة ، فيقع فيما يضر الناس ويسبب المشاكل .

فالواجب على الآمر والناهي أن يتبصر ، وأن يأمر في حدود الله ، وأن يعمل بما تقتضيه الشريعة في إنكار المنكر والأمر بالمعروف على حد كتاب الله وسنة رسوله ، يعني على حد العلم والبصيرة والنظر في العواقب ، ولهذا في حديث أبي ثعلبة الخشني يقول الرسول ﷺ : «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ؛ فعليك بنفسك ودع عنك أمر العامة»[١] وفي اللفظ الآخر : «وأمر لا يدان لك به»[٢] يعني لا طاقة لك به .

والصدّيق ﷺ بيّن للناس معنى قوله جل وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ ، ظن بعض الناس أنه إذا أعرض فإنه لا شيء عليه إذا كان مهتدياً ، وهذا تأويل لها في غير تأويلها ، ولهذا قال إنه سمع النبي ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه»[٣] فلا يكون مهتدياً إلا إذا أدى الواجب ، فإذا أدى الواجبات

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤١) كتاب الملاحم/ باب الأمر والنهي ، والترمذي (٣٠٥٨) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة المائدة ، وقال الترمذي : حسن غريب . ورواه ابن ماجه (٤٠١٤) كتاب الفتن/ باب قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» .

(٢) راه ابن ماجه (٤٠١٤) كتاب الفتن/ باب قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» .

(٣) رواه أحمد ١/ ٢ وأبو داود (٤٣٣٨) كتاب الملاحم/ باب الأمر والنهي ، والترمذي (٢١٦٨) كتاب الفتن/ باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ، وقال الترمذي : حديث صحيح ، ورواه ابن ماجه بلفظه (٤٠٠٥) كتاب الفتن/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من حديث أبي بكر الصديق ﷺ ، وقال النووي في رياض الصالحين : بأسانيد صحيحة (١٩٧) .

وترك المحرمات فإنه يكون مهتدياً، ومن الواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا لم يتيسر ذلك وتغيرت الأحوال، وساد الناس الفوضى وقلة العلم، ورأيت أمراً لا يدان لك به، بل أمر يصعب عليك ولا تستطيعه فعليك بنفسك، ولا تتعاطى شيئاً يسبب ما هو أنكر مما فعلت.

ولهذا ذكر العلماء أن إنكار المنكر له أحوال:

تارة بنكره ويرجو أن يزول بالكلية لما عَرَف من الأسباب، ولا يعقبه شر منه ولا مثله، فهذا يجب إنكاره.

وتارة يَخشى أن يقع مثله، يزول ولكن يقع مثله أو قريب منه، فهذا محل نظر ومحل اجتهاد، وفي إنكاره نظر حينئذ، ما دام يحل محله مثله أو قريب منه.

وتارة يعرف ويعلم أنه متى أنكر هذا وقع ما هو أكبر، فإنه يتجنب ذلك إلى وقت آخر لئلا يقع ما هو أكبر.

وفي هذا المعنى ما حكي عن شيخ الإسلام رحمه الله أنه مر مع جماعة من أصحابه على قوم من التتر يشربون الخمر، فقال بعض أصحابه ننكر عليهم، قال: لا، دعهم، فإنهم إن تركوا ذا قاموا يقتلون الناس، ويقتلون المسلمين، فقال: دعهم مشغولين بما هم فيه لأن خمرهم أقل ضرراً من قتلهم المسلمين، لأنهم يقتلون ولا يبالون، لكفرهم وضلالهم وجهلهم. اهـ.

ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال: «أدوا إليهم حقوقهم وسلوا الله حقوقكم»[1] وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع.

(١) رواه البخاري (٧٠٥٢) كتاب الفتن/ باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة وترك القتال في الفتنة ، وأما أهل الأهواء كالمعتزلة فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم .

ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة :التوحيد الذي هو سلب الصفات ، والعدل الذي هو التكذيب بالقدر ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فيه قتال الأئمة ، وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه أصول المعتزلة الخبيثة ، بدلوا أصول الإسلام الخمسة ، الشهادتان والصلاة والصوم والحج والزكاة ، فهذه أصولهم .

التوحيد : نفي الصفات من جهة الرب عزوجل .

والعدل : نفي القدر وأنه لا قدر ، بزعمهم أن سبق القدر خلاف العدل .

والمنزلة بين المنزلتين :إخراج العاصي من الإيمان وعدم دخوله في الكفر ، بينهما ، ولكنه مخلد في النار .

والخوارج جعلوه خارجاً من الإسلام بالكلية ، وهم قالوا : في منزلة بين المنزلتين ، أحدثوا هذه المنزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر ولكنه مخلد في النار ، وهذا من جهلهم وضلالهم وعدم بصيرتهم .

الأصل الرابع :إنفاذ الوعيد ، يعني أن العاصي مخلد في النار ، ينفذ فيه الوعيد ، لا كما قاله أهل السنة والجماعة :أنه تحت مشيئة الله ، فالعاصي تحت المشيئة ، كما قال الله سبحانه : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهم قالوا : لا ، بل العاصي مثل الكافر ، ينفذ فيه الوعيد ، وإن مات على الزنا

والخمر فهو مخلد في النار، ولا يُخرج من النار، كمن مات على الشرك بالله، نسأل الله العافية.

والأصل الخامس عندهم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن ليس كما عند أهل السنة، بل المعنى عندهم الخروج على الأئمة إذا عصوا، الخروج عليهم وقتالهم ولو كانوا مسلمين مادام ظهر منهم معصية، فيقاتلون.

وهذا الذي نهى عنه النبي ﷺ وشدّد فيه وأمر بلزوم الجماعة، وقال: «من رأى من أميره معصية فليكره ما يأتيه من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة»[1] وقال: «لا تقاتلوهم ما أقاموا فيكم الصلاة إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[2] فالمعتزلة والخوارج خالفوا هذه الأحاديث، وجعلوا من أصولهم الخروج على الأئمة، وسموه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولبّسوا على الناس.

ولهذا خرجوا على علي، وقاتلوا علياً، بزعمهم أنه عصى لمّا حكّم في الأمر بينه وبين معاوية، والله المستعان. أهـ.

وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي وإن

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٤) كتاب الفتن / باب قول النبي ﷺ «سترون بعدي أموراً تنكرونها» ومسلم (١٨٤٩) كتاب الإمارة / باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٧٠٥٦) كتاب الفتن / باب قول النبي ﷺ «سترون بعدي أموراً تنكرونها» ومسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة / باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

كان متضمنا لتحصل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له ، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته .

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة ، فمتى قدر الانسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر ، وقلّ أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما بل إما أن يفعلوهما جميعا أو يتركوهما جميعا لم يجز أن يُؤمَروا بمعروف ولا أن يُنهوا عن منكر ، بل ينظر ؛ فإن كان المعروف أكثر أمر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ وزوال فعل الحسنات .

وإن كان المنكر أغلب نهي عنه وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما ، فتارة يصلح الأمر وتارة يصلح النهي وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي حيث كان المنكر والمعروف متلازمين وذلك في الأمور المعينة الواقعة .

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقا وينهى عن المنكر مطلقا ، وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها ويحمد محمودها ويذم مذمومها بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه

أو حصول منكر فوقه ، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه أو فوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمر استبْبَتَ المؤمن حتى يتبين له الحق ، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية ، وإذا تركها كان عاصيا ، فترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهي عنه من الأمر معصية ، وهذا باب واسع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن هذا الباب إقرار النبي ﷺ لعبد الله بن أبيّ وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من الأعوان ، فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكبر من ذلك بغضب قومه وحميتهم وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمدا يقتل أصحابه .

ولهذا لما خطب الناس في قصة الإفك بما خاطبهم به واعتذر منه وقال له سعد بن معاذ قوله الذي أحسن فيه حمي له سعد بن عبادة مع حسن إيمانه وصدقه وتعصب لكل منهم قبيله حتى كادت تكون فتنة .

وأصل هذا أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه للمنكر وإرادته لهذا وكراهته لهذا موافقا لحب الله وبغضه وإرادته وكراهته الشرعيتين ، وأن يكون فعله للمحبوب ودفعه للمكروه بحسب قوته وقدرته ، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها وقد قال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن ١٦) .

فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان ، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته .

قال سماحة الشيخ : والمعنى في هذا أن الواجب على المؤمن أن يحب الله ورسوله ويحب ما شرعه محبة كاملة ، وأن يكره ما نهى الله عنه ورسوله كراهة

كاملة ، أما التنفيذ فعلى حسب قدرته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ كونه يحب مثلاً أن يحج كل عام ، لكن لا يلزمه ذلك ، ولا يلزم من كمال المحبة أن يفعل ذلك ، ولا يلزمه أيضاً أن يحج وهو غير مستطيع ، وإن كان كامل المحبة لله ولرسوله ، ولكن ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ .

كذلك الجهاد ، كونه يحب الله ورسوله ويحب الجهاد ، لكن لا يستطيع الجهاد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ .

كذلك الأمور الأخرى من إكرام والديه وجيرانه يتقي الله فيها ما استطاع حسب طاقته ، لكن قلبه مملوء بحب الله ورسوله وحب ما أحبه الله ورسوله ومن كراهة ما كرهه الله ورسوله ، وهذا مقدور عليه ، فما يتعلق بالقلب مقدور عليه ، فأن يحب الله ورسوله محبة صادقة كاملة ومحبة طاعته ، ويكره ما كرهه الله ورسوله كراهة كاملة ، والتنفيذ على حسب الطاقة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ .

ولولي الأمر النظر في أمور الناس ، فإذا كان هناك من يُخشى من سجنه أو قتله فتنة كبرى وشر أعظم ؛ أمهله ، ولم يعجل بقتله ولا سجنه ، لئلا تقع فتنة أكبر من قتله وسجنه ، لأنه له أعوان وله أصحاب يغضبون له ، كما جرى لعبدالله بن أبي بن سلول ، فإن الرسول أمهله ولم يقتله مع ظهور نفاقه والدلائل على نفاقه ، لئلا يغضب له قومه فتقع فتنة .اهـ

ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل كما قد بيناه في غير هذا الموضع .

فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبته نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله ، وهذا من نوع

الهوى ، فإن اتبعه الانسان فقد اتبع هواه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (القصص : ٥٠) ، فإن أصل الهوى هو محبة النفس ، ويتبع ذلك بغضها والهوى نفسه وهو الحب والبغض الذي في النفس لايلام العبد عليه فإن ذلك لايملكه ، وإنما يلام على اتباعه كما قال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (ص ٢٦) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (القصص ٥٠) .

وقال النبي ﷺ : «**ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية والقصد في الفقر والغنى وكلمة الحق في الغضب والرضا وثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه**»[(١)] .

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض ووجد وإرادة وغير ذلك ، فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه .

واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات ، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٠٠٣) فصل في الطبع على القلب أو الرين من حديث أبي هريرة ﷺ ، وروي من طرق عن أنس ﷺ والحديث قال عنه الألباني في المشكاة : «حسن بشواهده» ٣/ ١١٠ وفي صحيح وضعيف الجامع الصغير : «حسن» (٥٣٥٠)

يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (القصص)

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ إلى قوله: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الروم ٢٨ ـ ٢٩)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الانعام: ١١٩)، وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ (المائدة).

وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة)، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (المائدة ٤٩).

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء

والعُبّاد يُجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدي الله الذي بعث به رسوله ﷺ.

ولهذا قال الله تعالى في موضع: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١١٩).

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠).

فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه هل هو موافق لأمر الله ورسوله وهو هدى الله الذي أنزله على رسوله ﷺ، بحيث يكون مأمورا بذلك الحب والبغض لا يكون متقدما فيه بين يدي الله ورسوله فإنه قد قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (الحجرات: ١).

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله.

ومجرد الحب والبغض هو هوى، لكن المحرم منه اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله ولهذا قال الله لنبيه داود: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (ص: ٢٦)، فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله، وهو هداه الذي بعث به رسوله، وهو السبيل إليه.

وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أوجب الأعمال

وأفضلها وأحسنها وقد قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك: ٢)، وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذه الأمور التي ذكرها المؤلف هي أخطر شيء على الناس في كل زمان وفي كل مكان، فإن الرجل قد يكون صالحاً، وقد يكون عنده خير وعلم، ولكن إذا خالف الواقعُ هواه تغيرت حاله، ولم ينضبط، وحرص على أن يُتبع هواه وأن يمال إلى هواه، إلا من رحم الله.

فهذه أمور في النفس، هوى النفس، إما أن يهواه وهو كراهته لما يكرهه، وكثيراً ما يقدمها الإنسان على ما يريده الله ويحبه الله من أجل ضعف إيمانه وضعف بصيرته، فإذا أعانه الله ترك هواه وقمع نفسه، واتبع الحق وإن خالف هواه، وناصر الحق وإن خالف هواه، لأن عنده من الإيمان والتقوى ما يحمله على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝﴾.

بخلاف مثل قال الله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى ۝ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۝﴾ فالمؤثر للدنيا قد تابع هواه، لأن النفوس تميل إلى الدنيا والشهوات، فإذا تابع ذلك ومال إلى ذلك وآثره؛ صار ممن آثر الحياة الدنيا، وصار ممن اتبع الهوى.

فإذا منعها من الربا، ومنعها من الغش، ومنعها من الخيانة، ومنعها من ظلم

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية (٥٠-٥١) وأبو نعيم في حلية الأولياء/ ٨/ ٩٥.

الناس بأنواع الظلم ؛ صار هذا ممن خالف هواه ونهى النفس عن هواها ، وإن كان فيه طمع له في ماله وفي الدنيا ، لكن حبه لله ولرسوله وخوفه من الله ؛ حمله على أن يمنع نفسه من هذا الهوى ، وأن يلزمها بالحد في كل شيء . أهـ

سؤال / كيف يكون الشح مطاعاً؟

أجاب سماحته رحمه الله : من طبيعة النفس الشح ، فمن طبيعتها الشح والحرص على المال ، فالشح الحرص ، فإن أطعته هلكت ، فإنك إذا أطعت الشح طلبت المال من كل طريق ، من الربا والخيانة والسرقة وغيرها ، لأن الشح الحرص على المال ، ثم المنع ، شحيح منوع ، يطلبه بغير حله ، ويمنعه من وجهه ، فإذا أطاع شحه منع الواجب ، وأخذ المال من غير حله ، وإذا لم يطع الشح وقف عند الحد الشرعي وخالف هواه ، فلم يقبل من المال إلا ما كان حلالاً ، ولم يطع نفسه في هواها في منع الواجب ، بل يخرج الصدقة والزكاة ، وينفق على من تحت يده ، ويكرم الضيف ، وينفق في وجوه الخير مخالفاً لهواه والشح . أهـ

فالعمل الصالح لابد أن يراد به وجه الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما اريد به وجهه وحده .

كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك»(١) .

وهذا هو التوحيد الذي هو أصل الإسلام وهو دين الله الذي بعث به جميع

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق/ باب من أشرك في عمله غير الله ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

رسله وله خلق الخلق وهو حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ولا بد مع ذلك أن يكون العمل صالحا وهو ما أمر الله به ورسوله وهو الطاعة ، فكل طاعة عمل صالح وكل عمل صالح طاعة وهو العمل المشروع المسنون ، إذ المشروع المسنون هو المأمور به أمر إيجاب أو استحباب ، وهو العمل الصالح وهو الحسن وهو البر وهو الخير ، وضده المعصية والعمل الفاسد والسيئة والفجور والشر والظلم والبغي .

ولما كان العمل لا بد فيه من شيئين : النية والحركة كما قال النبي ﷺ : «أصدق الأسماء حارث وهمام»،(١) فكل أحد حارث وهمام له عمل ونية .

لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله ويثيب عليها هي أن يراد الله وحده بذلك العمل ، والعمل المحمود هو الصالح وهو المأمور به .

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه : «اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا»(٢) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : العمل الصالح عند الإطلاق هو الذي صدر من المسلم قد اشتمل على أمرين : الإخلاص ، والموافقة للشريعة ، هذا هو العمل الصالح ، فإن فقد الإخلاص صار شركاً ، وإن فقد المتابعة صار بدعة ، فلا بد أن يكون عمله صالحاً إلا بإخلاصه لله ، وبمتابعته للشريعة وموافقته لها ، ولهذا كان من دعاء عمر ﷺ أنه كان يقول : «اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله

---

(١) رواه أحمد (١٩٠٤٨) وأبو داود (٤٩٥٠) كتاب الأدب/ باب في تغيير الأسماء ، من حديث أبي وهب الجشمي ﷺ ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٧٧) : حسن لغيره ، وانظر السلسلة الصحيحة (١٠٤٠و٩٠٤) .

(٢) طبقات المحدثين بأصبهان ٤/ ٢٦١

لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً»[١] ويقول سبحانه في كتابه العظيم : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يعني موافقاً للشريعة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (. . . . .) .أهـ

وإذا كان هذا حد كل عمل صالح فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون كذلك ، هذا في حق الأمر الناهي بنفسه ، ولا يكون عمله صالحا إن لم يكن بعلم وفقه كما قال عمر بن عبد العزيز : من عبدالله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح[٢] .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا الكلام من عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن من تعبد بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، فلابد من علم في العبادات وفقه ، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه عمل صالح وعمل عظيم ، فلابد فيه من علم وبصيرة ، حتى لا يأمر بمنكر ، وحتى لا ينهى عن معروف ، ولابد فيه من الإخلاص لله ، فلابد فيه من الأمرين : إخلاص لله ، وموافقة للشريعة في أمره ونهيه ، حتى لا يفسد أكثر مما يصلح .

وهذا المقام مقام عظيم خطير ، يجب أن لا يتولاه إلا أهل البصيرة والعلم والحلم والرفق ، حتى يحصل بذلك من الخير العظيم ما لا يحصيه إلا الله عزّ وجلّ . فإذا دخله الرياء ، أو دخله الجهل أو العجلة والعنف ؛ صار بذلك شر عظيم .أهـ

---

(١) المصدر السابق .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ ٢٤٢ والدارمي في سننه (٣٠٥) باب من قال العلم الخشية وتقوى الله ، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٠٢١) فصل في فضل السكوت عن ما لا يعنيه وترك الخوض فيه .

وكما في حديث معاذ بن جبل ﷺ : العلم إمام العمل والعمل تابعه[(١)] .

وهذا ظاهر ، فإن القصد والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا واتباعا للهوى كما تقدم ، وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام ، فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ، ولا بد من العلم بحال المأمور وحال المنهي ، ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي على الصراط المستقيم وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود .

ولا بد في ذلك من الرفق كما قال النبي ﷺ : «ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شانه»[(٢)] وقال ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[(٣)] وقال : «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[(٤)]

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وفي رواية : «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»[(٥)] نسأل الله السلامة ، فالأمر العظيم ولابد من الرفق .

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٩

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٦٤٥٧) بلفظ «ولا عزل عن شيء إلا شانه» من حديث عائشة رضي الله عنها ، ورواه مسلم (٢٥٩٤) بنحوه كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل الرفق ، من حديث عائشة رضي الله عنها ، ورواه ابن حبان في صحيحه (٥٥٢) باب ذكر الأمر بلزوم الرفق في الأشياء إذ دوامه زينته في الدنيا والآخرة بلفظ «الفحش» بدل «العنف» ورواه المنذري في الترغيب والترهيب بلفظ «ولا كان الخرق في شيء إلا شانه» وقال الألباني : حسن صحيح (٢٦٧٢) .

(٣) رواه البخاري (٦٩٢٧) كتابة استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/ باب إذا عرّض الذمي أو غيره بسب النبي ﷺ ولم يصرح نحو قوله السّام عليكم ، ومسلم (٢١٦٥) كتاب السلام/ باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٣) كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل الرفق ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٥) رواه مسلم (٢٥٩٢) كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل الرفق ، من حديث جرير ﷺ .

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها أنه قال عليه الصلاة والسلام : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به ، اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه»[1] ولا حول ولا قوة إلا بالله .أهـ

ولا بد أيضا أن يكون حليما صبورا على الأذى ، فلا بد أن يحصل له أذى ، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لابد أن يكون في الآمر والناهي والداعي لابد من حلم وصبر ، مع الرفق والعلم لابد من حلم وصبر ، لأنه لابد أن يؤذى ، ولابد أن يحصل له ما يوجب الغضب ، فلابد من حلم حتى لا يبطش ويتكلم بما لا ينبغي ، ولابد من صبر على الأذى ، هكذا أمر المؤمنون ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ ، وقال جل وعلا : ﴿ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ .أهـ

كما قال لقمان لابنه : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (لقمان) .

ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر كقوله لخاتم الرسل عليه السلام ، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة ، فإنه أول ما

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٨) كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

أرسل أنزلت عليه سورة ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ بعد أن أنزلت عليه سورة اقرأ التي به نبئ، فقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (المدثر) .

قال سماحة الشيخ : هذه أول سورة بعد ﴿اقرأ﴾ أرسل بها، قال الله فيها : ﴿ولربك فاصبر﴾ لأنه يعلم سبحانه أنه لابد أن يحصل أذى لمن قام يدعو الناس إلى خلاف أهوائهم وإلى خلاف عاداتهم، والله المستعان .اهـ

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر .

وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور : ٤٨)، وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۞ ﴾ (المزمل)، وقال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف : ٣٥) وقال : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (القلم : ٤٨)، وقال : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (النحل : ١٢٧)، وقال : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۞ ﴾ (هود : ١١٥) .

فلا بد من هذه الثلاثة : العلم والرفق والصبر .

العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحبا في هذه الأحوال .

وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعا ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد : لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه .

قال سماحة الشيخ : الحلم جزء من الصبر ، ذكر الحلم وذكر الصبر في المعنى متقارب ، لأن الحليم هو الصبور والصبور هو الحليم ، من حلمه صبر ، وفي الحديث الصحيح في وفد عبد القيس كان فيهم شخص يقال له الأشج ، فقال له النبي ﷺ : « إن فيك خصلتين يحبهما الله » قال : ما هما يا رسول الله؟ قال : « الحلم والأناة » قال الرجل : يا رسول الله : تخلقت بهما أو جبلت عليهما؟ قال : « بل جبلت عليهما » قال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله(1) .أهـ

وليعلم أن اشتراط هذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس ، فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه وذلك قد يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل ، فإن ترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى عنه في الأمر معصية ، فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أن الأمر مهم وعظيم ،

(١) رواه مسلم (١٧) كتاب الإيمان/ باب الأمر بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه أبو داود بتمامه (٥٢٢٥) كتاب الأدب/ باب قُبلة الرجل ، من حديث أبان بنت وازع بن زارع عن جدها زارع وكان في وفد عبد القيس .

فيقول :إن بعض الناس قد يصعب عليه الأمر فيترك الأمر والنهي ، ويقول أنا لا أقوى على الصبر ، وأنا لا أقوى الرفق ، أنا أنا ، وهذه مصيبة ، قد تكون أشد من كونه يغلظ في الأمر والنهي ، فلابد من تحمل ، ولابد من جهاد وصبر وتحمل ، حتى يأمر وينهى ، فإن الناس إذا تركوا الأمر والنهي معناه جاء الفساد وعم البلاء ، فلابد من جهاد نفس ، حتى يقوم بالواجب ، وحتى يصبر وحتى يرفُق ، ولا يكون عذراً له أن يقول إني أخاف أن لا أرفق ، أخاف أخاف ، لا ، بل هذا من الشيطان ومن تثبيط الشيطان ، ولكن عليه أن يجاهد وعليه أن يتقي الله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا كان عنده علم ، فعليه أن يأمر وينهى ، ويجاهد نفسه في الرفق والتحمل والصبر ، ولا يقول أنا لا أستطيع ثم يهمل الأمر ويدع الحبل على الغارب .

فهذا بحث جيد وبحث نفيس وبحث عظيم ، رحمه الله وضاعف مثوبة الجميع .أهـ

والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل قد يكون الثاني شرا من الأول وقد يكون دونه وقد يكونان سواء ، فهكذا تجد المقصر في الأمر والنهي والمعتدي فيه قد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكون ذنب ذاك أعظم وقد يكونان سواء .

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب ، فسيئات المصائب والجزاء هي من سيئات الأعمال ، وأن الطاعة سبب النعمة ، فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ

عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ (الشورى)، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ (آل عمران) وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥)، وقال: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ (الشورى)، وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ (الشورى)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال).

قال سماحة الشيخ: وهذا يوجب للمؤمن أنّ ما ينزل به من المصائب والكوارث بأسباب أعماله السيئة وتقصيره في أمر الله وعدم قيامه بما أوجب الله من طاعة وأخذ بالأسباب، فتصيبه المصائب بهذا، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ فالمصائب هي أسباب ناتجة عن المعاصي وعن الشرور، كما أن الخيرات والنعم ناتجة عن الحسنات والأعمال الصالحات، كما يجود الله به فوق ذلك سبحانه وتعالى.

ومن الأمور العظيمة التي يجب التنبه لها؛ أن المصائب قد تصيب الأخيار، وقد تصيب الرسل، وهم أفضل الناس بسبب الخلل الذي يقع من بعض أتباعهم، فلو كان أحد يسلم من العقوبات لسلم الأنبياء والأخيار.

يوم أحد، وما الذي جرى في يوم أحد؟ ويوم أحد من الذي فيه؟

النبي ﷺ أفضل الخلق، والصحابة أفضل الخلق بعد الأنبياء، وماذا أصابهم؟

حصلت هزيمة، وقتل جماعة نحو السبعين، وجراحات كثيرة، ومصيبة عظيمة، لإخلال الرماة ومعصية الرماة، وقد أمروا أن يمسكوا الثغر، ولو رأوا المسلمين قد انتصروا لا يتعدون الثغر، فلما رأوا الهزيمة على الكفار ظنوا أنها الفيصلة، وأخلوا بالموقف ودخل الكفار على المسلمين وصارت الكارثة بأسباب هؤلاء.

ولهذا قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمَّا أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يعني يوم بدر ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ يعني: من أين أصبنا؟ ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ يعني من جنس ما فعلتم، يعني فعله هؤلاء الجماعة.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ يعني عوقبتم، فالجواب محذوف.

فبسبب الرماة وتنازعهم وإخلالهم بالموقف وعصيانهم سبب على المسلمين كارثة.

فلو أن أحداً يسلم من عقوبات الذنوب والخلل بالواجب وإعطاء الكفار الفرصة، لو كان أحد يسلم لسلم الرسول ﷺ وأصحابه.

وهذا يفيد المؤمنين الحذر، وأن لا يغتروا بأنهم مؤمنون، ولا يقولوا أن الله معنا وفقط، لا، بل هو معكم إذا استقمتم، وهو مع المؤمنين إذا استقاموا وأدوا الواجب، واجتهدوا في الخير، وصبروا وصابروا، أما إذا فرّطوا أو فرّط بعضهم فعليهم الخطر. اهـ

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون في الدنيا وأخبر بما سيعاقبهم به في الآخرة.

ولهذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ ﴾ (غافر).

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ (القلم ٣٣)، وقال: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ (التوبة)، وقال: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ ﴾ (السجدة)، وقال: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ (الدخان) إلى قوله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝ ﴾ (الدخان).

ولهذا يذكر الله في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا وما أعده لهم في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط إذ عذاب الآخرة أعظم وثوابها أعظم وهي دار القرار، وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعقاب في الدنيا تبعا كقوله تعالى في قصة يوسف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (يوسف).

وقال: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (آل عمران ١٤٨) وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (النحل)، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (العنكبوت).

وأما ذكره تعالى لعقوبة الدنيا والآخرة ففي مثل: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ ﴾ (النازعات) ثم قال: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾ (النازعات)، فذكر القيامه مطلقا.

ثم قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (النازعات) إلى قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ (النازعات).

ثم ذكر المبدأ والمعاد مفصلا فقال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ (النازعات)

إلى قوله : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ (النازعات) إلى آخر السورة .

وكذلك في المزمل ذكر قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ ﴾ (المزمل) ، إلى قوله : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝ ﴾ (المزمل) .

وكذلك في سورة الحاقة ، ذكر قصص الأمم : كثمود ، وعاد ، وفرعون ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ ﴾ (الحاقة) إلى تمام ما ذكره من أمر الجنة والنار .

وكذلك في سورة ن والقلم ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حق أموالهم وما عاقبهم به ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (القلم) .

وكذلك في سورة التغابن قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝ ﴾ (التغابن) ثم قال تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن

﴿يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ (التغابن ٧) وكذلك في سورة ق ذكر حال المخالفين للرسل وذكر الوعد والوعيد في الآخرة .

وكذلك في سورة القمر ذكر هذا وهذا ، وكذلك في ال حم مثل حم غافر والسجدة والزخرف والدخان إلى غير ذلك مما لا يحصى ، فإن التوحيد والوعد والوعيد من أول ما أنزل ، كما في صحيح البخاري عن يوسف بن ماهك قال إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال أي الكفن خير؟ قالت : ويحك وما يضرك؟ قال : يا أم المؤمنين أريني مصحفك قالت : لم؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه فإنه يقرأ غير مؤلف قالت : وما يضرك أيه قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ (القمر) ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور[1] .

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي فيكون ذلك من ذنوبهم وينكر عليهم آخرون إنكارا منهيا عنه فيكون ذلك من ذنوبهم فيحصل التفرق والاختلاف والشر ، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديما وحديثا .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا واقع يقع كثيراً ، إما السكوت عن المنكر ، وإما الإنكار على طريقة غير شرعية ، فيحصل التفرق والاختلاف والنزاع .

(١) الحديث رقم (٤٩٩٣) كتاب فضائل القرآن/ باب تأليف القرآن .

أما إذا أنكر المنكر بالطريقة المتبعة ، بالطريقة الإسلامية حسب الطاقة ، وبالأساليب الحسنة ، وبالدعوة إلى الله ، وبإنزال الناس منازلهم ؛ حصل بهذا من الخير العظيم ما لا يحصيه إلا الله . اهـ

إذ الإنسان ظلوم جهول ، والظلم والجهل أنواع ، فيكون ظلم الأول وجهله من نوع ، وظلم كل من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر .

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك ، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصلها .

يدخل في ذلك أسباب الضلال والغي التي هي الأهواء الدينية والشهوانية وهي البدع في الدين والفجور في الدنيا .

وذلك أن أسباب الضلال والغي التي هي البدع في الدين والفجور في الدنيا مشتركة تعم بني آدم لما فيهم من الظلم والجهل ، فيذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره بفعل الزنا أو التلوط أو غيره أو بشرب خمر أو ظلم في المال بجناية أو سرقة أو غصب ونحو ذلك .

ومعلوم أن هذه المعاصي وإن كانت مستقبحة مذمومة في العقل والدين فهي مشتهاة في الطباع أيضا ، ومن شأن النفوس أنها لا تحب اختصاص غيرها بشيء وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له ، وهذا هو الغبطة التي هي أدنى نوعي الحسد ، فهي تريد الاستعلاء على الغير والاستئثار دونه ، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه وإن لم يحصل ، ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما مقتضاه أنها تختص عن غيرها بالشهوات ، فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك واختص بها دونها .

فالمعتدل منهم في ذلك الذي يحب الاشتراك والتساوي ، وأما الآخر فظلوم حسود ، وهذان يقعان في الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله ، فما كان جنسه مباحا من أكل وشرب ونكاح ولباس وركوب وأموال إذا وقع فيها الاختصاص حصل بسببه الظلم والبخل والحسد وأصلها الشح ، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «**إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»[1] .

ولهذا قال الله تعالى في وصف الأنصار : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من قبل المهاجرين : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ (الحشر ٩) أي لا يجدون الحسد مما أوتي إخوانهم من المهاجرين : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر : ٩) .

ثم قال : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ (التغابن) .

ورؤي عبد الرحمن بن عوف يطوف بالبيت ويقول : رب قني شح نفسي رب قني شح نفسي رب قني شح نفسي فقيل له في ذلك فقال إذا وقيت شح نفسي فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة أو كما قال[2] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٦٩٦٧) وأبو داود (١٦٩٨) كتاب الزكاة/ باب في الشح ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وبنحوه رواه مسلم في صحيحه (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق «عبد الرحمن بن عوف» والفاكهاني في أخبار مكة (٣٩٦) ذكر ما يقال في الطواف وتفسير ذلك .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : المفلح هو الفائز بالظفر ، وهو الحصول على الخير ، وأكثر ما يقع للناس في الشرور من هذه الأشياء ، من اتباع الهوى والظلم والبدع والمنافسة في المعاصي والسيئات ، فتقع الشرور والاختلاف والقتال بأسباب ذلك ، نسأل الله العافية .

لأنه إذا اجتمع الناس في الاستقامة على الحق والمنافسة في الحق واتباعه والتواصي به ؛ اجتمعت أمورهم واتحدت كلمتهم وفازوا بالنصر على عدوهم .

وإنما تقع البلايا والمحن إذا اختلفوا في المعاصي والبدع والأهواء ، نسأل الله السلامة .اهـ

فهذا الشح الذي هو شدة حرص النفس يوجب البخل بمنع ما هو عليه والظلم بأخذ مال الغير ويوجب قطيعة الرحم ويوجب الحسد وهو كراهة ما اختص به الغير وتمني زواله ، والحسد فيه بخل وظلم فإنه بخل بما أعطيه عن غيره وظلمه بطلب زوال ذلك عنه .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في هذا أن الشحيح أشد من البخيل ، وأن الشح أشد من البخل ، فكل شحيح بخيل ، وليس كل بخيل شحيحاً ، ولهذا قال سبحانه : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ ما قال بخلها ، قال ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

وإن كان البخل مذموماً ، لأنه امتناع من الواجب وتركه للواجب من النفقة ، ويسمى البخيل .

وقد يبخل أيضاً بالواجب من الكلام الطيب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لكن الشحيح أشد من هذا ، والشحيح حريص على أكل مال الغير وعلى

الباطل وعلى جمع المال بغير حق وعلى ظلم الناس ، بسبب حبه للمال ، وحبه للمعصية التي اختص بها غيره ، ومع ذلك يخيل بما عنده ، لا يؤدي الواجب من زكاة ولا صلة رحم ولا غير ذلك ، فقد جمع بين الأمرين : بين الحرص على المال بالطرق المذمومة ، والحرص على الاستئثار بالأشياء الأخرى من المعاصي ، ويخل بما يجب عليه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ . اهـ

فإذا كان هذا في جنس الشهوات المباحة فكيف بالمحرمة كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك ، وإذا وقع فيها اختصاص فإنه يصير فيها نوعان :

أحدهما : بغضها لما في ذلك من الاختصاص والظلم كما يقع في الأمور المباحة الجنس .

والثاني : بغضها لما في ذلك من حق الله .

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام :

أحدها : ما فيه ظلم للناس كالظلم بأخذ الأموال ومنع الحقوق والحسد ونحو ذلك .

والثاني : ما فيه ظلم للنفس فقط كشرب الخمر والزنا إذا لم يتعد ضررهما .

والثالث : ما يجتمع فيه الأمران مثل أن يأخذ المتولي أموال الناس يزني بها ويشرب بها الخمر ، ومثل أن يزني بمن يرفعه على الناس بذلك السبب ويضرهم كما يقع ممن يحب بعض النساء والصبيان .

وقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ (الأعراف) .

وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم يشترك في إثم .

ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة .

ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام .

وقد قال النبي ﷺ : «**ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم**»[(١)] فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة .

وذلك أن العدل نظام كل شيء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة .

فالنفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدي عليه في حقه ، وفيها داعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث ، فهي قد تظلم من لا يظلمها وتؤثر هذه الشهوات وإن لم يفعلها غيرها .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وكل هذا الذي قاله المؤلف رحمه الله ، أن المعاصي أقسام ثلاثة ـ مثل ما تقدم ـ قسم منها يتضمن العدوان على الغير

(١) رواه أحمد (٢٠٩٣٦) والترمذي (٢٥١١) كتاب الزهد/ باب في عظم الوعيد على البغي وقطيعة الرحم ، وقال : حسن صحيح .ورواه ابن ماجه (٤٢١١) كتاب الزهد/ باب البغي ، من حديث أبي بكرة ﷺ ، والحديث صححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٩١٧) .

والظلم للغير ، كضرب الناس بغير حق ، وأكل أموالهم بغير حق ، وقتلهم بغير حق .

وقسم منها يتعلق بالنفس فقط ، بينه وبين الله ، ليس له تعلق بالناس ، مثل أكل الميتة والتلوث في النجاسة والزنا بمن رضيت بزناه وشرب الخمر ، فهذا يتعلق بظلم نفسه ، وهو فيما بينه وبين الله ، والمجبورة كذلك لها حكمها ولها سيئتها .

وقسم يجمع بين الأمرين ، فيزني ظلماً ، فيقهرها ويظلمها ، أو باللواط ظلماً ، وأخذ المال والاستعانة على المعاصي ، ونحو ذلك مما يجمع بين الشرين ، نسأل الله العافية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . أهـ

فإذا رأت نظراءها قد ظلموا أو تناولوا هذه الشهوات صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير ، وقد تصبر ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده وطلب عقابه وزوال الخير عنه ما لم يكن فيها قبل ذلك ، ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين بكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين ، وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر واجب والجهاد على ذلك من الدين .

والناس هنا ثلاثة أقسام : قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم فلا يرضون إلا بما يعطونه ولا يغضبون إلا لما يحرمونه ، فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال أو الحرام زال غضبه وحصل رضاه ، وصار الأمر الذي كان عنده منكرا ينهى عنه ويعاقب عليه ويذم صاحبه ويغضب عليه مرضيا عنه ، وصار فاعلا له وشريكا فيه ومعاونا عليه ومعاديا لمن ينهى عنه وينكر عليه .

وهذا غالب في بني آدم يرى الإنسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه إلا الله .

قال سماحة الشيخ : « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط »[1] هذه حال كثير من الناس أو الأكثر من الناس ، يرضى لهواه ويغضب لهواه ، وإن كان فيما رضي به معصية الله عزوجل ، لكن لما وافق هواه سكت ورضي ، نسأل الله العافية . أهـ

وسببه أن الإنسان ظلوم جهول فلذلك لا يعدل بل ربما كان ظالما في الحالين يرى قوما ينكرون على المتولي ظلمه لرعيته واعتداءه عليهم فيرضي أولئك المنكرين ببعض الشيء من منصب أو مال فيتقلبون أعوانا له ، وأحسن أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه .

وكذلك تراهم ينكرون على من يشرب الخمر ويزني ويسمع الملاهي ، حتى يدخلوا أحدهم معهم في ذلك أو يرضوه ببعض ذلك فتراه حينئذ قد صار عونا لهم .

وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التي كانوا عليها ، وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة يكونون في ذلك مخلصين لله مصلحين فيما عملوه ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا ، فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

(١) رواه البخاري (٢٨٨٥) كتاب الجهاد/ باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ، و(٦٤٣٥) كتاب الرقاق/ باب : ما يتقى من فتنة المال ، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا وهم غالب المؤمنين ، فمن فيه دين وله شهوة تجتمع في قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية ، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاث أمارة ومطمئنة ولوامة ، فالأولون هم أهل الأنفس الأمارة التي تأمرهم بالسوء ، والأوسطون هم أهل النفوس المطمئنة التي قيل فيها : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝﴾ (الفجر) .

والآخرون هم أهل النفوس اللوامة التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه وتتلوم تارة كذا وتارة كذا ، أو تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء يرجى أن يتوب عليهم إذا اعترفوا بذنوبهم كما قال الله تعالى : ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ (التوبة) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذه حال الناس ، أقسام ثلاثة : قسم - مثل ما قال المؤلف - عنده نفس أمارة بالسوء ، فهم يجتهدون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنكار على الظلمة ونحو ذلك لغرض وهوى ، لا للإخلاص لله سبحانه وتعالى ، فإذا أعطوا شيئاً ورضوا بشيء سكتوا .

والقسم الثاني : مؤمنون صادقون ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصبرون على الأذى ، ويستمرون على ذلك ، وهؤلاء هم أهل النفوس المطمئنة وهم المخلصون الصادقون ، مهما كانت الحال فهم صابرون على الأذى ، سواء حصل مطلوبهم أو لم يحصل مطلوبهم ، وهؤلاء هم القليلون في الناس .

والقسم الثالث : خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، يأمرون وينهون ويجتهدون ، ولكن مع هذا يقعون في المعاصي والشرور ، ويخلطون هذا بهذا ، فهؤلاء على خطر عظيم ، إلا أن يتداركهم الله برحمة منه وفضل وتوبة صادقة ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وما أكثر هذا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .أهـ

ولهذا لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر ـ اللذين أمر المسلمون بالاقتداء بهما كما قال ﷺ : «اقتدوا باللذين من بعدي ابي بكر وعمر»[1] ـ أقرب عهدا بالرسالة وأعظم إيمانا وصلاحا وأئمتهم أقوم بالواجب وأثبت في الطمأنينة لم تقع فتنة إذ كانوا في حكم القسم الوسط .

ولما كان في آخر خلافة عثمان وفي خلافة علي رضي الله عنهما كثر القسم الثالث فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين وصار ذلك في بعض الولاة وبعض الرعايا ، ثم كثر ذلك بعد فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين واختلاطهما بنوع من الهوى والعصبية في الطرفين ، وكل منهما متأول أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأن معه الحق والعدل ، ومع هذا التأويل نوع من الهوى ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا هو الحق الذي ينبغي أن يقال ، لما كان زمن الصدّيق وزمن عمر وزمن الصحابة هو أقرب شيء إلى عهد النبي ﷺ وهو قد توافر فيه الأخيار من الصحابة ، قلّت فيه الفتن وقلت فيه الشرور ، وصار عهداً

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٦٢) كتاب المناقب/ باب «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : حديث حسن .قال الألباني : صحيح ، وهو مخرج في الصحيحة (١٢٣٣) .

صالحاً عظيماً ، عهد جهاد وتقوى ، وهكذا في أول خلافة عثمان ، فلما كثر الناس الآخرون من غير الصحابة ودخلوا في الناس ، وصار لأحدهم شهوة أو لأحدهم شبهة وتأويل ؛ وقعت الفتن والشرور في آخر خلافة عثمان ، وهكذا في خلافة علي ، وعظمت الفتنة ، وجرى قتال عن تأويل واجتهاد مع نوع شهوة وشبهة من بعضهم ، حتى جرى ما جرى من المقتلة العظيمة يوم صفين ويوم الجمل ، وجرى ما جرى من الفتن العظيمة ، كلها بأسباب قلة العلم وضعف العلم وتغير الأحوال ، بسبب دخول من دخل بذلك من العجم وغيرهم من العرب الذين لهم بعض الهوى أو بعض الشبهة ، وليسوا من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ، فوقع ما وقع من هذه الشرور التي فيها عبر ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق ، وهي طائفة علي وأصحابه ، لكن وقع في الطائفتين من الشرور والفتن والشبهات والهوى والتأويل ما أوجب حدوث ما حدث من الحرب والقتال .

ولهذا في الصحيحين يقول النبي ﷺ : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق »(١) فأشار إلى الفُرقة وأنهم مسلمون ، والفُرقة وقعت من المسلمين لا من غيرهم ، طائفة علي وطائفة معاوية ، فحكم لهم بالإسلام ، ولكن بيّن أن هذه المارقة تقتلها أولى الطائفتين بالحق ، فقتلهم علي وأصحابه ، فعُلم أنه أولى الطائفتين بالحق ، وإن كانت كل طائفة تدعو إلى الحق وتريد الحق وتجتهد في طلبه ؛ لكن كانت الطائفة التي فيها علي أولى وأقرب إلى ذلك ، رضي الله عن الجميع ، وعفا عنّا وعنهم وعن كل مسلم .اهـ

---

(١) رواه مسلم (١٠٦٥) كتاب الزكاة / باب التحريض على الخوارج ، وأبو داود (٤٥٠٢) كتاب السنة / باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

سؤال / معنى أولى الطائفتين بالحق مع أن كل منهما على الحق؟

أجاب سماحته رحمه الله : هذه أولى به لأن فيها من الخير والهدى والعلم ما ليس في الأخرى ، وفي الطائفتين وأمثالهما نزل قوله تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ فالطائفتان أولى الطوائف بالدخول في هذه الآية الكريمة ، الطائفتان الشامية والعراقية هم أولى الطوائف بالدخول في هذه الآية ، فحكم لهم بالإيمان وأمر بقتال الباغي .أهـ

فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ويتوكل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه ويثبته على الهدى والتقوى ولايتبع الهوى ، كما قال تعالى : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ (الشورى ١٥) ، وهذا أيضا حال الأمة فيما تفرقت فيه واختلفت في المقالات والعبادات .

وهذه الأمور مما تعظم بها المحنة على المؤمنين ، فإنهم يحتاجون إلى شيئين : إلى دفع الفتنة التي ابتلي بها نظراؤهم من فتنة الدين والدنيا عن نفوسهم مع قيام المقتضي لها ، فإن معهم نفوسا وشياطين كما مع غيرهم .

فمع وجود ذلك من نظرائهم يقوى المقتضي عندهم كما هو الواقع فيقوى الداعي الذي في نفس الإنسان وشيطانه ودواعي الخير كذلك وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس لم يرد خيرا ولا شرا حتى رأى غيره ، لا سيما إن كان نظيره يفعله ففعله ، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض .

ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له مثل من تبعه من الأجر والوزر كما قال النبي ﷺ : «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا»[١] وذلك لاشتراكهم في الحقيقة وأن حكم الشيء حكم نظيره وشبيه الشيء منجذب إليه .

فإذا كان هذان داعيين قويين فكيف إذا انضم إليهما داعيان آخران .

وذلك أن كثيرا من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ويبغضون من لا يوافقهم ، وهذا ظاهر في الديانات الفاسدة من موالاة كل قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفيهم ، وكذلك في أمور الدنيا والشهوات كثيرا ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم في أمورهم وشهواتهم إما للمعاونة على ذلك كما في المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطريق ونحو ذلك ، وإما لتلذذهم بالموافقة كما في المجتمعين على شرب الخمر مثلا فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم ، وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير إما حسدا له على ذلك وإما لئلا يعلو عليهم بذلك ويحمد دونهم ، وإما لئلا يكون له عليهم حجة ، وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه أو بمن يرفع ذلك إليهم ، ولئلا يكونوا تحت منته وحظره ونحو ذلك من الأسباب .

قال الله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾

(١) رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة / باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، من حديث عدي ابن حاتم رضي الله عنه .

(البقرة: ١٠٩)، وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَدُّوا۟ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ (النساء: ٨٩) وقال عثمان بن عفان ﷺ: ودت الزانية لو زنى النساء كلهن.

والمشاركة قد يختارونها في نفس الفجور كالاشتراك في شرب الخمر والكذب والاعتقاد الفاسد، وقد يختارونها في النوع الثاني كالزاني الذي يود أن غيره يزني أو السارق الذي يود أن غيره يسرق لكن في غير العين التي زنى بها أو سرقها.

وأما الداعي الثاني فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر، فإن شاركهم وإلا عادوه وآذوه على وجه قد ينتهي إلى حد الإكراه أو لا ينتهي إلى حد الإكراه.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وكل هذا يوجب للعاقل الحذر، فإن الفتن والشرور إذا ظهرت، فالمؤمن يحتاج إلى هذا الأمر، يحتاج إلى الدفاع عن نفسه، والأخذ بالأسباب التي تمنعه من الوقوع فيما وقع فيه الناس بالتحفظ والتعلم والتفقه والبعد عن مشاركتهم وعن مصاحبتهم، ويحتاج أيضاً إلى مزيد من العلم والبصيرة والهدى حتى لا يقع فيما وقع فيه الناس، فيجب أن يحذر شرهم، وأن لا يجروه إلى باطلهم، ويجب أن يكون على بصيرة حتى لا يقع في الباطل عن جهل وضلال.

والمبطلون تارة يجبرون غيرهم على مشاركتهم في الباطل، وتارة يحبذون ذلك ويدعون إليه على حسب قدرتهم، حتى لا ينكر عليهم أو يرفع بأمرهم أو يمتاز عليهم أو إلى غير ذلك كما ذكر المؤلف.

وهذه أمور واقعة ومعروفة ، فكل من عرف أمور الناس وسبرهم يعرف حالهم ، وأن الغالب على المجرمين يودون أن غيرهم مثلهم ، يودون أن غيرهم يكون مثلهم حتى لا ينكر عليهم ولا يرفع عنهم ، كما أن الصلحاء والأخيار يودون أن الناس اهتدوا ودخلوا في دين الله وصاروا مثلهم في الصلاح . اهـ

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم في قبيح فعلهم أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم انتقصوه واستخفوا به وجعلوا ذلك حجة عليه في أمور أخرى ، وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه ، وهذه حال غالب الظالمين القادرين .

وهذا الموجود في المنكر موجود نظيره في المعروف وأبلغ منه كما قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة : ١٦٥) ، فإن داعي الخير أقوى ، فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمان والعلم والصدق والعدل وأداء الأمانة ، فإذا وجد من يعمل مثل ذلك صار له داع آخر ، لا سيما إذا كان نظيره ، لا سيما مع المنافسة وهذا محمود حسن ، فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ومشاركته له من المؤمنين والصالحين ومن يبغضه إذا لم يفعل ذلك صار له داع ثالث ، فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك وعادوه وعاقبوه على تركه صار له داع رابع .

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات كما يقابل الطبيب المرض بضده ، فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه وذلك بشيئين بفعل الحسنات وبترك السيئات مع وجود ما ينفي الحسنات ويقتضي السيئات وهذه أربعة أنواع

ويؤمر أيضا بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه ، قال

تعالى ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ (العصر) .

وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم[١] .

وهو كما قال ، فإن الله تعالى أخبر فيها أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمنا صالحا ومع غيره موصيا بالحق موصيا بالصبر .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : **وهذا يدل على أن السعادة في الأمور الأربعة ، وهو إيمانه بالله ، وعمله الصالح ، ونصحه لعباد الله بالتواصي بالحق والصبر عليه ، فهو عامل بالخير ، داع إليه ، صابر على الأذى في ذلك بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، هذه صفات خيرة عباد الله ، وهم الذين جمعوا بين الأصول الأربعة والصفات الأربعة ، فهي أصل السعادة وأصول صلاح المجتمع .**

إيمان بالله ورسوله يتضمن الإخلاص لله وتوحيده والقيام بحقه في العمل الصالح ، ويتضمن الدعوة إلى الله والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وبهذا يصلح العباد وتصلح المجتمعات ، إذا صلح أفرادها واستقاموا على دين الله ، وتواصوا بالحق والصبر عليه ، وبهذا يدخل غيرهم في الخير بأسبابهم ، ويقل الشر بأسبابهم ، ويحصل التعاون والتناصح ، وبهذا تختفي الرذائل وتنتشر الفضائل ، ويقوم قائم الحق ، ويختفي داعي الباطل .اهـ

وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سببا لعلو الدرجة وعظيم

(١) الأثر ذكره ابن كثير في تفسيره ولم يسنده ، سورة البقرة «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين» .

الأجر كما سئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا مما يسلي المؤمن -خصوصاً طالب العلم- فيما قد يصيبه من الأذى، إذا كان الأنبياء -وهم أفضل الخلق، وهم السادة وهم الأئمة- أشد الناس بلاءً، فكيف يستنكر المقتدي بهم والتابع لهم أن يصيبه ما أصابهم أو بعض ما أصابهم؟

فمنهم من قتل، فيقتلون الأنبياء بغير حق، ومنهم من أوذي الأذى الكثير ولم يقتل، كجمع كثير منهم، ومنهم نبينا عليه الصلاة والسلام، فقد أوذي كثيراً ولم يقتل، هذا كله يدل على أن المؤمنين يجب أن يكونوا هكذا، صُبراً متأسين بأنبياء الله، لا يجزعون ولا تخور عزائمهم عند الأذى، ولهم أسوة بالأنبياء والأخيار «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»(٢) كل يبتلى على قدر دينه وعلى قدر علمه وبصيرته، ومع ذلك ترفع له الدرجات، وتغفر له السيئات، وتعظم له الأجور، على حسب ما أعطاه الله من العلم والصبر والاحتساب والعمل الصالح والدعوة إلى ذلك. أهـ

وحينئذ فيحتاج من الصبر إلى ما لا يحتاج إليه غيره وذلك هو سبب الإمامة

---

(١) رواه أحمد (١٤٩٨) والترمذي (٢٣٩٨) كتاب الزهد/ باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه ابن ماجه (٤٠٢٣) كتاب الفتن/ باب الصبر على البلاء، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وانظر السلسلة الصحيحة (١٤٣).

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وقد تقدم قبل قليل.

في الدين كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة : ٢٤) .

فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور وترك السيء المحظور ، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال والصبر على ما يصيبه من المكاره والصبر عن البطر عند النعم وغير ذلك من أنواع الصبر .

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن له ويتنعم به ويتغذى به وهو اليقين ، كما في الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «يا أيها الناس سلوا الله اليقين والعافية فإنه لم يعط أحد بعد اليقين خيرا من العافية فسلوهما الله»(1) .

وكذلك إذا أمر غيره بحسن أو أحب موافقته له على ذلك أو نهى غيره عن شيء فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده من حصول المحبوب واندفاع المكروه ، فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو لا يمكن غير ذلك .

ولهذا أمر الله تعالى بتأليف القلوب حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيبا في الصدقات .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا كله واضح عند من أراد أن يعان على الخير ويقبل منه الحق فلابد من الصبر ولابد من بذل المعروف ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ، فالصبر على المر يحتاج إلى شيء من الحلو يعين على ذلك ،

(1) رواه البزار في مسنده (٣٢) وأبو يعلى (١٣٤) وقال في كنز العمال : «وهو منقطع ، قال ابن كثير : لهذا الحديث طرق متصلة ومنقطعة تفيد القطع بصحته» .

فالدعاء إلى الله وتوجيه الناس إلى الخير وإرشادهم إلى الهدى من ولاة الأمور يحتاج مع ذلك إلى إعانتهم على أمور دنياهم ومواساة فقيرهم والإحسان إليهم وإزالة الشدائد عندهم ، كي يقبلوا الحق ويقبلوا عليه ، وقد كان الرجل يسلم لا يريد إلا الدنيا ، فلا يزال الرسول يعطيه عليه الصلاة والسلام حتى يكون الدين أحب إليه من كل شيء ، ولهذا جعل الله للمؤلفة قلوبهم حقاً في المال ، يعني الزكاة ، وحقاً في بيت المال ، حتى يقبلوا الحق ، وحتى يدعوا إليه ، وحتى يدافعوا عنه ، وحتى يلزموا به من في اتباعهم ومن يقبل قولهم ، والله المستعان .اهـ

وقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ (الأعراف) ، وقال تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ (البلد) فلا بد أن يصبر وأن يرحم وهذا هو الشجاعة والكرم .

ولهذا يقرن الله تعالى بين الصلاة والزكاة تارة وهي الإحسان إلى الخلق ، وبينها وبين الصبر تارة ، ولا بد من الثلاثة الصلاة والزكاة والصبر لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم لا سيما ، كلما قويت الفتنة والمحنة فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد ، فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بني آدم لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا بهما .

ولهذا فإن جميعهم يتمادحون بالشجاعة والكرم حتى ان ذلك عامة ما يمدح به الشعراء ممدوحيهم في شعرهم وكذلك يتذامون بالبخل والجبن .

والقضايا التي يتفق عليها عقلاء بني آدم لا تكون إلا حقا كاتفاقهم على مدح الصدق والعدل وذم الكذب والظلم .

وقد قال النبي ﷺ لما سأله الأعراب حتى اضطروه إلى سمرة فتعلقت بردائه

فالتفت إليهم وقال: «والذي نفسي بيده لو أن عندي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته عليكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وفي هذا المعنى يقول جل وعلا: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ فإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى شجاعة وصبر وثبات، فالجبان لا يصنع شيئاً ولا يفعل شيئاً، وقليل الصبر ـ الجزوع ـ لا يفعل شيئاً، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله؛ كل ذلك يحتاج إلى الصبر والقوة والشجاعة والثبات، ومن وسائل ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لأن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يصدران عن إيمان وعن صدق وعن رغبة فيما عند الله، وهذا الإيمان وهذا الصدق يحمل أهله على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والشجاعة والإقدام والصبر على المصائب والمكاره. أهـ

ولكن يتنوع ذلك بتنوع المقاصد والصفات فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، ولهذا جاء الكتاب والسنة بذم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة في سبيل الله دون ما ليس في سبيله، فقال النبي ﷺ: «شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع»(٢) وقال النبي ﷺ: «من سيدكم يا بني سلمة؟» فقالوا: الجد بن قيس على أنا نزنه بالبخل فقال: «وأي داء أدوى من البخل»؟

---

(١) رواه البخاري (٢٨٢١) كتاب الجهاد والسير/ باب الشجاعة في الحرب والجبن، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٨٢٣١) وأبو داود (٢٥١١) كتاب الجهاد/ باب في الجرأة والجبن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الألباني: صحيح (السلسلة الصحيحة/ ٥٦٠)

وفي رواية : «**إن السيد لا يكون بخيلا بل سيدكم الأبيض الجعد بشر بن البراء ابن معرور**»(١).

وكذلك في الصحيح قول جابر بن عبد الله لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما : إما أن تعطيني وإما أن تبخل عني فقال :تقول وإما أن تبخل عني وأي داء أدوى من البخل (٢).

فجعل البخل من أعظم الأمراض ، وفي صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال : قال عمر رضي الله عنه : قسم النبي ﷺ قسما فقلت : يا رسول الله والله لغير هؤلاء أحق به منهم فقال : «**إنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش وبين أن يبخلوني ولست بباخل**»(٣) يقول إنهم يسألوني مسألة لا تصلح فإن أعطيتهم وإلا قالوا هو بخيل ، فقد خيروني بين أمرين مكروهين لا يتركوني من أحدهما :المسألة الفاحشة والتبخيل ، والتبخيل أشد فأدفع الأشد بإعطائهم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا يدل على أنه لا مانع أن يدفع المرء عن

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١١٨) عن أبي هريرة ﷺ ، وفي الصغير (٣١٨) عن كعب بن مالك ﷺ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٧٤٧) : رواه الطبراني والبزار وفيه سعد بن محمد الوراق وهو متروك .

ولكن رواه الحاكم في المستدرك (٤٩٥٣) ذكر مناقب بشر بن البراء بن معرور ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ وقال : «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ورواه البخاري في الأدب المفرد/ باب البخل من حديث جابر ﷺ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء٧/ ٣١٧ .

(٢) رواه البخاري (٣١٣٧) كتاب فرض الخمس/ باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين ما سأل هوازن النبي ﷺ برضاعه فيهم فتحلل من المسلمين وما كان النبي ﷺ يعد الناس أن يعطيهم من الفيء والأنفال من الخمس وما أعطى الأنصار وما أعطى جابر بن عبد الله من تمر خيبر .

(٣) الحديث رقم (١٠٥٦) كتاب الزكاة/ باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة .

نفسه ، ولا سيما ولاة الأمور والمسئولون ، أن يدفعوا بالحسنى وبالمال والعطاء لإخفاف الألسن عن الذم والشر والفساد الذي قد يجر إلى فتن ، وكذلك لإخراس الألسن عن الظن بالبخل والشح ، فإن هذا إذا ذكر عن ولاة الأمور وعن العلماء والأخيار ، صار ذماً قبيحاً ، ومنفراً من قبول الحق ، ومن اتباع الحق ، ومنفراً من السمع والطاعة ، ولهذا يشرع للمؤمن أن يدفع عن نفسه القالة والأذى والظن بالبخل أو سوء الكلام والفحش ، كما فعله النبي ﷺ « بين إلا أن يبخلوني ويأبى الله لي البخل »(١) وهكذا سؤالهم الفحش فالدفع عن العرض ، والدفع عن السمعة بالعطاء والجود مما يأجر الله سبحانه وتعالى عليه . أهـ

والبخل جنس تحته أنواع كبائر وغير كبائر ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (آل عمران : ١٨٠) .

وقال : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ (النساء : ٣٦) إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ (النساء ٣٦ ـ ٣٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ۝ ﴾ (التوبة) وقال : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ (التوبة) وقال : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (محمد

(١) رواه أحمد (١١٢٩٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

٣٨)، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾ (الماعون) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ (التوبة)، وكثير من الآي في القرآن من الأمر بالإيتاء والإعطاء وذم من ترك ذلك كله ذم للبخل.

وكذلك ذمه للجبن كثير في مثل قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾ (الأنفال)، وقوله عن المنافقين: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝﴾ (التوبة) وقوله: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (محمد ٢٠) وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝﴾ (النساء).

وما في القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه وذم الناكلين عنه والتاركين له كله ذم للجبن .

ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم الا بالشجاعة والكرم بيّن الله سبحانه أنه من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك ، ومن تولى عنه بإنفاق ماله أبدل الله به من يقوم بذلك فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (التوبة) .

وقال تعالى : ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ (محمد)

وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضّل الله السابقين فقال : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الحديد : ١٠) .

وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال في سبيله ومدحه في غير آية من كتابه وذلك هو الشجاعة والسماحة في طاعته سبحانه وطاعة رسوله ، وملاك الشجاعة الصبر الذي يتضمن قوة القلب وثباته ، ولهذا قال تعالى : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ (البقرة) .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ﴾ (الأنفال).

والشجاعة ليست هي قوة البدن، فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: صدق رحمه الله، قوة الإنسان بقلبه لا بالبدن، فقد يكون قوي البدن، أقوى من البعير وأقوى من البغل، ولكن ما عنده قلب، ضعيف، عند أقل شيء ينهزم.

ولكن قوة القلب هي القوة وهي الشجاعة، يثبت ويصابر ويناضل مع ضعف جسمه، لكن قوة القلب وقوة الإيمان.

قيل لبعضهم: ما الفرق بين الشجاعة والجبن؟

قال: صبر ساعة.

إذا صبر هذا وجاهد وقاتل؛ هذا هو الفرق بينه وبين من تولى وأدبر. أهـ.

فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة دون التهور الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: لابد أن تكون الشجاعة على بصيرة لا يكون متهوراً، فالشجاعة تحتاج إلى بصيرة وإلى ثبات، يُقدم حيث كان الإقدام مناسباً، ويقف عندما تكون الوقفة مناسبة، والتهور أن يقدم على غير بصيرة

حتى يُقتل ، أو بسبب الهزيمة على المسلمين ، لابد من تثبت ، حتى يعرف هل الإقدام أنسب أو الوقوف أنسب أو التأخر ، فيعمل ما هو الأصلح للجيش وللمسلمين .أهـ

سؤال / حتى وإن كان في الأمر بالمعروف؟

أجاب سماحته رحمه الله : في كل شيء ، في الأمر بالمعروف ، وفي التعليم ، وفي الدعوة إلى الله ، يحتاج إلى تأني وإلى صبر وبصيرة .أهـ

ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح ، فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد .

وقد تقدم أن جماع ذلك هو الصبر فإنه لا بد منه ، والصبر صبران : صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة ، كما قال الحسن رحمه الله : ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب وجرعة صبر عند المصيبة(١) .

وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم ، والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب ، وإن كان مما لا يمكن دفعه آثار الحزن ، ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة ، ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ : «ما تعدون الرقوب فيكم»؟ قالوا : الرقوب الذي لا يولد له قال : «ليس ذاك بالرقوب ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا» ثم قال : «ماتعدون الصرعة فيكم»؟ قلنا : الذي

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ ٣٢٢ عن الحسن عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وروي مرفوعا إلى النبي ﷺ رواه أحمد وغيره .

لا يصرعه الرجال فقال: «ليس بذلك ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب»[(١)] فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب.

قال الله تعالى في المصيبة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة)، وقال تعالى في الغضب: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ (فصلت).

وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر المصيبة وصبر النعمة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ (هود) وقال: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ (الحديد: ٢٣).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهكذا المؤمن، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، وشكره عند الرخاء صبر على النعمة واعتراف بها ووقوف عند حدها، لا يبطر ولا يفعل ما حرم الله «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابه ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» كما في الحديث الصحيح في صحيح مسلم[(٢)].

---

(١) الحديث رقم (٢٦٠٨) كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب.

(٢) الحديث رقم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق/ باب المؤمن أمره كله خير من حديث صهيب رضي الله عنه.

وبهذا وصف كعب بن زهير من وصفه من الصحابة المهاجرين حيث قال :

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم

كثرا وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وكذلك قال حسان بن ثابت في صفة الأنصار :

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم

وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع

وقال بعض العرب في صفة النبي ﷺ : يغلب فلا يبطر ويُغلب فلا يضجر .

ولما كان الشيطان يدعو الناس عند هذين النوعين إلى تعدي الحدود بقلوبهم وأصواتهم وأيديهم نهى النبي ﷺ عن ذلك .

فقال ـ لما قيل له لما رأى ابراهيم في النزع ـ أتبكي؟ أو لم تنه عن البكاء؟ فقال : «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية»(١) فجمع بين الصوتين .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الشيطان له نفختان : عند النعمة وهي البطر والفساد ، وعند المصيبة هي الجزع ، والإسلام جاء بهذا وهذا ، جاء بشكر

(١) رواه الترمذي (١٠٠٥) كتاب الجنائز/ باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : حديث حسن . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد١/ ٤٤٥ : رواه أبو يعلى والبزار وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وفيه كلام .أهـ ونقل الزيلعي في نصب الراية ٩/ ٤٧٢ عن النووي في الخلاصة قوله : ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ضعيف ولعله اعتضد .أهـ

الله عند النعم، والصبر على النعمة وعدم تعدي الحدود، والصبر عند المصيبة وعدم الجزع أهـ.

وأما نهيه عن ذلك في المصائب فمثل قوله ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**»[1] وقال: «**أنا بريء من الحالقة والصالقة والشاقة**»[2] وقال: «**ما كان من العين والقلب فمن الله وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان**»[3] وقال: «**إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا حزن القلب ولكن يعذب بهذا أو يرحم وأشار إلى لسانه**»[4] وقال: «**من ينح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه**»[5].

واشترط على النساء في البيعة ألا ينحن[6]، وقال: «**إن النائحة إذا لم تتب قبل موتها فإنها تلبس يوم القيامة درعا من جرب وسربالا من**

(١) رواه البخاري (١٢٩٧) كتاب الجنائز / باب ليس منا من ضرب الخدود، و (١٢٩٨) باب ما ينهى من الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة، و (٣٥١٩) كتاب المناقب / باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان / باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٠٤) كتاب الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد في المسند (٢١٦٢) والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٧٠ والطيالسي في المسند (٢٦٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه البخاري (١٣٠٤) كتاب الجنائز/ باب البكاء عند المريض، ومسلم (٩٢٤) كتاب الجنائز/ باب البكاء على الميت، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري (١٢٩١) كتاب الجنائز/ باب ما يكره من النياحة على الميت، ومسلم (٩٣٣) كتاب الجنائز/ باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٦) رواه البخاري (٤٨٩٢) كتاب التفسير/ باب «إذا جاءك المؤمنات يبايعنك» من حديث أم عطية رضي الله عنها.

قطران،(١) وقال في الغلبة والمصائب والفرح: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»(٢) وقال: «إن أعف الناس قتلة أهل الإيمان»،(٣) وقال: «لا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا»(٤).

إلى غير ذلك مما أمر به في الجهاد من العدل وترك العدوان اتباعا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، ولقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة)

قال سماحة الشيخ رحمه الله: يعني وإن كانوا أعداء، وإن كانوا ظلمة، فلا يعتدى عليهم بما لا يليق، ولهذا نهى عن قتل الوليد وعن التمثيل والغدر إذا

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز/ باب التشديد في النياحة، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (١٧٥٩٣) والترمذي (١٤٠٩) كتاب الديات/ باب ما جاء في النهي عن المثلة وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائي (٤٤١٧) كتاب الضحايا/ باب حسن الذبح، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني كما في الإرواء (٢٢٣١)

(٣) رواه أحمد في المسند، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح٥/ ٢٧٥، والحديث رواه أيضا أبو داود (٢٦٦٦) كتاب الجهاد/ باب في النهي عن المثلة، وابن ماجه (٢٦٨١-٢٦٨٢) كتاب الديات/ باب أعف الناس قتلة أهل الإيمان، من حديث ابن مسعود مرفوعا، والحديث ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة٣/ ٣٧٦.

والحديث يضعفه بعضهم مرفوعا ويصححه موقوفا على ابن مسعود رضي الله عنه بسند صحيح كما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٨٢٣٢) والطبراني في الكبير (٩٧٣٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٩١: رجاله رجال الصحيح. والله أعلم.

(٤) رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير/ باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

أعطى العهود ، وإن كانوا أعداءً ، لكن على المؤمن أن يلتزم بحكم الله ، فلا يغدر بل يوفي بالعهد ، ولا يقتل الوليد ، لأنه ليس أهلاً لذلك ، وليس من المكلفين ، وهكذا التمثيل لكونه لا يليق ، فهو عبث لا وجه له ، فلا يتعمد قطع الأنف والعيون والأيدي والأرجل ، بل يقتل قتلة حيث أمكن ، فحيث أمكن قتله بقتل ، وإذا كان القتل باليد ، وكان ـ أعني ـ مقدوراً عليه ؛ قتل قتلة صالحة بالسيف ونحوه .أهـ

سؤال / « إن أعف الناس قتلة أهل الإيمان »؟

أجاب سماحته رحمه الله : يعني أحسنهم وأكملهم ، ليس فيها عدوان ، وليس فيها ظلم ، فالعفيف المتباعد عما حرم الله « فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة »(١) وبعض الناس إذا قدر عذّب ، لا يقتل القتلة الحسنة ، بل يعذّب المقتول ، فيقطع أنفه ، ويقطع أصابعه ، ويقطع رجليه وهو حي حتى يؤذيه ، نسأل الله السلامة .أهـ

ونهى عن لباس الحرير وتختم الذهب والشرب في آنية الذهب والفضة وإطالة الثياب إلى غير ذلك من أنواع السرف والخيلاء في النعم ، وذم الذين يستحلون الخمر والحرير والمعازف وجعل فيهم الخسف والمسخ .

وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ (النساء) ، وقال عن قارون : ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (القصص) .

---

(١) رواه أحمد (١٧٥٩٣) والترمذي (١٤٠٩) كتاب الديات/ باب ما جاء في النهي عن المثلة وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي (٤٤١٧) كتاب الضحايا/ باب حسن الذبح ، من حديث شداد بن أوس ﷺ ، والحديث صححه الألباني كما في الإرواء (٢٢٣١)

وهذه الأمور الثلاثة مع الصبر عن الاعتداء في الشهوة هي جوامع هذا الباب ، وذلك أن الإنسان بين ما يحبه ويشتهيه وبين ما يبغضه ويكرهه ، فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته ويدفع الثاني ببغضه ونفرته ، وإذا حصل الأول أو اندفع الثاني أوجب له فرحا وسرورا ، وإن حصل الثاني أو اندفع الأول حصل له حزن ، فهو محتاج عند المحبة والشهوة أن يصبر عن عدوانهما ، وعند الغضب والنفرة أن يصبر على عدوانهما ، وعند الفرح أن يصبر عن عدوانه ، وعند المصيبة أن يصبر عن الجزع منها .

فالنبي ﷺ ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين ؛ الصوت الذي يوجب الاعتداء في الفرح حتى يصير الإنسان فرحا فخورا ، والصوت الذي يوجب الجزع عند الحزن حتى يصير الإنسان هلوعا جزوعا ، وأما الصوت الذي يثير الغضب لله كالأصوات التي تقال في الجهاد من الأشعار المنشدة فتلك لم تكن بآلات ، وكذلك أصوات الشهوة في الفرح فرُخص منها فيما وردت به السنة من الضرب بالدف في الأعراس والأفراح للنساء والصبيان .

وعامة الأشعار التي تنشد بالأصوات لتحريك النفوس هي من هذه الأقسام الأربعة : أشعار المحبة وهي النسيب ، وأشعار الغضب والحمية وهي الحماسة والهجاء ، وأشعار المصائب كالمراثي ، وأشعار النعم والفرح وهي المدائح .

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع كما قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ (الشعراء) ولهذا أخبر أنهم يتبعهم الغاوون ، والغاوي هو الذي يتبع هواه بغير علم .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : الغاوي هو الذي يتبع هواه مع العلم ، وقوله «بغير علم» لا يصلح ، فالغاوي هو الذي يتبع هواه مع العلم ، والضال بداءة ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾ وهذا هو الغي ، فالغي هو اتباع الهوى وهو يعلم ، كعمل اليهود ، نعوذ بالله ، والضلال تبع أهل الباطل .

«بغير» هذه مصحفة ، الصواب «مع العلم» فلا يصلح «بغير علم» ولا يستقيم ، لأن الغاوي هو الذي يتبع الهوى وهو يعلم ، كاليهود وأشباههم ، والضال هو الذي يعمل بدون علم ، ضال مثل ضال الطريق ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾ أهـ .

وهذا هو الغي وهو خلاف الرشد كما أن الضال هو الذي لا يعلم مصلحته وهو خلاف المهتدي ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾ (النجم) ، ولهذا قال النبي ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»[١] .

فلهذا تجدهم يمدحون جنس الشجاعة وجنس السماحة إذ كان عدم هذين مذموما على الإطلاق ، وأما وجودهما ففيه تحصيل مقاصد النفوس على الإطلاق ، لكن العاقبة في ذلك للمتقين ، وأما غير المتقين فلهم عاجلة لا عاقبة .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني الجود والكرم والشجاعة في الباطل ما لها عاقبة ، بل عاقبتها خبيثة ، لما له مدح في الدنيا ، لكن الشجاعة في الحق ، والجود في الحق ، والإخلاص لله ؛ هذا ممدوح في الدنيا ومأجور في الآخرة ، له العقبى ، وله أيضاً الثناء المقدم والفضل المقدم ، بخلاف من كانت شجاعته لغير الله أو كان

---

(١) صحيح رواه الترمذي وقد تقدم .

إنفاقه لغير الله فهذا قد يحصل له في الدنيا ما يحصل من الثناء والذكر، ولكن ليس له عاقبة، نسأل الله العافية.

فينبغي للمؤمن أن تكون شجاعته في الحق وفي إظهار الحق، في الجهاد، في الأمر بالمعروف، في النهي عن المنكر، في ردع الظالم، في نصر المظلوم، بالطريقة التي شرعها الله.

وهكذا الجود والكرم بالمال يكون في محله في مواساة الفقير، في إعانة المجاهدين، في صلة الرحم، في أشياء ذلك مما يرضاه الله، فهذا الإنفاق وهذا السخاء وهذه السماحة مما يحبه الله جل وعلا، مع الإخلاص لله سبحانه وتعالى في ذلك، وأما الشجاعة ليقال، أو الإنفاق ليقال؛ فهذه الخسارة، ولهذا في الحديث الصحيح: «يؤتى بالقارىء والمنفق والمجاهد الذين أنفقوا لغير الله، فيسألون، يقال للعالم والقارىء لماذا قرأت؟ ولماذا علمت؟ فيقول: قرأت فيك القرآن فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت ولكن تعلمت ليقال عالم وقرأت ليقال قارىء فيؤمر به إلى النار»(١) وهكذا يقال في المنفق، وهكذا يقال للمجاهد الذين لغير الله نسأل الله السلامة. اهـ.

والعاقبة وإن كانت في الآخرة فتكون في الدنيا أيضاً كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح ونجاته بالسفينة: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾ (هود) وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة/ باب من قاتل للرياء والسمعة، من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمعنى في هذا أن المؤمن قريب أن يجمع الله له بين العاقبتين، العاقبة في الدنيا بالتوفيق والإعانة والخلف والثناء الحسن وزيادة الخير بسبب عمله الطيب مع ما له في الآخرة من الجنة والنعيم المقيم والخير الكثير، فيكون له عاقبتان، عاقبة عاجلة على عمله الصالح بتوفيق الله له وهدايته له وبسطه له في الرزق وإعلاء ذكره، ثم عاقبة أخرى في الآخرة بالجنة والمنازل العالية.

فإن فاتته في الدنيا هذه العاقبة بأن فُتن أو أصابه مرض أو ذهب ماله لم تفته العاقبة الأخرى في الآخرة، فله المنزلة العالية والخير الكثير في الآخرة.

أما صاحب الدنيا وصاحب الرياء والمقاصد الأخرى فهذا ليس له عاقبة في الآخرة، بل له عذاب في الآخرة -نسأل الله العافية- وفي الدنيا قد يحصل له شيء، فقد يحصل له فائدة من ثناء الناس أو إعطائه مالاً أو نحو ذلك ممن يجود عليه أو يثني عليه ولكن ليس له عاقبة في الآخرة.

وقد يجمع له بين الأمرين، فلا عاقبة في الدنيا ولا عاقبة في الآخرة، نسأل الله العافية. اهـ

والفرقان أن يحمد من ذلك ما حمده الله ورسوله، فإن الله تعالى هو الذي حمده زين وذمه شين دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم، ولهذا لما قال القائل من بني تميم للنبي ﷺ: إن حمدي زين وذمي شين قال له: «ذاك الله»[(١)].

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٧) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة الحجرات، من حديث البراء بن

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومعنى «ذاك الله» يعني هو الذي ذمه يضر الضرر العظيم ومدحه ينفع النفع العظيم ، لأن مدحه له العاقبة الحميدة وذمه له العاقة الوخيمة ، أما ذم المخلوقين ومدحهم فأمره أسهل ، فمتى استقام العبد على أمر الله وحفظ حدود الله لم يضره ذم الذامين ، ومتى ضيع أمر الله وضيع حدود الله لم ينفعه مدح المادحين ، ومصيره إلى ما أخبر الله به عنه مما يستحقه ، وإن ضره ذم الذامين بعض الشيء في الدنيا أو نفعه مدح المادحين في الدنيا ببعض النفع لكن ليس له عاقبة ، والمدح الذي يزول وينتهي والذم الذي يزول وينتهي ولكن ليس له عاقبة أمره سهل ، ولهذا قال : «ذاك الله» هو الذي مدحه زين وذمه شين .اهـ

والله سبحانه حمد الشجاعة السماحة في سبيله كما في الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله : الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١) .

وقال سبحانه : ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (الأنفال : ٣٩) ، وذلك أن هذا هو المقصود الذي خلق الله الخلق له كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

= عازب رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب ، والحديث صححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي .

(١) رواه البخاري (٢٨١٠) كتاب الجهاد والسير/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمارة/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العيا فهو في سبيل الله ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(الذاريات)، فكل ما كان لأجل الغاية التي خلق له الخلق كان محمودا عند الله وهو الذي يبقى لصاحبه وينفعه الله به، وهذه الأعمال هي الباقيات الصالحات، ولهذا كان الناس أربعة أصناف:

من يعمل لله بشجاعة وبسماحة فهؤلاء هم المؤمنون المستحقون للجنة.

ومن يعمل لغير الله بشجاعة وسماحة فهذا ينتفع بذلك في الدنيا وليس له في الآخرة من خلاق.

ومن يعمل لله لكن بلا شجاعة ولا سماحة فهذا فيه من النفاق ونقص الإيمان بقدر ذلك.

ومن لا يعمل لله ولا فيه شجاعة ولا سماحة فهذا ليس له دنيا ولا آخرة.

قال سماحة رحمه الله الشيخ: هذه الأقسام الأربعة وإن كانت واضحة لكنها فائدة جيدة بحسن نقلها لأنها فائدة جيدة - وإن كانت معلومة - جاء بها هذا الإمام. أهـ

فهذه الأخلاق والأفعال يحتاج إليها المؤمن عموما وخصوصا في أوقات المحن والفتن الشديدة، فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم ودفع الذنوب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم، ويحتاجون أيضا إلى أمر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم، وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه وإن كان يسيرا على من يسره الله عليه.

وهذا لأن الله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ (الحج) .

وكما قال : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ (غافر) .

وكما قال تعالى : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ (المجادلة) وكما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ (الصافات) ، وقال : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (المائدة) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا من توفيق الله للعبد ، فإذا وفق الله العبد استعمله في هذا الخير وصار جندا من جنوده في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه الذي شرعه الله ، فينفق ويصبر في هذا السبيل ويشجع غيره لهذا السبيل ، فيكون ممن اختاره الله لهذا الأمر وجعله من جنده ومن حزبه المفلحين بسبب صبره على طاعة الله وقيامه بأمر الله وإحسانه إلى عباد الله ودعوتهم إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وهذه صفة الأخيار الذين هم من أولياء الله سبحانه وتعالى .

والواجب على أهل العلم في هذا الخير غير الواجب على الناس ، فالواجب على طلبة العلم من الدعوة والتوجيه والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر من الواجب على غيرهم ، لأن الله أعطاهم من النعمة ما لم يعط غيرهم ، وأعطاهم من العلم ما لم يعط غيرهم ، فعليهم من الواجب أكثر ، لكن مع العناية

بالحكمة وتقديم الأمور ووضع الأشياء في مواضعها حتى تحصل الفائدة في دعوته وأمره ونهيه ونحو ذلك ، مع تحري الصبر على ما قد يصيبه من الأذى والكلام ، وبذلك يرفعه الله الدرجات ويكون له نصيب وافر من اتباع الرسل والسير على منهاجهم حسب صبره وعلمه وفضله وتقواه لله وقيامه بأمره ، ولا سيما في أوقات الغربة كهذه الأوقات في هذا العصر وفي غالب الدنيا ، فالمسلمون وغير المسلمين في أشد الحاجة إلى الدعوة بالحكمة والكلام الطيب والأسلوب الحسن والأدلة الواضحة والصبر على الأذى .أهـ.

ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة

كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ (التوبة :٤٩) الآية ، وقد ذكروا في التفسير أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي ﷺ بالتجهز لغزو الروم وأظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : «هل لك في نساء بني الأصفر؟»

فقال : يا رسول الله إني رجل لا أصبر على النساء وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر فائذن لي ولا تفتني. (١)

قال سماحة الشيخ رحمه الله : «هل لك في نساء بني الأصفر»؟ يعني غزو الروم وقتالهم وسبي نسائهم .أهـ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ، قوله تعالى : «ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني» والطبراني في الكبير (١٢٤٨٦) والوسط (٥٧٦٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٩٥ : فيه يحيى الحماني وهو ضعيف .

وهذا الجد هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة واستتر بجمل أحمر، وجاء فيه الحديث أن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر(١).

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ (التوبة : ٤٩)، يقول إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء فلا يفتتن بهن فيحتاج إلى الاحتراز من المحظور ومجاهدة نفسه عنه فيتعذب بذلك أو يواقعه فيأثم، فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها فإن لم يتمكن منها إما لتحريم الشارع وإما للعجز عنها تعذب قلبه وإن قدر عليها وفعل المحظور هلك، وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قوله ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ قال تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ (التوبة : ٤٩)، يقول إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟

والله تعالى يقول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (الانفال : ٣٩)، فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده وتركه ما أمر الله به من الجهاد، فتدبر هذا فإن هذا مقام خطر.

والناس فيه على قسمين: قسم يأمرون وينهون ويقاتلون طلباً لإزالة الفتنة، زعموا ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة كالمقتتلين في الفتن الواقعة بين الأمة مثل الخوارج.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٠) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وأقوام يتكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا لئلا يفتنوا وهم قد سقطوا في الفتنة ، وهذه الفتنة المذكورة في سورة براءة دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة فإنها سبب نزول الآية .

وهذه حال كثير من المتدينة ، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين لله وتكون به كلمة الله هي العليا لئلا يفتنوا بجنس الشهوات ، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه ، وإنما الواجبة عليهم القيام بالواجب من الأمر والنهي وترك المحظور والاستعانة بالله على الأمرين .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ومعناه أنهم ـ أي المتدينة ـ يتظاهرون بشيء يتحسنون به أمام الناس أنه ورع وأنه خوف من الوقوع في المحرمات ، وقد يقعون فيما هو أشد منه .

وهذا باب عظيم يقع فيه كثير من الناس ، فمن الناس من يترك الدعوة إلى الله ويقول : أخشى أني لا أقوم بالواجب ، وآخر يقول : لا أستطيع أن آمر بمعروف ولا أنهى عن منكر أخشى أن أقصر وأخشى كذا ، والآخر يقول : لا أستطيع الجهاد أخشى أني أنكل وأخشى أني أضعف وقت الجهاد لأني أقصّر ، وكل هذا من تزيين الشيطان وتلبيسه ، والواجب على المؤمن أن يعمل ويستعين بالله ويترك الظن السوء ويترك العجز والكسل ، ويدعو إلى الله ويجاهد نفسه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد نفسه على أن يفعل وعلى أن يمتثل ، ويكون أسبق الناس إلى الخير وإلى ترك الشر .

وهكذا الجهاد يجاهد ويشارك المؤمنين ويستعين بالله ويسأل ربه العون والتوفيق وأن يعينه على الجهاد .

وهكذا في أمور أخرى مثل بره لوالديه وصلة أرحامه ونصر المظلوم والإعانة على فعل الخيرات ، فلا يجزم ، ولا يقول أخاف أخاف ، فإن الناس إذا فعلوا هذا وكل واحد قال أخاف ؛ عُطِّلت الأوامر والنواهي وعُطِّل الجهاد وعُطِّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعُطِّلت الدعوة إلى الله .

فالواجب على المؤمن أن تكون همته عالية وأن يعمل ويجتهد ويتقي الله ويسأل ربه العون ، فلا يكسل ولا يضعُف فيترك الحبل على الغارب .أهـ

ولو فرض أن فعل الواجب وترك المحظور وهما متلازمان وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعا أو تركهما جميعا ، مثل كثير ممن يحب الرياسة أو المال أو شهوات الغي ، فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهي وجهاد وإمارة ونحو ذلك فلا بد أن يفعل معها شيئا من المحظورات ، فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين فإن كان المأمور أعظم أجرا من ترك ذلك المحظور لم يترك ذلك لما يخاف أن يقترن به ما هو دونه في المفسدة ، وإن كان ترك المحظور أعظم أجرا لم يفوت ذلك برجاء ثواب فعل واجب يكون دون ذلك ، فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات ، فهذا هذا وتفصيل ذلك يطول .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : كأن المقام يقتضي أن تكون العبارة : «ولو فرض أنه فعل الواجب . . .» وكأن هناك سقط ، ولو كانت العبارة «ولو فرض أنه ترك فعل الواجب أو فعل المحظور» كانت العبارة تناسبه ، فالعبارة فيها خلل[1] .

والخلاصة من هذا الكلام أن الداعي إلى الله الآمر بالمعروف والناهي عن

---

(١) وهو كما قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله ، فإن الجملة فيها سقط كما نبه عليه أحد المحققين الذين قابلوا النسخ ، والله أعلم .

المنكر والمجاهد يتحرى ما هو الأقرب إلى مرضاة الله وما هو الأقرب إلى صلاح العباد، فيتحرى ويجتهد، فحيث رأى هذا الواجب -الذي يرى أنه واجب- يترتب عليه محظور أكبر ترك ذلك لتلافي المحظور الذي يكون أكبر من فعله لهذا الواجب، وهكذا العكس، فلو رأى أن عمله يترتب عليه محظور أكبر وهو يعتقد أنه هذا المحظور إذا فعل كذا وكذا وُجِد فإنه يجتنب ذلك الذي يريد فعله، وإن كان يستحسنه، وإن كان يرى أنه طيب، إذا كان يترتب عليه محظور أكبر وضرر على المسلمين، فهو يتحرى ترك أشد الأمرين خطرا وفعل ما هو أوجب الأمرين وإن فات الآخر.

هذا هو القاعدة: ترك إحدى المصلحتين لتحصيل الكبرى وارتكاب أدنى المفسدتين لتفويت المفسدة الكبرى.

فلا بد في الجهاد والأمر والنهي وغير ذلك من مراعاة هذه القواعد. أهـ

وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهي ولا بد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها إما بمعروف وإما بمنكر كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف).

فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته، ولا بد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك، فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض وإذا اجتمع اثنان فصاعدا فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر، ولهذا كان أقل الجماعة في الصلاة اثنين، كما قيل: الاثنان فما فوقهما جماعة، لكن لما كان ذلك اشتراكا في مجرد الصلاة حصل باثنين أحدهما إمام والآخر مأموم، كما قال النبي ﷺ لمالك ابن الحويرث وصاحبه

رضي الله عنهما : «إذا حضرت الصلاة فأذنا وأقيما وليؤمكما أكبر كما»[١] وكانا متقاربين في القراءة .

وأما في الأمور العادية ففي السنن أنه ﷺ قال : «لا يحل لثلاثة يكونون في سفر إلا أمروا عليهم أحدهم»[٢] .

وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم ، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله ويؤمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله وإلا فلا بد من أن يأمر وينهى ويؤمر وينهى إما بما يضاد ذلك وإما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني الذي لم ينزل الله شريعته ، فالباطل ما أنزل الله شريعته بل أنزل النهي عنه كالبدع ، فهذه البدع ما أنزلها الله ولم يشرعها فهي باطلة .اهـ

وإذا اتخذ ذلك دينا كان دينا مبتدعا ضالا باطلا .

وهذا كما أن كل بشر فإنه حي متحرك بإرادته همام حارث ، فمن لم تكن نيته صالحة وعمله عملا صالحا لوجه الله وإلا كان عملا فاسدا أو لغير وجه الله وهو الباطل كما قال تعالى : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ (الليل) .

---

(١) رواه البخاري (٢٨٤٨) كتاب الجهاد والسير/ باب سفر الاثنين ، ومسلم (٦٧٤) كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب من أحق بالإمامة ، من حديث مالك بن الحويرث ﷺ .

(٢) رواه أحمد في المسند (٦٨٠٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٤/ ٨٢ : رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجال أحمد رجال الصحيحين .

وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝﴾ (محمد).

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝﴾ (النور)، وقال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝﴾ (الفرقان).

وقد أمر الله تعالى في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝﴾ (النساء).

وأولو الأمر أصحاب الأمر وذووه وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس.

كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأحمسية لما سألته ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم[1].

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والأئمة هم الأمراء والعلماء وهم أولو الأمر،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٨٣٤) كتاب مناقب الأنصار/ باب أيام الجاهلية، عن قيس بن أبي حازم.

يجب أن يأمروا بأمر الله وينهوا عن نهي الله ، ويجب على الناس أن يسمعوا لهم ويطيعوا فيما يأمرونهم بأمر الله وينهونهم عن نهي الله ، وبذلك تصلح أمورهم ، فإذا أخل هؤلاء أو هؤلاء فسد الأمر ، فإذا لم يأمر ولاة الأمور بالخير وينهوا عن الشر ، أو أمروا ونهوا ولم يُستجب لهم فسدت الأمور ، والله المستعان .أهـ

ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان وكل من كان متبوعا فإنه من أولي الأمر .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني أمراء القرى وأمراء المدن وشيوخ القبائل وكل إنسان متبوع كمدير دائرة فهذا متبوع ، وأمير على شيء له أتباعه وله أعوانه ، والمقصود كل من له أعوان وله أتباع يرَصَعون ويتبعون أمره يجب عليه هذا ، يجب عليه أن يأمر بأمر الله وينهى عن نهي الله ، ويجب أن يطاع في المعروف بما ييسر .أهـ

وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به وينهى عن ما نهى الله عنه ، وعلى كل واحد ممن عليه طاعته أن يطيعه في طاعة الله ولا يطيعه في معصية الله .

كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين تولى أمر المسلمين وخطبهم فقال في خطبته : أيها الناس القوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم القوي عندي حتى آخذ له الحق أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم[1] .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : «فلا طاعة لي عليكم» يعني في المعصية التي

---

(١) البيهقي في السنن الكبرى (١٢٧٨٨) وابن سعد في الطبقات الكبرى / ذكر بيعة أبي بكر ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٠/ ٣٠٢

عصاها ، وليس معناه إزالة الولاية ، وأن يطاع في طاعة الله ولا يطاع في معاصي الله مع بقاء الولاية وعدم جواز الخروج ما لم يوجد كفر بواح .أهـ

فصل

وإذا كانت جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين : أن يراد بها وجه الله وأن تكون موافقة للشريعة فهذا في الأقوال والأفعال في الكلم الطيب والعمل الصالح في الأمور العلمية والأمور العملية العبادية .

ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن أول ثلاثة تسجر بهم جهنم رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن وأقرأه ليقول الناس هو عالم وقارئ ورجل قاتل وجاهد ليقول الناس هو شجاع وجرئ ورجل تصدق وأعطى ليقول الناس هو جواد وسخي[(١)] فإن هؤلاء الثلاثة الذين يريدون الرياء والسمعة هم بإزاء الثلاثة الذين بعد النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين ، فإن من تعلم العلم الذي بعث الله به رسله وعلمه لوجه الله كان صدّيقا ، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وقتل كان شهيدا ، ومن تصدق يبتغي بذلك وجه الله كان صالحا .

ولهذا يَسأل المفرّط في ماله الرجعة وقت الموت كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : من أعطي مالا فلم يحج منه ولم يزك سأل الرجعة وقت الموت وقرأ قوله تعالى : ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝﴾ (المنافقون) .[(٢)]

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة/ باب من قاتل للرياء والسمعة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي في السنن (٣٣١٦) كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة المنافقين .

ففي هذه الأمور العلمية الكلامية يحتاج المخبر بها أن يكون ما يخبر به عن الله واليوم الآخر وما كان وما يكون حقا وصوابا ، وما يأمر به وما ينهى عنه كما جاءت به الرسل عن الله ، فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة المتبع لكتاب الله وسنة رسوله ، كما أن العبادات التي يتعبد العباد بها إذا كانت مما شرعة الله وأمر الله به ورسوله كانت حقا صوابا موافقا لما بعث الله به رسله ، وما لم يكن كذلك من القسمين كان من الباطل والبدع المضلة والجهل ، وإن كان يسميه من يسميه علوما ومعقولات وعبادات ومجاهدات وأذواقا ومقامات .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : والمعنى في ذلك أن كل العلوم التي ليست على أساس شرعي هي جهل ، وقصور أعمال ليست على علم وعلى بصيرة فهي جهل ، وإنما تنفع العلوم وتنفع الأعمال إذا كانت عن علم وعن بصيرة موافقة للشرع ، وعن إخلاص لله ونية طيبة حتى تنفعه علومه وتنفعه أعماله .

فالعلوم التي لا أساس لها من الشرع جهل وإن نفعته في الدنيا ، فهي جهل لأنها لم تعنه على طاعة الله ولم تجعله من عباد الله الصالحين .

وهكذا الأعمال التي يفعلها رياء وسمعة أو على غير علم تضره ولا تنفعه ، وإنما ينفعه علمه وعمله إذا كان لله وكان مطابقا لشريعة الله وما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام .

فالذي يقرأ ويتعلم لغير الله يضره ذلك ، أو يقرأ ويتعلم ولا يعمل يضره ذلك كاليهود ، ومن يعمل على غير الشريعة يكون مبتدعا ، ومن يعمل على الشريعة لكن لغير لله ، بل للرياء ، يكون أيضا مبطلا ضالا ، نسأل الله السلامة .

فلا بد من علم نافع ولا بد من نية صالحة ، ولا بد من عمل صالح موافق للشرع .أهـ

ويحتاج أيضا أن يؤمر بذلك لأمر الله به وينهى عنه لنهي الله عنه ويخبر بما أخبر الله به لأنه حق وإيمان وهدى كما أخبرت به الرسول ، كما تحتاج العبادة إلى أن يُقصَد بها وجه الله ، فإذا قيل ذلك لاتباع الهوى والحمية أو لإظهار العلم والفضيلة أو لطلب السمعة والرياء كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء .

ومن هنا يتبين لك ما وقع فيه كثير من أهل العلم والمقال وأهل العبادة والحال وأهل الحرب والقتال من لبس الحق بالباطل في كثير من الأصول فكثيرا ما يقول هؤلاء من الأقوال ما هو خلاف الكتاب والسنة أو ما يتضمن خلاف السنة ووفاقها وكثيرا ما يتعبد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها بل قد نهى عنها أو ما يتضمن مشروعا ومحظورا ، وكثيرا ما يقاتل هؤلاء قتالا مخالفا للقتال المأمور به أو متضمنا للمأمور به ومحظور .

ثم كل من الأقسام الثلاثة المأمور به والمحظور والمشتمل على الأمرين قد يكون لصاحبه نية حسنة وقد يكون متبعا لهواه وقد يجتمع له هذا وهذا .

فهذه تسعة أقسام في هذه الأمور في الأموال المنفقة عليها من الأموال السلطانية الفيء ، وغيره والأموال الموقوفة والأموال الموصى بها والأموال المنذورة وأنواع العطايا والصدقات والصلات ، وهذا كله من لبس الحق بالباطل وخلط عمل صالح وآخر سيئ ، والسيء من ذلك قد يكون صاحبه مخطئا أو ناسيا مغفورا له كالمجتهد المخطئ الذي له أجر وخطؤه مغفور له ، وقد يكون صغيرا مكفرا باجتناب الكبائر وقد يكون مغفورا بتوبة أو بحسنات تمحو السيئات أو مكفرا بمصائب الدنيا ونحو ذلك ، إلا أن دين الله الذي أنزل به كتبه وبعث به رسله ما تقدم من إرادة الله وحده بالعمل الصالح .

وهذا هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد غيره قال تعالى : ﴿ وَمَن

يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران).

والإسلام يجمع معنيين أحدهما: الاستسلام والانقياد فلا يكون متكبرا والثاني: الإخلاص من قوله تعالى: ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ (الزمر ٢٩)، فلا يكون مشركا وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الأنعام).

والإسلام يستعمل لازما معدّى بحرف اللام مثل ما ذكر في هذه الآيات ومثل قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النمل).

ومثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (الزمر).

ومثل قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران).

ومثل قوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام).

ويستعمل متعديا مقرونا بالإحسان كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (النساء)، فقد أنكر الله أن يكون دين أحسن من هذا الدين هو إسلام الوجه لله مع الإحسان وأخبر أنه كل ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ

رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة) أثبت هذه الكلمة الجامعة والقضية العامة ردا لما زعمه من زعمه أنه لا يدخل الجنة إلا متهود أو متنصر، وهذان الوصفان وهما إسلام الوجه لله والإحسان هما الأصلان المتقدمان وهما كون القول والعمل خالصا لله صوابا موافقا للسنة والشريعة، وذلك أن إسلام الوجه لله هو يتضمن إخلاص القصد والنية لله كما قال بعضهم :

أستغفر الله ذنبا لست محصيه
رب العباد إليه الوجه والعمل

وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ : إسلام الوجه وإقامة الوجه كقوله الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف : ٢٩)، وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم : ٣٠)، وتوجيه الوجه كقول الخليل : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنعام).

وكذلك كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح في صلاته : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنعام).

وكان يقول إذا أوى إلى فراشه : اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك رواه البراء بن عازب في الصحيح أيضاً.(١)

---

(١) رواه البخاري (٦٣١١) كتاب الدعوات/ باب إذا بات طاهراً، ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

فالوجه يتناول المتوجه بكسر الجيم والمتوجه بفتح الجيم إليه، ويتناول التوجه نفسه كما يقال: أي وجه تريد أي: أي جهة وناحية تقصد، وذلك أنهما متلازمان فحيث توجه الإنسان توجه وجهه ووجهه مستلزم لتوجهه وهذا في باطنه وظاهره جميعا، فهي أربعة أمور والباطن هو الأصل والظاهر هو الكمال والشعار فإذا توجه قلبه إلى شيء تبعه وجهه الظاهر، فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسنا فقد اجتمع له أن يكون عمله صالحا وأن يكون لله تعالى، كما قال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف).

وهو قول عمر رضي الله عنه: اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا.

والعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله وهو الموافق لكتاب الله وسنة رسوله، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله وكان محسنا في عمله فإنه مستحق للثواب سالم من العقاب.

ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يجمعون هذين الأصلين كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك ٢) قال: أخلصه وأصوبه، فقيل له: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، وإذا كان خالصا

ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة[(١)].

وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبير قال: لا يقبل قول إلا بعمل ولا يقبل قول وعمل إلا بنية ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة[(٢)] ورويا عن الحسن البصري مثله ولفظ ما روي عن الحسن: لا يصلح مكان لا يقبل.

وهذا فيه رد على الذين يجعلون مجرد القول كافيا، فأخبر أنه لا بد من قول وعمل المرجئة إذا الإيمان قول وعمل لا بد من هذين كما قد بسطناه في غير هذا الموضع وبينا أن مجرد تصديق القلب ونطق اللسان مع البغض له وشرائعه والاستكبار على الله وشرائعة لا يكون إيمانا باتفاق المؤمنين حتى يقترن بالتصديق عمل صالح.

وأصل العمل عمل القلب وهو الحب والتعظيم المنافي للبغض والاستكبار ثم قالوا: لا يقبل قول وعمل إلا بنية وهذا ظاهر، فإن القول والعمل إذا لم يكن خالصا لله لم يقبله الله تعالى، ثم قالوا: لا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة وهي الشريعة وهي ما أمر الله به ورسوله ﷺ، لأن القول والعمل والنية الذي لا يكون مسنونا مشروعا قد أمر الله به يكون بدعة وكل بدعة ضلالة ليس مما يحبه الله فلا يقبله الله ولا يصلح مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب.

ولفظ السنة في كلام السلف يتناول السنة في العبادات وفي الاعتقادات،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية (٥٠-٥١) وأبو نعيم في حلية الأولياء/ ٩٨٨.

(٢) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ٥٧ سياق ما روي عن النبي ﷺ في ثواب من حفظ السنة ومن أحياها ودعا إليها.

وإن كان كثير ممن صنف في السنة يقصدون الكلام في الاعتقادات ، وهذا كقول ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي الدرداء رضي الله عنهم : اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة وأمثال ذلك .

فصل في الإكراه وما يتعلق به

إن الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور ، وقيّد الإيجاب بالاستطاعة والوسع وأباح مما حرم ما يضطر المرء إليه غير باغ ولا عاد ، فقال تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) ، وقال : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن : ١٦) .

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[١] فأوجب مما أمر به ما يستطاع ، وكذلك فإن النبي ﷺ قال في حديث آخر : «إنكم لن تحصوا أو تستطيعوا كل ما أمرتم به ولكن ...» .

وقال : «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة[٢] ، والقصد القصد تبلغوا .[٣]

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، ومسلم (١٣٣٧) كتاب الفضائل/ باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٣٩) كتاب الإيمان/ باب الدين يسر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٦٤٦٣) كتاب الرقاق/ باب القصد والمداومة على العمل من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال تعالى في صفة هذا النبي : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

وهذا العام المجمل فصله فقال لما أوجب الصيام : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

وقال لما ذكر التيمم : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة : ٦) .

وقال : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج : ٧٨) .

وقال لما أوجب الجهاد : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (التوبة : ٩١) .

وقال تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ (النساء : ٩٥) .

وقال في الهجرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ

حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ (النساء).

وقال تعالى في الإنفاق: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: ٢١٩).

وقال في العموم: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وثبت في الصحيح أن الله تعالى قال: قد فعلت، وأن النبي ﷺ لم يقرأ بحرف منها إلا أعطيه(١).

وقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق).

وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (الأعراف: ٤٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (الأنعام: ١٥٢).

---

(١) مسلم (١٢٥) و(١٢٦) كتاب الإيمان/ باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس، من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم.

وقال: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء).

وقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ (النساء: ١٠١).

وقال: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل: ٢٠).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: أنه قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه».

وقال في المحرمات: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ (النحل)، وفي الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الأنعام)، وهاتان في السورتين المكيتين الأنعام والنحل.

وقال في السورتين المدنيتين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ (البقرة).

وفي الآية الأخرى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (المائدة).

فهذا في تحريم المطاعم قد رفع الإثم عمن اضطر غير باغ ولا عاد، والباغي والعادي قد قيل إنهما صفة للشخص مطلقا فالباغي كالباغي على إمام المسلمين وأهل العدل منهم كما قال تعالى: ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الحجرات: ٩).

والعادي كالصائل قاطع الطريق الذي يريد النفس أو المال وقيل إنهما صفة لغير المضطر، فالباغي الذي يبغي المحرم مع قدرته على الحلال، والعادي الذي يتجاوز قدر الحاجة، كما قال: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ (المائدة: ٣).

وقال تعالى في المناكح: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (النساء: ٢٥) إلى قوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ

سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ (النساء)
﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء)

وقال أيضا في محظورات العبادات كالإحرام: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٦)، ثم قال: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ (البقرة: ١٩٦).

وفي الصلاة الخوف قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ﴾ (النساء: ١٠٢).

وقال في محظور الكلام بالكفر: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾ (النحل).

وقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ (آل عمران).

وقال في محظور الفعال: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ

تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النور) .

فأباح سبحانه عند الإكراه أن ينطق الرجل بالكفر بلسانه إذا كان قلبه مطمئنا بالإيمان ، بخلاف من شرح بالكفر صدرا وأباح للمؤمنين أن يتقوا من الكافرين تقاة مع نهيه لهم عن موالاتهم ، وعن ابن عباس أن التقية باللسان ، ولهذا لم يكن عندنا نزاع في أن الأقوال لا يثبت حكمها في حق المكره بغير حق فلا يصح كفر المكره بغير حق ولا إيمان المكره بغير حق كالذمي الموفى بذمته كما قال تعالى فيه : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

بخلاف المكره بحق كالمقاتلين من أهل الحرب حتى يسلموا إن كان قتالهم إلى الإسلام أو إعطاء الجزية إن كان القتال على أحدهما كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (التوبة) .

وكما قال النبي ﷺ : «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[1] ، ولهذا لم يصح بيع المكره بغير حق وشراؤه وسائر

---

(١) رواه البخاري (٢٥) كتاب الإيمان / باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان/ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

عقوده المالية ولا نكاحه وطلاقه وسائر عقوده البضعية ولا يمينه ونذره وسائر العقود التي أكره عليها بغير حق، بخلاف ما أكره عليه بحق كالدين إذا وجب عليه بيع ماله لوفاء دينه.

وكما في الصحيح عن أبي هريرة قال: بينما نحن عند النبي ﷺ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدارس فقام النبي ﷺ فناداهم فقال: «يا معشر يهود أسلموا تسلموا قالوا: قد بلغت يا أبا القاسم فقال: ذلك أريد ثم قال الثانية فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم ثم قال الثالثة فقال: اعلموا إنما الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض فمن وجد منكم بماله شيئا فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله»(١).

وكالمبايع للنبي ﷺ ما أمره الله أن يبايع عليه، وعلى هذا يخرج المكره على البيعة للأمير إذا كان مكرها هل هو مكره بحق أو بغير حق؟ وهل هو مبايع على ما أمره الله أن يبايع عليه أو على غير ذلك؟ وقد يتأول بعض أهل الأهواء هذه الآيات على غير تأويلها، كتأويل الرافضة أنهم هم المؤمنون وأن سواهم كافرون، فقد يستعملون معهم التقية ولهم في ذلك من الباطل ما ليس هذا موضعه، وأما الإكراه على الأفعال المحرمة فهل يباح بالإكراه؟ على قولين هما روايتان عن أحمد إحداهما: لا تباح الأفعال المحرمة كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر بالإكراه بخلاف الأقوال كما قال ابن عباس إنما التقية باللسان، ولأن الأفعال يثبت حكمها بدون القصد حتى من المجنون وغيره بخلاف الأقوال فإنه يعتبر فيها المقصد.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٤٤) كتاب الإكراه/ باب في بيع المكره ونحوه في الحق وغيره، ومسلم (١٧٦٥) كتاب الجهاد والسير/ باب إجلاء اليهود من الحجاز.

والثانية: وهي أشهر أنها تباح بالإكراه كما تباح المحرمات بالاضطرار، فإن المكره قد يخاف من القتل أعظم مما يخاف المضطر غير باغ ولا عاد، ولأن المضطر يتناوله الاضرار لفظا أو معنى فإنه مضطر غير باغ ولا عاد.

وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ (النور).

وهذا في الأفعال المحرمة لحق الله فيها، فأما قتل المعصوم فلا يباح بالإكراه بلا نزاع لأنه ليس له أن يحيي نفسه بموت ذلك المعصوم وليس ذلك بأولى من العكس بل طلبه إحياء نفسه بالاعتداء على غيره ظلم محض، وإذا كان المضطر إلى إطعام نفسه ليس لغيره أن يأخذه منه عند الاضطرار فليس لأحد أن يقتل غيره ليحيى هو نفسه، بل هذا ظلم وعدوان وهو موجب للقود على المكرَه والمكره في مذهب أحمد والمشهور من مذهب الشافعي لاشتراكهما في الفعل، هذا بالمباشرة المحرمة وهذا بالتسبب المفضي إلى الفعل غالبا.

وقيل: إنما يجب على المكرِه الظالم لأن المكرَه قد صار كالآلة، وهذا قول أبي حنيفة.

وقيل: بالعكس وهو قول زيد وهو قول رديء فإنه لحظ ظاهر المباشرة أو السبب وهذا في المكره، الذي يفعل بإرادة إكراه عليها.

ولهذا صح أن يقال في هذا المكرَه: هو مريد مختار، وصح أن يقال: ليس بمختار فإن المختار من له اختيار وإرادة، وهذا المكره إرادته واختياره الذي هو فيه أن لا يفعل ذلك الفعل الذي أكره عليه، ولكن لما ألجئ بما يوقع به من العذاب

إلى إحداث اختيار آخر وإرادة أخرى يفعل بها ما أكره عليه صح إثبات الاختيار والإرادة له باعتبار ما أحدثه الإكراه فيه، وصح نفي ذلك باعتبار أنه من نفسه ليس له اختيار ولا إرادة بل إرادته واختياره في نفي ذلك الفعل .

وحقيقة الأمر أن له إرادتين : الإرادة الأصلية أن لا يفعل هذا بل هو كاره له مبغض له نافر عنه ولا طريق له إلى ذلك إلا فعل ما أكره عليه فصارت فيه إرادة ثانية تخالف الأولى لهذا السبب ، فهذا المكره وإن كان عاقلا إنما يفعل بغير إرادته واختياره الأصلي ، فهو يفعل بإرادة أخرى واختيار آخر ويفعل أيضاً بقدرته ولهذا صح أن يرد على فعله الأمر والنهي والإباحة فيقال : يباح له التكلم ويحرم عليه قتل المعصوم ، وإما إن أكره الرجل على الزنا فإذا قال بعض الفقهاء إنه لا يكون مكرها إذ أنه فاعل بقدرة واختيار لم يصح ذلك ، وكذلك الجائع الفقير الذي سرق ليأكل لا إثم عليه وقد اضطر إلى تلك الإرادة والاختيار لمخمصته فالضرر الذي لحقه ألجأه إلى هذه الإرادة والفعل .

فأما المفعول به الفعل الذي هو محل غيره وآلة له مثل المرأة أو الصبي الذي يشد ويربط ويفجر به ومثل الذي يوجر الخمر ويلد بها من غير قصد أصلا ولا فعل أصلا كما يلذ النائم الذي لا شعور له وكما يحقن المريض النائم الذي لم يشعر بالحقنة فهذا لا فعل له أصلا بل هو محل لفعل غيره وآلة له ، وإذا لم يكن منه فعل لم يقل إنه فعل محرما ولا غير محرم بل غيره فعل فيه أو به محرما ، فالإثم حينئذ على ذلك الفاعل ، لكن إن صدر منه نوع تمكين بأن لا يستفرغ وسعه في الامتناع أو نوع إرادة بأن لا تكون إرادته جازمة في الامتناع فذلك فيه نوع فعل .

والإرادة الجازمة هي التي يقترن بها القدرة ، فالمكره على شيء إنما يمتنع

بمقدار ما يقدر عليه من الامتناع عما يفعل به ، فمتى كانت إرادة الإنسان جازمة في الامتناع فلا بد أن يفعل مقدوره ومتى فعل مقدوره كان بمنزلة الممتنع الكامل الامتناع الذي لم يفعل به شيء فإن الإرادة الجازمة المقترن بها كمال القدرة يجري صاحبها مجرى الفاعل التام في الثواب والعقاب .

فالمستكره على الزنا به من امرأة أو صبي يكون استكراهه إما بالكراهة حتى لا يريد التمكين وهو القسم الأول ، وإما بأن يفعل به مع كمال امتناعه وهو كمال إرادته في الامتناع بحيث يفعل مقدوره في الامتناع ، ولو لم يمتنع حتى فعل به كان مطاوعا وكان زانيا وإن لم يطلب ذلك لأن الله أوجب عليه كمال النفور عن ذلك والغيرة منه والبغض له بحيث يقرن بذلك كمال الامتناع ، فإذا لم يوجد منه هذا النفور وهذا الامتناع كان مطاوعا فإن دفع الصائل عليا لحرمة واجب بلا نزاع .

وأما دفع الصائل على النفس الذي يريد قتل المعصوم بغير حق إذا لم يكن القتال في فتنة فهل يجب دفعه؟

فيه قولان هما روايتان عن أحمد أن الممكن ليس بفاعل بل ولو أراد مريد قتله وجب عليه ذلك كما يجب عليه الأكل من الميتة عند المخمصة ، فكما يحرم عليه قتل نفسه يجب عليه فعل ما لا تبقى النفس إلا به من طعام وشراب ودفع ضرر بلباس ونحو ذلك ، فإذا أمكنه الهرب ونحوه وجب عليه ذلك .

وأما إذا كان دفع الصائل عن نفسه يحتاج إلى قتال الصائل فهنا فيه محذور آخر وإن كان جائزا وهو قتل الآخر ، فلهذا خرج الخلاف في وجوب دفعه عن نفسه .

وأصل هذا أن الذي لم يرد الفعل المحرم به عليه أن يبغضه بغضا تاما يقترن به

فعل المقدور من الدفع ، فإذا لم يوجد ذلك فهو تارك لما وجب عليه من البغض والدفع وهل يكون مريدا له؟ فالمزني به من غير فعل ولا إرادة ولا كمال بغض ودفع هل يقال إنه مريد زان؟ وهل يقال عن المقتول من غير فعل منه ولا إرادة ولا كمال بغض ودفع إنه مريد لقتل نفسه قاتل؟ أو يقال : بل ليس بمبغض ولا ممتنع؟ وهل انتفاء البغض والامتناع مستلزم للإرادة والفعل؟

وسبب الاشتباه أن الإنسان قد يخلو عن إرادة الشيء وكراهته وحبه وبغضه كما يخلو عن التصديق بالشيء والتكذيب له ، فكم من أمور يحبها من وجه ويبغضها من وجه .

فالأقسام أربعة : إما مراد وإما مكروه وإما مراد مكروه وإما غير مراد ولا مكروه ، ولكن اذا كان المقتضي لإرادة المقدور قائما فإنما يوجب وجود إرادته وفعله إلا المانع ، وكذلك إذ كان المقتضي لبغض فعل المحرم به والامتناع من ذلك قائما .

فإذا لم يوجد البغض والامتناع فلا بد من معارض مانع وذلك هو المقتضي للإرادة والتمكين ، فالإنسان قد لا يريد الشيء ولا يكرهه لعدم سبب الإرادة والكراهة ، فأما مع وجود المقتضي فلا بد من وجود مقتضاه إلا المانع ، فلهذا من لم يبغض ولم يمتنع عن فعل المحرم به مع قدرته على الامتناع فإنه يكون مريدا فاعلا ، ولهذا يقال إنه مطاوع وإن كان قد يجتمع في قلبه البغض لذلك والإرادة باعتبارين كما يجتمع في قلب المكره على الشيء إرادة فعل المكره عليه وكراهة ذلك باعتبارين :

فمن أوجر طعاما محرما يقدر على الامتناع منه فلم يفعل أو فعل به فاحشة يقدر على الامتناع منها فلم يفعل كانت معصيته بترك ما وجب عليه من الكراهة

والامتناع ويفعل ما نهى من الإرادة والمطاوعة، ولا يكون غير مريد ولا فاعل إلا إذا كان كارها تام الكراهة وذلك يوجب فعل المقدور عليه من الامتناع.

فأما إذا كان كارها كراهة قاصرة فإن الإرادة تصحب مثل هذه الكراهة وفي مثل هذا يصحبها الفعل لا محالة لأن المقتضي لكمال الكراهة قائم وهو ما في ذلك من الحرمة والعقوبة، فإذا لم تحصل هذه الكراهة فإما لضعف المقتضي وهو العلم في ذلك من الحرمة والعقوبة، وإما لوجود المانع وهو نوع من الإرادة عارض للبغض أو سببه إما وجود لذة من الفعل وإما رغبة في عوض وإما رهبة أوجبت إرادة المكره، وحينئذ فيكون بمنزلة الفاعل لرغبة أو رهبة لا يكون بمنزلة عديم الفعل.

ولهذا مضت الشريعة بأن المطاوعة زانية وكذلك المفعول به من الذكران كما قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ (النور).

ولو ادعى مدع أن المفعول به إذا لم يوجد منه إرادة ولا حركة في الفعل لم يكن فاعلا لم يقبل ذلك بل يقال: لولا وجود إرادة توجب البغض المقتضي للامتناع لم يكن فاعلا.

وقد ذكر الفقهاء الملموس هل تنتقض طهارته كاللامس؟ على قولين هما روايتان عن أحمد وكذلك الموطوءة في رمضان هل تجب عليها كفارة أخرى؟ على هذا يظهر الفرق في الأحكام بين الممكن من فعل الفاحشة به والممكن من قبل نفسه.

وفي الجملة فإن فعل الفاحشة حرام لا يباح بحال ولا يباح بما يقال إنه

ضرورة ، بخلاف تمكين الإنسان من قبل نفسه فإن جنس هذا يباح ، بل كما فعل عمار ، والأول حال أكابر الصحابة .

وقد أخرجا في الصحيحين عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال : «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تعجلون»[(١)] .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : وهذا في مكة ، وكان المشركون قد شددوا على المسلمين ، فلهذا أخبرهم النبي ﷺ أنه لابد من صبر .أهـ.

ومعلوم أن هذا إنما ذكره النبي ﷺ في معرض الثناء على أولئك لصبرهم وثباتهم وليكون ذلك عزة للمؤمنين من هذه الأمة .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني بصبرهم ، يتأسون بهم فيكون في ذلك عبرة ، ولكن «عزة» معناه يصبرون فيكون عزة لهم ، فيصبرون كما صبروا .أهـ.

سؤال/ تصلح العزة عزاء؟ هل يعبر بها عن العزاء؟

أجاب سماحته رحمه الله : ما هو بمحتمل وما مر بي قط التعبير بالعزة عن العزاء .أهـ.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٢) كتاب مناقب الأنصار/ باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

سؤال/ ألا يكون إشارة للحديث : « ثلاثة أقسم عليهن : ولا صبر أحد على مظلمة إلا زاده الله بها عزاً»؟

أجاب سماحته رحمه الله : لا ، يحتمل هذا ليكون عزة للمؤمنين ، يعني أخبار الماضين وصبرهم يكون عزة للمؤمنين لأجل صبر المؤمنين الآخرين ، إذا تأسوا بهم صار من أسباب العزة .

لكن قد تكون العبارة «عبرة للمؤمنين» يعتبرون بهم بدل «عزة» وهو محتمل ، لكنها متقاربة ، فعزة وعبرة متقاربة .أهـ

وقد دل على ذلك أيضا ما ذكره الله في قصة أصحاب الأخدود حيث قال :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (البروج ١٠) .

وقد روى مسلم في صحيحه عن صهيب قصتهم مبسوطة(١) .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : قصة الساحر مع الملك ، وهو الغلام الذي يتردد بين الساحر وبين العابد .

حديث صهيب المشهور في صحيح مسلم أنه كان ملك له ساحر وكان هناك عابد وكان الساحر لما كبرت سنه قال : التمسوا لي غلاماً ذكياً أعلمه حتى يحل محلي إذا مت ، فالتمسوا غلاماً ، فصادف أن الغلام مر على عابد من بني إسرائيل كان يعلمه ويفقهه حتى كان من شأنه ما يشفي به المرضى وشفى الله على يديه جليساً للملك كان أعمى فرد الله عليه بصره .

فالقصة معروفة ذكرها في رياض الصالحين وغيره(٢) أهـ

(١) الحديث رقم (٣٠٠٥) كتاب الزهد والرقائق/ باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام .

(٢) تقدم الحديث .

فيها أن الراهب صبر حتى قتل ، وأن الغلام أمر بقتل نفسه لما علم أن ذلك سبب لإيمان الناس إذا رأوا تلك الآية .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : لأنه قال : لا تقدر على قتلي حتى تأخذ سهماً من كنانتي فتصلبني على جذع ثم تقول : بسم الله رب الغلام ، وترمي به فتصيبني ، فأسلم الناس بعد ذلك .أهـ

وأن الناس لما آمنو فتنهم الكفار حتى يرجعوا عن دينهم فلم يرجعوا ، حتى أن المرأة التي أرادت أن ترجع أنطق الله صبيها وقال : اصبري يا أماه فإنك على الحق .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ (البقرة : ٢١٧) .

وقال تعالى : ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الأعراف) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ (إبراهيم).

وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ (غافر)، وقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ (الأعراف).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: هذه سنة الله في عباده، من استقام على الحق وثبت عليه وجاهد نفسه في ذلك جعل الله له العاقبة الحميدة، وإن كان قد يبتلى وقد يقتل، ولكن هذا في القليل النادر، والأغلب أن العاقبة تكون لهم وأنهم ينصرون ويقتل عدوهم ويهلك عدوهم، كما جرى لنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم. اهـ

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام) وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ اهـ

وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (البقرة)

قال سماحة الشيخ رحمه الله: ولولا هذا الامتحان والبلاوي لدخل الناس كلهم في دين الله، ولما بقي كافر ولا بقي مشرك ولا عاص، لكن هذا الابتلاء والامتحان لأولياء الله، والإمهال لأعداء الله؛ هو الذي حصل به جرأة الناس على الباطل وتكبرهم على الحق، حتى جرى ما جرى على المسلمين، وحتى جرى ما جرى من انتشار الكفر في سائر الأرض، ولهذا قال عزوجل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ وقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾.

وله الحكمة البالغة في كفر هؤلاء وإيمان هؤلاء وصلاح هؤلاء وفسق هؤلاء، إلى غير هذا، ابتلاء وامتحاناً لهذه الدار، ليعظم أجر المؤمنين ولترفع درجاتهم، وليعظم إثم الكافرين وتعظم عقوباتهم، نسأل الله السلامة. اهـ

وهكذا أخبار هذه الأمة من السلف والخلف كالممتحنين من السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان مثل الذين أنزل الله فيهم القرآن حيث قال: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (النساء).

وفي الهجرة قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ (النساء: ٩٩).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يدعو في صلاته: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة وسلمه بن هشام اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»(١).

قال سماحة الشيخ رحمه الله: هؤلاء صحابة أجلاء عظماء حبسهم الكفار في مكة، فيدعو لهم النبي ﷺ في مكة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وليكونوا عظة لغيرهم وسلفا لغيرهم في الصبر والثبات على الحق وإن أوذوا في ذلك، حتى كان خير الخلق يدعو لهم في صلاته: اللهم أنج فلان وأنج فلان وهم بين أعداء الله لحكمة بالغة. أهـ

وفي الصحيح أيضا في حديث الحديبية قصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو لما جاء يرسف في قيوده ورده النبي ﷺ إليهم وقصة أبي بصير وغيرهما من المستضعفين.(٢)

---

(١) رواه البخاري (١٠٠٦) كتاب الوتر/ باب دعاء النبي ﷺ «اجعلها سنين كسني يوسف» ومسلم (٦٧٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قصة أبي جندل وأبي بصير رواها البخاري في صحيحه (٢٧٣١-٢٧٣٢) كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط من حديث المسور بن مخرمة ومروان.

وكذلك في الصحيح عن سعيد بن زيد أنه قال لقد رأيتني وإن عمر موثقي على الإسلام ولو انقض أُحُد مما عملتم بعثمان كان محقوقا أن ينقض[(١)].

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني أن عمر عذب ابن عمه سعيدا في الإسلام ثم هدى الله عمر ، ويقول سعيد : ولو أن أحدا انقض ـ يعني تدكدك ـ من شدة ما فعلوا بعثمان من الأذى والظلم لكان جديرًا بذلك ، ومع هذا جرى ما جرى ، وهو الخليفة الراشد وثالث الخلفاء ومشهود له بالجنة ، آذوه وعذبوه حتى قتلوه ، والله المستعان .أهـ

فهؤلاء كلهم اختاروا القيد والحبس على النطق بكلمة الكفر ، وقد أوذي النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وغيرهما بأنواع من الأذى بالضرب وغيره وصبروا على ذلك ولم ينطق أحد منهم بكلمة كفر ، بل قد سعوا في قتل النبي ﷺ بأنواع مما قدروا عليه من السعي وهو صابر لأمر الله كما أمره الله تعالى .

وإن كان النبي ﷺ قد أخبر في أثناء الأمر بأن الله يعصمه من الناس ، فلم يكن قد أخبر أولا بأنه يعصم من أنواع الأذى .

وأما السابقون فلم يخبروا بذلك ، وكذلك خبيب بن عدي الذي صلبه المشركون حين أخرجوه من الحرم ولم يتكلم بكلمة الكفر وقصته في الصحيح[(٢)] ، لكن قد يقال : إن هذا لم يكن قصدهم منه أن يعود إلى دينهم فإنه كان من الأنصار ، وكانوا يقتلونه بمن قتل منهم يوم بدر ، بخلاف أقاربهم وحلفائهم ومواليهم فإنهم كانوا يحبونهم ويكرمونهم ولم يكونوا يريدون منهم إلا الكفر بعد الإيمان .

---

(١) رواه البخاري (٦٩٤٢) كتاب الإكراه/ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر .

(٢) رواها البخاري (٧٤٠٢) كتاب التوحيد/ باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد ذم الله في كتابه من يرتد ويفتتن ولو أكره، وهذا هو الذي ذمه الله بقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ (النحل: ١٠٦) وكذلك يذم من يترك الواجب الظاهر ويفعل المحرم الظاهر عندما يصيبه من الأذى والفتن كما قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٧)، الآية كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ (الحج) وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (العنكبوت)

وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ (البقرة: ٢١٤).

وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (آل عمران).

وقال لما ذكر الردة التي استثنى منها المكره وقلبه مطمئن بالإيمان: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (النحل)، ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (النحل)، نزلت في الذين فتنهم المشركون حتى أصابوهم ثم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا وصبروا، فأخبر الله أنه غفر لهم ورحمهم، فعلم أن تلك الفتنة كانت من ذنوبهم، وذلك إما لعدم الإكراه التام المبيح للنطق بكلمة الكفر وإما لعدم الطمأنينة بالإيمان فلا يستحق صاحبه الوعيد.

وعلى من أكره على الخروج في العساكر الظالمة مثل أن يكره المستضعفون من المؤمنين على الخروج مع الكافرين لقتال المؤمنين كما أخرج المشركون عام بدر معهم طائفة من المستضعفين؛ فهؤلاء إذا أمكنهم ترك الخروج بالهجرة أو بغيرها وإلا فهم مفتونون وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ (النساء: ٩٧)، لأنهم فعلوا المحرم مع القدرة على تركه.

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه فلقيت عكرمة فأخبرته فنهاني أشد النهي ثم قال: أخبرني ابن عباس أن أناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ فيأتي السهم فيرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (النساء)(١)

(١) الحديث رقم (٧٠٨٥) كتاب الفتن/ باب من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم.

وأما إذا كانوا غير قادرين على الترك بحيث لو لم يخرجوا لقتلهم المشركون ونحو ذلك فهؤلاء غير مأثومين في الآخرة لما روي أن النبي ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش من الناس فبينما هم ببيداء من الأرض إذ خسف بهم» فقالت أم سلمة: ففيهم المكره يا رسول الله قال: «يحشرون على نياتهم»(١).

وفي الصحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «ستكون فتنة القاعد فيها خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به»(٢) وفي رواية: «فإذا وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ومن كان له غنم فليلحق بغنمه ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه» فقال رجل يا رسول الله: أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين يضربني رجل بسيفه ويجيء سهم فيقتلني قال: «يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار»(٣).

فقد أمر ﷺ بالهجرة إلى حيث لا يقاتل وبإفساد السلاح الذي يقاتل به في الفتنة، وأخبر أن المكره لا إثم عليه.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: والمكره - مثل ما تقدم - له شرطان: الإكراه وكونه يعجز عن التخلص.

---

(١) رواه البخاري (٢١١٨) كتاب البيوع/ باب ما ذكر في الأسواق، من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٢٨٨٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٣٦٠١) كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم (٢٨٨٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب نزول الفتن كمواقع القطر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب نزول الفتن كمواقع القطر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والطمأنينة بالإيمان ، فإذا أكره وقلبه مطمئن بالإيمان فلا شيء عليه ، والإثم على من أكرهه .

فأما إذا خرج من غير إكراه أو خرج فيها ولكن اطمئن إليهم ؛ فليس بمكره ، نسأل الله العافية ، باء بإثم ذلك .اهـ

ولما كان القتال في الفتنة كان قاتله قاتلا له بغير حق فباء بإثمه وإثم صاحبه ، وأما المكره الذي يقاتل طائفة بحق كالذي يكون في صف الكفار والمرتدين والمارقين من الإسلام فلا إثم على من قتله بل هو مثاب على الجهاد وأن أفضى إلى قتله كما قال النبي ﷺ للعباس : «أما ظاهرك فكان علينا وأما سريرتك فإلى الله»[(١)] .

وقد أخرجا في الصحيحين عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : «إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم يبعثون على نياتهم»[(٢)]

فهذا أيضا دليل على أن المكره على تكثير سواد المقاتلين بغير حق -وإن أصابه عذاب الدنيا- فإنه يحشر في الآخرة على نياته .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : ويجوز أن يقاتلوه حتى ولو عرفوا أنه مسلم ، مادام مع الكفار وإن اعتقدوا أنه مكره ، لكن لهم أن يقاتلوه فإنه في صف العدو لا يستطيعون التخلص من ذلك ، فهم غير آثمين بل مأجورون ، لأنهم إنما يقاتلون العدو ومن ساعد العدو ، وهو يبعث على نيته ، فإن كان صادقاً في أنه مكره فلا إثم عليه ، وإن كان غير صادق فقد سلم الناس من شره ولم يغتروا به .

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٣٢٢

(٢) رواه البخاري (٧١٠٨) كتاب الفتن/ باب إذا أنزل الله بقوم عذابا ، ومسلم (٢٨٧٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

لكن لو علم أنه مكره ويمكن أن يتخلص بعدم قتاله فينبغي له ذلك، هذا لو علم وتيقن ذلك، لكن مع الصفوف وهم يقاتلون وهو يقاتل معهم فهذه علامة أنه رضي بحالهم وشاركهم، نسأل الله السلامة.

أو كان مكرها لكن لم يستطع التخلص عن القتال فيقتل لدفع شره.

وعليه أن يمسك ولا يقاتل إلا إذا دفع عن نفسه فقط، لكن أصل الإكراه عذر، لكنه لا يقاتل، فإن استطاع أن لا يقاتل فلا يقاتل. اهـ

فهذا كله يدل على أنه ليس كل مكره على فعل محرم يأثم به كأشهر الروايتين وهو الذي عليه جمهور العلماء.

ومن ذلك مقام المسلمين بين المشركين مستضعفين وقد دل القرآن على هذا وعلى هذا.

ومنه استئسار المسلم إذا أكرهه الكافر وقال: إن لم تستأسر وإلا قتلتك فإن دخوله في أسره محرم لولا الإكراه، وقد فعل ذلك خبيب بن عدي وغيره وهم في ذلك كالمستضعفين.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: لا حرج في أن يستأسر لأنه قد يسلم، فيستأسر لئلا يقتل، فقد يسلم، وقد يسهل الله أمره فيفدى أو يصلح صاحبه فيطلقه، لكن لو أبى وقُتل فلا حرج عليه. اهـ

سؤال/ الصبر أفضل من الإكراه؟

أجاب سماحته رحمه الله: الصبر أفضل من الموافقة، هذا هو الأصل، إلا إذا رأى أن في الصبر مصلحة للمسلمين عامة وأكثر من الموافقة على قتله فيعمل ما هو أصلح. اهـ

وقد دل على ذلك نص القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى

ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النور)، فإذا كان هذا في الإكراه على البغاء فالإكراه على شرب الخمر وأكل الميتة دون ذلك، فإن الزنا من أكبر الكبائر بعد القتل كما دل النبي ﷺ على ذلك عندما سئل أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا» الحديث إلى قوله ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾»[1] (الفرقان: ٦٨).

ومعلوم أن المكرهات من الإماء على البغاء كما كان ابن أبيّ وأمثاله يكرهون إماءهم على الاكتساب بالبغاء ليس هو أن يفعل بها بلا فعل منها، بل هو أن تكره حتى تقصد ذلك وتفعله ولهذا سماه بغاء، وذلك القسم ليس فيه بغاء ولهذا قال: ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (النور: ٣٣)، وذلك إنما يحصل في العادة لمن تفعل لا بمن تربط حتى يفعل بها، ولأن ذلك هو العادة المعروفة التي نزل القرآن عليها، فهذه الآية في فعل الفاحشة، وتلك الآية في الدخول تحت حكم الكفار، وكلاهما من الأفعال.

وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر قال كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئا قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ (النور: ٣٣).[2]

---

(١) رواه البخاري (٦٨١١) كتاب الحدود/ باب إثم الزناة، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان/ باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الحديث رقم (٣٠٢٩) كتاب التفسير/ باب في قوله تعالى: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء»

وفي رواية أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة كان يريدهما على الزنا فشكيا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية[(١)].

وقد ذكر البخاري ما رواه الليث عن نافع أن صفية بنت أبي عبيد أخبرته أن عبدا من رقيق الإمارة وقع على وليدة من الخمس فاستكرهها حتى افتضها فجلده عمر الحد ونفاه ولم يجلد الوليدة من أجل أنه استكرهها[(٢)].

وقال الزهري في الأمة البكر يفترعها الحر يقيم ذلك الحكم من الأمة العذراء بقدر ثمنها ويجلد.

وليس في الأمة الثيب في قضاء الأئمة غرم ولكن عليه الحد.

وهذه مسألة المستكرهة على الزنا والأمة المطاوعة والكلام في المهر ليس هذا موضعه.

وذكر ما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «هاجر إبراهيم بسارة دخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل إليّ بها فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلي فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك فلا تسلط علي الكافر فغط حتى ركض برجله»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٣٠٢٩) كتاب التفسير/ باب في قوله تعالى: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء».

(٢) الحديث رقم (٦٩٤٩) كتاب الإكراه/ باب إذا استكرهت المرأة على الزنا فلا حد عليها لقوله تعالى: «ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم».

(٣) رواه البخاري (٢٢١٧) كتاب البيوع/ باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، وروى القصة أيضا مسلم (٢٣٧١) كتاب الفضائل/ باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام، وفيه «فقبضت يده قبضة شديدة» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن المعلوم أن الذين كانوا يكرهون الإماء لم يكن بوعيد القتل بل بالضرب ونحوه ، فإذا أكرهت المرأة أو الصبي على الفجور به بمثل ذلك : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور) ، ولهذا قيل في المطلقة ثلاثا إذا كتم الزوج طلاقها ولم يكن لها حجة أنها تقيم عنده لأنها مكرهة على ذلك ولا يحل لها قتله .

والمستكرَهة على الزنا في وجوب المهر فلها أن تأخذ ما أعطاه من مهرها .

قال سماحة الشيخ رحمه الله : يعني إذا أكرهها فلا بأس أن تأخذ لأنها مظلومة ، وإن تركت أو أخذته وتصدقت به فحسن ، أما مهر البغي الممنوع هو للمطاوعة ، وحرام عليها أن تأخذ وعليها التوبة .

فهي مكرهة لأنها مظلومة فأخذها ما أعطاها بسبب ظلمه لها إن أكلته فلا بأس لأنها بدون مطاوعة ، وإن تصدقت به فلا بأس ، وأما الحديث « مهر البغي خبيث »[1] فهي البغي التي ترضى بهذا نسأل الله العافية .أهـ

سؤال/ الفائدة الربوية تقاس على هذا؟

---

(١) رواه مسلم بلفظ « شر الكسب مهر البغي » من حديث رافع بن خديج ((١٥٦٨) كتاب المساقاة والمزارعة/ باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي والنهي عن بيع السنور ، وفي الصحيحين من حديث أبي مسعود البدري مرفوعا بلفظ : « نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن » البخاري (٥٣٤٦) كتاب الطلاق/ باب مهر البغي والنكاح الفاسد ، ومسلم (١٥٦٧) كتاب المساقاة والمزارعة/ باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي والنهي عن بيع السنور .

والحديث بلفظه رواه الحاكم في المستدرك (٢٢٧٨) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي ، وكذا رواه البيهقي في السنن ٦/ ١٢٦ باب كسب الإماء ، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥٣٨٨) وقال : صحيح .

أجاب سماحته رحمه الله: مثلها، صدقة، الفائدة الربوية لا تؤكل، فتصدق بها أو في مشاريع أخرى، لكن لا يتعاقد معهم على الربا ويقول أتصدق! لا، لكن لو فعل وقبضها يصرفها في وجوه الخير، مع التوبة إلى الله. أهـ

سؤال/ بعض الناس يأكلها عمداً ويدعي أنه مكره!

أجاب سماحته رحمه الله: لاشك أن كونه يتفق معهم على الربا أن هذا لا يجوز، لأن الله حرم عليه الربا، فلا يتفق معهم ولو قال سأتصدق. أهـ

ومن لم يوجب لها المهر فهل لها أن تأخذ ذلك إذا أعطته طوعاً أم يكون من مهر البغي وإنما الأجود إذا لم يحل ذلك أن يأخذ ما يعطيه الفاجر ويصرفه في مصالح المسلمين أو يتركه له؟

فأما إذا أخذ العوض لأجل المستقبل فهذا مطاوعة، اللهم إلا إذا كان الإكراه مستمراً والمكره مستمر الكراهة لما يفعل به لا يحمله إلا مجرد الإكراه، وهذا يدخل فيه من يقهر من المماليك واليتامى وغيرهم على الفاحشة به.

ومن أسرة العدو من المسلمات فزنوا بهن فإن منهم من يكون كارها لذلك تام الكراهة لا يفعل ذلك إلا مكرها فهذا لا يستحق العقوبة، ومنهم من تجتمع فيه الرهبة والرغبة فيخاف في الامتناع من العذاب ويعطى على المطاوعة العوض.

قال سماحة الشيخ رحمه الله: لا شك أن المكره فيه تفاصيل، فالمكرهون أقسام كثيرة، لكن مثل ما قال جل وعلا: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فإذا كان المكره في التوحيد والشرك لو فعل إذا كان صادقاً مطمئن القلب؛ فهكذا المكره على المعاصي لا

شيء عليه ، وإنما الإثم على من أكرهه ، إذا علم الله منه أنه مكره وأنه ممتنع ولكن عجز ، أما إذا تساهل فعليه نصيب من الإثم بقدر تساهله ، نسأل الله السلامة . أهـ

آخر الجزء الثاني والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

ثم تكمل في النصف من شهر صفر سنة سبعة وعشر وسبعمائة

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	نبذة عن سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية
١٩	نبذة عن سيرة الشيخ عبد العزيز بن باز
٢٧	الرأي المحدث في الأصول وفي الفروع
٤١	قوله تعالى: (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم)
٥١	فصل فيما اختلف فيه المؤمنون من الأقوال والأفعال في الأصول والفروع
٧٠	فصل مهم عظيم القدر
٨٥	لفظ الحركة أثبته طوائف من أهل السنة والحديث
٩٠	اعتراف أكثر أئمة أهل الكلام والفلسفة من الأولين والآخرين
٩٢	فصل فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيري في رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية
١٤٤	الاستثناء في الإيمان
١٤٦	القدر السابق لاينافي الأسباب
١٦٠	تكفير المعيّن
١٩٢	لما خلق الله الأحرف جعلها سراً فلما خلق آدم بث ذلك السر فيه
٢٠٦	فصل في الحديث الذي في الصحيحين عن جويرية أم المؤمنين لما خرج النبي ﷺ من عندها ثم رجع إليها فوجدها تسبح بحصى
٢٠٩	فصل يتعلق بالسماع

فصل في محبة الجمال ٣٩٩
فصل في الغَيْرة وأنواعها ٤٥٠
ما وقع من الإشراك في لفظ الغيرة في كلام المشايخ أهل الطريق ٤٥٨
فصل فيما ذكره الأستاذ أبو القاسم القشيري في باب الرضا عن الشيخ أبي سليمان الداراني رحمه الله أنه قال: الرضا أنْ لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار ٥٠٨
الرضا في سبيل الله وطريقه ودينه من وجوه ٥٤٧
فصل في السكر وأسبابه وأحكامه ٥٦٨
اللذة والسرور أمر مطلوب بل هو مقصود كل حي ٥٧٨
السكر مؤلف من أمرين: وجودي وهو اللذة، وعدمي وهو عدم العقل والتمييز ٥٨٦
جنس عدم العقل والفقه لا يحمد بحال في الشرع بل يحمد العلم والعقل ويؤمر به أمر إيجاب أو أمر استحباب ٥٨٩
زوال العقل بالسكر هو من نوع زواله بالإغماء والجنون ٥٩١
أحد وصفي السكر منفعة في الأصل والوصف الآخر إثم ٥٩٤
لما اهبط آدم ومن معه إلى الأرض ٦٠٢
فصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٦٣٠
جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين: أن يراد بها وجه الله وأن تكون موافقة للشريعة ٧١٥
فصل في الإكراه وما يتعلق به ٧٢٣
الفهرس ٧٥٣